

الرحلة المحجازية

لولي النعم الحاج عباس حلمي الثاني خديوي مصر

بقلم

محمد ليب البثوني

obeyikan.com

إلى سمو ولي النعم الأنعم

لقد شرفني مولاي حفظه الله بخدمة ركابه العالي في حجه المبرور. لذلك رأيت قيامًا بواجب شكر آلائه، وحمد نعمائه، أن أمثل صورة هذه الرحلة الميمونة في هذا السفر، وأن أكتب معها كلمة عما في هاتيك الأرجاء الشريفة من المواقف المقدسة، يرى المطلع عليها كل ما تهمة معرفته منها.

وقد رأيت أن أضيف إليها في هذه الطبعة من تاريخ الدول العربية وجغرافية جزيرة العرب ما تكون به الفائدة أعم، والمنفعة أعظم.

وهأنا يا مولاي أرفعها لأعتابكم السنية بيد الإجلال والإعظام، هدية للإسلام والمسلمين، وخدمة للعلم والتاريخ. وغاية المأمول إسعادها بالقبول.

العبد المخلص

محمد ليب البثوني



MUSEUM & ANGELER, CAIRO

الحاج عباس حلمي الثاني في خديو مصر

ولد بمطلة الله في عمرة جمادى الثانية سنة ١٢٨٦ (١١ يوليو سنة ١٨٦٩)، وجلس على عرش الخديوي في جمادى الثانية سنة ١٣٠٢ (١٢ يناير سنة ١٨٨٥).

كتاب صاحب العطوفة رئيس مجلس النظار إلى المؤلف

تفضل صاحب العطوفة رئيس مجلس النظار فأرسل إلى صاحب كتاب «الرحلة الحجازية» بكتاب ثناء على مؤلفه، يرى المطلع من خلال كلماته ذلك النور الذي يضيء للناس لمحجة التي تسلكها هذه الحكومة السعيدة السعيدة لترقية الأمة، بتنشيط المعارف، وتربية المدارك، والنهوض بالهمم إلى الدركة التي تناسب مع الحياة الحصيفة. فهو إذا شكر الكاتبين، وحمد المجتهدين، فإنما يشكر نفسه ويحمد اهتمامه بمصلحة البلاد، من الطريق الأنفع والسبيل الأصلح. جزاه الله عن الأمة خير الجزاء.

وإننا نشرف بأن نذكر هنا هذا الكتاب الكريم بكل إجلال وتعظيم، ووجودنا كله شكر لعطوفته على هذه العناية الكبرى والرعاية العظمى.

القاهرة في ٢٦ ذي الحجة سنة ١٣٢٨هـ/ ٢٨ ديسمبر سنة ١٩١٠م

عزيزي لبيب بك:

أمعنتُ النظر في كتابكم الجديد الموسوم بـ«الرحلة الحجازية»، فرأيت فيه آيات البراعة في التحرير والتحرير، وأعجبني منكم التعويل على التحقيق والتدقيق، وأمل وطيء في أن ينسج الكاتبون على منوالكم المفيد، حتى يكون القارئ مشاركاً للكاتب في عواطفه، مرافقاً له في حله وترحاله، وتلك عندي أفضل وسيلة لتربية الملكات وترقية المدارك. أمّا ما زينتم به صحائف الكتاب

من الرسوم فقد زاد في قيمته الثمينة، وقد تحلت بها تلك المعاهد المقدسة
للأنظار، وتمثلت تلك المشاهد المباركة للعيان. هذا فضلاً عن المباحث
العمرانية في فلسفة الحج، فقد أفضتم فيها بقلمكم السيال، وجردتم هذا
الموضوع الجليل مما اعتوره من الشوائب على طول الزمان، وأبرزتموه في حلته
الأولى وبهجته الصحيحة، وفقكم الله للقيام بأمثال هذه الخدمة للأمة،
والسلام.

رئيس مجلس النظار

محمد سعيد

مقدمة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على مَنْ أُرسل رحمة للعالمين. أمّا بعد؛ فقد شرفني مولاي الخديوي الأعظم بتعييني مندوباً خصوصياً في خدمة ركابه العالي مده سفره إلى الأقطار الحجازية، وبعد عودة سموه بسلامة الله أسعدني بصدور أمره الكريم إلى هذا العاجز بوضع شيء عن هذه الرحلة المباركة.

ولما كانت هذه البلاد غير معروفة للآن كما يجب لذوي البصيرة والعرفان، مع أنه يقصدها سنوياً أكثر من مائتي ألف نفس من المسلمين، وكل ما كتب عن رحلة الحاج إليها لا يخرج عن بعض المناسك التي يصل المطلع في كثرة شعابها ووعورة طرقها ومجالها، مما يزيد ارتباكاً وجهالة -رأيت أن أضيف إلى الرحلة الخديوية كلمة عن المشاعر الدينية المقدسة، مبتعداً عن النزعات التي ألحقتها بها مبالغة الوهم أو مغالبة العرض، ما اتخذه أعداء المسلمين وسيلة إلى الطعن عليهم في دينهم الذي جل ما تعرفوا به منه إنما أخذوه عن أولئك الجهلاء الذين رُزئ بهم الإسلام، فيكيلون لهم الكلام جزافاً من غير ما يشعرون بأنهم به ينتحرون!!

لذلك سلكت في هذا الطريق مسالك التحقيق والتدقيق، حتى جاءت كلمتي فيه والحمد لله مسفرة عن حقيقة الحج، مبينة الغرض منه، شارحة

مناسكه بعبارة هينة لينة سهلة على كل مسترشد وضرورة لكل من قصد سفرًا إليه أو معرفة به.

وإني قيامًا بهذا الواجب الأقدس لم أقصر على الكلام في النقط الدينية؛ بل تناول بحثي ما يهم القارئ من المسائل العمرانية، والاجتماعية، والجغرافية، والتاريخية، مما لم يسبقني إليه أحد من الذين كتبوا عن هذه الديار، راجيًا بذلك الخدمة العامة للعلم والإسلام.

وتتميمًا للفائدة قد وضعت في هذا السفر المبارك كثيرًا من الخريط الجغرافية، والرسوم النظرية التي وضعتها بنفسي، والصور الفوطوغرافية التي أخذت بمعرفة بعض من كان في معية الجناح العالي الخديوية وسواهم من أفاضل المصورين الذين سبق لهم السفر إلى تلكم الأرجاء من مصريين وغيرهم، ووضعت للحرمين الشريفين رسمًا نظريًا معتمدًا على الأبعاد التي وضعها لهما المرحوم «محمد صادق باشا المصري» وغيره من مهندسي الأتراك. ورسمت كروكي مكة، ومنى، وعرفة، والمدينة مستمدًا من بعض الرسوم القديمة المأخوذة عن الكرويكات التي وضعها «بوركار» في أوائل القرن الماضي لهذه الجهات التي لم تختلف كثيرًا في هيئتها ونظام أبنيتها وعمراتها عما كانت عليه من قرون مضت.

هذا وإني أشرف بتكرار عبارات الشكران إلى صاحب العطفة رئيس مجلس النظر على تنشيطه للعاملين بإعلان رضاه عن هذا العمل وثنائه عليه، رافعًا واجب الامتنان إلى نظارة معارفنا الجليلة، وخصوصًا إلى ناظرها صاحب السعادة «حشمت باشا» على تقرير هذا الكتاب للمطالعة بمدارس الحكومة، مُسديًا آيات الحمد إلى من أسعدوني بتقريضه من أهل الفضل والعرفان: أخص بالذكر منهم صاحبي الدولة والفخامة البرنس «حسين كامل باشا» والبرنس «فؤاد باشا» رئيس الجامعة المصرية، ومولانا الأستاذ الشيخ «سليم البشري»

شيخ الجامع الأزهر، والأستاذ الشيخ «عبد الكريم سلمان»، وجناب المستشرق الكبير والعالم الجليل الألماني الميسو «شوينفورت» والعلامة الفرنسي الميسو «دفلير»، وجناب الميسو «ماسيرو» مدير الانتكخانة المصرية، وغيرهم من أكابر العلماء والكتّاب لاسيما حضرات أصحاب الجرائد المصرية عربية وأفرنكية، سواء الذين استقبلوه بالمنة أو انتقدوه بإخلاص.

وهنا أقدم عاطر ثنائي إلى السادة الأفاضل الذين نبهوني إلى ما جرنى إليه السهو أو السرعة في العمل، مما أصلحته في هذه الطبعة التي عنيت بها، وأكملت فيها الكلام على ما أهملته في بعض مواضيع الكتاب في الطبعة الأولى، وأخص بشكراني حضرة صديقي الفاضل «محمد كمال بك» الذي ساعدني بشيء كثير من معلوماته الثابتة عن جزيرة العرب التي أقام فيها زمناً.

ولقد أضفت إلى الكتاب في هذه المرة بعض الصور الفوطوغرافية التي تزيد في فائدته، كما أضفت إليه أبواباً مهمة جداً مثل: سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، وتاريخ الخلفاء الراشدين، وعقدت به باباً لبيت المقدس، وآخر للقرايين وأصولها في جميع الديانات، وبعد كمال طبع الكتاب وجدت أن أضيف إليه تمهيداً عن وصف جزيرة العرب الحالية وتاريخ جميع الدول العربية التي قامت قبل وبعد الإسلام، استرسل القلم فيه بما لم يمكنني إيقافه إلى الحد الذي يتناسب مع كتابة الرحلة. وقد أضفت إلى ذلك جداولاً مهمة جداً بملوك بعض هذه الدول، وبأشرف مكة والمدينة، وقبائل العرب الموجودة الآن، وعملت شجرة لأمهات القبائل العربية من قحطانية وعدنانية وقرشية، مما لم يسبقني لمثلها أحد من المؤرخين، والله المسؤول أن ينفع به بمنه وكرمه.

محمد ليب البثوني

obeyikan.com

تمهيد

لما كانت بلاد العرب يقصدها سنوياً نحو ربع مليون من المسلمين لتأدي فريضة الحج، رأيت أن أكتب عنها كلمة تمحضها مما ألصقته بها الأوهام، وشوّهته الرواة على مدى الأيام. وقد رأيت أن أقسم الكلام فيها إلى قسمين: قسم نتكلم فيه عن أمة العرب وأصلها وقبائلها وبطونها ودولها قبل الإسلام وبعده، باختصار جمع إليه ما تشتت من الحقائق في كتب التاريخ، وقسم نتكلم فيه عن صفة جزيرة العرب الحاضرة وعشائرها وحكوماتها مما تعمض معرفته على كثير من الناس، فنقول -وبالله التوفيق-:

الأمة العربية

الأمة العربية من أبعد الأمم وجوداً، وأطولها عمراً، وأوسعها سلطاناً؛ بل من أقدم الأمم مدنية وعمراناً. ولقد كان لها قبل الإسلام من الدول ما يتحلى جيد التاريخ بذكره، كما كان لها بعده ذلك الملك الشاسع الأطراف، البعيد الأكفاف، الذي كان له الشأن الأول في سياسة العالم بأسره مدة من الزمن طويلة.

وقد رأيت أن أقسم الأمة العربية بالنسبة لأصولها إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: العماليق أو العرب البائدة.

الثاني: العرب القحطانية.

الثالث: العرب العدنانية.

العماليق

العماليق هم أولاد «عمليق بن لاوذ بن سام» وأول ما وصلنا من أمرهم أنهم كانوا يسكنون على حالة بدواة في الصحراء التي بين العراق والعقبة. وكانوا ينقسمون إلى فصائل صغيرة تنتقل من جهة إلى أخرى وراء الكلاء، وكانت لهذه الفصائل مشيخات منها تقوم بطبيعة الحال بتدبير أمورهم، وكان ذوو العصية منهم يشتغلون بنقل التجارة بين بابل ومصر. وما زالوا على هذه البدواة حتى كبرت عصبيتهم، وتغلبوا على بابل، وقامت بها منهم في القرن الخامس والعشرين قبل المسيح دولة يسمونها دولة الساموآيين من (بني سام بن نوح). وما زالوا بها حتى ظهر منهم في القرن الثالث والعشرين قبل المسيح ملك اسمه «حمورابي»، فتغلب على مملكة آشور وما حولها، وأصبحت له مملكة واسعة، بلغت في زمنها أسمى ما وصلت إليه أية دولة لذلك العهد في الرقي الأدبي والمادي، وسميت بمملكة حمورابي. واستمرت هذه الدولة حاكمة إلى أواخر القرن الحادي والعشرين قبل الميلاد: يعني مدة أربعة قرون تقريباً. وقد عثر النقبون الذين يعملون في آشور وبابل لهذه الدولة على كثير من الآثار التي تدل على رقيهم في مدنيّتهم، مكتوبة بالخط المسماري^(١)، مما حكموا معه بأنهم أبعد الأمم رقيّاً في حضارتهم.

(١) الخط المسماري أخذه العماليق عن السومريين الذين كان لهم الملك قبلهم على بابل. وإنما سمي بذلك لأنهم كانوا يكتبونه أولاً بـ «وس» المسمير نقشاً على الطين. وكثيراً ما كانوا يحرقونه بعد ذلك حفظاً له على كرور العصور. ولقد أدخل العرب على هذا الخط تحسينات كثيرة تهذب بها شكله وكمّلت فائدته، وكان لا يزال يقرأ قبل الإسلام في اليمن؛ ولكنه تلاشى أمره بانتشار الخط النبطي الذي كان يكتب به الحجازيون.

ولما وصلت هذه الدولة إلى سن الشيخوخة بطبيعة الحال، ضعف أمرها وانفصلت عنها أطرافها، واستقلت آشور. ولم تقف هذه المملكة الأخيرة عند هذا الاستقلال؛ بل نهضت بحكومتها حتى استولت على بابل في سنة (١٢٨٠ ق م) مدة الملك تغلاب بلسر.

وأخذ الآشوريون يعاملون العرب معاملة قاسية، فلم يقبلوا البقاء على الضيم، كما هي شيمتهم في كل زمان، وهاجر قسم كبير منهم إلى جنوب جزيرة العرب وإلى غربها.

- الشاسو (الهكسوس) وهم عرب الشرق أو عرب الرعاة:

بينما كانت الدولة الحمورابية قائمة في بابل، دخلت الهكسوس إلى مصر من برزخ السويس في القرن الثالث والعشرين قبل المسيح، واستولوا على الوجه البحري وكونوا لهم به دولة كان مركزها في مدينة صان. وأول ملوكهم يسمى «سلاطيس» وهو رأس العائلة السابعة عشرة المصرية. ومكث عرب الرعاة بمصر إلى أن أجلاهم عنها الملك «تُحْتُمُس» ملك طيبة في (الوجه القبلي) حوالي سنة ١٧٠٠ ق م. وليست لهم بها آثار تذكر؛ اللهم إلا بعض تماثيل لمعبوداتهم، وخصوصًا لمعبودهم سوبيخ. ويقال: إن منهم فرعون إبراهيم، والعرب يسمونه «سنان بن الأشل»، وفرعون يوسف ويسمونه «الريان بن الوليد»، وفرعون موسى ويسمونه «الوليد ابن مصعب». ويؤكد بعضهم أن هذا الأخير مصري الجنس؛ ودليلهم على ذلك أن الأولان كانا يعطفان على الأجانب، أمّا الثالث فكان ينقم عليهم.

دولة عاد الأولى

لما نزع عرب الشمال بعد سقوط الدولة الحمورابية إلى جنوب جزيرة العرب -في القرن العشرين قبل المسيح كما قلنا- كَوَّنوا دولة عاد الأولى. وكانت مواطنهم بأحقاف الرمال بين اليمن وعمان. ومؤرخو العرب يزعمون أن عادًا أقدم الأمم. ولذلك فإنهم يطلقون وصف «عادي» على كل شيء قديم لا يعلم لهم تاريخه. ويذكرون لهم أمورًا من الغرابة بمكان: كقولهم أن عادًا عاش (١٢٠٠) سنة، وولده (٤٠٠٠) ولد ذكر لصلبه، وغير ذلك مما يمكنك مراجعته في تواريخهم. وذكروا أن عادًا لما مات مَلِك بعده بنوه: شديد، ثم شداد، ثم إرم. وقالوا: إن شدادًا هو الذي بنى مدينة إرم ذات العمداد. وقالوا في وصفها ما تقف الغرابة نفسها باهتة أمامه. على أن بعض المفسرين قالوا في تفسير قوله تعالى: {ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العمداد} أنها ذات الرفة، وأن إرم اسم جدّهم: وبه يكون ذات العمداد وصفًا لعاد. ويؤيد ذلك نسبتهم إلى إرم؛ فيقولون: عاد إرم، وشمود إرم. ولا يبعد أن كان لعاد من شامخ البنيان في مملكتهم هذه ما كان لغيرهم في ذلك الوقت في ممالك الشام ومصر والهند وسواها، يدل على ذلك قوله تعالى في سورة الشعراء خطابًا لهم: {أتبنون بكل ريع (مرتفع) آية (فسروها بالبناء الفخيم) تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون}.

وفي مدة شداد بغت عاد وأكثروا من الظلم والفساد؛ فأرسل الله تعالى إليهم هودًا فدعاهم إلى ترك الأوثان وعبادة الرحمن، فكذبوه وتمادوا في ضلالهم؛ فانقطع عنهم المطر مدةً، فأرسلوا وفدًا منهم إلى مكة يستسقون،

ولكنهم استمروا في طغيانهم. ولما رأى هود أن سخط الله نازل بهم لا محالة، اعتزلهم وابتعد عنهم مع من آمن به. وسخر الله عليهم ريحاً مدة سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوماً (متتابعات) فأهلكتهم.

وقد ذهب بعض المؤرخين إلى أن عاداً الأولى إنما هم من فل عرب الرعاة بعد طردهم من مصر؛ وعليه يكون ابتداء حكمهم بالأحقاف في العصر السابع أو السادس عشر قبل الميلاد.

ولما هلك عاد بقي هود ومن آمن معه، وانضم إليهم لقمان ابن عاد الذي كان ذهب بوفدهم إلى مكة^(١)، ولحق بهم خلق كثير قاموا بدولة جديدة يسمونها عاداً الثانية، دام ملكها ألف سنة، ثم تغلب عليهم القحطانيون فانمحت دولتهم وانقطع ذكركم.

وعلى كل حال فإن النقبين لم يكشفوا لنا للآن شيئاً من أخبارهم، وغاية ما ذكروه أنهم عثروا في تلك الأحقاف على مغائر محفورة في الصخور التي تراكمت عليها طبقة كثيفة من الرمال. ولعلمهم يبيدون لنا قريباً هذه الحجب التي اختفت من ورائها أخبار دولة كبيرة لا يبعد أنها خدمت الإنسانية خدمة نذكرها لها مع الشكر.

(١) إذا اعتبرنا أن عاداً لم تبحر إلى بلاد اليمن إلا في القرن العشرين على أبعد ما ذكره المؤرخون العصريون، كان وفدهم إلى مكة للاستسقاء إنما كان بقصد الاستغاثة بالكعبة بعد بناء إبراهيم لها؛ لا كما قال بعض مؤرخي العرب من أن وفدهم كان قبل ذلك.

المعينيون

المعينيون -أو بنو معين- قوم كانوا يسكنون شرق بلاد اليمن فوق حضرموت، وكانت لهم بها دولة كبيرة. ومؤرخو العرب لم يحدثونا بكلمة عن هذه الأمة. والذي أخبرنا بأمرهم إنما هم أولئك المستشرقون، وعلى الخصوص «هاليفي» الفرنسي، الذي أوفدته بلاده إلى اليمن سنة ١٨٦٩م، واكتشف كثيراً من آثارها أهمها مدينة معين. وسار على أثره «علاذر» الألماني وغيره، وحدثونا بشيء من أخبار هذه الدولة، وقالوا: إن بني معين كانوا ذوي مدنية، وكان اشتغالهم بالزراعة في سفوح جبال اليمن وسهول حضرموت، وأنهم أقاموا هناك السدود وفتحوا الخلجان وسيروا الماء إلى مزارعهم. وقد اختلفوا في تقدير عمر هذه الآثار: فبعضهم ذهب إلى أنها من القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وذهب آخرون إلى أنها من القرن الثامن أو السابع. وقد كتب الأستاذ «هومل» بالألمانية كتاباً في لغتهم ولغة سبأ.

ولما كانت الخطوط التي على تلك الآثار مسمارية ولغتها بابلية، كان المعينيون من غير شك من عمالقة الشمال. ولا يبعد أنهم هم عاد الثانية، أن لم يكونوا نزحوا إلى هذه البلاد في تيار قدوم عاد الأولى إليها، وربما كانت لهذه الغلبة عليهم، ولها لم يذكر اسمهم معها. وعلى كل حال فما دام المنقبون لا يفترون عن البحث عن آثارهم، فلا يبعد أن ينكشف لنا أمرهم في القريب العاجل إن شاء الله.

طسم وجديس

هما أمتان يذكرهما مؤرخو العرب بأنهما من العرب البائدة. وقد كانتا تسكنان في اليمامة شرق بلاد العرب. وكانت لطسم الكلمة السائدة لكثرة عصبيتها. وكان مركز ملكها في مدينة تسمى القرية وهي مدينة الحجر، ولا تزال بها آثارهم إلى الآن. ويوجد في مدينة جعده قصر يعبرون عنه بالعادي (ويعنون أنه قديم جدًا). وربما كان لهذه الصفة نسبة صحيحة، وأن هاتين الأمتين إنما قدمتا إلى هذه البلاد مع عاد أو بعدها بزمان قليل. وربما كان لعاد الحكم عليهم، فلما هلكت بقيتا في عزلة حتى دخلتا في حكم التبابعة. وما زالتا حتى تملك من طسم رجل ظالم فاجر؛ ففضى بأن لا تزف فتاة من جديس إلى بعلاها قبل دخولها عليه، فاتقت لذلك جديس وتحالفوا على قتله؛ فدفنوا سلاحهم في الرمل ودعوه إلى وليمة عندهم، فحضر في خاصة قومه، فهجموا عليهم وقتلوه عن آخرهم. فذهب نفر من طسم واستصرخوا بتبع حسان أبي سعد. فساق جنده على جديس. وقالت له طسم: إن باليمامة امرأة تسمى الزرقاء تنظر من بعد ثلاث ليال، فنخشى إن هي أبصرتنا أخبرت قومها فيستعدون لنا. فأمر كل واحد من رجاله أن يأخذ فرعًا من شجرة ويجعله أمامه، فلما فعلوا وأبصرتهم الزرقاء قالت لقومها:

إني أرى شجرًا من خلفه بشر فكيف تجتمع الأشجار والبشر
ثوروا بأجمعكم في وجه أولهم فإن ذلك منكم فاعلموا ظفر
فاستخفوا عقلها ولم يصدقوا قولها؛ فدهمتهم خيل تبع فأفنوهم عن
آخرهم. ثم أصاب ما بقي من طسم ما تشتت به شملهم. وتفرقوا إلى جزائر

البحرين وغيرها، وبه قضى على ذكرهم. وكان ذلك في أوائل القرن الخامس للمسيح.

ثمود

ومن أمم العمالة ثمود. نزحت من اليمن إلى الشمال فنزلوا مدائن صالح، ثم كانت لهم بها دولة كبيرة، وآثارهم فيها إلى الآن، وأهمها ما يسمونه قصر البنت، الذي لا تزال يوجد عليه نقوش يصعد تاريخها إلى قبيل ميلاد المسيح. ولقد اختلف المؤرخون في أنهم كانوا أصحاب السلطان على النبطيين الذين كانوا يسكنون في بطره، أو أنهم كانوا تابعين لحكم عرب الأنباط، مما هو مشروح في آخر باب من هذا الكتاب عند الكلام على مدائن صالح.

القحطانية

القحطانيون هم بنو قحطان بن سبأ الأكبر بن سام بن نوح. وكانوا يسكنون في شمال جزيرة العرب، ونزحوا إلى بلاد اليمن في القرن الثامن قبل المسيح في من نزح إليها بعد تحكم الآشوريين فيهم. وربما كانوا معاصرين للمعنيين، وانتهى أمرهم بالتغلب عليهم، وقاموا في اليمن بدولة جديدة يسميها مؤرخو العرب سبأ الأولى.

ولقد ذكرها أغلبهم عرضاً عن الكلام على سد مأرب. والهمداني أول من شرحه لنا شرحاً وافياً. وأتى من بعده أرنو، وهاليفي، وغلادر، في القرن

الماضي فأيدوا قوله ورادوا عليه مما أخذوه من الآثار التي نقلوا شيئاً كثيراً منها إلى متاحف أوروبا، بعضها منقوش على أحجار وبعضها على برنز.

ويفهم من مجموع ما قالوه أن مياه الأمطار كانت تتكون في بلاد اليمن بجبالها المرتفعة، ثم تنزل على هيئة سيول كبيرة في وديان إلى الشرق والغرب. والوديان التي كانت تنزل إلى شرق مدينة مأرب كانت تجتمع في واد يسمونه الميزاب، يرتفع عن سطح البحر بألف ومائة متر، ويحيط به جبال من كل جهاته. وهذا الوادي يضيق من جهته الشرقية الشمالية وينحصر بين جبلين يسمونهما بَلْتَى الأيمن وبلق الأيسر في مسافة ذكر الهمداني أنها ٦٠٠ خطوة؛ أي ٤٠٠ متر تقريباً، وهنالك يسمى وادي أدينة، وبعده ينفرج الوادي انفراجاً عظيماً وتضيع فيه هذه السيول بلا فائدة. فأقام السبئيون على مسافة قليلة من مضيق هذا الوادي سداً من الحجر، طوله ٨٠٠ ذراع وعرضه ١٥٠ ذراعاً كون مع جانبي البَلْقَيْن الخارجين مجرى عمودياً على مضيق أدينة يحوّل الماء عن مجراه الأصلي إلى ذات اليمين وذات اليسار. وجعلوا لفتحتيه من جهتيه سدوداً، فيما وراءها مجار يسير فيها الماء إلى الجهة التي يراد سوقه إليها على حسب ارتفاعها أو انخفاضها. وهذا السد هو ما يسمونه بسد العرم. وأول من بناه يشعمر ملك سبأ في القرن السادس قبل المسيح. ووجدوا اسمه أخيراً منقوشاً على جبل بلق فيما يقابل السد المذكور. وزاد فيه خلفاؤه بما كان يزيد في فائدته. ولقد حصل من وراء هذا السد وترتيب المياه بواسطته، تنظيم الزراعة في تلك الصحراء بما أتى بالخير الجسيم لبلاد اليمن الشرقية؛ لأنه حولها من فقر بلقع إلى رياض وجنان، حتى كانوا يعبرون عن الأرض التي كانت في يمينه بالجنة اليمنى، والتي في يسراه بالجنة اليسرى.

وما زال هذا السد^(١) حتى انكسر فحصل منه خراب جسيم قضى على دولة سبأ، وتشتت أهلها في جزيرة العرب؛ فنزلت خزاعة مكة، ونزلت الأوس والخرزج يثرب (المدينة)، ونزلت الأزد عمان واليمنية، وسار مزيقيا إلى الشام، فكان منهم الغسانيون، ونزحت لحم إلى العراق وكان منهم المناذرة. وبذلك انتهى أمر سبأ الأولى، وفي المثل: تفرقوا أيدي سبأ.

وقد ورد تاريخ سبأ بالتفصيل في القرآن الكريم؛ قال تعالى: {لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل حط^(٢) وأثل وشيء من سدر قليل. ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور. وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين. فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق}.

دولة سبأ الثانية أو حمير

لما انهدم بنيان دولة سبأ الأولى، وتلاشت مدينة مأرب عاصمة ملكهم، صارت السلطة ببلاد اليمن متفرقة في أيدي من بقي فيها. وكان لكل كفر أو

(١) بعد كسر هذا السد بناه ملوك حمير وكانوا يتعهدونه بالعمارة ويقيمون ما اعتل منه. وآخر ما وصلنا من أمره أثر لأبرهة الأشرم محفور على بعض جهاته نقوش قرأها غلاذر؛ وفيها كيفية دخول اليمن في ملك الأحباش، وقد ذكر فيها أن سد مأرب كسر فبناه أبرهة. (انظر كتاب: «العرب قبل الإسلام» لجورجي زيدان). ثم كسر قبل الإسلام فأهمل، ولا تزال آثاره موجودة وخصوصاً العربية منها.

(٢) حط حامض، وقيل: هو الأراك أو الغضا.

قرية أو مدينة أو قصر رئيس منها. وهؤلاء الرؤساء كانوا يسمونهم الأدواء، وكانوا يعرفون في الغالب بإضافة اسم بلد لهم إليهم (بلفظ ذو) فيقال: ذو ناعط، وذو ريدان، وذو ظفار مثلاً يعني: صاحب ناعط وصاحب ظفار ... إلخ. وأشهر ما وصلنا من أسماء هذه القصور وبالغ شعراء العرب ومؤرخوهم في وصفها وخصوصاً الهمداني: قصر ناعط، وقصر سلحين، وقر كوكبان، وقصر غمدان، وقصر بينون ... إلخ.

وكان القوي من هؤلاء الأدواء يتغلب بطبيعة الحال على بعض البلاد التي في جواره ويكون له الحكم فيها، وهنالك يسمى مجموع مملكته محفداً، وصاحبه يسمى فيلاً. وربما اجتمعت جملة محافد في حكم شخص واحد فيسمونها مخلافاً وحاكمها يسمى ملكاً. وعلى هذا كان شأن الدولة في حمير في صغرها وضخامتها.

وما زالت الحال في هذه البلاد على هذا النظام حتى قام صاحب ريدان (ظفار) واسمه علهان، في نهاية القرن الأول قبل المسيح، وتغلب على حملة محاليف ومحافد تكونت منها مملكة حمير الثانية^(١). وما زالت هذه المملكة تكبر

(١) ذكر حمزة الأصفهاني أن ملوك حمير ستة وعشرون ملكاً، مدة حكمهم ١٧٠٠ سنة. وهم: الحارث الرايش، ومدة حكمه ١٢٥ سنة. أبرهه ذو المنار وحكمه ١٨٣ سنة. أفريقش بن أبرهه، وحكمه ١٦٤ سنة. العمد ذو الازعار وحكمه ٢٥ سنة. هدهاد بن شرحبيل وحكمه ٧٥ سنة. بلقيس بنت هدهاد وحكمها ٢٠ سنة. ناشر ينعم وحكمه ٨٥ سنة. شمير عرش وحكمه ٣٧ سنة. أبو مالك وحكمه ٥٥ سنة. تبع بن الأقرون وحكمه ٥٣ سنة. دوحشان وحكمه ٧٠ سنة. الأقرن بن أبي مالك وحكمه ١٦٣ سنة. كليكرب وحكمه ٣٥ سنة. أسعد أبو كرب وحكمه ١٢٠ سنة. حسان بن تبع وحكمه ٧٠ سنة. عمرو بن تبع وحكمه ٦٣ سنة. عبيد كلال وحكمه ٧٤ سنة. تبع بن حسان وحكمه ٧٨ سنة. مرثد بن عبيد وحكمه ٤١ سنة. وليعة بن مرثد وحكمه ٧٣ سنة. أبرهه بن الصياح وحكمه ... صهبان بن محرث وحكمه ١٥ سنة. حسان بن عمرو بن تبع وحكمه ٥٧ سنة. ذو شناتر

في زمن خلفائه حتى دخل في دائرتها حضرموت وما والاها من البلاد شر قامدة حكم شمر برعش، في نهاية القرن الثالث للميلاد، وبها قامت دولة التبابعة (واحدها تبع) ومعناه ملك الملوك، وهو في قوة لفظ إمبراطور عند الرومان. واستمر الحكم فيها لخلفائه إلى سنة ٥٢٥ بعد الميلاد؛ أي مدة ٦٣٠ سنة، تولى الحكم فيها جملة ملوك منهم^(١).

وأشهر ملوك التبابعة الهدهاد، وكان يحكم من سنة ٣٤٥ إلى سنة ٣٧٤ بعد الميلاد. ثم أبو كرب أسعد، وكان يحكم من سنة ٣٨٥ إلى سنة ٤٢٠ بعد الميلاد. وحسان بن أسعد وحكمه من سنة ٤٢٠ إلى سنة ٤٥٥. وذو نواس وحكمه من سنة ٥١٥ إلى سنة ٥٢٥.

ولقد كانت حكومة التبابعة في غاية الرقي، وكانت بلادهم تسمى عند

وحكمه ٢٧ سنة. ذو نواس وحكمه ٢٠ سنة. ذو جدن وحكمه ٨ سنين. وعليه يكون أولهم وهو الحارث الرايش كان يحكم في القرن الثاني عشر قبل الميلاد. وقد سار المؤرخ بويل دي فرحيه على نحوه في كتابه «تاريخ العرب»، ويخالفها في ذلك أبو الفداء وغيره من مؤرخي العرب.

(١) في عدد ملوك التبابعة وأسماهم ومدة حكمهم خلاف بين مؤرخي العرب والمؤرخين العصريين الذين بنوا حكمهم على ما عثروا عليه من آثارهم. وملوك التبابعة على ما جاء في كتاب «العرب قبل الإسلام» هم: شمر برعش وحكمه من سنة ٢٧٥ ميلادية إلى سنة ٣٠٠. ثم ذو القرنين الصعب (أفريقش) وحكمه من سنة ٣٠٠ إلى ٣٢٠. وعمر وروح بلقيس وحكمه من ٣٢٠ إلى ٣٣٠. بلقيس وحكمها من ٣٣٠ إلى ٣٤٥ (وهي غير بلقيس سليمان؛ لأن هذه كانت في العصر العاشر ق م). الهدهاد أخو بلقيس وحكمه من ٣٤٥ إلى سنة ٣٧٤. مليكرب ينعم وحكمه من ٣٧٤ إلى ٣٨٥. أبو كرب أسعد وحكمه من سنة ٣٨٥ إلى ٤٢٠. حسان بن أسعد وحكمه من ٤٢٠ إلى سنة ٤٢٥. شرحبيل يعمر بن أسعد وحكمه من سنة ٤٢٥ إلى سنة ٤٥٥. شرحبيل ينوف وحكمه من سنة ٤٢٥ إلى سنة ٤٧٠. معد يكرب ينعم وابنه لحيه (لعله لهيعة) وحكمها من سنة ٤٧٠ إلى سنة ٤٩٥. مرثد اللات ينوف وحكمه من سنة ٤٩٥ إلى سنة ٥١٥. دونواس (دميانوس) وحكمه من سنة ٥١٥ إلى سنة ٥٢٥. ذو جدن وحكمه من سنة ٥٢٥ إلى سنة ٥٣٣.

الرمان ببلاد العرب السعيدة، والعرب يسمونها اليمن الخضراء، وكانت حضارتهم لا تقل عن حضارة الآشوريين وغيرهم من الممالك التي كانت في شمال جزيرة العرب إن لم تزد عنها؛ وذلك لاحتكاكهم بتجار الهند والفرس والأحباش والمصريين والسوريين. وكانت الزراعة متقدمة في بلادهم التي كانت لذلك العصر كلها مزارع وبساتين ورياضًا وغياضًا. وكانوا يستخرجون من جبالهم المعادن المختلفة كالذهب والفضة، والأحجار الكريمة كالياقوت والزمرد والعقيق. وبذلك كان السبئيون والحُميريون من أغنى أهل الأرض وأكثرهم حضارة ورفاهية؛ فكانت لهم القصور الفاخرة، والرياض الزاهرة، والرياش الباهرة، وحسبك ما قاله الشعراء وذكره المؤرخون في وصف قصورهم؛ نذكر لك بعض ما قاله «الهمداني» في وصف قصر كوكبان:

«كان مؤزر الخارج بالفضة، وما فوقها حجارة بيض، وداخله ممد بالعرعر والفسيفساء والجزع^(١) وصنوف الجوهر». وقيل في وصف قصر بينون:

واسأل بينون وحيطانها قد نطقت بالدر والجوهر
ولم يقتصر حكم التبابعة على اليمن؛ بل امتد إلى بلاد الحجاز واليمنية وما بينهما من قبائل العرب العدنانية وغيرها؛ بل تعدت فتوحاتهم في زمن أسعد أبو كرب وولده حسان إلى الشام وبلاد الفرس والهند. وكانوا يقيمون على العرب حكمًا منهم يسمونهم ملوكًا: كزهير بن حباب الكلبي وغيره. وكانت وفود العرب تفد عليهم من جميع أطراف الجزيرة، يثنون إليهم شكواهم، أو يستمطرون من جدواهم. وما زال حكم التبابعة قائمًا في اليمن حتى نقم ذو نواس على نصارى نجران، فأساء معاملتهم، وأخذ يقتل فيهم ظلمًا لأنهم على

(١) حجر يمانى يشبه العقيق، وهو ما يسمونه عين الهر.

غير ملته، وكان يهوديًا. ثم بالغ في نقمته عليهم فحد (حَفَر) لهم أخدودًا (حفرة) وأضرَم فيه النار، وكان يرمي فيه كل من لم يرجع عن النصرانية. وقد وردت قصة أصحاب الأخدود اشمئزًا مما أصابهم من الاعتساف في سورة البروج؛ قال تعالى: {قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود ...} إلخ. واستنجد أهل نجران بنجاشي الحبشة، وكان نصرانيًا، فأرسل إلى اليمن جيشًا عليه أرياط، وكان من ضباطه رجل يقال له: أبرهة الأشرم. فلما علم ذو نواس بهم قابلهم وقاتلهم قتالًا شديدًا؛ ولكنه انهزم وخاف من سقوطه في يد عدوه فأغرق نفسه. وبذلك تم للأحباش الاستيلاء على أغلب بلاد اليمن. ومات أرياط بعد أن حكم البلاد عشرين سنة، فتولى عليها أبرهة، وجعل عاصمته صنعاء. وكان منه ما كان في حملته على مكة ورجوعه إلى اليمن مقهورًا، فمرض ومات بعد أن حكم ٤٣ سنة. وتولى الملك بعده ابنه يكسوم، وكان حكمه عشرين سنة كلها ظلم وجور. ثم ملك بعده أخوه مسروق بن أبرهة، وكان أكثر ظلمًا من أخيه. ولما هلك ذو نواس قام أمير من قرابته اسمه ذو يزن (جدن) واستولى على بعض البلاد واستمر ملكه فيها نحو ثمان سنين. ثم تغلب عليه الحبشة فقتل نفسه، وفر ابنه سيف إلى قيصر الروم يستنجده، وأقام ببابه سبع سنين، فأبى أن ينجده. فسار إلى كسرى أنوشروان فوعده بمساعدته، ووجه معه رجلًا اسمه وهرز في جيش من المسجونين وقال: «إن هم فتحوا كان لنا، وإن هم هلكوا كان لنا». وركب وهرز ومن معه البحر، فلما وصلوا إلى اليمن التقوا بيكسوم ورجاله، فكانت الدائرة على الأحباش، وقتل يكسوم في الواقعة وانهزم جيشه، وتتبعهم الفرس فأثخنوا فيهم وقتلوا منهم خلقًا كثيرًا. وبذلك دانت لهم البلاد، وجلس سيف بن ذي يزن على كرسيها. وأتته وفود العرب تهنئه بالملك، وأتاه عبد المطلب سيد قريش في نفر من قومه فأكرم

وفادتهم. وبعد مدة من حكمه قتله حجابه، وكانوا من الحبشة. وبه كان آخر حكم التبابعة في اليمن التي صارت بعد ذلك تابعة لمملكة الفرس. حتى إذا كانت السنة التاسعة للهجرة أسلم أهل اليمن، وأرسلوا وفدًا منهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة، فأرسل إليهم «معاذ بن جبل» وجعل له الإمارة عليهم، وأوصاه بهم خيرًا. وكان عامل كسرى عليهم اسمه بازان فأسلم، وبه صار حكم اليمن إلى المسلمين.

دولة كندة

كندة بطن من كهلان، كانت نزحت من اليمامة في أوائل القرن الخامس من الميلاد وسكنت في شمال حضروت في بلد سميت باسمهم. وكان سيدهم حجر بن عمرو المشهور بأكل المرار، له علاقة بحسان بن تبع ملك حمير؛ لأنه كان من أعوانه في فتوحاته بشمال جزيرة العرب، فولاه ملكًا على قومه. وكان حجر ذا همة وشجاعة ودراية، فاستنجدت به بكر بن وائل على اللخميين ملوك العراق، وكانوا غلبوهم على بلادهم وأجلوهم عنها. فسار مع بكر إليهم وحاربهم واستنقذ منهم أرض بكر؛ فولاه حسان ملكًا على العرب. فسار إلى نجد وجعل مقامه بها في بطن عاقل، وما زال به حتى مات. وتولى بعده ابنه عمرو، ويسمونه المقصور لاقتصاره على ملك أبيه. ثم خلفه ابنه الحارث. واتفق أن قباذ ملك الفرس نقم على المنذر بن ماء السماء فطرده عن الحيرة، وأقام الحارث مكانه على مملكها. فلما ملك أنو شروان، أعاد المنذر وطرده الحارث، فهرب إلى ديار كلب ومات بها. وكان للحارث ولد اسمه حُجر كان ولاه على أسد، فتنكروا له وقتلوه في ديمون باليمن فاستنجد عليهم ابنه امرؤ القيس الشاعر المشهور ببكر

وتغلب، فساروا لنجدته وهربت أسد من وجهه. ولما علم به المنذر بن ماء السماء سار في طلبه ففرقت جموعه، فاستنجد امرؤ القيس بآبن ذي جدن ملك حمير وسار إلى المنذر في جمع من العرب. وكانت الدائرة على ابن حجر، فانهمز وسار يتنقل من قبيلة إلى أخرى حتى قصدا السموأل بن عاديّا، وترك عند قوسه ودروعه، ثم سار إلى قيصر الروم يستنجد به فلم ينجده، فرجع من عنده خائبًا ومات من الحزن في سنة ٥٦٠ للميلاد، وهو آخر ملوك كندة.

دولة تنوخ بالعراق

اختلف النسابون في أصل تنوخ؛ فمنهم من يجعلهم قحطانيين، ومنهم من يجعلهم عدنانيين. ومع أننا أخذنا بالقول الثاني في شجرة القبائل العربية، فإننا ذكروهم هنا لأنهم هم الذين شادوا الدولة العربية في العراق، وخلفهم عليها اللخميون بلا فاصل بين الدولتين؛ وذلك أن تنوخ^(١) لما نزلت بالعراق كونوا فيها لهم دولة عظيمة في أوائل القرن الثالث للمسيح. وأول من قام بها مالك بن فهم أول ملوكهم. ثم خلفه عليها ابنه جذيمة الأبرش، المشهور بدهائه وقوته وشجاعته وحسن رأيه. وكانت له حروب مع ملك من العمالقة اسمه عمرو بن الظرب، كان ملكه في مشارق الشام، وبعضهم ذهب إلى أن عاصمة ملكه كانت مدينة تدمر، فقتله جذيمة. وكانت لعمرو بنت اسمها الزباء (واليونان يسمونها رينوبي، ولعله محرف عن زنوبة) فاحتالت على جذيمة فقتلته في ثأر أبيها. وكان جذيمة لم يعقب نسلًا، وكان زوج أخته رقاش برجل

(١) كان لتنوخ فرع تولى الحكم في مشارق الشام للرومانيين، ولم تطل مدتهم حتى تملك عليها بنو سليح وهم بطن أخرى من قضاة. وما زال هؤلاء حتى غلبهم عليها الغسانية.

من لحم اسمه عدي، وكان من ندمائه، فولدت له ولدًا نجيبًا اسمه عمرو، فكفله خاله ورباه أحسن تربية. فلما قتل جذيمة تولى عمرو بن عدي الحكم بعده على الحيرة. وبه انتقل الملك من تنوخ إلى لحم.

وأراد عمرو أن يأخذ بثأر خاله، فاحتال هو أيضًا على الزباء بواسطة عبد له اسمه قصير؛ فجدع قصير أنفه، وسار إلى الزباء يشكو إليها ابن عدي، وأرسل عمرو الرجال إليه في صناديق، وقصير يوهم أنها أمواله. فلما كان الليل خرجت الرجال ووضعوا السيف في قوم الزباء فهربت ولحق بها ابن عدي، فلما تحققت فتكه بها، كان بيدها سم فتناولته قائلة: «بيدي لا بيد عمرو».

دولة اللخمين بالعراق

كانت ملوك الحيرة تابعة لدولة الفرس. وكانوا يستعملونهم في الوقوف في وجه من يقصدهم من الرومان من جهة الغرب، كما كان الرومان يستعملون الغسانية لصد هجمات من يقصدهم من جهة الشرق. وكان للخمين (ويسمونهم بني نصر) دالة كبيرة على الملوك الساسانيين، ولهم عندهم مكانة إجلال واحترام، وكانوا يلقبونهم بملوك العرب؛ فعظم جاههم واشتهر أمرهم بين قبائل العرب، وقدمت عليهم وفودها، وقصدهم شعراؤها وانقطع لمدحهم جملة منهم: النابغة الذبياني، وطرفة، والمتلمس، وحسان وغيرهم.

وأغلب ملوك اللخمين من ذوي الهمة والعزة والسلطان. وأشهرهم ذكرًا عند العرب النعمان بن المنذر؛ لقرب عهده بالعصر الإسلامي.

وحكمت هذه الدولة العربية الزاهرة من سنة ٢٦٨ إلى سنة ٦٢٨ ميلادية.

وهاك جدولاً بملوكهم وتواريخ حكمهم مع ما اشتهروا به من الأعمال:

(جدول بملوك اللخمين بالحيرة)

اسم الملك	مدة الحكم من سنة م إلى سنة م	أعماله ومناقبه
عمرو بن عدي بن نصر	٢٦٨-٢٨٨	هو الذين كَوَّن دولة اللخمين في العراق.
امرؤ القيس بن عمرو	٢٨٨-٣٢٨	اتسع سلطانه وامتد على قبائل العرب غرباً وجنوباً، ودخل في حكمه قبائل مذحج وربيعة ومضر، وحارب شمر ملك حمير. وقد وجدوا اسمه مكتوباً بالعربية على قبر في حوران، ولعله كان ذهب إليها في غزاة فمات ودفن بها.
عمرو بن امرئ القيس	٣٢٨-٣٧٧	ملك نحو نصف قرن، وكان معاصراً لسابور ذي الأكتاف، وكانت مدته كلها خير ورخاء.
أوس بن قلام	٣٧٧-٣٨٢	ليس من اللخمين؛ ولكنه تغلب عليهم واستمر على ملك الحيرة حتى قتله رجل من بني نصر فرجعت الدولة إليهم.
امرؤ القيس بن عمرو الثاني	٣٨٢-٤٠٣	ليس له عمل يُذكر.

اسم الملك	مدة الحكم من سنة م إلى سنة م	أعماله ومناقبه
النعمان الأعور بن امرئ القيس	٤٣١-٤٠٣	كان مهيبًا حازمًا، كثير الحروب، غزا الشام مرارًا. وكان يغزو كل قبيلة من العرب لا تدين له. واجتمع له من الأموال ما لم يجتمع لأحد من سلفه. وهو صاحب قصر الحَوَزَتَق، بناه له سنهار، فلما أعجبه قطع يده حتى لا يئني لغيره مثله، وكان بينه وبين زهير بن قيس العبسي صلة نسب. وفي آخر أيامه زهد الملك وهام على وجهه في القفار، ولم يعلم من أمره شيء بعد ذلك.
المنذر بن النعمان بن امرئ القيس	٤٧٣-٤٣١	كان من أعوان ملوك الفرس. وكان معاصرًا ليزدجرد (يزدكرد) وبرهram، وحارب جيوش الروم الذين كانوا يقصدون فارس وانتصر عليهم انتصارًا باهرًا.
الأسود بن المنذر بن النعمان	٤٧٣-٤٩٣	استصرخ به عمرو بن أذينة في أخذ ثأر خال له قتله الغسانيون فسار إليهم وحاربهم، وأسر كثيرًا من وجوههم وقتلهم فيه.
المنذر بن المنذر بن النعمان	٤٩٣-٥٠٠	ليس له ما يستحق الذكر.
النعمان بن الأسود	٥٠٤-٥٠٠	أمضى مدة حكمه في حرب الروم بالشام وغيرها
علقمة أبو يعفر	٥٠٧-٥٠٤	من غير آل نصر، وليس له ما يذكر.

اسم الملك	مدة الحكم من سنة م إلى سنة م	أعماله ومناقبه
امروء القيس بن النعمان	٥١٤-٥٠٧	ليس له ما يُذكر.
المنذر بن امرئ القيس بن ماء السما.	٥٦٣-٥١٤	هو أشهر ملوك اللخمين. وقد حصل بينه وبين قباد ملك الفرس خلاف أفضى إلى تولية قباد للحارث الكندي على الحيرة، فهرب المنذر وما زال مختفياً حتى مات قباد وتملك ولده أنوشروان، فقدم عليه المنذر؛ فرحب به وولاه الحيرة ثانياً. وكان له يومان (١)؛ يوم يؤس ويوم نعيم؛ فمن وفد عليه في يؤسه قتله، ومن وفد في يوم نعيمه أهال عليه عطاياها. وحارب المنذر بكر بن وائل في وم أوراة، ثم قتل في حرب بينه وبين الحارث بن جبلة الغساني في واقعة يسمونها ذات الحيار أو يوم أباغ.

(١) ذكر بعض المؤرخين أن الذي كان له هذان اليومان هو النعمان بن المنذر أبو قابوس.

اسم الملك	مدة الحكم من سنة م إلى سنة م	أعماله ومناقبه
عمرو بن هند مِضرط الحجارة ابن المنذر بن ماء السماء	٥٦٣-٥٧٨	كان ذا همّة علياء وشيمة شماء، وكان صاحب خيلاء وكبرياء. دعا كبراء العرب يومًا فوفدوا عليه، ووفد عيه عمرو ابن كلثوم التغلبي مع أمه بدعوة منه، فلما دخلت أم كلثوم على هند، أرادت هند أن تستخدمها فقالت: واذلاه!! فسمعها ابنها فاستلّ سيف ابن هند وهو معلق في السرادق وقتله به، ثم خرج مع من كان معه من تغلب.
قابوس بن المنذر	٥٧٨-٥٨١	كان ضعيفًا، وله يوم طخفة مع بني يربوع.
المنذر بن المنذر بن ماء السماء	٥٨٢-٥٨٥	قتل يوم حليلة في حرب بينه وبين الغسانية.
النعمان بن المنذر أبو قابوس	٥٨٥-٦٣١	بلغت الدولة في أيامه منتهى الشرف. ونقم عليه كسرى وطلبه فهرب إلى طيء وطلب منها أن تمنعه فأبت، فنزل على هانئ بن مسعود سيد بني شيبان. وكان هانئ عزيزًا، فأودعه أهله وسار إلى كسرى فأمر به فسجن حتى مات في طاعون سنة ٦١٣ م. وهو صاحب يوم السّلان بينه وبين بني عامر بن صعصعة.

اسم الملك	مدة الحكم من سنة م إلى سنة م	أعماله ومناقبه
إياس بن قبيصة الطائي	٦١٣-٦١٨	لما سجن أبو قابوس استعمل كسرى إياساً سيد طيء على العراق، فأرسل إلى هانئ بن مسعود وطلب منه ما استودعه النعمان فأبى، فأخبر كسرى وسار إليه بجمع كبير؛ فثبت لهم بنو شيان وانتصروا على الفرس انتصاراً بيناً بذي قار. وكان ذلك سنة ٧ قبل الهجرة.
زاديه (زادويه)	٦١٨-٦٢٨	ليس له ما يُذكر.

اسم الملك	مدة الحكم من سنة م إلى سنة م	أعماله ومناقبه
المنذر بن النعمان المغرور	٦٢٨-٦٣٢	وهو آخر ملوك الحيرة. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في سنة ٦ للهجرة أرسل العلاء الحضرمي إلى البحرين ليدعو أهلها إلى الإسلام أو إلى الحرب. وأرسل معه كتابًا إلى المنذر يدعو به إلى الإسلام فأسلم، وأسلم معه جميع من هناك من العرب. وولى رسول الله العلاء على البحرين ومكث بها حتى كانت خلافة أبي بكر فارتدت العرب، فاستنجد أهل البحرين بالمنذر، فحضر إليهم وحاصروا العلاء في حصن الجوثاء، وما زال محصورًا حتى غافلهم وخرج عليهم ليلاً وأوقع بهم، وقتل المنذر في هذه الواقعة، وكان ذلك سنة ١٢ للهجرة، وفيها انتهى حكم المناذرة باستيلاء المسلمين على العراق.

الغسانية

كانت الروم تستعمل العرب الذي كانوا يسكنون بادية الشام للاستعانة بهم على عرب العراق الذين كانوا يستعملهم ملوك الفرس في مناوأة الرومان، فاستعملوا أولاً بطناً من تنوخ، ثم استعملوا سليحاً، ثم الضجاعمة، وكلهم من قضاة. حتى إذا نزح الغسانيون إلى بلاد الشام تغلبوا على بني ضجعم

وأقاموا في البلقاء، وصارت لهم الكلمة في تلك البادية بحكم العصبية، فأقامهم الرومانيون على المحافظة على حدودهم وعلى حروبهم مع الفرس وغيرهم. وقد اختلف مؤرخو العرب في عدد ملوك الغسانية؛ فقال حمزة الأصفهاني: ٣٢ ملكًا حكموا من سنة ٢٢٠ للميلاد، وقال آخرون غير ذلك. وذهب المؤرخ «نولدكي» إلى أنهم عشرة فقط، وأن ملكهم يتدئ من أواخر القرن الخامس للمسيح كما هم مبين في الجدول الآتي:

اسم الملك	سنة الوفاة
جبله أبو شمر	٥٠٠
الحارث بن جبله	٥٦٩
المنذر أبو كرب بن الحارث	٥٨٢
النعمان بن المنذر الغساني	٥٨٣
الحارث الأصغر ابن الحارث الأكبر	(من سنة ٥٨٣ إلى سنة ٦١٤)
الحارث الأعرج ابن الحارث الأصغر	
النعمان بن الحارث الأصغر	
عمرو بن الحارث الأصغر	
حجر بن عمرو	
جبله بن الأيهم	٦٣٦

ولما كان التاريخ الذي حكم فيه جبله أبو شمر يقرب من الزمن الذي وضعه له حمزة وغيره من مؤرخي اليونان، كان اختلافهم في تاريخ مبدأ هذه الدولة مبنياً على الوقت الذي ابتدأت فيه ضخامتها في عهد جبله المذكور.

وأشهر هؤلاء الملوك هو الحارث بن جبلة، وكانت له منزلة كبيرة عند الروم لشجاعته وشدة بأسه وعظيم سلطانه على العرب. ولما مات تولى ابنه المنذر مكانه فحارب قابوس ملك الحيرة وانتصر عليه. وذهب المنذر إلى القسطنطينية فألبسه الإمبراطور طياريوس التاج ولم يلبسه أحد قبله من الغسانيين. واستمرت سوريا في يد الغسانيين حتى حمل الفرس عليها وافتتحوها سنة ٦١٣م، فذهبت دولة العرب منها، وكان عليها حجر بن عمرو. فلما نهض هرقل لاسترجاع سوريا من الفرس ظهر من الغسانية جبلة بن الأيهم؛ وهو الذي وفد على عمر بن الخطاب في أشراف قومه وأسلم معهم، وبينما هو يطوف حول الكعبة وطئ إزاره أعرابي فلطمه جبلة، فاشتكى الأعرابي إلى عمر، فاستدعاه وخيره بين القصاص أو استرضاء الأعرابي حتى ينزل عن حقه، فاستمهله جبلة حتى يرى رأيه وفر ليلاً إلى فلسطين وركب البحر إلى القسطنطينية وأقام بها حتى مات.

وللغسانية كثير من آثار العمارة في بلاد الشام، خصوصاً في أذرح، ونجران، ومعان.

ومن أسماء قصورهم: صَرْح الغدير، والقصر الأبيض، وقصر المشتى، والقلعة الزرقاء، وقصر منار. وقد عثروا أخيراً على بعض آثار هذه القصور في حوران.

العدنانية

لما أتى إسماعيل عليه السلام إلى مكة تزوج بها وولد له اثنا عشر ولداً، وما زال نسله يتكاثر، وكانوا يسمونهم بالإسماعيلية، حتى أنتج بعد نحو عشرين

بطناً حفيده عدنان. فولده له معد، وولد لمعد نزار فأنجب أنهاراً، ومضر، وقضاة، وربعة، وإياداً. وبارك الله تعالى في نسله فكان منهم العرب العدنانية. وكانت منازل هذه البطون الخمسة حول مكة في مبدأ أمرها، ثم اضطرتهم الحالة المعاشية إلى طلب الرزق في جهات جزيرة العرب فنزحت قضاة إلى نجد، وتفرعت إلى بطون كثيرة منها: تيم اللات وقد نزحت إلى البحرين، وتزيد نزلت عبقر بأرض الجزيرة، وسليم نزلت مسارح الشام وفلسطين، وأسلم نزلت الحِجْر شمال المدينة، وتفرعت في جهاته أفخاذها الأربعة: عذرة، ونهد، والحواتكة، وجهينة. ثم تنوخ وقد نزلت إلى أرض الحيرة. وربان بن حلوان نزحوا إلى بادية الشام. وبلى أقامت جنوب العقبة. وبهرا وقد لحقت باليمن. ولقد تفرعت من هذه البطون أفخاذ كثيرة كانت أمهات لقبائل كبيرة مشهورة.

وأما أنهار فإنها نزحت إلى جبال السروات فملكوها، وكان منها بطنان: بجيلة وخثعم. وقد تفرقت أفخاذهما في جهات الجزيرة. ونزلت إياد العراق، وكانوا يغيرون على بلاد الفرس فأجلاهم أنوشروان عنها، فتفرقوا في أرض الروم وبلاد الشام.

ولم تقم من العدنانية قبل الإسلام دول تستحق الذكر؛ ولكن كانت ملوك اليمن تعطي لقب ملك لبعض سادات العرب وتوليهم الزعامة على القبائل، ومن هؤلاء الملوك زهير بن جناب الكلبي؛ ولأه أبرهة الأشرم على قبائل العرب، فخرجت عليه بكر وتغلب، فسار إليهم وغراهم وأسر وجوهمهم، ومنهم وائل بن ربعة المشهور بكليب وأخوه مهلهل، وعاد بهم إلى بلاده. ومكث كليب وأخوه عنده مدة حتى هب قومهما وأنقذوهما من الأسر. وكان زهير قد أسن وعجز وتولى بعده عبد الله ابن أخيه حكيم. ولما رجع كليب إلى

قومه أخذ يستميل إليه العرب ويعمل فيهم بكمال درايته وحسن إدارته وكثير كرمه وجوده، وجمع إليه معدًا وأفهمهم مقدار ما يصيبهم من تبعيتهم لملوك اليمن. وسار بهم وحارب ابن حكيم، فانتصر عليه في واقعة عظيمة يسميها العرب يوم خَرَّاز، وكان ذلك في أواخر القرن الخامس للميلاد، وبذلك خرج العدنانية من تبعيتهم لملوك اليمن، ونادوا بكليب ملكًا على العرب. وما زال أمر كليب يكثر حتى قتل ناقة لامرأة اسمها البسوس، كانت نزيلة على ابن عمه جساس، فقتله بها غيره على جواره، وقامت لذلك حروب هائلة بين بكر وتغلب مكثت أربعين سنة ويسمونها «حرب البسوس».

ومن ملوك العرب أيضًا قيس بن زهير العبسي وله حروب مشهورة. وفي آخر أيامه اعتزل الملك وذهب إلى عمان، وترهب فيها ومات بها، وكان له ولد اسمه فضالة وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعقد له على من معه من قومه.

وأما قريش فقد كانت لهم في جزيرة العرب الزعامة الدينية العامة لاستيلائهم على الكعبة، وكان لهم بذلك في العرب كلهم منزلة إجلال وإعظام لا تقل عن منازل الملوك إن لم تزد عنها.

وما زالت القبائل العدنانية على بداوتها حتى ظهر محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم من قريش، ونشر دين الإسلام في قومه، ثم هاجر إلى المدينة، ومن ثم أخذ الإسلام ينتشر في قبائل بلاد العرب كلها، وما لبث أن تجاوزها شرقًا وشمالًا وغربًا، واستولى العرب في حكم الراشدين الذين كان مركزهم المدينة، على بلاد فارس والشام وأرمينيا والقوقاز ومصر وبلاد المغرب. وفي مدة الأمويين انتقل مركز الخلافة إلى دمشق، ووصلت فتوحاتهم إلى المحيط الأطلانطيقي، ودخلت جنودهم إلى أوربا من بوغاز جبل طارق، وما زالت

تفتح في بلادها حتى وصلت إلى قلب فرنسا؛ بل نفذت سراياهم إلى قلب أوروبا لتوطيد عرش من كان يطلب حمايتهم من ملوكها. وفي ذلك العهد كنت ترى تجار المسلمين يسيرون بتجارتهم من بغداد إلى القسطنطينية، ومنها إلى شمال أوروبا. وهناك كانوا يتقابلون مع إخوانهم من التجار الأندلسيين، فيتبادلون تجارة بعضهم بعض ثم يعودون في أمان الله وحماية حكوماتهم إلى بلادهم. وبقيت العرب في الأندلس أربعة قرون، وكانت لهم بها دولة راقية جدًا، كانت سببًا في رقي المدنية الأوروبية الحالية في أخلاقها وعلومها وصناعاتها.

وحكم العرب في الأندلس يبتدئ من سنة ٩٢ بعد الهجرة؛ وهي التي دخل فيها «طارق» إلى بلادهم من مضيق الزقاق (بوغاز جبل طارق)، ثم تبعه سيده «موسى بن نصير»، وما زالا يفتحان في البلاد حتى خافهما «الوليد بن عبد الملك» فاستدعاهما ونكبهما. وما زالت الأندلس تابعة للدولة الأموية، وكانوا يولون عليها ولاية بلقب أمير إلى سنة ١٣٨ هـ. وفيها استولى عليها «عبد الرحمن بن معاوية الأموي» واستقل بها. والسبب في ذلك أنه لما سقطت دولة الأمويين بدمشق، وقامت دولة العباسيين على يد السفاح أخذوا يتعقبون الأمويين بالقتل ولم يفلت منهم إلا القليل، ومنهم عبد الرحمن ابن معاوية بن هشام بن عبد الملك، فدخل إلى الأندلس ولذلك يسمونه بـ«الداخل»، فاجتمع عليه الناس وبايعه أهل إشبيلية وقرطبة وغيرهما. وتم استيلاؤه على الأندلس في سنة ١٤١، فجعل عاصمته قرطبة، وقطع الخطبة عن العباسيين، وبنى بها القصر والمسجد الجامع. وما زال بنوه عليها حتى إذا تربع ثامنهم «عبد الرحمن الناصر» في دست الإمارة سنة ٣٠٠، لقبوه بأمر المؤمنين، وبه ابتدأت الخلافة العربية بالأندلس. وحكم الناصر خمسين سنة استفحل فيها ملك بني أمية بهذه البلاد، وارتقت فيها العلوم والآداب والصناعات

وخصوصاً بقرطبة التي صارت تناظر بغداد في فخامتها وضحامتها. وبنى عبد الرحمن مدينة الزهراء، وأنشأ بها من القصور ما لا يصل إليه الوصف. وبالجملة فقد كانت مدته كلها نوراً وعرفاناً وعزة وسعادة. وتولى بعده ابنه الحَكَم سنة ٣٥٠، وكان محباً للعلوم. ولقد شيد داراً للكتب لم يشيد مثلها أحد من الملوك، وقالوا: إن عدد كتبها نيف وأربعمائة ألف مجلد، وكان لها أربعة وأربعون فهرستا. وخلفه ابنه هشام سنة ٣٦٦، وما زالت الخلافة تنتقل في بنيهِ حتى تولاها أمية ابن عبد الرحمن في سنة ٤٢٢. وكانت الفتنة قد كثرت في البلاد واشتدت في مدته، فهرب ومات في هربه، وهو آخر خلفاء بني أمية في الأندلس وعددهم ١٦ خليفة. كانت دولتهم من أحسن الدول شأنًا، وأضخمها سلطانًا، وأعلاها ذكرًا، وأكثرها ثروة. ولا يزال من آثارهم قصر الحمراء في غرناطة، والقصر المشهور بالكازار وبجانبه المنارة التي كانوا يرصدون عليها الكواكب في إشبيلية، والمسجد الجامع في قرطبة، وكلها آثار حية تفوق حد الإتقان في صناعتها وزخرفها وفخامتها مما لا تصل إلى تصويره مقدرة الواصفين، ويقف أمامه الحاضر باهتًا لقدرة الإنسان الغابر في ذلك الزمن الزاهر! وسبحان من بيده الملك!

وقامت بعدها بالأندلس دولة العلويين في سنة ٤٠٧، واستمرت إلى سنة ٤٦٠. وأول ملوكها علي بن حمود الإدريسي، ولما بايعوه تلقب بالناصر لدين الله. وضعفت الخلافة في مدتهم حتى صارت لا هيبة لها، فكان ذلك سببًا لانقسام ملك الأندلس بين ملوك الطوائف؛ فقام بإشبيلية محمد بن عباد وبنيه من بعده، وقام ببطليوس محمد بن عبد الله المعروف بالأفطس وأولاده من بعده، وقام بطليطلة ابن يعيش، ثم إسماعيل بن ذي النون، وقام بسرقسطة سلمان بن هود الجذامي، وقام بطرطوشة لبيب العامري، وقام في بلنسية

المنصور المغافري، وقام بسهولة عبود بن زير بن البربري، وقام بدانية الموفق العامري، وقام بمرسية بنو طاهر، ثم استولى عليها ابن عباد، وقام بالمرية خيران العامري، وقام بمالقة بنو حمود، وقام بغرناطة حبوس الصنهاجي؛ إلا أن الإفرنج ابتدأوا يستعملون هؤلاء الرؤساء أسلحة بعضهم في نحور البعض الآخر. ثم أخذوا بعد هذا الانشقاق يستولون على الأندلس بلدًا ببلدًا، حتى استولوا على إشبيلية في سنة ٦٤٥؛ فانحازت العرب إلى غرناطة والمرية ومالقة وضاق الملك بهم بعد اتساعه.

وكانت هذه البقية الباقية يتدافع عليها ابن هود مع محمد بن الأحمر، وفي أثناء ذلك كان عدوهم ينقض على أطرافها شيئًا فشيئًا، حتى أخرجهم إلى سيف البحر. وهناك اجتمع عليهم جموع من المسلمين، وزحف إليهم رجال من البربر، فاستولوا على بعض النواحي. ولكنهم ما لبثوا أن استولى الإسبانيون على غرناطة عاصمة ملكهم صلحًا في سنة ٨٩٧، بعد أن أمنوا المسلمين على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم؛ ولكنهم أخفروا عهدهم وأذاقوهم صنوف العذاب، خصوصًا بعد أن تشكلت محكمة القسوس المسماة بمحكمة التفتيش (الإنكيزسيون)، فقتلوا النفوس، وسلبوا الأموال، وهدموا الآثار، وأحرقوا القصور والمساجد، التي لم يبق منها إلا ما وارتته عن أعينهم يد الزمن!! وتشتت المسلمون في بلاد المغرب، ولم يبق في الأندلس منهم إلا المستضعفون الذين قعدت بهم حالهم عن الهجرة، وما زالوا يسامون سوء العذاب حتى دانوا بدين البلاد. ولأن ترى بعض الأسماء بإسبانيا عربية محضة مثل: الفارس، والقائد، ورمانة، وريدان، وفران، وربضان، ونصار، وميمون... إلخ.

هذا ما كان من أمر الدولة العربية الغربية. أمّا دولتهم الشرقية، فقد كانت في صدر الخلافة العباسية في أعز أيامها، وأرفع أعلامها، وخصوصاً في مدة الرشيد وولده المأمون، اللذين قاما بكل ما فيه رقي الأفكار، ونشر العرفان، وتنشيط الصناعات؛ حتى صارت الدولة الإسلامية في مدتهم مشكاة يستنير بها العالم الشرقي، في حين ما كانت الدولة الغربية الإسلامية بالأندلس نبراساً يضيء ما حوله من الكائنات.

فلما كانت خلافة المعتصم العباسي في سنة ٢١٨ جمع كثيراً من المماليك إلى خدمته، حتى بلغ عنده من التركمان والجر كس ما يزيد عن خمسين ألفاً، واتخذ منهم حراساً لنفسه، وولاهم محافظة الثغور، فأخذت شوكتهم تزداد يوماً فيوماً حتى تغلبوا على الدولة، وصارت الخلفاء ألعوبة في أيديهم، يولون من يشاءون، ويعزلون من يريدون، حتى إذا كانت خلافة المعز بالله استولى أحمد بن طولون^(١) على مصر سنة ٢٥٤. ثم أخذت عمال النواحي تتغلب على أطراف الدولة شيئاً فشيئاً حتى إذا كانت سنة ٣٢٢ ضعف أمر الخلافة العباسية بالمرّة؛ فكانت فارس في يد بني بويه^(٢)، والموصل وديار بكر في يد بني

(١) هو الذي كوّن الدولة الطولونية بمصر ومكثت قائمة بها من سنة (٢٥٤هـ) إلى سنة (٢٩٢هـ). وفيها قامت الدولة الإخشيدية إلى سنة ٣٥٨هـ وفيها تغلبت عليها الدولة الفاطمية إلى سنة ٥٦٧هـ. وفيها استولت عليها الدولة الأيوبية إلى سنة ٦٤٨هـ. ثم قامت بها دولة المماليك البحرية إلى سنة ٧٨٤هـ، ثم دولة المماليك البرجية (دولة الجراكسة) إلى سنة ٩٢٢هـ. وفيها استولت عليها الدولة العلية العثمانية. وفي سنة ١٢٢٠ تولاها «محمد علي باشا» جد العائلة الخديوية وصارت إرثاً ثانياً لبنيه من بعده.

(٢) هم من الديلم قاموا بدولة ملكت العراقيين وفارس والأهواز على يد «عماد الدولة بن بويه» سنة ٣٢٢هـ، فساسها أحسن سياسة وأدارها بعقل وحكمة حتى عظم شأنه واستولى على بغداد سنة ٣٣٤، ثم استولى على كثير من الجهات ومنها جرجان وأصفهان وخوزستان، وخطب له على المنابر في بغداد وغيرها، وكان وزيره صاحب بن عباد، وما زال الملك في بنيه إلى سنة ٤٤٧ حيث نزعه منهم طغرل

حمدان^(١)، ومصر والشام في يد الإخشيديين، والأندلس في يد بني أمية، والمغرب وإفريقية في يد الفاطميين، والبصرة في يد ابن راتق، وما وراء النهر في يد بني سامان^(٢)، وطبرستان وجرجان في يد الديلم^(٣)، وجهة البحرين واليامة في يد القرامطة^(٤)، ولم يبق في يد الخليفة إلا بغداد وضواحيها. وبذلك أصبحت الخلافة كأن لا وجود لها بالمرّة.

السلجوقي. واستمرت الدولة السلجوقية إلى سنة ٥٩٠. وفيها ظهرت الدولة الخوارزمية، وأول من قام بها محمد خوارزم شاه الذي بعد أن تغلب على سلاجقة إيران استولى على بغداد، وما زال خلفاؤه بها حتى تغلب عليها التتار.

(١) ظهرت دولة بني حمدان في الموصل سنة ٢٩٣، ولقد عظم شأن هذه الدولة حتى امتد سلطانها على الجزيرة والشام، وبلغ من أمر ملوكها أنهم استبدوا بالدولة العباسية وصارت لهم فيه الكلمة النافذة. وأشهر ملوكها سيف الدولة الذي كان حكمه من سنة ٣٣٠ إلى سنة ٣٥٦، وفيها مات. ولكن مناقبه بقيت منشورة على صفحات شعر المتنبي الذي قصر حياته على مدائحه، ومن اشتهر من بني حمدان «أبو فراس» الشاعر المشهور.

(٢) بنو سامان كانوا ولاية من العجم على ما وراء النهر للعباسيين، فلما ضعفت الخلافة العباسية استقلوا بها حتى غلبتهم عليها الدولة الغزنوية في سنة ٩٩٩هـ.

(٣) بعد تغلب الديلم على جرجان وطبرستان استولوا على بغداد حتى غلبتهم عليها الغزنوية.

(٤) القرامطة نسبة إلى رجل يقال: له قرمط، قام بالبحرين ودعا قوماً من أهل البادية إلى دين جديد ذهب فيه إلى أن عيسى المسيح إنما هو أحمد بن محمد ابن الحنفية، وكانت الصلاة عندهم أربع ركعات: ركعتين قبل طلوع الشمس، وركعتين قبل غروبها. وكانت كلمة توحيدهم: أشهد أن لا إله إلا الله وأن إبراهيم رسول الله، وأن أحمد بن محمد ابن الحنفية رسول الله، وأن الصلاة إلى بيت المقدس، وأن الجمعة يوم الإثنين لا يعمل فيها شيء، وأن يصام يومان في السنة: يوم المهرجان ويوم النوروز، وأن النبيذ حرام والخمر حلال، ولا غسل من جنابة، وأن الوضوء كوضوء الصلاة، وأن يؤكل كل ذي ناب وذو مخلب. وظهر أمر القرامطة سنة ٢٧٨هـ ثم استفحل ملكهم حتى استولوا على مكة والبصرة والكوفة وهاجوا الخليفة في بغداد. وفي سنة ٣٢٩ ضعفت شوكتهم وانحصرت سلطتهم في بلاد هجر حتى تلاشى أمرهم.

وفي خلافة الطائع لله ظهرت الدولة الغزنوية^(١) سنة ٣٦٦هـ. وفي خلافة «المقتفي لأمر الله» قامت الدولة الغورية^(٢) سنة ٥٤٣هـ، ثم ظهر أمر الغز^(٣) سنة ٥٤٨هـ.

وفي سنة ٦٥٦هـ استولى التتار^(٤) على بغداد وقتلوا الخليفة المستعصم العباسي، ومن ثم انقطعت الخلافة العباسية ثلاث سنوات، وفي سنة ٦٦٤ وصل من فر من العباسيين إلى مصر فاستقبلهم الملك الظاهر بيبرس أحسن استقبال وأقام بها الخلافة باسمهم. ومات «هولاكو» سنة ٦٦٢ بعد أن ملك

(١) الغزنوية أسسوا دولة في شرق بلاد العجم سنة ١٦٦هـ على يد «محمود بن سبكتكين غلام إسحاق صاحب جيش غزنة للسامانية، واتخذ غزنة عاصمة له، وفتح بلادًا كثيرة في الهند، واستمر الملك في بنيه إلى سنة ٥٧٨هـ. وقامت بالملك بعدها الدولة الغورية.

(٢) الدولة الغورية قامت بالملك بعد الدولة الغزنوية وامتد ملكهم إلى الهند والسند، واستمر حكمهم إلى سنة ٦٠٤هـ، ومن أحسن ملوكها غياث الدين الغوري الذي كان يلقب بقسيم أمير المؤمنين.

(٣) الغز طائفة من الترك كانوا فيما وراء النهر، ثم نزحوا إلى خراسان وكانوا كفارًا، ومن أسلم منهم كان ترحمًا بينهم وبين المسلمين. فلما أسلموا أسماوا بالتركان، وحاربهم السلطان سنجر السلجوقي فكسروه وهزموه شر هزيمة واستولوا على خراسان سنة ٥٥١هـ.

(٤) التتار لفظ يطلق على مجموع قبائل كثيرة في أواسط آسيا، واشتهر أمرهم في القرن السابع والثامن والتاسع للهجرة. وأول من اشتهر من ملوكهم «جنكيز خان» في أول القرن الحادي عشر للهجرة. وكان يدخل في ملكه خوارزم وخراسان وكرمان وفارس وأذربيجان والعراقين العربي والعجمي والجزيرة. وبعد وفاته انقسمت مملكته بين بنيه، وفي مدة ملكهم سار «هولاكو» أحدهم إلى بغداد بتواطئ مع «مؤيد الدين العلقمي» وزير المستنصر بالله العباسي، وحصلت بينه وبين جنود المستنصر واقعة انتهت بانهازم جنود الخليفة سنة ٦٥٦هـ، ودخل التتار بغداد ونهبوها وقتلوا الخليفة المستنصر العباسي مع من فيها من الأشراف، وسبوا نساءها وفتكوا بأهلها، وكانت خزائن بغداد عامرة بالكتب النفيسة، فأخذها «هولاكو» وعمل بها جسرًا في الدجلة مرت عليها جنوده!!

واستمرت دولة التتار قائمة إلى سنة ٧٩٧هـ، وفيها استولى تيمورلنك (تيمور الأعرج) المغولي عليها. ودخل بغداد وفتك بأهلها فتكًا ذريعًا.

الشام والعراق وفارس وما وراء النهر. وانقسمت مملكته بين بنيه وبين إخوته، وما زالوا حتى انقرض حكم ملكهم بتغلب «تيمورلنك» التتري على بغداد في سنة ٧٩٨هـ. ولما مات سنة ٨٠٨هـ اقتسم بنوه مملكته؛ فاستقلت بلاد فارس^(١) والتركستان^(٢)، وأخذ ملوك بني عثمان^(٣) الذين كان لهم الحكم في آسيا

(١) فارس كانت في يد الخلفاء إلى أن قامت بها الدولة الغزنوية من سنة ٣٨٧هـ إلى سنة ٥٤٥هـ. ثم وقعت في يد السلجوقيين إلى سنة ٥٧٤هـ. ومن ثم تجزأ حكمها إلى جملة خانات، ثم استولى عليها التركمان في سنة ٨١٠هـ إلى سنة ٩٠٧هـ، ثم ظهرت بها الدولة الصفوية إلى سنة ١١٣٥هـ، ثم تداولها جملة أمراء. وفي سنة ١١١٢هـ استولت عليها عائلة قاجار الحالية، وانفصلت عنها في مدتهم بلاد الأفغانستان سنة ١١٦٠هـ.

(٢) بلاد تركستان التي من أهم مدنها بخارى، لم يتم فتحها إلا لعينة بن مسلم الخراساني في سنة ٨٧هـ، ثم دخلت في ولاية بني سامان حكام خراسان من سنة ٢٠٤ إلى سنة ٣٨٩هـ، ثم تولى عليها ايلك التركي. ثم دخلت في حكم السلجوقية. ثم استولى عليها جنكيز خان. ثم تغلب عليها حكومة ألبك التركية مدة قرن ونصف. ثم انقسمت إلى خانيات مستقلة؛ منها خانية بخارى، وخانية سمرقند، وتاشقند، وخيوه، ودخلت هذه الخانيات في حكومة الروسية واحدة واحدة في نحو نصف القرن التاسع عشر من الميلااد.

(٣) أول ظهور هذه الدولة أنه لما اضمحلت دولة السلجوقيين في سنة ٦٩٩هـ تغلب على ملكها دول كثيرة صغيرة. وكان من ضمنها دولة الترك، وفي سنة ٦٩٩هـ ظهر أمر السلطان عثمان التركي في الأناضول واشتهر بفضلله وعده وبلغت فتوحاته إلى بحر الروم غرباً والدردانيل والبوسفور شمالاً، ثم فتح بورصة سنة ٧٢٦هـ. ولما مات استولى على ملكه ابنه أورخان فقطع البحر إلى أوروبا واستولى على مدينة غاليبولي وتولى بعده ولده مراد الأول فسار إلى أوروبا وأوغل في بلاد الصرب والبُلغار وألبانيا. وخلفه ابنه بايزيد وكسر ملوك فرنسا والمجر وألبانيا الذين تحالفوا عليه، ثم قصد فتح القسطنطينية فبلغه أن تيمورلنك ملك المغول قصد بلاده، فسار إليه وحاربه فوقع في أسره، وما زال به حتى مات. وقام بالملك بعده ولده السلطان محمد بن بايزيد فاسترد ملك أبيه ومات سنة ٨٢٣هـ، وتولى بعده أحفاده، وما زال ملكهم حتى افتتح السلطان محمد القسطنطينية سنة ٨٥٧هـ، ثم افتتح البوسنة والهرسك وطربزون، واستولى على كثير من جزر الأرخبيل. وما زال ملك بني عثمان حتى تملك السلطان سليم الأول فاستولى على ديار بكر وكرديستان وحارب الفرس وانتصر عليهم، ثم تركها إلى حرب مصر

الصغرى كلها في التغلب على ما دونها شيئاً فشيئاً، حتى إذا دخلت الشام في حكم السلطان سليم سنة ٩٢٢هـ، سار إلى مصر من سنته ودخلها فاتحاً، ومكث بها حتى رتب أمورها ونظم حكومتها ثم سافر إلى بلاده، وأخذ معه محمد المتوكل على الله الخليفة الثامن عشر العباسي. ثم تنازل له المتوكل عن الخلافة الإسلامية. ومن هذا الوقت وهي في أيدي ملوك بني عثمان. ومن ثم انحصر ملك العرب في بلاد المغرب. ولهذا رأينا أن نقول كلمة صغيرة عن كل قسم من أقسامها لتكمل به الفائدة.

طرابلس

كانت طرابلس أولاً في يد البربر، ثم دخلت تحت الحكم الروماني حتى افتتحها العرب سنة ٢٢هـ، وتولاها الأغالية، ثم العبيديون، ثم الصنهاجيون، ثم استولى عليها صاحب صقلية واستردها منه الموحدون. ثم استولى عليها الإسبانيون. وفي سنة ٩٥٠ حضرت الأساطيل العثمانية وطردهم منها واستولوا على البلاد، وهي في قبضتهم إلى الآن.

ومما نذكر - مع الأسف الشديد - أن دولة إيطاليا التي تمني نفسها من زمن بعيد باحتلال هذه البلاد، قد اعتدت بلا سبب على الدولة العلية، وأشهرت عليها الحرب على غرة منها وسيرت أساطيلها إلى طرابلس، وكان الدولة في شغل بحروبها الداخلية عن تقوية ثغورها. وطلب الطليان من حاكم طرابلس

فاستولى عليها سنة ٩٢٢هـ. وما زال خلفاؤه يتوارثون عرش الدولة العلية حتى آل أمرها إلى سلطانها الدستوري (محمد الخامس) و٢٨ ربيع الثاني سنة ١٣٢٧هـ الموافق ٢٧ إبريل سنة ١٩٠٩م حفظه الله وجعل أيامه كلها خيراً وبركة.

أن يسلمهم المدينة فلم يقبل، فأطلقوا نيرانهم على قلاعها في يومي ٨ و ٩ شوال سنة ١٣٢٩هـ، فانسحبت الحامية إلى داخلية البلاد استعدادًا للحرب، ونزل الطليان إلى البر واحتلوا المدينة في يوم ١٥ منه الذي نكتب فيه كلمتنا هذه. ولا يعلم إلا الله مصير هذه البلاد من بعد ذلك، ولعل الدائرة تدور على الباغي، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

بلاد الجزائر

أصل هذه البلاد من قبائل زناتة وصنهاجة من البربر. وفتحها الرومان في سنة ٥٣٤م، ثم فتحها المسلمون في خلافة سيدنا عثمان بن عفان. وفي مدة العباسيين قامت بها الدولة الزيرية من سنة ٣٦١ إلى سنة ٥٤٣، ثم استظهر عليها صاحب صقلية روجير الثاني النورماندي. وفي سنة ٥٥٤هـ استولت عليها دولة الموحيدين المراكشية إلى سنة ٦٦٩، حيث تغلب عليها بنو زيان من الصنهاجيين، وجعلوا تلمسان عاصمة لملكهم. ثم استولى عليها الإسبان سنة ٩١٥، وطردوهم منها أهل البلاد سنة ٩٢٢ بمساعدة القُرْصان الذين كانت مراكبهم تغدو وتروح في البحر الأبيض المتوسط متعقبة مراكب الإسبانين، موقعة بهم كلما عثرت على شيء منهم. وكان رئيس القرصان يسمى «بارباروس» وكان على جانب عظيم من الشجاعة، فظهر أمره وهابته دول الفرنجة، وما زال حتى مات سنة ٩١٩، وتولى عمله أخوه «خير الدين بارباروس». وكانت مدينة الجزائر في يد الإفرنج مع بعض السواحل الغربية، فحاربهم خير الدين وأجلاهم عنها، وصارت له الكلمة في كل بلاد الجزائر. وكثرت فتوحاته واتسع ملكه إلى داخل إفريقيا.

وفي هذا الوقت كانت الدولة العثمانية قد استولت على الشام ومصر وبلاد الحرمين. فبادر خير الدين وأرسل بالهدايا الفاخرة مع مفاتيح البلاد إلى السلطان سليم، فأقره عليها. ومن ذلك العهد أخذت تزداد مكانته ويعظم سلطانه. وسافر خير الدين إلى الأستانة في مدة السلطان سليمان، فأكرمه كل الإكرام وأنعم عليه بلقب باشا. وفي مدة إقامته بها قام شارلكان ملك فرنسا بجيش عظيم ومعه كثير من أهل إسبانيا وهجم على بلاد الجزائر. فقاتلهم «حسن أغا» نائب خير الدين على البلاد بجأش رابط، وحاربهم وهزمهم شر هزيمة. فنزلوا إلى البحر منزهين إلى بلادهم بعد أن غرق أغلب سفنهم. وفي تلك الأثناء صدرت الإرادة السنية بتعيين خير الدين باشا رئيساً للبحرية العثمانية. ومن ثم أخذت الدولة العلية تعين ولايتها على الجزائر. وما زالت في يدها حتى استولى عليها الفرنسيون سنة ١٢٤٧هـ (سنة ١٨٣١م) وهي في أيديهم إلى الآن.

تونس

هذه الولاية كانت قديماً في يد البربر، واستولى عليها الفينيقيون وأسسوا فيها مدينة قرطاجنة في القرن التاسع ق م، ولا تزال تشاهد آثارها قرب مدينة تونس. وكانت لهم دولة راقية استمرت إلى منتصف القرن الثامن ق م. ثم استولى عليها الرومانيون إلى أن فتحها العرب سنة ٢٧هـ. وكانت هذه البلاد أولاً في إدارتها تابعة لولاية مصر، حتى قامت بها دولة بني الأغلب في سنة ١٨٤هـ، فاستقلوا بها واستمرت في يدهم إلى سنة ٢٩٦هـ. وفيها قامت دولة العبيدين (العلويين)، وما زالوا بها حتى استولوا على مصر سنة ٣٥٥ في مدة

المعز لدين الله. وسار المعز إليها سنة ٣٦١ وجعلها مقره، ونزل بالقاهرة التي اختطها جوهر سنة ٣٥٨، وجعل على إفريقية يوسف بلكين بن زيري الصنهاجي. واستمرت في يد الصنهاجين إلى سنة ٥٤٢. وفيها استولى ملك صقلية على أغلب ثغور تونس. فسار إليها الأمير يوسف ابن عبد المؤمن صاحب مراكش بجيوش الموحدين، فطردهم منها واستولى على تونس في سنة ٥٥٥. وما زالت في يد خلفائه إلى سنة ٦٠٣. وفيها قامت بها دولة الحفصيين وما زالوا عليها إلى سنة ٩٨٢هـ. وفيها استولت عليها أساطيل الدولة العلية، وما زالت تولى عليها ولايتها باسم دايات (مفرده داي) حتى صارت الولاية لمولاي حسن ابن علي باشا رأس الدولة الحسينية الحالية سنة ١١١٧. وما زالت في بنيه حتى تولى عليها منهم الباي محمد الصادق باشا سنة ١٢٧٦. وفي مدته أخذت فرنسا تعمل لضم بلاده إلى حكومة الجزائر واستعملت لهذا الغرض وزيره مصطفى بن إسماعيل، وكانت أمّلته إن هو سعى جهده في وضع تونس تحت الحماية الفرنسية أقامته بأيًا عليها؛ فأخذ هذا الدنيء في خلق القلاقل وبذر بذور الفتن في البلاد. وما زال يحيف الصادق من الدولة العلية من جهة، ومن أهل البلاد من أخرى، حتى طلب حماية فرنسا وعملت بينه وبينها معاهدة «بردو» وأمضاها في ١٣ مايو سنة ١٨٨١ م. وفي ٢٨ أكتوبر سنة ١٨٨٢ م مات محمد الصادق وتعين مكانه ولي عهده مولانا علي باي الموجود الآن على منصبها، ساعده الله على ما فيه خير بلاده وصلاحتها.

مراكش

مراكش يسمونها بالمغرب الأقصى، وأهلها من قبائل صنهاجة والبربر. استولى عليه الرومانيون سنة ٥٣٤هـ، وكمل فتحها للمسلمين سنة ٨٨هـ، وتمّ إسلام البربر سنة ١٠٠هـ، وفي سنة ١٧٢هـ وصل إلى هذه البلاد إدريس بن الحسن المثلث بن الحسن المثنى بن الحسن السبط ابن علي كرم الله وجهه، فأرّاه من وجه العباسيين؛ فالتف عليه أهل المغرب من البربر وقاموا بالدعوة له، وجعل مقره مدينة ويلي. ولما تمكن بها قدمه كوّن فيها دولة الأدارسة، وما زال الملك في بنيه إلى سنة ٣٧٥. وبعدها دخل المغرب الأقصى في حكم العبيديين إلى أن قامت به دولة المُلّثمين أو المرابطين من صنهاجة سنة ٤٦٢ على يد يوسف بن تاشفين. ولما اتسع ملكه وعظمت شوكته اشترى مكان مدينة مراكش وبنّاها قاعدة له. وبنى فيها القصور الرفيعة والدور الواسعة وجعلها مقر سلطانه. وبعد أن مكن دعائم سلطنته في المغرب، زحف إلى الأندلس بدعوة من أهلها. ووقعت بينه وبين ألفونس السادس (الأذفونش) ملك قشتالة حرب نصر الله فيها ابن تاشفين في واقعة الزلاقة، وهي أكبر واقعة حصلت في الأندلس، واستولى بعدها على غرناطة، ثم تغلب على ملوك الطوائف، وصار له ملك الأندلس والمغرب جميعاً إلى أن توفي سنة ٥٠٠هـ، وتولى بعده بنوه بالأندلس إلى سنة ٥٤٢هـ.

وكانت قامت بالمغرب الأقصى في سنة ٥١٤ دولة الموحدين على يد محمد بن تومرت الملقب بالمهدي. وبعد موته في سنة ٥٢٤هـ، خلفه بعهد منه وزيره عبد المؤمن بن علي. ولما ظهر أمره وتمكن سلطانه سير جنوده إلى الأندلس،

فاستولى عليها تمامًا في سنة ٥٤٥. وهو الذي بنى مدينة جبل طارق سنة ٥٥٥، ثم تقدم بجيوشه فافتتح الجزائر وتونس والمهدية، وما زال يتسع سلطانه حتى مات سنة ٥٥٨، واستمر خلفاؤه إلى سنة ٦٧٤. ثم تولى المغرب الأقصى دولة بني مُرين إلى سنة ٨٩٠. ثم دولة بني طائوس إلى سنة ٩٦١. ثم دولة الأشراف السعديين إلى سنة ١٠٩٦. ثم دولة الأشراف السجلماسيين، وهم الحاكمون إلى الآن.

وقد كانت البلاد على تمام الاستقلال في مدتهم حتى كان ما كان من تداخل الأجانب في بلادهم، وكثرة الثورات الأهلية بها، ثم عقد مؤتمر الجزيرة، وعزل السلطان مولاي عبد العزيز، وتعيين مولاي السلطان عبد الحفيظ، ثم ظهور فرنسا بالكلمة في بلاده بمظاهرة الإنكليز لها، ووقوف ألمانيا في طريقها للحصول على نصيبها هي الأخرى من هذه الغنيمة التي لم تذق حرارتها غير الفرنسيين. والدولتان لا يزالان إلى يوم كتابتنا هذه الكلمات بين وعد ووعد صلح وتهديد وتراخ وتشديد وتقريب وتباعد. وعلى كل حال فقد قضى على استقلال هذه البلاد الإسلامية التي بقيت حافظة له مدة ثلاثة عشر قرنًا، وهي آخر الدول العربية، والله يرث الأرض ومن عليها، يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء.

صفة جزيرة العرب

بلاد العرب يحدها شمالاً بادية الشام الكبرى، وشرقاً البحر الأحمر، وغرباً بادية العراق وخليج فارس وبحر عمان، وجنوباً المحيط الهندي.

وأرض هذه البلاد في الغالب رملية، وخصوصاً في وسطها فيما بين نجد وحضرموت والحجاز وعسير وبلاد عمان، حيث توجد الصحراء الكبرى التي يسمونها بالدهناء. وطولها أكثر من درجتين جغرافيتين، وعرضها نحو درجة ونصف، وهي ما يسمونه بالربع الخالي؛ وهي قفر بلقع لا نبات فيها ولا ماء؛ اللهم إلا بحار من تلك الرمال الناعمة التي تنقلها الرياح على الدوام من جهة إلى أخرى، وإذا صادفت حركتها مرور بعض القوافل التي تخاطر بنفسها في السير على حافاتها التهمتهم وأغرقتهم في جوفها وقبرتهم فيه كأنهم ما كانوا. ويمتد من شمال هذه الصحراء لسان يسير بين بلاد الحسا والقصيم، ثم يميل نحو الغرب حتى يمر ببلاد الجوف ويتصل ببادية الشام التي يسمونها بالنفود الصغرى.

أما سواحل البلاد فهي عامرة بالسكان وفيها كثير من المزارع. ويقطع بلاد العرب من الشمال إلى الجنوب جبال السروات، وفيها العيون والأنهار والبساتين النظرة والمزارع الكثيرة. وفي سفوح جبال اليمن يزرع البن الذي هو أحسن أنواعه في جميع العالم. وأشهر جبال الحجاز جبل الهدى وكرا بالطائف، وأشهر جبال معان الجبل الأخضر، وفي نجد جبل العارض وجبل طويق، وفي شمر جبل سلمى. وكل هذه الجبال عامرة بالسكان، كثيرة الخير والبركة.

وتنقسم بلاد العرب إلى ستة أقسام: الحجاز، اليمن ويتبعها عسير، حضرموت، عمان، البحرين، نجد ويتبعها الحسا.

أمّا الحجاز فهو إقليم مستطيل يحده غرباً البحر الأحمر، وشرقاً البادية الكبرى، وجنوباً بلاد عسير، وشمالاً بادية الشام، وطوله من الشمال إلى الجنوب يبلغ ١٥٠٠ كيلو متر، وعرضه من الغرب إلى الشرق يبلغ ثلاثمائة كيلومتر.

ويقطعه من الشمال إلى الجنوب جبال السراة، ويبلغ ارتفاع بعضها ٨٠٠٠ قدمًا. وفيها مياه كثيرة وغيابات وبساتين وقرى أهلة بالسكان من الأعراب. ومنحدرات هذه الجبال يتصل بها سهل إلى البحر يسمونه تهامة، وأرضه رملية وبعضها صالح للزراعة، ويزرع فيها الحبوب وغيرها من الخضر.

وبلاد الحجاز ولاية عثمانية منذ سنة ٩٢٢ هجرية. وكانت قبل الإسلام تتبع في الغالب لحكومة مكة لا سيما بعد ظهور قريش، وكانت تتداولها بعده ولاية مكة والمدينة إلى أن دخلت البلاد في يد الدولة العلية؛ فصارت تعين الولاية من قبلها، وتكون أمور البلاد المالية والإدارية في أيديهم، وتعين على إمارة مكة أميرًا من الأشراف لينظر في أمور العرب. وكان مركز الوالي أولاً جدة، فانتقل إلى مكة سنة ١٢٨٧.

وللولاية مجلس ينظر في أمورها الهامة: يتركب من قاضي مكة، والدفتردار، ومدير الحرم، والمكتوبجي (كاتب أسرار الولاية)، ومن نقيب الأشراف، ونائب الحرم، وصاحب سدانة البيت المعظم، ومفتي الحنفية، وقائم مقام الشريف في مكة، ومدير الصحة، ونقيب السادة الحسينية.

ويوجد بمكة ديوان تميز؛ أي محكمة نظامية تنظر في الدعاوى المدنية والجنائية في الدرجة الابتدائية، وأحكامها تستأنف في محاكم الأستانة. وتركب هذه المحكمة من نائب الشرع الشريف، وثلاثة أعضاء منتخبين من أهالي مكة، وقائم مقام الشريف. وقاضي مكة يعين من قبل الدولة لسنة واحدة قمرية، أما نائب الشرع فيعين لستين. ولهذه الولاية نواح وأخطاط يسمى متوليها مدير ناحية، وحاكمها يلقب بقائم مقام: ومنها الطائف، ورايح. ولكل قائممقامية مجلس يتركب من القائم مقام ومن نائب الشرع الشريف ومأمور المالية (ويسمونه مال مديري) ومن بعض الأهالي الذين ينتخبهم شريف مكة.

وإيرادات الولاية تنحصر في رسوم المحاكم النظامية ويبيع ورق البول (وهي أوراق مثل طوابع البريد تلصق على الأوراق الرسمية بدل التمغة في مصر).

أمّا القبائل فلهم مجالس عُرفية تنظر في أمورهم ابتدائية واستئنافية، وتتألف من القاضي وبعض الشيوخ ورؤساء القبائل مع من يختاره الطرفان للاشتراك معهم في الحكم.

ولأصحاب القضايا حق رفض أحكام هذه المجالس واستئنافها عند الشريف، وهو إما يؤيد أحكامها أو يُعدها ويكون حكمه نافذ المفعول، ولهم الحق أيضًا في إنابة من يدافع عنهم أمام هذه المحاكم.

وأهل الحجاز يقدرون باثنين مليون ونصف من النفوس، وكلهم إلا أهل مكة وجدة بدو يعيشون من ماشيتهم في الجبال، أما أهل السواحل فهم يعيشون من صيدهم وزوارقهم. وهم في الغالب شوافع المذهب.

اليمن

اليمن ولاية عثمانية واقعة في الجنوب الغربي من جزيرة العرب، وطوله من الشمال إلى الجنوب نحو ٧٥٥ كيلومتر، ومن الغرب إلى الشرق نحو ٤٠٠ كيلو متر. ويقدر أهل بأربعة مليون من النفوس، كلهم مسلمون على مذهب الزيدية إلا القليل فهم من اليهود، أما أهل عسير فهم وهابيون. وأرض اليمن تنقسم إلى قسمين: قسم السهول وتسمى تهامة، وهي إلى البحر، وقسم الجبال؛ وهي سلسلة من جبال السروات متصلة ببعضها من الشمال إلى الجنوب، وأعلاها جبل كوكبان، ويبلغ ارتفاعه عن سطح البحر ٣٠٠٠ مترًا، وجميع هذه

الجبال عامرة بالسكان وفيها عيون كثيرة تتكون منها أنهار تسير في وديان خصبة؛ منها ما يسير إلى العرب وتصب في البحر الأحمر، وأكبرها وادي مشرف، ووادي كانون جنوب القنفذة، ووادي عاشور عند ثغر حلى، ووادي السهام قرب الحديدة، ووادي هندان الذي يمر بمدينة تعز، والوادي الكبير قرب مُحَا.

أمَّا الأنهار التي تصب في المحيط الهندي فهي وادي الميدان ويصب قرب مينا عدن، ووادي داما، ووادي الشارد اللذان يجريان قرب صنعاء وينحدران إلى الصحراء أحدهما مارًّا بخرائب مأرب، والثاني بخرائب مَعِين، ثم وادي نجران، ووادي بيشة وغيرها.

وبعض هذه الأنهار تنعدم مياهه في الصحراء ولا تصل إلى البحر إلا في زمن شدة الأمطار التي تكاد لا تنقطع في هذه البلاد مدة الشتاء والربيعين، وبعضها يسير إلى جهة الشمال والشرق، ولا يلبث أن تتلاشى في جوف الرمال.

وقد عمل اليمنيون في جميع الأزمان لهذه الأنهار وفروعها سدودًا كثيرة على حسب ما تسمح به نظاماتهم الزراعية، وكان أكبرها في الزمن السابق سد مأرب الذي تقدم الكلام عليه. لهذا ترى أن هذا الإقليم زراعي، وكلما صعدت فيه إلى أعالي الجبال وجدتها مكسوة ببساط أخضر مما يوجد عليها من المزروعات المختلفة، التي ترى إلى جوارها غابات من الأشجار المثمرة أو غير المثمرة كالساج والعرعر وغيرها.

وحاصلات اليمن الزراعية هي الدخن، ويزرعونه في الجهات العالية وعليه مدار حياة الأهالي، والقمح، والشعير، والعدس، والسّمسم، والدرّة، والفلّ، والقطن، والنيلة، والتبغ، والخضر بجميع أنواعها، والفاكهة الكيرة؛

ومنها الامبا (المانجو) واللوز والبرقوق ويسمونه بُخاري والتين الشوكي ويسمونه البرشومي أو الصابور، وأهم حاصلات اليمن البن.

وتنقسم اليمن في إدارتها إلى أربع لواءات: لواء صنعاء، ولواء تعز، ولواء الحديدة، ولواء عسير. وفيها نحو ١٩٠٠ قرية.

وحيث أنا تكلمنا على تاريخ الدول التي قامت في هذه البلاد قبل الإسلام، فيجدر بنا أن نقول كلمة على الدول التي قامت بها بعده فنقول:

لما أسلمت اليمن في السنة العاشرة من الهجرة وسار بذلك وفدهم إلى المدينة، ولى عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل. وبعد وفاته صلى الله عليه وسلم صارت اليمن تابعة للخلافة الإسلامية إلى سنة ٢٠٤. وفيها أعلن محمد بن زياد عامل العباسيين عليها استقلاله، وسميت دولته بالدولة الزيدية، وكان مركزها زبيد. واستمر حكم بنيه عليها إلى سنة ٤٠٩ هـ. وفي أثناء ذلك قامت دولة اليعافرة في صنعاء من سنة ٢٤٧ إلى سنة ٣٨٧. ثم قامت الدولة النجاشية في زبيد من سنة ٤١٢ إلى سنة ٥٥٣. ثم الدولة الصليبية في صنعاء من سنة ٤٢٩ إلى سنة ٤٩٢. وكانت قامت في صعدة الدولة الرّسّية في سنة ٢٤٦، واستمرت إلى سنة ٦٨٠، وكان أمراؤها من الزيدية، وينسبون إلى الهادي يحيى حفيد قاسم الرسي أحد غلاة الشيعة في زمن المأمون. ثم قامت في عدن الدولة الزرعية من سنة ٤٧٦ إلى سنة ٥٦٩. وفي هذه السنة دخلت اليمن برمتها في حكم الأيوبيين إلى سنة ٦٢٥، وفيها قامت الدولة الرسولية إلى سنة ٨٥٠. وفيها قامت الدولة الطاهرية إلى سنة ٩٠٦، وفيها استولى عليها قانصوه الغوري. وما زالت تابعة لحكم المماليك حتى دخلت في حكم العثمانيين في عهد السلطان سليمان القانوني حوالي سنة ٩٥٠. ولكنها انسحبت منها سنة ١٠٤٣ لكثرة الثورات الداخلية التي كانت تقوم

بها. فعادت حكومتها إلى الأئمة، وكانوا نقلوا مركزهم إلى صنعاء. وحوالي سنة ١٢٦٠هـ رحف الإمام محمد ابن يحيى على تهامة (اليمن) وكانت في سلطة شريف مكة واستولى عليها، ودخلت زبيد والحديدة في سلطته. فانتهاز الباب العالي هذه الفرصة وبعث حملة تحت قيادة توفيق باشا إلى اليمن، فتخلى الشريف له عنها، وتخابر توفيق باشا مع الإمام واتفقا على صلح فحواه: اعتراف الإمام بسيادة الدولة، وأن يرتب له ٣٧ ألف ريال شهرياً يأخذها من إيرادات اليمن، والباقي يقسم مناصفة بينه وبين الدولة، وأن تقام في صنعاء قوة عثمانية مركبة من ألف جندي. فلما علم اليمنيون بذلك ثاروا وقتلوا الحامية العثمانية، وانسحب توفيق باشا مجروحاً إلى الحديدة ومات فيها من جراحه. وبقيت سلطة العثمانيين في هذه البلاد على الساحل الغربي لليمن أكثر من عشرين سنة. وبعدها جردت الدولة حملة على صنعاء مدة السلطان عبد الحميد المخلوع فاحتلتها، وحجزت الإمام في صنعاء ورتبت له مرتبات شهرية، وما زال بها حتى مات، وتولى بعده رجل من أقاربه اسمه السيد حميد الدين، ثم تولى بعده ولده الإمام يحيى الحالي، وفي مدته كثرت المخاصمات بينه وبين الدولة وقامت من أجلها حروب كثيرة بين اليمنيين والجنود العثماني، كانت صنعاء تقع أثناءها في يد هؤلاء تارة، وفي يد أولئك أخرى.

وبعد الدستور العثماني قامت فتتان باليمن: واحدة بزعامة الإمام يحيى، وأخرى بعسير بزعامة الإدريسي. فأرسلت الجنود العثمانية تلو الجنود إلى اليمن لمحاربة الإمام، وإلى العسير لمحاربة الإدريسي. فسارت فرقة اليمن من الحديدة إلى صنعاء التي استولت عليها بعد وقائع شديدة. واستعصم الإمام برجاله في الجبال وأقام في مدينة شهرار، ومن ثم لم يصل إلينا شيء من أخبار اليمن يعول عليه، اللهم إلا ما ورد في التلغرافات العمومية من أن الدولة فوضت لقائد

الحملة اليمنية المخابرة مع الإمام في الصلح، ولم يعلم شيء ما آل إليه أمر ذلك إلى الآن؛ اللهم إلا ما رود في تلغرافات روتر بتاريخ ١٦ شوال سنة ١٣٢٩ من أن الإمام عرض على الدولة العلية بمناسبة حربها مع الطليان لاعتدائهم على طرابلس، مساعدته لها بمائة ألف مقابل من اليمن، وهو أكبر دليل على انضمام أطراف الدولة إلى جسمائها في الشدائد التي يجب أن تنسى معها الاختلافات التي أوجدتها بعض الظروف بحق أو بغير حق، ويد الله مع الجماعة.

أمّا فتنة عسير فقد سار إليها الشريف حسين باشا من مكة في أوائل ربيع الثاني سنة ١٣٢٩، بعد أن استنفر معه قبائل عرب الحجاز. ولما وصل إلى قفذه أته رءوس قبائل عسير وقدمت له الطاعة فأمنهم، إلا قبيلة خرشان فإنها أبت أن تذهن لأمره؛ فأرسل الأمير إليهم ينذرهم بسوء العاقبة إن هم أصروا على عنادهم وعصيانهم، فلم يسمعوا له؛ فجهز عليهم جيشاً بقيادة ولده الشريف عبد الله بك، فهزمهم بعد قتال شديد وأسر كثيراً من وجوههم، وكان ذلك في ١٩ جمادى الأولى من السنة المذكورة. ثم سار الشريف مع عسكر الدولة فدخل مدينة أبها عاصمة عسير يوم ١٩ رجب، ومعه نشأت باشا قائد الجنود العثمانية بعسير، وبعد أن أقام بها خمسة عشر يوماً رتب فيها أمورها ووكد نظاماتها، بارحها عائداً إلى مصيفه بالطائف على طريق عامد. ولكن بعد سفره وردت أخبار بمحاصرة العرب لها من جديد. ثم أعقبتها أخبار بعرض الإدريسي للدولة مساعدته في حربها مع الطليان، والله يلهم ولاية أمور المسلمين ما فيه مصلحتهم وبه تكون حياتهم.

وأكبر ثغور الدولة باليمن الحديدية، وسكانها ٤٠ ألفاً من أجناس مختلفة؛ منهم الحبشي والسومالي والهندي والجاوي والفرسي والسوداني. وهواؤها رديء لكثرة رطوبتها وحمياتها. والطريق منها إلى صنعاء بين جبال عالية

يصعب السير فيها جدًّا، وأشهر البلاد التي في هذا الطريق مناخة وتبعد بمسافة ١٥٠ كيلومترًا عن الجديدة، وبمسافة ١٠٠ كيلومتر عن صنعاء التي بها مركز الولاية والتي ترتفع عن سطح البحر بنحو ٢٥٠٠ متر. وعدد أهالي صنعاء ٢٥ ألفًا؛ منهم ٢٠ من العرب، و٣ من الأتراك، وألفان من الهنود، وجو هذه المدينة حار ومطرها كثير.

وأهم موانئ بلاد اليمن عدن؛ وهي في يد الإنكليز من سنة ١٨٣٩ م. وهي الآن مركز تجاري مهم جدًّا بين الشرق والغرب. وموقعها الطبيعي من أمنع بلاد الدنيا؛ لأنها في وسط جزيرة صخرية تتصل بالقارة بلسان من الرمل. وقد حصنها الإنكليز بما لا يقل عن تحصين جبل طارق، وبذلك كانت لهم الكلمة النافذة في البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر.

ومينا عدن تبعد عن مدينتها قليلًا، وهي من الأهمية بحيث تراها على الدوام غاصة بأساطيل الإنكليز وبكثير من المراكب التجارية وخصوصًا التي تسير بينها وبين البصرة أو بينها وبين بومباي، ويقدر عدد السفن التي رست بمينائها في سنة ١٩٠٨ م بنحو ١٨٠٠ سفينة، وبلغت وارداتها في السنة المذكورة سبعة ملايين وسبعمائة ألف ليرة. ومدينة عدن مشهورة بصهاريجها القديمة المنحوتة في الصخور والتي تملؤها مياه الأمطار. ويبلغ عدد سكانها الآن ٥٠ ألف نفس، وكانوا عند استيلاء الإنكليز عليها لا يزيدون عن عشر هذا العدد. وأغلب سكانها من الهنود والسوماليين والأحباش واليهود وقليل من العرب. وعلى مقتضى المعاهدة التي عملت بين الباب العالي وحكومة الإنكليز سنة ١٩٠٤ م، جعلت أملاك الإنكليز في جنوب بلاد العرب ممتدة من بوغاز باب المندب إلى نهر بانا شرقًا، وهو ما لا يقل عن مائتين وعشرين كيلومترًا طولًا على ساحل المحيط الهندي، وخمسين كيلومترًا في داخل البلاد. ومما يدخل في

سلطة الإنكليز في جنوب بلاد العرب واحة الشيخ عثمان المشهورة بسلطنة لحج (ومركز سلطانها الحوطة)، ثم جزيرة بريم الواقعة في مدخل بوغاز باب المنذب، ومساحتها ٨٠ ميلاً مربعاً، وهي مركز تجاري مهم، ثم جزائر كوريا موريا على ساحل حضرموت.

وكل هذه الجهات تابعة إدارتها لحكومة عدن التي هي تابعة لإمبراطورية الهند وللإنكليز عدا ذلك شبه سيادة على الحكومات الصغيرة التي في سواحل حضرموت؛ لأنها تعطي ملوكهم مرتبات بدعوى عدم تنازلهم للممالك الأخرى عن شيء من أملاكهم، وأهمها سلطنة المكلة، وسلطنة مَهْرَه، والشحر، وتُريم.

وهذه البلاد على الساحل الجنوبي لحضرموت؛ إلا تريم فإنها تبعد عنه بنحو ٢٠ كيلومتراً، وأهلها يتكلمون بلغة يسمونها بالعُقَيْلِيَّة، وهي غير العربية، ولعلها مستمدة من لغة البلاد الأصلية التي يسمونها بالمسند، وهي لغة حمير.

عمان

حكومة عمان -وتسمى إمارة مسقط- واقعة في الزاوية الجنوبية الشرقية من بلاد العرب.

وكل ساحل عمان عامر بالبلاد والسكان، وطوله من ثغر مرتبط إلى بحيرة القطر نحو ٢٢٠٠ كيلومتر، وعرضه في داخل البلاد إلى الغرب نحو ٣٠٠ كيلومتر، وعاصمتها مسقط.

وتنقسم البلاد إلى البطنة (تهامة) ولا تمتد أكر من ٤٠ كيلومترًا أغلبها مغطى بالنخيل المشهور بجودة ثمره، ثم إلى قسم الجبال وأكثرها الجبل الأخضر وارتفاعه نحو ٣٠٠٠ متر، وفيه كثير من الغابات والأحراش. ويوجد بين هذه الجبال وديان كثيرة خصبة تسقى بواسطة مجاري ماء لها خزانات وسدود، كما كان شأنها في هذه البلاد من قديم الزمان.

وأهم حاصلات عمان: التمر والحنطة والذرة والشعير والبرسيم والنيلة والخضر وكثير من أنواع الفاكهة لا سيما الجوز الهندي والمانجو، ومن محاصلها خشب الند والصندل والصمغ العربي والصبر والتبناك. وفي جبال هذا الإقليم كثير من المعادن وبالأخص الحديد والرصاص والنحاس والكبريت والملح الجبلي. وعلى سواحلها مغاصات كثيرة للؤلؤ وأشهرها في مدن: صحار، ودمار، ومسقط. وأهل السواحل يشتغلون بصيد السمك ويصدرون منه كميات كبيرة إلى بلاد العجم وغيرها، ويجففون منه كميات كثيرة، وما يبقى من التصدير يغذون منه البقر ويسمدون به الأرض. وهذه البلاد مشهورة بخيلها وبقرها وغنمها، وجوها حار كثير الجفاف.

وعدد أهالي حكومة عمان يبلغ مليونًا وستمائة ألف شخص. ومساحتها لا تقل عن ثمانين ألف ميل مربع، وعاصمتها مسقط -أو مسكت- وسكانها ٢٥ ألف نفس، وبينها وبين مكة أكثر من ألفين كيلومترًا. ولها ميناء صغيرة ترسو السفن فيها. وتنقسم سكانها إلى قسمين: البدو أو سكان الخيام؛ وهم قوم رحل وراء المرعى، وفي الغالب من العرب العدنانية، ثم المتحضرون ويقال لهم: العُمانيون؛ وهم خليط من الهنود والعجم والبلوچستان والعرب والزنوج.

وأهل عمان على مذهب الإباضية المنسوب إلى «عبد الله بن إباح المري» (من المرية من أعمال طرابلس الغرب) الذي استولى على إفريقية الشمالية سنة ١٥٢ هـ وادعى فيها الخلافة.

وكانت عمان تابعة لحكم التبابعة، وأسلمت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكانت الخوارج تلجأ إليها هرباً من خلفاء بني أمية والعباسيين؛ لبعدها عن العمران الإسلامي. وكان تجارها ينتقلون في جزر المحيط الهندي مثل جاوة وسومطرة وغيرها من سواحل إفريقيا الشرقية. ومن كثرة احتكاكهم بأهالي تلك البلاد أذاعوا فيهم دين المسلمين وقبحوا لهم الوثنية؛ ففشا فيهم الإسلام، وكثر توارد العرب إلى تلك الجهات وتقربوا من أهلها بالمصاهرة، وما زالوا حتى أصبحت لهم الكلمة فيهم والسيادة عليهم.

وفي سنة ١٥٠٨ م استولى البورتغاليون على سواحل عمان، واتخذوا مسقط قاعدة لغاراتهم البحرية، ووجهوا عنايتهم لتحصينها. ولما استولى «الشاه عباس» على جزيرة هرمز سنة ١٦٢٢ م، لجأ أهلها إلى مسقط فازدادت بهم أهميتها. وفي سنة ١٦٥٨ م ثار أهالي مسقط على البورتغاليين وطردوهم من أرضهم. وبعد مدة استولى الهولنديون على مسقط فطردهم أهلها. ثم أتى الإيرانيون بقصد فتح بلادهم، فاستصرخ العمانيون بـ «أحمد بن سعيد» حاكم الشحر، فحضر وساعدهم على طردهم، فبايعوه ونادوا به سلطاناً عليهم في سنة ١١٦٧ هـ. وامتد حكم ابن سعيد شمالاً إلى جزيرة القطر وجزائر البحرين، وجنوباً إلى حضرموت وظفار، ثم توفي سنة ١١٨٨ هـ، وتولى مكانه ابنه عبد الصمد. ولما مات تولى بعده ابنه سلطان بن عبد الصمد. ولما مات تولى عمه سعيد بن أحمد بن سعيد. فأدرك أهمية مركز بلاده الجغرافي وعرف أن مستقبلها مرتبط بالقوة البحرية؛ فأنشأ أسطولاً مركباً من ثلاثين سفينة حربية، وسلاحها

بالمدافع، واستولى بقوته على جزيرة هرمز في الخليج العجمي، ثم استولى على جزيرة سوقطرة وجزيرة زنجبار، ثم وضع يده على سواحل زنجبار ورأس غاردافوى؛ وبذلك أصبح له السلطان المطلق في خليج العجم والبحر الهندي. وأنشأ طرقاً كثيرة في بلاده التي أصبحت محطاً لرحال التجار من الهند وفارس وشرق إفريقيا ومصر. وكان الوهابيون قبل هذا الزمن قد أغاروا على عمان ووضعوا خراجاً سنوياً على صاحبها، ولكن السلطان سعيد امتنع من أدائه إليهم. فأغاروا عليه وأحرقوا كثيراً من بلاده ولم ينقذه منهم إلا تحولهم عنه إلى حرب «إبراهيم بن محمد علي باشا» الذي قضى عليهم القضاء المبرم. بعد ذلك مال سعيد إلى الراحة، فباع أسطوله وقسم مملكته بين أولاده الثلاثة: فجعل زنجبار وما يليها من سواحل إفريقيا وجزيرة سوقطرة إلى ولده ماجد، وجعل القسم الشمالي من مملكته -وهو جزائر خليج البصرة وما يليه من الساحل الغربي- لابنه الأكبر التويني، وجعل القسم الجنوبي إلى ابنه تركي.

ولما توفي سعيد طلب التويني من أخيه ماجد أن يؤدي إليه خراجاً سنوياً فلم يقبل؛ فقامت بينهما الحرب مدة سنتين حتى تداخل الإنكليز وأصلحوا بينهما على أن يستقل ماجد بزنجبار، وأن يؤدي في نظير ذلك إلى أخيه التويني كل سنة أربعين ألف ريال.

ثم نازع التويني أخاه تركياً في نصيبه؛ فنقم الناس عليه وانفضوا من حوله وبايعوا أخاه تركياً، وساعده الإنكليز على دخوله مسقط، فهرب التويني إلى فيصل الوهابي، فأرسل معه جيشاً بقيادة ابنه عبد الله واستولى على بلاد عمان وسلمها إلى التويني، وانفرد بالحكم فيها حتى توفي سنة ١٢٨٥ هـ. وخلفه ابنه سالم فقبض على عمه تركي وسجنه، ثم أخلى سبيله بمداخله الإنكليز فسافر إلى بومباي. أما سالم فإنه ثار عليه في السنة الثالثة من حكمه رجل من قرابته اسمه

عزان، ونزع منه الملك، فبلغ ذلك تركيا وهو في بومباي فأسرع إلى بلاده وقتل عزان واستولى على عمان سنة ١٢٨٧. وكان أخوه ماجد قد مات في زنجبار، فعين أخاه برغشاً سلطاناً عليها.

ومن ثم بقيت حكومة عمان على غاية الصفاء من الإنكليز. ومن سنة ١٧٩٨ م إلى الآن عقدت بين الحكومتين جملة معاهدات تضمن بها للسلطان مرتباً شهرياً من خزينة الهند وتكفل له استقلاله وحفظ الأمن في داخلية بلاده، وذلك كله في نظير عدم تنازله عن شيء من بلاده إلى حكومة أخرى.

ومن هذا الوقت أخذت يد الإنكليز تمتد إلى أطراف هذه المملكة واحداً بعد الآخر؛ فاستولت على جزائر كوريا موريا سنة ١٨٥٤ م، وعلى جزائر خشم الواقعة في مضيق هرمز سنة ١٨٧٦، وفي هذه السنة نفسها أعلنت حمايتها على جزيرة سوقطرة. وكان سلطان زنجبار تنازل سنة ١٨٩٠ لألمانيا عن قسم من بلاده يبتدئ من مصب نهر روفوما جنوباً وينتهي إلى ونغا شمالاً في مقابل ٤ ملايين مارك. فبادرت إنكلترا فوضعت يدها على ما بقي لسلطنة زنجبار من السواحل، ثم أعلنت حمايتها على جزيرة زنجبار نفسها، وبعدها عقدت معاهدة مع إيطاليا استولت هذه بموجبها على قسم مما يلي بلاد الصومال.

جزائر البحرين

أهم هذه الجزائر جزيرة عوال، وفيها نحو ستين قرية صغيرة، وعاصمتها مدينة منامة، وسكانها نحو ٢٥ ألف نفس، وإلى جوارها جزيرة اراد. وأصل سكان هذه الجزيرة من عمالقة طسم وجديس، ثم استولى عليها الفرس، وصارت تابعة لحكم المناذرة ملوك الحيرة، ثم دخلت في سلطة المسلمين في

السنة السادسة للهجرة مدة حكم العلاء الحضرمي على إقليم البحرين. ثم استولى عليها البورتغاليون، ثم الإيرانيون، ثم إمام مسقط، ثم الدولة العثمانية، وينازعها فيها الآن الدولة الإنجليزية ويصورها كل منهما بلون بلاده على الخرائط الجغرافية. ويحكمها الآن الشيخ «عيسى بن علي» تحت حماية حكومة الهند.

ومن أهم حاصلاتها wool، وقد بلغت صادراتها سنة ١٩١٠م مليوناً ومائة وسبعين ألف ليرة إنكليزية. ويقدر عدد سكان جزائر البحرين بمائة ألف نسمة.

نجد

نجد هي القسم الواسع الواقع في وسط جزيرة العرب، وفي منتصف المسافة بين المدينة وبغداد. ويقسمونه إلى قسمين: الشمالي؛ وهو الحائل وما والاها ويسمونه نجد الحجاز، والثاني العارض وما يليه، ويسمونه نجد اليمن. ومعنى نجد الشيء المرتفع، فهو مرتفع عن تهامة؛ وهي الأرض التي تلي البحر. ويرتفع سهل نجد عن سطح البحر بنحو ١٢٠٠ متراً. وفي هذين القسمين جبال مشهورة بكثرة خيراتها؛ منها جبل سلمى، وجبل طويق، وجبل أجأ.

ويحيط بنجد من الشمال صحراء الشام، ومن الغرب صحراء الحجاز، ومن الجنوب البادية الكبرى، ومن الشرق لسان من الدهناء، ولذلك كان الوصول إليها لا يخلو من المشقة.

شمر

شمر واقعة في منتصف المسافة بين مكة والبصرة، وهي عبارة عن جبل شمر وجبل سلمى. والأودية التي بينهما صالحة للزراعة، وفيها كثير من البساتين، ويقدرون مسطحها بأربعين كيلومترًا مربعًا. وهذه الجهة إدارتها في يد آل الرشيد ومركزهم مدينة الحائل، وسكانها نحو عشرين ألف نفس. وفي جنوبها قصبة تسمى كفار، ويقدرون سكانها بثمانية آلاف نفس.

وفي شمر نحو أربعين قرية كبيرة تحيط بها غابات النخيل، وأغلب سكان شمر من ذوي الخيام ويقدرون بنحو أربعمائة ألف نفس، كلهم من أهل السباحة والنخوة. وأشهر حيوانات هذه الجهة الخيل، وهي أجمل أنواعها في الدنيا بأسرها، ويوجد عندهم الحمير والإبل والبقر، وتكثر عندهم الأغنام، ويوجد في جبالهم النعام والبقر الوحشي والفهد والثعلب والذئب والغزال والأرنب وغير ذلك. وإلى شرق شمر بميل إلى الجنوب بلاد القصيم. وأغلب أرضه وديان خصبة تزرع فيها الحبوب على اختلاف أنواعها، وكثير من أصناف الفاكهة كالعنب والرومان والزيتون والمشمش والبطيخ والفاوون، وفيه كثير من النخيل. وفي وسط أرضه أكمام تكثر فيها الغابات. ويقدرون عدد أهله بثلاثمائة ألف نفس، كلهم يسكنون الخيام إلا القليل منهم؛ فإنه يسكن القرى التي لا تزيد عن ثلاثين قرية، وأشهرها بريدة وعنيزة. وبلاد القصيم نصفها الشمالي تابع لأمير شمر، والنصف الجنوبي تابع لأمير الرياض.

العارض

هي جبال نجد اليمن، وهي المشهورة بنجد الآن، وإذا أطلق هذا اللفظ فلا ينصرف إلا عليها. وعيون هذا الجبل غزيرة وأوديته كثيرة وفي غاية الخصوبة، وتكثر فيها المزارع والبساتين. وهذه البلاد الآن وما والاهما من بلاد القصيم في حكم آل سعود، وعاصمتها الرياض، وهي من أهم مدن نجد. ويكثر في هذه البلاد النخيل والحيوانات الأهلية وأخصها الخيل والإبل والغنم. وأغلب أهلها أهل بادية، ويقدر عددهم بنصف مليون نفس، وكلهم وهابيون.

وإمارتا الرياض والحائل تابعتان لمتصرفية نجد التي يدخل في دائرتها الحسا ومركزها مدينة الحسا. وكلها داخل في دائرة ولاية البصرة. ويشغل أهل السواحل بالتجارة وصيد اللؤلؤ والأسماك، ويحفظونها ويصدرون منها إلى الخارج كميات وافرة. وأعمر بلاد الحسا قضاء القطيف، ثم البلاد التي جنوبها إلى بحيشجزيرة القطر، وغالبها صحاري رملية، وتكثر المزارع فيها إلى جهة السواحل وفيها النخيل بكثرة. وبلاد الحسا مشهورة بالخمّر الحساوية، ويكثر في فيافيها السباع والنعام وحمر الوحش. ومن صناعة هذه البلاد العبي المشهورة وغير ذلك من المنسوجات وبعض الأعمال النحاسية. وهواء البلاد حار كثير الجفاف وصحي؛ إلا في القطيف فإنه رطب لكثرة المستنقعات التي حولها.

وتنقسم هذه البلاد إلى أربعة أقضية: قضاء الحسا، وقضاء القطيف، وقضاء القطر، وقضاء الجفوف، وهو أكبرها وأوسعها.

وعدد سكان الحسا يقدر بخمسة وثلاثين ألف نفس، نصفهم أهل حضر والباقي بدو. ويوجد في الحسا مياه معدنية بكثرة، وأرض هذه البلاد تُسقى من الأحساء (مفرده حسا) وهي الجداول الطبيعية. وقد تجتمع جملة جداول وتصب في بركة تُكوّن خزاناً مستديماً لباقي الأراضي.

أخلاق العرب

العرب أخلاقهم في البادية واحدة في الغالب من قديم الزمان؛ فهم أهل صدق ووفاء وشهامة وشجاعة وكرم شديد، والغيرة على نسائهم، ولا قيمة للحياة في نظرهم إلا مع العزة. يأنفون العار، ويحفظون الجوار، ويدافعون عمن دخل في وجههم (حمائتهم). وإذا بغى بعضهم على شخص فقال لهم: أنا في وجه فلان -يعني رجلاً من قبيلتهم، ولو في غيبته- رجعوا عنه واحترموا حماية صاحبهم. يعرفون المعروف لصاحبه، ولا تأخذهم في الحق لومة لائم. وهم أبعد الناس عن الرياء والنفاق، وكلامهم كله صراحة وليست فيه من ألفاظ التفخيم وجل التعظيم ما تضيع معه الحقيقة؛ فهم ينادون أمير مكة وهو في منزلة الملك منهم بقولهم: «يا شريف» كما كانوا ينادون الرسول بقولهم: «يا محمد». ضمائرهم تسيل على ألسنتهم، وسلاحهم أقرب الأشياء إلى يدهم. الربيع عندهم خير الأيام، واللحم سيد الطعام، وهم أبعد الناس عن التأنق في المأكّل والملبس. يغير قويمهم على ضعيفهم، ويكثرون من غزو بعضهم البعض، ولا يترك الرجل منهم ثأره مهما كان ضعيفاً. وإذا لم يتيسر له أن يحصل على حقوقه من غريمه شخصياً كان له في عرفهم أن يغير على خميسه؛ وهو أي شخص من قبيلته يتصل معه في نسبه إلى الجد الخامس. وإذا قتل شخص آخر

ولم يتمكن صاحب الدم أن يقتص من القاتل قتل به أباه أو خاله أو عمه أو أحد بنينهم، وبه يسقط القصاص. وبعضهم يرضى بالدية في قتيله؛ وهي عندهم ثمانمائة ريال في العبد، وألف في الحر، وعشرة آلاف في الرجل الشريف. وإذا قُتل أحدهم أوقفوه في قبره حتى يأخذوا بثأره وعندها يفتحون جدرته وينيمونه في فراشه الأخير مرتاحًا - على زعمهم - مما صنعوا.

ومن عوائدهم الممادة؛ وهي أنه إذا قتل أحدهم يذهب أهل القاتل إلى أهل المقتول ولا يشربون لهم قهوة ولا يأكلون طعامًا. فإذا سئلوا عن حاجتهم سألوهم الممادة؛ وهي تأجيل الطالبة بالقصاص شهرًا أو شهرين، فيقبلون منهم أجلهم في الغالب. وعليه يكون القاتل في أمن على نفسه طول هذه المدة التي يجتهدون أثناءها في الاتفاق مع أهل المقتول على الصلح أو الدية. فإذا انقضت دون أن يتفقوا طالبوهم بالقصاص؛ وإلا ثأروا لأنفسهم بأي طريقة.

وإذا اتهم شخص منهم وأنكر أتوا به إلى الملحس؛ وهو رجل مخصوص عندهم فيأتي بحديدة محمأة في النار ويلحسه إياها. وهم يزعمون أنه إذا كان صادقًا لا تضره وإلا فإنها تحرق لسانه. وبعضهم يخط دائرة على الأرض يوقف فيها المتهم ويحلفه، ويعتقدون أنه إذا كان كاذبًا لا يمكنه الخروج منها مطلقًا.

أما المتحضرون من العرب أو الذين لهم صلة بأهل الحضر كالحمالة والمقومين مثلاً فأخلاقهم أقرب إلى أخلاق الحضر منها إلى البداوة، والطبقة السافلة منهم في الغالب من أشر ما يوجد من نوع الإنسان على العرب. وربما كانت حاجتهم إلى العيش هي التي ترمي بهم إلى ائتلاف العيوب واقتراف الذنوب. وليست أخلاقهم مما يؤخذ على أخلاق العرب في مجموعها، وأمثالهم في جميع الأمم كثيرون.

جدول بالقبائل الموجودة ببلاد العرب ومساكنها وعدد نفوسها

اسم القبيلة	البطون المتفرعة منها	عدد	مساكنهم
	(قبائل الحجاز)		
عنيزة	الحسنة. حلاس. (ومنهم الرُّولة والمخلف) وبشير (ومنهم ماجد وسلسقى) وأولاد علي (ومنهم المشاركة. المُشطا. الحماّمه. الجدّالمّة وطلاح).	٣٥٠٠	شمال المدينة في شرق مدائن صالح إلى خير.
الحويطات	الحازاي. الربضات. عمران. بني عطية. دبور. بدول. السبابحة. الترايين. والبطحة	٧٠٠٠٠	من محطة العلاء إلى معان والعقبة وغرة.
بلى		٣٠٠٠٠	من العقبة إلى جنوب الوجه

اسم القبيلة	البطون المتفرعة منها	عدد	مساكنهم
جهينة	بني مالك (ويتفرع منهم قبائل الصيحة. العيايشة. عروه. كومه. سُبْنَات. الحصينات. الأساوره. المسادي. الرفاعه. بني كلب. الحياذله. الحمده. والمواليد). ثم بني موسى (ويتفرع منهم البراهمة. الموال. المرادين. العلاوين. زيبان. العوامرة. تنره. والسايحة).	٥٠٠٠٠	شرق وشمال المدينة إلى الوجه
عبس (١) (هينم)	مُهميزان. ذوي الرشيد. ذوي براك. النوامسة. الشرارات، الهتمان.		وهي قبيلة صغيرة في شمال ينبع.
حرب	بني سالم (ومنهم ميمون، ويتفرع إلى محامدة، ولاوعة. رحله. عمرو. حيدر. أحامده. صبح ثم المراوحة وهي الحوازم وتتفرع إلى نوامية. قراف. ظواهر. جبول. حنيطات. ذرعات. حجلة. مزينه. ردادده. حناينه) ثم بني مسروح (وتتفرع منها عطور. مناشك بشر. معبد. البلادية. حمران. البدارين. بني جابر. عوف. زبيد.	٨٠٠٠٠	وهم يسكنون من الحمرة شمالاً وشرقاً وغرباً إلى عسفان.

(١) عبس هذه هي التي كان لها في الجاهلية ذلك الجاه المنيع. وكانت إلى القرن الثامن الهجري قوية فاعتدت على جاراتها؛ فنقم العرب عليها وأوقعوا بها؛ فشنت شملها إلى اليمن وغيره؛ ومن ثم ضعف أمرها.

اسم القبيلة	البطون المتفرعة منها	عدد	مساكنهم
النخالة	قبيلة حقيرة في ضواحي المدينة يستعملهم أهلها في خدمتهم وفي زراعة بساتينهم وحقولهم، وهم رافضة، ولا يسمون أبناءهم بأسماء أبي بكر وعمر وعثمان وعائشة. ويمسون أولادهم المرون، وهم يخللون نكاح المتعة. وأهل المدينة لا يصاهرونهم.	١٢٠٠٠	
مطير	دويش. ميمون. بني عبد الله.	٤٠٠٠٠	شرق المدينة شمالاً إلى نجد وجنوباً إلى الصفيينة.
بني سليم		٢٠٠٠	شرق المدينة بجنوب إلى حاذه
عنية	برقا وبريا (ويتفرع منها قبائل روسان. الروقة. الشيايين. الدعاجين. العَصمة. جذعان. والحناتيس).	٢٠٠٠٠	شرق البادية الواقعة على طريق الشرق بين مكة والمدينة.
قريش		٢٠٠٠	شمال عرفة والطائف.
هُذَيْل	العلويين. التدويين. بني خالد	١٠٠٠٠	الجال التي بين مكة والطائف.
ثقيف	بنو سفيان. بنو سعد. ناصره. ربيعة. عيله.	٣٠٠٠٠	جنوب وشرق الطائف.
البقوم البجوم		٢٠٠٠	شرق الطائف.
عدوان		٢٠٠٠	» »

اسم القبيلة	البطون المتفرعة منها	عدد	مساكنهم
بني الحارث		٢٠٠٠	» »
بني سعيد		٣٠٠٠	جنوب الطائف.
بني لحيان		١٥٠٠	بين مكة وجدة.
الجحادة			وادي يللم إلى البحر.
قبائل	بني فهم. يزيد. بجالة. منعان. أشراف ذوي زيد. بني هلال. بني عفيفي. أشراف ذوي حسن. بلأسود. بلأعور. بني سليم. بني عمر. بني علي. بني زيدان.	١٠٠٠٠	جنوب مكة وعلى طريقها إلى الليث.
قبائل	رفاعة العبيدات. الهجاله. بني كبير. أكلوب. العبادلة. البيشة. بني سعد. بني سعد ميمون. بني مالك. زهران. غامد. شمران. وبلقرن. بني الأسمر. ناصر. بني الأحمر. وشهران.	٦٠٠٠٠	شرق الطائف إلى الجنوب.
	(قبائل عسير)		
قبائل	بني علقم. زفيره. بني ربيعة. المقيد.	١٠٠٠٠	شمال وجنوب العسير
قحطان	رقيف. عبدة. شريف. سحان. وراعه.	١٠٠٠٠	جنوب العسير شرق
يام	ذوي محمد. وذوي حسين.	٣٠٠٠٠	في وادي نجران
	(قبائل اليمن)		
بايعر	بني زيد. بني حرب. بني عبس. وبني سهيم.	٦٠٠٠	شمال القنفذة

اسم القبيلة	البطون المتفرعة منها	عدد	مساكنهم
قبائل	بني بجير. وبني الروحة.	٥٠٠	في وادي وبيه قرب القنفذة
//	تلمنثشر. بلعريان. العوامر. بلكناني	٤٠٠٠	وادي حلى قرب وادي وبيه
//	بني سبيل. بني شُيَيل. وجيزان.	٦٠٠	قرب العرايش
//	بني مروان. حَرَضُ	١٥٠٠	بين جيزان ولحية شمال الحديدة
//	بني قُصَيْر. بني جامع. بني شبية. بني شايح	١٠٠٠	بجوار لحية
//	بني رين. وبني راجح. الفرائته. بني طاهر. وبني هيجان	٧٠٠٠	وادي الواعظات شرق لحية
//	بني حسن. بني عبس. أسلم.	٥٠٠	قرب وادي الواعظات
//	آل مره. الكُرب. الصَّيْعَر.	٣٠٠٠٠	بين جبل برط والجوف
//	نهم. أرحب.		بلاد حاسد شمال صنعاء
//	عمران.	١٠٠٠	شمال الحديدة
//	همدان.	١٠٠٠	شمال صنعاء
//	بني مطير.	٣٠٠٠	قرب صنعاء
//	البروية.	١٠٠٠٠	قرب صنعاء غرباً
//	الحضور.	٤٠٠٠	جنوب صنعاء
//	بني شداد. خولان. بني جبير. عبس. فلاح. ضبيان. مجاهد. قيس الأعماس.	٦٠٠٠	شرق صنعاء

اسم القبيلة	البطون المتفرعة منها	عدد	مساكنهم
	(قبائل حضرموت)		
قبائل	آل عموري. المراشدة. القشن. الخامعة. ونوح.	٢٥٠٠	في وادي دُغن جنوب شباب.
//	الحالكة. آل محفوظ. آل يزيد. آل بطاطي. وآل كثير.		في وادي لسير أحد شعاب وادي دُغن.
//	آل العوابة.	٥٠٠	في وادي العين
قبائل	باصليب. بانيس. بني ماضي. الجعدة. الصقّره. نهب. وبني محاشن.	١٥٠٠	وادي عمد
//	بني حيدر. بني الليث. وشحا.	٥٠٠	وادي رقيه
//	آل بالعيد. الصيغر. ونافع	٢٥٠٠	وادي دهر
//	آل كثير. العوامره. آل باجري. آل جابر. وآل تميم.	٦٠٠٠	وادي بن راشد
//	يافع.	٢٠٠٠٠	الجال الواقعة شرق شمال عدن.
//	العواليق. آل ديب. آل عبد الواحد. شبيان. العكابر. وبني حسن.	٥٠٠٠	بين عدن والمكّله.
//	آل حموم.	١٠٠٠	بجوار الشحر
//	بني هود. مناهل. ومهره	٢٠٠٠	بين قريتي هود وظفار
//	آل كثير.	٥٠٠	ظفار وما حولها
//	قرا. والشحره.	٣٠٠٠	الجال المشرفة على ظفار
//	السادات العلوية.	٣٠٠	حضرموت
قبائل عمان	بنو شنعاب. النقاويون		

اسم القبيلة	البطون المتفرعة منها	عدد	مساكنهم
قبائل الحسا	قبيلة الحرة.	٣٠٠٠	في أطراف القطيف
//	قبيلة بني هاجر.	٤٥٠٠	غرب القطيف
//	بنو خالد (بن الوليد)	١٠٠٠٠	غرب الحسا
قبائل نجد	بنو سبيع.	٦٠٠٠	بين الرياض والحسا
//	قبائل عنزه (بطن من التي بالحجاز). الذي بني القرم. بني سالم وبني نخيض.	١٤٠٠٠	بين المدينة المنورة والقصيم
//	العجمان وهم مشهورون بالشجاعة والفروسية	٦٠٠٠	شمال الرياض
//	قبائل قحطان (وهم غير قحطان اليمن).	٣٠٠٠٠	ينقسمون إلى قسمين: الأول: بين الرياض ورينه، والثاني: بالحوطة
//	قبائل الضعيفات. الجعافرة الربايعة، بني ضيغم	١٥٠٠٠	وادي الدواسر جنوب الرياض بعر
//	بنو سلجه، بنو لحم. بنو حيتم. عرب الأخايل (ويقال: إنهم بقية من بني هلال المشهورة).		في القصيم

سفر الجناب العالي من مصر إلى جدة

طالما كانت تتوق نفس مولانا الخديوي «عباس باشا حلمي الثاني» إلى حج بيت الله الحرام وزيارة نبيه الكريم. وكانت هذه الفكرة المقدسة تتردد في خاطره من سنة إلى أخرى، حتى تأكدت عزيمته على أداء هذه الفريضة في شهر رمضان الماضي سنة ١٣٢٧هـ؛ فأصدر أمره السامي بتجهيز ما يلزم لسفره إلى الأقطار الحجازية. وفي شهر ذي القعدة أخذ -حفظه الله- في تعيين من يلزمه في هذا السفر الميمون من رجال معيته الفخام ومن غيرهم من العلماء الأعلام والذوات الكرام. وبالجمله فقد صدرت إرادته السنية بتشرفي بالسفر في خدمة ركابه العالي، وصدر الأمر إلى بعض الحاشية الخديوية من ملكيين وعسكريين بالسفر؛ بعضهم إلى جدة، وبعضهم إلى مكة لانتظار تشريف جنابه السامي بهما، يخص بالذكر منهم أصحاب السعادة: أحمد شفيق باشا رئيس الديوان الخديوي العربي والأفرنكي (مدير الأوقاف العمومية حالاً)، وحسين محرم باشا السرياور الخديوي ومهمندار جنابه العالي في هذه الرحلة المباركة (وكيل الحربية حالاً)، ومحمد عزت باشا رئيس الديوان الخديوي التركي، وأحمد خيرى باشا ناظر الأوقاف الخصوصية، وأحمد صادق بك وكيل الخاصة الخديوية، ومحمود بك محمد رئيس قلم عرضحالات المعية السنية، وفضيلتلو الشيخ محمد شاكر وكيل مشيخة الأزهر الشريف، والسيد محمد البلاوي من

علماء الأزهر ووكيل الكتبخانة الخديوية المصرية، والشيخ محمد عاشور مفتي الأوقاف الخصوصية، وغيرهم من حضرات ضباط الحرس الخديوي.

وفي يوم السبت الموافق ٢٦ ذي القعدة ٩ ديسمبر سنة ١٩٠٩م كانت تشريفات الوداع، فامتألت أرجاء سراي عابدين بصنوف المودعين، وتواردت الوفود من جميع أنحاء القطر للثم هذه اليد المباركة بحال لم يسبق لها مثيل، وقلوبهم تبتهل إلى الله تعالى بأن يحفظ ملك البلاد المحبوب، وأن يرده إليهم قريباً بكل ما يرجون له من كمال الصحة والعافية. ولم تقتصر هذه العاطفة على المسلمين؛ بل كنت ترى المصريين على اختلاف أديانهم مشتركين في السرور بهذا الإحساس الشريف والشعور الحي الذي تحرك في فؤاد ملك من أكبر أمراء الإسلام للقيام بأداء هذا الواجب الديني الاجتماعي، مؤملين من ورائه الخير والسعادة العظمى إن شاء الله للإسلام وأهله عموماً، ولمصر وبنيتها خصوصاً.

وفي ٢٨ ذي القعدة سنة ١٣٢٧هـ صدر إلى عطوفة رئيس النظار الأمر العالي الآتي:

«قد شاءت الإرادة الإلهية بتحقيق رغبتنا في أداء فريضة الحج وزيارة الروضة الطاهرة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام، فعزمتنا على السفر لهذا القصد الجليل في هذا العام. ولوثوقنا في عطوفتكم رأينا أن تقوموا مقامنا مدة غيابنا في إدارة شئون حكومتنا بما نعهد فيكم من الخبرة والدراية، وقد أصدرنا هذا إليكم بذلك راجين من الحق عز شأنه أن يوفقكم مع حضرات النظار زملائكم لما فيه سعادة الأمة وخير البلاد.

وإننا لنرجو أن يكون توجهنا إلى تلك الأقطار المباركة ووقوفنا بالذات على أحوال الحجاج المصريين وحاجاتهم باعثاً في المستقبل لراحتهم واطمئنان بالهم، خصوصاً في هذا العهد عهد مولانا خليفة المسلمين السلطان (محمد الخامس) أعزه الله وأيد ملكه بالعدل والتوفيق.

هذا وسنرفع أكف الضراعة إلى مقام العزة الإلهية في تلك البقاع الطاهرة بأن يوفقنا إلى خدمة الأمة العزيزة المصرية التي نفارقها إلا وقلبنا معها، وفكرنا مشغول بما يؤدي إلى خيرها ومجدها في الحال والاستقبال. كما أننا على يقين من أن دعواتها الصالحة تكون ملازمة لباقي الحل والترحال إن شاء الله.

وفي الساعة السابعة والدقيقة الأربعين من صباح يوم ٢٩ ذي القعدة سنة ١٣٢٧هـ، وهو اليوم الذي تقرر فيه رسمياً سفر الجنب السامي، تحرك القطار الخصوصي من سراي القبة مقللاً للحضرة الفخيمة الخديوية وبعض الحاشية الكريمة. فوصل إلى محطة مصر حيث كان في انتظار جنابه العالي أصحاب السعادة النظار الكرام والعلماء الأعلام ووكلاء الدول وقناصلها، وكل من في مصر من الذوات وأصحاب الحشيات. وبعد أن صافحهم -حفظه الله- مُودّعاً من الكل بالدعاء الصالح، تشرف حضرات النظار بالركوب مع سموه، وسافر القطار على بركة الله تعالى إلى السويس. وكانت جميع محطات السكة الحديدية مزدانة بأفخر الزينات الباهرة، وفيها ما لا يحصى من جموع المودعين، لا سيما في محطتي بنها والزقازيق اللتين احتشد فيهما خلقٌ كثيرٌ يضرعون إلى الله تعالى بأن يرد عليهم أميرهم محمود العودة، محروساً بالعناية الصمدانية. وما زال القطار سائراً تشيعه القلوب حتى وصل بسلامة الله إلى السويس، ثم إلى محطة الحوض في الساعة الأولى بعد الظهر. وهناك كانت معالم الزينات في أجمل مظاهرها، وكان المستقبلون من عليّة المصريين لا يحصون عدداً، حيث

قامت إلى السويس قطر مخصوصة من جميع جهات القطر تقل وفود المودعين من عواصم الثغور والمديريات، وفي مقدمة الجميع حضرات أعضاء الجمعية العمومية ومجلس شورى القوانين يتقدمهم صاحب الدولة والفخامة البرنس «حسين كامل باشا» (وكان رئيساً لهما). فلما وقف القطار نزل الجنب العالي وصافح دولته وكل من كان حاضراً من الأمراء والعظماء، شاكرًا لهم تحملهم هذه المشقة، وأثنى عليهم بلسان كله عطف وحنان، ثم التفت إلى دولة البرنس قائلاً له: «إني أشكرك من صميم فؤادي؛ لا بصفتك رئيساً للشورى والجمعية العمومية فقط؛ بل بصفتك كبير البيت الخديوي». فلم يتمالك دولة الأمير نفسه تلقاء هذه الكرامة الكبرى والعاطفة الشريفة أن ذرفت عيناه بالدموع، وقال مجيئاً عن هذه العبارة السامية الرحيمة: «لست يا مولاي مهما بلغ من أمري غير عبد من عبيدكم الخاضعين المخلصين لعرشكم، قد امتزت بشرف القربى من سموكم». فحنى الجنب العالي رأسه لهذا الجواب الذي كان له أجمل وقع في نفوس الحاضرين؛ لأنه جمع إلى محض الإخلاص جليل المحبة والولاء.

وهناك صعد الجنب العالي إلى وابور المحروسة، وبعد أن استراح قليلاً ابتدأت التشريفات بحال كنت تتخيل معها أنك ترى عياناً عاطفة هذا الأمير الجليل المحبوب تتعانق مع عواطف رعيته الصادقة المخلصة، وكنت كأنك تشاهد الدعاء الذي كان يخرج من أعماق القلوب صاعداً إلى السماء؛ رجاءً إلى الله تعالى أن يحفظ هذه الذات السامية وأن يعيدها إلى ملكها بعد أداء هذه الفريضة المقدسة في صحة تامة ومسرة عامة.

وفي الساعة الثالثة بعد الظهر تحرك اليخت قاصداً جدة، وكان مقلاً للجنب العالي وصاحبة الفخامة والدة سموه الرفيع وصاحبات الدولة الأميرات السنيات: عطية هانم أفندي، وفتحية هانم أفندي كريمتي الحضرة

الخديوية الفخيمة، والبرنيس فاطمة هانم أفندي عمة جنابه السامي، وكنّ قد حضرن مع دولة الوالدة على قطار خاص وصل إلى السويس قبل تشريف الجناب العالي إليها.

وما زال اليخت سائرًا حتى حاذى ثغر رابع من الشاطئ الشرقي، وهو على عر ض ٢٢ درجة و ٢٨ دقيقة، وطول ٢٨ درجة و ٥٨ دقيقة، وبينه وبين جدة مائة ميل وتسعة، فأحرم الجناب العالي إحرامًا كاملاً هو ومن كان في معيته من الحجاج، واستمرت الباخرة في سيرها حتى إذا صارت على بعد ساعتين من جدة، أخذت مبانيها تظهر شيئاً فشيئاً حتى تجلت للعيان بيضاء ناصعة، وظهرت في جنوبها ضيعة صغيرة يسمونها بالنزلة، وكلها أكواخ تسكنها الأعراب وبعض الأهالي، وغالبهم من صيادي الأسماك. وفي قبالة هذه الضيعة من جهة البحر جزيرتان صغيرتان؛ إحداهما وهي الشمالية تسمى جزيرة سعد، والثانية تسمى جزيرة سعيد، وفيهما الحجر الصحي لثغر الحجاز، وفي الأولى محل للتبخير وآلة لتكرير المياه الملحة وبعض أحذية^(١) مبنية لإقامة المحجور عليهم فيها. فإذا كانت جوازات المراكب القادمة إلى هذا الثغر غير نظيفة أخذ الحجاج إليها في سفن شراعية يسمونها سنابك (مفردها سنوك) فيصل إلى الجزيرة الأولى في ثلاث ساعات أو أكثر، وإلى الثانية في ضعف هذا الزمن، فيقضون في هذه أو تلك مدة الحجر التي يقدرها حكيم الفرنتينات بجدة.

وفي الساعة الثانية بعد ظهر يوم الثلاثاء غرة ذي الحجة ألقت المحروسة مراسيها على نحو ثلاثة أميال من الشاطئ؛ لأن المراكب الكبيرة لا تستطيع الدخول إلى مينائها لقلة عمق المياه فيها. وبقي بها الجناب العالي إلى صباح اليوم

(١) مفرده حذاء؛ وهو قسم من أقسام الفورنتينة يوضع فيه أناس على حدتهم ليقضوا به أيام الحجر المقررة عليهم، ولا يمكن أحد منهم أن يغادر حدود هذا القسم بأي حال قبل انتهاء المدة.

التالي. وكان يوجد خارج الميناء كثير من المراكب التي أتت إلى هذا الثغر بالحجاج من الهند والروسيا وتركيا وبلاد المغرب ومصر وبور سودان وغيرها، وكلها رافعة أعلامها ترحيبًا بمقدم سموه، كما كانت السنايك التي ظلت تغدو وتروح في مياهها رافعة على سواريتها العلم العثماني؛ إكرامًا لتشريف جنابه العالي.

مدينة جدة

قال «البكري» في معجمه: «جدة -بضم أوله- ساحل مكة؛ سميت بذلك لأنها حاضرة البحر، والجدّة من البحر والنهر ما يلي البر، وأصل الجدّة الطريق الممتد». وأهل البلاد يسمونها الآن جدّة -بكسر الجيم، ويسميها المصريون: جدّة -بفتحها، وكلها على ما أرى تسمية صحيحة؛ لأن الجدّة -بالكسر- اليمن والسعادة، وهذا الثغر بلا شك منه المادة التي تقوم بحياة هذه البلاد كلها، وأي شيء أسعد مما يقوم بحياة الإنسان ووجوده. كما أن الجدّة -بالفتح- الطريق الواسعة، وليس من طريق في بلاد الحجاز أوسع من هذه. وهي واقعة على الساحل الشرقي للبحر الأحمر على ٣٩ درجة وعشر دقائق من الطول الشرقي، وعلى ٢١ درجة و٢٨ دقيقة من العرض الشمالي. وقد كانت قرية صغيرة في بادئ أمرها يسكنها وما حولها قضاة قبل الإسلام، فلما كانت سنة ٢٦ للهجرة في خلافة سيدنا عثمان رضي الله عنه اشتكى الناس له الشدة التي يعانونها في ميناء الشعيبة لكثرة ما فيها من الشعاب التي كانت تعوق سير السفن بها، وقالوا له: إن في شهاها مكانًا خيرًا منها. فذهب عثمان إليه في جمع من قومه ليعاينه بنفسه فوجده حقيقة أحسن من الأولى، فأمر بجعله ثغرًا لمكة،

وسموه جدة. ومما يذكر عن عثمان رضي الله عنه عند قدومه إلى هذا المكان، أنه نزل إلى البحر فاغتسل وأمر قومه بالاغتسال فيه، كذلك وأن يتخذوا المئزر عليهم، وهو ما يزعم الإفرنج أنه من مدنيّتهم. والشعبية الآن قرية صغيرة على مسافة عشرين كيلومترًا من جنوب جدة، وبعضهم يذكرها بلفظ الشعبية. قال كثير يصف إبلاً تسير في ملا تريم (مكان بحضر موت):

سأئك^(١) وقد أجدها البكور غداة البين من أسماء عير
 كأن حمولها بملا تريم سفين بالشعبية ما تسير
 ومن ثم أخذت جدة تزيد في عمرانها وتعظم في أهميتها حتى أصبحت
 أكبر ثغر في بلاد العرب.

وساحل جدة كله شعاب صخرية يتخللها شعب مرجانية حمراء أو سوداء (اليسر)، وترى على سطح مياهه في كثير من جهاته أوراق نبات مائي شكله أشبه شيء بالبشنيين في بحيرات مصر، وهذا النبات لونه أحمر قاتم، ويوجد بكثرة على شاطئ الخليج العربي. وربما كان له تأثير على ما يعيش في جوه من الأصداف الحمراء والأسماك المرجانية التي توجد فيه بكثرة لتغذيتها منه، وربما أتت من ذلك تسميته بالبحر الأحمر. ويساعد على هذه التسمية ذلك اللون السنجابي الذي يشاهد قبل شروق الشمس فيما يلي الشاطئ من مياه البحر عند انحسار كتلة المياه عنه وقت الجزر الذي يحصل فيه يوميًا؛ حيث يترأى لك الشعب على طول الشاطئ، ضاربًا في البحر بلونه الأحمر الذي يتشرب بالزرقة شيئًا فشيئًا حتى يتصل بكتلة الماء الكبرى.

(١) لغة من ساءت.

ومما يذكر بهذه المناسبة أننا رأينا أهل جدة يميلون إلى اللباس الأحمر، لا فرق في ذلك بين كبيرهم وصغيرهم، وربما كان ذلك من تأثير الوسط الذي يعيشون فيه؛ فنراهم يشدون على وسطهم حزامًا أحمر، ويضعون على رأسهم شالًا من لونه، وكثيرًا ما ترى صبيانهم يلبسون جلابيب بيضاء وعليها صديرية حمراء، حتى الطبقة العالية منهم يكثر في لباسهم اللون الوردي أو ما يقرب منه. ويحيط بجدة سور له خمسة أضلاع: فالغربي منها على البحر وطوله ٥٧٦ متر، والبحري ٦٧٥ متر، والشرقي ٥٠٤ متر، والشرقي الجنوبي ٣١٥ متر، والجنوبي ٨١٠ متر.

وفي كل ضلع من أضلاع هذا السور باب، والباب الشرقي يسمى باب مكة، وعلى جداره من الخارج زنك منقوش في الحجر، وإلى جانبه اسم السلطان الغوري ملك مصر، وهو الذي بنى هذا السور سنة ٩١٥ لمنع الإفرنج (الذين كانوا ابتداءوا في استعمار الشرق) من طلوعهم إلى جدة. وقد أفاد فائدة تذكر في منع البرتغاليين من الدخول إليها سنة ٩٤٨ وأصلتهم قلعتهما هذه الصغيرة نازًا حامية فروا منها إلى مراكبهم تاركين ما كان معهم من الذخائر، كما نالت أيضًا من الوهابيين حين حصارهم لجدة سنة ١٢١٨، إلا أنها لم تكن تؤدي وظيفتها في ضرب المراكب الإنجليزية لها سنة ١٢٧٤؛ وسبب ذلك أن أحد الرعايا الإنجليز كان يملك مركبًا شراعيًا بجدة، وكان يرفع عليها العلم الإنجليزي فبدله بالعلم العثماني؛ فحقن لذلك قنصل الإنجليز ونزل إلى المركب وأنزل العلم العثماني بالقوة وأهانته. فلما بلغ الناس هذا الأمر كبر عليهم وهاج له الرعاع فقصدوا منزله وقتلوه مع القنصل الفرنسي وبعض الإفرنج ونهبوا دورهم. فأتت مراكب الإنجليز وضربت جدة؛ فحضر والي مكة واتفق مع الأميرال على عمل تحقيق كانت نتيجته شتق نحو «١٥»

نفراً من الأهالي في سوق جدة، ونفى كثيرين من كبرائها، وغرامة الدولة نظير الأموال التي ادعت رعايا الدول الأجنبية أنها فقدتها في هذه الفتنة.

وفي سنة ١٣١١هـ ساق الإنجليز مراكبهم مرة أخرى إلى مياه هذا الثغر عندما قتل الأعراب وكيل القنصل الإنجليزي وجرحوا وكيل القنصل الفرنسي والروسي، وكانوا تجاوزوا الحد المضروب لهم خارج البلد، وكلهم مسلمون من الأهالي الذين لم يحسنوا سيرتهم مع إخوانهم من مواطنيهم ارتكاباً على الحماية الأجنبية. فحضر الشريف عون من مكة لهذا الأمر الذي انتهى بالصلح وسفر المراكب من غير ضرب.

وشوارع جدة لا نظام فيها، وهي تحتوي على نحو ٣٥٠٠ منزل مبنية بالحجر الجبلي الذي يأتون به من الجبال القريبة، أو الحجر المائي الذي يقطعونه من شعاب البحر؛ وهو خفيف جداً وفي غاية المتانة؛ إلا أن خطره جسيم وضرره عظيم؛ لأنه قاتل للالتهاب بسرعة لما يحتويه من المادة الفصفورية التي توجد فيه بكثرة. ومساكنها كمساكن مدن الحجاز (مكة والمدينة) وهي أشبه بمساكن مصر في عهد المماليك (وفي سوق السلاح كثير منها)، أعني أن بها غرفاً كبيرة ولواوين واسعة ذات سقوف عالية، ولها شبابيك طويلة عريضة على شكل المشربيات يسمونها الرواشن (مفردها روشن؛ وهي كلمة فارسية معناها المنور)، وشغلها الخشبي يشبه ما يسمونه بالمنفور أو المنجور، وأكثرها من النوع المسمى بالشيش. وقد رأيت في بعض بيوت هذه المدينة منزلاً وجهته نحو ١٥ متراً، وفيها تسعة رواشن كبيرة. ولا شك أن هذه المناور الواسعة موافقة جداً للبلاد الحارة. ولذلك ترى النظام الجديد في العمارات المصرية يرجع إلى هذا النمط، كما تراه في أغلب المباني الحديثة لا سيما في الأحياء

الأفرنجية، وعلى الأخص في «مصر الجديدة» التي هي شكل مجمل مكمل من الأشكال المصرية القديمة.

ولـ «محمد علي باشا» في هذه المدينة مبان كثيرة: منها دار الولاية، ودار البلدية، وثكنات العساكر وغيرها.

وماء الشرب فيها من الصهاريج القديمة التي تملأ من ماء المطر أو العيون الموجودة خارج المدينة، وكلما قربت تلك العيون من البحر كانت مياهها ملحة غير صالحة للشرب. وفيها مواسير كان وضعها «عثمان باشا نوري» سنة ١٣٠٢هـ وسير الماء فيها من عين الرعامة التي تبعد عن المدينة شرقاً بنحو عشرة كيلومترات. وهي الآن مهدامة. وقد اهتمت بلدية المدينة بإصلاحها؛ ولكن يظهر أن الحكومة لا يمكنها عمارتها إلا بمعونة الأهالي وهم لا يساعدون على ذلك لأن لهم مصلحة في بيع مياه صهاريجهم على الحجاج بأثمان باهظة. على أن سواد الحجاج لا يشربون أثناء وجودهم في هذه المدينة إلا من المياه التي يأتون بها إليهم من الحفر والآثار، وفضلاً عن وساحتها فإن طعمها يميل دائماً إلى الملوحة، ولولا فضل الله عليهم لهلكوا منها جميعاً!!

وفي هذه المدينة كنداسة لبعض الفرنجة لتكرير مياه البحر وبيعها للناس؛ ولكنها تحربت نهائياً وبلغنا ونحن بجدة أنهم أرسلوا بعض عددها إلى السويس لإصلاحها فيها.

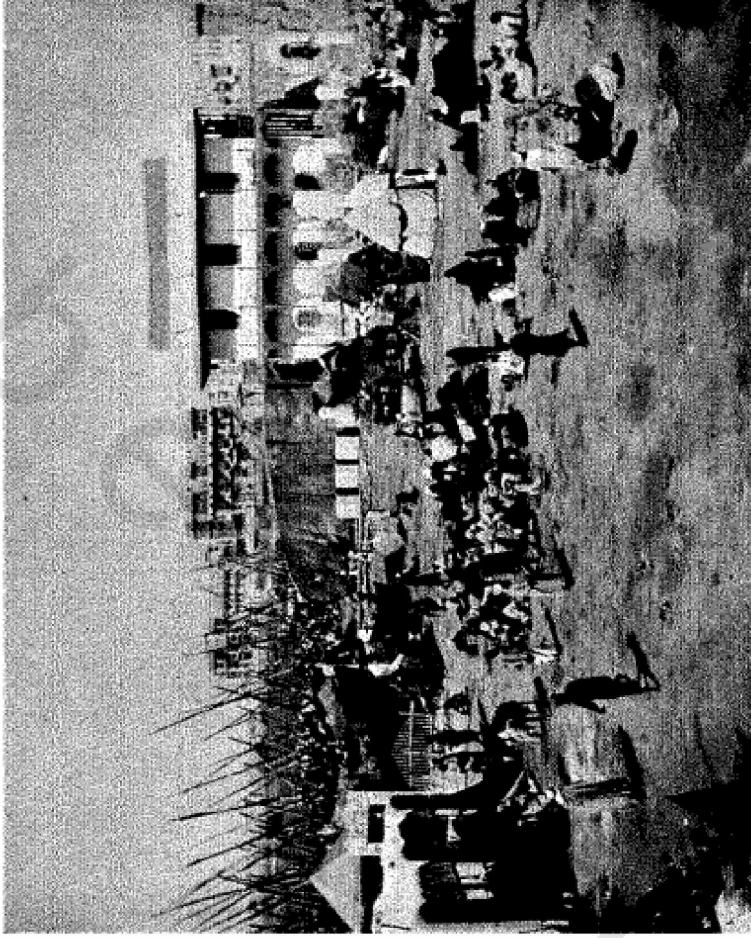
وجدة مركز تجاري كبير، ويمكنك أن تقول: إنها الثغر العمومي للحجاز؛ فمنها صادراته وإليها وارداته. وتجارها تكاد تنحصر في أصداف اللؤلؤ والمرجان واليسر والسبح والأقمشة الحريرية والعطر والعطارة والبقالة الجافة والقرب والجلود والسجاجيد وجميع ما يهم الحاج. وتجارها الرئيسية في

الحبوب خصوصاً القمح والدقيق اللذين عليهما مدار حياة أهل البلاد العربية من أدناها إلى أقصاها، وهي تأتي إليها من الهند ومصر والشام والعجم والجاوة وغيرها. وسوق المدينة تمتد على طولها من الجهة الجنوبية إلى الشمالية التي تنتهي بمساكن قناصل الدول، وهي أحسن ما في المدينة من الأبنية، وأخص منها بالذكر منزل الوكالة الروسية الذي هو على ألطف مثال وأجل هندام؛ لما فيه من المشروبات والطائف (البلكونات) التي تمثل أبهة الشكل العربي القديم بما يخيّل للرائي أنه أمام قصر الرصافة في بغداد. وتجاه هذا المنزل نقطة بوليس وبجوارها مكان البوستان؛ وهو غرفة صغيرة يقطعها حاجز خشبي بسيط يفصل بين العمال وأرباب الأعمال، وإلى جوارها مكان التلغراف.

وتجار جدة من أهلين وحضارم وهنود وأعجام وبخاريين وأروام تراهم يعملون في هذا الوسط ولا تروج تجارتهم إلا في موسم الحج. ولأحد الأروام في جنوب المدينة وابور (ماكينة) يُدار بالبترول لطحن الغلال وأجرة الكيلة الجداوية (مقدارها ثلاث أوقات) ثلاثة قروش مجيدة، ومع هذا فإن صاحبه على الدوام تراه يصرخ مستغيثاً من قلة المكسب وكثرة ما يصرفه في سبيل إدارته.

وتعداد أهل هذه المدينة لم يحصل بصفة رسمية، وهم يبلغون خمسين ألفاً على أضبط تقدير؛ منهم عشرة آلاف من الأجانب المسلمين بين فرس وحضارم وهنود وبخاريين، أمّا الفرنجة فيبلغ عددهم مائة أو يزيدون قليلاً، وأغلبهم من الأروام. وثروة البلاد تقريباً في أيدي هؤلاء الأغراب، وتقدر ثروة بعضهم بنحو مليون من الجنيهات لأنهم يجدون ويكدون ولهم نشاط غريب في باب، حتى الشياطين والفلايكية في هذه المدينة تجدهم في الغالب من الحضارم أو العبيد.

وفي جدة مدرستان: مدرسة الإصلاح؛ وفيها نحو ثمانين تلميذاً، ويصرف عليها من تبرعات الأهالي، والمدرسة الرشدية؛ وهي للحكومة، وفيها نحو مائة وعشرين تلميذاً، ولا يدرس فيهما إلا شيء بسيط من الحساب والكتابة والقراءة العربية والتركية. وعلى كل حال فإنهما أقل في التعليم من مكاتب الأوقاف بمصر. وقد رأيت في سوق المدينة لوحة مكتوباً عليها (جريدة الإصلاح ومطبعتها) فسألت عنها فعلمت أنها ابتدأت عملها بعد إعلان الدستور العثماني؛ ولكنها لم تجد رواجاً، فاضطر صاحبها إلى إغلاقها، وقفل محررها (التركي) راجعاً إلى الأستانة، أما المطبعة الآن فليس لها من عمل يُذكر.



زفاجند

MICHELLE L. ANDERSON, D.D.

وسكان جدة خليط كما أسلفنا، وقد أثرت فيهم طبيعة هذا الإقليم؛ فغلبت عليهم حال البداوة فيما يختص بالتعليم الذي الذي ليس لهم فيه حظ يُذكر؛ اللهم إلا ما كان يوصل إلى كتابة خطاب، أو مزاولة قليل من الحساب.

وفي المدينة أربعة مساجد: المسجد الحنفي، والشافعي، والمالكي، ومسجد سيدي عكاشة -وهو أكبرها. وفيها أجزخانة صغيرة، ويقال: إن بها نزلاً صغيراً (لوكاندة) في ميدان الجمرك؛ ولكنني لم أراه.

وحكومة المدينة محصورة في القائمقام ووكيل الشريف، وهو الآن حضرة السري الوجيه السيد «محمد نصيف». والأول مختص بأعمال الحكومة المالية المنحصرة في إيراد الجمارك غالباً، وتقدر هذه الإيرادات بنحو خمسين ألف جنيه عثماني في السنة على الأكثر، والثاني قائم بجميع الأشغال المختصة بالعرب، كما أن أمر القوة العسكرية موكل إلى قومندانها. وقد كان والي الحجاز يسكن أولاً في جدة؛ ولكن نقل مركزه في نحو سنة ١٢٨٠ إلى مكة لأهميتها.

وفي موسم الحج ترى في جدة حركة مستديمة لا تنقطع ليلاً ولا نهائاً من الحجاج الذين إذا وصلوا إليها وجدوا على أبواب جمرتها مطوفيههم أو وكلاءهم في انتظارهم وهم ينادون: «يا حاج فلان، أو يا حاج فلان» (يعنون المطوف)، فيعرف الحاج اسم مطوفه فينادي عليه وهو في هذه الشدة، فيبادر إلى مساعدته ويأخذ منه ورقة جوازه (باسبورت) ليعلم عليها من قلم الجوازات، ثم يسير معه إلى منزلٍ يقيم به يوماً أو يومين يصلح فيهما من شأنه في نظير أجر يدفعه لصاحبه، ثم يؤجر حميره أو حماله ويسافر إلى مكة بعد أن يشتري شقاده إن كان لها ضرورة عنده، ومتوسط ثمن الشقدف جنيه إنجليزي، وأجره الهجين أو الحمار جنيه إلى مكة، وكذلك جمل الحمل، أما حمل الشقدف فتصل أجرته في الغالب إلى ضعف ذلك.

جبانة جدة وقبر أمنا حواء

ويوجد خارج هذه المدينة من جهة الجنوب مدفن للنصارى محاط بسور عال، وعليه خفير من الأعراب لا يدع أحداً يدخل فيه من غير ذويه. أمّا مدافن المسلمين فإنها في جهتها الشرقية على مسافة نحو كيلومتر من بابها الشرقي

الذي يسمونه باب مكة. وعليها سور يفتح بابه للغرب ترى في مدخله زمن الحج كثيرًا من الشحاذين صغارًا وكبارًا من الأعراب والأغراب، فإذا دخلت من هذا الباب وجدت أمامك رأس قبر طويل ضارب إلى الشمال بمسافة مائة وخمسين مترًا على ارتفاع متر، وفي عرض نحو ثلاثة أمتار، وهو ما يسمونه «قبر أمنا حواء»، وهو أشبه شيء بقناة مسدودة من طرفها الجنوبي بثلاث حوائط من مربع ينقصه الحائط الشمالي الذي هو من جهة القبر، وطول كل حائط أربعة أمتار في ارتفاع مثلها، وفي كل منها شباك تخرج منه فروع عوسجة كبيرة تكاد تسد فراغ هذا المربع الذي هو مكان الرأس عندهم. وفي نهاية هذا المستطيل من جهة الشمال حائط يبلغ ارتفاعه نحو ثلاثة أمتار، في وسطه من أعلاه شرفة تحتها شباك يطل على القبر من جهة القدمين، وعند نهايتي القبر ترى أناسًا متطوعين لإرشادك عن مكان الرأس أو القدم وأيديهم ممدودة للسؤال. وفي نحو ثلثي طوله من جهة الرأس قبة يفتح بابها إلى الغرب، وفيها شباكان يشرفان على جهتي القبر، وفي وسطها مقصورة من الخشب عليها ستر من الجوخ فيها باب مقابل لباب القبة فتحة لنا خادم المقصورة قائلاً: «هذا مكان السرة الشريفة». فنظرْتُ فوجدتُ فيه حجرًا من الصوان يبلغ طوله نحو متر، محفورًا من وسطه، وهو أشبه شيء بناووس صغير؛ إن لم نقل مذبحًا كان مستعملًا في قديم الزمان لتقديم القربان. وهنالك مرَّ بخاطري أن هذا المكان ربما كان لقضاعة فيه قبل الإسلام هيكل لحواء أم البشر يعبدونها فيه، كما كانت هذيل تعبد سواع بن شيث بن آدم. وهذيل كما لا يخفى في جنوب وشمال مكة، وهم للآن يقولون: هذيل الشام، وهذيل اليمن. وكانت مساكن قضاعة فيما بينهم. وكما كانت قبائل كلب ومراد وهمدان يعبدون ودًا ويغوث ويعوق ونسرا (وهم على ما يزعمون أولاد سواع بن شيث) قال الله تعالى: {وَقَالُوا لَا

تَذَرْنَ إِلَهَتَكُمْ وَلَا تَذَرْنَ وَدًّا وَلَا سُوعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا}. أما طول القبر بهذا المقدار فربما أخذه العرب في ضمن ما أخذوه من ديانة اليونانيين؛ فقد كانوا يقيمون الهياكل للنجوم، ومنها هيكل الزهرة الذي بناه الضحاك في صنعاء. وقد كان اليونانيون يبنون للمريخ هيكلًا مستطيلًا. ومن القبور الطويلة التي توجد في بلاد الدولة العلية - وهي طبعًا من آثار الدولة اليونانية - قبر يوجد للآن في الأستانة العلية، قرب اسكلة أناضولي قواق، ويبلغ طوله نحو عشرين مترًا ويقولون: إنه قبر النبي يوشع، وهو محترم من المسلمين والنصارى واليهود على السواء، ومن يعلم أن يوشع لم يصل إلى هذه البلاد يحكم بأن هذا القبر من آثار الوثنية التي كانت في هذه الأنحاء قبل دخول النصرانية إليها. وكذلك يوجد في كرك نوح (وهي قرية بالشام بجوار معلقة زحلة) قبر يبلغ طوله ثلاثين مترًا تقريبًا يزعمون أنه قبر سيدنا نوح عليه السلام.

بالطبع هذا الهيكل بقي أثره في نفوس القوم برًّا بحق الأمومة، وأقاموا له قُبَّة (لا ندري متى كان تشييدها) لتكون مزارًا للناس، كما كانوا يقيمون المزارات لآل بيت النبوة عليهم وعلى جدتهم الصلاة والسلام.

ولقد ذَكَرَ هذه القبة «ابن بطوطة» في رحلته المشهورة في القرن السابع للهجرة، ولم يذكر شيئًا عن القبر. ومن أكبر الأدلة على أن هذا القبر حادث لا محالة ما ذكره «ابن جبير» في رحلته التي عملها سنة ٥٨٧ للهجرة؛ قال رحمه الله: «وبها (بجدة) موضع فيه قبة مشيدة عتيقة يُذكر أنه كان منزلًا لحواء أمّ البشر عند توجهها إلى مكة، فبني ذلك المبنى عليه تشهيرًا لبركته وفضله، والله أعلم».

وعلى كل حال، فإننا لو صرفنا النظر عما غيره الطوفان من معالم الأرض وقلب أغلب معالمها بطنًا لظهر -خصوصًا في الجهات البركانية التي منها هذه البلاد- وجاريننا مؤرخي العرب في أنَّ حواء هبطت مع آدم جزيرة سرنديب (سيلان)، وقطعنا النظر عن الواسطة التي انتقلا بها من الجزيرة إلى القارة، وعن كيفية وصولهم إلى جدة وموت حواء ودفنها بهذا المكان، ثم موت آدم ودفنه بجبل أبي قبيس أو بمسجد الحيف، أو توجهه -على ما يقول النصارى- إلى بيت المقدس وموته به ودفنه تحت صخرة هناك في كنيسة القيامة يقدسونها إلى الآن -فلا تهولنا دعوى القوم بأن هذا قبر حواء على ما هو عليه من الطول^(١) الهائل؛ لأنه لا يلزم من طول القبر طول الجثة بهذا المقدار، وليس ادعائهم بأن هذا موضع الرأس وذاك موضع القدم برهانًا على أن طرفي جسم حواء متناسبان مع طرفي قبرها؛ إذ يصح أن يكون هذا التعيين جهة الرأس،

(١) أرجو أن يسمح لي القارئ بأن لا أترك هذا المقام دون أن أقول كلمة عما قالوه في طول آدم وحواء: قال المسيو «هانريون» العضو في المجمع العلمي الفرنسي والعالم المستشرق: «إن طول آدم كان ١٢٣ قدم وتسع بوصات (٣٧ مترًا تقريبًا) وأن طول حواء كان (١٨) قدم وثلاثة أرباع بوصة». (انظر: مادة آدم في معجم لاروس الكبير).

أما العرب فإنهم قالوا: إن طول آدم كان ستين ذراعًا (وكان طول حواء متناسبًا معه طبعًا) ونحن لا ندري ما كانوا يقصدونه من طول الذراع. ولو فرضنا أنه ذراع اليد الذي يبلغ متوسط طوله (٤٠ سنتيمترًا) فإن طوله يكون (٢٤ مترًا) وهو أقل مما قاله المسيو هانريون بكثير. ويقول بعضهم: إنا إذا نظرنا إلى طول الموميات التي وصلت إلينا من خمسين قرنًا ورأينا أنها لا تختلف كثيرًا عن طول جسامنا اليوم حكمنا بأن ما قاله العرب في طول آدم مبالغ فيه. ولكن من لنا بأن المسافة التي بين آدم وبين الطوفان كانت أضعاف أضعاف المسافة التي بيننا وبين الزمن الذي وصلنا منه هذه الموميات، مما تدرج معه جسم الإنسان إلى هذا الحد بحكم الناموس الطبيعي الذي يسير به إلى الضعف والنفاء. ولا أدري إذا كان يصح أن نقيم على هذا برهانًا محسوسًا من تلك الهياكل الضخمة التي اكتشفوها أخيرًا بين طبقات الأرض وثنايا الصخور، ووجدوا أنها أضعاف أضعاف هياكل الحيوانات التي من نوعها الآن.

وذاك لجهة القدمين من غير تحديد نقطة بداية أو نهاية. ولا عبرة بقولهم: إن القبة على مكان السرة؛ لأنه بقطع النظر عن أنه كان الأولى بها أن توضع على أشرف عضو في الجسم وهو الرأس، فإن المسافة بين الرأس والسرة في طول القبر ضعف المسافة بين السرة والقدمين، وهذا مخالف لطبيعة الإنسان، مخالف لشكل بني آدم، أو بعبارة أخرى لشكل بني حواء في جميع أدوار حياتهم.

على أننا مع إنكارنا لطول هذا القبر؛ فإننا نحترم لحواء وجودها أنني كانت وكيفما كانت؛ لأنها أمُّ الكل، وبمكانها من احترام الكل؛ لذلك لما قصد «الشریف عون» الرفیق هدم قبتها فيما هدم من قباب الصالحين بمكة وغيرها قام في وجهه قناصل الدول وحالوا بينه وبينها بدعوى أنها ليست أمُّ المسلمين وحدهم.

وصول الجنب العالى إلى جدة وسفره منها إلى بحرة

ومما يذكر في تاريخ جدة تشريف الجنب العالى الخديوي إليها يوم الثلاثاء غرة ذي الحجة سنة ١٣٢٧هـ قاصدًا تأدية فريضة الحج الشريف. فما أشرقت شمس هذا النهار حتى أخذ الناس يردون إلى الميناء زُمَرًا زُمَرًا، وفي مقدمتهم عليّة القوم، وأعناقهم متطاولّة إلى عرض البحر لرؤية وابور المحروسة المقل لهذه الذات العباسية المحبوبة.

وفي نحو الساعة الثالثة العربية نهارًا حضر أصحاب السيادة والسعادة «علي بك، وفيصل بك، والشريف زيد» أنجال سيادة شريف مكة، ومعهم حضرات القائمقام، وقومندان القوة العثمانية الموجودة بجدة، وسعادة مكتوبجي الولاية الذي وفد للسلام على الحضرة الخديوية بالنيابة عن الدولة العية والتشرف بمرافقة الجنب السامي بصفته مهمندارًا له مدة وجوده - حفظه الله - في الأقطار الحجازية، يتلوهم حضرات مدير البوستان والتغرافات، ووكيل شركة البواخر الخديوية، وغيرهم من مستخدمي الحكومة العثمانية. وقبل أن تظهر أي إشارة تنبئ بقرب الركاب العالى ركبوا جميعًا الزوارق ونزلوا إلى عرض البحر انتظارًا لمقدمه الشريف. وكانوا قبل شروق الشمس قد أرسلوا الوابور الحربي العثماني المقيم في مياه جدة لاستقبال المركب الخديوية المحروسة على بعد سبع ساعات أو أكثر من مياهها.

وفي نحو الساعة السابعة العربية نهاريًا ظهر دخان المركب في الأفق، وما زالت تقرب شيئًا فشيئًا حتى أُلقت مراسيها في الساعة الثامنة. وهناك قربت منها الزوارق وصعد الأشراف ورجال الحكومة للسلام على مولانا الخديوي وتبليغه سلام مولانا أمير المؤمنين وتهاني الدولة العلية، مع تحية سيادة الشريف ودولة الوالي. فقابلهم -حفظه الله- بما جبل عليه من البشر والإيناس والحفاوة والإكرام. وبعد ساعة رجعوا وألستهم كلها شكر وثناء على مكارم أخلاقه وكمال آدابه.

وما غربت شمس هذا اليوم حتى بدت دار البلدية تحتال في حلل زينتها من جهة البر، وتألقت أنوار المراكب البخارية على اختلاف جنسياتها من جهة البحر، وذهبت ساريات السنايك في السماء بمصابيحها التي كانت كأنها النجوم الزواهر. وبالجملية فقد كان يومًا مشهودًا وليلة فذة في بابها لم ير أهل جدة مثلها بالمرة، كما أنهم لم يشاهدوا عناية الدولة العلية بمثل احتفائها بهذه الذات الكريمة واهتمام دولة الشريف بما فيه راحة جنبه الرفيع، وأي رجل اصطفاه مولاه إلى حج بيته الكريم كالعباس حفظه الله، دعاه ربه فلبّاه، وقد كشف عن رأسه تاج ملكه، ونزل إلى صفوف بقية الخلق في تقشفهم في ملابسهم وغذائهم، ينام على الغبراء، ويلتحف السماء، ويركب الصعب، ويسير بين حرارة الشمس وبرودة الليل، في طريق تغزر وعثاؤه، وتكثر حصباؤه، ولا ينقطع إعصاره، كما لا تتناهى أخطاره. فلا غرابة إذا كانت عين الله تكلؤه وعنايته تحرسه، وقلوب الخلق ترمقه بكل تجلّة واحترام.

وقبل فجر يوم الأربعاء ثاني ذي الحجة أخذت العساكر تغدو وتروح في ميادين البلدية التي اكتظت بالجموع من عساكر الحرس الخديوي من جهة، وعساكر الدولة وجند البيشة^(١) من جهة أخرى.

وقبل الشروق ظهر من اليمّ الزورق البخاري المقل لمولانا الخديوي - حفظه الله - ف ضرب النفير، وأطلقت المدافع من طابية المدينة. وهنالك انتظمت العساكر على شبه دائرة مستطيلة؛ نصفها الشرقي من رجال الحرس الخديوي، والنصف الثاني نصفه من عساكر الدولة العلية، ونصفه الآخر من عساكر البيشة، وطرفا هذين القوسين من باب القورنتينة إلى باب البلدية. وبعد نصف ساعة شرف الركاب العالي على سلم القورنتينة، وكانت ساحتها مفروشة بالسجاجيد العجيمة، وقد اصطف على جانبيها رجال الدولة العلية من جهة، ومن الأخرى أصحاب السعادة أنجال دولة الشريف ومن حضر معهم من الأشراف لأداء واجب التحية. فطلع - حفظه الله - على الأسكلة وهو في لباس إحرامه كالبدن في تمامه، وسار وهو يحيي هذه الجموع بيده الشريفة، يتلوه صاحب الدولة البرنس «كمال الدين باشا» وفضيلة الشيخ «بكري الصدي» مفتي الديار المصرية، وحضرة عزتو «علي بك ليب» طبيب سموه في هذه الرحلة المباركة، وغيرهم من الياوران الكرام وبعض رجال حاشيته. وكان جواده على سلم الفورنتينة، فركب - حفظه الله - بين عزف الموسيقى المصرية والتركية ودعاء الجنود وهتاف الجمهور، وركب من خلفه دولة البرنس وسعادة «حسين محرم باشا» مهنداره الخصوصي، ثم الياوران تتقدمهم ثلة من الحرس بهيئة باشدار (حرس أمامي)، يحيط بهم جميعاً فرقة من

(١) بيشة قبيلة موجودة في شرق بلاد العرب، وجنودها يركبون الهجن بلباسهم العربي، وهم في نظامهم أشبه بالباشوزوق، وكل عساكر الشريف منهم، وهم مشهورون بالشجاعة والأمانة.

الجند. ثم ركب في إثرهم أنجال الشريف ومعهم مندوب حكومة الحجاز وجم غفير من الأشراف، تتلوهم جنود البيشة، ثم قومندان نقطة جدة، ومعه فرقة من عساكر الدولة. وسار - حفظه الله - بهذا الموكب الحافل إلى باب المغاربة، ومنه إلى الباب الشامي، وهنالك كان في انتظاره مشايخ العربان من أشراف وغيرهم على هجنتهم، وساروا جميعاً في ركابه العالي إلى بحرة.

والطريق من جدة إلى مكة يبلغ طولها نحو ثمانين كيلومتر، وهي تدخل بعد ساحل جدة في واديين جبليين أعلاهما يسمى القائم، ثم تمر في طريق على جبل الرعامة، ثم على جبل أم السلم، وبه قهوة العمد^(١)، ثم يأخذ الوادي في الميل إلى الجنوب الشرقي فيمر بقبوة جرداه، ثم يصل إلى بحرة، وهنالك يتسع الوادي ويقطعه واد آخر من الشمال الشرقي إلى الجنوب حتى يتصل بالبحر اسمه وادي مِر (وادي فاطمة)، وهو واد عظيم من أشهر أرض الحجاز خصوبة، ويسكنه كثير من قبائل أشراف ذوي حسين، وهم يملكون أغلب أراضي، وفيه عيون ماء كثيرة، ولذا يزرع به جميع أنواع الخضروات التي تأتي إلى مكة، ويقطعه الطريق السلطاني بين مكة والمدينة في نقطة يوجد فيها بساتين من نخيل وأعنان يتخللها مجرى ماء يأتي من جهة الشرق (يسمونه نهراً)، وكتلة الماء فيه أقل من متر مكعب، وأكثر فواكه تلك البساتين من البرتقال والليمون، وأرى أنه لو عملت بهذه الجهات آباراً ارتوازية لكانت تأتي بفوائد جمة.

وبحرة نزلة بها جملة أكواخ يسكنها بعض الأعراب، وفيها عشش عمومية واسعة يسمونها قهاوي، يستريح فيها من أراد من الحجاج وخصوصاً راكبي

(١) هو ضابط سوداني عثاني كان مقيماً بهذا المكان من طرف الدولة، وأظهر شجاعة وحسن تدبير في تأمين الطريق فنسب إليه.

الحمير والهجن؛ لوجود ما يلزمهم بها من خبز وجبن وبلح وبعض الفاكهة والقهوة والتبناك. وفي جوارها أفنية واسعة محاطة بأسوار من الجريد تربط فيها جمال الحجاج ودوابهم، وأغلب القوافل تبيت فيها.

ويأخذ الطريق من بحرة نحو الشرق بميل إلى الشمال فيمر على حدة ويبيت فيها بعض القوافل، ثم على قهوة سالم، ويقرب منها إلى الشمال الغربي قرية الحديبية، ثم يمر على جبل الشميسي، ثم على المقتلة، ثم الهجالية، ثم البستان، ثم قهوة المعلم، ثم الشيخ محمود؛ وهو باب مكة وفيه قبر «جار الله الزمخشري» صاحب التفسير الشهير المسمى بـ«الكشاف»، وكان قد أتى إليها حاجًا سنة ٥٣٨ فمات بها يوم التروية، ودُفن بهذا المكان. وكل هذه القهاوي شبه أكواخ يجد الحاج فيها بعض الراحة.

أمّا الجبال على طول الطريق فنراها حمراء أو مائلة إلى الخضرة أو الصفرة، وهذا مما يدل على أنها غنية بالمعادن المختلفة كالحديد والنحاس وغيرهما.

وعلى طول الطريق أربع عشرة قلعة يوجد فيها الجند العثماني على الدوام، وبعضها قديم من عمل الشريف غالب أو محمد علي باشا والي مصر، والبعض من بناء الدولة العلية من عهد ليس ببعيد خصوصًا بعدما كثر مجيء الحاج بحرًا.

أمّا ما كان من أمر صاحبة الدولة والعصمة والددة الجنب العالي، فإنها نزلت من المحروسة إلى البر في منتصف الساعة الثالثة العربية نهارًا، وكان في انتظار دولتها على الأسكلة بعض رجال الحاشية، وكان بعض مأموري الحكومة العثمانية على بعد من الباب العمومي، فركبت -حفظها الله- مع صاحبتني الدولة الأميرتين كريمتي الحضرة الفخيمة الخديوية عربة من طراز

(لاندو) يجرها أربعة بغال، وركبت دولة الأميرة «فاطمة هانم أفندي» مع بعض القلفوات (كبيرات الحاشية) عربية أخرى من عربات دولة الشريف، وباقي القلفوات ركن في هودج يتلوها هودج سعادة «الهاش أغا باش» أغاي السراي الخديوية، وعنايتلو «كاظم أغا باش» أغاي دولة الوالدة، ويتلو ذلك شقائف بعض رجال المعية السنية، ثم جمال الحملة. وسارت عربية دولة الوالدة يحيط بها فوارس الحرس الخديوي وفي مقدمتهم عسكر الشريف، ومن خلفها حرس الدولة، والناس على جانبي الطريق بحالٍ لم يسبق لها مثيل، ولسان الجميع يلهج بالثناء والدعاء.

وما زال هذا الموكب على نظامه الجميل حتى خرج من باب جدة الشرقي المسمى باب مكة، وبعد ذلك سارت دولة الوالدة مع رجال الحرس إلى بحرة حيث استقبلت أحسن استقبال، ونزلت في الدائرة المخصصة لإقامتها مع حاشيتها.

وهناك كنت ترى معسكر الجناب العالي في نظام لم يسبق له نظير بالمرّة، وإلى شرقيه سراق حضرات أنجال الشريف التي مُدت فيه ظهر ذلك اليوم مائدة على النظام الأفرنكي تسع نحو مائة مدعوّ لضيافة سمو الأمير ومن في معيته، وعلى الخصوص في العشاء الذي حضره مولانا الخديوي، وكان أناب عنه في الغداء دولة البرنس «أحمد كمال الدين باشا».

أمّا النظام والزينة في هذه المائدة فقد كانا مذهشين جدًّا لعدم انطباقهما بالمرّة على حال هذه البداوة التي رأينا أنفسنا ساعة ونحن بين فيافيها كأننا بين جدران البهو الكبير في نزل الكونتيناانتال بالقاهرة أثناء مأدبة من المآدب الكبرى. نعم كنت تجد الطعام على كثرة صنوفه جمع إلى نظافته لذة طعمه، وكانت ثريات النور الأبيض تتلألأ منتشرة في أرجاء الصيوان مما كان ينير جو

بحرة بأجمعه حتى لكأننا في رابعة النهار. وكان يزيد في رواء هذه الحفلة تلك الآداب العالية التي كنت تراها في أنجال سيادة الشريف. وبعد العشاء بارح الجناب العالي صيوان الأشراف بين صنوف التبجيل والتكريم، فاصطفت مشايخ العربان من أشراف وغيرهم، فسلم -حفظه الله- عليهم شاكرًا لهم ضيافتهم، وهم له شاكرون تفضله بقبولها.

دخول الجنب العالى إلى مكة وأيامه بها قبل عرفة

بعد تناول العشاء في صيوان أنجال الشريف في بحرة استراح الجنب العالى قليلاً في سراحه، وفي نحو الساعة الحادية عشرة أفرنكي مساءً امتطى -حفظه الله- جواداً كريماً قاصداً مكة، يتبعه دولة البرنس «كمال الدين باشا» وحضرة السرياور وبعض الحاشية. وسار الكل في ركابه حتى إذا وافى جبل الشميسي وجد في انتظار سموه سعادة «خيري باشا» مدير الأوقاف الخصوصية، وقدم لحضرته العلية عطوفة «أمين بك» القائم بأعمال ولاية الحجاز، ثم سعادة قومندان القوة الشاهانية بها. وبعد تبادل التحية ساروا مع سموه حتى وصلوا إلى قهوة البستان؛ وهي على بعد ثلاث ساعات من مكة. وهنالك كان دولة «الشريف حسين باشا» أمير مكة المكرمة في جمع من علية بيته وأكابر قومه استقبلاً لجنبه الفخيم، وأراد الشريف أن يترجل عن جواده احتراماً لجنبه العالى، فأقسم عليه سموه بأن لا يفعل، وبعد تبادل التحيات وعبارات التهاني ساروا جميعاً حتى وصلوا إلى الصواوين التي أعدتها الحكومة خارج مكة احتفالاً بمقدمه الشريف. وكان العلماء والوجهاء والأعيان والتجار في انتظار قدومه السعيد بها. فنزل -حفظه الله- في سراح مخصص لتشريفه، وبعد شرب القهوة قدم له دولة الشريف حضرات أعضاء بلدية البلد الحرام، وفي مقدمتهم الشيخ الشيبى، ثم حضرات قاضي مكة، ومفتيها، ونائب الحرم، والسيد «عبد الله الزواوي» رئيس قومسيون عين زبيدة وقومسيون المعارف، وغيرهم من العلماء والأشراف والأعيان، فأبدى سموه لهم شكرانه وعظيم

امتنانه، ثم امتطى جواده قاصداً مكة، وسار بمن كان معه من وسط جنود القوة الشاهانية المقيمة بها، وكانت قد اصطفت على جانبي الطريق إلى ثكنة (قشلاق) الحميدية لأداء واجب التعظيم، وأمامها حضرات قومندانها وضباطها بالتشريف الكبري، وفي هذه الفترة كانت الموسيقى تصدح بالسلام الخديوي.

ودخل مكة -حفظه الله- من باب جروال حيث كان حرس المحمل واقفاً لأداء واجب السلام، وسار في طريق الشبيكة والناس على جانبيه كأنهم البنيان المرصوص، والكل يبتهل إلى الله بحفظ هذه الذات السنية، ثم مرَّ أمام التكية المصرية ودار الحكومة الحجازية ودار البلدية، وكانت كلها مزينة بأحسن زينة، ووصل إلى باب الحرم الشريف فجر يوم الخميس ثالث ذي الحجة، وصلى الصبح مع الإمام المالكي، ثم طاف طواف القدوم، وخرج إلى السعي بين الصفا والمروة حيث اصطفت الحجاج على اختلاف أجناسهم -وفي مقدمتهم الحجاج المصريون- على طول المسعى، وكان كلما مر عليهم ساعياً لله ارتفعت أصواتهم مكبرين مبتهلين وأفئدتهم ترفع الدعاء إلى رب الأرض والسماء بحفظ هذه الذات العباسية المحروسة، وأعينهم تذرف دموع الفرح لمشاهدة أنوار مليكهم المحبوب، الذي استولى بعدله وفضله ورحمته ونعمته على القلوب، فيا لها من ساعة كنت ترى فيها هذا الملك الفخيم ولا عرش يقله، ولا تاج يظله، وقد تجرد عن فخامة الملك؛ بل عن مظاهر الدنيا بأجمعها، وسعى بين يدي الله سبعة أشواط كانت قلوب الناس في أثنائها تسعى بين يديه الكريمتين! يا لها من ساعة ما كنت تسمع فيها إلا زغردة النساء وآي الدعاء ومظاهرة الرعية الصادقة بالإخلاص والولاء، حتى كأنها الكل أهل بيت واحد خرجوا لاستقبال والدهم وسيدهم وعائلهم وولي نعمتهم بعد غيابٍ طويلٍ.

وأحسن ما يذكر في هذا المقام أن سيادة الشريف أشار عليه بالسعي ركباً لعدم المحذور شرعاً؛ خصوصاً وهو في تعبته الشديد بعد هذا السفر الطويل؛ فامتنع سموه قائلاً: «ما عليّ لو غبرتُ قدمي ساعة في سبيل الله».

وبعد السعي قصد -حفظه الله- دار الإمارة في سوق الليل، وكانت قد أعدت لإقامته مدة وجوده بمكة. وكان دولة الشريف قد استأذن جنابه العالي عند دخوله الحرم الشريف وسبق إليها استعداداً لمقدمه السعيد. ولما وصل الركاب العالي كان دولته في انتظاره على باب السراي العامرة، فرحب به ترحيباً يليق بمقام الزائر وكرم المزور، وصعد مع سموه إلى قاعة الاستقبال الكبرى، وبعد تكرار آيات التهاني انصرف دولته مودعاً بكل شكر واحترام.

وهذه السراي كان قد بناها «الحاج محمد علي باشا» والي مصر سنة ١٢٢٨ هـ لتكون داراً لحكومة الحجاز، ولما ترك ولايتها جعلت مقراً لإمارة مكة إلى الآن، لذلك لم ير دولة الشريف أجمل مناسبة يجدد بها الذكرى الطيبة لجد هذه العائلة الكريمة الفخيمة إلا تقديم أثر من آثار نابغة القرن الثالث عشر الهجري إلى هذا الحفيد الجليل، ليقراً في عظمة أروقه بعض آيات آبائه الأكرمين. وفي هذا إشارة لطيفة إلى عدم نسيان دولة الشريف ما كان لمحمد علي باشا على عائلته الكريمة من اليد البيضاء؛ لأنه هو الذي عين في إمارة مكة جدهم «محمد ابن عون» سنة ١٢٢٩ هـ، ومن ثم وهي في أيدي بنيه إلى اليوم.

وما طلعت شمس هذا النهار المبارك حتى أطلقت المدافع من قلاع مكة ترحيباً بمقدم الجناب الخديوي. وبعد الظهر تبادل سموه الزيارة مع سيادة الشريف، ثم تشريف عطوفة القائم بأعمال الولاية بزيارة جنابه العالي. وفي الساعة الرابعة بعد الغروب نزل -حفظه الله- للطواف ببيت الله المعظم.

أمّا دولة الوالدة فإنها - حفظها الله - ركبت من بحرة بمعيتها في فجر اليوم المذكور ووصلت إلى مكة قبيل الغروب، فدخلتها في موكب من أفخر ما رأى الرءاؤون وسمع السامعون بين إطلاق المدافع وعزف الموسيقىات وهتاف الجموع المحتشدة على الطريق، وما زال موكبها الجليل سائرًا حتى وقف أمام باب الصفا حيث نزلت دولتها إلى دار باناجا^(١) باشا التي كانت أُعدت لإقامتها فيها مدة وجودها بهذا البلد الأمين.

وبعد هزيع من الليل طافت دولتها طواف القدوم، ثم سعت في عربتها مع صاحبات الدولة والعصمة الأميرات الفخيمات.

وما بزغت شمس يوم الجمعة رابع ذي الحجة حتى أخذت الآلاف من الناس يفدون على باب الدار الخديوية؛ هذا رافع يده للدعاء، وذلك باسط كفه للعطاء، وتسبق كبار المصريين لكتابة أسمائهم في سجل التشريفات؛ قيامًا بواجب تحية القدوم. وفي ضحوة النهار ركب سموه قاصدًا دار الولاية لرد الزيارة إلى عطوفة القائم بأعمالها، فاستقبل سموه بكل ما يمكن من مظاهر الإجلال والاحترام. وكانت فرقة من الجنود الشاهانية مصطفة على جانبي الطريق إلى بابها، ولما وصل ركابه العالي عزفت الموسيقى بالسلام الخديوي، فأسرع عطوفة القائم مقام الذي كان ينتظر على بابها مُرحبًا بمقدم سموه، ثم استصحب جنابه العالي إلى قاعة الاستقبال، شاكرًا له تفضله بهذه الزيارة، وبعد شرب القهوة قدم لسموه حضرات العلماء والمأمورين الملكيين والعسكريين وحضرات أعضاء المجلس البلدي والأعيان والتجار الذين حضروا استعدادًا للتشرف باستقبال جنابه الفخيم. وكانت الموسيقى الشاهانية

(١) وهذه الدار أيضًا من آثار محمد علي باشا؛ كان قد ابتناها واليه على الحجاز المرحوم «أحمد باشا يكن»

ثم ابتاعها باناجا باشا من ورثته سنة ١٣٠١هـ.

طول هذه المدة تطرب الحاضرين بنغماتها الشجية. ثم انصرف برعايه الله مودعاً بكل حفاوة وإعظام لزيارة التكية المصرية، فاستقبل بما يليق بمقامه الرفيع، وتفقد محالها ومخازنها ومطبخها وتنازل - حفظه الله - فأكل من خبزها، وبعد أن أعطى التنبيهات اللازمة بزيادة العناية بأمر الفقراء وشدة الاهتمام بهم، رجع إلى دار الإمارة وزار دولة الشريف.

ولما قرب وقت الظهر قصد - حفظه الله - الحرم الشريف لصلاة الجمعة، وكانت أعدت له القبة التي في أعلى بئر زمزم ففرشت بأصناف السجاجيد العجمية والبُسط الفاخرة. وكنت فيمن سبق إليها لشرف القيام بخدمة استقباله بها؛ فدخل سموه من باب الصفا يحف به عدد عظيم من الأشراف وبعض ضباط الحرس الخديوي؛ فزغردت النساء اللاتي كنَّ في محلهنَّ من المسجد على يمين الباب فرحاً بمقدمه السعيد، وهنالك علت الأصوات من أرجاء المسجد بالتكبير والتهليل بما لم يسبق له مثيل. نعم علت الأصوات إلى رب السماوات الذي عظم شأنه وتجلّى سلطانه وظهرت ربوبيته هنا بأكمل مظاهرها. فإذا قلت: إن العالم كله ملكه؛ قلنا: ولكن مكة عاصمته ومظهر سلطانه وجبروته، والكعبة بيته ومكان عظموته ورحمته. وأي مكان في أطراف المسكونة لا يبلغ مسطحه ثمانية عشر ألف متر مربع؛ مع أنه يحتشد إليه زمن الحج في وقت واحد نحو نصف مليون من النفوس، والكل يدعون الله بقلبٍ واحدٍ ولسانٍ واحدٍ، وهم وإن اختلفت جنسياتهم وتباينت لغاتهم يتوجهون إلى قبلةٍ واحدةٍ، ويتحركون في صلاتهم بحركةٍ واحدةٍ، وهم لا يرجون غير رحمة الله الواحد الأحد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحدٌ.

ولما صعد الخطيب المنبر صعد معه أحد الأغاوات وجلس على الدرجة التي تلي قدميه. وهذا بلا شك عادة قديمة كانت للمحافظة على الخطيب أثناء اشتغاله بإلقاء الخطبة حتى لا تتسرب إليه يد أئيمة، وأظن أنهم استغنوا عن ذلك فيما بعد بعمل أبواب للمنابر خصوصًا وقد صارت الخطبة لغير الأمراء والرؤساء. وعقب هذه الخطبة التي لم تخرج عن مثيلاتها في دواوين الخطب البسيطة، أنعم الجنب العالي على الخطيب بخلعة سنية ألبسه إياها سعادة «حسين محرم باشا»، ثم صلى الخطيب بالناس تحت جدار الكعبة المكرمة بين المعجن وبابها الشريف. وكانت السماء في أثناء الخطبة قد تلبدت بالغيوم ثم فاضت بغيثها المدرار أثناء الصلاة، فلم يتزحزح الناس عن مراكزهم، واستبشر جميع الخلق بهذه الرحمة التي كانت قد انقطعت عن بلاد الحجاز من ست سنوات، وكان هذا أحسن فآل لحج الجنب العالي الخديوي. وبعد الصلاة خرج -حفظه الله- من باب الصفا بين صفوف الحرس الخديوي الذي حال بين سموه وبين أولئك الألوف المتزاحمة لمشاهدة محياه الشريف، وألستهم تلهج بالدعاء له، وخصوصًا أهل جزيرة العرب الذين فرحوا بهذا الغيث الذي أكرم الله به وفادة ضيفه الكبير.

وفي صباح يوم السبت خامس ذي الحجة قصد -حفظه الله- زيارة الأماكن المباركة في ركب من حاشيته؛ ملكيين وعسكريين؛ فذهب إلى المعلاة (المعل)، وبعد زيارة ما فيها من الأماكن المباركة أمر فوزعت الصدقات على من كان هناك من جيوش الفقراء والمعوزين، ثم امتطى جواده وصعد بحاشيته إلى طريق الحجون، فمر على السلخانة وقصد جروول لزيارة المحمل المصري، فاستقبل استقبالاً فخيمًا، وقدم لسموه أمير الحاج جميع ضباط ومستخدمي المحمل، فتشرفوا بلثم راحته الكريمة، وبعد أن أوصاهم حفظه الله بزيادة

العناية بواجباتهم في هذه البلاد المقدسة اعتلى صهوة جواده وسار تحيطه المهابة وتلازمه الكرامة إلى زيارة مولد النبي صلى الله عليه وسلم، ثم مولد سيدنا علي كرم الله وجهه، وبعد ذلك قصد -حفظه الله- دار الأرقم المخزومي فزارها وعاد إلى السراي العامة.

وبعد ظهر هذا اليوم استقبل الجناح العالي كثيرًا من الزائرين من علماء وأعيان مكة ومن بينهم أعضاء قومسيون عين زبيدة، وفي مقدمتهم حضرة رئيسه السيد عبد الله الزواوي.

وفي الساعة الخامسة العربية بعد غروب اليوم المذكور قصد زيارة بيت الله الحرام، ففتح بابه ووضع إليه المدرج المنبري، وأوقد ما فهمي من الشموع حتى صار كأنه قطعة من نور على نور، فصعد -حفظه الله- على المدرج، يتبعه دولة الأمير كمال الدين باشا، فرجال حاشيته عسكريين وملكين، وهنالك صلى ركعتين لله تعالى في القبلة التي في مقابلة الباب (وكانت مصلى النبي صلى الله عليه وسلم) ثم اتجه إلى الجدار الشمالي فصلى ركعتين أيضًا، ثم إلى الجدار الشرقي فصلى مثلها، وكان الجميع يصلي كذلك، والكل في غاية ما يمكن من الخشوع بقاء هذا الملكوت الأعظم والرهوت الأفخم اللذين تصغر أمامهما النفوس الكبيرة حتى يكاد يتصل وجودها بالعدم، ولولا ما كنا نشاهده من تحرك الجسوم في هيئة الصلاة، ورفع الأيدي بالدعوات، واضطراب الشفاه بالتضرعات، وما كنا نسمعه من دقات القلوب أمام هذه العظمة اللامتناهية، لحسبنا أنفسنا في حياة غير هذه الحياة. وفي الحقيقة فقد كنا في هذه الساعة في عالم آخر. نعم كنا في بيت الله، وفي حضرة الله من غير ما واسطة، وليس فينا إلا رأس يخضع، ولسان يضرع، ودعوات ترفع، وعيون تدمع، قلب يهلع، وإخلاص يشفع. وبعد أن أقمنا على هذه الحال ساعة خرجنا وقلوبنا تقبض

أقدامنا عن السعي لحظات تزيد في تمتع النفس بهذه التجليات العظمى، وعاطفة الأدب تدفعها بموجبات الاحترام والاحتشام. وبعد نزولنا من البيت المعظم طاف - حفظه الله - حول الكعبة، ثم زار مقام الخليل إبراهيم، ثم عاد إلى مقامه شاكرًا لله على توفيقه لزيارة بيته الكريم.

وقضى جنابه العالي يوم الأحد في استقبال كثير من الناس على اختلاف أجناسهم، وفي المساء أولم وليمة فاخرة لسيادة الشريف وأصحاب السعادة أنجاله الكرام ووكيل الولاية ونحو عشرين من عليّة القوم والأشراف وكبار المأمورين وحضرات القاضي والمفتي وشيخ الحرم ومديره وقومندان العساكر الشاهانية ورجال المعية السنية. وبعد العشاء انتقلوا إلى البهو الكبير، وكان - حفظه الله - يؤانسهم بلطفه ومكارم أخلاقه. وبعد شرب القهوة قام عطوفة «أمين بك أفندي» وكيل الولاية والقائم بأعمالها، وارتجل خطابه غاية في البلاغة جمعت إلى جزالة اللفظ ورقة المعنى. ومما جاء فيها بعد ترحيبه بمقدم الجنب العالي إلى هذه الديار المقدسة: أنه منذ وجوده في مركز الولاية وهو يدرس بكل إعجاب وافتخار أعمال المرحوم محمد علي باشا في ولاية الحجاز، وما عمله فيها من ترتيب ونظام، وما حبس على أهلها من الأوقاف الواسعة، وما ربط لهم من المرتبات الجسيمة التي لا تزال ترسل إليهم من حكومة مصر سنويًا فينال منها الكبير والصغير، وتساعد على حياة كل بائس فقير. وبعدما انتهى ذلك الخطيب من خطابه البليغ شكر له الجنب العالي فصاحته ولطفه وأدبه. ثم أخذوا في السمر إلى منتصف الليل، وانفض عقد الجمع وكلهم ألسنة شكر للجنب العالي على عظيم كرمه، وحسن لقائه، وجميل ملاطفته، وواسع معرفته، وكبير آدابه.

وقضى -حفظه الله- يوم الإثنين سابع ذي الحجة في استقبال كثير من الزائرين، ثم تزاور سموه مع دولة الشريف. وفي المساء طاف بالكعبة المعظمة، ثم رجع إلى دار الإمارة، وأمر -حفظه الله- بالاستعداد إلى الخروج لعرفة.

الطريق القديم والحديث من مصر إلى الحرمين

كانت مصر ولا تزال طريق المسلمين إلى حج بيت الله الحرام وزيارة نبيه عليه الصلاة والسلام، وفي نصف الكرة الأرضية الغربية باعتبار أن مكة المكرمة هي قلب^(١) العالم، أو النقطة المركزية التي تنبعث منها أنصاف أقطار على محيط جميع دائرة الأقطار؛ فالأندلسي الذي كان يسكن في غرب أوروبا، والمغربي الذي في غرب إفريقيا، وما دونه من مسلمي البربر، فالسنغال، فبلاد التكرور، والسودان الغربي والشرقي كانوا إذا قصدوا الحج إلى بيت الله الحرام سافروا من بلادهم إلى مصر بحرًا أو برًا، ولهذه الغاية كان يقصدها كذلك كثير من أهالي الشام والترك والقوقاز والقريم وبخارى وقازان وغيرهم من مسلمي شمال روسيا وسيبيريا وجزائر البحر الأبيض المتوسط. ويجتمع الكل بالقاهرة قبل شهر رمضان، ثم يسировون منها إلى قوص ومسافتها ٦٤٠ كيلومتر كانوا يقطعونها برًا أو في النيل في نحو عشرين يومًا، ثم تسافر قوافلهم منها في الصحراء الشرقية مدة ١٥ يومًا يقطعون فيها نحو ١٦٠ كيلومتر إلى عيذاب أو إلى القصير على البحر الأحمر. وكان كل من هاتين القريتين ميناء لمصر الشرقية من قديم الزمان؛ أي أنها كانتا من مصر بالأمس مكان ميناء السويس الآن.

(١) واليهود يقولون: إن قلب العالم في المكان الذي به تابوت العهد بالقدس، والنصارى يقولون: إنما هو في كنيسة القيامة ببيت المقدس، وفيها كرة من الرخام يبلغ قطرها نحو ثلاثين أو أربعين سنتيمتر مرفوعة على قاعدة من الرخام أيضًا، ويزعمون أن هذه الكرة موضوعة في المركز الحقيقي للكرة الأرضية.

وكانت الأولى منهما أهم من الثانية، وكلتاها كانت في أيدي عرب البجاة^(١) الذين كانوا يتولون نقل الحجاج على إبلهم في هذه الصحراء، وكانت أخلاقهم

(١) قبائل البجاة أو البجة يقال: إنهم من البربر، وكانوا يسكنون في صحراء مصر الشرقية من سواكن إلى قرية يقال لها: الحرية في صحراء قوص، وهذه الصحراء عامرة بمعادن الزمرد والذهب والفضة والحديد، وفيها مغائر وآثار قديمة لاستخراجها، وهي طبعًا من عهد قدماء المصريين وبعضها من عمل محمد علي باشا والي مصر، وكانت العرب تستخرج منها المعادن (وخصوصًا التبر) في القرن الأول والثاني للهجرة، وذلك باتفاق مع ملك البجة الذي كان مقره أسوان، وكان ينال المسلمين منه ومن قومه أذى كبير، فأرسل المأمون إليه عبد الله بن الجهم فكانت له منهم وقائع، ثم وادعهم وكتب بينه وبين كنون رئيسهم كتابًا نذكر لك طرفًا منه ليعرف مقدار التسامح الإسلامي مع أهل الذمة، وكيف أنه كان لا يفرق بينهم وبين المسلمين في المعاملة:

هذا كتاب كتبه عبد الله بن الجهم مولى أمير المؤمنين صاحب جيش العراة عامل الأمير أبي إسحاق ابن أمير المؤمنين الرشيد -أبقاه الله- في شهر ربيع الأول سنة ست عشرة ومائتين، لكنون بن عبد العزيز عظيم البجة بأسوان، إنك سألتني وطلبت إلي أن أؤمنك وأهل بلدك من البجة وأعقد لك ولهم أمانًا علي وعلى جميع المسلمين، فأجبتك إلى أن عقدت لك وعلى جميع المسلمين أمانًا ما استقمت واستقاموا على ما أعطيتني وشرطت لي في كتاب هذا؛ وذلك أن يكون سهل بلدك وجبلها من منتهى حد أسوان من أرض مصر إلى حد ما بين دهلك وباضع ملكا للمأمون عبد الله بن هارون أمير المؤمنين -أعزه الله تعالى- وأنت وجميع أهل بلدك عبيد لأمر المؤمنين؛ إلا أنك تكون في بلدك ملكًا على ما أنت عليه في البجة، وعلى أن تؤدي إليه الخراج في كل عام على ما كان عليه سلف البجة، وذلك مائة من الإبل أو ثلاثمائة دينار وازنه داخله في بيت المال، والخيار في ذلك لأمر المؤمنين ولولاته، وليس لك أن تحرم شيئًا عليك من الخراج، وعلى أن كل أحد منكم أن ذكر محمدًا رسول الله صلى الله عليه وسلم أو كتاب الله أو دينه بما لا ينبغي أن يذكره به، أو قتل أحدًا من المسلمين؛ حرًا أو عبدًا -فقد برئت منه الذمة؛ ذمة الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم وذمة أمير المؤمنين- أعزه الله -وحد دمه كما يحل دم أهل الحرب وذرايعهم، وعلى أن أحدًا منكم إن أعان المحاربين على أهل الإسلام بمال، أو دل على عورة من عورات المسلمين أو أثر لغرتهم فقد نقض ذمة عهده وحل دمه، وعلى أن أحدًا منكم إن قتل أحدًا من المسلمين عمدًا أو سهوًا أو خطأ، حرًا أو عبدًا، أو أحدًا من أهل ذمة المسلمين، أو أصاب لأحد من المسلمين أو أهل ذمتهم مالا ببلد البجة أو ببلاد الإسلام أو ببلاد النوبة أو في شيء من البلدان، برًا أو بحرًا، فعليه في قتل المسلم عشر ديات، وفي قتل العبد المسلم

على غياة من الفظاعة، لا شفقة فيهم ولا رحمة، وربما بلغ بهم الأمر إلى تغيير طريق الماء على القافلة لغرض شنيع، وهو أن ركبها يموتون عطشاً فيستولون على متاعهم.

وفي هذه الصحراء قبر العارف بالله «أبي الحسن الشاذلي» قرب مكان يقال له: (أمتان) توفي فيه سنة (٦٥٦) في طريقه من المغرب الأقصى إلى الحجاز ودفن به. وأهل هذه الجهة يعملون له مولداً سنوياً من أول ذي الحجة إلى التاسع منه، ويقصد زيارته في هذا المولد كثير من أهل الصعيد والعربان والمغاربة.

وكان الحجاج يقيمون في عذاب أو القصير نحو شهر من الزمان في انتظار الفلايك التي تحملهم إلى جدة ويسمونهم جلابا (واحدتها جلبة)، وهي سفن صغيرة غير محكمة الصنع وشراعتها في الغالب من الحصير. وكان أصحابها يتعسفون بالحجاج فيشحنونها بأكثر من حمولتها، وكثيرا ما كانت تغرق في وسط البحر بمن عليها من الحجيج الذين يذهبون ضحية مطاعم أولئك

عشر قيم، وفي قتل الذمي عشر ديات من دياتهم، وفي كل مال أصبتموه للمسلمين وأهل الذمة عشرة أضعافه، وإن دخل أحد من المسلمين بلاد البجة تاجراً أو مقيماً أو مجتازاً أو حاجاً فهو آمن فيكم كأحدكم حتى يخرج من بلادكم، ولا تنووا أحداً من أبقي المسلمين، فإن أتاكم آت فعليكم أن تردوه إلى المسلمين، وعلى أن تردوا أموال المسلمين إذا صارت في بلادكم بلا مؤنة تلزمهم في ذلك، وعلى أنكم إن نزلتم ريف صعيد مصر لتجارة أو مجتازين لا تظهروا سلاحاً ولا تدخلوا المدائن والقرى بحال ولا تمنعوا أحداً من المسلمين الدخول في بلادكم والتجارة فيها براً وبحراً، ولا تخيفوا السبيل، ولا تقطعوا الطرق على أحد من المسلمين، ولا أهل الذمة، ولا تسرقوا لمسلم ولا ذمي مالاً، وعلى أن لا تهدموا شيئاً من المساجد التي ابتناها المسلمون بصيحة وهجر وسائر بلادكم طوياً وعرضاً، فإن فعلتم ذلك فلا عهد لكم ولا ذمة... إلخ.

وباقى الكتاب لا يخرج عن هذا المعنى.

الأشرار، ومن وصل به طول عمره إلى جدة وصلها في نحو أسبوعين يتقلب في أثنائها بين تحكم الملاح، وتبرم الرياح، وانزعاج الماء، واضطراب الهواء.

ولقد حج من هذا الطريق «ابن جبير الأندلسي» سنة (٥٧٩) فقطع المسافة بين القاهرة وجدة في نحو شهرين ونصف، قضاهما في أسوأ حال، بين مشقات وأهوال، مما هو مبين في رحلته. وفي سنة (٧٢٥) سافر «ابن بطوطة» من مصر إلى عيذاب؛ ولكنه لم يجد فيها مركبًا تحمله إلى جدة مع من قصدها من الحجاج؛ لأن السفن التي كانت بمينائها أحرقت في واقعة حصلت هناك بن الترك وعرب البجاة، فعاد منها إلى مصر، ومنها إلى بلاد الشام، ثم إلى بغداد وسافر منها مع المحمل العراقي في السنة التالية.

وكان يسكن في هذه القرية (عيذاب) حاكمان: حاكم بدوي من طرف شيخ قبائل الباجة، وآخر تابع لحاكم مصر، وكانا يأخذان عوائد مرور عشرة جنيهاً عن كل حاج مغربي، وسبعة على الحجاج الآخرين، ويقتسمان ما يتحصل بينهما وبين أمر مكة!! واستمرت هذه المكوس حتى أبطلها «صلاح الدين الأيوبي» في سنة (٥٩٠) زمن الشريف «مكث بن عيسى» ورتب له شيئاً عوضاً عن نصيبه، ثم أعادها الأشراف من بعده على الداخلين من الحجاج إلى مكة، حتى ألزم الملك «الناصر محمد بن قلاوون» الشريف «عطيفة بن أبي نمي» سنة (٧٢١) بإبطلها في نظير ما رتبته إليه من القمح الذي كان يحمل إليه في مكة كل سنة.

والطريق بين قفط والقصير قديم جداً، فتحه رمسيس الثالث في القرن الثاني عشر قبل الميلاد لتداول التجارة بين مصر وبلاد اليمن والهند وبلاد العرب الذين كانوا كثيراً ما يهاجرون منها إلى مصر طلباً للتجارة أو للعيش فيها. وفي سنة (٣٢٠ قبل المسيح) أخذت هذه الطريق أهمية عظيمة زمن

بطليموس قيلادلقوس، وصارت القصير هي الميناء الوحيد التي تصل تجارة البحر الأبيض المتوسط بالمحيط الهندي وبالعكس، وهو الذي حفر أغلب الآثار التي في هذا الطريق وبنى على طولها مخازن للتجارة وأقام بجوارها قلاعاً، ورتب لها الخفر اللازم لحراستها، وهو الذي بنى مدينة بيرنيس وقامت على أنقاضها فيما بعد قرية عيذاب (انظر عيذاب في الخطط التوفيقية). وفي هذه الجهة إلى الآن أطلال مدينة قديمة ذهب بعضهم إلى أنها أطلال مدينة أوفير التي كان سليمان بن داود يرسل بني إسرائيل إليها في القرن العاشر قبل المسيح لاستخراج الذهب من ضواحيها، وورد ذكرها في التوراة في الإصحاح التاسع من أخبار الملوك الأول.

وما زال هذا الطريق الوحيد للحاج المصري من القرن الأول إلى سنة ٦٥٤ التي سافرت فيها شجرة الدر مع قافلة الحاج إلى مكة لأول مرة عن طريق البر على العقبة. وفي سنة (٦٦٠) أخذ هذا الطريق الأخير أهميته حيث سير «الظاهر بيبرس البندقداري» قافلة الحاج منه وأرسل معها الكسوة التي عملها للكعبة، والمفتاح الذي أمر بصنعه لبابها الشريف، ومن ثم أخذ يقل ذهاب الحجاج عن طريق عيذاب؛ ولكنها استمرت طريقاً للتجارة بين الشرق والغرب.

ويظهر أن عيذاب ابتدأت تسقط أهميتها شيئاً فشيئاً بنسبة زيادة أهمية القصير؛ نظراً لأن لها خليجاً طبيعياً يجعل مياهها على الدوام في أمن من التغيرات البحرية حتى تلاشى أمرها بالمرّة، ولا تزال أنقاضها في جنوب القصير بمسافة عشرة كيلومتر.

ولقد اهتم العزيز محمد علي باشا بطريق القصير عند سوق العساكر المصرية إلى بلاد الحجاز لحرب الوهابية، فمهد سبيله وأصلح آباره، واستمرت عنايته به بعد ذلك لاشتغاله باستخراج ما فيه من معادن الذهب والنحاس.

وهذا الطريق مطروق إلى الآن وبه دروب كثيرة تسمى مطارق: وأول محطة له بئر عنبر، ويسير إليها المسافر من قنا أو من قفط. وهذه البئر كانت ساقية قديمة أصلحها المرحوم «إبراهيم باشا» نجل محمد علي باشا، وبنى بجوارها سبيلاً لسقيا المواشي، وإلى جانبها مكاناً له قباب معقودة لاستراحة المسافرين، وقرر في الرزنامجة إلى خادم هذه البئر ستة جنيهاً سنوياً لا تزال تصرفها المالية إلى من يقوم بأمرها. ومن هناك يسير الطريق إلى الشمال الشرقي في درب يسمى مطرق جيف الكلاب (لأن هناك مقابر مصرية قديمة كان بها جثث كلاب كثيرة محنطة) حتى يصل إلى محطة اللفيطة، ويقيم بها أناس من قبيلة العشابات من عرب العباددة وهم فخذ من البجاة، وفي هذه المحطة نخيل وجملة آثار بعضها من عهد البطالسة. ولا يزال الطريق حتى يصل إلى محطة الوكالة وبها آثار قديمة. ومنها يسير في مطرق يسمى مطرق جيف العجول (وهناك مقابر كانت بها عجول كثيرة محنطة من التي كان يقدها قدماء المصريين)، ثم في مطرق الحمامات وفيه خزانات مياه طبيعية، ثم في مطرق الكافر (وفيه آثار فرعونية وبئر حلزونية من الرخام ينزل إليها بمائة وثلاثة وأربعين درجة). ومن هناك يستمر الطريق إلى بئر الإنكليز (التي حفروها عندما وصلت جنودهم بحرًا إلى القصير، ومنها ساروا إلى تلك الجهة متعقبين عساكر الفرنسيين وقت احتلالهم مصر)، وماء هذه البئر يبعد عن سطح الأرض بنحو أربعة أمتار. ومنها يسير الطريق إلى العنبجة، وبها نبع معدني مياهه كبريتية، ويقصده بعض الناس للاستشفاء به، وهناك مستنقعات كثيرة ينبت فيها الثمار، والحكومة تبيعه سنوياً للمصريين. ومنها يستمر الطريق إلى القصير. ولقد كانت هذه المدينة في القرون الماضي عامرة أهلة بالسكان الذين

كانوا يزيدون عن عشرين ألف نفس، وكانت من ضمن محافظات القطر المهمة.

وما زالت طريق القصير مستعملة للتجارة حتى عملت السكة الحديدية من القاهرة إلى السويس في مدة «سعيد باشا» عوضًا عن العربات التي كان سيرها محمد علي باشا سنة ١٨٤٥م بواسطة الخيل في طريق الصحراء لحمل السياح من القاهرة إليها، وكان لها ديوان مخصوص يسمى ديوان المرور على يسار الداخل إلى الموسكي، وهو معروف الآن بسوق الخضار القديم. ومع كل فقد استمرت القصير ميناء مهمة بين مصر العليا والحجاز تنقل منها الحبوب إلى جدة، وينقل من هذه إليها السجاد والفلفل والبن والسنا المكي، وخلاف ذلك من واردات الهند وغيرها. وكانت لها سوق كبيرة في قنا، حتى إذا حفر قنال السويس وصارت ترسل كل هذه المحاصيل إلى أوربا رأسًا، قلت أهميتها وأصبحت من نحو عشرين سنة مأمورية صغيرة نابعة لمديرية قنا، وإن كانت إدارتها في يد مصلحة خفر السواحل.

وكان بعض الحجاج يسافرون من السويس إلى جدة بواسطة المراكب الشراعية، فيقطعون مسافتها في نحو عشرين يومًا. ولكن غالبهم كان يسير برًا عن طريق العقبة مع المحمل أو مع غيره من القوافل التي كانت تقوم بها عربان مصر من أولاد علي وغيرهم، فيصل إلى مكة في نحو خمسين يومًا. وأول من رتب ركب الحاج على هذا الطريق وعقبه عند رحيلهم من البركة الأمير «جمال الدين الأستاذار» عندما سافر ولده شهاب الدين أميرًا للمحمل سنة (٨٠٩) فكان إذا وصل الركب إلى عجرود (وهي محطة قبيل السويس) يأمر الأمير بكتابة أكابر الحاج ويرتب كلاً في مكان معين من القافلة بجماله وذويه وخدمه،

ثم يجمع الركب من الطليعة إلى الساقة، ويضبط أطرافه ونواحيه بجماعة من العسكر بعد أن يسير أصحاب الحمول والأموال في وسط الركب.

وطريق البر شاق جدًّا وخصوصًا في المنطقة التي بين السويس والعقبة، وهي لا تقل عن ثلاثمائة كيلومتر، كلها أرض رملية ناعمة تسوح فيها أخفاف الجمال قبل أقدام الرجال، ولا يهتدون فيها إلى الطريق إلا بواسطة نواطير أشبه شيء بطواحين الهواء أقيمت لهذه الغاية. وماء هذا الطريق قليل وعناؤه كثير، وقد كان في بعض القرى التي عليه مخازن للميرة والذخيرة ومؤون الجمال وأمتعة الحجاج الذين كانوا يرسلونها إليها قبل سفرهم على سبيل الأمانة في نظير أجره مخصصة تتوفّر بها عليهم مشقة حملها في الطريق. وكان في هذه القرى فرق من الجند لحراستها. وبالجملّة فإننا نورد لك أسماء المحطات التي كان يقطعها الحاج في طريق البر من القاهرة إلى مكة، ومسافة الركوب بين كل محطة والتي تليها بقافلة المحمل التي هي أسرع من القوافل الأخرى؛ لانتظام سيرها وإحكام أمرها وجودة جمالها:

من القاهرة ساعة	إلى
٦	بركة الحاج.
١٤	الدار البيضاء، وبها قصر عباس باشا الأول ويليها الدار الخضراء.
١٢	عجرو، وتوجد في الجنوب الغربي من السويس على مسافة عشرين كيلومتر منها، ومن هناك كان يرجع المرضى والمنقطعون والمشيعون.
٨	الناطور الأول، والثاني، والثالث، والأرض في هذه المسافة رملية ناعمة متنقلة من جهة إلى أخرى عند هبوب الرياح بشدة.

من القاهرة ساعة	إلى
٦	العلوه.
١١	جنادل حسن، وأرضها رملية.
١٢	قرية نخل، وفيها نخل وشجر وقلعة وخان من عمل الغوري، وساقية من عمل الملك الناصر حسن، وإلى جانبها ثلاثة أحواض تسع ٣٠٠٠ قرية تملأ في زمن الحج. وكان يرسل إليها أربعة من الثيران من طرف الحكومة فلا تزال تدور في الساقية للء الحيطان حتى ترجع مع قوافل الحاج إلى مصر.
١٢	بئر قريص، وسميت أخيراً بئر أم عباس؛ لأن والدته عباس باشا الأول أصلحتها وماؤها عطن.
٧	العقبة، ويصعد إليها المسافر بمنحدر من مسافة طويلة من الغرب حتى يصل إلى قمته، فإذا أراد أن ينزل إلى الجهة الشرقية صار نازلاً صاعداً وصاعداً نازلاً في أرض حجرية تارة، وأخرى رملية ناعمة، وأخرى خشنة أو زلطية، إلى أن يمر في مضيق لا يسع إلا جملاً جملاً ويسمى قطع لاز، وطريق هذا القطع حلزوني تقريباً أصلحه ابن طولون في القرن الثالث الهجري، ثم محمد بن قلاوون في القرن الثامن، ثم عباس باشا الأول في القرن الثالث عشر، ومع ذلك فإن المسافر فيه لا بد أن ينزل عن دابته ويسير على قدمه حتى يقطع العقبة في ست ساعات نزولاً وضعفها صعوداً. ومن دون هذه العقبة قرية العقبة ويسمونها أيلة ^(١) وفيها يفصل أمير الحاج جميع

(١) هي بلدة قديمة جداً، وكانت عامرة من زمن مدين، وكانت في مدة سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام ميناء كبير للمراكب التي كانت تفتد إلى الشام من اليمن والهند وفارس وانقطع بها طريق البر من اليمن إلى بطره. ولما مات سليمان رجعت الطريق الأولى إلى ما كانت عليه في نقل التجارة برّاً،

من القاهرة ساعة	إلى
	المقطوعين الذين لا يمكنهم الاستمرار على السفر لمرضهم أو لفقرهم، ويعطيهم المؤنة اللازمة من البقساط، ثم يستأجر لهم سنبوگا يسيره بهم إما إلى مصر أو إلى جدة، وكثيرًا ما كانوا يصلونها بعد نزول الناس من عرفة. ومن العقبة يتجه الحاج إلى جهة الجنوب.
٩	ظهر حمار، وفي طريقها مضيق بين جبلين على البحر لا يسع إلا جملاً جملاً.
١٤	الشرفا، ويسمونها أم العظام.

وكان فيها أسواق كبيرة؛ بل كانت مركزًا للتجارة بين مصر وبلاد العرب وفارس والعراق. ولما أتى النبي صلى الله عليه وسلم إلى غزوة تبوك في السنة التاسعة للهجرة أتاه ابن ربيعة صاحبها وصاحبه وأعطاه الجزية، فكتب له عليه الصلاة والسلام عهدًا هذه صورته: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا أمانة من الله ومحمد النبي رسول الله لتحية بن ربيعة وأهل أيلة سفنهم وسيارتهم في البر والبحر لهم ذمة الله وذمة النبي ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر، فمن أحدث منهم حدثًا فإنه لا يحول ماله دون نفسه وأنه لطيبة لمن أخذه من الناس، وأنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ولا طريقًا يردونه من بر أو بحر». هذا كتاب جهم بن الصلت وشرحيل بن حسنة بإذن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وفي سنة (٥٦٦) استولى الإفرنج عليها في الحروب الصليبية فسار إليها من مصر «صلاح الدين الأيوبي» وأخذ معه مراكب مفصلة على الجمال حتى وافى مياهاها فأصلح مراكبه وأنزلها في البحر وحاصر المدينة براءً وبحرًا حتى أخذها عنوة وطرده الإفرنج منها. وهي الآن قرية صغيرة في أيدي عرب الحويطات وفيها قلعة بناها السلطان مراد الرابع بها بعض الجنود لحراستها، وعدد سكانها لا يزيد عن مائة نفس، وفيها نخيل وأشجار وماؤها حلو ويزرع بها الخضروات. وبين العقبة ومعان نحو مائتي كيلو متر شرقًا، والطريق ضيقة وتخرق جبال السراة التي يكسوها الجليد طول الشتاء. وبينها وبين بيت المقدس شمالًا بغرب نحو ٣٠٠ كيلو متر في صحراء قليلة المياه وطريقها وعري. وبينها وبين السويس نحو ٣٠٠ كيلو متر.

من القاهرة ساعة	إلى
١٢	مغير شعيب، وبها نخل وبساتين ومياه عذبة.
١٤	عيون القصب، وبها ماء ونخل وشجر سنط وعبل.
١٢	المويلح، وفيها قلعة أنشأها السلطان سليم العثماني بها بعض الجند لحراستها، ومناخها رطب غير جيد للصحة، وسكانها يتجرون في الفحم الذي يصنعونه من شجر الطرفا الذي ينبت بكثرة في الوديان المجاورة لها. ومنها طريق إلى تبوك مسافته مائة كيلومتر.
١٢	سلمى (كفافه)، وفي طريقها مضيق شق العجوز تسير فيه الجمال جملاً جملاً، وبهذا الوادي شجر الدوم والسنط والطرفا.
١٢	إصطبل عنتر، وهو مكان متسع محاط بالجبال، وفيه ثلاثة آبار.
١٢	الوجه، سيأتي الكلام عليه في طريق المدينة، ومنه يتشعب الطريق إلى العلا شرقاً، وإلى ينبع جنوباً، وإلى المدينة المنورة جنوباً بشرق.
١٩	عكره، ولا ماء فيها.
١٢	الحنك، ولا ماء فيها.
١٢	الحوراء، وفيها مضيق تسير فيه الجمال جملاً جملاً، وأرضها ذات رمل ناعم.
١٥	الخضيرة، وفيها معادن نحاسية وأرضها صلبة.
١٠	ينبع، ويدخلها المحمل راكباً باحتفال عظيم، وهي ثغر المدينة المنورة على البحر الأحمر، وستكلم عليها في طريق المدينة.

من القاهرة ساعة	إلى
١٨	السقيفة، وماؤها ملح.
١٠	مستوره، وماؤها حلو.
١٤	رابغ، وهي قرية بينها وبين البحر نصف ساعة، وفيها قلعة بها بعض الجند لحراستها، وفيها مخازن تحفظ بها مؤن ركب المحمل وذخائره، وفيها صهاريج عذبة، وهي الميقات لمكة، ومنها تتفرع الطريق إلى المدينة ثلاثة أفرع: الطريق السلطاني، والطريق الفرعي، وطريق الغاير.
١٢	بئر الهندي أو القضيمة (وبعضهم يكتبها القديمة)، وهي قرية على البحر ماؤها ملح، ومنها يتجه الطريق إلى الجنوب الشرقي.
٦	خليص، وبالقرب منها عيون ماء كثير يحيط بها مزارع وبساتين.
٨	عسفان، وهناك بئر ماؤها حلو يسمونها بئر التفلة، ويقولون: إن ماءها كان مرًّا ففتل فيه النبي صلى الله عليه وسلم فصار عذبًا، وفي طريقها عمران على طول نحو كيلومتر لا يسعان إلا جملاً جملاً.
١٥	وادي فاطمة (وادي مر) أو مر الظهران، ومنه إلى قبر السيدة ميمونة زوج النبي صلى الله عليه وسلم، ثم إلى العمرة الجديدة (التنعيم) وهي حد الحرم من هذه الجهة وأقرب حدوده إليه، ومنه إلى الزاهر ثم إلى مكة المكرمة.
٤	مكة المكرمة.
٣٣٧	المجموع

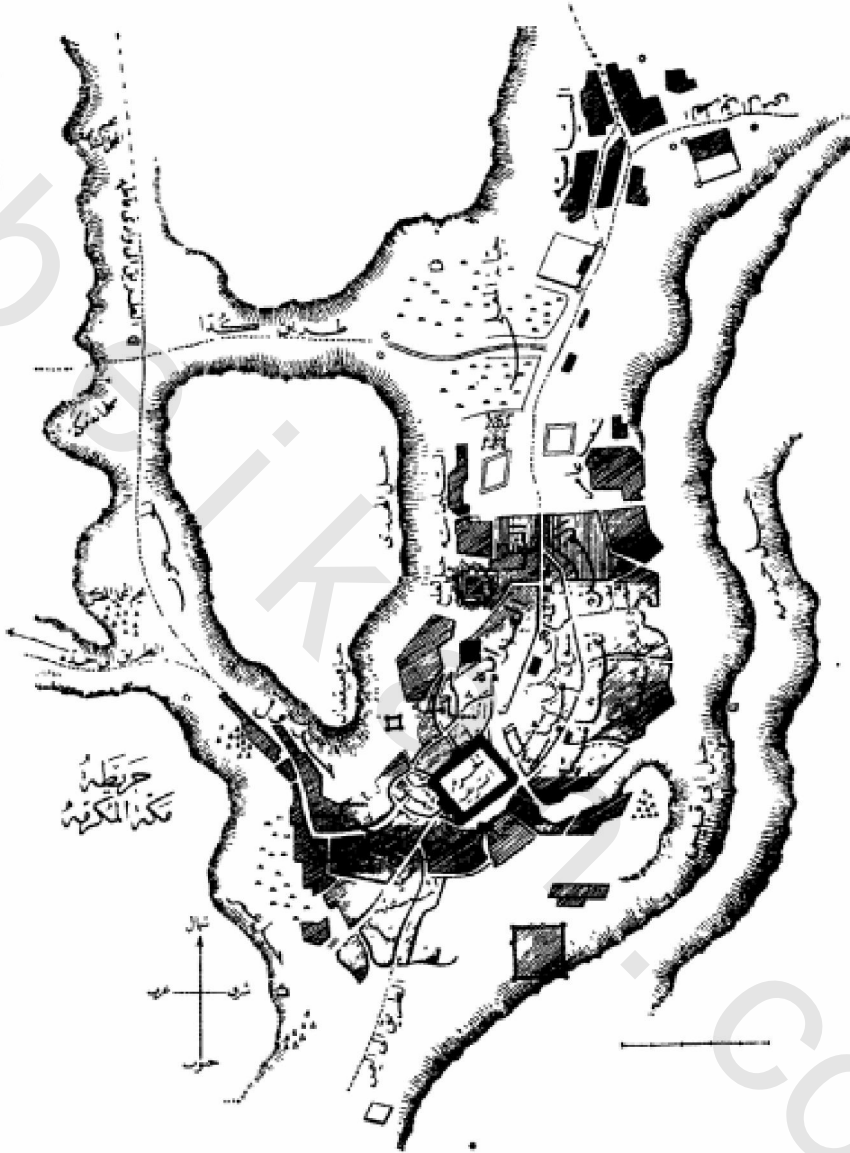
وعلى حساب أن الجمل يقطع في الساعة الواحدة أربعة كيلومترات، تكون المسافة من مصر إلى مكة من طريق البر ألفاً وأربعمائة كيلومتر تقريباً، كانوا يقطعونها في نحو أربعين يوماً على الأقل.

أمّا الآن فالحاج المصري يركب السكة الحديدية إلى السويس ويبحر منها إلى جدة بغاية الراحة، ومنها إلى مكة، فيصل إليها في أقل من أسبوع. ومن الناس من يسافر إلى المدينة أولاً بطريق السكة الحديد الحجازية، وبعد الزيارة يسافر مع القافلة إلى مكة أو يرجع إلى مصر ومنها إلى جدة.

ومنهم من يسافر بعد الحج إلى المدينة بطريق البر، ومنها يعود إلى ينبع فالطور، أو يركب السكة الحديد الحجازية إلى الشام؛ ولكنه في هذه الحالة يصادف كثيراً من المشقة في ضرورة عودته إلى الطور لقضاء الحجر الصحي هناك، لذلك يرى الكثيرون أن أحسن حل للصعوبة التي في طريق الزيارة أنهم يعودون بعد الحج إلى مصر، وبعد انقضاء مدة الحج التي يلزمها الحجر الصحي عادة يسافرون إلى المدينة بالطريق الحديدي ويعودون منها إلى مصر مباشرة.

مكة المكرمة

مكة وتسمى بكة وأم القرى، مدينة ترتفع عن سطح البحر بنحو ٣٣٠ متر، وهي على عرض ٢١ درجة و ٣٨ دقيقة، وفي طول ٤٠ درجة و ٩ دقائق، وتبعد عماريتها إلى عهد إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام. وكان يعيش بنوه في الخيام والمضارب حتى عاد قصي بن كلاب من الشام في القرن الثاني قبل الهجرة، فبنى فيها المساكن والبيوت حول الكعبة، ومن ثم أخذت تزيد في عمرانها إلى الآن. وهي عاصمة (قصة) بلاد الحجاز وفيها محل حكومته التي تنقسم إلى قسمين: الإداري وهو في يد الشريف أمير مكة ويسمونه سيد الجميع، والمالي والعسكري وهو في يد الوالي الذي يكون تركياً في الغالب؛ وعليه فالشريف ينظر في القضايا الجسيمة ويحكم فيها على حسب نظامات أربابها إن كانوا من الأهالي أو من الأعراب، أما القضايا الصغيرة فيحكم فيها القاضي الذي يعين من قبل السلطان.



وهذه المدينة تمتد من الغرب إلى الشرق على مسافة نحو ثلاثة كيلومترات طوياً، وما يقرب من نصف ذلك عرضاً، في واد مائل من الشمال إلى الجنوب منحصر بين سلسلتي جبال تكاد أن تتصلان ببعضهما من جهة الشرق والغرب

والجنوب؛ أعنى على أبواب مكة الثلاث. ولذا لا تشاهد أبنيتها للقادم عليها إلا وهو على أبوابها. والسلسلة الشمالية منها تتركب من جبل القلج (القلق) غرباً، ثم جبل فيقعان، ثم جبل الهندي، ثم جبل لعلع، ثم جبل كداء (بفتح أوله ومد في آخره) وهو في أعلى مكة، ومن جهته دخل رسول الله البلد حين الفتح. أما الجنوبية فإنها تتركب من جبل أبي حديدة غرباً يتلوه جبلاً كُدى (بضم أوله وألف لينة في آخره) وكُدَيَّ (بالتصغير) بانحراف إلى الجنوب، ثم جبل أبي قبيس إلى شريقيهما، ثم جبل خندمة. وكل سفوح هذه الجبال من جهة الحرم تراها عامرة بالبيوت والمساكن التي تتدرج عليها إلى قلب الوادي، ويبلغ عددها نحو سبعة آلاف بيت منها الكبير والصغير يحتشد فيها زمن الحج ٢٠٠٠٠٠ ألف نفس على الأقل، وإذا كان الحج بالجمعة كان الناس أضعاف ذلك. ومساكنها على شبه مساكن جدة، ويكثر فيها ما يسمونه بالأدوار المسروقة ولا حوش لها في الغالب إلا ما كان لعظمائها وكبرائها، وأعظم مساكنها بالقرارة. وأحسن موقع في مكة شعب جياذ لارتفاعه وسعة طرقه ومساكنه، وفيه بيوت كثيرة جميلة على الطراز التركي يسكنها موظفو الولاية من الأتراك، وفيه دار عظيمة للشريف عبد المطلب وداران عظيمتان للسيد محمد السقاف الذي له أملاك واسعة في مكة والمدينة. ومع ذلك فليس بمكة على قدم عهدها بالحضارة وعظم مكانتها في نفوس الناس من زمن بعيد جداً شيء يذكر من آثار العمارة القديمة مما هو موجود بكثرة بمصر والشام، اللهم إلا بيت الشريف ناصر^(١) باشا الذي هو في فخامة المنظر وجمال الصناعة العربية بمكان عظيم، ويصح أن يكون أحسن بيت في مكة.

(١) الشريف ناصر باشا ولي عهد إمارة مكة، وهو الآن بالأسنانة، وهذا البيت بناه الشريف عبد المطلب.

وضمن هذه المساكن بعض الدور القديمة، فترى دار ابن عباس في المسعى على يمين السالك إلى المروة، وفي الشرق الشمالي للحرم آثار دار أبي سفيان المشهورة في الجاهلية والإسلام، وهي مهدمة لا عناية للقوم بها، ولو لاحظوا أن النبي صلى الله عليه وسلم جعل لها يوم الفتح شأنًا كبيرًا حيث جعلها حرماً محترماً كل من دخلها من المشركين كان آمناً لكان المجلس البلدي بمكة أعارها شيئاً من عنايته.

والحرم الشريف بين هذه البيوت مائلاً إلى الجهة الجنوبية مما يلي جبل أبي قبيس. وفي هذه الجهة دار الخيزران، يتلوها شرقاً شعب بني هاشم ويسمونه شعب علي، ثم شعب المولد، ثم شعب بني عامر، وفي هذه الجهة كانت مساكن بني عبد المطلب في الجاهلية وفيها الآن كثير من الأشراف. أما باقي قریش فكانوا في الجهة الأخرى من الحرم خصوصاً جهة الشمال، ومن دونهم باقي أهالي مكة.

ويتوسط مكة طريق يقطعها من الغرب إلى الشرق وهو أكبر شوارعها، ويختلف اسمه باختلاف الجهات التي يمر عليها، فإذا ابتدأ غرباً من جروول يسمى حارة الباب، ثم الشبيكة، حتى إذا وصل إلى الحرم من جهة الشمال سمي الشامية، فإذا انعطف إلى الجنوب على يمين الحرم سمي السوق الصغير، ثم جياذ وفيه البوستان والتلغراف والتكية المصرية ودار الحكومة العثمانية ويسمونها بالحميدية، وإلى جوارها إدارة الصحة وقشلاق الطوبجية والمطبعة الأميرية. فإذا وصل إلى الصفا سمي المسعى، ثم القشيشية، ثم سوق الليل ثم الغزة ومنها إلى باب مكة الشرقي أو باب المعلى. أما الشوارع التي في شمال الحرم فهي الشامية وفيها سوق المدينة، والفزارة، والنقا، والسلیمانية، والجدرية، والبراضية. وليس بمكة على كبرها ميادين عمومية، اللهم إلا صحن

المسجد الحرام الذي بسعته يؤدي وظيفة الميادين الكبرى. وهذه الطرق تختلف سعتها من مترين إلى خمسة عشر مترًا وتراها في زمن الحج غاية الوساحة والقذارة مما يوجب على المجلس البلدي في مكة أن يعتني بنظافتها خصوصًا في مدة الموسم، مع عدم إهماله أمر النور ليلاً خدمة للدين والإنسانية. وفي مدة الموسم يرى أهل البلاد لا سيما الأعراب يضعون دائماً سدادتين من القطن في فتحتي مناخرهم بعد أن يغمر وهما بدهن المرور ويسمونهما الصمايم، ويربطونهما بخيط يعلقونه في رقبتهم، حتى إذا أنسوا عدم وجود قذارة رفعوهما وأرسلوهما على صدرهم. وهم لو علموا أن هذه السدادة صررها أكبر من نفعها لأبطلوا استعمالها؛ لأن وظيفة الخياشيم إنما هي لتنقية الهواء من الأدران فتسوقه إلى الرئتين نقيًا. ولو دخل الهواء الفاسد إلى الرئتين من طريق الفم فإنه يدخل إليهما بما فيه من المادة الغريبة فيتصل معها الدم وهنالك يكون تأثيره الضار والعياذ بالله.

أمّا الطبقة الراقية - وخصوصًا من الأعراب - فإنهم يضعون طرف ضماداتهم (كوفيتهم) على فمهم وأنفهم، ويثبتونها في عمامتهم أو عقالهم اتقاء البرد أو الروائح الكريهة.

ويقصد مكة زمن الحج أنواع العالم الإسلامي من جميع أطراف المسكونة؛ فترى بها الأزياء المتباينة والسحن المختلفة، حتى ليجدر بها أن تسمى بالمعرض الإسلامي. ولقد رأيت فيها رجلًا يابانيًا من كبار قواد اليابان^(١) قد أسلم وقدم إليها لتأدية فريضة الحج.

(١) وأهل مكة يسمونها اليابان، والنسبة إليها الياباني، ومنها الشال الياباني المشهور.

وقد اعتاد الشوام والمغاربة سكنى الجهة الشمالية من مكة زمن الموسم، والأفغان والسليمانية^(١) (أهالي قندهار) في الجهة الشمالية الشرقية، والهنود والجاوة في الجهة الشمالية الغربية، واليمن والتركستان والضاعستان في المسفلة، والعجم في شعب علي، وما سوى ذلك في وسط المدينة. وأهالي مكة يبلغ عددهم^(٢) نحو ١٥٠ ألف شخص منهم خمسون ألفاً من الأهالي والباقيون من الأعراب كما تراه في الجدول الآتي:

ألف	
٥٠	أهالي
٢٥	أعراب وغالبهم حجازيون ويمنيون وحضارم (من سكان حضر موت).
٢٠	بخاريون
١٢	هنود
١٥	جاوه
١٠	سليمانية وأفغان
٥	شوام
٥	مغاربة
٨	أجناس مختلفة
١٥٠	المجموع

(١) نسبة إلى رجل اسمه سليمان صاحب طريقة شائعة في بلادهم.

(٢) التعداد في بلاد العرب لم يحصل لحد الآن بصفة رسمية، وكل ما يعلم عنه إنها هو على وجه التقريب، وما وضعنا هنا أخذناه من مأموري الدولة وغيرهم ممن يوثق بأقوالهم.

وأغلب هؤلاء الأعراب يشتغلون بالأموال المالية وخصوصاً التجارية؛ لذلك نبّه أمرهم وأصبحت مالية البلاد في أيديهم. وإنا نذكر لك بعض البيوت القديمة التي توطنت منهم في مكة من زمن بعيد وفيها كثير ممن اشتهر بالوجاهة والثروة:

فمن الهنود- بيت خوقير. فتا. الدهلوي. الساب. حكيم. الرذة. الباقرو. ميره. المفتى. عبد الشكور. عبد الحق. بشاره. المرزا. أحمدوه. كمال. جان. شلهوب. نور. الطيب. دستانيه. خوج. الوشكلي. سنبل. خوجه بكر. المسكي. إلياس. الزرعه. الفرع. الحجيبي... إلخ.
ومن الجاهه- بيت البتاوي. المنكابو. الزيني. أرشد. الفتينا. الفلمباب. قدس. دوم... إلخ.

ومن البخاريين- بيت كشك. الفاشقي. الانديجان... إلخ.
ومن الحضارم- بيت باحارس. باجنيد. باناجا. باحكيم. بادرع. باعيسى. وباعشن... إلخ.

ومن الشوام- بيت هاشم. الجبري. الخشيقاتي... إلخ.
ومن الترك- بيت الدرايزلي. القرملي... إلخ.
ومن المصريين- بيت القطان. الزقزوق. الرشيد. الرواس. القزاز. الأباصي... إلخ.

وقد اختلف بعضهم في أصل هذه البيوت؛ ولكننا ذكرناها على ما هو مشهور من نسبتها؛ على أن الغرض من ذكرها إنما هي لكونها غير عربية ليس إلا.

ومن اختلاط هذه الأجناس بعضهم ببعض بالمصاهرة أو المعاشرة صار سواد أهل مكة خليطاً في خلقهم، خليطاً في خلفهم؛ فتراهم قد جمعوا إلى طبائعهم وداعة الأناضولي، وعظمة التركي، واستكانه الجاوي، وكبرياء الفارسي، ولين المصري، وصلابة الشركسي، وسكون الصيني، وحدة المغربي، وبساطة الهندي، ومكر اليميني، وحركة السوري، وكسل الزنجي، ولون الحبشي. بل تراتهم جمعوا بين رقة الحضارة وقشف البداوة؛ فيينا ترى الرجل منهم قد أنسك برقة حديثه معك، وضعته بين يديك، إذ هو قد استوحش منك وأغلظ في كلامه، حتى كأن طبيعة البداوة تغلبت فيه على طبيعة الحضارة فلم يطق ما تكلفه في حضرتك.

وقد وصل هذا الخلط إلى أزيائهم التي تراها مجموعة مختلطة من أزياء البلاد الإسلامية: عمامة هندية، وقفطان مصري، وجبة شامية، ومنطقة تركية فيها خنجر تراه على الخصوص في حزام الأشراف مفضضاً أو مذهباً بشكل جميل جداً، وكثيراً ما يكون مرصعاً بالأحجار الكريمة. ومع هذا فقد ترى الرجل الصانع الفقير يلبس القميص وعلى ياقته الظرافة المشغولة بالحريز، وعلى رجل سراويله شيء يشبه الركامة وهو حافي الرجل (مثلاً). غير أنك لا تلاحظ ذلك في طبقة الأشراف التي ترفعت عن هذا الخليط، فلم يدخل في مادتهم غريب، ولم يتغلب عليهم خلق جديد؛ بل خلقهم هو هو بعينه العربي البحت الذي ورثوه عن أجدادهم وألقوه بما فطروا عليه من كريم العنصر وذكاء المحتد. وعلى العموم فأخلاق أهل مكة غاية في الكمال وخصوصاً في الطبقة العالية منهم رضي الله عنهم، ولا يؤخذ على مجموعهم خسة بعض السوق فيهم.

والذي يؤسف له أن هذا الخلط وصل إلى لغتهم: فتراهم يتكلمون في الغالب بلغة يكثر فيها الحشو من كلمات عربية مشوهة، أو فارسية، أو تركية، أو غيرها. وهم ينونون المضاف فيقولون في هذا حق فلان مثلاً: «هذا حق فلان» مع إبدال القاف جيماً مصرية. ومنهم من يمد الحرف المنون فيقول: «هذا حقون فلان»، أو يؤنث لفظه فيقول: «حقه فلان»، ولا يحذفون النون من الفعل في صيغة الأمر للجمع فيقولون: «هيا صلون المغرب واركبون» بدل: صلوا واركبوا. ويستعملون الترخيم في غير المنادى فيقولون: «قم لعنا» أي: قم لعندنا، ويقولون في الإبل: اليل بكسر الباء، وفي الحبل اليل بفتحها، ويقولون: «كمنا» أي كملنا (خلصنا)، ويقولون: «وصابتي» في وامصيتي، «واللمن» في اليمن. ومما يكثر سماعه منهم قولهم: «دحين» في هذا الحين، و«ازهم فلان» في ادع فلائنا. ويعبرون عن الرجل بلفظ (زلمة) ويجمعون الرجل على أوادم^(١). ويقولون «زكنه» أي اضربه. «وقل كذا» أي اعمل كذا. ويقولون: «أبيض» للاستحسان، «وسنّع» في صنّع أو أتقن. و«اتجمعص»^(٢) يعني: اجلس. و«فصخ»^(٣) حِداك أي: اخلع نعالك. ويقولون: «مشلح» للعباءة. و«شاية» للقفطان. و«امرح» اجر. و«الودن» للفدان من الأرض. و«الصماده» للكوفية و«زكن عليه» أي أكد عليه. و«زل» بمعنى مر، «واندر» بمعنى أخرج، «والا» بمعنى نعم، و«اغد» في رح. ويستعملون قولهم: «أشكل» لا فعل التفضيل من الحسن فيقولون: هذا الشيء أشكل من هذا؛ يعني أحسن منه، ويستعملونها أحياناً للكثرة فيقولون: هذا أشكل من هذا؛

(١) مفردة آدم، ومعناه بالعبرية: إنسان.

(٢) لعلها محرفة عن قعمز.

(٣) محرفة عن فسح.

يعني أكثر. ويسمون «الأولاد» بالبزورة، فيقولون: بزورة فلان أو بزيران فلان؛ أي أولاده. ويستعملون لفظ «هرج» في معنى كلم فيقولون: ما هرجته، أي ما كلمته. ويستعملون لفظ «صاقن» التركية للاحتراس والتنبيه، و«قربوز» للبطيخ. ويستعملون غير ذلك كثيرًا من الكلمات التركية والفارسية مثل «روشن» للشباك. ويقولون عن حياض مجرى عين زبيدة باران. وهو اسم لرجل أعجمي قام بعمارة هذه الحياض وإن كان تبادر لذهني لأول وهلة أنه لفظ فرنساوي (Bassm) ظننته أنه من وضع بعض المهندسين الأتراك الذين كانوا يعملون في إصلاح هذه العين، كما استعملوا بعد ذلك من هذه اللغة ألفاظًا كثيرة في المدينة المنورة بعد وصول السكة الحديدية إليها؛ فيقولون «البيليت» لتذكرة السكة الحديد (Billet) و«استاسيون» للمحطة (station) و«شماندفير» للسكة الحديد (chemin de fer) و«الفاجون» للعربة (Wagon) و«البرسونيل» للمستخدمين (personnel) وهكذا من الألفاظ التي لم يسمح الوقت لاستقصائها. وهذا كله مع كثرة أغلاطهم النحوية وعدم مراعاة القواعد الصحيحة التي لا يهتمون بها في تقويم ألسنتهم أو أقلامهم. وأناي بينما كنت محزونًا لتأخر اللغة العربية في مشرق أنوارها ومظهر أعجازها؛ إذ عثرت على ترجمة فرنساوية لكتاب^(١) عمرو بن العاص الذي أرسله إلى عمر

(١) وتميمًا للفائدة نذكر لك هنا نص هذا الكتاب البليغ وهو: «اعلم يا أمير المؤمنين أن مصر تربة غبراء، وشجرة خضراء، طولها شهر، وعرضها عشر، يكتنفها جبل أغبر، ورمل أعفر، يخط وسطها النيل المبارك العدوات، ميمون الروحات، يجري بالزيادة والنقصان كجري الشمس والقمر، له أوان تظهر به عيون الأرض وينابيعها فيدر حلابه، ويكثر عجابه، وتعظم أمواجه؛ فيفيض على الجانبين، فلا يمكن التخلص من القرى بعضها إلى بعض إلا في صغار المراكب وخفاف القوارب، وزوارق كأنهم المخايل (قطع السحاب) ورق الأصايل، فإذا تكامل في زيادته نكص على عقبه، كأول ما بدا في جريته وطمي في درته. فعند ذلك تخرج ملة محقورة وذمة مخفورة، يحرثون بطون الأرض، ويبذرون بها

بن الخطاب لما استولى على مصر يصفها له فيه ويشرح له السياسة التي سيتخذها فيها، وقد نشر هذه الترجمة الكاتب الفرنسي الشهير المسيو أوكتاف أوزان (Octave Uzanne) في جريدة الفيجارو الفرنسية الشهرية، ونقلته عنها برمته جريدة البروجريه الفرنسية المصرية، مع التعليقات التي علقها المسيو أوران، والتي وصف فيها هذا الكتاب بأنه من أكبر آيات البلاغة في كل لغات العالم، وقال عنه: إنه من الفرائد في إيجازه وإعجازه، واقترح وجوب تدريسه في جميع مدارس المسكونة، حتى يتعلموا منه، مع قوة الوصف ومتانة التعبير صحة الحكم على الأشياء، وكيفية تنظيم الممالك وسياسة الاستعمار. وإنا إذا أسفنا شديد الأسف على ضياع هذه اللغة من الوسط الذي لا تزال فيه هذه العترة الشريفة القرشية، التي نزل بلغتها القرآن، وصار معجزة الإسلام بفصاحته وبلاغته وكتب بها ابن العاص هذا الكتاب وهو في بداوته، وعلى شأنه الأولى، هذا الكتاب الذي بعثته من أدراجه مدنية العصر العشرين، من دفاتر الغابرين، وأعطته ما يليق به من التجلة والاحترام، فقد يجب علينا أن نفتخر بأن كتاب ابن العاص بقي في مصر ملازمًا لذلك الوصف الطبيعي الذي وصفها به عمرو من ثلاثة عشر قرنًا ولا يزال قائمًا بها إلى الآن؛ بل وإلى آخر الزمان، وقد أثرت بلاغته في المصريين الذين هم -والحمد لله- الآن في مقدمة الناطقين بالضاد حتى لكأنهم بمصرهم في أيامنا

الحب، ويرجون البناء من الرب، ليقبهم ما سعوا من كدهم، فناله منهم بغير جدهم. فإذا أحرق الزرع وأشرق، سقاء من فوق الندى وغذاه من تحت الثرى. فبينما مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء، إذ هي عنبرة سوداء، فإذا هي زمردة خضراء، فإذا هي ديباجة زرقاء، فتبارك الله الخالق لما يشاء. والذي يصلح هذه البلاد وينيرها ويقر قاطناتها فيها، ألا يقبل قول خسيسها في رئيسها، وألا يستأدى خراج الثمرة إلا في أوانها، وأن يصرف ثلث ارتفاعها في عمل جسورها وترعها. فإذا تقرر الحال مع العمال على هذه الأحوال تضاعف ارتفاع المال، والله تعالى موفق الملك والمال».

هذه وقد انتقلت إليها فصاحة الخطباء ومتانة الكتاب وبلاغة الشعراء في عصر الحضارة الإسلامية. وعسى أن يكون هذا خير فأل أو فأل خير لبنينا يكون لهم من ورائه إن شاء الله شأن كبير ومقام خطير.

وغالب أهل مكة يتكلمون بالتركية، ومن المطوفين من يتكلم بلغات مختلفة كالهندية والأوردية والجاوية والفارسية والصينية. أما أهل البادية فلغتهم عربية صرفة لا نكاد نفهمها إذا سمعناهم يتكلمون بها. ولكل قوم منهم لغة مخصوصة تختلف في لفظها باختلاف القبائل؛ فمنهم من يقلب القاف زايًا فيقول: (زربة) في قرية. وعتيبة تقلب الكاف سينًا فيقولون: (سواسب) في كواكب و(سليب) في كليب و(سبد) في كبد. أم بنو شيبان فينطقون بالكاف جيماً فارسية (معطشة) فيقولون: (جواجب وجليب) وهم كذلك يقلبون القاف جيماً فارسية فيقولون في قرية: (جربة) وهكذا. والعرب لا ينطقون بالقاف بل يلفظونها جيماً مصرية، ومنهم من يقلب الميم باء كقولهم: بكة في مكة، ومنهم من يقلب الثاء فاء فيقولون: فُم في ثم، ومنهم من يغير الحركات في الكلمة كقول الحجازيين: الحج، وقول نجد: الحج، وهكذا.

وعلى كل حال فلا يزال في عرب اليوم أثر ما كان في لغاتهم القديمة من الكشكشة^(١) والكسكسة^(٢) والعننة^(٣) والعجعة^(١) والجعجة^(٢)

(١) الكشكشة: هي إضافة شين على كاف المخاطب فيقولون في: عليك (عليكش)، وفي بك (بكش). وكانت في قبائل ربيعة وحمير. ومنهم من يقلب الكاف شيئاً فيقول: عليش في عليك، و(ليش اللهم ليش) في: لبيك اللهم لبيك.

(٢) والكسكسة: وهي قلب كاف المذكر شيئاً فيقولون: (منس وعليس) في: منك وعليك.

(٣) العننة: هي قلب الهمزة إذا وقعت في أول الكلام عيناً فكانوا يقولون: (عنك) في إنك، (وعيت) في أنت، (وعسلم في أسلم) وكانت في قيس وتميم.

والاستنطاء^(٣) والطمطمانيّة^(٤) والوتم^(٥) مما هو مشروح بكتاب «مميزات لغات العرب» لحفني بك ناصف المصري.

وأهل مكة كلهم مسلمون، ولا يدخلها غير مسلم من السنة التاسعة للهجرة التي نزلت فيها الآية الشريفة: {يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا}. وكان علي ينادي في الموسم الذي أعقب نزول هذه الآية الشريفة بقوله: «ألا لا يحج بعد عامنا هذا مشرك». وكان المراد بذلك منع المشركين من الحج، وعدم دخولهم البلد الحرام التي بها تتم مناسكه؛ لأنهم مع ما كانوا عليه من سوء الضمير وخبث الطوية، كانوا يلقون بذر الشقاق والغل بين قبائل العرب المسلمين، ويوغرون صدورهم، بقصد التفرقة التي يكون من ورائها الضعف. فلما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتدت العرب في أطراف الجزيرة بعد عشرة أيام من بيعة أبي بكر، وذلك بتأثير المشركين منهم، حتى بلغ من أمر هؤلاء أن ادعى النبوة منهم طلحة في الشمال، ولهيعة في اليمن، ومسيلمة الكذاب مع سجاح في اليمامة

(١) العجعة أو (العججة) هي قلب الحاء عيناً مثل قولهم (عي حين) في: حتى حين، (واللعم الأعر خير من اللعم الأبيض) في: اللحم الأحمر خير من اللحم الأبيض. وكانت في هذيل.

(٢) الجعجة: هي قلب الباء جيمًا، وكانت في قضاة، ومنهم القائل:

يَا رَبِّ، إِنْ كُنْتُ قَبِلْتُ حَجَّتِجَ (حجي) فَلَا يَزَالُ شَاحِجٌ يَأْتِيكَ بِجَ (بي)

(٣) الاستنطاء: هو قلب العين نونًا كقولهم: أنطى في أعطى. وكانت في سعد.

(٤) الطمطمانيّة - وكانت في حمير - هي قلب لام التعريف ميًا كقولهم: (طاب امهواء) في: طاب الهواء. (وليس من امبر امصيام في امسفر) في: ليس من البر الصيام في السفر. وهذا موجود في فلاحي مصر فيقولون: (امبارح) في: البارح.

(٥) الوتم هو قلب السين تاء نحو قولهم: (النات بالنات) في: الناس بالناس. ومازن كانت تقلب الميم باء والباء ميًا فيقولون: (بات المعير) في: مات البعير.

(شرق بلاد العرب) وقام غيرهم بالدعوة لنفسه في وسط البلاد. هنالك استنفر أبو بكر المسلمين إلى قتال أهل الردة، وبعث إليهم بأحد عشر لواء، وأمرهم أن يحاربوهم ولا يقبلوا منهم غير الإسلام. فساروا وأبلوا في قتالهم بلاءً حسنًا، وخصوصًا جيش خالد بن الوليد الذي كان له الفضل الأكبر في رجوع الناس إلى الإسلام.

وبعد وفاة أبي بكر سار عمر على طريقه في تطهير بلاد العرب ممن كان على غير دين الإسلام؛ لأنهم أهل البلاد الذين بهم عزها وبهم يكون خيرها أو شرها، وبهم تكون سعادتها أو شقاوتها. وسار على سُنَّته من أتى بعده من الخلفاء إلى اليوم. لذلك ترى الآن أهل الحرمين أنفسهم يبالغون في مراقبة الأجانب الذين يفدون إلى بلادهم؛ فلا يتعدى جدة وينبع وصنعاء جنوبًا ومحطة العلا شمالًا أحد من الأجانب بالمرة، وإن فعل فما هو إلا مورط بنفسه إلى حتفه من أهل البلاد. ولذلك فإن الأجانب من عمال السكة الحديدية الحجازية ما كانوا يغادرون هذه المحطة لجهة الجنوب ولو لضرورة.

أمَّا أفراد الفرنجة الذين قصدوا مكة أو المدينة في أزمنة مختلفة، وكتبوا عنهما ما كتبوا على حسب نزعاتهم سياسية أو دينية أو عمرانية أو جغرافية، إنما كانوا يتزيفون بزي المسلمين بعد أن يعرفوا اللغة العربية، ويدعون أنهم على الدين^(١) الإسلامي، ونخص بالذكر منهم بوركارت السويسري، وبورتون

(١) ولا أرى إثباتًا لهذا الأمر غير أن أذكر لك صورة الإعلام الشرعي الذي استخرجه برتلمون لنفسه من مكة (وكان سمي نفسه عبد الله بن الستير) أوهم فيه محرره أنه على دين الإسلام، وقد أخذت صورة هذا الإعلام بالفيديو جغرافيًا ووضعت في الصحيفة ١٥٢ من كتابه الذي عنوانه (سياحتي إلى مكة) وهاك هي نصها:

الإنكليزي، وهو رجرنج الهولاندي، وكورتلمون الفرنساوي، وأولهم هو أسبقهم إلى التورط بنفسه في بلاد العرب، وبوركارث سويسري الجنس لوزاني المولد (Lausane) وفد إلى مصر ودخل الأزهر بعد أن ادعى الإسلامية وسمى نفسه إبراهيم المهدي، وتعلم فيه العربية ثم سافر إلى بلاد العرب وأقام بها نحو سبع سنين، وكتب عنها كتابه الذين هو أحسن ما كتبه الفرنجة فيها خصوصاً في صفة بلاد العرب وقبائلها، ومات في مصر على زيه الإسلامي، ودفن في قرافة باب الفتوح بجوار قبة الشيخ يونس، ولا يزال قبره موجوداً بها ومكتوب على شاهد تربته هذه العبارة:

«هو الباقي»

«هذا قبر المرحوم إلى رحمة الله تعالى الشيخ حاج إبراهيم المهدي بن عبد الله بوركهert اللوزاني، تاريخ ولادته ١٠ محرم سنة ١١٩٩، وتاريخ وفاته إلى رحمة الله بمصر المحروسة في ٢٦ ذي الحجة سنة ١٢٣٢ هـ».

والصلاة والسلام على النبي النبيل، القائل: «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل» عليه وعلى آله أجمعين. قدوة العلماء الأعلام، وعمدة الفضلاء الفخام، حلال المشكلات، ومزيل المعضلات سيدنا وأخينا في الله الشيخ ابن ذاكور حفظه الله آمين.

وبعد إهداء مزيد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فقد ورد إلينا من أراد الله له بالسعادة الدنيوية والأخروية عبد الله بن المستير بدخوله في الإسلام، فأمعنا النظر في حاله فوجدناه مؤمناً حقاً راغباً غاية الرغبة في الإسلام. هذا ممن يلزمه الاعتناء بشأنه من عرض أحكام الإسلام عليه وتعليمها له، ولو كانت مدة جلوسه عندنا تسع ذلك لفعلنا معه ما يكون سبباً لكل خير؛ ولكنه أسرع بالمسير، فيلزم كل من له رعية في الإسلام أن يقوم بشأنه من تعليم ما يحتاج إليه، وقد أشار لي بأن الرغبة إليكم أكثر فأترجي على سيادتكم أن تقوموا بشأنه، لا حرمننا الله وإياكم من الأجر، ودمتم في خيرٍ وسرورٍ.

الداعي لكم بالخير / محمد عابد ابن المرحوم الشيخ حسن، مفتي المالكية

٧ ربيع الثاني سنة ١٣١٢ هـ

ومن عوائد أشرف مكة أن كبراءهم يرسلون أولادهم وهم في نعومة أظفارهم إلى البادية، وخصوصًا إلى قبيلة عدوان التي توجد في شرق الطائف؛ وهي قريبة من سعد التي أوضع فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم فينشئون فيها على البداوة التامة مع الأمية الصرفة حتى إذا ترعرعوا عادوا إلى مكة وقد تعلموا بعض لغات القبائل وحفظوا من أشعارهم وأخذوا من عوائدهم وطبائعهم. وأحسن ما تراه فيهم الفروسية والحرية في القول والفعل، وهذه العادة قديمة جدًا في القوم، ومما يذكر عن الرشيد أنه رأى ولده المعتصم وهو صبي يتأفف من الذهاب إلى الكتاب فمنعه منه وأرسل به إلى البادية، فما زال بها حتى عاد منها عارفًا بلغتها، عالمًا بأخبارها، حافظًا لكثير من أشعارها، وقد ولي الخلافة وهو على أميته.

ومن عادة شريف مكة أن يجلس للحكم في دار الإمارة كل يوم من الساعة الخامسة نهارًا إلى قبيل العصر، فتعرض عليه المسائل الهامة، وهنالك يستعد إلى التوجه إلى الحرم في ركبة بسيطة فيصلي العصر، وكثيرًا ما يجلس بالحرم حتى يصلي المغرب، ثم يعود إلى قصره فيتناول العشاء مع من يريد من بنيه وخاصته وضيوفه.

ومن عاداته أنه يجلس صباح يوم الجمعة في دار الإمارة للمقابلات، فيفد عليه الوالي وكبار الموظفين ثم أعيان مكة ووجوهها، وبعد السلام عليه يذهبون إلى السلام على الوالي.

ومن عاداته أن يصلي الجمعة في الحرم حتى إذا كان في الطائف ينزل منها في موكبه فيصليها فيه، وبعد العصر يعود إلى مضييفه.

ومن عادة أهل مكة التأنيق في المأكّل والمشرب واللباس، وتكثر في لباسهم الألوان الزاهية الباهية، وخصوصاً الأحمر والأخضر والأزرق والوردي. وترى في مساكنهم كثيراً من أدوات الزخرف والزينة والرياش الثمينة وخصوصاً البسط العجمية النادرة المثال.

ومن عاداتهم تقديم الشاي في أي وقت تحية للقدام عليهم، وإقامة المآدب في حفلة يسمونها قَيْلَة (لعلها آتية من القيلولة) ويتفارقون بكثرة صنوف الطعام المتغايرة في شكلها وطعمها. وليس لأطعمتهم نظام مخصوص؛ فمنها الهندي والعربي والشامي والمصري والتركي. ويقعد المدعوون في هذه الولائم على سباط يمد على الأرض وتخدم عليهم الألوان لوناً بعد آخر، وبعد فراغهم من الطعام يجلسون للسمر أو سماع بعض الأغاني وآلات الطرب كالعود أو القانون أو الرباب ثم ينصرفون. وغالباً تكون هذه الحفلات في ضواحي مكة كالزاهر والشهداء، وهناك ييكرّون إليها ويقضون يومهم في سرور وحبور وألعاب رياضية كالمسابقة بالجري أو لعب الكرة أو النرد أو الشطرنج مثلاً.

ولأهل كل حارة من حارات مكة عادة مع أميرها؛ ذلك أن يجتمعوا ويدعوا الشريف إلى وليمة يقيمونها له كل سنة في أحد متنزهاتهم خارج مكة، فإذا قبل منهم ذلك عين يوم الولاية، وفيه يذهب مع خاصته الذين يدعوهم للتوجه معه في موكب فخيم تجري أمامه خيالة الأعراب والبيشة، والناس يهتفون له بقولهم دائماً: (يعيش) حتى إذا وصل مكان الدعوة جلس مع من أراد. وفي وقت الغداء تمد الموائد على النظام الإفرنكي والتركي والعربي، ويجلس الشريف ويدعو خاصته للأكل معه، وبعد الطعام تلعب الأعراب بألعاب الفروسية؛ تارة بالخنجر وأخرى بالسيوف إلى آخر النهار. وبعد فترة من الليل يعود الشريف في موكبه إلى مكة.

ومن عوائد أهل مكة أنهم يأكلون مرتين في اليوم: واحدة في نحو الساعة التاسعة صباحًا، والأخرى بعد صلاة العصر. وهم يميلون إلى الأبهة والفخفة كثيرًا، ويقلد صغيرهم كبيرهم في التظاهر بالكرم والشجاعة، خصوصًا في شهر رمضان. وقد كانوا يفطرون في الحرم بعد صلاة المغرب، فيمدون فيه الموائد هنا وهناك، لا سيما في زمن الحر؛ ولكن الشريف عون الرفيق أبطل هذه العادة (وخيرًا فعل) لأن فضلات الأكل كانت توسخ المسجد فتكثر فيه الحشرات والققط وغيرها.

ومن عوائد كثير منهم أنهم يشربون وجبات صبيانهم ثلاث شرط في كل جهة. ونسأؤهم يدخن بالرجيلة، والزار يفشو فيهن كثيرًا، وبعضهن يخرجن إلى الأسواق بملاءة واسعة سوداء في الغالب، وبرقع كثيف فيه نقبان صغيران فيما يقابل العينين، وفي أرجلهن أخفاف ضخمة لونها أصفر غالبًا.

وأفراحهم ومآتمهم غاية في البساطة: ومن عوائدهم في زواجهم أنهم يدعون الأهل والمحبين نساء ورجالًا، فيأتي الرجال ويجلسون في الأماكن المعدة لهم خارج البيت، ووقت العشاء يمد لهم سباط مستطيل يجلسون عليه جميعًا مرة واحدة فيأكلون ثم ينصرفون. أما النساء فيدخلن البيت فيجدن على باب قاعة الجلوس قصعة كبيرة مملوءة بمعجون الحناء، فتحني المرأة يدًا من يديها، ثم تدخل إلى المكان وبعد السلام تجلس على هذه الحال مع باقي النسوة، ولا يزلن يتجاذبن أطراف الحديث إلى منتصف الليل، وهناك يزفون العروس إلى بعلها، ثم يعدن إلى بيوتهن بعد أن يضعن في عنقها عقودًا كثيرة من زهر الفل أو ثمر التفاح، وهو في قدر البندق.

أمّا مآتمهم: فعند موت الميت تصرخ امرأة من أقرب الناس إليه صرخة واحدة أو صرختين إعلانًا بالمصيبة، فتتوافد عليها النساء، فيجدن قصعة الحناء

بجوار قاعة الجلوس فتحني كل واحدة منهم يداً من يديها ثم يدخلن القاعة، وبعد أن يعزبن صاحبة الفقيد بكلمات قليلة يجلسن ويأخذن في الحديث في شئون مختلفة ثم ينصرفن. أما الميت فيأخذه بعض أقاربه ويدفونه بغير احتفال كبير، وبعد دفنه يتوارد الرجال على أهله فيعزونه وينصرفون لوقتهم.

ومن عوائدهم أنهم يحتفلون احتفالاً كبيراً بختم أولادهم للقرآن الكريم، ويسيرون بهم بموكب عظيم في طرق مكة. ويحتفلون في منتصف شهر صفر بمولد السيدة ميمونة زوج النبي صلى الله عليه وسلم عند مدفنهما بالزاهر على مسافة نحو سبعة كيلومتر من مكة على طريق المدينة، فينصبون خيامهم في تلك الصحراء ويتفاخرون بكثرة الطعام والشراب. ويحتفلون بمولد النبي صلى الله عليه وسلم في ربيع الأول. ويعبرون عن المولد بالحوّل؛ فيقولون: حول ميمونة، وحول النبي. وفي شهر رجب يحتفلون بزيارتهم للمدينة المنورة.

ومن عاداتهم الاصطياف في الطائف، ويرتفع عن سطح البحر بمسافة (١٥٥٠ متر)، والهدى فوق جبال كرا ويرتفع عن سطح البحر بمسافة (١٧٦٠ متر) وفيه جنات كثيرة تجري من تحتها الأنهار فيها ما يشتهون من أثمار وأزهار. وأشهر مصيف في الطائف يسمى شبرا وهو لأشراف ذوي عون أنشأه الشريف عبد الله باشا وسماه شبرا مصر، ثم حدائق المنشاه وهي لذوي غالب؛ وهي أحسن حدائق الطائف ومشهورة بخوخها وعنبها، وماؤها أعذب مياه تلك الجهة. وللطائف طريقان: طريق القافلة^(١)، ويبعد عن مكة بنحو ٣٦ ساعة،

(١) مكة. بئر البارود (شمال منى). وادي اليمامة. السولة (وهي مبدأ سوق عكاظ في الجاهلية).

النبية. قدير. أم حصص. الجيم (القيم). الطائف.

وطريق^(١) البغال على جبل كرا وهو على نحو نصف هذه المسافة. ومدينة الطائف^(٢) مشهورة بطيب هوائها، وليس أحسن منها إلا جبل الهدى الذي يبعد عنها بنحو ثلاث ساعات إلى مكة، وأهله مشهورون بجمال خلفتهم ونعومة بشرتهم وينسبون ذلك إلى شربهم من نهر هناك يسمونه المعسل يبالغون في حلاوة طعمه.

وفي الطائف قبر السيدين: الطاهر، والطيب، ولدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقبر سيدنا عبد الله بن العباس، ويقصده اليمانيون لزيارته قبل الموسم، وله على الخصوص عندهم احترام كبير. وكان بها زمن الجاهلية معبد اللات والعزى، وكانت تدين بهما ثقيف وغيرها من القبائل المجاورة للطائف. وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ذهب إليهم في أول نبوته وطلب منهم نصرته فأبوا عليه ذلك.

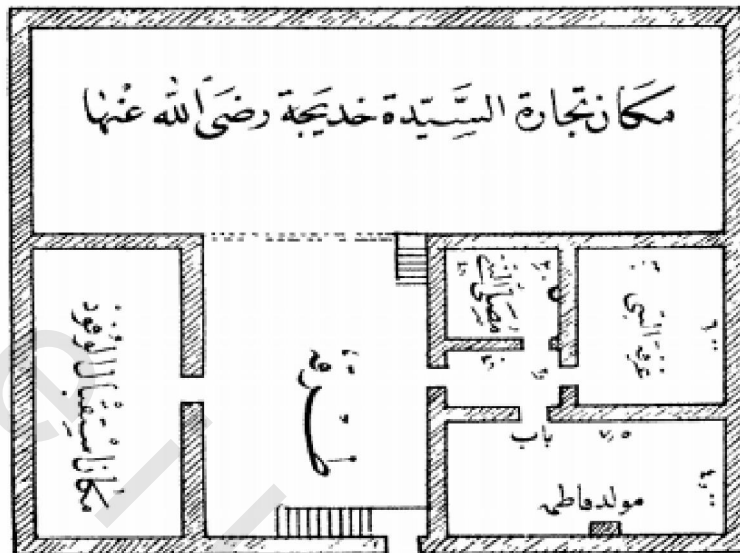
(١) مكة. منى. عرفة. وادي سمار. وادي النعمان (ومنه يتدنى مجرى عين زبيدة). قهوة شداد. وادي خريف الرأس. أبو حراجل. الكر. مجمع الدروب. عين المعسل الهدى (وفي جبل الهدى كثير من القردة الصغيرة والوحوش الضارية من سباع وغيرها). وادي محرم (وهو ميقات إحرام أهل الشرق واليمن وحضر موت وعمان). بئر العسكر. الطائف.

(٢) ويحيط بالطائف سور عليه عدة أبراج أشهرها القلعة التي بناها عثمان المصافي عامل الوهابين على الطائف، وفيها يسجن المنفيون إلى الطائف من رجال الدولة العلية، وأشهر من سجن فيها ومات بها زمن السلطان عبد الحميد شيخ الإسلام خير الله أفندي (الذي أفتى بخلع السلطان عبد العزيز)، ومحمود باشا الداماد (صهر السلطان عبد العزيز)، وأحمد مدحت باشا الشهير بأبي الدستور. والداماد ومدحت مدفونان جانب بعضهما بمكان يقال له: المجزرة خارج السور على مسافة من باب سيدنا عبد الله بن العباس. وقد أقيم على قبرهما أخيراً قبة فخيمة سنة ١٣٢٧هـ وفرشت بالرياش الثمينة بمعرفة شعبة جمعية الاتحاد والترقي بمكة.

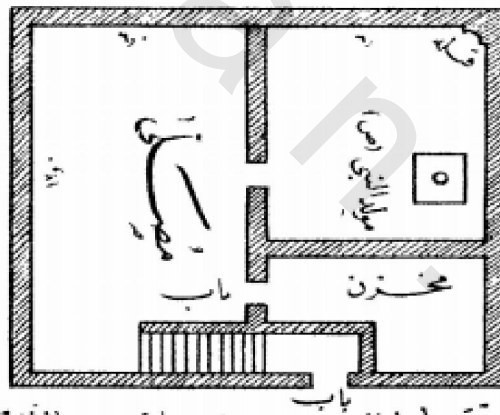
ويتخلف عن الحج كثير من أهل مكة ويقيمون فيها للمحافظة على دورهم من اللصوص الذين يكثرون في هذه الآونة، فيقطعون ليلهم سهرًا بين إطلاق بنادقهم من كل الجهات إعلانًا بأنهم يقظون لكل من قصدتهم بسوء.

ويوجد بمكة وخارجها مزارات كثيرة منها مولد النبي صلى الله عليه وسلم، ومولد علي، ومولد فاطمة، ودار الخيزران.

أما مولد النبي صلى الله عليه وسلم فهو في شعب بني عامر أو شعب المولد: وهو مكان قد ارتفع الطريق عنه بنحو متر ونصف، وينزل إليه بواسطة درجات من الحجر توصل إلى باب يفتح إلى الشمال يدخل منه إلى فناء يبلغ طوله نحو اثني عشر مترًا في عرض ستة أمتار، وفي جداره الأيمن (الغربي) باب يدخل منه إلى قبة في وسطها (بميل إلى الحائط الغربي) مقصورة من الخشب، داخلها رخامة قد تقعر جوفها لتعين مولد السيد الرسول عليه الصلاة والسلام. وهذه القبة والفناء الذي خارجها لا يزيد مسطحهما عن ثمانين مترًا مربعًا، وهما يكونان الدار التي ولد فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان السيد الرسول وهب هذه الدار لعقيل بن أبي طالب، فباعها ولده لمحمد بن يوسف الثقفي (أخي الحجاج)، فلما بنى داره



رسم نظري تقريبي لبيت السيدة خديجة المشهور بمولد السيدة فاطمة (بمكة)



رسم نظري تقريبي لمولد النبي (ص)، اودار عبد الله بن عبد المطلب (بمكة)

المشهورة بدار ابن يوسف، وكانت بجوارها أدخلها فيها، حتى اشترتها الخيزران أم الرشيد وفصلتها وبتتها على ما كانت عليه وجعلتها مسجداً. وهي باقية كذلك إلى يومنا هذا.

ويقرب من مولد النبي صلى الله عليه وسلم مولد سيدنا علي رضي الله عنه، وهو على شكل سابقه إلا أنه أصغر منه.

أمّا مولد السيدة فاطمة ففي درب الحجر: وهو دار خديجة بنت خويلد زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيها ولدت جميع أولادها منه. وقبل بعثته صلى الله عليه وسلم كان يعمل في تجارتها إلى الشام، ثم اختارته لنفسها لما كان عليه صلى الله عليه وسلم من كمال الصفات وصفات الكمال، فتزوجها في سنة (٢٨ قبل الهجرة) أعني قبل بعثته بخمس عشرة سنة.

وماتت خديجة بمكة رضي الله عنها قبل الهجرة بأربع سنين وهي في الرابعة والستين من عمرها.

وهذه الدار قد ارتفع عنها الطريق أيضاً، فينزل إليها بجمللة درجات توصل إلى طرقة، على يسارها شبه مصطبة مرتفعة عن الأرض بنحو ثلاثين سنتيمتر ومسطحها نحو عشرة أمتار طويلاً في أربعة عرضاً، وفيها كتاب يقرأ فيه الصبيان القرآن الشريف، وعلى يمينها باب صغير يصعد إليه بدرجتين يدخل منه إلى طرقة ضيقة عرضها نحو مترين، وفيها ثلاثة أبواب: الذي على اليسار لغرفة صغيرة يبلغ مسطحها ثلاثة أمتار طويلاً في أقل منها عرضاً، وهذا المكان كان معداً لعبادته صلى الله عليه وسلم، وفيه كان ينزل الوحي عليه، وعلى يمين الداخل إليه مكان منخفض عن الأرض يقولون: إنه كان محل وضوئه عليه الصلاة والسلام. والباب الذي في قبالة الداخل إلى الطرقة يفتح

على مكان واسع يبلغ طوله نحو ستة أمتار في عرض أربعة، وهو المكان الذي كان يسكنه صلى الله عليه وسلم مع زوجته خديجة رضي الله عنها. أمّا الباب الذي على اليمين فهو لغرفة مستطيلة عرضها نحو أربعة أمتار في طول نحو سبعة أمتار ونصف، وفي وسطها مقصورة صغيرة أقيمت على المكان الذي ولدت فيه السيدة فاطمة رضي الله عنها، وفي جدار هذه الغرفة الشرقي رف موضوع عليه قطعة من رحي قديمة يقولون: إنها من رحي السيدة فاطمة التي كانت تستعملها في حياتها. وعلى طول هذا المسكن والطريقة الخارجية والمصطبة من جهة الشمال فضاء مرتفع بنحو متر ونصف يبلغ طوله نحو ستة عشر متراً وعرضه نحو سبعة أمتار، وأظن أنه المكان الذي كانت السيدة خديجة تخزن فيه تجارتها.

وهذه الدار التي كانت مقرّاً له صلى الله عليه وسلم ومحل إقامته في مكة ومبعثه إلى الخلق كافة، إذا أنعمت بها نظرك وأمعنت فيها فكرك لا تراها إلا البساطة بنفسها: دار تحتوي على أربع غرف؛ ثلاث داخلية: منها واحدة لبناته، والثانية له ولزوجه، والثالثة له ولربه، والرابعة بمعزل عنها له ولعموم الناس. يا الله ما هذا الترتيب الجميل! وما هذا النظام البديع! بل ما هذه الآداب الكبرى والكمالات الحيوية العظمى التي صيغت في شكل هذه البساطة المتناهية! تأمل قليلاً تر أن هذا النظام هو بذاته ما قضت به المدنية العصرية لولا أنه يعمل فيه بشكل تعددت صفاته وكثرت حاجباته! هذه هي دار السيد الرسول الذي أرسل للناس كافة! نعم هذا هو منزل هذا النبي الأمي، وذلك هو نظامه في بيته: ذلك النظام الذي وإن كان مجرداً عن مظاهر العظمة والفخامة فقد اكتسب بحلى الجلال والكمال. اللهم إني آمنت بك وبرسولك هذا الذي لم يتخذ دينك وسيلة إلى عيش الأغنياء وحياة العظماء؛ بل كان حسبه

من عيشه ما كان يقوم بحياته التي إنما كانت كلها خيرًا وبركة ويمناً وسعادة للناس أجمعين.

ولما هاجر صلى الله عليه وسلم إلى المدينة استولى على هذه الدار عقيل بن أبي طالب، ثم اشتراها منه معاوية بن أبي سفيان فجعلها مسجدًا، وعمرت في زمن الناصر العباسي. وقد وضع في حائط الطريقة الخارجية على يسار الداخل لوح من الرخام مكتوب عليه بالحروف البارزة: «بسم الله الرحمن الرحيم أمر بعمارة مربد مولد الزهراء البتول فاطمة سيدة نساء العالمين بنت الرسول محمد المصطفى المختار صلى الله عليه وعلى آله وسلم سيدنا ومولانا الإمام المفترض للطاعة على الخلق أجمعين، الناصر لدين الله أمير المؤمنين، أعز الله أنصاره، وضاعف اقتداره، وجعل منافعه ومشتغلاته وأجره عائدًا على مصالحه ثم على مصالح هذا المقام الشريف المقدس الطاهر النبوي، على ما يرى الناظر المتولي له في ذلك من الحظ الوافر، والمصلحة لهذا المربد والمولد المقدس المذكور بعد ذلك ابتغاء وجه الله تعالى وطلبًا لثواب الدار الآخرة. تقبل الله ذلك منه وجزاه عليه أجر المحسنين. وذلك على يد العبد الفقير إلى رحمة الله تعالى علي بن أبي البركات الدوراني الأنباري في سنة أربع وستمائة، ومن غير ذلك أو بدله عليه لعنة الله ولعنة اللاعنين إلى يوم الدين، آمين، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله الطاهرين».

ثم عمرها بعد ذلك «الأشرف شعبان» ملك مصر، ثم الملك المظفر صاحب اليمن، ثم السلطان سليمان في سنة (٩٣٥).

أمّا دار الأرقم المخزومي المشهورة بدار الخيزران فهي في زقاق على يسار الصاعد إلى الصفا: وهي الدار التي كان يختبئ فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم في صدر بعثته هو ومن آمن معه، وكانوا يصلون بها سرًا حتى أسلم عمر

رضي الله عنه فقويت به عصبيتهم وجهروا بالإسلام والصلاة. وباب هذه الدار يفتح إلى الشرق ويدخل منه إلى فسحة سماوية طولها نحو ثمانية أمتار في عرض أربعة، وعلى يسارها ليوان مسقوف على عرض نحو ثلاثة أمتار، وفي وسط الحائط التي على يمينها باب يدخل منه إلى غرفة طولها ثمانية أمتار في عرض نحو نصف ذلك مفروشة بالحصير، وفي زاويتها الشرقية الجنوبية حجران من الصوان موضوعان فوق بعضهما مكتوب في أعلاهما بالحرف البارز: «بسم الله الرحمن الرحيم: {في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والأصال} هذا مختبأ رسول الله ودار الخيزران، وفيها مبتدأ الإسلام، أمر بتجديده الفقير إلى مولاه أمين الملك مصلح ابتغاء ثواب الله ورسوله، ولا يضيع أجر المحسنين». ومكتوب في الثاني: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا مختبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم المعروف بدار الخيزران، أمر بعمله وإنشائه العبد الفقير لرحمة الله تعالى جمال الدين شرف الإسلام أبو جعفر محمد بن علي بن أبي منصور الأصفهاني وزير الشام والموصل، الطالب الوصول إلى الله تعالى، الراجي لرحمته، أطال الله في الطاعة بقاءه وأناله في الدارين مناه، في سنة خمس وخمسين وخمسمائة».

ومن الأماكن المقدسة غار حراء: وهو الغار الذي كان يتعبد فيه النبي صلى الله عليه وسلم، ومساحته تقرب من ثلاثة أمتار في مترين، ويوجد في قمة جبل النور الذي على يسار السالك إلى عرفة، وفيه نزل الوحي عليه صلى الله عليه وسلم لأول مرة. ثم جبل ثور؛ وهو إلى الجنوب من جهة المسفلة وعلى ساعتين منها، وفيه الغار الذي اختفى فيه رسول الله مع صاحبه أبي بكر حين قصد الهجرة إلى المدينة، ومساحته نحو مترين مربعين. ثم المعلى؛ وهي مقبرة مكة وتوجد خارج بابها الشرقي، وابتدأ بزيارة ضريح السيدة خديجة زوج النبي

صلى الله عليه وسلم؛ وهو داخل قبة تجددت سنة (١٢٩٨هـ)، وفي القبة مقصورة من خشب الجوز أقيمت على قبرها الشريف، وإلى جانبها مقصورة صغيرة مدفون فيها ستة عشر شخصاً من الأشراف. وخارج هذه القبة إلى الغرب قبر السيدة الكبيرة حرم ساكن الجنان محمد علي باشا، وكانت قد أتت إلى الحج سنة (١٢٦٦هـ) فماتت ودُفنت بهذا المكان. وقبالة قبة السيدة خديجة إلى الجنوب قبة السيدة آمنة^(١) بنت وهب والددة الرسول عليه الصلاة والسلام، وبجوارها مقصورة دفن فيها الشريف «محمد ابن عون»، وفي شوالها قبة أبي طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم، وبجوارها قبة جده عبد المطلب، وكلتاها تجددتا في سنة ١٣٢٥هـ. وفي هذه القرافة قبر سيدنا «عبد الله بن الزبير» رضي الله عنه، وكانت له قبة هدمها «الشريف عون الرفيق» فيما هدم ولم تُشيد بعد، وفيها قبر «أبي جعفر المنصور» أمير المؤمنين؛ وكان قد حضر إلى مكة حاجاً في سنة (١٥٨هـ) فمات ودُفن بالمعل، ولا يُعرف مكانه. وفيها غير ذلك كثير من قبور الصحابة والتابعين والصالحين، رضوان الله عليهم.

(١) ذكر «ياقوت» في معجمه أن آمنة بنت وهب أم النبي صلى الله عليه وسلم دُفنت بـ«الأبواء»؛ وهي قرية من أعمال الفرع من المدينة، بينها وبين الجحفة مما يلي المدينة ثلاثة وعشرون ميلاً. والسبب في دفنها هناك أن «عبد الله» والد الرسول صلى الله عليه وسلم كان خرج إلى المدينة فمات ودُفن بها. وكانت في كل عام تخرج إلى المدينة لزيارة قبره، ولما أتى على رسول صلى الله عليه وسلم ست ستين خرجت زائرة له ومعها عبد المطلب وأم أيمن حاضنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما صارت بالأبواء منصرفة إلى مكة ماتت ودُفنت بها.



على جبل أبي بكر في مكة المكرمة
حيث المعجزة التي فيها قتل قيس بن قيس

ومن المزارات بمكة أيضاً مسجد الحن، ومسجد الراية، ومسجد الإجابة، ومسجد البيعة، ومسجد أبي بكر، ومسجد عمر، ثم جبل أبي قيس وفيه مسجد بلال، ومسجد انشقاق القمر، وزاوية السنوسي^(١) الذي له في الحجاز شأن كبير ومقام خطير، ومعظم الأعراب على شيعته.

(١) أهالي مكة أغلبهم على الطريقة السنوسية، وكثير منهم على طريقة يسمونها الرشدية؛ وهم أتباع الشيخ إبراهيم الرشدي، والإدرسية وهم أتباع الشيخ أحمد بن إدريس، والمرغية وهي شائعة في السودان ومصر.

وفي مكة مكان للتلغراف والبوستة بناه المرحوم «عثمان باشا نوري» عند بنائه لدار الحكومة (الحميدية) وغيرها منذ كان واليًا عليها لأول مرة سنة (١٨٨٢) ميلادية. والتلغراف في هذه المدينة لا نظام فيه بالمرّة لعدم وصول غالب الإشارات التي ترسل من وإلى أربابها! ولعل ذلك ناشئ من كثرة الأعمال في زمن الحج. أما البوستة فشيء لا نظير له بالمرّة في بوسطات العالم؛ فإن المكاتب تحضر في زمن الموسم من جدة إلى مكة على الجمال في عدة زكائب، فتلقى في طرقة مكتب البوستة الضيقة، ويأتي المطوفون أو صبيانهم أو الحجاج أنفسهم فيفرونها ويأخذ كل ما يعثر عليه صدفة باسمه أو باسم معارفه، وعليه فأغلب الخطابات لا تصل إلى أربابها. وأظن أن هذا النظام -أو اللانظام- لا مبرر له بالمرّة؛ لأن الحكومة العثمانية في استطاعتها أن تكثّر من عمال البوستة في موسم الحج. وإذا فرضنا أنها عينت بصفة ظهورات عشرين عاملاً لفرز هذه المكاتب مدة الموسم وتوزيعها على أربابها فلا يكلفها ذلك شيئاً يذكر.

ولو قلنا: إن الزمن الماضي كان زمن فوضى لا نظام له، فإننا لا يمكننا أن نقول هذه الكلمة في الحكومة الحاضرة، وإن أمكننا فلا نحب أن نقولها. وليست هذه الحال خاصة بمكة، بل تراها بالمدينة وينبع وجدة، وعليه فخرجوا من حكومة الحجاز العناية بتنظيم البوستة قياماً بواجب رد الأمانات إلى أهلها حتى لا تضيع الفائدة المقصودة منها.

وفي شوارع مكة كثير من القهاوى البلدية التي ترى في دوائرها دكّاً وكراسي من الخشب مقاعدها مصنوعة من شبكه من الليف أو الخوص المجدول وأحسنها في جهة جياد، فيجلس عليها الحجاج وخصوصاً فيما كان

منها خارج البلد مدة الصيف، ويشربون بها الشاي (ويسمونه الشاهي)^(١) والقهوة^(٢) والنجيلة التي يجهزوها بالتبناك الحمي عادة لكثرة استعماله هناك. ولقد رأيت بعض الهنود يمر على هذه القهاوي وهو ينادي قائلاً: «كابوس كابوس» (مكبساتي)، فإذا استدعاه أحد ممن فيها فرشاه على دكة وأخذ يكسبه بمهارة فائقة نحو نصف ساعة على الأقل في نظير قرش أو قرشين. ويقرب من هذه القهاوي عادة سوامر يقوم فيها بعض أناس في الغالب من اليمانيين يتغنون بأغنية جميلة تطرب منها النفوس، وكلها في مدح النبي صلى الله عليه وسلم. وفي بعض الأحيان ترى هؤلاء المغنين متنقلين في طرق مكة.

وفي مكة ثلاث تكايا، وأكبرها وأفخرها وأنظمها وأكثرها مورداً التكية المصرية: وهي بناء فخيم شيده المرحوم «محمد علي باشا» جد العائلة الكريمة الخديوية في مكان دار السعادة التي كانت محل حكومة بني زيد من الأشراف، كما كانت دار الهناء محمل حكومة بني بركات، وكانت توجد مكان دار الشريف أبي ندى تجاه باب الوداع. وفي هذه التكية مخازن وطاحونة ومخبز ومطبخ ومكان نظيف منظم لحضرة مديرها وأمكنة لمستخدميها، ويطبخ بها يومياً الشورية للفقراء والمعوزين الذين يفدون إلى بابها صباحاً لأخذها مع ما هو مرتب لهم

(١) وأظن أن هذه الكلمة نسبة إلى «شاه الفرس» لاستعماله هذا الشراب كقولهم: شراب ملوكي مثلاً. وربما أتى من هذه النسبة اسم ذلك القماش الحريري المشهور «شاهي».

(٢) القهوة عندهم من البن اليمني، وكبراًؤهم يضيفون عليها كثيراً من المنبهات مثل الحبهان والقرنفل وبعض العطريات مما يجعل لها نكهة لطيفة جداً، ويسمونها دوش. ومن أغاني البدو: يا دوش ما اسمك دوش، اسمك دواء لكل كبد علية.

من الخبز الذي تقوم به حياتهم، ويبلغ عددهم يومياً نحو خمسمائة شخص أو يزيدون^(١).

وفي مكة قلعتان تحكمان على المدينة ويسكن بهما عساكر الدولة، وهما قلعة جياذ التي بناها الشريف سرور سنة (١١٩٦ هجرية) في الجهة الجنوبية، وقلعة الهندي التي بناها الشريف غالب سنة (١٢٢١) في الجهة الشمالية. وفيها حمامان على مثال الحمامات الرومية بمصر: واحد بالعمرة بناه محمد باشا وزير السلطان سليمان سنة (٩٨٠)، والثاني بالقشاشية ويسمونه حمام النبي. وبها مطبعة للولاية ويسمى باسمها. ويصدر فيها جريدة بالتركية والعربية اسمها (حجاز) وهي شبيهة بالرسمية، وكل ما فيها تقريباً يتعلق بأخبار الحكومة وإعلاناتها.

وليس في مكة كتبانات تذكر؛ اللهم إلا كتبخانة بسيطة في باب أم هانئ تسمى كتبخانة شرواني زاده محمد رشدي باشا والي الحجاز سابقاً، وأخرى في باب الدُرَيْبَةِ قرب باب السلام تسمى بالكتبخانة السلیمانية، أسسها السلطان عبد المجيد وكونها من شتات كتب الحرم وغيرها مما أرسله إليها من الأستانة. ولكل كتبخانة من هاتين فهرست بخط اليد ومغير يقوم بشئونها. والكتب التي بهما نحوية وفقهية وأدبية وتاريخية وغالبها باللغة العربية وفيها شيء بالفارسية والأوردية (الهندية) والتركية والجاوية (لغة الملايو).

وقد كان بمكة كتب كثيرة مهمة وكانت موضوعة في دواليب في دائر حائط الحرم، سرق بعضها والسيول التي أغرقت المسجد وخصوصاً في سنة (٤١٧)

(١) وهذا العدد يزداد حسب شرط الواقف في مدة الحج إلى ثلاثة أضعافه، على أنه ربما يقصد التكية من الفقراء في الموسم ما يزيد عن ذلك كثيراً لأنها أعظم ملجأً للبائسين في مكة، ولو كانت إدارة أوقاف الحرمين تزيد في ميزانية هذه التكية ولو في مدة الحج كان ذلك من خير أعمالها.

صعدت إلى هذه الخزائن وأتلفت منها شيئاً كثيراً، وكان في ذلك أكبر مصيبة على العلم والعلماء؛ لأنهم فقدوا بها ما لا يصلحه الزمان ولا يعوضه الإنسان.

وفيهما مدرستان المدرسة الصولية، بناها المرحوم الشيخ «رحمة الله الهندي» الشهير (صاحب كتاب إظهار الحق)، ويدرس فيها القرآن الشريف وعلم التجويد وشيء من اللغة العربية والأعمال الحسابية والهندسية، ويصرف عليها من تبرعات أهل الهند، وهو أمر لا ثبات له ولا تدوم معه حياة مدرسة نافعة مثلها؛ لذلك أخذت في الانحطاط، والأمل في حكومة الحجاز النهوض بها وبأمثالها. ثم المدرسة التي يقوم بها حضرة الأستاذ الفاضل الشيخ يوسف محمد الخياط، وهو من علماء مكة الأماثل، ويدرس فيها ما يدرس في الأولى بتوسعة، وعناية مولانا الأمير بها كبيرة، ولذلك فالأمل في نجاحها عظيم. ولقد قرأت بعدد ٣ جمادى الآخرة سنة (١٣٢٨هـ) من جريدة المفيد الغراء نقلاً عن جريدة صباح: أن الحكومة العثمانية افتتحت مدرسة بمكة المكرمة بحضور الوالي والشريف وجمهور من الوجهاء والأعيان، فعسى أن يكون فيها الخير المرجو لأم القرى؛ بل لأم العواصم الإسلامية.

ولو كان مولانا الأمير يقضي بأن يتخرج المطوفون من مدرسة مخصوصة يدرسون فيها ما هو خاص بوظيفتهم لكان في ذلك أكبر خدمة دينية؛ لأن جل الموجود منهم الآن يجهل مأموريته الكبرى. وليت بعضهم يقف عند هذا الحد بل يلقي في ذهن الحاج ما ليس من الدين في شيء كمسألة الكنفاني والزلباني مثلاً: وهما حجران في طريق جدة إلى بحرة يزعمون أن واحداً منهما كان كنفانياً، والآخر كان زلبانياً، وكان يغشان الحجاج فمسخهما الله حجرين!!

ومسألة الناقة والحجام والحجامة ببجل عمر؛ ذلك أن هناك صخرة تشبه ناقة باركة وإلى جوارها حجران يزعمون أن النبي كان بهذا المكان بناقته فأتى

رجل حجام مع امرأته وأمسكا بالناقاة التي لم تنهض برسول الله صلى الله عليه وسلم فمسخها الله معها على هذه الصورة!!

ومسأله سارق الصندوق وهو صخرة إلى جهة جبل النور تقرب من صورة رجل يحمل صندوقاً يزعمون أنه كان سارقاً له فمسخه الله عليها!! وأمثال هذا كثير مما تجب العناية بإزالته خدمة للدين المتين. والأدهى من ذلك أنهم يحرفون ألفاظ القرآن الكريم عمداً أثناء الطواف، بتفخيمهم ما لا يجوز تفخيمه أو ترفيقهم ما لا يصح ترفيقه؛ بل منهم من يقلب الحرف بآخر لتقريبه إلى نطق السامع إن كان تركياً أو هندياً أو فارسياً، فيقولون مثلاً: «وكنا عذاب النار» في قوله تعالى: {وقنا عذاب النار} و«مهمد رسول الله» في محمد رسول الله و«يا أرهم الراهمين» في: يا أرحم الراحمين، و«اللوههم» في: اللهم. ونحو ذلك مما لا يجوز شرعاً ولا اجتماعاً.

ويدرس في الحرم الشريف بعض العلوم العربية والتفسير على الطريقة القديمة العقيمة، ويقدر عدد الطلبة ببضع مئات جلهم من الجاهل الذين يفرون إلى هذه البلاد من المظالم التي تتساقط على رؤوسهم من حكومة بلادهم، فتراهم يشتغلون وقت الدرس في الدراسة ووقت القضاء منها يعملون فيه عملاً يقوم بحياتهم.

ويبلغ عدد المدرسين العاملين نحو الثلاثين، وعنايتهم بالتعليم قليلة جداً، وذلك لقلة موارد الارتزاق ولأن مرتباتهم التي تصرف لهم من طرف الدولة تقوم بأودهم؛ لأنها تختلف من مائة إلى خمسمائة قرش عثمانى سنوياً. ولباقى الحكومة الجديدة، حكومة الدستور، حكومة العلم، حكومة العمل، وفي كبير همة دولة الشريف عظيم الأمل في انتقال حال العلم بهذه البلاد في زمن قريب إلى حال يفيد القوم في دينهم ودنياهم.

وتجارة هذا البلد كلها أو جلها في يد الأعراب خصوصاً الهنود، وغالبها من صنف العطريات والسبح والسجاجيد والأقمشة الحريرية الهندية والشامية، والصناعة فيها غير مهمة وهي لا تخرج عن صياغة بعض قطع ذهبية أو فضية، وخصوصاً في عمل الدبل التي يدعون منفعتها للبواسير شفاهم الله!! والحدادة عندهم بسيطة جداً ولكنها دقيقة في عمل الأسلحة، وفيها من المصانع فاخورة لعمل الدوارق والقلل، وكل ذلك في يد الأجانب أيضاً. أما الاهالي فأغلبهم يعيش من مهنة التطويف أو التظاهر بالشعار الديني، ولا تروج تجارتهم إلا زمن الحج، وما يأتيهم فيه من رزق يعيشون منه طول عامهم. غير أن كثيراً منهم يرحلون مكة بعد الموسم إلى الجهات التي بها أناس ممن سبقت معرفتهم بهم في الحج، فيفدون عليهم ببعض الهدايا ثم يعودون وقد أخذوا أضعاف ثمنها منهم.

والنقود التي تستعمل في مكة هي النقود التركية والمصرية، فضية أو ذهبية، والروبية والقروش الهندية والريال الشينكو وأبو طيره والريال البرم^(١) (الجاوي) وهو على أشكال مختلفة، والجنه الإنجليزي والفرنساوي والروسي. وليس لهذه النقود قيمة ثابتة هناك؛ بل نراهم يستعملون على الدوام في مصلحتهم، فيأخذونها منك بأقل من قيمتها ويعطونها لك بأكثر مما تساوي، وهذا عيب كبير من عيوب المعاملات!! ولعل أرباب الأمر والنهي يجتهدون في إزالته قريباً. والريال أبو طيره هو أكثر النقود استعمالاً عند الأعراب وقيمتها عندهم كالريال الشينكو والمصري. ومما يناسب ذكره هنا أني أعطيت مرة قطعة من النقود ممسوحة قليلاً إلى طفل صغير أعرابي فردها إليّ قائلاً هذه زلطاء،

(١) هذا الريال ضرب باسم شركة هولندية ومع عدم استعماله فلا يزال ذكره يرد في أقوال بعض الذين يشحنون بنشيدهم (أدياتية) «شرم برم حالي غلبان».

وهي كلمة بدوية صرفة كان لها وقع عظيم على سمعي، والأعراب لا يعرفون قيمة هذه النقود، وإذا وجد معهم شيء منها يتوجهون به إلى التاجر ويقولون له: «سو بهذه من الصنف الفلاني على أمانتك»، ولا تهمهم جودة الصنف بل تهمهم الكثرة منه.

وأسواق مكة كثيرة: منها سوق الشامية في شمال الحرم، وهي أشبه شيء بالأسواق التركية، وله سقف من الخشب على مثال الخان الخليلي بمصر لولا أن شوارعها أضيق، وهذه السوق يضيق بالمارين خصوصًا عند مرور الجمال بها. وفيها يبيعون السبح والأقمشة الهندية والتركية وغيرها، وفيها كثير من الفصوص الفيروز والياقوت والعقيق الذي يبيعه على الخصوص حجاج اليمن في شوارع المدينة بأثمان رخيصة جدًا.

ثم السوق الصغير وهو تجاه باب إبراهيم، وأغلب ما فيه للغذاء، كالخبز واللحوم والبقول الجافة والخضر التي يؤتى بها من الأودية المحيطة بمكة كوادي فاطمة شمالًا، ووادي الليمون شرقًا، ووادي العبيدية (العبادية) والحسينية جنوبًا. وكثير من هذه الخضر يأتي مع الفاكهة من جهة الطائف وجبال كرا، وفي هذه السوق دكاكين كثيرة يبيعون فيها الأسماك المقلية التي يؤتى بها من جدة، وهي في الغالب مضرّة جدًا بالصحة لتعفنها من الحرارة وطول زمن النقل.

وفي شرق المسجد سوق الليل؛ وهي سوق كبيرة مختلطة فيها جميع احتياجات الحاج.

وفي كل هذه الأسواق ترى مدة الموسم حركة لا تنقطع يأتي من ورائها ربح عظيم لأهل البلد. ومدار حركة الأشغال الشاقة من مكة على العبيد؛

فمنهم الحمالون والخطابون والحمارون والجمالون والسقاةون والخدامون. ولقد كان للرقيق يمكنه سوق كبيرة أخذ أمرها ينمحي شيئاً فشيئاً حتى كاد لا يكون له أثر بالمرّة. وكانوا يسمون المكان الذي يبيعونه فيه بالدكة؛ لأنه كان في حوشه دكة يُجلسون عليها ما يراد بيعه منه.

وبهذه المناسبة أقول: إن ما يصرفه الحجاج بمكة ليس بالشيء الذي يستهان به؛ لأننا إذا فرضنا أن متوسط عددهم يبلغ سنوياً مائتي ألف نفس، وأن متوسط ما يصرفه الواحد منهم مدة إقامته بمكة خمس جنيهات، فيكون مجموع ما يصرفه الحجاج في مكة على أقل تقدير مليوناً من الجنيهات في نحو شهر من الزمان: في أجره مسكن، وبعض المأكّل، وأجرة مطوف وزمزمي، وبعض هدايا يشتريها لذويه وأهليه. ومع هذا كله فإن بعض أهالي مكة لا ينظرون إلى الحاج (بقطع النظر عن كونه ضيف الله وفي بلده الحرام) بالعين التي يجب عليهم أن ينظروه بها. وعلى الأقل من الجهة الاقتصادية التي هي مصدر حياتهم؛ لأنهم مع احتقارهم له يسيئون معاملته ويرون في ماله كلاً مباحاً لهم، ويتقولون في ذلك الأحاديث التي لا يخرج معناها عن قولهم: «الحاج رزق لأهل الحرمين، ورزق الحاج على الله!». ولعل هذه المعاملة السيئة كانت في ذلك الزمن السيئ؛ زمن الاستبداد الذي كان المطوفون فهي يوقفون أغنياء الحجاج في سوق المزايدة، حتى يرسو أمرهم على أيهم يتولى شئونهم، كما حصل لبعض سراة المصريين في سنة (١٣٢٦) ولا حول ولا قوة إلا بالله!

وجو مكة كثير الحرارة قليل الأمطار، ومع ذلك فقد تحصل فيه سيول كثيرة من الأمطار التي تنزل بكثرة في الجبال العالية المحيطة بالطائف. وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه عمل في شمال مكة قناطر لحجز مياه هذه السيول عن هذه المدينة، وانصرافها من الجهة الشرقية نحو المسفلة إلى خزان

كبير في الجهة الجنوبية يسمونه بركة الماجن، وهناك تستعمل للأعمال الزراعية. ولا تزال لهذه السيول أضرار جسيمة بمكة ومبانيها.

وأهواء مكة تختلف في هبوبها جملة مرات في الساعة الواحدة. ولهذا يقول المكيون: «إن الله خلق سبعين هواء جعل منها في مكة تسعاً وستين، وفي العالم كله هواء واحداً» ذلك لأنَّ الهواء يدور في جو المدينة بين جبالها المحدقة بها كما تدور الدوامة على سطح الماء. فبينما تراه يدخل إلى المساكن من المنافذ الغربية إذا به انقطع عنها ودخل من الشرقية أو الشمالية أو الجنوبية وهكذا؛ ولذلك تجد مساكنهم كثيرة النوافذ وغالبها إلى الجهات الأربع حتى لا تحرم من الهواء من أي جهة كان. والهواء البحري عندهم -وهو الغربي- أحسنها وألطفها؛ لأنه يأتي من جهة البحر، ثم هواء الشام ويسمونه الشمال والشمال، أما الجنوبي والشرقي فهما حاران.

ويفسد هواء مكة في أيام الحج لكثرة الساكنين فيها وعدم العناية بنظافتها، وتكثر فيها زمن الشتاء أمراض الصدر، ويندر فيها التدرن الرئوي. وفي زمن الصيف تكثر الاحتقانات الدماغية وضربات الشمس وأمراض العين والكبد والجهاز الهضمي والدوستاريا خصوصاً بين الأطفال، ويسببها عندهم أكل السمك العفن والفواكه الغير ناضجة. وفي زمن الحر تكثر فيهم الحميات لا سيما عند فساد مياه الشرب، ويكثر فيهم مرض الجدري، ويموت بسببه سنوياً أكثر من اثنين في الألف. ومما يجد بنا ذكره أن الكوليرا لم تظهر في مكة إلا سنة ست وأربعين ومائتين وألف هجرية؛ أي في نحو سنة (١٨٢٥ ميلادية)، وفدت إليها مع حجاج الهند، ولا تزال تفد إليها معهم. ولو كان الحكومة تعتني بشدة

الحجر على حجاج الهنود والجاوة في جزيرة قمران^(١) قبل دخولهم إلى جدة بزمان لأمكنها الحيلولة بين حجاج بيت الله الحرام وهذا الداء الويل. والأوبئة الكبيرة التي حصلت بمكة في زمن الحج وفتكت بالحجاج فتكاً ذريعاً كانت في سنة (١٨٩٠ ميلادية، وسنة ١٨٩٢) وسنة (١٨٩٣ وسنة ١٨٩٥ وسنة ١٩٠٢).

وفي مكة مستشفى معروف الآن باسم شفقانة الحاصكية؛ وهو من خيرات حاصكي سلطان زوجة السلطان سليمان القانوني. وفيها أربع أجزايات: اثنتان في طريق المسعى وواحدة في مصلحة الصحة بجياد، والرابعة أشبه شيء بدكان عطاره بسيطة فيها من الأدوية ما فسد غالبه وأصبح ضرره أكبر من نفعه. وعلى كل حال فالعناية بالمسائل الصحية بمكة قليلة جداً؛ لأن ثقتهم بالطب القديم الذي مداره على الكي والفصد والحمية الشديدة وبعض أصناف العطرة الشرقية كالمر والصبر أكبر من ثقتهم بالطب الحديث.

وقد كان الجنب العالي الخديوي -حفظه الله- فكر في إيجاد مستشفى بمكة ورتب له طبيباً وأجزاياتاً فلم يتيسر لهما القيام بمأموريتيهما واكتفى الحال مؤقتاً بالخدم التي تقوم بها مأمورية الأوقاف الصحية: زمن الحج ومقرها فيها يكون في التكية المصرية، والحق يقال: إن لها أثراً يذكر في شكر. ومصاريف هذه المأمورية تبلغ سنوياً فوق السبعمئة جنيه مصري، ومع هذا فإننا لا ننسى الخدم

(١) جزيرة قمران واقعة في البحر الأحمر شمال الحديدة بمسافة أربعين ميلاً، وعلى مسافة ٤٨٠ ميلاً من جدة. وفيها أحذية كثيرة تنتها الدولة العلية بحيث أصبحت وافية بالغرض المقصود منها. ولو كانت الدولة لا تدع الهنود والجاوة يدخلون إلى ميناء جدة إلا إذا كان معهم جواز نظيف من قمران لكان ذلك أنفع لبلادها، بل لبلاد العالم بأسره، ولاكتفى المسلمون ما تلصقه الإفرنج بمكة من أنها بؤرة الأوبئة التي تنفث في بلاد العالم، سامحهم الله.

التي تقوم بها مأمورية المحمل المصري الصحية لعامة الحجاج لا فرق بين مصري وغيره.

وأهل مكة يشربون من ماء الآبار التي فيها مثل زمزم أو التي في ضواحيها كالزاهر والعسقلاني والجعرانة وغيرها، أو من الصهاريج التي تملأ من مياه المطر أو ماء الينابيع، أو من عين زبيدة التي تجري ماؤها إلى المدينة في قنوات تحت الأرض لها خزانات في شوارعها يملأ منها السقاءون قربهم. وهذه العين لها أهمية عظيمة جداً، وهي من أجل الآثار التي تُنسب إلى السيدة زبيدة زوج هارون الرشيد رضي الله عنهما. وكان السبب في إنشائها أن هذه السيدة البارة رأت في حجها ما كان ينال أهل مكة وحجاج بيت الله الحرام من العناء الشديد والأهوال الكثيرة لقلّة الماء في تلك الأنحاء، فأمرت رحمها الله بإجراء الماء إلى أم القرى من عين حنين التي توجد فيها وراء عرفة إلى جهة الشمال الشرقي، على مسافة نحو خمسة وثلاثين كيلومتراً من مكة. وهذه العين تخرج من جبال طاد ويسير في وادي حنين الذي حصلت فيه (سنة ٨ للهجرة بعد فتح مكة) تلك الواقعة المشهورة بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين المشركين من هوازن وثقيف، وثبت فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثباتاً عظيماً، كما أبلى المسلمون فيها بلاءً حسناً. وفيها قُتل «دريد بن الصمة» وهو من أكبر رجال الجاهلية المشهورين؛ قتله رجلٌ من المسلمين يسمى «ربيعة بن ربيع السلمي».

وقد اهتمت «زبيدة» بهذا العمل الجليل اهتماماً كبيراً وأرسلت إليه العمال من جميع الأطراف، فبنوا لهذا الماء مجرى عظيماً وأوصلوا به مجرى آخر من وادي النعمان من الماء الذي ينزل إليه من جبال كرا التي تبعد عن عرفات شرقاً إلى الجنوب بنحو اثني عشر كيلومتراً، وسيروا إليه سبع قنوات أخرى من الجهات التي تسقط إليها السيول حتى تساعد ماء المجرى الأصلي الذي عندما

وصل إلى جنوب منى نقر له في الصخر خزان كبير يصب فيه يسمى «بئر زبيدة»، ومنه سيرت قناة إلى مكة. ومن هذا المجرى امتد فرعان: واحد إلى عرفات، والآخر إلى مسجد نمرة يسير الماء فيهما زمن الحج.

وفي نهاية القرن السابع الهجري طم مجرى هذه العين وتهدمت قنواتها وانقطع ماؤها عن المدينة، ونال الناس من جراء ذلك جهد عظيم. وذكر «الفاكهي» في تاريخ مكة: أن الأمير جوبان «نائب السلطنة بالعراق عن السلطان أبي سعيد بن خربنده (لعله خدابنده) ملك التتار» أراد أن يعمل عملاً نافعاً في أم القرى فطلب إليه أن يعمر عين زبيدة، فأرسل رجلاً من خاصته اسمه بازان لتعميرها فأتمها في سنة (٧٢٦) وفيها جرت مياه العين إلى سقاياته التي بناها في المسعى وسماها باسمه. ويظهر أن هذا الاسم تغلب على باقي السقايات التي بمكة حتى صار يطلق على كل واحدة منها اسم بازان إلى الآن.

وما زالت هذه العين حياة لأهل البلد الحرام وحجاج بيت الله المعظم حتى أهمل شأنها وتهدم بناؤها وانقطعت مياهها مرة أخرى فيما بين سنتي (٩٣٠ و ٩٧٠)، ونال الناس من ذلك أهوال ما كانت تخطر على البال، حتى بلغ ثمن زق الماء (قربة صغيرة تسع ٣ لترات تقريباً) بعرفة في غضون هذه المدة ليرة ذهبية. وسبب إهمال هذه العين في المدة المذكورة أن ملوك مصر هم الذين كانوا يعتنون بها ويقومون بعمارتها في الغالب، فلما تغيرت الأحوال ودخلت مصر مع أرض الحجاز سنة (٩٢٣) ضمن أملاك الدولة العلية التي كانت تشغل كل وقتها كثرة حروبها الخارجية، أهملت الدولة ترتيبها لداخلية حكومتها، خصوصاً ما كان بعيداً عنها. ولكن أهل الحرمين الشريفين قاموا في سنة (٩٦٩) والتمسوا من السلطان سليمان إصلاح هذه العين. وهنالك رجته كريمته صاحبة السمو الملوكاتي مهرماه سلطان أن يشرفها بإجراء هذا العمل

المبرور من مالها الخاص. وعينت مديراً للقيام بهذه المهمة، وسلمته الأموال اللازمة لها، فسافر من وقته إلى مكة وشكل مجلساً من أهل الرأي فيها، وأمر بحفر القناة وتنظيف فروعها وبناء ما تهدم من مجراها، ولما وصل الإصلاح إلى بئر زبيدة بمنى أراد رحمه الله أن يغير مجراها إلى مكة، فاضطر إلى النزول في هذا الجبل الصخري على مسافة نحو خمسة وعشرين متراً من سطح الأرض، في مسافة طولها أكثر من كيلومتر، ثم سيرها في حوض الجبل القبلي حتى أوصلها إلى مكة سنة (٩٧٩).

وينقسم هذا المجرى من البياضية شرقي باب المعلى إلى أربع شعب تتخلل المدينة من جهة إلى أخرى. ويبلغ عرض هذه القناة نحو متر وربع في ارتفاع نحو متر ونصف، وتقرب من سطح الأرض وتبعد عنه على حسب ارتفاعها وانخفاضها، ولها خزانات تملأ منها السقاءون.

وفضل ماء زبيدة يسير إلى المسفلة حتى يصب جنوب مكة في بركة الماجن، وهناك يستعمل في سقي بعض البساتين والمزروعات التي لبعض الأشراف.

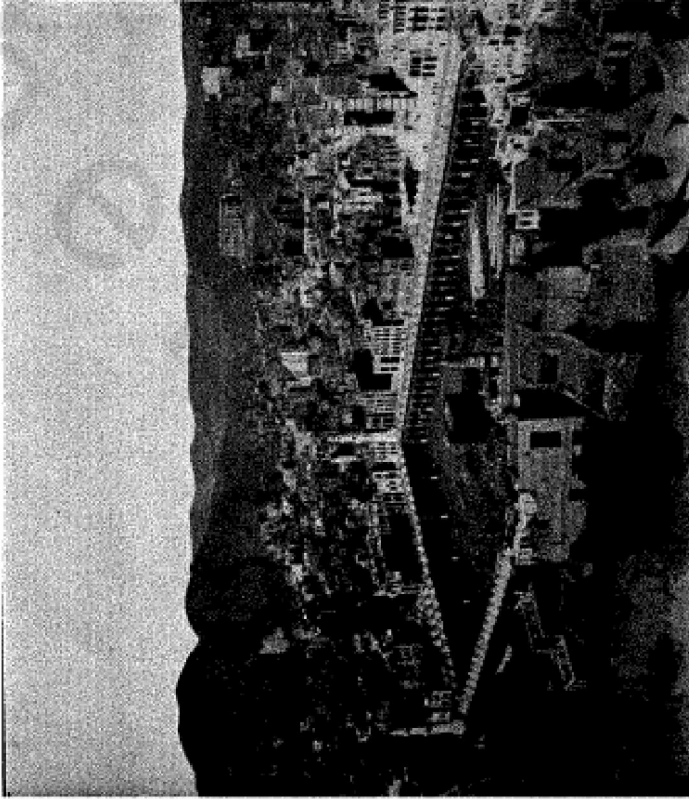
وكثيراً ما تعبت السيول بهذه القناة فتصلحها أمراء مكة بالأموال التي ترد إليها من الدولة أو من أصحاب الهمم والخيرات من المسلمين. وآخر ما حصل لها من ذلك على أثر السيول التي وقعت في سنتي (١٣٢٧ و ١٣٢٨) فهدمت نقطاً كثيرة منها، وطم مجراها بما تخلف إليه من الرمال والأحجار، فقام حضرة صاحب الدولة الشريف حسين باشا أمير مكة وجمع الناس وطهره وأصلح ما اعتل منه. وكان للجناب العالي الخديوي العباسي أكبر فضل في ذلك؛ لأنه بمجرد أن بلغ مسامعه الكريمة خبر هذه الفاجعة التي أصيبت بها أم القرى، أرسل بالفي جنيه مصري لهذا العمل الجليل ووعد بغيره كلما اقتضت الحال لمساعدته، جزاه الله خيراً.

وهنا يجدر بنا أن نلاحظ على بلدية مكة أن الفتحات التي في أعلى هذه العين من جهاتها المكشوفة في مكة وفي أعلاها يستعملها الناس في غسل ملابسهم وخلافها، مما لا ينطبق على القوانين الصحية ولا تسمح به الشريعة الغراء الإسلامية!! وهل يسمحون لي أن أقول لهم: إن ذلك ولا شك العلة الوحيدة لكثير من الأمراض التي تنفشى في مدينتهم. وعليه فيجب أن تكون العناية بأمر هذه الفتحات كبيرة، وأن يضرب على أيدي من يعيث بها أو سدها في وجوههم بالمرّة، وهل فاتهم قول صاحب الشريعة السمحاء: «النظافة من الإيمان»؟

ويا حبذا لو يأمر دولة مولانا الشريف بوضع طلبات على فوهات مياه مجرى عين زبيدة في مكة ومنى وعرفة، وعلى بئر زمزم، وتكون هذه الطلبات كبيرة بحيث تكفي لحاجة الحجاج من جهة، ومن أخرى تجعل ماءها بعيداً عن التلوث بأنواع البكتريا التي تكثر منها الحميات في الحجيج وتودي في الغالب بحياة الكثيرين منهم.

وعندي نصيحة للذين من عادتهم العناية بأمر ماء الشرب: ذلك أنهم إذا أرادوا الحج أخذوا معهم ما يكفيهم من المياه المعدنية أثناء الطريق، أما مدة وجودهم في مكة والمدينة فحسبهم غلي الماء المخصص لشربهم، ولو أضافوا على كل لتر منه عشر نقط من محلول مركب من واحد في الألف من برمنجانات البوتاسا لكان أحفظ لصحتهم. وهناك طريقة أخرى لتنقية الماء تنقية تامة، وهي أن يؤخذ أقراص مجهزة تسمى أقراص (فياروجورج) ذات ثلاثة ألوان: الأول أزرق، والثاني أحمر، والثالث أبيض. فيذاب أولاً قرص أزرق، ثم آخر أحمر في لتر من الماء المراد تنقيته، وهنالك يتم اتحادهما بهذا الماء فتموت جميع الجراثيم التي فيه في مسافة عشر دقائق، ثم يوضع فيه القرص الأبيض فيتحد

مع اليهود الذي به ويعمل معه تركيباً عديم الطعم، وبهذه الطريقة يكون الماء صالحاً للشرب. وإذا لم يكن لا هذا ولا ذاك فعليهم بفلتر سفري يمتصون به الماء ولو في الصحراء.



نظم مكة والحرم بالقطيف من بيتي إلى قيسين

www.egyptology.com

هذا وأرجو قبل قفل باب الكلام على مكة أن يسمح لي حضرة القارئ بكلمة أسوقها إليه؛ ذلك أني زرت القدس الشريف فرأيت به لكل نوع من النصارى واليهود على اختلاف أجناسهم ومذاهبهم من الأديرة والتكايا ومنازل الضيافة شيئاً كثيراً جداً، تمهدت فيها سبل الراحة والحياة للناس أجمعين؛ فالفقير يجد فيها مكاناً مجانياً لمدة أسبوع على الأقل، يرى نفسه فيه أكلاً

شاربًا نائمًا ساكنًا مخدومًا مشكورًا من غير ما يتكلف لذلك قرشًا واحدًا، والغني يجد فيها راحته في نظير أجر يدفعه يوميًا لا يزيد عن الأجر الذي يدفعه في لوكاندة بسيطة. ومن الأغنياء من يتخذها مسكنًا فقط ويتدارك أكله بنفسه. وهذه الأماكن التي قامت بها شركات البر والإحسان من الممالك المختلفة على اختلاف جنسياتها ومذاهبها كثيرة جدًا، وأكثرها لليهود ثم للروس ثم للأروام ثم للأرمن ثم للإنكليز والفرنساويين والألمان. وقد أقام الألمان هناك أخيرًا دار للضيافة وللصحة على جبل الزيتون صرفوا عليها أكثر من سبعين ألف جنيه؛ وهي دار رحيبة فسيحة شامخة البنيان، وطيدة الأركان، وضع في مدخل سلمها تمثال إمبراطورة الألمان، وافتتحت هذه الدار رسميًا بحضور ولي عهد المملكة الألمانية البرنس أيتل في شهر إبريل سنة (١٩١٠م).

وعدا هذه الدور والأديرة والملاجئ ترى هناك لكل جنس من النصارى واليهود المستشفيات العظيمة المشيدة والمدارس الفاخرة، بحيث يكاد ترى بجوار كل بيت من بيوت المدينة مدرسة؛ هذه للألمان، وتلك للإنكليز، وغيرها للروس، وخلافها للفرنساويين، وسواها لليهود. بل تجد لكل فرقة من هذه الأمم مدارس مخصوصة للبنات والبنين على أحسن طراز جديد، والتعليم فيها على أحسن بروجرام كافل لحياة المتعلمين. اللهم إن هذه هي الحياة الصحيحة، وهذا هو الوجود بكامل معانيه! وهل لإخواننا المسلمين في جميع أقطار المسكونة أن يقوموا بعمل مثل هذا بمكة ينتفع به الفقراء من حجاج المسلمين، ولهم من مساعدة الحكومة العثمانية ما يوصلهم إلى هذه الغاية الجليلة التي يكون من ورائها راحة حجاج بيت الله الكريم.

وبهذه المناسبة نقول: إن الجنب العالي - حفظه الله - بعد عودته من حجه المبرور ربط في تكيته مكة والمدينة كثيرًا من المرتبات الشهرية والسنوية إلى

عدد عظيم من أشرف وعلماء وأهالي الحرمين الشريفين، لا زالت تتوالى عليهم فيوضاته وإحساناته لأنهم أولى الناس بمثل هذه العناية السامية. ولعله -حفظه الله- يأمر فيكون له بهما أثر فخيم دائم يشكره عليه الله والناس على توالي الأيام. ويا حَبَّذا إذا كان المبلغ الذي جمع من السادة المصريين على ذمة إقامة تذكّار لحج الجناح العالي الخديوي يقام به دار للضيافة بمكة لفقراء حجاج بيت الله الحرام عمومًا والمصريين منهم خصوصًا، وتقوم مصلحة الأوقاف بما يقصر عنه هذا الاكتتاب، والله الموفق للصواب.

تاريخ مكة

يصعد تاريخ مكة إلى سيدنا إبراهيم الخليل صلوات الله عليه. ففي سنة (١٨٩٢ قبل المسيح) أمره الله بالهجرة بولده إسماعيل وأمه هاجر (كما ورد في التوراة)، فذهب بهما إلى هذا الوادي الذي لم يسكنه أحد لعدم توفر الماء فيه؛ اللهم إلا أولئك العماليق الذين كانوا يسكنون غالبًا في الوادي الواقع شماله - ويقال له: الحَجُون - وهم قوم نزحوا إلى هذا المكان من جهة البحرين، وكان مُلكهم فيها يمتد إلى شبه جزيرة سيناء. والبابليون يسمونهم «ماليق» فأضاف عليهم العبرانيون لفظ عم (يعني أُمَّة) فصارت «عم ماليق» فحرفها العرب إلى عماليق، والمصريون يسمونهم «الهكسوس» أي الرعاة.

فلما عثرت هاجر على بئر زمزم التي أصبحت حياة جديدة لهذا الوادي نزلوا إليها وسألوها الإقامة معها على أن يكون الأمر لها ولولدها، فقبلت ذلك وكانت قد ابنت لها بيتًا تأوي إليه مع إسماعيل. وكان إبراهيم يتردد لزيارتها من فلسطين، فأمره الله تعالى بتطهير هذا البيت وجعله مصلًى للناس؛ قال

تعالى: {وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنًا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود}. ثم أمرهما الله برفع قواعد هذا البيت، وهنالك هدمه إبراهيم، ورفع مع إسماعيل على قواعد الكعبة المكرمة؛ قال تعالى: {وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم}. ثم أمره الله بأن يؤذن في الناس بالحج فقال: {وآذن في الناس بالحج يأتوك رجالًا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق}. ومن ثم ابتدأت شهرة ذلك البيت المعظم تزداد في القبائل المجاورة؛ ومنه أتى لفظ «مكة» أو «مكا» وهي كلمة بابلية سمته بها «العماليق» ومعناها (البيت).

ورجع إبراهيم إلى قومه، وبقي إسماعيل في خدمة البيت حتى مات، فتولى خدمته من بعده بنوه إلى أن داخلهم الضعف فتغلب العماليق عليهم، وصار أمر البيت إليهم. وما زالت السلطة في يدهم حتى وفدت «جرهم» على مكة من طريق اليمن بعد قطع سد مأرب، في نحو منتصف القرن السادس قبل الميلاد وعليهم «مضاض بن الحارث» فزاحموهم وغلبوهم على أمرهم، وصارت لهم الكلمة والسلطان في مكة؛ بل وفي الحجاز بأكمله. فلما كبر سلطانهم وعظمت شوكتهم عثوا في الأرض فسادًا؛ فوقع فيهم وباء نال منهم؛ فضعف أمرهم وتغلب عليهم بنو إسماعيل واستردوا أمر البيت منهم وطردوهم من مكة، فساروا إلى أرض جهينة (شمالى ينبع)، وفي ذلك يقول شيخهم عمرو بن الحارث:

وكنا ولاية البيت من عهد نابت^(١) نطوف بذاك البيت والأمر ظاهر

(١) نابت من ولد إسماعيل.

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر
 بلى نحن كنا أهلها فأبادنا صروف الليالي والحدود العواثر
 وما كادت تنحصر السلطة في بني إسماعيل حتى أتت خزاعة وتغلبت
 عليهم، ووليت أمر البيت من سدانة (خُدْمة البيت) وسقاية (سقىا الحجيج)
 زمنًا طويلًا بما كان لها من العصبية، رغمًا عما كان في بني إسماعيل من الرقي
 الأدبي والسمو النفساني؛ لأنه كثيرًا ما كان ينبغ فيهم رجال يرهنون بحسن
 معرفتهم وكمال فضلهم على ذكاء أصلهم وكريم محتدهم؛ مثل كعب بن لؤي
 الذي اشتهر ببلاغته وفصاحته. وهو أوّل من جمع الناس في يوم العروبة^(١)
 (يوم الجمعة) وكان يخطبهم فيه بما يرشددهم إلى طريق الفضائل ويبيعهدهم عن
 ارتكاب الرذائل، وقد اشتهر أمره بين العرب وعظم قدره فيهم حتى كانوا
 يؤرّخون بعام موته إلى عام الفيل، وهو زمن لا يقل عن أربعمئة سنة.

وما زال أمر البيت في يد «خزاعة» حتى رجع «قصي بن كلاب» من الشام،
 وكان ذهب إليها مع أمه صغيرًا - وهو من أحفاد كعب، والبطن الرابع
 والعشرون من إسماعيل - فجمع قبائل قريش بما كان فيه من حسن السياسة
 والذكاء وقوة العارضة بعد أن كانت تفرقت وأخذت الشحناء تدب فيما بينهم،
 وسعى بأصالة رأيه حتى اشترى من خزاعة حجابة البيت (الاستئثار بمفاتيح
 الكعبة) ثم أجلاهم بما وجد له من العصبية عن مكة إلى بطن مر (وادي
 فاطمة)، ومن ثم كبر شأنه ونُبّه أمره وعظّم سلطانه واجتمعت له السقاية
 والحجابة والرفادة واللواء (راية الحرب)، ولم تجتمع في رجلٍ قبله. و«قصي»
 أول من أطعم الحاج وسقاه لأنه ضيف الله وجاره؛ وبذلك سارت الركبان

(١) كانت أيام الأسبوع عند العرب في عصر الجاهلية الأولى كما يأتي: أول (الأحد)، أهون، جبار، دبار،
 مؤنس، عروبة، شيار.

بسيرته وتحذث الناس بنبأهته. وكان له رأي سديد وفكر رشيد. وهو الذي بنى دار الندوة قرب البيت وجعل بابها إليه ليجتمع فيها مع قومه للبحث في شئونهم والإقرار على ما يتم من أمرهم، فأصبح به ملك قريش عظيمًا وشأنهم جسيمًا، حتى كان لهم بعد ذلك خراج على القبائل والعشائر يؤدونه إليهم ويتقربون به منهم. وكان لقصي ولدان: «عبد الدار وعبد مناف»، وقد شرف الأخير على صغره وزاد فضله عن أخيه الأكبر. فأوصى أبوه لـ«عبد الدار» بما كان في يده من السقاية والحجابه والرفادة واللواء والندوة، حتى يتكافأ مع «عبد مناف» في شرفه الذي وصل إليه بعقله وفضله.

ولما مات «قصي» استولى «عبد الدار» على ما أوصى له به أبوه، وانتقل ذلك إلى بنيه من بعده حتى ظهر «بنو عبد مناف» عليهم ونازعوهم ما في أيديهم، وكادت تدور رحى الحرب بينهم، وانتهى الأمر بتحكيم بعض القبائل فقسموا بينهم شرف هذه الامتيازات؛ فكان لبني عبد مناف السقاية والرفادة، ولبني عبد الدار الحجابه واللواء اللذان ما زالا ينتقلان فيهم إلى فتح مكة. وكانت مفاتيح الكعبة مع «عثمان بن طلحة» فأخذها منه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولما دخل البيت أراد أن يحجزها عنه؛ فنزل قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَوَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا}، فردها رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه قائلاً: «(ها كم خذوها خالدة تالدة)». وبعد موت «عثمان بن طلحة» سلمها رسول الله إلى أخيه «شيبة»، فبقيت في بنيه إلى الآن.

ووصلت قريش في الجاهلية إلى مجد كبير وشرف عظيم، وانتهى شرفها إلى عشرة أبطن منها كانوا يقتسمون امتيازاتهم القومية من دينية وسياسية واجتماعية وتشريعية. وكانت هذه الامتيازات يتوارثها الأبناء عن الآباء، وانتهى أمرها قبل الإسلام إلى من سنذكرهم: كان العباس بن عبد المطلب (من هاشم) يسقي

الحجيج، واستمر ذلك في الاسلام. وكان أبو سفيان بن حرب (من بني أمية) عنده العقاب، وهي راية حربهم لا يخرجها إلا إذا حمي وطيسها فيسلمها إلى من يجمعون عليه الرأي لحملها. وكان للحارث بن عامر (من بني نوفل) الرفاعة؛ وهي ما كانوا يخرجونه من أموالهم لإعانة المنقطع من الحاج. وكان لعثمان بن طلحة (من بني عبد الدار) السدانة والحجابة واللواء والندوة. وكان ليزيد بن زمعة بن الأسود (من بني أسد) المشورة في الأمور الهامة. وكان لأبي بكر الصديق (من تيم) الديات والمغرم، ويقال لها: الأشناق، وكانوا يمضون على حكمه فيها. وكان خالد بن الوليد (من بني مخزوم) على خيل قريش، وكانت له القبة؛ وهي ما كانوا يجمعون فيه سلاحهم وذخيرة حربهم. وكان لعمر بن الخطاب (من بني عدي) السفارة فيما كان يقع بينهم وبين غيرهم من العرب، فيمضي عنهم ما يراه من مصلحتهم. وكان لصفوان ابن أمية (من جُحج) الأيسار وهي الأُزلام^(١).

وكان للحارث بن قيس (من بني سهم) الحكومة والأموال التي يقدمونها لأصنامهم.

أما «بنو هاشم» فقد علا أمرهم وعظم شأنهم خصوصاً في مدة «عبد المطلب بن هاشم» جد النبي صلى الله عليه وسلم الذي كبر سلطانه بعد واقعة الفيل، وذاعت شهرته وهابته القبائل وقصدته العرب من جميع جهات الجزيرة. ولما ظهرت نبوة سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب وتجلي الإسلام بمظهره المنيع، وتقدم بتقدمه السريع؛ كمل لبني عبد مناف فضلهم وتمّ بهذا الشرف سعودهم.

(١) واحدها زلم؛ وهي أقداح ثلاثة كانت للعرب بالكعبة مكتوب على الأول: أمرني ربي، وعلى الثاني: نهاني ربي، والثالث ليس عليه شيء. وكانت العرب إذا أرادت أن تمضي في أي أمر من أمورهم ذهبوا إلى الكعبة واستقسموا بالأزلام، فيقترع لهم صاحبها؛ فيمضون على ما قُسم لهم منها.

حكم الأشراف بمكة

من أكبر الحوادث التاريخية بمكة هجرته صلى الله عليه وسلم منها إلى المدينة، وفتحها بعد ثمان سنين من الهجرة. ومن ثم صارت مكة تابعة له وخلفائه من بعده.

وكانت حكومة الإسلام في مدته عليه الصلاة والسلام ديموقراطية «شورية» على حسب الشريعة الغراء، وكذلك في عهد خلفائه الراشدين، حتى انقضت الخلافة إلى مظاهر الملك فشاها شيء من الاستبداد.

وكانت حكومة الحرمين تتبع في جميع أدوار حياتها مركز الخلافة الإسلامية. وأول من تولى إمارة مكة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم «عتاب بن أسيد» رضي الله عنه؛ ولأه عليها رسول الله بعد الفتح، عند خروجه لواقعة «حنين» في الثلث الأول من سنة (٨ للهجرة). وانتقلت الخلافة بعد الخلفاء الراشدين إلى الأمويين في سنة (٤٠ هـ) وفي إبانها استولى «عبد الله بن الزبير» على مكة بضع سنين حتى استردها منه «الحجاج بن يوسف الثقفي» إلى الأمويين سنة (٧٣).

وفي سنة (١٣٢) انتقلت الخلافة للعباسيين وما زالت في أيديهم إلى سنة (٣٥٨)، وتولى أمر مكة في هذه المدة نحو مائة أمير من أشراف وغير أشراف. وفي هذه السنة انتقل حكمها إلى الفاطميين وفيها دخلها «جواهر القائد»، ثم دخلها مولاه «المعز لدين الله العبيدي»، ومن ثم كانت البلاد الإسلامية من بغداد إلى حلب إلى البصرة يُخطب فيها للخليفة العباسي، ومن حلب إلى الحرمين وسائر بلاد العرب يُخطب فيها للعبيديين؛ والسبب في ذلك أن «جعفر

بن محمد ابن الحسن الثائر بن موسى الثاني ابن عبد الله بن موسى الجون بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط ابن علي أمير المؤمنين كرم الله وجهه» تغلب على مكة في السنة المذكورة، وخاف من العباسيين فدعا للمعز لدين الله العبيدي صاحب مصر، فكتب له المعز بولاية مكة، وبه ابتدأت حكومة الأشراف عليها.

واستمرت في بنيه من بعده إلى سنة ٤٥٥ حيث وليها حفيد أخيه هاشم: وهو محمد بن جعفر بن عبد الله بن هاشم، وتولى أمرها بنوه من بعده إلى سنة ٥٩٧. ويقال لهم: الهواشم، وكان حكمهم جوراً وظلماً حتى أن آخرهم «الشريف مكث بن عيسى» ضرب ضريبة على حجاج بيت الله الحرام مقدارها سبعة دنانير، كان يتقاضاها في عيذاب أو في جدة على كل شخص يفد إلى مكة عن طريق مصر. فاستغاث الناس بـ«صلاح الدين الأيوبي»، فاتفق مع مكث على إلغائها، ورتب له بدلها في كل سنة ثمانية آلاف إردب قمحاً. ومن هذا الوقت ابتدأ الخطباء في مكة يدعون لصلاح الدين عقب دعائهم للخليفة العباسي ولأمير مكة.

واستولى على مكة بعد «مكث» الشريف قتادة سنة (٥٩٧) وهو الحلقة السابعة من أحفاد الشريف عبد الله أخي الشريف جعفر بن محمد بن الحسن الثائر، وكان قتادة من أهل النخوة والشجاعة والهمة العالية، واتسع ملكه من اليمن إلى المدينة. إلا أن أهل اليمن تغلبوا على مكة في مدة ولده حسن لسوء سلوكه، وما زالت في أيديهم إلى سنة (٦٣٠)، وبعدها تغلب «الشريف راجح بن قتادة» عليها وصارت الإمارة بعده فيها كالكرة يتلقفها القوي من بنيه أو بني إخوته.

وكانت حكومتها تتبع ملوك مصر تارة وملوك اليمن أخرى؛ لاشتغال ملوك مصر عنها بالحروب الصليبية، خصوصًا بعد موت الملك الكامل الذي كان يدعا له في خطبة الحرمين هكذا: «صاحب مكة وعبيدها، واليمن وزبيدها، ومصر وصعيدها، والشام وصناديدها، والجزيرة ووليدها، سلطان القبلتين، ورب العلامتين، وخادم الحرمين الشريفين المحترمين: الملك الكامل خليل أمير المؤمنين».

وأول من استقل من ملوك اليمن لذلك العهد «نور الدين بن عمر بن علي بن رسول»، وكان عاملاً عليها للملك الكامل صاحب مصر، ولقب نفسه الملك المنصور. وما زالت حكومة مكة في هذا الارتباك والاختباط حتى آل أمرها إلى «الشريف أبي ندى بن حسن بن قتادة» سنة (٦٦٧)، فخطب لبيرس ملك مصر فأقره عليها وحج من سنته. وما زال «أبو ندى» حتى وقعت له مع العسكر المصري حروب ألجأته إلى التنازل عن الإمارة سنة (٧٠١) إلى ولديه: حميضة ورميثة، فغلبهما عليها أخوهما «أبو الغيث بن أبي ندى».

وفي مدته حج السلطان «الناصر محمد بن قلاوون» سنة (٧١٢)، واستمر بها حتى غلبه على الإمارة أخوه «حميضة» سنة (٧١٤) وقتله ودعا إخوته إلى وليمة عنده، وقدمه إليهم مصلوقًا، وعلى رأس كل واحد منهم عبد شاهرًا سيفه. وما زال حتى تغلب عليه أخوه «رميثة» سنة (٧١٨) فهرب ومات في هربه.

وفي سنة (٧١٩) حضر إلى مكة جيش مصري وقبض على «رميثة» وأتى به إلى ملك مصر الملك الناصر بعد أن ولى مكانه الشريف «عطيفة بن أبي ندى». وفي سنة (٧٢٢) أطلق الملك الناصر «رميثة» وأشركه مع أخيه في ولاية مكة، وذهب «عطيفة» إلى مصر ومات بها سنة (٧٤٣)، وانفرد «رميثة» بالإمارة حتى

جعلها الملك الكامل شعبان ملك مصر لولده الشريف «عجلان بن رميثة» سنة (٧٤٦)، وعزله عنها السلطان «حسن بن محمد الناصر» سنة (٧٦٠)، إلا أنه رجع إليها بأمر من الملك المنصور محمد، وما زال بها حتى مات سنة (٧٦٦). وتولى بعده الشريف «أحمد بن عجلان»، وفي مدته صدر أمر الملك المنصور بلغو المكس الذي كان يؤخذ على الأشياء التي كان تدخل إلى مكة، وعوض أميرها عنه مائة وستين ألف درهم وألف إردب قمحًا، وأمر فنقش ذلك على باب الصفا. واستمرت الإمارة في بنيه حتى صدر أمر سلطان مصر بأن يكون الشريف «حسن بن عجلان» نائبًا عنه في ولاية الحجاز، وابنه الشريف «بركات» أميرًا على مكة. وكان «بركات» عالمًا فاضلاً محدثًا، وقد استدعاه الملك «بارسباي» إلى مصر فوفد إليها معظمًا مكرمًا، وأخذ عنه كثير من علمائها، ثم رجع إلى مكة ومات بها سنة (٨٥٩) وتولى مكانه الشريف «محمد بن بركات»؛ وكان رضي الله عنه على أحسن ما يكون من العدالة والإنصاف وحسن السيرة والرفق بالناس، وقد سافر إلى مصر سنة (٨٧٧) مدة السلطان «قايتباي» فاستقبل بما يليق به من صنوف الإعظام والإجلال، ثم رجع إليها معززًا مكرمًا. وفي مدته حج السلطان «قايتباي» سنة (٨٨٤) وشيّد فيها لصق الحرم من الجهة الشرقية مدرسته التي تغلب عليها «ذوو غالب» ولا تزال في أيديهم إلى اليوم.

وما زال «محمد بن بركات» على إمارة مكة وولاية الحجاز حتى مات سنة (٩٠٣)، وتولى بعده ابنه «الشريف بركات»، وما زالت الإمارة تنتقل من يده إلى يد إخوته حتى استقل بها في سنة (٩١٠).

وفي سنة (٩١٨) أرسل إليه السلطان «الغوري» يدعوه إلى مصر، فاعتذر وأرسل بالنيابة عنه ابنه الشريف «أبا نمى» وعمره ثمان سنين، فأكرمه السلطان كل الإكرام وردّه إلى أبيه معزّزاً وأشركه معه في أمر مكة والأقطار الحجازية.

ولما استولى السلطان «سليم» على مصر سنة (٩٢٢) أقرهما على مكة، وسار للقياء الشريف «أبو نمى» بمصر، فأكرم مثواه، وأرسل معه أمراً بقتل «حسين أغا الكردي» الذي كان على جدة من قبل الغوري. فلما وصل إلى جدة قبض على الأغا وأغرقه وولّى غيره مكانه. ومن هذا الوقت صارت بلاد الحجاز واليمن تابعة للدولة العلية.

وكان الشريف «أبو نمى» من خيرة الأشراف عقلاً وحلمًا وعلماً وفضلاً وإدارة ودراية، وإليه ينتهي نسب أشراف بني حسن (الذين يحكمون الآن) وبني زيد، وبني بركات (الذين كان لهم الحكم قبل محمد بن عون)، وبني نقبة (وهم متفرقون في بلاد العرب).

وفي سنة (٩٩٢) مات «أبو نمى» وتولى بعده ابنه «الشريف حسن» وكان عالمًا فاضلاً كاملاً أديبًا، سار في إدارة بلاده على نهج أبيه في العدالة والكرم ومكارم الأخلاق ومحامد الصفات، وهو رأس سلسلة الأشراف الحسينيين الذين منهم «محمد بن عون» جد العائلة الحاكمة الآن. وهو الذي بنى «دار السعادة» بمكة في سنة (٩٦٧) فكانت محل إمارته وإمارة خلفائه زمناً طويلاً. ومما جاء في وصفها وتاريخ بنائها قول بعضهم:

إن بيتاً بناه خير مليك	أسس الملك كفه وأشاده
فاق في وصفه وحسن بناه	كل قصر لأهل العلا والسياده
جاء تاريخ وصفه في نصيف	أنابيت الملوك دار السعاده

وما زال الشريف حسن قائماً بأمر ولاية الحجاز حتى مات سنة (١٠١٠) وأخذت الشرافة تنتقل في بنيه وبني إخوته حتى تولاهما الشريف «زيد بن محسن بن الحسين بن الحسن بن أبي نemy» سنة (١٠٤٣) وكان ذا همّة عالية، وشجاعة تامة، وإدارة حسنة، وما زال قائماً بولايتها خير قيام حتى مات سنة (١٠٧٧). وتولى بعده ولده الشريف «سعد» ولكنه خرج من مكة مقهوراً ومكث بعيداً عنها إحدى وعشرين سنة، تولى أمرها فيها الشريف «بركات بن محمد بن إبراهيم بن أبي نemy» ومات سنة (١٠٩٤)، وأعقبه عليها ولده الشريف «سعيد ابن بركات»، فغلبه عليها الشريف «سعيد بن سعد بن زيد». ثم عزل عنها، وأعقبه الشريف «عبد الله بن هاشم» ثم «أحمد ابن غالب» الذي مات سنة (١١١٣)، فرجع إلى الإمارة الشريف «سعد بن زيد»، وأخذ يتناوب الولاية هو وولده الشريف «سعيد» جملة مرات. ومات الشريف «سعد» بعيداً عن مكة بالعابدية سنة (١١١٦)، وبقيت الولاية في يد ابنه الشريف سعيد حتى مات سنة (١١٢٩)، وكان جليل القدر عظيم الفضل، بعيد الآمال، شجاعاً مهيباً. وأخذت الإمارة بعده يتداولها بنوه وبني إخوته حتى غلبهم عليها الشريف «يحيى بن بركات»، ثم ابنه الشريف «بركات بن يحيى» فيما بين سنتي (١١٣٤ و١١٣٦). ثم رجعت إلى بني سعيد، وما زالت فيهم حتى تولاهما حفيده الشريف «سرور بن مساعد بن سعيد بن سعد بن زيد» في سنة (١١٨٦). وهو مشهور بعلو الهمة وجلال الصفات والشجاعة الفائقة: حارب عرب الشروق وقبائل حرب وانتصر عليهم جملة مرات، وانقادت إليه جميع بلاد الحجاز، وامتد سلطانه على جهات كثيرة من بلاد العرب. وما زال في الإمارة حتى مات سنة (١٢٠٢) وتولى بعده الشريف «عبد المعين بن مساعد» إلا أنه تنازل عنها بعد أيام قليلة إلى أخيه الشريف «غالب». وفي مدته استفحل أمر الوهابية،

ووقعت بينه وبينهم حروب كثيرة كادت الغلبة تكون فيها لهم، لولا أن الدولة العلية كلفت «محمد علي باشا» والي مصر بكبح جماحهم، فأرسل إليهم جيوشاً مصرية على رأسها ولده طوسون، ثم ولده إبراهيم الذي فرّق جموعهم واستولى على بلادهم بعد أن أخذ رئيسهم «عبد الله ابن سعود» أسيراً وأرسله إلى والده بمصر.

وفي سنة (١٢٢٨) جاء «محمد علي» إلى بلاد الحجاز فاستقبله «الشريف غالب» من جدة، وسار في خدمته إلى مكة. وكان كل منهما على خوف من صاحبه، وانتهى الأمر بأن قبض محمد علي على الشريف غالب وبنيه وأرسلهم إلى مصر عن طريق القصير، فوصل القاهرة في ١٧ محرم سنة ١٢٢٩، وقوبل فيها بالاحترام اللائق، وبقي بها إلى (١٩ شعبان) حيث سافر مع أولاده حسب الإرادة السلطانية إلى سلانيك، وأقام بها إلى أن توفاه الله سنة (١٢٣١)، وفيها عادت أولاده إلى مكة بمقتضى أمر سلطاني.

وكانت مدة إمارة الشريف «غالب» على مكة (٢٧ سنة) قضاهما كلها في حروب الوهابية. وكان رحمه الله عالي المهمة، كبير الشهامة، كثير الدهاء. ولما نفي إلى مصر ولّى محمد علي مكانه الشريف «يحيى بن سرور» في أواخر ذي القعدة سنة (١٢٢٨)، ومن هذا الحين صارت بلاد الحجاز تابعة لمصر.

وكان على أعمال العرب الشريف «شنبر» من جهة محمد علي، فنمت بينهم الضغائن، فقتل «يحيى» شنبراً أمام باب الصفا وهرب إلى بدر. وتولى على مكة الشريف «عبد المطلب بن غالب» بأمر من «أحمد باشا يكن»، ولكن محمد علي باشا أصدر أمره بتعيين الشريف «محمد بن عون»، وكان إذ ذاك نزيلاً عليه بمصر، وكان سبق له أن تولى إمارة تربة وعسير من قبله. فسار الشريف «عبد المطلب» إلى الطائف وجمع جموعاً من العرب وحارب بها أحمد باشا؛ ولكنه

انهزم وطلب الأمان من الشريف محمد بن عون، فأمنه هو والشريف يحيى وأرسلهما إلى مصر بناءً عن أمر محمد علي ومعهما «عبد الله بن فهد» وآخرون. ولما وصلوا إليها أكرمهم محمد علي كل الإكرام، وبعد سنة أعادهم إلى مكة إلا الشريف يحيى فإنه استبقاه ومات بمصر سنة (١٢٥٤). وبعد ذلك وقع نفور بين «أحمد باشا يكن» والشريف «محمد» فاستحضرهما محمد علي، ثم أعاد أحمد باشا إلى مكة، وحجر الشريف محمد بن عون بمصر، وبقي فيها حتى خرجت ولاية الحجاز من قبضة محمد علي سنة (١٢٥٦) زمن السلطان عبد المجيد، وصدرت الأوامر السلطانية بتولية «ابن عون» إمارة مكة. وكان رحمه الله عاقلاً ذا دهاء وهيبة وذكاء، ميمون الطالع، عالماً يحب العلم والعلماء، ومكث زمناً طويلاً وهو يدير أمر الحجاز بحسن درايته وإدارته.

وفي سنة (١٢٦٣) سار إلى نجد لإخاد فتنة «فيصل بن تركي» أمير الرياض، وتم أمرهما بالصلح بعد أن قرر على فيصل خراجاً للدولة قدره عشرة آلاف ريال كل سنة، واستمر في ولاية مكة إلى أن توفي في (١٣ شعبان سنة ١٢٧٤). وتعين بعده ولده الشريف «عبد الله باشا كامل». وهو أول شريف منح رتبة الوزارة ولقب باشا، وكان تربي في الأستانة وتعلم فيها العلوم الشرعية والتفسير والحديث وفنون الأدب. فوصل جدة بعد أن انجلى عنها مراكب الإنكليز سنة (١٢٧٥)، وهنالك قابله المندوبون البريطانيون وطلبوا منه أن يساعدهم في وصولهم إلى مكة، فاعتذر عن احتمال هذه المسؤولية، ثم قال لهم: وماذا تريدون من بلد لا زرع فيه ولا نبات ولا ماء، وربما نالكم منه مرض يذهب بحياتكم لعدم اعتيادكم على مثل هوائه؛ في حين أنكم في غنى عنه؟! فافتنعوا بجوابه وعادوا إلى بلادهم، وسار هو إلى مكة.

وفي سنة (١٢٧٧) ذهب إلى المدينة لاستقبال «سعيد باشا» وإلى مصر، ورجع معه إلى القاهرة، ثم عاد إلى مكة بعد أن صادف من الإجلال وكمال الأعظام ما يليق بمقامه، واستمر في الإمارة إلى أن توفي في (١٤ جمادى الآخرة سنة ١٢٩٤). وتعين أخوه الشريف «حسن باشا» مكانه، فقدم إليها من الأستانة؛ وكان على جانب عظيم من التقوى والصلاح والزهد والورع ووداعة الأخلاق، واستمر حكمه إلى سنة (١٢٩٧)، حيث قتل أثناء دخوله جدة، وكان ذهب إليها في موكب حافل؛ فتقدم إليه رجل أفغاني كأنه يريد تقبيل يده وطعنه في خصرته، فتوفي بعد يومين مأسوفاً عليه من عموم أهل الحجاز، ونُقل إلى مكة رضي الله عنه وأهلها يلقبونه بالشهيد. وتولى بعده الشريف «عبد المطلب» للمرة الثالثة؛ ولكنه عُزل عنها سنة (١٢٩٩) لكثرة الشقاق الذي كان بينه وبين الأشراف، وتعين بدله الشريف «عون الرفيق بن محمد ابن عون» فأخذ في تمكين قدمه في مركز الشرافة وعمم نفوذه على العرب والمأمورين من الأتراك حتى كانت الولاية كأنهم من المأمورين عنده، إلا في زمن ولاية «عثمان نوري باشا» الأولى فإنه ضرب فيها على يديه؛ ولكنه نقل من ولاية الحجاز بسعي «عون الرفيق» ومؤازريه في الأستانة. ومن وقتها خَلَا له الجو؛ فكان يعطي ويحرم، ويسعد ويشقي، ويمنع وينعم. وقد كان ينزع إلى مذهب الوهابية أو ما يقرب منه؛ فهدم كثيراً من قباب المزارات، وخصوصاً في المعلاة، ومن ذلك قبة سيدنا عبد الله بن الزبير، بل وصل به الحال إلى أن أمر بهدم قبتي السيدة آمنة والسيدة خديجة؛ إلا أنه ما عَتَم أن استرجع أمره.

وكذلك أمر فأزيلت تلك الرحى التي كانت في مولد السيدة فاطمة (دار خديجة) رضي الله عنهما، وكانوا يزعمون أنها هي التي كانت تطحن عليها في حياتها، وأمر أيضاً بتوسيع باب غار حراء في جبل ثور، وهو الذي خيم على بابه

العنكبوت بعدما آوى إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم مع رفيقه أبي بكر عند هجرتهم من مكة إلى المدينة؛ وكان بابه لا يسع إلا نفرًا واحدًا يدخل منه زاحفًا على بطنه، وكان الناس يزعمون أن لا يدخله إلا السعيد؛ وأما الشقي فلا. فأراد بتوسيع هذا الباب إزالة هذا الوهم الفاسد. إلا أنه لم يكن له على كل حال أن يغير شكل أثر طبيعي مثل هذا من أجل الآثار ومن الأشياء التي كان الإنسان يقدر فيها تلك المعجزة التي خدمت الطبيعة فيها أشرف مخلوق حتى حيل بينه وبين أعدائه.

وقد كان يميل -سأحه الله- إلى الرفه بكل أنواعه؛ فكان عنده على الدوام المطربون بالآلات والفراجية (الطبالون) والضاربون بالنوبة، وجملة ما يقال في معاملته للناس أنه كان نهانا وهانا.

واستقدم أتوموبيلًا من أوروبا كان يركبه في طريق الطائف؛ ولكنه مات بموته. وأنشأ بستانًا جميلاً شمال جروول (بمكة) وهو المكان الذي يخيم عنده المحمل المصري، وجلب إليه أشجارًا كثيرة من مصر والهند والشام وغيرها، وساق إليه الماء من عين زبيدة، ويقال: إنه كان في مدته جنة من الجنات لم يسبق له نظير في مكة. أمّا الآن وقد انصرفت عنه المياه فقد جفّت أشجاره وذبلت أزهاره وأصبح كقطعة من غابة في الصحراء ينعق فيها الغربان، وتزعق فيها العقبان، سبحان مغير الأحوال بيده الملك وهو على كل شيء قدير.

ومات الشريف عون بالطائف يوم الإثنين (١٦ جمادى الأولى سنة ١٣٢٣) واختلف الناس في أسباب موته، وكانت الشرافة بعده لأخيه الشريف «عبد الإله باشا» الذي كان يقيم في الاستانة، ولكن صدرت الإرادة السلطانية بسعي راتب باشا والي الحجاز بتوجيه الإمارة إلى الشريف علي باشا بن عبد الله ابن محمد بن عون الذي كان قائمًا للشريف في مكة، وما زال على غاية الوثام

والاتحاد مع «راتب باشا» حتى حصلت حركة الأستانة وقام الدستور مقام الاستبداد، وعزل راتب باشا لجوره وظلمه وخرج مدحوراً إلى الأستانة ومنها منفياً إلى رودس بعد أن صودر في جميع أمواله. أما الشريف «علي باشا» فإنه ظل بالطائف متظاهراً بمشايعة الحكومة الدستورية الجديدة. وفي (يوم الخميس ١٨ شوال سنة ١٣٢٧) حدثت فتنة بين بعض أهالي مكة والعساكر الشاهانية قُتل فيها من الطرفين نحو عشرين رجلاً، وقيل: إنها كانت بإيعاز الشريف علي باشا. وفي اليوم الثاني شاع في مكة عزل الشريف علي وتعيين الشريف «عبد الإله باشا» الذي كان مقيماً بالأستانة، ثم جاء الخبر بوفاته وتولية الشريف «حسين باشا» ابن علي بن محمد بن عون، وكان مقيماً في الأستانة منذ سبع وعشرين سنة. فلما حضر إلى مكة قام الشريف علي منها بعائلته قاصداً الأستانة، ولما وصل إلى السويس نزل إلى مصر ولا زال بها إلى الآن.

أما الشريف «حسين» فإنه قام بالأمر حق قيام بهمة لا تعرف الملل، وضرب على أيدي قبائل العرب الذين كانوا يتحفزون للخروج على الدولة؛ فكان -حفظه الله- يرسل بعسكره مع نجله هذا إلى جهة في حين ما يرسل بنجل آخر مع فرقة أخرى إلى غيرها. وهكذا حتى هدأت البلاد وضرب الأمن بحرابه في جميع أطراف الحجاز. ومما يذكر له بالثناء الجميل أنه أمر بجعل أجرة الحمل من مكة إلى المدينة إلى ينبع أربعة وعشرين ريالاً محيداً بعد أن كانت أكثر من سبعين ريالاً في مدة سلفه. وبالجملية فحكمه عدل، وقوله فصل، وسيره فضل، نفع الله به الدولة والملة وجعله ممثلاً لشرف بيت النبوة بجاه جده الأمين. ولقد تشرفت بمعرفته مدة وجودنا بمعية الجنب العالي بمكة فوجدته أنيساً وديعاً، كريم الأخلاق، حسن السجايا، قد جمل الوقار رؤياه، وكمل الأدب جلال محياه. وفي أوائل عام (١٣٢٩) زحف الشريف «حسين»

بخيله ورجله إلى عسير لمساعدة الدولة العلية في محاربة الإدريسي، وعسى أن يجعل الله على يديه إصلاح ذات البين وحقن دماء المسلمين فيكون له بذلك أكبر فضل في العالمين.

**جدول بأسماء من تولي مكة من زمن الفتح إلى اليوم
(مأخوذ من السالنامة الحجازية المطبوعة بمكة سنة ١٣٠٦ بتصرف قليل)**

تاريخ التولية سنة هـ	
٨	عتاب بن أسيد.
١٣	المحرز بن حارثة.
	قنفذ بن عمير بن جدعان.
	نافع بن الحارث الخزاعي.
	خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة.
	أحمد بن خالد.
	طارق بن المرتفع.
	الحارث بن نوفل القرشي.
٢٤	علي بن عدي بن ربيعة.
	الحارث بن نوفل القرشي.
	عبد الله بن خالد بن أسيد.
	خالد بن العاص بن هشام.
	عبد الله بن عامر الحضرمي.

نافع بن الحارث الخزاعي.	
أبو قتادة الأنصاري.	٣٦
القثم بن العباس.	
عتبة بن أبي سفيان.	٣٩
مروان بن الحكم.	
سعيد بن العاص.	
عمرو بن سعيد المعروف بالأشدق.	
خالد بن العاص المخزومي.	
عبد الله بن خالد بن أسيد.	
عمرو بن سعيد الأشدق.	٦١
الوليد بن عتبة بن أبي سفيان.	
عثمان بن محمد بن أبي سفيان.	
الحارث بن خالد المخزومي.	
عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب.	
يحيى بن حكيم.	٦٤
عبد الله بن الزبير بن العوام (تولى الخلافة في مكة من سنة ٦٤ إلى سنة ٧٣)	٦٤
الحجاج بن يوسف الثقفي.	٧٣
مسلمة بن عبد الملك بن مروان.	٧٥
الحارث بن خالد المخزومي.	

خالد بن عبد الله القسري.	
نافع بن علقمة الكناني.	
يحيى بن الحكم بن أبي العاص.	
عمر بن عبد العزيز بن مروان.	٨٧
خالد بن عبد الله القسري.	
طلحة بن داود.	٩٧
عبد العزيز بن عبد الله بن خالد ابن أسيد.	
محمد بن طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن.	
عروة بن عياض.	
عبد الله بن قيس بن مخزومة.	
عثمان بن عبيد الله بن عبد الله ابن سراقه.	
عبد العزيز بن عبد الله بن خالد.	١٠١
عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس.	١٠١
عبد الواحد بن عبد الله.	
إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي.	
محمد بن هشام بن إسماعيل المخزومي.	
نافع بن عبد الله الكناني.	
يوسف بن محمد الثقفي.	١٢٥
عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز.	١٢٦
عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك.	

أبو حمزة الخارجي.	
عبد الملك بن محمد بن عطية السعدي.	
مروان بن محمد بن الوليد.	
الوليد بن عروة السعدي.	
محمد بن عبد الملك بن مروان.	
داود بن علي بن عبد الله بن عباس.	١٣٢
عمر بن عبد الحميد بن عبد الرحمن.	
العباس بن عبد الله بن معبد.	١٣٦
زياد بن عبد الله الحارثي.	
الهيثم بن معاوية العتكي الخراساني.	
السري بن عبد الله بن الحرث.	١٤٣
محمد الحسن بن معاوية.	١٤٥
السري بن عبد الله.	
عبد الصمد بن علي بن عبد الله.	١٤٦
محمد بن إبراهيم الإمام.	١٤٧
إبراهيم بن يحيى بن محمد بن علي.	١٥٨
جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله.	
عبيد الله بن القثم بن العباس.	١٦٦
الحسين بن علي.	
أحمد بن إسماعيل.	١٦٩

حماد البربري.	
سليمان بن جعفر.	
الفضل بن العباس بن محمد بن علي.	١٨٧
محمد بن عبد الله بن سعيد بن المغيرة.	
عباس بن موسى.	
عباس بن محمد الإمام.	
عبد الله بن القثم.	
علي بن موسى.	
موسى بن عيسى بن محمد بن علي.	
داود بن عيسى بن موسى بن علي.	١٩١
الحسين بن الحسن بن علي الأصغر.	
علي بن محمد بن جعفر الصادق.	
عيسى بن يزيد الجلودي.	
هارون بن المسيب.	٢٠٢
حمدون بن علي.	
يزيد بن حنظلة.	
إبراهيم بن موسى الكاظم.	٢٠٣
عبيد الله بن الحسن بن عبد الله.	
صالح بن العباس بن محمد.	
سليمان بن عبد الله بن سليمان ابن علي.	

محمد بن سليمان المذكور.	
الحسن بن سهل.	
عبيد الله بن عبد الله بن الحسن.	
صالح بن العباس بن محمد.	٢١٨
اشاس الجرکسي.	
محمد بن داود بن عيسى.	
علي بن عيسى بن جعفر.	٢٣٢
عبد الله بن محمد بن داود.	٢٣٩
محمد بن سليمان بن عبد الله.	
محمد بن المنتصر.	
ايتاح التركي.	
عبد الصمد بن موسى.	٢٤٧
جعفر بن الفضل.	
إسماعيل بن يوسف.	
عباس بن المستعين.	٢٥٢
محمد بن طاهر بن الحسين.	
عيسى بن أحمد بن المنصور.	٢٥٢
محمد بن أحمد بن عيسى.	
علي بن الحسن الهاشمي.	
الموفق طلحة بن المتوكل.	٢٥٦

إبراهيم بن محمد بن إسماعيل العباسي .	
أبو المغيرة محمد بن أحمد بن عيسى .	
أبو عيسى بن محمد .	
الفضل بن العباس بن الحسين .	
هارون بن محمد بن إسحاق .	
أحمد بن طولون .	
محمد بن أبي الساح .	
عج بن محلب .	٢٧٩
ابن المهلب .	
مؤنس الخادم .	
ابن محارب .	٣٠١
حافظ أبو الفضل .	٣١٧
أبو طاهر القرمطي .	
القاضي الشريف أبو جعفر محمد .	
عيسى بن أبي جعفر .	
أبو الفتوح الحسين بن جعفر .	
حسن بن جعفر .	٣٨٥
أبو الطيب بن داود .	
الشريف محمد بن حسن بن جعفر .	٤٣٠
الشريف محمد بن جعفر بن محمد .	٤٥٥

٤٨٤	الشریف القاسم بن محمد.
٥١٨	الشریف فلیته بن القاسم.
٥٢٧	الشریف هاشم بن فلیته.
٥٤٩	الشریف القاسم الملقب بعمدة الد
٥٥٧	الشریف عیسی الملقب بقطب الد
٥٧٠	الشریف مالک بن فلیته.
	الشریف القاسم.
	الشریف قطب الدین عیسی.
٥٧٠	الشریف داود بن عیسی.
٥٧١	الشریف مکثر بن عیسی.
	الشریف القاسم بن مهنا.
٥٨٧	الشریف مکثر بن عیسی.
	الشریف القاسم بن مهنا.
	الشریف بکر بن عیسی.
	الشریف محمد بن مکثر.
٥٩٧	الشریف قتادة بن إدريس.
	عبد الله محمد الثائر بن موسى.
	المثنى بن الحسن.
٦١٧	الشریف الحسن بن قتادة.
٦١٩	نور الدین علی بن عمر بن رسول.

٦٢٦	صارم الدين ياقوت بن مسعود.
٦٣٠	طغتكين التركي. تداولوا الإمارة جملة
٦٥٢	راجح بن قتادة. مرات مكان بعضهما
	الشريف الحسن بن علي بن قتادة.
٦٥٢	الشريف جهماز بن حسن بن قتادة.
٦٥٢	الشريف راجح بن قتادة.
٦٥٢	الشريف غانم بن راجح بن قتادة.
	الشريف أبو نمى علي بن قتادة.
٦٨٨	الشريف جهماز بن شبيحة الحسيني.
	الشريف أبو نمى علي بن قتادة.
٧٠١	حميضة ورميثة. عطيفة وأبو الغيث. «تداولوا الولاية جملة مرات بالاتحاد والإفراد».
٧٤٠	ثقبه وعجلان ابنا رميثة «تداولوا الإمارة جملة مرات».
٧٦٤	الشريف سندس رميثة ومحمد بن عطيفة.
٧٦٥	الشريف أحمد بن عجلان.
	الشريف عنان بن مغامس.
	الشريف عنان وأحمد وعقيل.
٧٨٩	الشريف علي بن عجلان.
٧٩٧	الشريف محمد بن عجلان.
٨٠٩	الشريف الحسن بن عجلان.

الشریف رمیثة بن محمد بن عجلان.	٨١٨
الشریف الحسن بن عجلان.	٨٢١
الشریف بركات بن حسن.	٨٢١
الشریف علي بن عنان بن مغامس.	٨٢٧
الشریف الحسن بن عجلان.	٨٢٨
الشریف علي بن الحسن بن عجلان.	٨٤٥
الشریف أبو القاسم بن الحسن.	٨٤٧
الشریف بركات بن الحسن بن عجلان.	٨٥١
الشریف محمد بن بركات.	٨٥٩
الشریف بركات بن محمد وأخوه.	
الشریف هزاع بن محمد بن بركات.	
الشریف أحمد بن محمد بن بركات.	
الشریف بركات بن محمد.	
الشریف حمیضة بن محمد.	
الشریف بركات ومعه ابنه محمد.	٩١٠
الشریف بركات بن محمد وولداه.	
الشریف أبو نمى بن محمد بن بركات.	٩٣١
الشریف حسن بن أبي نمى.	١٠٠٣
الشریف أبو طالب بن حسن.	١٠١٠
الشریف إدريس بن حسن.	١٠١٢

١٠٣٤	الشریف محسن ابن أخی إدريس .
١٠٣٧	الشریف أحمد بن عبد المطلب .
١٠٣٩	الشریف مسعود بن إدريس .
١٠٤٠	الشریف عبد الله بن حسن .
١٠٤١	الشریف محمد بن عبد الله مع زيد .
١٠٤١	الشریف نامي بن عبد المطلب .
١٠٤٢	الشریف زيد بن محسن .
١٠٧٧	الشریف سعد بن زيد .
١٠٨٣	الشریف برکات بن محمد .
١٠٩٤	الشریف سعيد بن برکات .
١٠٩٥	الشریف أحمد بن زيد .
١٠٩٩	الشریف سعيد بن سعد بن زيد .
١٠٩٩	الشریف أحمد بن غالب .
١١٠١	الشریف محسن بن حسين .
١١٠٣	الشریف سعيد بن سعد .
١١١٣	الشریف عبد المحسن بن أحمد .
١١١٣	الشریف عبد الکریم بن محمد .
١١١٣	الشریف سعد بن زيد .
١١١٣	الشریف عبد الکریم بن محمد .
١١١٦	الشریف سعيد بن سعد .

الشریف عبد الکریم بن محمد.	١١١٧
الشریف سعید بن سعد.	١١٢٣
الشریف عبد الله بن سعید.	١١٢٩
الشریف یحیی بن برکات.	١١٣٠
الشریف مبارک بن أحمد.	١١٣٢
الشریف عبد الله بن سعید.	١١٣٦
الشریف محمد بن عبد الله.	١١٤٣
الشریف مسعود بن سعید.	١١٤٥
الشریف محمد بن عبد الله.	١١٤٥
الشریف مسعود بن سعید.	١١٤٦
الشریف مساعد بن سعید.	١١٦٥
الشریف جعفر بن سعید.	١١٧٢
الشریف مساعد بن سعید.	١١٧٣
الشریف عبد الله بن سعید.	١١٨٤
الشریف أحمد بن سعید.	١١٨٤
الشریف عبد الله بن حسن.	١١٨٤
الشریف أحمد بن سعید.	١١٨٤
الشریف سرور بن مساعد.	١١٨٦
الشریف عبد المعین بن مساعد.	١٢٠٢
الشریف غالب بن مساعد.	١٢٠٢

الشريف يحيى بن سرور.	١٢٢٨
الشريف محمد بن عبد المعين.	١٢٤٢
الشريف عبد المطلب بن غالب.	١٢٦٧
الشريف محمد بن عبد المعين.	١٢٧٢
الشريف عبد الله باشا ابن محمد ابن عون.	١٢٧٤
الشريف حسين باشا.	١٢٩٤
الشريف عبد المطلب بن غالب.	١٢٩٧
الشريف عون الرفيق بن محمد بن عون.	١٢٩٩
الشريف علي باشا ابن عبد الله.	١٣٢٣
الشريف عبد الإله باشا ابن محمد ابن عون.	١٣٢٧
الشريف حسين باشا ابن علي بن محمد بن عون.	١٣٢٧

انتهى الجدول، وبعض ما فيه يخالف ما جاء بكتاب «مرآة الحرمين» وغيره من التواريخ.

الوهابية ومحمد علي في الحجاز

في سنة (١١٤٢) ظهر رجل من عرب بادية نجد اسمه «محمد ابن عبد الوهاب» تلقى العلم في مكة على بعض شيوخها، وأخذ يذيع عقيدة جديدة في الدين الإسلامي، تجاوز فيها الحد الذي ذهب إليه الإمام أحمد بن حنبل؛ بل تغالى في بعض الأمور غلوًّا كبيرًا، وأخذ يمر على أحياء العرب حيًّا بعد حيٍّ يذيع فيهم عقيدته حتى اتبعه كثير من الناس، وما زال يزداد مريدوه ويكثر تابعوه حتى قوي أمره وخافته البادية. ولما قربت أشهر الحج أرسل إلى شريف مكة «مسعود بن سعيد بن سعد بن زيد» عشرين رجلًا من قومه ليعرضوا عليه مذهبه، وليستأذنوا له في حج بيت الله الكريم. فأمر بالقبض عليهم وسجنهم وحكم بكفرهم؛ ففر منهم نفرٌ إلى «الدرعية» -مقر الوهابي- وأخبروه بما حصل، فاستمر مع قومه ممنوعين عن الحج إلى سنة (١٢٠٥). وكان في إمارة مكة الشريف «غالب» استأذنوه في الحج، فأبى فقامت لذلك الحرب بينهم. ورغمًا عن موت «محمد بن عبد الوهاب» في سنة (١٢٠٧) فإن الحرب ما زالت راحا دائرة بينهم إلى سنة (١٢١٣)، وحصل في أثنائها خمس عشرة واقعة كانت الحرب فيها سجالًا إلا في الأخيرة التي تسمى «غزوة الخرمة» فقد كان فيها للوهابيين النصر المبين. وفي هذه السنة تم الصلح بين الشريف غالب و«عبد العزيز بن محمد بن سعود» أمير الدرعية «الذي كان يقوم بنصرة الوهابي رغبةً في اتساع مُلكه حتى ضخم، وكاد يستولي على أطراف جزيرة العرب بتمامها». وتحددت في هذا الصلح منطقة نفوذ كل من الطرفين، وسمح الشريف للوهابيين بالحج في سنة (١٢١٤). فحج «سعود بن عبد العزيز» ومعه

خلق كثير. ثم حج أيضًا في عددٍ عظيم من قومه سنة (١٢١٥). وفيها حدث منافرة بين عربان الشريف وقوم سعود أدّت إلى استئناف الحرب بينهما، وحصل من جرائها بين الطرفين ثلاث عشرة موقعة استولى ابن سعود في الأخيرة على الطائف سنة (١٢١٧). وبعد أن تفرق الحجاج في تلك السنة خافه الشريف «غالب» ففرّ إلى جدة مع واليها «شريف باشا». وصار الناس في مكة لا يقر لهم قرار من الخوف. فعند ذلك قام الشريف «عبد المعين بن مساعد» وأرسل كتابًا إلى سعود يطلب منه أمانًا لجيران بيت الله الحرام، على أن يطيعوه ويكون هو عامله على مكة. وأرسله مع وفد من أفاضل أشرف البلد الحرام وعلمائها، فاجتمعوا بسعود في وادي السيل (على مرحلتين من مكة) وعاهدوه على الطاعة. فكتب لهم أمانًا في ورقة صغيرة هذه صورته: «بسم الله الرحمن الرحيم، من سعود بن عبد العزيز إلى كافة أهل مكة والعلماء والأغوات وقاضي السلطان، السلام على من اتبع الهدى، أمّا بعد فأنتم جيران الله وسكان حرمة آمنون بأمنه، إنما ندعوكم لدين الله ورسوله. {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}. فأنتم في وجه الله ووجه أمير المسلمين سعود بن عبد العزيز، وأميركم عبد المعين بن مساعد فاسمعوا له وأطيعوا ما أطاع الله ورسوله، والسلام». وأرسل هذا الأمان إليهم في (يوم الجمعة سابع محرم سنة ١٢١٨). فصعد مفتي المالكية على المنبر وتلاه على رءوس الأشهاد وقابله الناس بالطاعة.

وفي اليوم الثاني دخل «سعود» مكة محرّمًا؛ فطاف وسعى ونحر نحو مائة من الإبل، ثم صعد إلى بستان الشريف الذي في المحصب، وفي ثاني يوم نزل وصعد إلى أعلى الصفا وخطب في الناس وتجددت له البيعة. وفي اليوم التالي أمر

بهدم القباب التي في المعلى بما فيها قبة السيدة خديجة، ثم هدم قبة مولد النبي صلى الله عليه وسلم ومولد أبي بكر وعلي رضوان الله عليهم، ثم أمر بمنع المؤذنين من الدعاء بعد الأذان وبعدم تكرار صلاة الجماعة في المسجد الحرام؛ فكان يصلى الصبح الشافعي، والظهر المالكي، والعصر الحنبلي، والمغرب الحنفي، وكان العشاء لجميعهم. وارتحل «سعود» عن مكة بعد أن أقام بها أربعة عشر يومًا، وسار بجنوده إلى جدة طالبًا الشريف غالبًا، وحاصرها أيامًا فلم يتيسر له أخذها لحصانة سورها وقوة مدافعها التي نالت من رجاله كثيرًا. ثم ارتحل إلى الشرق، فعاد الشريف «غالب» إلى مكة في أواخر شهر ربيع الأول ودخلها ظافرًا، ولم يعارضه الشريف «عبد المعين». وأخذت تفد إليه رؤساء القبائل لمحالفته. واستأنف الحرب مع الوهابيين إلى (شهر ذي القعدة سنة ١٢٢٠). وفيه انعقد الصلح بينه وبينهم على دخولهم مكة لأداء مناسك الحج ثم يعودون إلى بلادهم. ومع ذلك فقد كان الشريف «غالب» يمالئ الوهابيين اتقاء لشركهم، ويتظاهر لهم بما يوافق مذهبهم؛ فكان أحيانًا يأمر بهدم ما بقي من قباب الصالحين بمكة وجدة، وأخرى ينه باختصار المؤذنين على الأذان دون السلام، وغير ذلك من الأمور التي توافق مذهب الوهابية. وفي سنة (١٢٢١) أحرق «سعود» المحمل المصري بمكة واشترط شروطًا على المحمل الشامي وهو في هديّة فلم يقبلها ورجع من غير حج، ومن ثم انقطع المحملان عن الذهاب إلى مكة. وفي هذه السنة أخذ «سعود» جميع المجوهرات التي في الحجرة الشريفة النبوية بالمدينة المنورة وكانت لا تقدر بثمن، وطرد قاضي مكة والمدينة، وكانا من طرف الدولة العلية، واستبد بأمر الحرمين الشريفين استبدادًا مطلقًا. فلما بلغ السلطان محمود كل هذا أرسل إلى «محمد علي باشا» بأن يسير جيوشه لقتال الوهابي، فلم يتيسر له تلبية هذا الأمر في وقته؛ لأنه منذ

تولى على مصر في سنة (١٢٢٠) وهو يصل الليل بالنهار في ترتيب داخليتها وتنظيم ماليتها وتقوية حربيّتها. فلما توالى عليه الأوامر السلطانية بذلك جهز أول حملة وأرسلها إلى ينبع تحت إمرة ولده «طوسون باشا» في رمضان سنة (١٢٢٦)، فملكوها وما بعدها إلى الصفراء بلا صعوبة، وهنالك حصلت موقعة بينهم وبين «عثمان المضايقي» حاكم الطائف من قبل سعود، وكان معه من الوهابيين عدد لا يحصى، فانهزم الجيش المصري وتشتت شمله في هذه القفار، وسار «طوسون» إلى القصير وبقي فيها منتظرًا أوامر والده.

وفي محرم سنة (١٢٢٧) جهز «محمد علي» جيشًا وأرسله بحرًا إلى ينبع وأمر «طوسون باشا» بالذهاب إليها للمحافظة عليها. وجهز في شهر صفر جيشًا آخر وأرسله من طريق البر تحت قيادة «صالح أغا السلحدار»، ثم أخذ يوالي إرسال الجنود والذخائر برًا وبحرًا حتى اجتمع له في ينبع قوة كبيرة. وكان طوسون يكتب الشريف غالبًا ويسترشد برأيه ويعمل بتدبيره، وأرسل إلى مشايخ حرب فجاءوا، فأحسن استقبالهم وأهل عليهم الخلع والأموال، فساروا في خدمته حتى دخل المدينة المنورة في شهر ذي القعدة وأخرج من كان فيها من الوهابيين، وسارت فرقة من الجنود التي في ينبع إلى جدة من طريق البحر فدخلوها من غير ممانعة. فلما علم بذلك عسكر الوهابي الذين بمكة خرجوا منها وتركوا قلاعها خاوية. ثم سارت فرقة من الجنود المصرية من جدة إلى مكة، فقابلهم الشريف غالب بالإكرام التام، ودخلوها واحتلوا قلاعها. وبلغ ذلك عسكر الوهابي الذين بالطائف فتركوه وساروا إلى الدرعية. ولما وصلت البشائر إلى مصر باستيلاء العساكر المصرية على المدينة المنورة وجدة ومكة، أمر محمد علي باشا بتزيين القاهرة خمسة أيام، وأرسل مبشرًا إلى الحضرة السلطانية بهذا الفتح المبين، فكان لذلك يوم مشهود في الأستانة.

وفي (شهر ربيع الثاني سنة ١٢٢٨) مات سعود بالدرعية وتولى مكانة ابنه «عبد الله». وفي (١٤ شوال منها) سار محمد علي باشا من مصر قاصداً الحجاز، فوصل إلى جدة في أواخره، وكان الشريف غالب حضر لاستقباله فيها. وما استقر بها محمد علي حتى أتته رسل من عند ابن سعود يطلب الصلح، فاشترط أن يدفع له الوهابي جميع المصاريف التي صرفت على العساكر من أول الحرب إلى ذلك اليوم، وأن يأتي هو لإمضاء هذا الصلح بنفسه. وفي اليوم التالي استعرض عسكره أمام هؤلاء الرسل فأدهشتهم حركاته ونظامه. ثم سار محمد علي إلى مكة وفي خدمته الشريف غالب ونزل في بيت القرطبي، ونزل «طوسون باشا» في بيت السقاف بالشامية. وكان كل من محمد علي والشريف غالب على حذر من بعضهما، فأراد محمد علي أن يخلو له الجو فأمر ولده طوسون باشا بالقبض على الشريف غالب وأولاده، وكان ذلك في (أواخر ذي القعدة سنة ١٢٢٨)، ثم أرسله مع أولاده إلى مصر ومنها إلى سلانيك، وولى مكانه الشريف «يحيى بن سرور».

ومكث محمد علي بمكة يرتب أمورها ويغزو بجنوده كل قبيلة نبذت طاعته أو نقضت عهده، وبعد أن حج سنة (١٢٢٩) توجه بعسكره إلى الطائف، ووقع بينه وبين الوهابيين في افتتاح سنة (١٢٣٠) جملة وقائع ملك بعدها تربة ورينة وبيشة وعسير. وكانت كل جهة يملكها ينظم شئونها ويعين عليها أميراً من عنده. وما زال ينتقل من إمارة إلى أخرى في جزيرة العرب حتى عاد إلى مكة في شهر جمادى الأولى، فرتب بها مراتب إلى كثير من الأشراف وغيرهم على حسب ما تقضي به المصلحة العامة، وهي باقية لأولادهم إلى الآن. ثم رجع إلى مصر بعد أن عين «حسين باشا الأرناؤوطي» والياً على مكة، وأقام ابنه طوسون باشا قومنداناً عاماً على القوة العسكرية التي بالحجاز.

وفي شهر شعبان من هذه السنة عقد «طوسون باشا» صلحاً بينه وبين عبد الله بن سعود على أن يترك الحرب ويحقنا الدماء، وأن يدعن الوهابي لحكومة الحجاز. وأرسل «ابن سعود» وفداً من عليّة قومه إلى طوسون ليؤكدوا له هذا العهد، فبعث بهم إلى والده بمصر فلم يرق في عينه هذا الصلح. واستمر طوسون باشا في الحجاز إلى ذي القعدة، ثم رجع إلى مصر بأمر من أبيه، فوصلها في شهر ذي الحجة، وعملت له فيها زينة كبيرة. وكان ولد له في غيبته ولده «عباس باشا الأول». وما زال بمصر حتى توفي سنة (١٢٣١) بالطاعون وعمره نحو عشرين سنة.

وفي (محرم سنة ١٢٣٢) أرسل محمد علي ولده «إبراهيم باشا» إلى الحجاز لمحو أثر الوهابيين؛ فسار في عسكر كثيف إلى مكة ومنها قصد الدرعية. ولما وصل إلى مكان يقال له «مرنان» وقع بينه وبين الوهابيين قتال شديد انتصر فيه عليهم، واستولى بعد ذلك على مدينة الشقراء. ثم سار إلى الدرعية فحاصر فيها عبد الله بن سعود واستولى عليها في (ذي القعدة سنة ١٢٣٣) بعد قتال شديد، وقبض على عبد الله بن سعود أمير الوهابيين وعلى كثير من بنيه وأهليه وذويه، وبعد أن جعل عالي مدينتهم سافلها سيّرهم إلى مصر. فلما أتت البشائر إلى محمد علي زين القاهرة زينة كبرى وأمر بإطلاق ألف مدفع. ووصل «ابن سعود» ومن معه إلى القاهرة في (أوائل شهر المحرم سنة ١٢٣٤)، فدخلوها في موكب عظيم، وقابل محمد علي ابن سعود ثاني يوم في سرايه بشرا بصدور رحب، وقدم إليه الوهابي صندوقاً صغيراً فيه ما تبقى عنده من الجواهر التي أخذها أبوه من الحجرة الشريفة النبوية: ومن ذلك ثلاثة مصاحف مكللة بالجواهر الثمينة، وثلاثمائة حبة كبيرة من اللؤلؤ، وقطعة كبيرة من الزمرد. ثم أرسل «عبد الله بن سعود» إلى الأستانة فصلبوه على باب همايون. وفي هذه السنة حج «إبراهيم

باشا» وعاد إلى مصر فعملت له فيها زينة كبيرة مدة سبعة أيام؛ ومن ثم صارت بلاد الحجاز من أدناها إلى أقصاها خاضعة لحكم محمد علي.

أما ما كان من أمر آل سعود فإنهم أجمعوا أمرهم لاسترجاع نجد إلى حكمهم بعد أن هدم إبراهيم باشا دار ملكهم فتم لهم ذلك. وكان الأمير عليهم «فيصل بن تركي» ابن عم عبد الله بن سعود، فلما استفحل ملكه خافه محمد علي وسير إليه «خورشيد باشا» سنة (١٢٥٣)، فاستولى على الدرعية بعد جملة وقائع بينه وبين الوهابيين، وقبض على فيصل في سنة (١٢٥٤) وأرسله إلى مصر ومعه كثير من آل سعود، وولى الإمارة بعده «خالد بن سعود»، فثار عليه عبد الله بن ثنيان وانتزعها من يده. فبلغ ذلك فيصلاً بمصر وهو سجين بالقعلة: وكانت له صلة بعباس باشا الأول، فشكا إليه ما يلقيه من تغلب «ابن ثنيان» على بلاده ووعدته إن هو خلصه من سجنه وصار له الحكم في قومه يصير من رجاله ومن رجال محمد علي. فساعدته «عباس باشا» على الهرب. فسار «فيصل» حتى نزل على «ابن الرشيد» أمير شمر، فأكرم وفادته وسير معه بعض رجاله إلى ابن ثنيان. وبلغ ذلك قومه فبادر إليه كثير منهم وساروا معه إلى «القصيم» فحاصرها وأخذ ابن ثنيان أسيراً، وما زال في سجنه حتى مات، وتم لفیصل استيلاؤه على نجد سنة (١٢٥٨) واستقامت له الأمور فيها إلى أن توفي سنة (١٢٨٢)، وله من البنين (عبد الله. وسعود. ومحمد. وعبد الرحمن). فاستولى «عبد الله بن فيصل» على الإمارة، فوقع خلاف بينه وبين أخيه سعود الذي فر إلى البحرين فساعده أميرها وخرج في قبائل العجمان وسار إلى نجد، والتقى برجال أخيه عبد الله وعليهم أخوه محمد بن فيصل، فحصلت بينهم موقعة عظيمة قتل فيها خلق كثير من الفريقين، وكانت الغلبة لسعود بن فيصل، ففر عبد الله أخوه إلى العربان وجمع له جموعاً والتقى بجيش أخيه

سعود الذي كانت له الغلبة عليه أيضًا. فقصده عبد الله أطراف نجد يستنجد قبائلها فلم يحصل على طائل، ومن ثم توطدت قدم سعود في الإمارة وأخذ يرتكب كثيرًا من المظالم، ولكن مدته لم تطل بأكثر من سنة حتى عصت عليه قبائل نجد، وتكدرت عليه أيامه ومات حتف أنفه. وتولى الإمارة بعده ولده محمد وعبد العزيز، فاستجمع عبد الله بن فيصل قوة واستولى على «الرياض» عاصمة الإمارة. وفر محمد وعبد العزيز إلى مدينة «الخرج» القريبة من الرياض، وحصلت بينهما وبين عمهما مناوشات انتهت بهدنة بين الطرفين. ثم حصلت بينهما وقائع كانت الغلبة فيها لعمهما عبد الله. وفي هذه الأثناء كانت إمارة الرشيد تتقوى بانقسام الكلمة بين آل سعود، حتى علا أمره، فطمع في إمارة نجد وتحرك لغزو ابن فيصل من الحائل وحصره في الرياض مدة انتهت باستيلائه عليها وأسر عبد الله ابن فيصل، وأتى به إلى الحائل معززا مكرما، فأقام فيها نحو سنة، ثم طلب الرجوع إلى الرياض، وبعد وصوله إليها توفي فيها. وكان ولدا أخيه سعود (محمد وعبد العزيز) في الخرج. وكان ابن الرشيد غير مستريح منهما فترقب الفرص فيهما حتى قتلها واستولى على نجد. أمّا الرياض فكان فيها ولدا فيصل محمد وعبد الرحمن، وكان لهما الأمر في بلدهم خاصة. وتوفي محمد واستقل بالأمر عبد الرحمن. وكانت بلاد القصيم بعد زوال حكم آل سعود مستقلة بيد أميرها حسن بن مهنا ورامل بن سليم فحصل بينهما وبين ابن الرشيد خلاف وقع بسببه حرب كانت الغلبة فيه لابن الرشيد، وكان عبد الرحمن ابن فيصل قد سار لمساعدة أهل القصيم، فلما حصل الظفر لابن الرشيد واستولى على القصيم التجأ عبد الرحمن بن فيصل إلى الكويت -وهي في إمارة ابن صباح- واستجمع له قوة لقي بها ابن الرشيد، فظهر عليه ابن الرشيد، وبذلك صار له الحكم في كل نجد. وأقام عبد الرحمن

في الكويت ورتبت له الدولة العثمانية مرتباً يصله من البصرة حتى مات، وله من البنين عبد العزيز ومحمد وسعد.

وكانت حصلت فتنة بين «مبارك بن صباح» وإخوته فقتلهم؛ ففرت أولادهم مع خالهم «يوسف بن إبراهيم» إلى البصرة، واستغاثوا بالدولة العثمانية؛ فلم تلتفت إليهم، فاستنجدوا بأمير نجد «عبد العزيز بن الرشيد» فكتب عبد العزيز إلى الحكومة العثمانية بأن ترخص له بالزحف على الكويت والاستيلاء عليها مدعياً أن «ابن صباح» قصد الاستنجد بالإنكليز وتسليم الكويت إليهم، وقصد بذلك إغراء الحكومة العثمانية به وانقلابها عليه. فقبلت الحكومة كلامه وأمدته برجالها، وحصل بينه وبين ابن صباح واقعة كبيرة كان النصر فيها لابن الرشيد. فأبلغ انتصاره إلى الحكومة العثمانية وأخبرها أنه قتل ابن صباح «وكان خبره غير صحيح» وطلب منها أن يستولي على الكويت. فجهزت العسكر لذلك من البصرة، وعندها طلب ابن صباح أن تكف الحكومة عداها عنه وتدع الطرفين لبعضهما. فلم تلتفت الدولة إلى ذلك، فقام «عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل» من الكويت بجيشه، وهجم على عامل ابن الرشيد في الرياض فقتله واستولى عليها وحصنها بسور متين. ثم حصلت بينه وبين ابن الرشيد وقائع كثيرة كانت تارة له وأخرى عليه، واستولى بعدها على أغلب بلاد نجد إلا الحائل وجبال شمر فإنها بقيت في يد ابن الرشيد إلى الآن.

وهنا يجمل بنا أن نذكر كلمة عن أسرة الرشيدة لتتم بها الفائدة فنقول:

كان «عبد الله بن الرشيد» أميراً على شمر، وكان له ثلاثة بنين وهم: طلال، ومتعب، ومحمد. فلما مات تولى بعده متعب، فقتله بندر وبدر ولدا أخيه طلال واستوليا على الإمارة، فقتلها عمهما محمد واستولى عليها؛ وكان رجلاً عاقلاً

كريمًا سارت الركبان بسيرته وتحذث الناس بنبأته خصوصًا بعد أن أنهى حرب الوهابية وأسر عبد الله بن سعود وتشتت آلّه وذووه. لذلك أخذت سلطة محمد بن الرشيد تمتد في أطراف نجد خصوصًا بعد أن اشتعلت نار الشحناء بين بني فيصل بن تركي. ومات محمد بن الرشيد ولم يعقب ولدًا فتولى الإمارة عبد العزيز ابن أخيه متعب، فقتله سلطان وسعود ولدا حمود ابن الرشيد واستوليا على الإمارة معًا، ثم وقع بعد ذلك خلاف بينهما فقتل سعود أخا سلطانًا وانفرد بالولاية.

وكان لعبد العزيز بن متعب ولد صغير اسمه سعود هرب به خاله السهان بعد قتل أبيه إلى المدينة، وأقاما بها مدة طويلة، ثم سارا منها بجيش كبير بتواطؤ مع قبائل شمر، وهجموا على سعود بن حمود في الحائل وقتلوه، واستولى سعود بن عبد العزيز بن متعب على إمارة شمر ولا يزال فيها إلى الآن.

الحرم المكي

كان الحرم المكي في مدة رسول الله صلى الله عليه وسلم على حدود المطاف الآن، وهي حدوده القديمة من عهد إبراهيم عليه السلام. فلما كثر سواد المسلمين زاد فيه عمر وعثمان شيئاً مما اشترياه من الدور التي كانت حوله، وزاد فيه عبد الله ابن الزبير عندما بنى الكعبة وأقام ما كان تهدم منه. وكذلك زاد فيه الوليد بن عبد الملك وعمّره عمارة تذكر فتشكر، وهو أول من نقل إليه أساطين الرخام. واهتمام الوليد بالعمارات لا ينكر، يعرفه من شاهد قبة الصخرة بالقدس الشريف ورأى ما بقي فيها من آثار الموازيك الذهبية وغيرها من أعمال القيشاني التي تدهش العقل ويحار فيها الفكر. ويوجد في المسجد الأموي بدمشق إلى الآن شيء من أثر عمارته لم تصل إليه يد الحريق، وبه أعمال موازيك ذهبية بديعة جداً على حائطي الصحن الجنوبي والغربي.

ولما حج الخليفة «محمد المهدي» سنة مائة وستين رأى أن البيت ليس في وسط المسجد فاشترى كثيراً من البيوت -خصوصاً في الجهة الشرقية القبلية- وزادها في المسجد، وأدخل إليه كثيراً من الأروارات التي كانت فيه وكانت في ملكية الغير، ثم أتى من بعده ابنه الهادي فأكمل ما نقص في مدة والده.

وكانت دار الندوة عامرة بالحرم تجاه الكعبة من الجهة الشمالية الغربية، وكان ينزل بها الخلفاء والأمراء في حجهم في صدر الإسلام، ولكنها أهمل أمرها في منتصف القرن الثالث الهجري فأخذ يتهدم بناؤها، فكتب في ذلك إلى الخليفة «المعتضد» العباسي فأمر بها فهدمت في سنة إحدى وثمانين ومائتين وجعلت مسجداً وفيها قبلة إلى الكعبة، ثم جعلوا لها قبة عالية، ثم غير شكلها

فيما بعد إلى شكل آخر، واستمر مقامًا يصلي فيه الإمام الحنفي إلى أن أتى الأمير كلدي أمير جدة في سنة (٩٤٧) فهدمها، وبنى المقام مربعًا ذا طبقتين: الأولى للإمام والمصلين، والثانية للمؤذنين والمبلغين، وهو على هذا الشكل إلى الآن.

وفي سنة (٨٠٢) احترق الرواق الشرقي، فأمر الملك الناصر فرج بن برقوق ملك مصر بتعمير ما خرب منه، ووضع بدل الأعمدة الرخام التي احترقت أعمدة من الحجر الشمسي. ومن ثم كانت تقوم بعمارة الحرم ملوك مصر، وحسبك العمارة التي قام بها السلطان «قايتباي» في سنة (٨٨٦).

وفي سنة (٩٧٩) مال الرواق الشرقي من الحرم ميلًا محسوسًا، فأمر السلطان «سليم الثاني» بأن يرسل المعماريون والمهندسون والصناع من جميع الأصقاع لعمارته، فأنزلوا سقفه جميعه وأساطينه كله وهدموا محيطه وبنوه على التربيع الحالي، وأقاموا أعمدة الرخام بين أساطين حجرية متناسبة الوضع، وبنوا عليها قبابًا بدل السقوف التي كانت تطحنها يد الرطوبة المختلفة من الأمطار، مع ما كان يكثر فيها من الحيوانات التي اشتهرت بعداوتها للأخشاب كالأرضة والسوس وغيرهما من الحشرات المضرة. وفي أثناء هذه العمارة مات السلطان، وكان الذي انتهى منها الجانب الشرقي والشمالى فقط؛ أعني من باب علي إلى باب العمرة. ولما تولى السلطان «مراد خان» أمر بتتيمم العمارة على الوجه الذي كان قد أمر به والده، فتمت على أحسن حال بالشكل الذي تراه الآن. وليس لمن بعده من السلاطين بهذا الحرم إلا عمارات ترميمية أو تكميلية.

وفي هذه العمارة نزل العمال بأرضية الشارع الموصل إلى المسفلة، بحيث صار يصرف ما عساه يدخل إلى الحرم من مياه السيول التي كثيرًا ما كانت سببًا في نقض أركانه وهدم بنيانه. وكانت الزيادات التي يتخلف من الدور التي دخلت في تربيع الحرم الشريف في كل عماراته يبني بعضها مدارس وبعضها

أروقة يسكن فيها فقراء طلبة العلم في المسجد، وكان لها أوقاف جمّة، ولكن كثيراً ما تغيرت أوقافها واستبدلت بغيرها أو خرجت من يد واقف إلى يد غيره أقوى منه، ومن ذلك مدرسة قايتباي التي لا تزال للآن على يسار الداخل من باب السلام؛ فإنها بعد أن كانت مدرسة تدرس فيها علوم الدين ولها أوقاف بمصر تصرف غلاتها عليها، ضعفت أوقافها شيئاً فشيئاً، فنقلوها من دار علم إلى دار ضيافة كان ينزل إليها أمراء الحاج المصري، ثم صار يسكنها بعض أشرف ذوي غالب وهي في أيديهم إلى الآن. ولا يزال المحملان المصري والشامي يوضعان أيام وجودهما بمكة لصق حائطها الذي من داخل الحرم، وبجوارهما من الخدم ما يقوم بحراستها. وعلى يمين باب السلام مدرسة يقال لها: المدرسة السليلية بها كتبخانه تقدم الكلام عليها في مكة.

والحرم من داخله على شكل مربع (منتظم تقريباً) وفي وسطه (يميل إلى الزاوية الجنوبية) الكعبة المكرمة. وطول ضلع الحرم المقابل للخطيم وهو الذي فيه باب الزيادة مائة وأربعة وستون متراً، وطول الذي يقابله وهو الذي فيه باب الصفا مائة وستة وستون متراً، وضلعه الذي فيه باب السلام مائة متر وثمانية، والذي يقابله وهو الذي فيه باب إبراهيم مائة وتسعة أمتار: فيكون مسطحة من الداخل سبعة عشر ألفاً وتسعمائة واثنين من الأمتار المربعة، وهو ما يزيد عن أربعة أفدنة وربع. أمّا من الخارج فمتوسط طوله مائة واثنان وتسعون متراً، وعرضه مائة واثنان وثلاثون متراً (وهذا حسب تحقيق المرحوم محمد صادق باشا أمير الحاج المصري). ويحيط بالحرم من داخله أربعة أروقة؛ فيها ثلاثمائة وأحد عشر عموداً، يتخللها مائتان وأربع وأربعون أسطوانة من الحجر الشمسي الأحمر، تقوم عليها قباب على محيط المسجد. وعلى بعض هذه العمد كتابة محفورة فيها، تدل على ما كان لبعض الملوك من العماره في المسجد

أو من الأعمال التي فيها يقع للمسلمين كإبطال المكوس ونحو ذلك. ومن هذه الأعمدة عمود يقرب باب الحزورة لا يزال منقوشاً عليه عهد كتبه الأشرف شعبان سلطان مصر بإبطال المكوس التي كانت تأخذها أشراف مكة على الحجيج. وأغلب هذه العمد مطلي بالجبس؛ لأن بعض أمراء مكة -ساحهم الله- كانوا إذا أرادوا نقض العهود المحفورة عليها، عمدوا إلى تلك النقوش وكسوها بعجينة من الجبس فلا يظهر لها أثر.

وأبواب الحرم ثمانية في الجهة الشمالية: وهي باب الدريّة، وباب المدرسة، وباب المحكمة وباب الزيادة^(١) ويجواره إلى الغرب باب القطبي^(٢) وباب الباسطية^(٣) وباب الزمامية، ثم باب عمرو بن العاص^(٤)، يليه من الجانب الغربي ثلاثة؛ أولها باب العمرة^(٥) وباب إبراهيم^(٦) ثم باب الحزورة^(٧). يليه من الجهة الجنوبية سبعة أبواب: أولها باب أم هانئ^(٨) وباب العجلة^(٩)، (ويسمونه باب التكية)، وباب الرحمة (أو المجاهدية)، وباب أجياد أو (السنبلة)، وباب الصفا، وباب بني مخزوم، ثم باب بازان^(١٠) يلي ذلك من

(١) لأن هذه الجهة زادت في المسجد في عمارته الأخيرة.

(٢) نسب إلى القطبي صاحب «تاريخ مكة»، وكانت له به مدرسة يقيم فيها.

(٣) لأنه مجاور لمدرسة عبد الباسط.

(٤) وكان يسمى الباب العتيق وباب السدة.

(٥) لأنهم يخرجون منه إلى العمرة ويقال له: باب بني سهم.

(٦) وهو نسبة إلى رجل خياط كان يسكن بجواره.

(٧) وكان يسمى باب بني الحكم، والحزورة اسم لسوق في الجاهلية كانت في هذا المكان ودخلت في

الحرم عند توسعته. ويسمونه باب الوداع؛ لأن الناس يخرجون منه عند سفرهم.

(٨) وهي زوجة هبيرة بن عمرو المخزومي، ولعلها كان لها بيت هناك أدخل في الحرم.

(٩) وكان يقال له: باب بني تميم.

(١٠) لقربه من سقاية بازان؛ ويسمونه باب النعلة.

الجهة الشرقية أربعة أبواب: وهي باب بني هاشم (أو باب علي)، وباب العباس^(١) (أو باب الجنائز)، وباب النبي^(٢)، ثم باب السلام^(٣) وهو الذي يدخل الحاج منه إلى الحرام عند طواف القدوم. ومجموع هذه الأبواب اثنان وعشرون باباً؛ ولكن منها ما له مدخل واحد، ومنها ما له مدخلان أو ثلاثة أو خمسة؛ فيكون مجموعها تسعة وثلاثين مدخلاً.

وفي رحبة باب إبراهيم تجد آلافاً من فقراء حجاج الدكارة والهنود والمغاربة وفيهم كثير من المقعدين^(٤) الذين لا يقدرّون على الحركة، فيمضون هناك أيامهم عائشين من حسنة أرباب الخير، وربما كان منهم بالمسجد ما تلجئهم الضرورة إليه ما لا يصح التوسع في شرحه!! وهذا أمر لا يليق بكرامة حرم الله! فهل لحكومة الحجاز أن تفكر في أمر هؤلاء البؤساء وتقيم لهم دار ضيافة يأوون إليها ولو في مدة الموسم، وعسى أن ديوان الأوقاف بمصر أو الأستانة يتدارك ما أهملته حكومة الحجاز فيكون له الثواب الجزيل.

(١) لأنه مقابل لدار العباس، وسمي باب الجنائز لأنها تخرج منه إلى المعلى.

(٢) لأنه كان صلى الله عليه وسلم يدخل المسجد منه لقربه من دار خديجة.

(٣) وكان يسمى في الجاهلية باب بني عبد شمس، ويعرف الآن بباب بني شيبه. وسمي باب السلام

لدخول الناس منه عند طواف القدوم الذي هو تحية المسجد الحرام.

(٤) أغلب هؤلاء المقعدين من عبيد أهل مكة الذين إذا وصلوا إلى الشيخوخة أو اعترتهم عاهة تقعد بهم

عن العمل طردهم سادتهم تخلصاً منهم، فيلجئون إلى بيت الله الحرام ويعيشون من لقيات أهل الخير

حتى يتولاهم الله بإحدى الحسينين: فإن كانت القاضية فقد أراحهم الله من دنياهم، وإن كانت

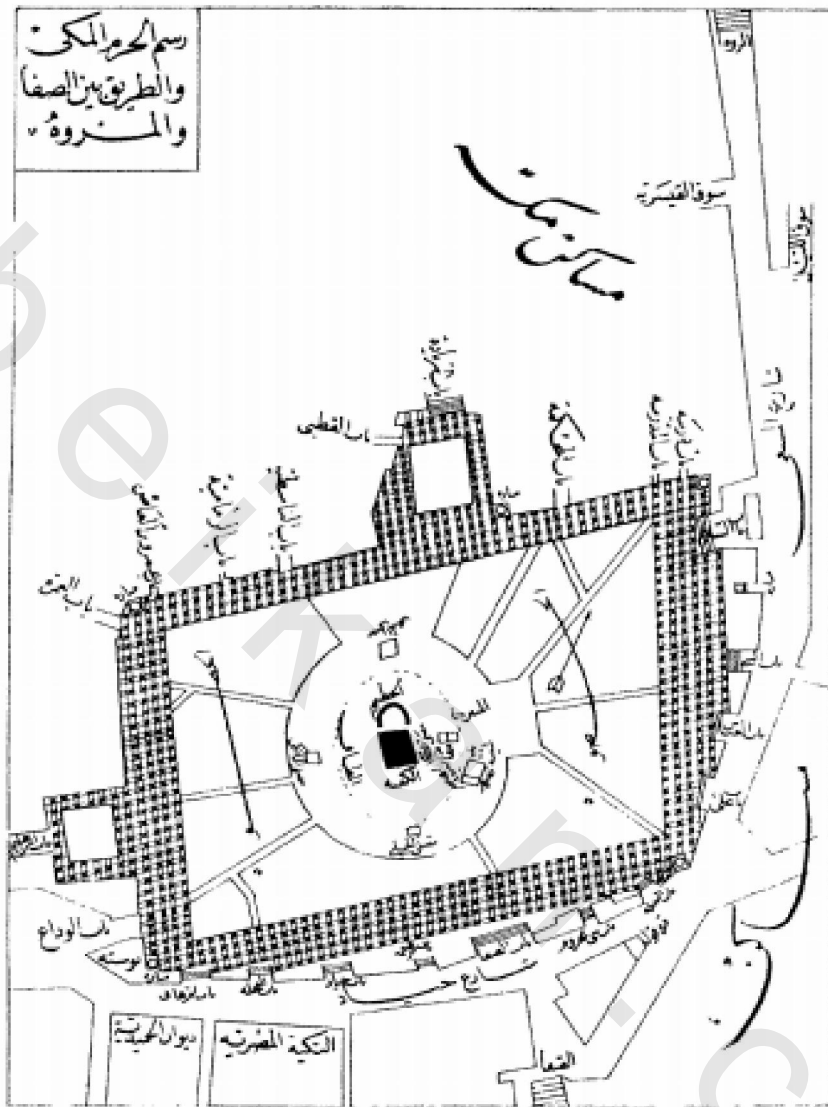
العافية استردهم سادتهم إلى خدمتهم!! ولا بدّ لحكومة الحجاز من أن ترى رأيها في هؤلاء التعساء

فيجعل لهم ملجأ يأوون إليه خدمة للإنسانية. وهذه المناسبة نقول لك: إن أهل مكة يعملون مثل

ذلك في حرمهم أو خيلهم التي يقعد بها كبار السن أو المرضى؛ فيتركونها في شوارع مكة تتلحس القمامة

من طرقها، وما يصح منها أخذه أصحابه لاستعماله في خدمتهم مرة أخرى!!

وفي المسجد ست منارات: الأولى منارة باب العمرة؛ وهي من أعمال الخليفة المنصور العباسي في عمارته للمسجد سنة مائة وثلاثين، ومنارة باب السلام، ومنارة باب علي، ومنارة الحزورة؛ وهي من أعمال المهدي العباسي في عمارته للمسجد سنة مائة وثمانية وستين، ومنارة باب الزيادة وهي من أعمال المعتضد العباسي سنة مائتين وأربع وثمانين، ومنارة السلطان قايتباي. وقد حصلت في جميعها ترميمات وزيادات في مدة العماراة التي قام بها السلطان سليم الثاني في المسجد، وكلها باقية للآن يؤذن عليها في الأوقات الخمس. وشيخ المؤذنين -أو الميقاتي- يؤذن على قبة زمزم، وفيها مزولة مثبتة في حائطها الجنوبي، من عمل رجل من مراكش أهداها إلى الحرم، وهي غاية في الضبط والإحكام، وعليها ميقاتهم في النهار، فإذا دخل الوقت بدأ الرئيس بالأذان فيتبعه المؤذنون الذين على المنارات بأصوات يحركها الهواء على طبلة الأذن فتحدث لها اهتزازات في القلب يمتلئ منها خشية ورهبة وخشوعاً وخضوعاً.

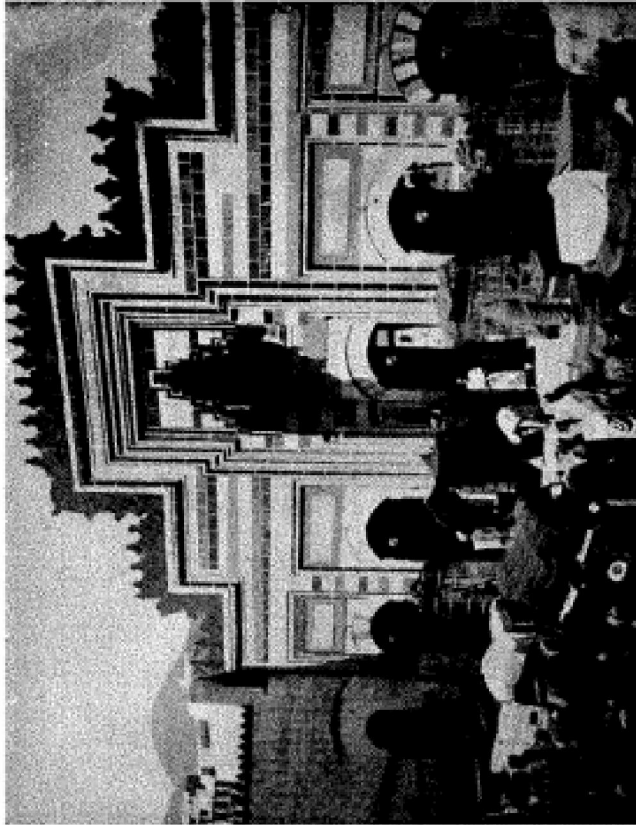


وعلى حدود المطاف تلقاء كل ضلع من أضلاع البيت، سقيفة قامت على أعمدة من الرخام: فالشمالية منها مصلى الإمام الحنفي، والغربية للإمام المالكي، والجنوبية للإمام الحنبلي، أما الإمام الشافعي فيصلي في مقام إبراهيم أو في المطاف مما يلي الكعبة مباشرة، جاعلاً بابها على يساره. والحنفي يبتدئ

بالصلاة في جميع الأوقات، ويتلوه المالكي، ثم الشافعي ثم الحنبلي؛ إلا صلاة الصبح فيبدأ بها الشافعي ويتأخر بها عنهم الحنفي. ومما يلاحظ في الحرم أن أهل كل جهة من العالم الإسلامي يجلسون عادة في الجهة التي يستقبلون فيها الكعبة في بلادهم: فالأعجام تجدهم عند باب السلام، والشوام والأتراك بينه وبني باب الزيادة، والمصريون وراء المقام المالكي، واليمنيون والجاوة والهنود وراء المقام الحنبلي. ومن أغرب ما شاهدت أن بعض المصريين يستعمل هناك البوصلة التي عملت للصلاة بمصر، ولوحظ فيها الاتجاه لجهة مخصوصة، ولا يمكن أن تؤدي وظيفتها إلا في البلاد التي على اتجاه مصر من الكعبة؛ أمّا إذا وضعت مثلاً في طريق المدينة أو اليمن أو الطائف فإنها لا تؤدي وظيفتها بالمرة، فليفهم ذلك من يجهره.

وللحرم صحن كبير غير مسقوف تقطعه مماشى محجورة، وما بينها أرض بها زلط دون الفولة يسمونها الحصباء، وأول من حصب أرضية الحرم عمر رضي الله عنه. والكعبة في وسط صحن المسجد بميل إلى الجنوب، ويليهما من الشرق مقام إبراهيم. وفي جنوبه الشرقي قبة زمزم التي بناها أبو جعفر المنصور في سنة مائة وخمسة وأربعين، وفرش أرضها بالرخام، وعمقها المأمون، أما الشبكة التي على فوهتها فقد أمر بعملها السلطان أحمد العثماني. وشرقي زمزم إلى الشمال باب شيبة، وهو باكية كبيرة قامت وسط الحرم في حدود المطاف، على عمودين من البناء المكسو بالرخام، في المكان الذي كان به باب المسجد في مدته صلى الله عليه وسلم. وفي شمال المقام المنبر؛ وهو من الرخام غاية في حسن الصناعة، أهدها إلى الحرم السلطان سليمان القانوني، ومكتوب على بابه بالخط الذهبي الجميل: {إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم}. وأول من وضع المنبر في المسجد الحرام معاوية بن أبي سفيان حين قدومه إلى مكة

حاجًّا. وكان الخلفاء قبله يخطبون على أرضية المسجد تحت جدار الكعبة أو في الحِجْر، ثم أُهدي إليه سنة مائة وسبعين منبر من خشب جميل من صناعة مصر لمناسبة حج «الرشيد» الذي خطب الناس عليه في حجه في السنة المذكورة. وفي خلافة «الواثق» أمر فعمل له ثلاثة منابر: واحد وضع في الحرم، والثاني في عرفة، والثالث في منى، وخطب في حجه عليها جميعها. وقد كان الخطباء إذا أرادوا الخطبة في الحرم وضعوا المنبر لصق جدار الكعبة بين الركن الأسود والركن اليماني، فإذا أراد الخطيب أن يخطب استلم الحِجْر أولاً ثم دعا وصعد المنبر. وبعد الخطبة كان ينقل المنبر إلى مكانه بجوار زمزم، فلما أهدى السلطان سليمان إليه منبره الرخامي بقي مكانه واستمرت فيه الخطبة إلى اليوم.



باب الصفا بالحرم المكي

وفي حوائط المسجد الحرام من الداخل أبواب بعضها منافذ لبعض المدارس على الحرم، وبعضها مخازن في يد خدمة المسجد أو الزمامة، وهؤلاء يستعملونها أحياناً لاستحمام كبراء الحجاج فيها بماء زمزم أو وضوئهم منها.

وبالجملة فشكل^(١) الحرم المكي على بساطته في بنائه فخيم جداً، ووضعه صحي، وصحنه الكبير يؤدي بلا شك للمدينة وظيفة الميادين الكبرى، كما سبق لك بيانه في الكلام على مكة.

وشيوخ الحرم هو الوالي عادة. وللحرم الشريف نائب، وقائمقام للنائب، ومدير يقوم بشئونه. وعدد خدمة الحرم الشريف ٧٠٠ نفس: منهم ١٢٢ خطباء وأئمة للمذاهب الأربعة. و١٠٧ مدرسون. و٤٥ مؤذنون. و١٠ مشدون. و١٢ فراشون. و٨ وقادون و٢٠ كناسون. و٣٠ بوابون. و١١ جبادون (ملاءون) من بئر زمزم. و١٠٨ غسالون لقناديل الحرم. وهناك وظائف أخرى أخصها وظائف الأغاوات وعددهم ٥١ وهم يقومون بخدمات مختلفة في الحرم، وأول من رتب الأغاوات في الحرم المكي للخدمة فيه هو الخليفة أبو جعفر المنصور. أما الذين يقومون بخدمة الكعبة المكرمة فهم سدننتها من بني شيبه. والخدمة في الحرم وراثية غالباً؛ ما عدا شيخه وميدره

(١) ومما نراه على شكله تقريباً جامع عمرو بمصر القديمة، ومسجد أحمد بن طولون بالقاهرة وإن كان في مساحته أكبر من الحرم، ويقال: إن هذا المسجد بني تمامًا على شكل مسجد في مدينة «سر من رأى»، وهي بلدة كانت تبعد عن بغداد بنحو ثلاثين ميلاً، وكان اسمها أولاً سامرا فكبرها المعتصم بالعمارة وبنى له فيها قصرًا جميلًا وسماها: سر من رأى. وفي وسط صحن مسجد ابن طولون قمة عالية تحتها مiazza وضعت على شكل مربع يقرب وضع بيت الله المعظم من المسجد الحرام وتسميها العامة بالكعبة، ويجوار هذه القبة من جهة القبلة ميده (بفتح الأول وسكون الثاني) من الخشب يزعمون أنها من سفينة نوح؛ ولكنهم -ساحمهم الله- إذا كانوا وضعوا ذلك إكبارًا للشأن هذه الكعبة المزورة فهل يمكنهم أن يرشدونا عن الزمان والمكان اللذين عثروا فيها على آثار أول سفينة في العالم.

فإنهما يعينان من طرف السلطنة العظمى، ووظيفة الأول تكاد تكون سياسية أكثر منها إدارية.

والخدمة في الحرمين الشريفين محترمة جداً ويتشرف بالنسبة إليها الخلفاء والسلاطين من زمن بعيد إلى الآن. ويوجد ضمن رتب الدولة العلية العالية رتبة مخصوصة اسمها «خادم الحرمين».

الكعبة المعظمة

كان الله تعالى يرسل رسله إلى خلقه في ظروف مخصوصة ليعلموهم واجباتهم في دينهم ودنياهم ويرشدوهم إلى طريق الخير الذي به تتم السعادة الحقيقية. فإذا مضت على ذلك فترة من الزمن خبط الناس في سيرهم وخلطوا بين عمل صالح وآخر سيئ، حتى إذا تغلب عليهم عامل الفساد بطبيعة الحال ساء أمرهم ونسوا رسالة ربهم إليهم وضلوا ضلالاً مبيناً. ولما كان من طبيعة الوجود ضرورة وجود خالق قوي قادر، صار كل إنسان يتخذ له معبوداً على ما يتجسم في ضميره ويتعاضم في وجدانه؛ فكان هذا يعبد النار لزعمه أنها القادرة على كل شيء، وذلك يعبد الشمس لأن بها نظام العالم، وآخر يعبد الأحجار لأنها هيولي هذا الوجود، وهؤلاء الآخرون هم الوثنيون الذين كان منهم سواد العالم خصوصاً في الفترة التي بين نوح وإبراهيم، بعد أن تفرقت الناس وتبلبلت الألسن وتغايرت طبائعهم باختلاف مواطنهم. وهذه الفترة على ما ورد في «الطبري» ألف وتسع وتسعون سنة.

وكان الكلدانيون في جنوب بابل في نقطة متوسطة بين الشرق والغرب والشمال والجنوب، فأرسل الله تعالى منهم إبراهيم فوجدهم يعبدون النجوم

والأوثان، وكان أبوه يصنعها لهم فعاتبه على ذلك؛ قال الله تعالى مخبراً عنه: {وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين}.

وترك إبراهيم قومه وهاجر إلى مدين، وهناك أمره الله تعالى بالهجرة بولده إسماعيل وأمه هاجر إلى بلاد العرب. فأقاموا بمكة حتى إذا كثر عمرانها أمره الله أن يبني له بيتاً. وكان أول بيت وضع للناس يعبدون فيه ربهم عبادة صحيحة؛ قال تعالى: {إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين}. وهذا البيت هو الكعبة المكرمة التي بناها إبراهيم على شكل مربع، زواياه إلى الجهات الأربع، حتى تتكسر عليها تيارات الهواء لكيلا يؤثر ضغط الرياح على كتلتها، وهذه هي بعينها القاعدة التي بنيت عليها أهرام مصر وصارت محل إعجاب علماء العمارة إلى الآن.

وما زالت الكعبة على بناء إبراهيم حتى بنتها العماليق، ثم جرهم^(١) كما ذكر «الأزرقي» بالسند عن علي أمير المؤمنين وعبد الله بن العباس رضي الله عنهما.

ولما آل أمر البيت إلى قصي بن كلاب في القرن الثاني قبل الهجرة هدمها وبناها فأحكم بناءها وسقفها بخشب الدوم وجذوع النخل. وبنى إلى جانبها دار الندوة؛ وهي أول بناء بعد الكعبة في مكة، وكان بها حكومته ومحل الشورى مع صحابته، وكان لا يتم لهم أمر من الأمور السياسية والاجتماعية إلا فيها. ثم قسم جهات البيت المعظم بين طوائف قريش، فبنوا دورهم على المطاف حول الكعبة وفتحوا عليه أبوابها. وقبل بعثته صلى الله عليه وسلم بنحو خمس سنين هدم السيل الكعبة، فأجمعت قريش أمرها واقتسمت القبائل بناءها، وكان

(١) وهذا خلاف لمن قال بأن جرهم بنتها قبل العماليق.

الذي يبينها لهم باقوم الرومي بمساعدة نجار مصري. فلما انتهوا إلى وضع الحجر الأسود اختلفوا في أي القبائل تختص بشرف وضعه في محله، وكاد يفضي الأمر إلى إشهار السلاح فيما بينهم. وكان صلى الله عليه وسلم يعمل معهم وعمره إذ ذاك خمس وثلاثون سنة، وكان له فيهم شأن عظيم لحسن سيرته وكمال أخلاقه، وكانوا يسمونه بالأمين، فارتضوه حكماً. فطلب رداء ووضع فيه الحجر وأمر القبائل فأمسكت بأطرافه، ورفعوه بالحجر حتى إذا وصل إلى مكانه من البناء في الركن الشرقي وضعه فيه بيده الشريفة. وبهذه الفكرة السامية والسياسية الرشيدة انتهت الشحنة من بين القبائل، وهم له شاكرون وبشدة ذكائه متحدثون. وكانت النفقة قد قصرت بهم فبنوا الكعبة على ما هي عليه الآن. وكان الحجر أولاً داخلاً فيها، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لعائشة رضي الله عنها: «لولا أن قومك حديثو عهد بالإسلام لهدمت الكعبة فألزقتها بالأرض، ولجعلت لها باباً شرقياً وباباً غربياً، وزدت بها ستة أذرع من الحجر؛ فإن قريشاً استقصرتها حينما بنت الكعبة». فلما ولي عبد الله بن الزبير أمر مكة سیر يزيد بن معاوية إليه الحصين بن نمير في عسرك كثيف، فالتجأ ابن الزبير إلى المسجد الحرام، فضربه الحصين بالمنجنقات فأصاب بعض مقدوفاتها الكعبة فهدمتها وأحرقت كسوتها مع بعض أخشابها، حتى إذا بلغه هلاك يزيد رجع بمن معه من مكة.

ثم رأى ابن الزبير أن يهدم الكعبة ويبينها على قواعد إبراهيم مستنداً على حديث عائشة السابق ذكره، فهدم الكعبة وأتى لها من اليمن بالحصص النقي فبناها به، وأدخل الحجر في البيت، وألصق الباب بالأرض وجعل قبالته إلى الغرب باباً آخر ليخرج الناس منه، وجعل ارتفاعها سبعة وعشرين ذراعاً. ولما فرغ من بنائها طيها بالمسك والعنبر داخلاً وخارجاً من أعلاها إلى أسفلها

وكساها بالديباج. وكان انتهاءه من عملية هذا البناء في (١٧ رجب سنة ٦٤ للهجرة).

فلما كانت خلافة عبد الملك بن مروان سير الحجاج بن يوسف الثقفي إلى ابن الزبير فحاصره في مكة، ورماه بالمنجنيق حتى استشهد رضي الله عنه في سنة (٧٣). ودخل الحجاج مكة وكتب إلى عبد الملك بما جده ابن الزبير في الكعبة، فولاه عليها وأمره أن يعيدها كما كانت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهدم الحجاج من جانبها الشامي (الشامي) قدر ستة أذرع وشبر، وبني ذلك الجدار على أساس قريش، ورفع الباب الشرقي وسد الغربي ولم يغير من باقيها شيئاً، ثم كبس أرضها بالحجارة التي فصلت عنها.

وعليه فالكعبة الآن على بناء ابن الزبير من جوانبها الشرقي والجنوبي والغربي، وبناء الحجاج من جانبها الشمالي. ولم يطرأ عليها بعد ذلك إلا العمارة التي تغير فيها سقفها في زمن السلطان سليمان سنة (٩٦٠)، ثم العمارة الترميمية التي حصلت في زمن السلطان أحمد سنة (١٠٢١) وتاريخها محفور في قطعة من الرخام مثبتة في الشاذروان على يمين المعجن، وهذا نصه: «بسم الله الرحمن الرحيم: {إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين}. أمر بعمارة سقف البيت الشريف وبتجديد ميزاب الرحمة وتقوية جدار بيت الله الحرام السلطان أحمد في شهر محرم سنة ١٠٢١». ثم أعقبتها العمارة التي قام بها السلطان «مراد الرابع» على إثر السيل الهائل الذي حصل في سنة (١٠٣٩) ووصل ارتفاعه إلى مترين فوق أرضيتها، فهدم من حوائطها الشمالي والغربي والشرقي، أما ما عمر فيها بعد ذلك فشيء لا يذكر.

شكل الكعبة

الكعبة الآن من الخارج على التعديل الذي رجع إليه الحجاج، وهو ما كانت عليه مدة النبي صلى الله عليه وسلم، ذات شكل مربع تقريباً، مبني بالحجارة الزرقاء الصلبة. ويبلغ ارتفاعها خمسة عشر متراً، وطول ضلعها الذي فيه الميزاب والذي قبالة عشرة أمتار وعشرة سنتيمترات. وطول الضلع الذي فيه الباب والذي يقابله اثنا عشر متراً. وبابها على ارتفاع مترين من الأرض، ويصعد إليه بواسطة مدرج يشبه مدرج المنبر. والمدرج الحالي من الخشب المصفح بالفضة أهدها إلى الكعبة أحد أمراء الهند، ولا يوضع في مكانه منها إلا إذا فتح بابها للزائر في الاحتفالات الكبرى؛ وهي غالباً لا تزيد عن خمسة عشرة مرة في السنة.

وفيما عدا ذلك ترى هذا المدرج بجوار قبة زمزم من جهة باب شيبة، ويصعدون إليها بسلم صغير من الخشب. وفي الركن الذي على يسار باب الكعبة الحَجَرُ الأسود على ارتفاع متر وخمسين سنتيمتراً من أرضية المطاف.

ويحيط بالكعبة من خارجها قصبة من البناء في أسفلها، متوسط ارتفاعها خمسة وعشرون سنتيمتراً، ومتوسط عرضها ثلاثون سنتيمتراً، وتسمى بالشاذروان، وهي من أصل البيت تركت خارجة عنه في بناء قريش لها قبل الإسلام لاختصارهم في بنائها.

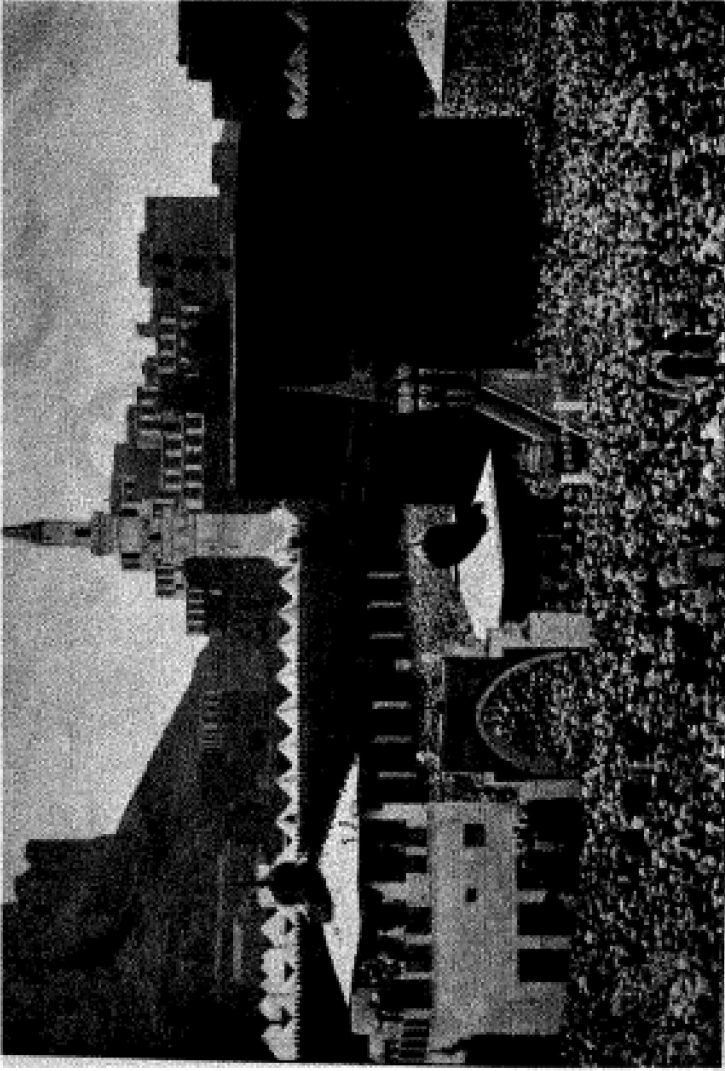
والشاذروان معناه ما يحيط بالسلسيل، وكانوا يطلقونه في العمارات المصرية القديمة على محيط النافورات التي كانت في وسط القاعات الكبرى.

وعلى ظني أنه هنا من أثر عمارة الحجاج، أقامه ليقى جدار البيت المعظم من تأثير الأمطار والسيول التي كانت ولا تزال تنزل بكثرة إلى المطاف؛ ودليلنا على ذلك إنما هو لفظه الفارسي الذي لا بد أن يكون من وضع عملة من الفرس استحضرهم «الحجاج بن يوسف» لعمارتها. ولا يبعد أن يكون ذلك من عهد ابن الزبير، يؤيده ما ورد في الأغاني من أن ابن سريج سئل عمن تعلم الغناء على القاعدة التي كان يغني عليها مع أنها ما كانت معروفة عند العرب، فقال: إنه تعلمها من عملة من الفرس كان ابن الزبير استحضرهم لبناء الكعبة، وكانوا يتغنون بأغنية لطيفة فأخذها عنهم وأضاف نغماتها على النغمات العربية وغنى بها. وعلى كل حال فالشاذروان والميزاب لفظان أعجميان، ولم يرد ذكرهما على مدته صلى الله عليه وسلم.

ويسمون زوايا البيت الخارجة بالأركان: فالشمالى منها يسمونه بالركن العراقى لأنه إلى جهة العراق، والغربى يسمونه الشامى لأنه متجه إلى جهة الشام، والقبلى يسمونه اليماني لاتجاهه إلى اليمن وفيه حَجَر يسمونه الحجر الأسعد، والشرقى يسمونه بالركن الأسود؛ لأن فيه الحجر الأسود؛ وهو حجر صقيل بيضاوي غير منتظم، ولونه أسود يميل إلى الاحمرار، وفيه نقط حمراء وتعاريج صفراء، وهي أثر لحام القطع التي كانت تكسرت منه، وقطره نحو ثلاثين سنتيمتراً، ويحيط به إطار من الفضة عرضه عشرة سنتيمترات، والمسافة التي بين ركن الحجر وباب الكعبة يسمونها الملتزم؛ وهو ما يلتزمه الطائف في دعائه واستغاثته.

ويخرج من منتصف الحائط الشمالى الغربى من أعلاه الميزاب (المزrab) ويقال له:

ميزاب الرحمة، وهو من عمل الحجاج وضعه على سطحها حتى لا تقف عليه مياه الأمطار؛ وكان من نحاس فغيره السلطان سليمان القانوني سنة (٩٥٩) بآخر من الفضة، وتجدد في سنة (١٠٢١) مدة السلطان أحمد بغيره من الفضة المنقوشة بالميناء الزرقاء تتخللها النقوش الذهبية، وقد رأيت محفوزاً في دار الآثار السلطانية الخصوصية بالأستانة. وفي سنة (١٢٧٣) أرسل إليها السلطان عبد الحميد ميزاباً من الذهب وهو الموجود بها للآن.



الكاعبة منظر الحرم المكي - أوقات الصلاة في الحج

وقباله الميزاب من الخارج يوجد الحطيم؛ وهو قوس من البناء طرفاه إلى زاويتي البيت الشمالية والغربية، ويبعدان عنهما بمسافة مترين وثلاثة سنتيمترات، ويبلغ ارتفاعه مترًا وسمكه مترًا ونصفًا، وهو مغلف بالرخام المنقوش وفي محيطه من أعلاه كتابة محفورة بالخط المعلق فيها آيات قرآنية

وتاريخ من قام بعمارته. ومسافة ما بين منتصف هذا القوس من داخله إلى منتصف ضلع الكعبة ثمانية أمتار وأربع وأربعون سنتياً، والفضاء الواقع بين الحطيم وحائط البيت هو ما يسمونه بحجر إسماعيل (بكسر الحاء وسكون الجيم) وقد كان يدخل منه ثلاثة أمتار تقريباً في الكعبة في بناء إبراهيم، والباقي كان زريبة لغنم هاجر وولدها، ويقال: إن هاجر وإسماعيل مدفونان به.

أمّا الكعبة من الداخل فشكلها مربع مشطور الزاوية الشمالية، وهي التي على يمين الداخل، وبهذه الشطرة باب صغير اسمه باب التوبة، يوصل إلى سلم صغير يصعد به إلى سطحها. وبوسطها من الداخل ثلاثة أعمدة من العود القاقلي، عليها مقاصير ترتكز على حائط الميزاب من جهة وحائط الحجر الأسود من أخرى. وقطر كل عمود نحو ثلاثين سنتيمتراً. وهذه الأعمدة من زمن عبد الله بن الزبير، وقيمتها أكبر من أن يقدر لها ثمن، ويقال: إن عليها كتابة محفورة فيها ولكني لم أرها. وقد ذكر أنه كان بالكعبة قبل الإسلام ستة أعمدة، ولا أدري إن كانت من البناء أو من الخشب. ويغطي سقف الكعبة وحوائطها من الداخل كسوة من الحرير الوردي عليها مربعات مكتوب فيها «الله جل جلاله»، قد أهداها إليها السلطان عبد العزيز رحمه الله، وفي قبالة الداخل من الباب محراب كان يصلي فيه النبي عليه الصلاة والسلام.

ويحيط ببناء البيت من الداخل إزار من الرخام المجزع على ارتفاع نحو مترين، وقد وضع في الحائط الغربي ألواح محفور في الأول منها: «بسم الله الرحمن الرحيم، أمر بتجديد هذا البيت المعظم العبد الفقير إلى رحمة ربه يوسف بن عمر ابن علي رسول، اللهم أيده يا كريم بعزيز نصرك واغفر له ذنوبه برحمتك يا كريم يا غفار يا رحيم». ومكتوب حول هذه اللوحة: «رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه لي

بتاريخ سنة ثمانين وستمائة، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم». وإلى جواره لوحة مكتوب فيها: «أمر بتجديد سقف البيت الشريف وجميع داخل الحرم وخارجه مولانا السلطان ابن السلطان محمد خان سنة سبعين وألف». ثم لوحة أخرى فيها: «{ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم}، تقرب إلى الله تعالى بتجديد رخام هذا البيت المعظم المشرف العبد الفقير إلى الله تعالى السلطان الملك الأشرف أبو النصر برسباني خادم الحرمين الشريفين بلغه الله آماله وزين بالصالحات أعماله بتاريخ سنة ست وعشرين وثمانمائة». وفي لوحة أخرى: «بسم الله الرحمن الرحيم، أمر بعمارة البيت المعظم الإمام الأعظم أبو جعفر المنصور المستنصر بالله أمير المؤمنين، بلغه الله أقصى آماله وتقبل منه صالح أعماله في شهور سنة تسع وعشرين وستمائة، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم». ثم لوحة أخرى منقوش فيها: «بسم الله الرحمن الرحيم، أمر بتجديد هذا البيت العتيق المعظم الفقير إلى الله سبحانه وتعالى خادم الحرمين الشريفين مؤمن الحجاج في البرين والبحرين السلطان ابن السلطان السلطان مراد خان ابن السلطان أحمد خان ابن السلطان محمد خان، خلد الله تعالى ملكه وأيد سلطته في آخر شهر رمضان المبارك المسطر في سلك شهور سنة أربعين بعد الألف من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والتحية». وفي الجدار الشرقي لوح مكتوب فيه: «أمر بتجديد داخل البيت السلطان الملك أبو النصر قايتباي خلد الله ملكه يا رب العالمين، عام أربع وثمانمائة من الهجرة». وفي الجدار الشمالي مكتوب على باب التوبة هذه الأبيات:

قد بدا التعمير في بيت الإله^(١) قبله الإسلام والبيت الحرام
 أم خاقان الوري مصطفى خان دام بالنصر العزيز المستدام
 بادرت صدقاً إلى التعمير ذا إنما كان بالهام السلام
 وارتجت من فضله سبحانه أن يجازيها به يوم القيام
 قال تاريخه قاضي البلد عمرته أم سلطان الأنعام

بمباشرة أحمد بك في سنة تسع ومائة وألف». وبلغني أن في البيت حجراً
 مكتوباً بالكوفي ويقال: إنه قديم جداً وأنه من القرن الأول للهجرة، وإن صح
 ذلك كان من عمل «الحجاج ابن يوسف». وبجانب الباب على يسار الداخل
 طاولة من الخشب مغطاة بستارة من الحرير الأخضر موضوع عليها كيس
 مفاتيح الكعبة، وهو من الأطلس الأخضر المزركش بالقصب، يأتي إليها سنوياً
 من مصر مع الكسوة الشريفة. ومعلق بسقف البيت كثير مما بقي من الذخائر
 التي أهديت إليه، ومن ذلك عدة مصابيح ذهبية وفضيلة لا تقل عن مائة،
 ومنها مصباحان ذهبيان مرصعان بالجواهر أهداهما للكعبة السلطان سليمان
 القانوني سنة (٩٨٤).

وتفتح الكعبة في العاشر من المحرم للرجال، وفي ليلة الحادي عشر منه
 للنساء، وفي ليلة الثاني عشر من ربيع الأول للدعاء للسلطان من غير أن
 يدخلها أحد من الزائرين، وفي صبيحته للرجال، وفي مساءه للنساء، وفي
 العشرين منه لغسيل الكعبة بحضور الشريف والوالي، وفي أول جمعة من رجب
 للرجال، وفي تاليه للنساء، وفي صباح تاليه للرجال، وفي مساءه للنساء، وفي ليلة
 النصف من شعبان للدعاء للسلطان، وفي صباح تاليه للرجال، وفي مساءه

(١) من هذا الشعر يمكنك أن تحكم على مقدار تأخر اللغة العربية ببلاد العرب وخصوصاً في القريص
 منها حوالي القرن الحادي عشر للهجرة.

للنساء، وفي يوم الجمعة الأولى من رمضان للرجال، وفي تاليه للنساء، وفي السابع عشر منه للدعاء للسلطان، وفي آخر جمعة منه كذلك، وفي نصف ذي القعدة للرجال، وفي تاليه للنساء، وفي عشرين منه لغسيل الكعبة، وفي الثامن والعشرين منه لإحرامها (أعني إحاطتها بقماش أبيض من الخارج على ارتفاع نحو مترين من أرضية المطاف). وتفتح في موسم الحج غير مرة لمن يزورها من الحجاج نظير أجر يأخذه سدنتها. وتفتح الكعبة أيضًا بعد الحج في نحو العشرين من ذي الحجة لغسيلها.

ولغسيلها احتفال كبير يحضره الشريف والوالي وأعيان مكة وعظماء الحجاج؛ وكيفية ذلك أن يدخل دولة الشريف في مقدمة الداخلين إليها، وبعد أن يصلي ركعتين يؤتى إليه بجرادل الماء من عين زمزم، فيغسل أرضها بمقشاة صغيرة من الخوص ويسيل الماء من ثقب في عتبته، ثم يغسلها بماء الورد، وبعد ذلك يضمخ أرضيتها وحوائطها على ارتفاع الأيدي بالخلوق وأنواع العطر كدهن الودر والمسك، وفي أثناء ذلك يكون البخور بالنند والعود صاعدًا من جميع جهاتها. ثم يقف الشريف على الباب ويلقي على الحجاج الذين يكونون قد وقفوا آلافًا مؤلفة في المطاف إلى باب شبية تلك المقشاة التي كانت تُغسل بها الكعبة؛ وهي مقشاة صغيرة من الخوص طولها نحو ٣٠ سنتيمترًا، فيتزاحمون عليها ويتلقفونها بحال غريبة جدًا، ومن يحصل منهم على واحدة كأنه حصل على أثمن شيء في العالم؛ بل تكون عنده خيرًا من الدنيا وما فيها، ويحفظها على سبيل البركة أثرًا شريفًا من بيت الله المعظم. وقد يأتي بعض القوم -وخصوصًا المطوفين والزمازمة- بمقشاة كثيرة يغمرونها بالماء، ويدعون أنها من التي غسلت بها الكعبة ويبيعون منها على الحجاج كل واحدة بنصف ريال على الأقل!!

الكعبة قبل الإسلام وبعده

كانت الكعبة قبل الإسلام بنحو ٢٧ قرناً ذات منزلة سامية عند العرب بأجمعهم، لا فرق بين وثنيهم ويهودهم ونصاراهم. وقد تجاوزت مكانتها جزيرة العرب إلى بلاد الهند، وكانوا يعتقدون أن روح شبوه أحد آلهتهم (وهو الأقموم الثالث من تمثال بوذا) قد تقمصت في الحجر الأسود، حين زيارته مع زوجته لبلاد الحجاز، (انظر: سياحة بریتون في بلاد الحجاز).

ويسمون مكة (مكشيشاً) أو (موكشيشانا) يعني بيت شيشا أو شيشانا، وهما على ما أظن من أسماء آلهتهم.

وقد ورد في «مروج الذهب» في الكلام على البيوت المعظمة «أن الصابئة كانوا يعتقدون أن الكعبة كانت من البيوت السبعة المعظمة عندهم، وكانوا يعتقدون أنها بيت لرحل، وأنها باقية ببقائه على مرور الدهور وكرور العصور». وكانت أغلب بلاد الشرق تدين بدين الصابئة وعلى الخصوص بلاد العجم والهند والكلدان التي منها إبراهيم، ولا يزال مذهب الصابئة فيها إلى الآن. وقد قال الله تعالى في القرآن الكريم حكاية عن إبراهيم: {فلما جنّ عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين، فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهني ربي لأكونن من القوم الضالين، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين}. وقد ذكر «المقرئزي» في باب فرق الخليقة أن من الصابئة فرقة كانت تسمى الكاظمة أصحاب كاظم بن تارخ، وأن منهم من كان يزعم أن الشمس إله كل إله، وأن السيارات السبع آلهة وكانوا يسمونها المدبرات. وكانوا يقيمون لها

الهيكل يعبدونها فيها. وذكر بعض المؤرخين أنهم كانوا يحيطون معابدهم بحرم لا يطؤه الغرباء. وعلى ظني أنهم أخذوا هذا الحرم من الدائرة التي تحيط بفلك كل كوكب من هذه الكواكب لئلا يتعدها إليه نجم آخر: وبهذا كان نظام^(١) جميع العوالم. ولا يبعد أنهم كانوا يطوفون حول هياكلهم، وربما أخذوا

(١) لا يخفى أن نظام العالم إنما هو يتجاذب أجرامه مع بعضها، سواء كانت ثابتة أو متحركة بنسب مخصوصة تحفظ نظامه، نعم تحفظ هذا النظام الغريب الذي هو من أكبر الأدلة على واجد الوجود وقدرته. ولكل سيار من هذه الأجرام دورة مخصوصة لا يتعدها إليه نجم آخر ذوات الأديان فإن دوائرها غير منتظمة. لذلك ترى الناس إذا رأوا شيئاً منها يظنون فيه الظنون وتقولوا فيه الأقوال وتوقعوا منه الأهوال؛ لأنهم يخشون مصادمته في سيره بأحد النجوم التي ربما يصادفها في طريقه فيخيل الموازنة في هذه العوالم ويكون من ذلك الاضطراب الذي يعقبه الفناء.

ولما كانت هذه الأجرام مدهشة في نظامها وكانت مصدرًا لحياة العالم الأرضي بما ترسله إليه من الحرارة والنور، كان الناس يعتقدون أنها مؤثرة بنفسها، فاتخذوها من قديم الزمان آلهة لهم. وحتى الأحجار التي كانت تنفصل منها إلى الأرض أخذوها فعبدها وكان منها الوثنية. ولذلك اشتغل الناس من زمن بعيد في استخدام تأثير الكواكب في تبين حقائق الماضي والمستقبل، فكان منه علم التنجيم. واشتغل آخرون في استخدامه في تنفيذ مطالبهم؛ فكان منه علم الأوفاق والرياح والسحر، الذي أخذوا منه أخيراً تأثير النفوس القوية على الضعيفة بما وصلوا به إلى علوم أخرى جديدة يسمونها منيوترزم وهيوترم وما في معناها مما يعبرون عنه بالتنويم المغناطيسي. ومن الناس من جعل مباحثه قاصرة على حركات هذه النجوم وأبعادها وأضوائها وحرارتها وجميع ما يتعلق بها نظرياً ومادياً، فكان من ذلك علم الفلك الذي يدلنا على قدرة واجد الوجود وعظمة هذا الواجد المعبود. وتخصيص عبادة الناس لهذه الكواكب السبعة؛ لأنها هي التي تكون النظام الشمسي الذي منه أرضنا التي يعيش فيها. وكانوا يعبرون عن أفلاكها بالسموات السبع ويرتبونها على حسب إبعادها من الأرض كما تراه في قول الشاعر:

زحل شرى مريحه من شمسه فتزاهرت بعطارد الأقمار

والعلم الحديث يعد سيارات هذا النظام سبعة أيضاً؛ ولكنه يخرج منها الشمس والقمر؛ لأن الأولى مركز هذا النظام، والثاني تابع لها. ويضيفون عليها نبتون وأورانوس. ولعل هذه السموات المعبودة هي المقصودة بقوله تعالى لنبيه الكريم في سورة المؤمنين: ﴿قل من رب السموات السبع ورب العرش

العظيم}، وقال تعالى في سورة الطلاق: {الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن}. وقد تكرر ذكر خلق السماوات السبع في القرآن الكريم لتبين أنها إنما هي خلق من خلق الله الذي يجب أن يكون متفردًا بعبادة الناس له.

ولقد كان بمصر لعبادة الكواكب الشأن الأول، وخصوصًا للشمس التي كانوا يعتبرونها إلههم الأكبر ويسمونها «أمون» وبعضهم كان يسميها «أوروريس»، ثم للقمر ويسمونه إيريس. وكانوا يقيمون لهم الهياكل الضخمة في كل جهة، وأفخمها وأكبرها هيكل الكرنك، وهو باقٍ إلى أيامنا هذه يقرأ الناس في صفحات جلاله وعظمته آيات الرقي المصري القديم في العلم والصناعة. والبابليون كانوا يعبدون الشمس ويسمونها بعلوس، والقمر ويسمونه عشطوره. وقد ذكر رولنسون العالم الأثري الإنكليزي أنه كان يوجد في بابل هيكل يسمونه برس نمروود وكان مبنياً من سبع طبقات ارتفاعها ١٥٦ قدمًا، وكل واحدة منها ملونة بلون مخصوص؛ فالأولى كانت ملونة باللون الأسود رمزًا لزلحل، والثاني باللون البرتقالي رمزًا للمشتري، والثالثة بالأحمر رمزًا للمريخ، والرابعة بالذهبي رمزًا للشمس، والخامسة بالأصفر رمزًا للزهرة، والسادسة بالأزرق رمزًا لعطارد، والسابعة باللون الفضي رمزًا للقمر.

ولقد أخذ السوريون ديانتهم عن الكلدانيين لأنهم أقرب الناس إليهم، كما أخذوا عن المصريين تشييد العمارات الهائلة لمعبوداتهم مما ترى أثره للآن في بعلبك (هذه الكلمة مركبة من «بعل» بمعنى شمس و«بك» بمعنى هيكل) ثم هيكل بعل في تدمر، وهيكل الشمس في حيران، وهيكل إيزيس في نظرة وغيرها. والذي أراه أن الفينيقيين هم الذين أدخلوا إلى بلاد اليونان ديانتهم في عبادة النجوم عند فتحهم هذه البلاد لتجارهم في نحو القرن العشرين قبل المسيح. وهؤلاء أخذوا ديانتهم من الأمم التي كانت تصلها بهم الرابطة التجارية كمصر؛ وخصوصًا آشور وبلاد الكلدان التي ظهرت في علم الفلك على جميع الأمم التي كانت تعيش في زمنها حتى كانت روما بعد بناء الرومان لها في القرن الثامن قبل المسيح تعول على أرباحها وتستمد من علومها وعلمائها مدة طويلة من الزمن.

وكان لكل أمة من هذه الأمم أقوال في معبوداتهم وحكايات ناشئة عن أوهام وخيالات مما يسمونه خرافات، وكلها تدور حول إثبات القوة والتأثير لمعبوداتهم. واشتهر اليونانيون بكثرة هذه الحكايات لكثرة معبوداتهم منها وألفوا فيها المؤلفات ويسمونهم مثلوحيا: وينسبون لكل من هذه الآلهة قوة مخصوصة يتصف بها؛ فيقولون مثلاً إن أورانوس هو السماء مجسمة وزحل بن السماء والمشتري بن زحل وهو إله الآلهة لقوته وقدرته وكثرة ما أنتجه منها ويقولون: إن نبتون إله البحر والمريخ إله الحرب وعطارد إله الـ/ والزهرة إلهة الجمال... إلخ. وكان اليونانيون يقيمون لهذه المعبودات هياكل

مربعة يسمونها سيكوس ويجعلون لها بابًا من الشرق، وليست فيها فتحات غيره، ويحيطون هذه الهيكل بفضاء يسمونه الحوش المقدس، وحول هذا الحوش كانوا يقيمون معابدهم التي يذبح الناس في محيطها قربانهم من غير أن يجسروا أن يخطوا خطوة واحدة نحو الهيكل؛ بل ولا نحو الحوش الذي يحيط به. وكانوا يحيطون هذه المعابد ببساتين يسمونها بالبساتين المقدسة كانوا يزرعون فيها أشجار الفاكهة للكهنة وشجر الزيتون ليأخذوا منه الزيت الذي كانوا يضيئون به معابدهم وهياكلهم. وكانت المصريون تحيط معابدهم بمثل هذه الغابات المغروسة من الزيتون؛ ومن ذلك ما نراه للآن من اسم عزة الزيتون التي بجوار المطرية، والتي كانت حرماً لهيكل عين شمس الذي كانوا يسمونه هليوبوليس. وكان اليونانيون يحيطون هذه البساتين المقدسة بغابات مقدسة أيضاً تطلق فيها الحيوانات التي كانوا يقدمونها إلى آلهتهم على حريتها. ولهذه الغابات حدود لا يتعداها أحد من الناس؛ بل ولا تجسر يد أن تمتد إلى ما في داخلها. ولو دخل إليها أحد الجنّة كان في حمايتها ووقفت الحكومة نفسها منه في حدودها حتى إذا خرج منها أمسكت به وأجرت عليه القصاص. واستمرت هذه العادة في كنائس النصرانية إلى القرون الوسطى، فكان إذا لجأ إليها أي إنسان صار في حمايتها ولا تقوى أيدي أولئك الملوك الجابرة على أخذه منها. وأكبر هذه الهياكل اليونانية هيكل المشتري (Jupiter) في أولمبية لأنه أكبر الكواكب التي تتركب منها هذه المجموعة الشمسية حجماً وأكثرها نوراً. وكانوا يحجون إليه في كل أربع سنين مرة، وكانت لهم هناك ألعاب يقومون بها لمعبودهم هذا مشهورة بالألعاب الاولمبية ومجموعها (٢٩٣) مرة ابتدئ من سنة (٧٧٧ قبل المسيح) وتنتهي في سنة (٣٩٤ بعده) وهي السنة التي اعتنق فيها الإمبراطور تيودوس الديانة المسيحية وأحلها محل ديانتهم الأولى. وكان القوم في مدة هذه الألعاب المقدسة يوقفون الحروب التي تكون قائمة بينهم حتى إذا انتهوا من حجهم عادوا إليها.

وعليه فلا بد أن الكلدانيين الذين أخذ عنهم اليونانيون ديانتهم مباشرة أو بواسطة الفينيقيين كانوا هم أيضاً يحيطون معابدهم بمثل هذا الحرم المحترم الذي استعمله «إبراهيم» حول الكعبة لما بناها بيتاً لله تعالى يعبد فيه الناس فيها عبادة صحيحة في حجهم إليه، وسار فيه العرب على ملته زمناً، ثم تطرق إليها شيء من الوثنية تختلف قلته أو كثرته باختلاف معتقدات القبائل. وما زالوا كذلك حتى أتى الإسلام فأزال معالم الوثنية بالمرة ورجع بالناس في حجهم إلى ملة إبراهيم.

ولما بنى سليمان عليه السلام هيكل بيت المقدس أحاطه بحرم، وقضى بأن لا يدخله أحد غير الكهنة، فلما تغلبت المسيحية عليه هدمته حتى إذا فتح المسلمون إيلياء بناه «عمر» مسجداً، ولا يزال المسلمون والنصارى يدخلون إليه: هؤلاء زائرون، وأولئك متعبدون. وأما اليهود فلا يزالون

يحترمونه ولا يدخلون من بابه مطلقاً. ولكنهم نسوا أو تناسوا سبب ذلك المنع لأنهم يجعلون علته الآن حتى لا تطأ أقدامهم بالصدفة حجراً من حجارة هيكلهم الذي هدمه بختنصر، ثم أتى من بعده طيطوس فأحرقه، وما هو على طي إلا ذلك المنع الأول، ولأن يسمونه بالحرم القدسي. وكانت قبائل العرب تضرب الحمى لمراعيها وتجعل له حدوداً لا تعداها القبائل الأخرى. وكان الرجل منهم إذا أصبح عزيزاً اتخذ له متسعاً من الأرض وجعله حمى له يعتز بعزته فلا يدخل إليه أحد؛ بل ولا يجسر أحد أن يتعدى على ما يقرب منه من الأراضي لا برعي ولا بصيد لأنها في جواره. وكان «كليب» ملك ربيعة يحمي أرضاً واسعة اسمها العالية وجعلها حمى له، فلما دخلت تحت راية قبائل معد كلها وصار أعز العرب حمى منازل السحاب فلا يرهاها غير إبله وماشيته. واتفق أنه رأى ذات يوم ناقة ترعى في جواره، وكانت لامرأة نزيلة على جساس صهره ومن بني عمه فقتلها؛ فقتله جساس بها ذوداً عن جواره هو أيضاً، وكان من ذلك ما كان من «حرب البسوس» التي وقعت بين بكر وتغلب مدة أربعين سنة.

ومن ذلك ما ورد من أن عامر بن الطفيل سيد بني عامر بن صعصعة والذي كان من أشهر فرسان العرب وأبعدهم صيتاً لما وفد على النبي صلى الله عليه وسلم في سنة عشرة للهجرة طلب منه أن يجعل له الأمر من بعده إن هو أسلم. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لك من هذا الأمر شيء». فغضب عامر وقال: والله لأملأنها عليك خيلاً ورجلاً! وذهب فمرض في طريقه بالطاعون، فمال إلى بيت امرأة من سلول ومات فيه، فدفنه قومه هناك وجعوا على قبره أنصباً ميلاً في ميل، وجعلوا دائرتها حرماً يحتمي فيها الضعيف والمظلوم فلا يحرقها عليه من يقصده، وإن فعل قام أصحابها في وجهه وكانوا عليه. ولقد منع رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الحرم وقال: «لا حمى إلا لله ولرسوله». وحمى عليه الصلاة والسلام بالمدينة ما يسمونه بالبقيع المحمي وجعله لخير المسلمين، وقد كان متدى للناس ومتصيداً لهم؛ وعرضه ميل وطوله أربعة فراسخ. وقد حمى عليه الصلاة والسلام المدينة فقال: «حرام ما بين لابتها» وهما حرتان: واحدة إلى شالها والأخرى إلى جنوبها. ولما دخل عليه الصلاة والسلام مكة عام الفتح حمى دار أبي سفيان وجعلها حرماً وأمن كل من دخل فيه من أعدائه. وبعد فتح مكة أرسل صلى الله عليه وسلم تميم بن أسيد الخزاعي فحدد أنصاب حرمها ومشاعرها على ما وضعها عليه إبراهيم. ومن ذلك العهد اقتصر العرب على حمى بيوتهم فترى الرجل منهم لئلا منها كان ضعيفاً يدفع عمن دخل في بيته مهما كلفه ذلك؛ لأنه أصبح في حمايته وله كان طالبه من أقرب الناس إليه. وحسب الرجل منهم أن يقول له آخر: أنا في وجهك حتى يدخل في هذه الحماية؛ بل حسب عدوه منه أن يقول له: أنا في وجه فلا ولو كان غائباً حتى يكون

على بينة من أنه صار في حمايته يطالبه بها إن هو أخضر حقاً من حقوقها. وهذه الحماية بهذا المعنى لا توجد في أية أمة أخرى وما نسمعه في مثل بلادنا من حماية الأمم الأجنبية لبعض المستضعفين من غير رعاياهم هو غير ذلك بالمرّة. ومن هذا توسع الناس في استعمال الحرم فأطلقوه على البيت الذي لا يتعدى حدوده أحد بغير إذن صاحبه احتراماً له. ثم أطلقوه على امرأة الرجل نفسها لحرمتها على غيره. وأخذ الأتراك لفظ حرم فأضافوا عليه كلمة لك بمعنى مكان فقالوا: حرمك؛ يعني مكان الحرم، وقصروه على مكان النساء من البيت حتى لا يكون لمن يحترق دائرته أي عذر في الدخول فيها وانتهاك حرمتها.

وقد كان قدماء اليونان والرومان يفردون في بيوتهم دائرة مخصوصة للحرم بمعزل عن الرجال يسمونها جناسي (Gynecce) ولا أدري إذا كان أصل هذه العادة عندهم دينياً أخذوه عن المنطقة التي تحيط بمعبوداتهم من الكواكب فنفضلها عن غيرها وتجعلها في عزلة تامة عنها. ثم جعلوها حول هياكلها في الأرض كما هي حول منازلها في السماء. ومن هذا تلك الهالة التي لا يزالون يسمونها من النور حول رءوس النبيين والقديسين للدلالة على أنهم في حماية الله الواجبة الاحترام. ثم ما لبثوا أن ضربوا هذه المناطق (وعليه فليعذرنا الأوروبيون إذا أخذنا عنهم هذا الحجاب وضربناه على نسائنا حباً واحتراماً لهنّ، أو بعبارة أخرى غيرةً عليهنّ) حول معبوداتهم الصغرى مدفوعين إليه بعامل الحب أو الاحترام أو الغيرة.

ومن هذا اتخذ الملوك من قديم الزمان وهم آلهة الأرض على ما كانوا يزعمون إحاطة قصورهم بحرم واسع لا يجوز انتهاكه لغير ذويهم أو من يباشر خدمتهم. واستعمل هذا الحرم في الإسلام وكانوا يسمونه حريمًا، ومنه حريم دار الخلافة ببغداد: وهو الذي جعله المنصور العباسي حول قصره بها في منتصف القرن الثاني للهجرة وكان اسمه قصر الخلد؛ وكان عبارة عن ثلث المدينة على سعتها وعظمتها، وكان له سور يعين حدوده كانت دور الناس من ورائه. وكان لهذا السور عدة أبواب بعضها خاص بالخليفة وبعضها لحاشيته وأخرى لدخول الناس: منها باب سوق الثمر وباب عموريه وباب العتبة التي كان يقلها الملوك أو رسلهم عند قدومهم إلى دار الخلافة. وهذا الحرم لم يكن لأحد أن يتعداه إلا بأمر الخليفة أو أستاذداره. ولما أرسل المأمول طاهر بن الحسين من خراسان لمحاربة أخيه الأمين ببغداد أوقع بجيوشه ثم حاصر هذه المدينة سنة (١٩٧) ونزل بأعلاها من الغرب وجعل منزله بها حرماً كل من لجأ إليه صار آمناً وسماه بالحريم الطاهري. وما زال هذا الحرم محترماً في مدة ولديه عبد الله وعبيد الله. ولأن ترى قصور الملوك محاطة جميعها بحرم واسع يفصل بينها وبين ما يحيط بها من الدور والمباني، وقد تطفوا في تسميته فسموه ميداناً. وبقدر ما تكون هؤلاء الملوك

ذلك من دوران هذه الكواكب حول الشمس بما يفيد تبعية الدائر للشيء الذي يدور حوله. كما لا يبعد أنهم كانوا يطوفون بهياكلهم أسابيع لعلاقة ذلك بالكواكب السبعة؛ يعني أنهم كانوا يطوفون حول كل هيكل من هياكلهم سبعة أشواط لكل كوكب شوط؛ فأقرها إبراهيم في دينه وجعلها كلها لله وحده. ولا يخفى أن العبادات كلها إنما هي مستمدة من شيء واحد؛ هو الاحترام الحقيقي والإخلاص الصادق، وإنما المدار في صحتها على جهة توجيهها. وكل مشروع في العالم لا بد له من أن يراعي الزمان والمكان في تشريعه ويراعي تلك العوائد المتأصلة في النفوس لعدم قدرته على إزالته مرة واحدة، ولنا في تدرج الإسلام في تحريم الخمر أكبر برهان على ذلك، وحسبنا صراحة النبي صلى الله عليه وسلم في قوله لعائشة عن الكعبة: «لولا أن قومك حديثو عهد بالإسلام لهدمت الكعبة وبنيتها على قواعد إبراهيم».

دستوريين تكون هذه الميادين متاحة لرعاياهم؛ انظر للميادين التي حول قصر بكنجهام بلوندره وشوبيرون بفينا واللوفر بباريس وغيرها تراها كلها مع ما يحيط بها من الرياض والعياض متنزهات عامة للناس على اختلاف طبقاتهم، وقد كان قبل معرفتهم للدستور أمنع من مرابض الأساد وأحمى من منازل الاستبداد. بل انظر إلى سراي يلدر وقد كان نجم السماء أقرب منها للمتناول زمن السلطان عبد الحميد الثاني كيف أصبحت بعد الدستور روضة الأمة؛ بل نزهة العامة. ولم يكن قرب الملوك الدستوريين من رعاياهم بإباحة هذه الأحماء من زمن ليس ببعيد إلا لإبعادهم عن المظالم التي تمتعض منها الأمم. والإسلام هو الذي منع هذه الأحماء حتى لا يكون فاصل بين الرعية ورعايها. وإليك برهان صغير على ذلك: أتى رجل من عظماء الفرس بعد فتح المسلمين لبلادهم إلى المدينة ليشاهد عمر الذي فتح ملك الرومان والفرس في أيام قليلة. وكان يتصور أنه من أكبر الملوك فخامة وعظمة فسأل عن ابن الخطاب، فقالوا له: انظره تحت تلك الشجرة، وأشاروا إلى سدره في الخلاء. فلما بلغها رأى رجلاً في مرقعة قد توسد نعاله وهو مستغرق في نومه؛ فعجب الرجل من أن يكون هذا هو الذي ملك هذه البلاد وقهر ملوكها ينام هكذا من غير سياج يحوطه أو حرس يجرسه، ثم ما لبث أن فكر وقال: «حكمت، فعدلت، فأمنت؛ فممت يا عمر».

وليس ذلك بغريب فشريعة كل قوم مستمدة من الشرائع التي قبلها باختلاف يسير أو كثير في بعض موادها. وشريعة إبراهيم إنما كانت مستمدة من شرائع عمالقة الشمال الذين كانت لهم في العراق دولة زاهية راقية في القرن الخامس والعشرين قبل المسيح. وقد عثر النقبون لهم أخيراً في أطلال بابل وآشور على آثار كثيرة تدل على مدنيّتهم وحضارتهم وفيها شيء كثير من شرائعهم. وتوجد الآن مجموعة كبيرة من هذه الآثار في متاحف برلين ولوندره. ومما ينسب إلى هؤلاء العمالقّة أنهم أول من عرف علم الفلك وحركات النجوم والأفلاك؛ لأنه كان عندهم علماً دينياً محضاً، ولذلك فقد فشا هذا العلم في الصابئة على اختلاف أجناسهم.

ومن الصابئة أخذ العرب علم النجوم واشتغلوا به كثيراً حتى أن «ابن قتيبة» ذهب إلى تفضيلهم فيه عن العجم. ومن علم الفلك عرفوا علم الأنواء (جمع نوء)، وهو ما يسمونه الآن بعلم الظواهر الجوية، فكانوا يعرفون منه تغير الزمن ووقت نزول المطر واختلاف هبوب الهواء. وللعرب في النجوم خرافات كثيرة؛ منها قولهم: إن سبب دوران بنات نعش (الدب الأكبر) أن الجدي قبل والدهن نعشا فهن يدرن حوله حتى إذا لحقنه اقتصصن منه. وهذا على ما أظن أخذوه من خرافات اليونانيين التي تفوق غيرها في هذا القبيل، وكانت سبباً في رقي الخيال عند كتاب الفرنجة وشعرائهم الذين لا يزالون يرمزون بها في أقوالهم، وللقوم فيها كتب خاصة يسمونها (مثولوجيا). ولما فشت في العرب عبادة الأوثان عبدوا النجوم في أشخاص هذه الأصنام؛ فعبدوا اللات ويرمزون به إلى الزهرة والعزى، ولعلمهم كانوا يرمزون به إلى الشعري، وهبل وكانوا يرمزون به إلى زحل.

ويصح أن لا تكون لأشواط الطواف السبعة علاقة بذلك، وأنها إنما كانت بهذا العدد لأن عدد سبعة عند الرياضيين هو العدد الكامل. وعلة ذلك كما ورد في كتاب «عين النبع على طرد السبع» للإمام الصفدي أن السبعة جمعت العدد كله؛ لأن العدد أزواج وأفراد، والأزواج فيها أول وثنان. والاثنان أول الأزواج والأربعة زوج ثان، والثلاثة أول الأفراد، والخمسة فرد ثان، فإذا اجتمع الزوج الأول مع الفرد الثاني، أو الفرد الأول مع الزوج الثاني، كان سبعة. وكذلك إذا أخذ الواحد الذي هو أصل العدد مع الستة التي هي عند الحكماء عدد تام، يكون منها سبعة التي هي عدد كامل؛ لأن الكمال درجة فوق التمام. وهذه الخاصة لا توجد في غير السبعة، ولذلك يفصلون بينها وبين الثمانية بالواو فيقولون: واحد اثنان ثلاثة أربعة خمسة وستة وسبعة وثمانية وتسعة وعشرة ... إلخ. ومن ذلك قوله تعالى في سورة الكهف: {ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم}. ومن هذا استعمل الناس السبعة إذا أرادوا المبالغة في العدد فيقولون: اذكر الله سبع مرات، وصل على النبي سبع مرات، وصم سبعة أيام، واغسل نجاسة الكلب سبع مرات، وارجم بسبع جمرات، مما هو مستعمل كثيراً في العبادات. وكان من ذلك السماوات السبع، والسيارات السبع، والأرضون السبع والسبع المثاني. ولما بنى جوهر القاهرة جعل لها سبعة أبواب تيمناً؛ ومن ذلك تيمنهم وقت الاحتفال بالمحمل بدورته سبع مرات. ومما هو مشهور عند العامة السبع حبوب ويعملون منها تائم لبنينهم، والسبع معادن ويستعملونها في عقاقيرهم، ومما يذكر في مبالغاتهم قولهم: فلان يعرف السبعة ألسن وقطع السبعة بحور، ولف السبعة أقاليم، ويقولون: لا أعطيك ذلك ولو عملت السبع، ولغة الأطفال فيها شيء من ذلك، فيقولون: الذئب فات وديله سبع لفات ... إلخ إلخ. وكأن استعمال

السبعة في المبالغة لم يقتصر على العرب بل تعداهم إلى الفرنجة الذين أخبرونا بأدوار العمر السبعة ولا يزالون يحدثونا بعجائب العالم السبعة.

على أن هذا كله لا معول عليه عند السادة الفقهاء؛ لأنهم لا يبحثون في أصل الأعداد التي وردت في عاداتهم كعدد ركعات الصلاة وأشواط الطواف وغيرها؛ ولكنهم يأخذون أمر الله بها قضية مسلمة محترمة ويصدعون بها أمروا به من غير بحث عن علة أو سبب.

ولقد ذكر «المسعودي» ما يفهم منه أن العرب كانت تحترم مكان الكعبة قبل بناء إبراهيم لها؛ فإنه قال عند الكلام على قوم عاد لما أصابهم القحط «وهم من العرب البائدة، وكانت مساكنهم من بلاد اليمن إلى حضرموت بجنوب بلاد العرب» ما ملخصه: إنهم كانوا يعظمون موضع الكعبة وكان ربوة حمراء، فوفدوا إلى مكة يستسقون؛ ولكنهم عكفوا فيها على شرب الخمر، فقالت لهم جرادة جارية معاوية سيد العماليق مخاطبة رجلاً منهم اسمه قيل - ولعله كان رئيس الوفد -:

ألا يا قيل ويحك قم فهيئهم^(١) لعل الله يمطرنا غماما
فيسقي أرض عاد إن عادًا قد أمسوا لا يبينون الكلاما

إلى آخر ما قالت. ومن هذا يفهم أن مكان الكعبة كان محترمًا في القوم قبل بناء إبراهيم لها. وربما كان هناك معبد قديم للعماليق تلاشى أمره قبل وصول إبراهيم إلى تلك الجهة، وبنى المؤرخون على أساسه أقوالهم في بنيان الكعبة قبل إبراهيم، فقال بعضهم: إن آدم بناها قبله، وقال آخرون غير ذلك.

(١) الهيئتهم الصوت الخفي.

ويظهر أن هذه الجهة كلها كانت مقدسة عند العرب؛ يؤيد ذلك تسمية قدماء المصريين بلاد الحجاز بالبلاد المقدسة.

والفرس كانوا يحترمون الكعبة ويعتقدون أن روح هرمرز حلت فيها وكانوا يحجون إليها من زمن بعيد جدًا، وفي ذلك يقول شاعرهم بعد الإسلام:

وما زلنا نحج البيت قدما ونلقى بالأبطاح آميننا
وساسان بن بابك سار حتى أتى البيت العتيق يطوف ديننا
فطاف به وزمزم عند بئر لإسماعيل تروي الشاربينا
وقال غيره:

زمزم^(١) الفرس على زمزم وذاك من سالفها الأقدم
واليهود كانوا يحترمون الكعبة، وكانوا يتعبدون فيها على دين إبراهيم.
والنصارى من العرب لم يكن احترامهم لها بأقل من احترام اليهود إياها. وكان لهم بها صور وتمثال؛ منها تمثال إبراهيم وإسماعيل وفي أيديهما الأزام، وصورة العذراء والمسيح. وقد وضعت العرب أصنامها عليها على تغاير معبودات القبائل والعشائر حتى اجتمع على سطحها من الأصنام (٣٦٠) صنمًا. وأول من أدخل عبادة الأوثان إلى مكة ووضع الأصنام على الكعبة «عمرو بن لُحي» كبير خزاعة حينما ولي أمر البيت، وكان سافر إلى الشام فأخذ عنها عبادة الأوثان، وأخذ عن الثموديين عبادة هبل واللات ومناة، وكانت من آلهتهم كما تدل عليه النقوش الموجودة على آثارهم. وتبعته في ذلك قبائل العرب، فكانت كل قبيلة تأتي بصنمها وتضعه عليها. ومع شيوع الوثنية في العرب فإنها كانت فيهم أقل منها في سواهم؛ لأنهم لم يكونوا يعبدون الأوثان لذاتها ولا لصفاتها

(١) اجتمع وتكاثر.

كما كان الشأن في وثني الهند والصين والرومان والمصريين وغيرهم؛ بل كانوا يعبدونها لتقربهم إلى الله زلفى.

وما زالت الكعبة على هذا الشأن حتى دخل مكة رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفتح في السنة الثامنة للهجرة فأمر بإزالة ما عليها من الأصنام. وفي حديث أسامة أنه صلى الله عليه وسلم دخل الكعبة فرأى صوراً فدعا بواء فجعل يمحوها. وقد ذكر «الأزرقي» عن ابن عائذ، عن سعيد بن عبد العزيز أن صورة عيسى وأمه بقيتا في الكعبة حتى رآهما بعض من أسلم من نصارى غسان. وقال عمر بن شيبه: حدثنا أبو عاصم، عن جرير قال: سأل سليمان بن موسى عطاءً: أدركت في الكعبة تماثيل؟ قال: نعم؛ أدركت تمثال مريم في حجرها ابنها عيسى مزوقاً. (انظر: صفحة ٦٠ من كتاب «بلوغ الأرب في مآثر العرب»).

هذا كان شأن الكعبة في الجاهلية قد أجمعت الناس مع اختلاف دياناتهم على احترامها واتخاذها كل منهم معبداً يعبد الله فيه على حسب دينه أو مذهبه، وهذا في بابه لم يقع له نظير في الوجود بالمرّة، اللهم إلا بيت المقدس الذي يحترمه المسلمون والنصارى واليهود، وإن كان لكل مكان يتعبد فيه على حدته. وهل تريد برهاناً على شرفها واحترامها غير هذا الإجماع من قوم كانوا بقطع النظر عن اختلاف دياناتهم إذا جمعتهم كلمة فرقتهم أخرى.

ولقد بلغ من سمو مكانة الكعبة في النفوس أن جعلوا لها حرماً من جميع جوانبها، واسع الأطراف، بعيد الأكناف، لا يدخله الإنسان إلا وهو محرم، وكل من دخله صار آمناً؛ قال تعالى محتجاً على أهل مكة: {أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم}.

ولم يقف احترام هذا الحرم على تأمين الإنسان؛ بل تناول الحيوان، بل تناول النبات، بل لم يقف احترام الناس لها في حدود حرمة. وقد كان بمكة قبل الإسلام حزب يقال له: حلف الفضول، اجتمع إليه بنو هاشم وبنو المطلب وبنو أسد وبنو عبد العزى وبنو زهرة وبنو تميم، فتعاقدوا وتعاهدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه، وكانوا على من ظلمه حتى ترد إليه مظلمته. وقد حضر هذا الحلف رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال فيه: «لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو دعيت به في الإسلام لأجبت».

ومسافة ما بين دائرة هذا الحرم ونقطتها المركزية التي هي الكعبة من جهة الشمال والشرق والجنوب تبلغ تقريباً خمسة عشر كيلومتراً، أما من جهة الغرب فتبلغ ثلث هذه المسافة. وعلى حد الحرم من الجنوب مكان يقال له: أضاه (على وزن نواه)، ومن الغرب بميل قليل إلى الشمال قرية الحديبية (وهي التي تمت بها بيعه الرضوان)، ومن الشرق على طريق الطائف مكان يقال له: الجعرانة، اعتمر من كليهما رسول الله صلى الله عليه وسلم. ومن وراء هذه الدائرة دائرة أخرى يُحرم منها كل من تجاوزها قاصداً الدخول إلى مكة، وهي وإن كانت حلالاً إلا أنها تعتبر فناء للحرم. ولا شك أنه لوحظ في أبعاد الحرم عمران الجهات الثلاث الأولى، حتى إذا قصد مكة منها من أرادها بشرّاً، فإنه لا يصل إلى حدود حرمة حتى يكون أهله قد استعدوا لحربه ودفعه عن حوزتهم. أما الجهة الغربية -وهي جهة البحر- فليس فيها من القبائل ما يخشى من عدوانه؛ لذلك جعلوا حد الحرم فيها من التنعيم، وهو مكان على مسافة نحو خمسة كيلومترات من مكة. وعليه فميقات الإحرام أشبه شيء بالجهة التي يصلح المرء فيها من شأنه عندما يريد مقابلة ملك من الملوك. وحد الحرم هو فناء بيت الملك، حتى

إذا دخل إليه أكمل استعدادده للتشرف بلقائه؛ فتراه وقد أخذ منه الاحتشام كل مأخذ، يسير إلى قاعة الاستقبال بغاية ما يمكن من الأدب، حتى لكأنه على مرأى منه ومسمع. وقد شاهدت ما يماثل ذلك في طوب سراي بالأستانة العلية: رأيت حجارة منصوبة إلى اليوم على أبعاد مختلفة في الحوش الداخلي لهذه السراي، وفي الفناء الذي كان مخصصًا لجلوس السلطان من بني عثمان في الزمن الخالي، وكان القادم على السلطان من الأمراء والسفراء إذا حاذى كل حجر من الأحجار المذكورة يسلم بسلام مخصوص، حتى إذا وصل إليه قبل الأرض بين يديه.

ولقد بلغ من شأن الكعبة في الجاهلية أن الناس كانوا يحجون إليها من جميع أنحاء البلاد العربية وغيرها. وكانت أشهر الحج عندهم: شوالاً وذا القعدة وذا الحجة. وكانوا يحرّمون الشهر الذي يكون فيه الحج وهو ذو الحجة، والذي قبله لأنه وسيلة إليه، والذي بعده لأنه تابع له؛ لأن الحاج كان يسافر فيه إلى بلاده؛ فوجب أن يكون فيه آمناً على نفسه وماله. وترى ذلك في أسماء هذه الشهور نفسها؛ فذو القعدة يعني الشهر الذي يقعدون فيه عن الحرب، وذو الحجة هو شهر الحج، والمحرم هو ما حرموا فيه القتال. وكانوا يحرّمون أيضاً شهر رجب ويسمونه شهر الله الأصم؛ أي الذي لا يسمع فيه صوت سلاح ولا صوت مستغيث، على خلاف في أنه هو الشهر الذي بمكانه من السنة القمرية الحالية كما كان عند مُضَرّ أو هو شهر رمضان كما كان في عرف ربيعة. وذلك لأن ربيعة كانت تسكن في شمال بلاد العرب إلى العراق، وأظن أن هذا كان من الأسباب التي حملتهم على تأخير شهر رجب إلى رمضان، حتى يمكنهم السفر فيه إلى مكة ومنها إلى اليمن، فيمضون بها شوالاً يتعاونون فيه ما يريدون من تجارتهم ثم يعودون إلى أداء حجهم، ويرجعون إلى بلادهم وهم في أمن على أنفسهم

وأموالهم؛ لأن حركتهم كلها كانت في الأشهر الحرم، لذلك تراهم يقولون: رجب مضر، ورجب ربيعة؛ لتعيين وقت كل منهما. وربما وقع تحريم رجب في شهر شعبان في سنى النسيء، فينادي الناس بذلك في الموسم بقوله: «اللهم إني أحللت رجب القادم وحرمت شعبان». فتمضي العرب على ذلك في سنتها. ولذلك فإنهم يعبرون عن شهري رجب وشعبان بالرجيين كما كانوا يعبرون عن المحرم وصفر بالصفرين.

والعرب كانت تنسى الشهور حتى توفق بين السنين القمرية والشمسية؛ فكانوا يؤخرون سنتهم كل ثلاثة سنين شهرًا (هو تقريبًا الفرق بين السنين القمرية والشمسية في هذه المدة). وكان السبب في ذلك جعل زمن الحج ثابتًا في فصل من فصول السنة كأحد الربيعين، حتى يتيسر لهم القيام به في غير وقت الحر أو البرد الشديدين، وخصوصًا في الزمن الذي تتوفر فيه مادتهم التي يتجرون بها من أصواف وأوبار وسمن ودهن وماشية وما في معنى ذلك. وهذا كله لا يتوفر على الدوام في شهر مخصوص من السنة القمرية كما لا يخفى.

وكان يتولى ذلك منهم النساء وهم من بني كنانة وكانوا يسمونهم القَلَامِس. وقد ابتدأت مضر في نساء الشهور في القرن الثاني أو الثالث قبل الهجرة. وكانوا يعملون ذلك فقط في آخر شهري المحرم ورجب؛ فكانوا يؤخرون المحرم إلى صفر، أو رجبًا إلى شعبان، فيكون شعبان رجبًا، والذي بعده شعبانًا، والشهر الذي بعده رمضانًا، وهكذا حتى يستوفوا كل أشهر السنة. وفي ذلك يقول شاعرهم:

ألسنا الناسئين على معد شهر الحل نجعلها حراما

وبهذه العملية كانت السنة القمرية تدور معهم مرة في كل ثلاثين سنة تقريباً. وفي سنة عشر للهجرة كانت شهور السنة القمرية دارت ورجعت إلى أصلها في مكانها الطبيعي من فصول السنة. فأشار إلى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله في خطبة الوداع بعرفة في السنة المذكورة: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض». وحرّم الله النسيء في هذه السنة؛ فقال تعالى: {إنما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً}.

والعرب كانوا يسمون شهر رجب بالفرد لعزلته عن الأشهر الحرم الأخرى. وربما كانوا يستعملون رجباً لحجهم الأصغر^(١) يعني العمرة، وهم يقولون للآن: الحج الرجبى، ولا يزال هكذا يستعمل في الموالد بمصر، فيقال: المولد الرجبى؛ أي الأصغر. على أن عدة الأشهر الحرم كانت عند غطفان ثمانية أشهر في السنة، وكانوا يسمون ذلك البَسَل (بفتح الباء وسكون السين) يعني التحريم، وفي ذلك يقول لهم أعشى بني قيس:

أجارتكم بَسَلٌ علينا مُحَرَّمٌ وجارتنا حِلٌّ لكم وحليلها
ومعنى تحريمهم لهذه الشهور أنهم كانوا يحترمونها، ويلقون فيها السلاح، ويتركون الغزو الذي كان عليه مدار حياتهم، وهو لا يزال كذلك إلى الآن في كثير من أطراف جزيرة العرب. وكانت هذه الشهور كلها هدنة بين القبائل بأجمعها حتى لا يقف العداء حجر عثرة في طريق الحاج منهم. ولذلك كانت العرب تستفضح من الحروب الأربعة التي وقعت لها في هذه الأشهر،

(١) جاء في «تفسير الألوسي» في الكلام عن قوله تعالى: {الحج أشهر معلومات} أنه الحج الأكبر، وأن الحج الأصغر هو العمرة.

ويسمونها بالفجار؛ أي التي فجروا فيها، وفي ذلك يقول خدّاش بن زهير العامري:

فلا توعديني بالفجار فإنه أحل بيطحاء الحجون المخازيا
وقد أقر الإسلام الحرمة في الأشهر الحُرْم؛ قال تعالى: {يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله}. وسبب نزول هذه الآية أنه عليه الصلاة والسلام بعث عبد الله بن جحش إلى نخلة، وأعطاه كتاباً وأمره أن لا يفتحه إلا بعد مسيرة يومين. فلما فتحه وجد فيه: «امضي حتى تنزل بنخلة فأتنا من أخبار قريش بما اتصل إليك منهم». فقال لأصحابه: من كان منكم له رغبة في الشهادة فلينطلق معي، فإني ماض لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن كره ذلك فليرجع؛ فإن رسول الله قد نهاني أن أستكره منكم أحداً. فمضى معه القوم، وكانوا ثمانية حتى نزلوا نخلة، فمر بهم «عمرو بن الحضرمي» في نفرٍ من قريش ومعهم تجارة، وكان ذلك آخر يوم من رجب، فقتلوا ابن الحضرمي وأسروا رجلاً من قومه وهرب بعضهم إلى مكة، ثم ساقوا العير فقدموا بها على المدينة، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: «والله ما أمرتكم بقتالٍ في الشهر الحرام». ولما بلغ ذلك قريشاً قدم منهم وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: أيحل القتال في الشهر الحرام؟ فنزلت هذه الآية الشريفة بتحريم القتال في الأشهر الحرم. ثم نزل بعد ذلك قوله تعالى: {فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم}.

وكانت قبائل العرب تجتمع قبل الحج: أهل الشمال في بدر ومجنة بمر الظهران: الذي هو على بعد نحو مرحلة من مكة إلى الشمال الغربي. وأهل الجنوب في ذي المجاز: وهو على مرحلة من عرفة شرقاً إلى الجنوب. وأهل الشرق في عكاظ: وهي واقعة فيما بين قرن المنازل والطائف، وتبعد بمرحلتين

كبيرتين عن مكة (مائة كيلومتر تقريباً)، وقد اتخذها العرب سوقاً بعد الفيل بخمسة عشر سنة واستمرت إلى سنة (١٢٩هـ)، ثم أبطلت اكتفاء بسوقي عرفة ومكة. وعليه فقد كانت هذه الأسواق^(١) بمثابة معارض للتجارة ومؤتمرات للآداب ومكارم الأخلاق. وأظنك تحكم معي بأن العرب من أسبق الناس إليها؛ بل سبقوا بها الحكومات المتمدنة بقرون عديدة.

(١) وأشهر هذه الأسواق بعد عكاظ: سوق دومة الجندل في صحراء نجد، ثم مجنة وذو المجاز. وقد كان للقوم غير ذلك مجالس خصوصية للمناظرة والمذاكرة والمحاضرة في كل حي من أحياء العرب. وكان في مكة قبل الإسلام دار الندوة ونادي قريش بجوار الكعبة، فلما جاء الإسلام كان أغلب اجتماعهم في المساجد، فكانوا يخطبون فيها وينشدون أشعارهم وكلها كانت حثاً على الفضيلة ومكارم الأخلاق. وكان القوم في المدينة يجتمعون في ثقيفة بني ساعدة لأنها كانت لسعد بن عباد سيد الأنصار، وخطب أبي بكر وعمر بها يوم وفاة النبي صلى الله عليه وسلم أشهر من أن تذكر؛ لما كان لها من التأثير الذي حفظ للإسلام كيانه ووطد بنيانه. ولاشتغال مركز الخلافة مدة الراشدين بالفتوحات، كثرت بالكوفة والبصرة دور العلم بطبيعة الحال لقربها من مدينة الفرس وحضارتهم. وظهر الخط الكوفي بهما خصوصاً بعد أن وضع «أبو الأسود الدؤلي» الحركات ووضع لهم «نصري عاصم» الإعجام (النقط) في ولاية الحجاج بن يوسف. وقد كانت الحروف العربية قبل ذلك منقوطة، ولا حاجة لإبداء الصعوبة التي كانت تعترى القراء في تعيين مثل الباء من التاء من الياء، فكان ذلك أو خطوة في رقي الكتابة العربية؛ فنشأ عن ذلك كثير من المشتغلين بها مما كان داعية لاهتمام الناس بالعلوم العربية من لغة ونحو ونثر ونظم، والشرعية كالحديث والفقه وغير ذلك؛ فظهر فيها كثير من العلماء والشعراء والخطباء. وكانت لهم فيها أندية للمناقشة والمفاخرة. وأكثرها كان في البصرة وهو المريد وكانوا يسمونها بعكاظ البصرة، وفيه حصلت جملة مفاخرات بين الشعراء، وعلى الخصوص بين جرير والفرزدق، والراعي في مهاجاتهم بعضهم البعض. وكثيراً ما كانت هذه المفاخرات تحصل في مجالس الخلفاء لاسيما في زمن معاوية وعبد الملك بن مروان والوليد وهشام بن عبد الملك. وكانت مجالس المنصور والمهدي والرشيد والمأمون ومجالس الخلافة في قرطبة بالأندلس حافلة بمفاخرات الشعراء ومجادلات العلماء مما كان سبباً لشحن القرائح ونمو المدارك وكثرة المباحث التي نضجت بها العلوم على اختلاف أنواعها، وكانت سبباً لترقي الدولة الإسلامية في القرون الثلاثة الأولى إلى أوج عرفانها وحضارتها وعمرانها.

نعم سبقهم اليونانيون إلى مثل هذا الاجتماع في الجمنازيونات (Gymnasumes) التي كانوا يقيمونها لألعابهم، وأخصها تلك التي كانت في أولمبية في القرن الثامن قبل المسيح، وكان لهم تاج يسمونه بالتاج الأولمبي يلبسونه لمن برز في هذه الألعاب، التي كان الغرض منها تلبية الجسوم وإعداد الأمة لأن تكون أمة حربية. ثم انتهى بهم الأمر بعد ضخامة ملكهم أن استعملوا هذه المتنديات لعرض معلوماتهم وبنات أفكارهم. وما زالت حتى صارت تطلق الآن على دور التعليم في أوروبا وخصوصاً في ألمانيا. ومن هذا ترى أن أسواق العرب كانت أعم من أمثالها عند غيرهم.

وكانت سوق عكاظ تقوم في صبح هلال ذي القعدة، وقد قصده رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مرة بعد البعثة لينشر في القبائل دين الإسلام. وفيه تقابل صلى الله عليه وسلم بقيس بن ساعدة واحترمه كثيراً. وكانت عكاظ أكبر أسواق الجاهلية لأنها تلي أكثر جهاته سكاناً وأعظمها قوة ومنعة، وكانوا يبيعون فيها ويشترون ويتناشدون أشعارهم ويتفاخرون بما لديهم من نسبٍ عظيمٍ وعملٍ خطيرٍ، خصوصاً في القرن الأول قبل الهجرة. وكان لهم مجلس تحكيم يعرف للناس مكانتهم وشجاعتهم وفصاحتهم وآدابهم، وربما كان فيه العدو يشهد لعدوه بالسبق من طريق الحق. وكثيراً ما كان هذا الاحتكاك السلمي يؤدي إلى المصالحة بعد المكافحة فتتال الإنسانية من وراء هذا الاجتماع خيراً كثيراً. وكانت كلمات السابقين من هؤلاء الشعراء تؤخذ وتعلق داخل الكعبة تكريماً لهم وإشهاداً من الناس بأنهم من المتفوقين. وأشهر هذه المعلقات وأكبرها بلاغة سبع^(١) كان معظمها ولا يزال مدرسة لسمو

(١) وأصحاب السبع المعلقات على ترتيب بلاغتهم هم: امرؤ القيس بن حجر، ومات سن (٩٤ قبل الهجرة). وزهير بن أبي سلمى، ومات سنة (٥٢ ق هـ). والنابعة الذبياني، ومات سنة (١٩ ق هـ).

النفوس ومعالي الهمم، وقد ترجمت إلى كثير من اللغات الأجنبية ليتعرفوا منها كثيراً من عوائد العرب وأخلاقهم قبل الإسلام، وكانوا يسمونها بالمذاهب^(١) - (انظر: صفحة ١١٦ من الجزء الثالث من «العقد الفريد» لابن عبد ربه، طبع بولاق) - فيقولون: مذهب امرئ القيس، ومذهب زهير مثلاً؛ لأنهم كتبوها بماء الذهب وعلقوها في البيت الحرام، وبقي بعضها فيه إلى يوم الفتح، وحرقت أغلبها فيما حرق من الكعبة قبل الإسلام. ولم تقتصر هذه السنة على الجاهلية؛ بل وجدت في الإسلام؛ فقد كتب هارون الرشيد عهداً بالخلافة إلى ولد الأمين من بعده، ثم إلى ولده المأمون، وأرسل به فعلق في الكعبة إلى زمن الأمين فاستدعى به ومزقه. ثم صار بعد ذلك كل من قام بشرف الخدمة في البيت الحرام من الملوك والسلاطين يتيمن بكتابة اسمه داخلها بجوار ذكر الأثر الذي له فيها.

وما زالت الكعبة محترمة في الجاهلية حتى أتى الإسلام وجعلها الله في (السنة الثانية للهجرة) قبلة للمسلمين حيثما كانوا (وكانوا يصلون إلى بيت المقدس)، قال الله تعالى لنبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم: {قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره}. فكان كذلك، ومن ثم صارت الكعبة قبلتهم في صلاتهم تتوجه إليها وجوههم، وتعنوا لله في قبالتها جباههم،

وعمر بن كلثوم، ومات سنة (٢٣ ق هـ). والحارث بن حلزة، ومات سنة (٣٤ ق هـ). وطرفة بن العبد، ومات سنة (٨٤ ق هـ). وعنترة العبسي، ومات سنة (٨ ق هـ). وبعضهم يلحق بأصحاب المعلقة: أعشى قيس، ولبيد الذي مات سنة (٥٤ هجرية) وبشعره ضربت الأمثال في الإسلام.

(١) ذكر صاحب «جمهرة أشعار العرب» أن أصحاب المذاهب هم: حسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة ومالك بن عجلان وقيس بن الخطيم وأحيحة بن الجلاح وأبو قيس بن الأسلت وعمر بن امرئ القيس. وكلهم من الأوس والخزرج.

في أي نقطة كانوا من هذه الكرة الأرضية، لا فرق بين شمالي وجنوبي وشرقي وغربي، بعيد أو قريب، وبذلك أصبحت الكعبة عندهم مركز الدائرة التي يرتبطون بها جميعاً بحبل دينهم المتين: دين التوحيد، دين المساواة، دين الإخاء، دين الحرية الصحيحة، ولها في نفوسهم من الإجلال والإعظام ما لا يقوى على التعبير لسان، أو يتخيله جنان، لا فرق في ذلك بين أهل مذهب ومذهب آخر. بل ترى المسلمين على اختلاف مذاهبهم يصلون حولها وراء أي إمام كان، وهذا لا يدل فقط على التسامح الموجود بين المسلمين؛ بل فيه أكبر برهان على توحيد الغاية التي يرمون إليها في عبادتهم، والتضامن الذي يجب أن يكون بينهم، وهذا التسامح لا نراه موجوداً بالمرّة بين مذاهب الديانات الأخرى.

وقد جعل الله تعالى الطواف بالكعبة من فرائض الحج الذي هو فرض عين على كل مسلم يستطيع إليه السبيل في أي زمان ومكان، وفرض كفاية كل سنة على عموم المسلمين يسقط بقيام البعض به، فإن أهملوه أثموا جميعاً.

ومن الغريب أن كل من يقع بصره لأول وهلة على الكعبة تراه في دهشة كبيرة؛ لا لكون بصره وقع على شيء لم يتعود النظر إليه، ولكن لما يعتره من الخشية والرهبة!! فترى هؤلاء المشاهدين تأخذهم هزة كبيرة من هذا المنظر المهيّب، ومنهم من يقف لحظة في مكان المتأدب المستكين المتصاغر أمام هذه العظمة الكبرى، ومنهم من يصرخ بصوت الخوف ولسانه يلهث بكلمات منفصلة عن بعضها، ومنهم من يجيش بالبكاء فلا تسمع له غير نحيب يختنق معه صوته وتتقطع منه أنفاسه. وعلى كل حال فنسبة خوف الإنسان من ربه على نسبة مع قوة دينه ومثانة يقينه.

الطواف

الطواف هو قطعك ما يحيط بالكعبة من دائرة المطاف سبع مرات، وتسمى أسبوعاً^(١) ويقال لها: أشواط. ويشترط في الطواف الطهارة التامة، وينبغي أن لا يكون في يدك مثل نعال أو غيرها من الأشياء الوسخة. وتبتدى كل شوط من الحجر الأسود، فإذا حاذيته تقربت منه وقبلته إن أمكنك وإلا توجهت إليه قائلاً: «اللهم إني نويت طواف بيتك المعظم سبعة أشواط فيسرها لي وتقبلها مني»، ثم تسير مسلماً بيدك قائلاً: «بسم الله، الله أكبر». وتطوف جاعلاً البيت على يسارك من وراء الحجر وبعيداً عن الشاذروان.

والمطاف على شكل دائرة بضاوية من الشمال إلى الجنوب، وقد فرشت أرضه بالرخام من مدة بعيدة، وأصلحت مدة السلطان «سليمان القانوني». وهو على حدود الحرم في عهده عليه الصلاة والسلام. ومسافة ما بين آخره والكعبة من جهة الغرب والجنوب نحو (١٩ متراً)، ومن جهة الشمال والشرق نحو

(١) بحثت في كتب اللغة عن لفظ «أسبوع» فلم أجده يتصرف إلا إلى سبعة أيام الأسبوع أو إلى سبعة أشواط. الطواف مع أن شعاب القوم كثيرة وقد مر بك شيء منها: فتبادر لذهني أن لهذه التسمية علاقة بين المسميين وأن القوم ربما كانوا يطوفون في أحد أيام الأسبوع سبعة أشواط، لكل يوم شوط، وربما كان يدعوهم إلى ذلك ضيق زمنهم الذي كانوا يستعملونه وهم بعيدون عن مكة في الحصول على عيشهم في هذه البلاد التي تضيق بطبيعتها عن القيام بحياة أهلها. فلما جاء الإسلام لم يفرق بينها، وجعلها كلها واجبة، ولم يجعل لها زمناً معيناً يؤدونها فيه.

وأشواط الطواف سبعة من زمن بعيد يؤيده قول تبع حسان ملك حمير:

ثم طفنا بالبيت سبعة وسبعاً وسجدنا عند المقام سجوداً

انظر داليته فيما يأتي من هذا الكتاب، وهي التي وصف فيها ذهابه إلى مكة في القرن الثالث قبل الهجرة بقصد هدم الكعبة ورجوعه عن فكره واحترامه لها وكسوته بإياها وطوافه حولها.

(١٢ مترًا)، وفيه لصق البيت مما يلي باب الكعبة إلى الشمال جزء مربع منحط عنه، سعته نحو مترين من كل جهة يسمى المعجن: وهو ما كان يعجن فيه إسماعيل المؤنة التي كان يستعملها إبراهيم في بناء الكعبة، وقد وجدنا فيه كتابة محفورة في قطعة من الرخام مثبتة في الشاذروان هذه صورتها: «بسم الله الرحمن الرحيم، أمر بعمارة المطاف الشريف سلطان الأنام الإمام الأعظم، المفروض الطاعة على سائر الأمم، أبو جعفر المنصور المستنصر بالله أمير المؤمنين بلغه الله آماله، وزين بالصالحات أعماله، في شهور سنة ستة وثلاثين وستمائة، وصلى الله على سيدنا محمد وآله».

وعليه فقطر دائرة المطاف من الشمال إلى الجنوب نحو (٥١ مترًا)، ومن الشرق إلى الغرب نحو (٤١ مترًا)، والكعبة تقريبًا في وسطها. فإذا اعتبرنا أن متوسط ما يقطعه الطائف حول الكعبة مائة متر في كل مرة، ففي السبعة الأشواط يقطع سبعمائة متر. وإذا عرفت أن الحاج يطوف مرات متعددة في اليوم الواحد أقلها مرة قبل كل صلاة من الصلوات الخمس أو بعدها، علمت أن الحاج بين شاب وشائب وصبي ذكر أو أنثى يقطع في طوافه اليومي على رجله نحو أربعة كيلومترات على الأقل؛ بل منهم من يقطع أضعاف ذلك قبل وبعد الصلاة الواحدة.

وذكر «ابن بطوطة» في رحلته أنه رأى وزير غرناطة وكبيرها «أبا القاسم محمد الأزدي» يطوف كل يوم سبعين أسبوعًا، ولم يكن يطوف وقت القيلولة لشدة الحر، فكأنه كان يقطع في طوافه كل يوم سبعين كيلومترًا.

وللطواف مرشدون يقال لهم: المطوفون. ولكل مطوف حجاج مخصوصون على حسب تغاير البلاد وتقاسيمها: فترى للأتراك أو الهنود أو البخاريين أو المصريين مثلًا مطوفين خصيصين بهم؛ بل لكل قسم من أقسام

البلاد مطوف معلوم يتوارث عن أبيه خدمة حجاجه، تعينه إمارة مكة لهذا الغرض، وكانو قبيل الدستور كالملتزمين يحتكر كل منهم رسمياً صنفاً من أصناف الحجيج لا يمكنه أن يتعداه إلى غيره؛ لأنهم كانوا يشترون من أصحاب السلطة بمكة هذه الالتزامات، ولذلك كان لبعضهم سلطان على حجاجهم يأمرون فيهم وينهون ولا يأخذهم فيهم شفقة ولا رحمة، حتى إذا جاء الدستور أزال هذا التحكير، وأطلق الحرية للحجيج يطوفون مع أي شخص أرادوا.

وكيفية التطويق أن يجمع المطوف في الغالب حجاجه قبل الصلاة أو بعدها، ويسير هو أو واحد من صبياناه على رأس كل جماعة منهم، فيطوف بهم حول الكعبة وهو يتلو أدعية الطواف بصوت عالٍ، فترد عليه الجماعة التي تتبعه. وربما كان المطوف ولدًا صغيرًا لا يزيد عمره عن ست سنين أو سبعة، فيحمله بعض الطائفين على عاتقه ويطوف به وهو يلقنهم الدعاء على هذه الحالة. ومن الطائفين من يطوف وحده ويكون دعاؤه بينه وبين ربه. وبعد صلاة الصبح والعشاء على الخصوص ترى المطاف مزدحمًا بجماعات الطائفين بحيث لا يمكن أن يتحرك الرجل إلا بحركة المجموع من كثرته. فإذا حاذوا الحجر الأسود انقض بعضهم عليه لاستلامه، ولا يزال يزاحم بمنكبيه حتى يصل إليه. ولكن البعض الآخر يكتفي بالإشارة من بعد وخيرًا فعل. ومن لم تكن لهم قدرة على المشي من الطائفين يجلسون في محفة يحملها أربعة على رؤوسهم أو أكتافهم ويطوفون بهم حول الكعبة، وأغلب هؤلاء من الهنود، وخصوصًا البنغاليين أو الجاويين؛ لأن سواد حجاجهم ممن يجاوز الثمانين يأتون إلى هذه الأماكن المقدسة رجاء موتهم بها، وهم يرون في ذلك كل سعادتهم ويعملون له طول حياتهم؛ لذلك تجد هذين الجنسين بؤرة الأمراض التي تنفشي في الحجيج لأن حالتهم الصحية تتأثر بأي مؤثر بسيط، وليس فيهم من

القوة ما يقوى على دفعه، وربما كانت حالتهم المعاشية تساعد الأمراض بألف يد على الفتك بهم!!

ولقد ذكر أهل السنة للطواف فضائل كثيرة وحثوا على الكثرة منه، وقالوا: إن لم يتيسر للإنسان ذلك فإنه يجمل به أن يجلس في المسجد مستقبلاً الكعبة مشاهداً فيها.

وبعد الطواف يذهب الطائف إلى حجر إسماعيل فيصلي به ركعتين سنة الطواف يختمه بهما، وإن لم يستطع ففي مقام إبراهيم. وهو قبة قامت على أربعة أعمدة وأحاطت بها مقصورة نحاسية مربعة يبلغ طول كل ضلع منها نحو ثلاثة أمتار وستين سنتيمتراً، وهي على آخر المطاف تجاه باب الكعبة وفي داخلها الحجر الذي كان يقف عليه إبراهيم حال بناء الكعبة، وبه أثر يقال: إنه أثر قدميه، وذكر أن أثر قدمي إبراهيم في هذا الحجر إنما كان باستناده عليه عند زيارته لمكة بعد بناء الكعبة، وكان هذا الحجر قبل الإسلام موضوعاً بالمعجن إلى جوار الكعبة، ثم أبعد عنها بعد الفتح حتى لا يكون هناك أثر للوثنية بالمرّة، ودُفن بمكانه الحالي، وبني عليه فيما بعد القبة الحالية، ويقولون: إن تحتها آلة البناء التي كان يعمل بها إبراهيم في الكعبة. والعرب قبل الإسلام كانوا يعتقدون في هذا الأثر ويحترمون به بل يقدسونه، وهو المقصود بقول أبي طالب في لاميته:

وموطئ إبراهيم في الصخر رطبة^(١) على قدميه حافياً غير ناعل
وربما أخذ العرب قبل الإسلام هذا الأثر من أثر القدم الذي بقية الصعود
بجبل الزيتون بالقدس الشريف، ويزعم النصارى أنه لعيسى عليه السلام،

(١) وفي رواية: وطئة.

وهم يقدسونه ويحترمونه. ومن ذلك أتى احترام المسلمين لآثار تلك الأقدام التي ينسبونها إلى النبي عليه الصلاة والسلام؛ كما تراه في قبة السيد البدوي في طنطا، وفي جامع المؤيد، ومسجد قايتباي بالقاهرة، وفي قبة الآثار النبوية في الأستانة، وفي خزانة الآثار النبوية بقبة الصخرة ببيت المقدس، وفي مسجد إبراهيم بحبرون. وعلى صخرة بيت المقدس آثار أقدام غير منتظمة يدعون أنها آثار أقدام الرسول صلى الله عليه وسلم عندما أسري به، وإلى جوارها أثر قدم ينسبونه إلى سيدنا إدريس عليه السلام، والمسلمون هناك يقدسونها جميعاً كما يقدسون أثر قدم عيسى التي تراها في محراب على يمين منبر المسجد الأقصى، ويقول النصارى: إن المسلمين فصلوها عن أختلها التي في قبة الصعود ووضعوها بمكانها هذا. ويقال: إن في محطة قدم التي في جنوب دمشق أثر أقدام غائصة في الصخر ينسبونها إلى موسى عليه السلام، وذكرها «ابن جبير» في رحلته. وقد رأيت في الفصل الرابع والثلاثين من كتاب «محاضرة الأوائل» للسكتواري أن أول موضع أهبط الله فيه آدم جبل سرنديب، وفيه أثر قدم آدم عليه السلام غائص في الصخرة طوله سبعون شبراً... إلخ. وعليه فلا بد أن تكون فكرة تلك الأقدام أخذتها العرب عن اليهود أو الهنود إن لم يكونوا أخذوها عن المسيحيين وبقي أثرها في المسلمين إلى الآن.

ولمقام إبراهيم كسوة من الحرير المزركش بالقصب تأتي إليه سنوياً من مصر مع كسوة الكعبة. ويتصل بمقصورته من الشرق سقيفة على طولها، بعرض متر وثمانين سنتيمتراً، يزدحم الناس لصلاتهم فيها ركعتي الطواف، ثم يذهبون إلى قبة زمزم. وباب هذه القبة إلى الشرق وفيها بئر زمزم المشهور، وخرزتها من الرخام من عمل السلطان سليمان، وهي مرتفعة عن سطح الأرض بنحو متر ونصف، ومن دونها حوض يصب الملاءون فيه بدلائهم،

ومن هذا الحوض يملأ السقاءون جرارهم، إلا ما كان لخاصة القوم فإنه يملأ مباشرة من الدلاء الخارجة من العين. وهذه الحركة لا تكاد تنقضي في مدة الحج أبداً. وللحجيج اعتقاد كبير في ماء زمزم ويتهادون به في آنية من الصفيح أو الدوارق المختومة. ويزعم أهل مكة أنه نافع لكل شيء بدليل حديث: «ماء زمزم لما شرب له». ويدعي بعضهم أنه يشربه اتقاء الجوع فيشبع، وأظن أن خدمة العين يبالغون في فوائده مبالغة يتجسم معها الوهم عند شاربيه. ومن ذلك يقع طعمه من أذواق الناس على نسبة اعتقادهم فيه: فمنهم من يقول: إنه لا يعادله شيء في لذته، ومنهم من يرى أنه أحلى من العسل وألذ من اللبن، ويرى غيرهم خلاف ذلك. قال المعري:

تباركت أنهار البلاد سوائح بعذب وخصت بالملوحة زمزم
والذي يفهم من ظاهر الحديث المذكور أن هذا الماء نافع لما شرب له من الأدوية التي من طبيعتها شفاؤها، ويفسره بذلك حديث: «إنها شفاء سقم». وحقيقة فإنه ماء قلوي تكثر فيه الصودا والكلور والجير والحامض الكبريتيك وحامض الأزوتيك والبوتاسا، مما يجعله أشبه شيء بالمياه المعدنية الصحية في تأثيرها، ويفيد قليله ولا تخلو الكثرة منه من الضرر، خصوصاً في غير موسم الحج حيث تكون بثرها مهجورة؛ لأن أهل مكة لا يشربون منها لملوحتها. وفي هذه الحالة يزيد فيه الحامض الأزوتيك بدرجة تجعل ماءها غير صالح للشرب. وربما كانت نصيحة بعضهم بالتضلع (كثرة الشرب) منها بعد طواف القدوم؛ لتأثيرها على الجهاز الهضمي بما ينظفه من المواد التي تكون قد انفرزت إليه مدة هذا السفر الشاق، مما يكون نتيجه رد فعل تنشط به الأعضاء وتصح الجسوم. وقد قال الأطباء: إن هذا الماء نافع للكلى والمعدة والأمعاء والكبد.

ولفضل ماء زمزم وشدة اعتقاد الناس في بركته، تجرأ بعض خدمة المساجد في مصر، وادعى تغريراً بالجهلاء من المسلمين بأن عين الماء التي عنده في مسجده لها منفذ على عين زمزم بمكة (كما هي الحال في شهرة العين بمسجد الحنفي بالقاهرة!!) ويثبتون هذه الأكذوبة بفرية أشنع منها!! فيقولون: إن رجلاً من مصر كان حاجاً فسقطت طاسة من يده في بئر زمزم، فلما حضر إلى القاهرة عثر عليها في تلك العين! ولهذا ترى كثيراً من الناس يتبركون بها ويستشفون بها.

ولقد بلغ من اعتقاد الناس في عين زمزم (وخصوصاً الدكارنة والهنود) أنهم يأتون بقطع طويلة من القماش ويعرقونها في مائها ثم ينشرونها على حصباء صحن الحرم، حتى إذا جفت حافظوا عليها وأوصوا بها لتكون كفناً لهم عند مماتهم. وبلغ من اعتقاد بعضهم فيها أنهم يرجون أن تكون هذه البئر المقدسة مقبرة لهم، حتى يكون لهم من بركتها وعالي مكانتها مقام كبير في حياتهم الأخرى!! ولقد حدث في سنة (١٣٢٦هـ) أن ألقى بعض الهنود بنفسه فيها حياً على غرة من خدمتها، فاهتم الناس لهذا الأمر واستدعوا بالغواصين من جدة للبحث عن جثته، ولم يعثروا عليها إلا بعد عناء شديد. فأخرجوها ونزحوا من البئر كمية كبيرة صلح معها ماؤها، أما هذا الجاهل فقد ذهب ولا أدري إلى رحمة الله أو إلى نقمته!!

ولقد أجمعت التواريخ العربية أن مبدأ ظهور هذه العين من عهد قدوم هاجر مع ولدها إسماعيل إلى مكة فكانت سبباً لعمارتها. وقد غاضت مياهها زمناً طويلاً، ولذلك يسمونها: المضمونة، وبقيت هكذا إلى زمن عبد المطلب فحفرها، واهتم بتوسعتها وتعميقها أبو جعفر المنصور والمأمون وغيرهما، ولا تزال محل عناية الملوك والسلاطين إلى الآن.

والأعراب يكادون يلصقون زمزم بنفس أركان الحج؛ فإن الشخص منهم يضيف زمزم إلى البيت الذي يحج إليه في نفس الأمر، وإذا حلف فإنه يقدم زمزم على مقام إبراهيم في قسمه فيقول: «والبيت الحرام وزمزم والمقام ما فعلت كذا مثلاً». وهذا قسم تصعد معرفتنا به إلى معرفتنا بالعرب من عهد إسماعيل، لذلك ترى الحجاج من الأعراب يدخلون إلى زمزم جماعات وزرافات آخذين في صدورهم كل من كان في طريقهم، حتى إذا وصلوا إلى الحوض الذي بجوار البئر نزحوا ما فيه على رؤوسهم، فيسيل الماء على ثيابهم إلى أن تبتل جميعها، ثم يخرجون فرحين مستبشرين تظللهم عصي خدمة العين التي لا تؤثر فيهم بالمرة دون القيام بهذا الواجب الأقدس.

وليس الاعتقاد في مثل ماء زمزم خاصًا بالمسلمين؛ فإن للهنود اعتقادًا عظيمًا في نهر الكنج وبحيرة مادن. والنصارى يعتقدون في ماء الأردن الذي يبعد بنحو عشرين كيلومترًا إلى شرق بيت المقدس ويسمونه: نهر الشريعة، لذلك ترى حجاجهم يذهبون إليه، ويتبركون بالاستحمام به في المكان الذي تعمّد فيه المسيح، ويأخذون من مائه في آنية من الصفيح يتهادون بها عند عودتهم إلى بلادهم. وأكثر النصارى اعتقادًا في ذلك الروسيون والأقباط؛ أما الإفرنج فاعتقادهم في ماء لورده (Lourdes) في جنوب فرنسا لا يقل عن اعتقادهم في ماء الأردن.

فشل الأمراء والملوك في تحويل الناس عن الكعبة

مما سبق ترى أن الكعبة مشرفة في الجاهلية، مشرفة في الإسلام. لذلك اجتهد غير واحد من الملوك قبل وبعد الإسلام في تحويل العرب عن وجهتهم للكعبة إلى شيء غيرها. وأول ما ذكر من ذلك أن تبعًا بن حسان ملك ملوك حمير، وهو عائد من حرب الأوس والخزرج ييثرب، أراد هدم الكعبة وكان يهوديًا منعه من ذلك من كان معه من أحبار اليهود، فكساها وعاد إلى بلاده. وقد كانت غطفان بنت حرمًا مثل حرم مكة في القرن الأول قبل الهجرة تقصد تحويل العرب إليه، وقد كان على العرب ملك اسمه زهير بن حباب، فلما بلغه ذلك قال: لا والله لا يكون ذلك أبدًا وأنا حي، ثم نادى في قومه وقال لهم: إن أعظم مآثرة ندخرها عند العرب أن نمنعهم من ذلك، فأجابوه إلى مراده وجرى بينهما قتال شديد ظفر فيه زهير وأبطل حرمهم. وفي نحو سنة (٦٠ قبل الهجرة) دخلت جيوش الحبشة إلى اليمن انتقامًا من «ذي يزن» ملك حمير الذي كان يفتك بنصارى نجران من قومه، فغلبوه على أمره وأخذوا البلاد ودانت لهم رقاب أهلها. ثم تفرد أبرهة الأشرم بالحكم فيها، وبنى في صنعاء - القليس - (الكليسة)، وأراد أن يحول إليها حج العرب، فسار بجيوشه إلى هدم الكعبة. فلما وصل الطائف عرج على مكة، وبعث من ساق إليه أموال أهلها وفيها مائتا بعير لعبد المطلب. فأتى أبرهة وطلب منه أن يردها إليه، فقال له أبرهة: «أتكلمني في إبلك وتترك بيتًا هو دينك ودين آبائك وأنت تعلم أني إنما جئت لهدمه؟!». فقال عبد المطلب: «أنا رب الإبل، وللييت رب يحمي».

فأعطاه أبرهة إبله فساقها هدياً، ودخل عبد المطلب مكة وهو يخاطب أهلها بقوله:

يأهل مكة قد وافاكمو ملك مع الفيول على أنيابها الزرد
هذا النجاشي قد سارت كتائبه مع الليوث عليها البيض تتقد
يريد كعبتكم والله مانعه كمنع تبع لما جاءها حرد^(١)

وزحف أبرهة على مكة، فلما وصل قريباً من المزدلفة عند جبال يسمونها جبال النار وجد نوعاً من الطير الأبايل^(٢) قد حلق على الجو وأخذ يرميهم بحجارة من سجيل «طين» بمقدار حبة العدس، فلما وصلوا مكة فشا فيهم داء الجدري الذي أصابهم ولا شك من مكروب كان كامناً في الحجارة التي كانت تتساقط عليهم من تلك الطيور، ويؤيده قول عكرمة: «إن من أصابته الحجرة جدرته». ولعل هذه الحجارة كانت في بيئة مجدورة في بلاد العرب أو في غيرها، فتشربت من هذه المكروبات وحملتها الطيور إلى هذه الجهة فكان منها ما كان. وكان مع جيش الحبشة ذلك الفيل الشهير عند العرب باسم محمود، وهو لفظ يصح أن يكون هندياً؛ إن لم يكن مغولياً، كان يطلق على نوع عظيم الخلق من الفيلة، ولا يزال هكذا مستعملاً في اللغات الإفريقية (Mamouth)، فأرادوا سوقه على مكة، فلم يتمكن من الحركة إليها ومات، ويقال: إنه دُفن بمكانه المشهور بباب جرول الذي يخيم عنده المحمل المصري، وكانت له قبة كسرها

(١) حرد يعني عصيان.

(٢) وهو مثل صغار العصافير السوداء، ونوعه لا يزال موجوداً بالحرم يعيش في قبابه. وهو معروف في مكة باسم أبايل، ويطلقونه على المفرد والجمع. وهو ما ذهب إليه أبو عبيدة والفراء حيث قالوا: لا واحد له من لفظه. وقال بعضهم: مفردة أبايل كسكين، أو أبال كغراب، أو أباله -بتشديد الباء وتخفيفها. وقال آخرون: إن أبايل وصف للطير بمعنى جماعات.

الشريف «عون الرفيق». ولما رأى أبرهة كثرة الأمراض التي تفتك بقومه هرب وتشتت شمل جيشه، وصادف قومه السيل فأغرق أغلبهم، وهلك الباقي في شتاته ولم يصل منهم إلى اليمن إلا من أخبر بحادثهم. وكان ذلك في عام ولادته صلى الله عليه وسلم، والعرب تسميه عام الفيل، وكانت تؤرخ به إلى الهجرة؛ فيقولون: وقع الأمر الفلاني قبل الفيل أو بعده بخمس سنين مثلاً. وذهب «ابن الكلبي» إلى أن واقعة الفيل كانت قبل ولادته صلى الله عليه وسلم بثلاث وعشرين سنة.

ولقد ذكر المؤرخ اليوناني مالالاس (Malala) في تاريخه الذي طبع في إكسفورد سنة (١٦٩١م) «أن أبرهة الأشرم في حملته على مكة كان يركب عربية يقودها أربعة من الفيلة». وقد قال «ابن الزبعرى» أبياتاً يشير فيها إلى هذه الحادثة منها هذان البيتان:

سائل أمير الجيش عنا ما ترى ولسوف ينبي الجاهلين عليمها
ستون ألفاً يثوبوا أرضهم بل لم يعيش بعد الإياب سقيمها

ومرض الجدري ما كان يعرف ببلاد العرب قبل هذا الوقت. وذكر المؤرخ بروكوبيوس (Procopé) الذي ولد سنة (٥٠٠ من الميلاد) ووصل إلى رتبة الوزارة في القسطنطينية في سنة (٥٦٢) أن أول ظهور الجدري في مصر كان سنة (٥٤٤ للميلاد) في مدينة بيلوسيوم؛ وهي مدينة عظيمة أطلالها بين بورسعيد ودمياط الآن، ونقل جراثيمه إلى القسطنطينية سنة (٥٦٩) وهي نفس السنة التي ظهر فيها المرض في جيوش أبرهة حول مكة، ولا يبعد أن الرياح أو الطيور نقلت إليها مكروبها في تلك الأثناء، فكان منها ما كان. ولا شك أن قوله هذا حجة لأن مصر كانت لذلك العهد من أعمال الإمبراطورية الرومانية. ويؤيد ذلك ما قاله الرحالة بروس (Bruce) الأيقوسي في رحلته إلى بلاد

الحبشة فيما بين سنتي (١٧٦٨ و ١٧٧٢م) التي كتب فيها عن كثير مما عثر عليه من الأمور التاريخية والجغرافية والتاريخ الطبيعى، وذكر فيما ذكره أنه رأى في كتب الحبشة أن أبرهة رفع الحصار عن مكة للمرض الذي أصاب جيشه إذ ذاك، واستنتج من صفاته أنه مرض الجدري الذي انتشر من ذلك الوقت في الشرق، وأخذ يفتك في الناس فتكاً مريعاً، حتى ألف فيه «الرازي» رسالته المشهورة في الجدري والحصبة. وهذه الرسالة لها قيمة كبرى عند أطباء الإفرنج للآن فخفت من مصابه كثيراً. غير أن هذا المرض الخبيث ما زال يفتك ببني الإنسان حتى اخترع الأستاذ (جونر) (Jonner) الإنكليزي مادة تلقيح الجدري، وأشهر أمرها سنة (١٧٦٩م) وباستعمالها خفت هذه المصيبة وأصبحت لا أثر لها تقريباً في البلاد المتقدمة؛ إلا أنها لا تزال موجودة بكثرة في البلاد العربية لعدم العناية بها. لذلك يجدر بكل من قصدها أن يلقح جسمه بهذه المادة قبيل سفره إليها. ومن أعجب ما شاهدت بالبلاد العربية عناية صاحب الجمل السليم بعدم قطره مع جمل أجرب خوفاً من سريان العدوى إليه؛ في حين أن العرب أنفسهم لا يهتمون بفصل الأجرب من بنينهم عن إخوته الأصحاء الذين لا يهتمون أن يصيروا طعمة لهذا الداء المهلك!!! والله في خلقه شئون.

وفي أيام المقتدر العباسي ظهرت في العراق طائفة القرامطة، وهم قوم ينسبون إلى موالاة محمد ابن الحنفية بن علي كرم الله وجهه، ويكفرون من لم يكن على مذهبهم. وأول من ظهر منهم «أبو طاهر القرمطي»، وقد بنى داراً في هجر^(١) سماها دار الهجرة، وأراد أن ينقل الحج إليها، لذلك كان يقصد الطرق الموصلة إلى مكة ويفتك بحجاج بيت الله الحرام؛ فانقطع الحج في أيامه خشية

(١) قرية مشهورة من أعمال البحرين.

منه. وسار القرمطي إلى مكة في عسكر كثيف أيام الحج ودخل بخيله ورجله إلى الحرم، ووضع السيف في الطائفين والعاكفين والركع السجود على بغتة منهم، وقتل في مكة وشعابها نحو ثلاثين ألفاً، واقتلع باب الكعبة وجرده مما كان عليه من صفائح الذهب، وأخذ جميع ما في خزينة بيت الله الحرام من المجوهرات الثمينة، واقتلع الحجر الأسود من مكانه، وانصرف به إلى بلاده، بعد أن هدم قبة زمزم!! وبقي مكان الحجر حالياً يتبرك الناس بمحله. وبعد موت «أبي طاهر» رأى قومه أن من المستحيل تحويل الحج عن الكعبة إلى بلادهم، فقام «شنبر بن الحسين القرمطي» بالحجر إلى مكة، وكان يحيط به برواز من الفضة يضبط بعض القطع التي تكسرت منه حين قلعه، فوضع في مكانه على الحالة التي تراه عليها الآن.

وفي سنة (٤١١) دخل رجل الحرم بصفة درويش وضرب الحجر بعمود من حديد كان معه؛ فقامت عليه الأهالي وقتلوه شر قتلة. وكانت قد تطيرت من الحجر ثلاث قطع مثل ظفر الإنسان، فأخذت وألصقت في مكانها بحيث لا يمكن ملاحظتها. ويزعمون أن «الحاكم بأمر الله الفاطمي» هو الذي كان أرسل ذلك الرجل حتى إذا كسر الحجر الأسود أمكنه تحويل وجهة المسلمين عن الكعبة إلى مسجده بجوار باب الفتوح بالقاهرة.

ولقد ذهب بعضهم إلى أن اهتمام «عبد الملك بن مروان» بعمارة بيت المقدس بالفخامة التي كان يعمره بها، إنما كان لصرف مسلمي الشام ومصر وما والاها شمالاً وغرباً إلى حجهم إليه إذا تمت الغلبة لابن الزبير على بلاد الحجاز. كما زعموا أن «المنصور العباسي» لما ابتنى مدينة بغداد وشيد فيها قصره المشهور بقصر الذهب بنى إلى جواره القبة الخضراء وبالغ في زخرفها

ليولي وجوه الناس شطرها. وهي تهمة لا نراها في مكانها؛ لما نعتقده من كمال دينهما ومتانة يقينهما، رحمهما الله.

هذا وإني أظن أن ما يجري للآن على لسان بعض السذج من فلاحي مصر من أنه يجيء يوم ينقطع فيه طريق الحج إلى مكة، وعندها يحج الناس إلى مقام السيد البدوي في طنطا، إنما كان أثرًا سياسيًا لبعض ملوك مصر يقرب به إلى الوهم إمكان حصول ذلك، حتى إذا سنحت له الفرصة مضى في سبيلها. ومع زوال هذه الفكرة بزوال صاحبها فإن هذا الأثر السيئ بقي على السنة بعض السذج للآن!! ومن هذا الجرأة التي ذهبت بتسمية بعضهم لقبة الميضاة التي نراها في وسط صحن مسجد ابن طولون في القاهرة بالكعبة، ولا أدري إذا كانت هذه التسمية قديمة على عهد ابن طولون فشك في علتها أو من وضعيات بعض الجهلاء، فنرجو الله أن يغفرها له.

لهذا كله ترى خدمه الكعبة الشريفة كلهم عيوبًا تباشر حركة الطائفين حول الكعبة المكرمة وخصوصًا الأعجام الذين ينسب لهم أهل مكة ظلمًا أنهم لا يتأخرون عن تدنيس الحجر الأسود إذا سنحت لهم فرصة تمكنهم من ذلك، ويقولون: إنهم دنسوه في سنة (١٠٨٨) وفي سنة (١١٤٣) وفي سنة (١١٥٥) حتى يصرفوا الناس عنه، وهو أمر إن لم يكن بعيدًا عن الصحة فلا شك في أنه مبالغ فيه؛ والسبب في ذلك هو كراهية أهل مذهب لمذهب آخر، يؤيده ما قاله «العصامي» في تاريخه من أنه رأى بنفسه القذارة على الحجر وعلى أستار الكعبة في سنة (١٠٨٨)، وظن أنها عجينة من دقيق العدس كان الغرض منها الإيقاع بأهل الشيعة.

أمّا ما حصل في سنة (١١٥٥) فأصله سياسي محض؛ ذلك أن ملك الفرس نادرشاه طومان أرسل إلى الشريف مسعود في تلك السنة يطلب منه ضرورة

إقامة صلاة خامسة في الحرم للشيععة، فأرسل الشريف بالخبر إلى الدولة العلية فاتهمته بأنه مشايخ للأعجام. فتخلصاً من هذه التهمة اتهمهم هو بهذه الفعلة الشنعاء حتى يوغر عليهم صدور الناس، وأمر بأن تلعن الرافضة على المنابر، ولا يزالون يلعنونهم عليها في الحرمين إلى الآن!!

هدايا البيت الحرام

لعظم مكانة بيت الله الحرام عند الناس كانوا يتقربون إليه قديماً وحديثاً بالهدايا الجزيلة والهبات الجليلة والحلي الفاخرة؛ فكانت تحفظ أولاً في بئر في الكعبة يسمونها غبغب^(١) أو ععبع، ولكن سدنتها كانت تلتهمها أولاً فأولاً. ومما وصل من هداياه القديمة إلى عبد المطلب جد رسول الله صلى الله عليه وسلم غزالان وسيفان من ذهب، كان ساسان^(٢) ملك الفرس أهداها إلى الكعبة (انظر: تاريخ ابن خلدون) فضربها صفائح وصفح بها بابها.

فلما كان عبد الله بن الزبير حلي أساطينها بصفائح الذهب. وأرسل عبد الملك بن مروان بثلاثين ألف دينار إلى عامله على مكة، خالد بن عبد الله القسري ليحلي بها باب الكعبة والأساطين التي في جوفها وأركانها من الداخل. وزاد في ذلك ولده الوليد في عمارته للمسجد الحرام. وأرسل الرشيد إلى عامله على مكة سالم ابن الحجاج بثمانية عشر ألفاً من الدنانير، فضربها صفائح سمّرت

(١) الغبغب في اللغة المنحدر، ولا يبعد أنهم كانوا ينحرون على حافته قرايينهم في الجاهلية، ولما جاء الإسلام سدت هذه البئر وأزيل ما حولها من الأصنام والأنصاب والأزلام.

(٢) ساسان هو رأس الدولة الساسانية التي حكمت بلاد الفرس في سنة (٢٢٥ ميلادية) إلى سنة (٦٥١) التي استولت فيها العرب على بلاد العجم.

على الباب، وجعل مساميرها وحلقتي الباب وعتبتها من الذهب. وذكر أن المتوكل العباسي عمر زاوية من زوايا الكعبة بالذهب (ولعلها كانت تشققت فملاًها ذهباً يربط به طرفيها، ولا يخفى أن هذه المادة تستعمل الآن لمتانتها في ربط الأجزاء الثمينة بعضها ببعض) ثم كسا عتبة الباب بالفضة، وعمل له عضادتين من الذهب بدل اللتين أخذهما بعض أمراء مكة. وذكر أيضاً أن أم المقتدر العباسي أمرت في سنة (٣١٠) فألبست جميع أسطوانات البيت ذهباً. حتى إذا دخلت القرامطة سنة (٣١٧) إلى مكة جردت البيت من جميع ما كان به من الحلي والذخائر.

وفي سنة (٥٥٢) اقتلع الخليفة المقتفي باب الكعبة وصنع عوضه باباً مصفحاً بالذهب وعمل من القديم تابوتاً له يدفن فيه بعد موته.

وقد كانت أيدي السلاطين والأمراء والملوك لا تقف في أي زمن من الأزمان عن تقديم الهدايا النفيسة إلى بيت الله الحرام، كما كانت يد الأشقياء لا تقف عن التطاول إليها! سواء في ذلك حجبها أو غيرهم!! ومن جدد بعض الحلي التي عبث بها هؤلاء الأشرار كثير من الملوك والأمراء نخس بالذكر منهم السلطان الناصر قلاوون، ثم السلطان سليمان القانوني، ثم السلطان مراد الرابع.

كسوة الكعبة

أمّا كسوة الكعبة فهي من زمن بعيد. وأول من كساها «تبع أبو كرب أسعد» ملك حمير، حين مر عليها راجعاً من غزوته ليشرب سنة (٢٢٠) قبل

الهجرة): كساها بالبرود والمقصة، وعمل لها بابًا ومفتاحًا، وفي ذلك يقول مفتخرًا:

ورد الملك تبع^(١) وبنوه
إذ جينا جياننا من ظفار^(٢)
فاستبحنا بالخيّل ملك قباد^(٣)
فكسونا البيت الذي حرم اللـ
وأقمنا به من الشهر عشرًا
ثم طفنا بالبيت سبعًا وسبعًا
ورثوهم جدودهم والجدودا
ثم سرنّا بها مسيرًا بعيدا
وابن اقلود^(٤) جاءنا مصفودا
هـ ملاء مقصبًا وبرودا
وجعلنا لنا به إقليد^(٥)
وسجدنا عند المقام سجدوا

وتبعه خلفاؤه فكانوا يكسونها بالجلد والقباطي (قمّاش مصري) زمنًا طويلاً. ثم أخذ الناس يقدمون إليها هدايا من الكساوي المختلفة فيلبسونها على بعضها، وكان إذا بلي منها ثوب وضع عليه ثوب آخر إلى زمن قصي، فوضع على القبائل رفادة لكسوتها سنويًا واستمر ذلك في بنيّه. وكان أبو ربيعة بن المغيرة قبل الإسلام يكسوها سنة وقبائل قريش تكسوها أخرى؛ فسمي بذلك العدل لعدله بين قبائل قريش في كسوة الكعبة. وقد كساها النبي صلى الله عليه وسلم بالثياب اليمانية. ثم كساها عمر وعثمان وابن الزبير وعبد الملك بن مروان. ولما حج الخليفة المهدي العباسي سنة (١٦٠) كان على الكعبة جملة

(١) تبع لقب كان يطلق على ملك ملوك حمير، وهو في قوة لفظ إمبراطور الآن.

(٢) ظفار كانت مدينة عظيمة من مدن اليمن، وأطلالها باقية إلى الآن فيما بين عدن وصنعاء، ولها إقليم يسمى إلى الآن باسمها.

(٣) ملك من ملوك العجم.

(٤) لعله أمير من أمراء العراق أو الشام.

(٥) الإقليد هو المفتاح.

كساوي فشكا إليه سدنيتها من كثرتها، فأمر بها فأنزلت تخفيفاً عن سقفها، وأمر بأن لا تعلق عليه إلا كسوة واحدة، فكان كذلك إلى الآن.

أمّا كسوتها من الداخل فقد ورد في «محاضرة الأوائل» للسكتواري أن أول من كسا البيت بالدياج والدة العباس بن عبد المطلب حين ضلّ العباس صغيراً، فنذرت إن وجدته لتكسون الكعبة؛ فوجدته ففعلت.

وكان العباسيون يبالغون في العناية بكسوتها، وكانت من الحرير الأسود (وهو شعارهم)، وكانوا يعملونها بمدينة تنيس المصرية التي كانت لها شهرة عظيمة في المنسوجات الثمينة (انظر: مادة تنيس بالمقريزي) وكانت ثغراً لمصر في شمال دمياط، فهدمها الملك الكامل سنة (٦٢٤) لكثرة ما كانت توقع بها مراكب الفرنجة في الحروب الصليبية، ولما كانت تتكلفه مصر في المحافظة عليها، ولا تزال أطلالها موجودة قرب مدينة المطرية (دقهلية). وقد قال «الفاكهي» في «أخبار مكة»: رأيت كسوة مما يلي الركن الغربي (من الكعبة) مكتوباً عليها: «مما أمر به السري بن الحكم وعبد العزيز ابن الوزير الجروي بأمر الفضل بن سهل ذي الرئاستين وطاهر بن الحسين سنة سبع وتسعين ومائة». ورأيت شقة من قباطي مصر في وسطها مكتوباً في أركانها بخط دقيق أسود: «مما أمر به أمير المؤمنين المأمون سنة ست ومائتين» ورأيت كسوة من كساوي المهدي مكتوباً عليها: «بسم الله بركة من الله لعبد الله المهدي محمد أمير المؤمنين أطال الله بقاءه، مما أمر به إسماعيل بن إبراهيم أن يصنع من طراز تنيس على يد الحكم بن عبيد سنة اثنتين وستين ومائة». ورأيت كسوة من قباطي مصر مكتوباً عليها: «مما أمر به عبد الله المهدي محمد أمير المؤمنين أصلحه الله، محمد بن سليمان أن يصنع من طراز تنيس كسوة الكعبة على يد الخطاب بن مسلمة عامله سنة تسع وخمسين ومائة». وكان من أعمال تنيس قرية

يقال لها: تونة، وكانت تصنع بها كسوة الكعبة أحياناً. قال «الفاكهي»: ورأيت أيضاً كسوة لهارون الرشيد من قباطي مصر مكتوباً عليها: «بسم الله بركة من الله للخليفة الرشيد عبد الله هارون أمير المؤمنين أكرمه الله، مما أمر به الفضل بن الربيع أن يعمل من طراز تونة سنة تسعين ومائة».

وما زال العباسيون يهتمون بأمر كسوة الكعبة حتى إذا ضعف أمرهم صارت ترسل تارة من ملوك اليمن وأخرى من ملوك مصر، إلى أن استقرت في سلاطين مصر فوقف عليها الملك الصالح ابن الملك الناصر بن قلاوون قرיתי باسوس وسنديس من أعمال القليوبية. ومن ثم صارت ترسل الكسوة الخارجية السوداء إليها سنوياً. وكان كلما يتجدد ملك أو سلطان يرسل للكعبة بكسوة داخلية من الحرير الأحمر، وبأخرى خضراء للحجرة الشريفة النبوية. فلما استولت الدولة العلية على مصر اختصت بكسوة الحجرة الشريفة النبوية وكسوة البيت الداخلية، واختصت مصر بكسوة الكعبة الخارجية. ومن ذلك الوقت صارت هذه الكسوة المباركة ترسل من مصر سنوياً: وهي ثمانية ستائر من الحرير الأسود المكتوب بالنسيج في كل مكان منه: «لا إله الا الله، محمد رسول الله». وطول الستارة نحو خمسة عشر متراً، ومتوسط عرضها خمسة أمتار وبعض ستيمرتات. وكل ستارتين تعلقان على جهة من جهات الكعبة، فتربطان من أعلاها في حلقات من الحديد غاية في المتانة قد تثبتت في سقف الكعبة، ثم تربطان إلى بعضهما بواسطة عُرَى وأزرة، وتثبتان من أسفل في حلقات وضعت في الشاذروان، وهكذا كلما وضعت ستارة تثبتت في التي بجوارها بواسطة هذه الأزرة، حتى إذا انتهت كلها صارت كالقميص المربع الأسود، ثم يوضع على محيط البيت المعظم فوق هذه الستائر فيما دون ثلثها إلا على حزام يسمى رنكا، مركب من أربع قطع مصنوعة من المخيش المذهب

مكتوب فيه بالخط الجميل العربي آيات قرآنية، كتبها مع غيرها من أعمال الكسوة الشريفة (في زمن المرحوم إسماعيل باشا خديوي مصر) الخطاط الطائر الصيت النادرة النابغة المرحوم/ عبد الله بن زهدي، أحسن الله إليه. ومكتوب على الحزام من الجهة التي فيها باب الكعبة: «بسم الله الرحمن الرحيم: {وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلًى، وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود. وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم. ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا، إنك أنت التواب الرحيم}». ومكتوب في الجهة التي تليها من جهة الحجر الأسود: «بسم الله الرحمن الرحيم: {قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين. إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدي للعالمين، فيه آيات بينات مقام إبراهيم}. بسم الله الرحمن الرحيم: {وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئاً، وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود، وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق}». ومكتوب في الجهة المقابلة للمقام المالكى: {ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير، ثم ليقضوا نفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق}». ومكتوب في الجهة الرابعة -وهي التي بها الميزاب-: «في أيام دولة مولانا السلطان الأعظم ملك ملوك العرب والعجم السلطان محمد الخامس خان ابن السلطان عبد المجيد خان ابن السلطان محمود خان الغازي ابن السلطان عبد الحميد خان ابن السلطان أحمد خان ابن السلطان محمد خان

ابن السلطان إبراهيم خان ابن السلطان مراد خان ابن السلطان عثمان خان،
خلد الله ملكه».

والكسوة الشريفة تعمل في مصر سنوياً بدار فسيحة بالخرنفس وإدارتها
موكولة لمديرها الهام صديقنا «عبد الله فائق بك» الذي ترقى الكسوة في مدته
رقياً ظاهراً باهراً بالتحسينات التي يدخلها عليها من آنٍ إلى آخر.
ومصاريف الكسوة تصرف الآن من المالية، وميزانيتها سنوياً (٤٥٥٠
جنيهاً مصرياً) وبيانها هكذا:

جنيه	
٥١٥	ثمن مخيش فضة وملبس بالذهب ١٤٩٣٥ مثقالاً، و٣٨٠٥ مثقالاً فضة بيضاء.
١٦٦٤	أجرة شغالة في الزركشة، وعددهم ٤٧ نفرًا.
١١١١	ثمن حرير وأجرة نسيج، والذين يشتغلون فيه عددهم ٧٠ نفرًا.
٢٠٠	ثمن أدوات للتشغيل مثل بفتة وخلافها.
١٥٠	مصاريف ليلة المهرجان المعتاد عمله للاحتفال بموكب الكسوة السنوي.
٦٠	عوائد تصرف للشغالة يوم نهاية عمل الكسوة.
٨٥٠	ماهيات مستخدمين ومرتبات خدمة إدارة الكسوة.
٤٥٥٠	الجملة

إلا أن الجناب العالي الخديوي بعد عودته من الأقطار الحجازية أمر -
حفظه الله- بزيادة العناية بالكسوة الشريفة؛ مما زاد في ميزانيتها وسيزيد في
بهائها وروائها.

ويتبع هذه الكسوة الشريفة ستارة باب الكعبة من خارجها ويسمونها بالبرقع، وستارة باب التوبة من داخلها، وكيس مفتاح بيت الله الحرام، وكسوة مقام الخليل إبراهيم عليه السلام، وستارة باب منبر الحرم الشريف وهي من الأطلس المصنوع بالمخيش الذهبي والفضي.

وعند إتمام عمل الكسوة يعمل لها موكب عظيم في نحو منتصف شهر ذي القعدة يحضره الجناب العالي الخديوي أو نائبه، فيسيرون بها في موكب فخيم من المكان المعروف بمصطبة المحمل إلى مسجد سيدنا الحسين رضي الله عنه، حيث يسلمها حضرة مأمور تشغيلها إلى المحامي في مجلس يعقد بحضور نائب من قبل سماحة قاضي مصر وبشهادة حضرة أمير الحاج للسنة المرسله فيها، وبعد أن يعمل بذلك إشهاد شرعي توضع في صناديق وترسل مع ركب المحمل إلى مكة. ويرسل معها غلايتان من النحاس مملوءتان بهاء الورد النقي لغسيل الكعبة المكرمة.

وهناك تسلم الكسوة لحضرة الشيبني القائم بسدانة الكعبة بإشهاد شرعي يحضره العلماء والكبراء، فتبقى في منزله إلى صباح يوم عيد النحر، فيؤتى بها على أعناق الرجال وتعلق على الكعبة بعد إنزال الكسوة القديمة، ويكون المسجد عادة خلواً من الناس؛ لأن سوادهم يكون بمنى، ولا يصبح مكة منهم إلا نفر قليل.

أما الكسوة القديمة فيرسل المقصب منها عادة إلى سيادة الشريف، وإذا كان الحج بالجمعة يرسل إلى جلالة السلطان، والغير المقصب يأخذه الشيخ الشيبني فيبيعه على الحجاج، وبجوار باب السلام دكاكين مخصوصة لذلك. وقبيل الحج يقطع الشيبني نحو مترين من أسفل ستائر الكعبة ويعوضها بإزار من البفتة البيضاء يسمونه إحراماً، وليس لهذا عندي من معنى، اللهم إلا لحاق

الوقت لبيعه قبل الموسم على الحجاج بثمان كبير. وكان «عمر» ينزع الكسوة القديمة كل سنة ويفرقها على الحجاج، وتبعه في ذلك «عثمان»، إلى أن وجد شيئاً منها على حائض فأمر بحفر حفرة وألقى فيها الكسوة القديمة وأهال عليها التراب عليها؛ خوفاً من أن يلبسها جنب أو حائض، فقالت له عائشة: «إن ثياب الكعبة إذا نزعت عنها لا يضرها من لبسها من حائض؛ ولكن بعها واجعل ثمنها في سبيل الله تعالى وابن السبيل». ومن ثم صاروا يبيعونها، وهم يأخذون ثمنها الآن لأنفسهم.

ولم يكن بيع أستار الكعبة أو كسوة مقام الرسول صلى الله عليه وسلم للتبرك بهما مما يؤخذ على المسلمين في دينهم الذي لم ينص فيه على شيء من ذلك؛ لأن الاعتقاد في آثار الأنبياء والصالحين شيء قديم في جميع الشعوب. واعتقاد النصارى من الفرنجة في آثار البابا عظيم جداً؛ فقد حدثني صديقي «عزيز بك الفلكي» أن خالته (وهي فرنساوية الجنس، كاثوليكية المذهب) كان عندها قطعة صغيرة من نعل البابا (بي) التاسع طولها ٢ سنتيمتر في عرض نصف سنتي، اشترتها بأربعين جنيهاً وغلفتها بصفيحة من الذهب، وكانت تحملها تيممة ثمينة تتقي بها جميع الأمراض والطوارئ السيئة. على أن مجرد الاعتقاد في مثل هذه الأمور لا يخلو من الفائدة الفعلية.

المحمل

ذهب بعض المؤرخين إلى أن المحمل يبتدئ تاريخه من سنة (٦٤٥ هجرية)، وقالوا: إنه هو الهودج الذي ركبت فيه شجرة الدر ملكة مصر في حجها في هذه السنة، وصار بعدها يسير سنوياً أمام قافلة الحاج، وليس فيه أحد لأن مكان الملوك لا يجلس فيه غيرهم.

والذي أراه أن المحمل قديم جداً، وربما كان من قبل الإسلام، وكان يطلق على الجمل الذي يحمل الهدايا إلى الكعبة المكرمة، وقد سیر رسول الله صلى الله عليه وسلم محملاً إلى مكة بهداياه إلى البيت المعظم، ومن ذلك ما نراه في التواريخ من اسم: المحمل العراقي، والمحمل اليمني، وما نشاهده الآن من محمل ابن الرشيد^(١)، ومحمل ابن سعود، ومحمل ابن دينار، وكل ذلك ليس إلا جملاً تحمل صرتهم إلى الحرمين مغطاة بقطعة بسيطة من الجوخ، وكذلك محمل النظام ملك حيدر آباد الهند يأتي مكة مع الحاجين من بلاده حاملاً هداياه إلى أهل الحرمين الشريفين. ولقد جاء في الكلام على دارفور في «تاريخ السودان» لنعوم بك شقير تحت عنوان «صرة الحرمين» ما نصه: «وكانت سلطنة الفور مستقلة عن دول الأرض كلها لا تدفع جزية لأحد ما عدا الحرمين الشريفين؛ فإنها كانت تخدمهما بمحمل وصرة كل سنة، فكان موكب المحمل يأتي^(٢) إلى

(١) وأمير محمل ابن الرشيد يسمونه سهان.

(٢) أما الآن فمحمل ابن دينار يتوجه إلى الخرطوم، ومنها بالطريق الحديدي إلى بورسودان، ومنها يبحر إلى جدة.

مصر ومعه الريش والصمغ وغيرهما من خيرات البلاد، فيبيعها ويتم بثمنها نقود الصرة، ثم يستطرد الحج إلى الحرمين مع الركب المصري).

وعليه فمحمل شجرة الدر إنما كان يسير أمامها حاملاً الهدايا التي أخذتها معها للبيت المكرم في هودج مزين بأبهى زينة، وغاية ما هناك أنها عنيت به ورتبت له كثيرًا من الخدم والحشم، ومن ثم صار عادة تقوم بها ملوك مصر كل سنة، وما زالوا يبالغون في زينتته من سنةٍ لأخرى حتى صارت كسوته بحيث لا يستطيع الجمل حمل غيرها معها، (وكسوة المحمل الحالية مع هيكله الخشبي لا تقل عن ١٤ قنطارًا)، وصار ما كان يحمل عليه من الهدايا يحمل في صناديق على جمال أخرى تسير مع الحملة.

ويعمل للمحمل يوم خروجه من مصر احتفال كبير من أيام الدولة الأيوبية. وهذا الاحتفال الآن له يوم مشهود بالقاهرة تمشي فيه الجنود الراكبة والبيادة وحرس المحمل وركبه وخدمته من ضوية وعكامة، يتقدمهم أمير الحج الذي يعينه الجناح العالي الخديوي سنويًا، وهو من الباشوات العسكريين في الغالب، وبعد أن يدور المحمل دورته المعتادة في ميدان القلعة يمر على المصطبة؛ وهي المكان المعد لجلوس الجناح العالي الخديوي يوم هذا الاحتفال ومعه رجال حكومته السنية من الوزراء الفخام والعلماء الأعلام وكبار وذوات العاصمة، وهنالك يأتي حضرة مأمور الكسوة الشريفة وييده زمام جمل المحمل فيستلمه الجناح العالي منه ويسلمه إلى أمير الحاج، وعندها تضرب المدافع ويسير الموكب تتقدمه أشاير السادة الصوفية، ثم الجنود، ثم جمل المحمل يتقدمه أمير الحاج ويتلوه المحاملي والحمالة، ثم الفرائحية (الطبالون) على جماهم. ويستمر هذا الموكب سائرًا إلى المحجر، فالدرب الأحمر، ويمر من بوابة المؤيد، فالغورية، فالنحاسين، فباب النصر، فالعباسية. وهنالك يتفرق

الموكب وينزل ركب المحمل إلى خيامهم التي ضربت لهم في فضاء العباسية، وينصب المحمل في وسط ساحتها ليزوره من يريد التبرك به، حتى إذا كان يوم السفر إلى السويس نقلوه مع أدواتهم وذخائرهم إلى وابور المحمل الذي يكون مهياً في محطة العباسية، وبعد الشحنة يسير إلى السويس ومنها يبحر إلى جدة، ثم يقصد مكة براً.

وفي سنة (١٣٢٨) سافر المحمل مع قوته على الإسكندرية وعمل له فيها احتفال عظيم يوم (١٠ نوفمبر سنة ١٩١٠) حضره الجناب العالي الخديوي ومنها أبحر إلى يافا، وركب الوابور إلى المدينة المنورة، وبعد الزيارة سافر إلى مكة من الطريق الفرعي، وبعد أداء فريضة الحج عاد إلى جدة ومنها إلى الطور ثم إلى السويس ثم إلى القاهرة. والحكومة الآن تهتم في تقرير قاعدة لسيهه في الطريق الأقل كلفة ومشقة.

وللمحمل المصري كسوتان: كسوته اليومية؛ وهي من القماش الأخضر، وكسوته المزركشة ولا يلبسها إلا في المواكب الرسمية. وفي أيام وجوده بمكة يوضع فيها بين باب النبي وباب السلام بكسوته اليومية. فيكون هناك مزاراً للناس على اختلاف أجناسهم، ولا ينقلونه من هذا المكان إلا في مواكبه الرسمية. وعند السفر به إلى المدينة المنورة يسير إليها ركبته؛ إمّا بالبر من الطريق السلطاني أو الفرعي أو الشرقي، وإمّا من طريق البحر من جدة إلى ينبع، ومنها براً إلى المدينة أو إلى الوجه، ومنه إلى محطة العلا، ثم يتوجه في السكة الحديدية إلى المدينة. والمحمل الآن يسير في هذا الطريق الأخير لتعنت أعراب الطريق البري من مكة وينبع وتشددهم في طلباتهم وزيادة مرتباتهم.

وعند وصول المحمل إلى المدينة المنورة يدخلها باحتفال كبير من باب العنبرية، وهنالك يطلق له واحد وعشرون مدفعا، حتى إذا وصل إلى الباب

المصري تَرَجَّل كل من في موكبهِ إجلالاً لمقام الرسول صلوات الله عليه، فإذا وصلوا إلى باب السلام أتى شيخ الحرم واستلم زمام الجمل وأصعده على سلم الباب وأناخه على تلك الصدفِة الواسعة، وهنالك يرفع المحمل ويوضع في مكانه من الحرم غربي المنبر الشريف، وترفع كسوته المزركشة ويلبسونه الكسوة الخضراء، ويلبس أمير الحاج ومن معه من المستخدمين لباس الخدمة في الحجرة الشريفة (وهو عمامة وفرجية بيضاء مشدود عليها حزام أبيض)، ثم يحملون كسوة المحمل بكل احترام ويدخلونها في الحجرة الشريفة من الباب الشامي ويتركونها في جانب من ساحة مقام السيدة فاطمة رضي الله عنها. ولا تزال بالحجرة الشريفة حتى يخرجوها يوم سفر المحمل من المدينة المنورة. ويركبون بها في يوم خروجه من المدينة كما كانت الحال في يوم دخوله.

وعند عودة المحمل إلى مصر يحتفل بقدومه رسمياً احتفال كبير يحضره الجناب العالي الخديوي أو من ينبيه عنه، فيسير الموكب من العباسية إلى القلعة من الطريق التي كان خرج منها، حتى إذا وصل إلى مكان الجناب العالي الخديوي في المصطبة استلم سموه زمام الجمل من أمير الحاج وسلمه إلى حضرة مأمور تشغيل الكسوة، وعندها تطلق المدافع ويتم الاحتفال. وتحفظ كسوة المحمل بمخزن في المالية، وهذه الكسوة تجدد كل عشرين سنة مرة، وتبلغ تكاليفها نحو ألف وخمسمائة جنيه مصر. أمَّا كسوته الخضراء فيكسى بها سنوياً بعد عودته ضريح سيدي يونس السعدي (بجبانة باب النصر) وأظن أنه كانت له مدة حياته خدمة في سفريّة المحمل.

وإليك كشفاً ببيان ما يصرف من المالية سنوياً في تسفير المحمل، والمرتببات الجاري صرفها في مكة والمدينة المنورة حسب الوارد في الميزانية الأخيرة:

جنيه	
١٢٨٢	مرتبات وتعيينات لأمر الحاج ومستخدمي المحمل.
٢٥١١	مرتبات العربان.
١٤٩٣	مرتبات الأشراف بمكة والمدينة المنورة.
١٩٦١	مرتبات تكية مكة.
١٦٥٧	مرتبات تكية المدينة المنورة.
٢٨٧٩	مرتبات أهالي مكة والمدينة.
٣٠٠٠	مرتبات لمكة والمدينة تصرف سنوياً من أوقاف الحرمين والأوقاف الخصوصية والأهلية والخيرية ومن الخاصة الخديوية والمالية.
٢٢٥٠٠	ثمن ومصاريف قمح الصدقة بمكة والمدينة.
١٦٢٩	مرتبات شمع وقناديل للحرمين.
١٥٥	مرتبات خيام وقرب وخلافها.
٤٢٤٨	أجرة منقولات برّاً وبحراً، وأجر جمال.
٦٤٢٠	قيمة ما يرسل كل سنة إلى الحرمين الشريفين من الزيوت والحصص وخلافها من ديوان الأوقاف.
٢٦٥	مصاريف نثرية.
٥٠٠٠٠	مجموع المنصرف سنوياً.

وإذا قارنت هذا المبلغ بما جاء في «المقريزي» عند الكلام على قافلة الحاج وجدت أنه نحو نصف ما كان يصرف عليها في زمن الفاطميين. قال «المقريزي»: «قال في كتاب «الذخائر والتحف»: إن النفقة على الموسم كانت في كل سنة تسافر فيها القافلة مائة ألف وعشرين ألف دينار؛ منها ثمن الطيب والحلوى والشمع راتباً في كل سنة عشرة آلاف دينار، ومنها نفقة الوفد الواصل إلى الحضرة أربعون ألف دينار، ومنها في ثمن الحميات والصدقات

وأجرة الجمال ومعونة من يسير من العسكرية وكبير الموسم وخدم القافلة وحفر الآبار وغير ذلك ستون ألف دينار، وأن النفقة كانت في أيام الوزير البازوري قد زادت في كل سنة وبلغت إلى مائتي ألف دينار، ولم تبلغ النفقة على الموسم مثل ذلك في دولة من الدول».

ولقد كان لركب المحمل في الدولة المصرية شأن كبير ومقام خطير، وكانت مرتبة أميره في المرتبة الثالثة من مراتب الدولة، وكان صاحبها في عهد المماليك مرشحاً لأن يكون حاكماً للعاصمة التي هي أهم وظيفة عندهم بعد وظيفة الوالي والسلطان، وله رأي مسموع وكلمة محترمة، وكانت وظيفته مستديمة وتوليته بفرمان سلطاني، وله المكانة العليا والكلمة النافذة في بلاد الحجاز، وكثيراً ما كان يصدر أمره بعزل وتولية أمراء مكة. ولقد بلغ من مبالغة ملوك مصر بالاحتفاء بالمحمل أنهم قضوا على جميع حكام البلاد التي كان يمر عليها في طريقه بأن يقبلوا خف جمل المحمل عند استقباله، وما زالت أمراء مكة يقبلونه أيضاً في استقبالهم له، إلى أن أعفاهم من ذلك السلطان «جقمق» في سنة (٨٤٣). وكان الاحتفال بطلوع وعودة المحمل مدة سيره على البر في أواخر زمن إسماعيل من الفخامة بمكان عظيم، وكانوا عند عودته يبلون السكر فرحاً به في أحواض كبيرة يشرب منها الغادون والرائحون مدة ثلاثة أيام، وهي عادة قديمة جداً. وكان يسافر في خدمته غير مستخدميه من أمير وأمين صرة وكتبة وصيارف، وكثير من الخدم والحشم والعكامة والحماله والفرامية والنجارين والفراشين والخيمية والسقائين، وكان ضمن وظائف المحمل وظيفة اسمها «أمين الكساوي والحلويات» ومن شأنه توزيع الحلويات والكساوي التي كانت ترسل للعرب، واستعيض عنها الآن بصرف أثمانها لأربابها. وكان يخرج معه موظف برسم مأمور الذخيرة في عهده بقسماط

الذي كان يؤخذ لما عساه يحصل في الأيام الغير المعتادة التي كانوا يحتاجون فيها للصرف على الحجاج إذا قضت الضرورة. وكان من ضمن خدمته رجل يقال له: شيخ الجمل، وآخر اسمه أبو القطط، ثم سائس الهرجلة (الهركلة) ومقدم العيط، ثم سواق المقاطيع، وكانت وظيفة الأول أن يشتري الجمال اللازمة للمحمل، ويركب وراء جمل المحمل في موكبته لملاحظته في سيره من الخلف، كما يلاحظه المحامي في سيره من الأمام. أمّا الثاني فيقولون: إنه كان يقوم بغذاء القطط التي كانت تتبع ركب المحمل مدة سفره في البر، ويقول آخرون: إنما كان هذا اسمه؛ أمّا وظيفته فهي التي غيروها بوظيفة إمام المحمل. ويقال: إن وظيفته كانت من عهد حج شجرة الدر. أمّا الثالث فقد كان رئيسًا للصوية والعكامة يستدعيهم عندما تكون هناك حركة مهمة، فيأتون بغير نظام بين صياح وهياج وكلام. والرابع كان يباشر الذين يقعد بهم المرض أو ضيق ذات اليد عن الاستمرار مع الركب. وجميع هؤلاء كان تعيينهم بفرمانات مخصوصة بعضها من السلطنة، وبعضها من ولاية مصر، ولهم مرتبات بالرزنامة من عهد بعيد. وقد استغني الآن عن كثير منهم في سفريّة المحمل لعدم الحاجة إليهم مع صرف مرتباتهم لهم، كما استغني أخيرًا عن وظيفة أمين الصرة التي يؤديها الآن واحد من كتبة المالية تنتدبه النظارة لذلك.

وكان للمحمل عشرون جملًا لهذه المأمورية. وكان لها مناخ في بولاق بجوار شيخ اسمه سيدي سعيد. وكانت الحكومة في الزمن السابق تشتري مع هذه الجمال جملًا تجعله فداء عنها كل سنة، فيأتي به الحمالة قبل موكب الحج ويركبون عليه شيخ الجمل ويسيرون به ومعهم العكامة والصوية وأمامهم الفرائحية يحيط بهم كثير من الغوغاء، ويمرون في القاهرة، ثم يذهبون إلى باب الشيخ سعيد، ويذبحونه هناك. وكان المحامي يأخذ رבעه، والحمالة رבעه،

وخدمة الشيخ سعيد ربه، وخدمة الشيخ يونس الربع الباقي. وكانوا يبيعون لحمه إلى الناس على سبيل البركة، مدعين أن لحمه ينفع للصداع وشحمه للبواسير، ولذلك فإنهم ما كانوا يلقون به إلى الأرض بقصد ذبحه، حتى يهجم عليه الحاضرون من العامة ويقطعونه إربًا إربًا بمداهم قبل ذبحه، ويأخذ كل منهم ما تسمح به قوته. وكان كثيرًا ما يؤدي ذلك إلى ضررٍ جسيم يستهين به هؤلاء الجهلاء في جانب هذا الاعتقاد السخيف. فلما بلغ ذلك الجنب العالي - حفظه الله - أمر بإبطال هذه العادة الشنيعة مع صرف قيمة ثمن الجمل إلى أربابه، جزاه الله عن الدين والإنسانية أحسن الجزاء.

حمام الحمى

حمام الحرم المشهور بحمام الحمى يملأ سطوح المسجد الحرام ومنافذه وطاقاته. فتجده معشًا هنا وهناك، ويجتمع زرافات زرافات في جهات كثيرة من صحن الحرم، وعلى الخصوص في الجهة الشرقية، وله فيها مكان مخصوص فيه أحواض لشربه، وبجواره مكان يلقي فيه حب القمح المرتب له من أوقاف مخصوصة. وكثيرًا ما تراه في الجهة الغربية، حيث يوجد غير واحدة من فقراء القوم يبعن حب القمح للحجاج والزوار بقصد إلقائه إلى جيوش هذه الحمامات المستأنسة، التي تكاد ترفرف على رؤوس الناس؛ لأنها لم تعرف منهم في حياتها إلا كل لطف وأنس. وليست هذه الخصيصة قاصرة على نوع الحمام، بل كل حيوان دخل الحرم فهو آمن، حتى ذهب بعضهم إلى عدم قتل الحية أو العقرب في الحرم؛ احترامًا له وإكرامًا لها فيه. وانفراد الحمام بوجوده في الحرم لا أظنه إلا لسهولة أنسه وقلة جفائه. ومن أغرب ما يروى عنه أنه مع كثرتة في

الحرم لم يشاهد منه شيء على الكعبة إلا نادراً جداً. وفي الجهة الشرقية من مكة تحت جبل أبي قبيس بئر يقال لها: بئر الحمام، يجتمع عندها كثير منه ليشرب بحريته ثم يذهب إلى حيث أراد. وهذه البئر قديمة جداً، وأظنها من زمن الجاهلية. كما أني أظن أن احترام الحمام هنا أيضاً من زمن بعيد. وعلى كل حال فهو مكرم للبيت سواء قبل الإسلام وبعده. والقول بأنه من نسل تلك الحمامة التي عششت في الغار على النبي صلى الله عليه وسلم إنما يزيد في احترامه وإعظامه.

وليس الحمام بمحترم فقط هنا؛ بل هذه عادة قديمة جداً؛ فبنو نوح كانوا يكرمونه لأنه أول من بشرهم بظهور اليايسة مدة الطوفان. واحترامه عند النصارى يقرب من درجة التقديس؛ لأنه يمثل عندهم روح القدس، ويقولون: إنه عندما كانوا يغسلون المسيح في نهر الأردن وهو صغير جاءت حمامة وحطت على رأسه، لذلك يرسمونها في كنائسهم وعلى صورهم الدينية بكثرة. ومن هذا ترى الحمام قد أطلقت له الحرية في كنائس القوم في أوربا؛ وخصوصاً في كنائس إيطاليا والنمسا وبعض كنائس فرنسا، وقد تعدى هذا الكنائس إلى منافذ المساكن وكرانيشها وأسطحتها وأشجار الشوارع العمومية وبساتينها؛ فإذا ذهبت إلى فيينا أو روما مثلاً وجدته هنا وهناك في كل مكان من غير أن يؤذيه أي إنسان. وأثر هذه العقيدة باق في الحمام الذي لا يزال في مدينة القسطنطينية إلى يومنا هذا، وتراه على الخصوص في مسجد بايزيد ومسجد أبي أيوب الأنصاري؛ غير أن أهل الأستانة قد بالغوا في إكرامه حتى حَرَّموا ذبحه، فهم لا يأكلونه أبداً سواء في ذلك مسلموهم ونصاراهم ويهودهم. أمّا ما ذكر من أن المسلمين يعتقدون أن حمام الأستانة من ذرية حمام الغار (الذي يقولون عنه: إنه كان يخبر الرسول بجميع ما كان يفعله المشركون) فإنه لا أصل له

عندهم، كما لا أصل في دينهم لتلك المأمرية التي كان يؤديها حمام الغار. والشيعه من العجم يعتقدون مثل هذا الاعتقاد في حمام الحرم، ويزعمون أنه هو الذي أخبر أهل المدينة المنورة بقتل الحسين رضي الله عنه.

والصينيون يستعملون الحمام من زمن بعيد في استكشاف بحثهم على مثل ما يستعمله بعض الأروام الآن في طرقات مصر؛ فيأتون للحمام بطبق فيه جملة أوراق مطوية مكتوب فيها شيء من الخير والشر، فتأتي الحمامة وتستخرج بمنقارها واحدة يكون منها فألهم، ويسمون هذه الحمامة باك - كوب - بن (Pak-pko-Pin) يعني: الحمامة ذات الورقة البيضاء.

ولقد كان الحمام عند الساميين هو الحيوان المقدس للإله عشطورت (Astarte). وكان عند الفنيقيين واليونانيين والسوريين يمثل السماء والنجوم. وأظن أن احترامه عند العرب في الجاهلية لم يأت إلا من هذا الطريق. ولذلك كانوا يضعون تمثال حمامة داخل الكعبة بجوار تمثال هبل، ولقد ورد في «سيرة ابن هشام» عن صفية بنت شيبه أن النبي صلى الله عليه وسلم لما نزل مكة بعد الفتح وطاف بالبيت، دعا عثمان بن طلحة وأمره بفتح الكعبة، فلما دخلها وجد فيها حمامة من عيدان فكسرها بيده ثم طرحها.

على أنا لو صرفنا النظر عن كون الحمام لطيفاً في شكله، أنيساً في نوعه، جميلاً في صورته، نظيفاً في لباسه، يمثل في عائلته المحبة الحقيقية والشفقة الحسية، فإننا نرى فيه درساً عائلياً كبيراً: نرى الذكر منه مع أنثاه يعملان لحياتهما وحياة عائلتهما عمل المجدين المجتهدين، حتى إذا فرغا من واجبهما الأهلي يفرغا إلى حياتهما الزوجية: فتراهما بين تواق وتعاشق وتعانق، لا ينفصلان إلا ليتصلا، ولا يفترقان إلا ليتجمعا، في جلايب جمال، وأساليب دلال، مما لا يرى له مثال في زوجين من غير نوعهما على كل حال.

على أنَّ الحمام له على الإنسان خدمة تذكر فتشكر؛ فقد كان من القرن الثامن قبل المسيح إلى منتصف القرن التاسع عشر يؤدي وظيفة التلغراف بين الأمم المختلفة، حتى أعلن مرس ووطسون سنة (١٨٤٤م) تلغرافهما الكهربائي، الذي لا يشك أحد في أنه أفاد العالم بأسره فائدة جسيمة، وكان من أكبر الأشياء التي ساعدت على التمدن العصري وانتشاره بسرعة. ولكن هل هذه الفوائد الجسام تنسينا فضل ذلك الحمام؟

ولتكملة الفائدة نقول لك: إن أول من استعمل الحمام في الزجل هو رجل من جزيرة أوجين (من جزر اليونان) أتى في سنة (٧٧٦ قبل المسيح) إلى آتينا ليحضر الألعاب الأولمبية، واستحضر معه حمامة كانت عنده أخذها من بين أفراخها. فلما برز في هذه الألعاب أرسل الحمامة فذهبت إلى عشها. ومن قدومها علم أهل الرجل بنجاحه في مأموريته. ومن ثم استعمله اليونان والرومان والعرب والمصريون في مراسلاتهم. وكان لمصر وخصوصاً زمن الأيوبيين والفاطميين مصلحة للرسائل، وكان بها في كل جهة بيت للحمام، وكله غريب من جهات متعددة فكانوا إذا أرادوا إرسال مكتوب إلى أي مكان، أرسلوه على جناح حمامة مأخوذة من هذه الجهة. إلا أنهم كانوا يرسلون الخبر من صورتين على حماتين بعد الذي حصل في حصار الفرنجة لعكا؛ ذلك أن المسلمين في عكا أرسلوا رسالة إلى صلاح الدين الأيوبي بواسطة حمامة من حمامهم، فتتبعتها طير جارح وضربها، فسقطت في معسكر العدو الذي عرف منها مواقع الضعف من عدوه. ولعلك تذكر لما نزل لويس التاسع ملك فرنسا إلى دمياط سنة (١٢٧٠م) وسار بجنده إلى المنصورة، أخذ ملك مصر الملك الكامل خبره بواسطة الحمام الزاجل، فسير إليه جيوشه لوقته فأوقفته عند حده، وكان ما كان من انهزام جنوده عند المنصورة وأسر لويس وسجنه بها إلى أن تم

الصلح بينه وبين ملك مصر، فأطلقه وسافر إلى تونس ومات بها. وفي حبسه يقول بعضهم:

قل للفرنسيس وإن أنكروا حبس لويس في مقال صحيح
دار ابن لقمان على حالها والقيد باق والطواشي صحيح
والحماسة تقطع في طيرها من سبعين إلى ثمانين كيلومترًا في الساعة، ولها صبر
على الجوع جملة أيام؛ ولكنها لا تصبر على العطش.

وكان لهذا الحمام في حصار ألمانيا لباريس بين سنتي (١٨٧٠ و ١٨٧١) أكبر فضل في ربط أجزاء المملكة الفرنسية بعاصمتها.

وربما كانت هذه الحكومات قد قضت أن لا يمس جنس الحمام بسوء حتى لا يكون نوع الزاجل منه عرضة لأذى الصيادين وخلافهم فيؤدي مأموريته وهو في غاية الهدوء والطمأنينة.

ولقد كان عباس باشا الأول والي مصر رجع إلى تربية هذا الحمام واستكثر من أنواعه؛ ولكنه مات رحمه الله قبل أن يتم غرضه. وأخذ بعض ذوات القاهرة عنه هذه الغية؛ ولكنهم اقتصروا على تربيته وتطيره في محيط ديارهم. وقد علّمهم بعضهم الصبر على الطيران حتى إذا التحم بحمام غريب طار معه إلى أن تنفذ قواه ثم يرجع به إلى صاحبه الذي يكون فرحه به لا يُقدَّر. وللحمام عندهم أسماء مختلفة فمنها الجزغندي، والريحاني، والمزرزر، والقزازي، والأبلق، والعنبري، والغزار، والقشاقبي وغيرها. إلا أن هذه الغية لم تقف عند أفنية الأغنياء بل تعدتهم إلى الفقراء، وهم إلى الآن يضيعون فيها وقتهم الذي هم وعايلهم في حاجة إليه لعمل حيوي مفيد. ولقد شاهدت في بستان سراي يلدز الداخلي -بعد خلع السلطان عبد الحميد- دارًا كبيرة من السلك وفيها ما

لا يحصى من أنواع الحمام، وهو من جمال الخلقة بمكانٍ عظيمٍ. وربما كان يتسلى به في سجنه الذي قضى على نفسه به طول حياته، سامحه الله.

الحج

الحج في اللغة: القصد، ورجل محجوج أي مقصود. وفي اصطلاح المسلمين: قصد مكة لأداء المناسك في زمن مخصوص من كل سنة قمرية. وواحداته حجة، وتطلق على السنّة؛ فيقال: عُمِرَ هذا الصبي سبع حجج؛ أي سبع سنين.

وهو سنّة قديمة جدًّا في الأمم، والغرض منه على كل حال أمر ديني محض، وإن كان الاجتماع فيه لا يخلو من فائدة دنيوية، تزيد في رقي الأمة أدبيًّا وماديًّا. وقد كان المصريون قبل أربعين قرنًا يحجون إلى هيكل معبودهم إيزيس بمدينة سايس (صا)، وفتح في منفيس، وأمون في طيبة.

واليونان كانوا يحجون قبل المسيح بخمسين قرنًا إلى هيكل ديانا في أفسوس، ثم انتقلوا في مبدأ القرن الثاني قبل المسيح إلى حج معبد مينارفا في أتينا، وجوبيتر في أولمبيا. واليابان يحجون من عهد بعيد إلى هيكل عظيم مشهور في ولاية اسجي، وتجب زيارته عندهم على كل فرد منهم في عمره ولو مرة واحدة؛ فيتوجهون إليه بلباس أبيض على شكل مخصوص، وسوادهم يقصدونه عراة ليس عليهم إلا ما يستر عورتهم، ويقطعون إليه كل المسافة ركضًا. والصينيون يحجون إلى هيكل المعبودتيان من زمن بعيد جدًّا. والهنود لا يزالون يحجون إلى هيكل جاغرنات، أو هيكل الورا في حيدر آباد، وهو محفور في الصخر على طول فرسخين، وكذلك يحجون إلى هيكل بوذا بجزيرة مناقرب سيلان. وهم يكثر من الطواف حول هياكلهم، ولهم بحيرات مقدسة يتبركون بمياهها مثل بحيرة مادن قرب بحر قزوين. واليهود يحجون من القرن

الرابع عشر قبل المسيح إلى المكان الذي به تابوت العهد، وكانوا يحجون إليه ثلاث مرات في السنة. وكان ذلك أكبر سبب لعمار أورشليم، حتى أحرقها الإمبراطور طيطوس الروماني وأجلى اليهود عنها سنة (٧٠ مسيحية)، وما زالوا بعيدين عن مدينة بيت المقدس حتى استولت العرب عليها سنة ٦٣٦م (سنة ٥١٦هـ)، فأقرهم عمر رضي الله عنه مع النصارى على ما كان لهم في بيت المقدس. ولما قامت الحروب الصليبية قطعت عليهم طريق حجهم إلى أن استولت دولة بني عثمان على أورشليم في سنة (١٥١٧م) فأمنت الطرق ومهدت السبل إلى بيت المقدس، وهم يحجون الآن إلى قطعة من السور القديم لهيكل سليمان في الجهة الغربية من المسجد الأقصى ويسمونها البراق.

أما النصارى فإنهم يحجون إلى بيت المقدس من سنة (٣٠٦ للمسيح) أي منذ سارت هيلانة أم الإمبراطور قسطنطين إلى أورشليم وابتنت بها كنيسة القبر المقدس المشهورة باسم كنيسة القيامة. وكانوا يخرجون إليه من غرب أوربا باحتفال عظيم، وكان رئيس الجهة الديني يزود كلاً منهم بعضاً ورداء من الصوف الخشن فيلبسه لوقته، وكان لهم على طول طريقهم تكايا وأديرة يأوون إليها مدة سفرهم، وإذا وصل الحاج إلى بيت المقدس يتطهر في نهر الأردن الذي يبعد بنحو عشرين كيلومتراً شرقي القدس، ثم يلتحف برداء يحمله معه ليكون له كفنًا عند موته. فلما استولى السلجوقيون على بيت المقدس قل حجاج الإفرنج إلى أورشليم وحولوا وجوههم إلى كنيسة القديس بطرس وبولس في رومة، وفي تريف (Treves) بجرمانيا. ويزعمون أن بالآخرية قميص المسيح الذي كان يلبسه، وقد بلغ عدد حجاجها سنة (١٨١٤) مليوناً ومائة ألف نفس من الإفرنج. وهم يحجون أيضاً إلى كنيسة لورده (Lourdes) في جنوب فرنسا بعد أن شاع في أوربا أن السيدة مريم العذراء ظهرت لاثنتين من رعاة

هذه المدينة. والزائرون لهذه الكنيسة يشربون من ماء ينبع قريباً منها يسمى باسمها ويعتقدون إلى اليوم بأن فيه شفاء للناس ويرسلون منه إلى جميع أقطار المسكونة للتبرك والاستشفاء. ولم تكثر حجاج بيت المقدس إلا بعد عمل السكة الحديدية إليها من يافا.

والعرب كانت تحج إلى الكعبة قبل الإسلام بنحو خمسة وعشرين قرناً؛ لأنهم كانوا يعتقدون أنها بيت الله على ما كانوا عليه من اختلاف الآلهة وتعدد الديانات وتغاير المذاهب. وكانوا يقصدونها سنوياً للطواف بها من غير أن يدعيها لنفسه فريق منهم دون الآخرين؛ لأنها كانت عندهم بيتاً لله الذي هو إله العالمين. ورغماً عن شيوع عبادة الأوثان في سواد قبائل العرب فإنه لم يرد عنهم أنهم عبدوا هيكلاً الكعبة، وليس ما ورد في أسمائهم من عبد الكعبة (وكان أبو بكر يسمى عبد الكعبة، فلما جاء الإسلام سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله) إلا لزيادة إجلالهم إيها، كما هو الشأن في تسمية عبد النبي عند المسلمين، مع كراهيته في دينهم. وكذلك لم يسمع عنهم أنهم عبدوا الحجر الأسود مع احترامهم له ذلك الاحترام الذي لا يمكن تصويره. وكانوا يعتقدون أن هذا الحجر نزل من السماء، وبه أخذ بعض الفقهاء، ونحن لا ندري إن كان وصل إليهم من طريق النيازك أو من طريق آخر. وكان لهذا الحجر في العرب شأن عظيم جداً حتى أنه لما حصلت الحرب بين إياد ومضر ابني نزار، ودارت رحاها على إياد، قلعت الحجر الأسود ودفنته بجبل أبي قبيس، فرأت ذلك امرأة من خزاعة فأخبرت قومها، فاشترطوا على مضر إن هم ردوا الحجر جعلوا ولاية البيت فيهم، فوفوا لهم بذلك فردوه، ومن ثم صارت ولاية البيت في خزاعة.

واحترام الأحجار^(١) في الناس قديم جداً؛ فمنهم من كانوا يعبدونها لذاتها، ومنهم من كان يجعلها رمزاً لألهتهم كما كان الشأن في الدول الراقية في عصرانها كدولة الرومان واليونانيين الذين كانوا يرمزون بها لمعبوداتهم من الكواكب وغيرها، ولم يكن نبوغهم إلى الآن في نحت لأحجار وعمل التماثيل وتبرزهم في التصوير، إلا لاحترامهم إياه من قديم الزمان، واستعمالهم له في الأزمنة الحالية تمثيلاً لمعبوداتهم. والصينيون واليابان والهنود لا يقلون عنهم في هذه الصناعة، ولهم فيها دقة غريبة، وخصوصاً في الأعمال الخشبية التي يمثلون فيها كثيراً من معبوداتهم مثل بوذا وكونفوشيوس وغيرهما.

أمّا العرب فقد كانت أصنامهم ساذجة مثل جميع طبائع الأشياء فيهم، وقد كانوا يعبدونها لتقربهم إلى الله زُلفى، وفي عتبة باب السلام الخارجية بالحرم المكي ترى حجراً ضخماً أشبه شيء بدرجة سلم غير منتظمة، نازلة في الأرض يطئونها بنعالهم، وأهل مكة يقولون عنه: إنه صنم من أصنام الجاهلية واسمه إساف.

وكان أنبياء بني إسرائيل يقيمون الأحجار في مناسبات كثيرة؛ منها ما هو تذكّار لحادثة من الحوادث الجسيمة، كما فعل يعقوب عندما تراءى له ربه في نومه، فإنه أقام حجراً تذكّاراً لهذه الحادثة الكبرى في مكان سماه بيت إيل (بيت الله)، كما أقام حجراً غيره تذكّاراً للعهد الذي تم بينه وبين لابان (انظر: الآية الرابعة والأربعين والخامسة والأربعين من الإصحاح الحادي والثلاثين من سفر التكوين). ومن هذا تلك الحجارة التي نصبها موسى في ذيل الجبل تذكّاراً

(١) وفي باريس بجهة التروكاديرو متحف اسمه جيميه (Musée Guimet) فيه مجموعة كبيرة من الأحجار الدينية، وهي أكبر مجموعة في بابها، وقد زرتها سنة (١٩٠٦م) مع صديقي الفاضل «علي بك بهجت» وكيل دار الآثار العربية فاستقبلنا صاحبها والقائم بإدارتها بكل أنس ولطف.

لكتابة كلام الرب (انظر: الآية الرابعة من الإصحاح الرابع والعشرين من سفر الخروج)، ثم الاثنا عشر حجرًا التي نصبها يشوع تذكاريًا لعبور الأسباط نهر الأردن بتابوت العهد (انظر: الآية التاسعة من الإصحاح الرابع من سفر يشوع). ومن حجارة التذكاري أيضًا تلك الحجارة التي يقيمها صغار الحجاج على حافة طريقهم مع القافلة؛ فنراهم إذا صادفوا في طريقهم أحجارًا صغيرة تسابقوا إليها وأخذ كل بين يديه ما أراد منها، ووضعها على بعضها حجرًا حجرًا قائلاً: هذا لأبي، هذا لأمي، هذا لأخي، هذا لأختي، هذا لصديقي فلان مثلاً. ويسمون كل كوم منها ناطورًا، وهم يزعمون أنه ما دامت هذه الرحمة على وضعها كان أصحابها على قيد الحياة!! ولو لم يكن في عملهم هذا من حسنة سوى تنقية الطريق من الحجارة التي يتعثر فيها الإنسان والحيوان لكفى. وقد رأيت بعضهم في مصر يقيم هذه النواطير في طريقهم إلى الموالد، وكثيرًا ما ترى ذلك في جبالات الأرياف قُرب بعض الأضرحة، وجبالات النصارى بالأرياف لا تخلو من ذلك.

ومن الحجارة ما كانوا يقيمونها للاستشهاد بها؛ كالحجر الذي أقامه يشوع عندما أخذ العهد على شعبه قائلاً لهم: هذا الحجر يكون شاهدًا علينا (انظر: الآية السادسة والعشرين والسابعة والعشرين من الإصحاح الرابع والعشرين من سفر يشوع).

ومن حجارة الشهادة ما يستعمله الناس في الاقتراعات^(١) السرية في أيامنا هذه مما هو مستعمل على الخصوص في دوائر الحكومات الكبرى كمجالس النواب وغيرها.

وكان المصريون يقيمون الأحجار الجسيمة كالمسلات وغيرها تذكراً للحوادث التاريخية الكبرى. وقد اقتفت آثارهم الدول المتمدنة وعلى الخصوص ما يقيمونه منها اعترافاً بفضل من ينبغ من أفراد الأمة، وهذه الآثار لا يكاد يخلو منها ميدان من ميادين عواصم أوروبا.

وجميع الحكومات من قديم الزمان تقيم الأحجار لتعيين تحومها وتحديد ممالكها. وقد عم هذا الاستعمال في تحديد ملكية الأفراد حتى أطلق لفظ الحجارة على الحدود، وأجمعت الشرائع كلها على احترامها.

واليهود إلى الآن يقدسون قطعة من حائط سور المسجد الأقصى من جهة القبلة يسمونها البراق، ويبلغ طولها نحو ثمانية وأربعين متراً في ارتفاع مترين؛ لزعمهم أنها القطعة الوحيدة التي بقيت من قاعدة سور الهيكل الأصلي الذي بناه سليمان عليه السلام، وهدمه بختنصر وسنحاريب وغيرها من ملوك الآشوريين والرومانيين. وهم يحجون إلى هذه القطعة مرتين في كل سنة وخصوصاً في العيد الذي يسمونه عيد الدجاج (عيد القربان). ويهود القدس يجتمعون عند هذا السور كل يوم وعلى الخصوص في عصر يوم الجمعة مع

(١) وذلك أنهم إذا خافوا على حرية الشخص في إبداء رأيه في الاقتراع العلني، ذهبوا إلى الاقتراع السري: وهنالك يدار على الأعضاء بإناء به حجارة سوداء وأخرى بيضاء، فيأخذ المقترع حجراً من هذه للإقرار على الرأي المقترع عليه أو من تلك إذا كان مخالفاً له، ويضع هذا الحجر في كيس يقدم إليه بحيث لا يشعر به أحد. وبعد أخذ جميع الاقتراعات يقدم الكيس إلى الرئيس، فإذا وجد أن الحجارة البيضاء أكثر من السوداء كان الاقتراع إيجاباً بغالبية الأصوات؛ وإلا كان سلباً.

رؤسائهم الدينيين، ويستلمون حجارته باكين شاكين منتحبين متضرعين إلى الله بأن يرد عليهم ملكهم، وأن يعيد إلى أورشليم فخامتها وجلالتها. وقد وصل بهم احترامهم لحجارة ذلك الهيكل إلى أنهم لا يدخلون في حوش بيت المقدس أصلاً؛ بل لا يدخلون من بابه مطلقاً؛ خوفاً من أن تطأ أقدامهم حجراً من الحجارة التي تكون ربما تخلفت من هياكلهم القديم، وألقت بها يد الصدفة في أرضية هذا المكان. وهم يقدسون أيضاً جانباً من سور منارة المكفيلة التي بها قبر إبراهيم وإسحاق ويعقوب في حَبْرُون، ويجتمعون عندها مساء كل يوم جمعة ويصلون ويبتهلون ويستغيثون، صارخين إلى الله تعالى أن يعيد إليهم ملك بني إسرائيل.

وللنصارى أحجار كثيرة يقدسونها، ومنها شيء كثير في بيت المقدس. وقد بلغ تقديسها منهم إلى حدٍّ لا يمكن تكييفه. ومن تلك الأحجار الحجر الذي تحت قبة الصعود، وفيه أثر صدر قدم يمنى يقولون: إنه أثر قدم السيد المسيح عندما صعد إلى السماء. وقد شاهدتُ بنفسي هذا الحجر الذي ملس وكاد يذهب أثره من كثرة لمسهم له وتقبيلهم إياه. وفي أسفل جبل الزيتون من الجهة الغربية مما يلي وادي سدرون (الذي يسميه العامة وادي مريم) قطعة من صخرة خارجة عن سور الكنيسة الروسية الشمالي، فيها بعض تقعر رأسي، يقولون: إن السيد المسيح أسند ظهره إليها عندما نزل من جبل طور زيتا (جبل الزيتون) إلى المدينة. ولقد اجتهدت الكنيسة الروسية في إدخال هذا الحجر إليها، فقامت من أجل ذلك قيامة الطوائف الأخرى، وكادت تحصل لذلك فتنة كبيرة، لولا أن الأمر انتهى بجعلها منطقة عامة لجميعهم حتى لا يحرم الكل من التبرك بها. وإزاء هذه الصخرة إلى جهة الشمال توجد صخرة أخرى محاطة بسور للأروام، يقولون: إن السيد المسيح كان جلس عليها إذ ذاك

ليشاهد منها صخرة بيت المقدس، وباب هذا السور يفتح للزيارة في أيام مخصوصة. وللقوم في كنيسة القيامة أحجار كثيرة تكاد تفوق حد التقديس؛ منها حجر نصف الدنيا الذي تراه في وسط هيكل الأروام، وحجر المغسل الذي يزعمون أنهم غسلوا المسيح عليه، وحجر الكأس الذي نزل به جبريل إلى المسيح ووضعه عليه، وعمود الجلد الذي كان المسيح مربوطاً به عندما جلده أعداؤه، وحجر الإكليل الذي أجلسوا عليه المسيح وقت ما وضعوا على رأسه إكليل الشوك، ويوجد في بيت لحم كثير من هذه الحجارة المقدسة عند النصارى.

ومن الحجارة المقدسة المحترمة عند اليهود والنصارى والمسلمين على السواء «صخرة بيت المقدس» التي كانت محل قربات إبراهيم وإسحاق ويعقوب وداود وسليمان وغيرهم من أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام، وكانت قبلة المسلمين قبل الكعبة، ثم صخرة أيوب (النبي) التي في قرية الشيخ سعد على طريق السكة الحديدية بين المزيريب والشام، ويقصد زيارتها والتبرك بها خلق كثير من جميع الأفاق على اختلاف جنسياتهم ودياناتهم.

من ذلك ترى أن هذه الحجارة لم تقدس لذاتها، ولكن لعلاقتها بشيء مقدس محترم؛ وعليه فالحجر الأسود الذي وضعه إبراهيم عليه السلام في الكعبة إنما أن يكون وضعه تذكراً لصدعه بأمر ربه برفع قواعد هذا البيت المعظم، وإما أن يكون للعهد الذي أخذه إبراهيم على نفسه وولده بجعله هذا البيت مثابة للناس، وإما أن يكون قد أقامه إبراهيم حجة عليه وعلى ولده بأن هذا البيت قد انتقل من ملكيتهم إلى الله تعالى ليكون للناس مصلى ومسجداً للطائفين والعاكفين والركع السجود. ووضعه في الركن الأقرب إلى الباب ليكون أول حدود هذا البيت المكرم الذي يتدنى منه الطائفون، وجعل لونه

أسود لسهولة تعيينه وتحديد مكانه؛ لذلك كان هذا الحجر محترمًا من إبراهيم، محترمًا من ولده، محترمًا من المسلمين إلى اليوم وإلى الغد. ولا عبرة بما ذهب إليه بعض السائحين الذين قصدوا مكة والمدينة تحت ستار شعار الدين الإسلامي، وكتب عليهما كل بحسب نزعته سياسية كانت أو دينية، وافترى بعضهم على المسلمين بأنهم في حجهم يعبدون الحجر الأسود الذي هو أثر من آثار الوثنية العربية الأولى!! وإني لا أذكر شيئًا أدحض به هذه الفرية سوى ما رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم ورواه ابن أبي شيبة والدارقطني في العلل: من أن النبي صلى الله عليه وسلم وقف عند الحجر فقال: «إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع» ثم قبله، ثم حج أبو بكر فوقف عند الحجر ثم قال: «إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل ما قبلتك»، وقال عمر: «أما والله إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلك ما قبلتك» ثم دنا فقبل. على أنه لم يسمع عن عرب الجاهلية مطلقًا أنهم عبدوا هذا الحجر فيما عبدوا من الأحجار بالمرّة، مع احترامهم له كل الاحترام وإجلالهم له كل الإجلال.

وعلى كل حال فإنّ الحجر الأسود عند المسلمين محترم مكرم معظم لا لذاته؛ ولكن لكونه شعارًا لربوبيته تعالى ورمزًا لسلطانه. يعرض عليه المسلمون فيستلمونه ويقبلونه، أو يسلمون عليه من بعد بكل احترام واحتشام. وعليه فهو في ذلك كأعلام الدول التي لا تحترم لكونها قطعة بسيطة من القماش مرفوعة على قطعة من الخشب أبسط منها؛ بل لأنها تمثل سلطان الملوك وعظمة الممالك. وهؤلاء حضرت استعراض جيش من جيوش الدول العظام ورأيت القوم إذا حاذوا علمهم أحنا رءوسهم وسيوفهم علامة على الخضوع والاحترام.

وما زال الحج عند عرب الجاهلية على ملة إبراهيم وإسماعيل، ومشاعره^(١) كلها محترمة عندهم، حتى إذا عظمت قريش بعد واقعة الفيل، وقال الناس فيهم: إنهم أهل الله يُدافع عنهم، شمشخوا بأنوفهم على العرب، وقالوا: نحن ولاة البيت، وليس لأحدٍ من العرب مثل منزلتنا، واتفقوا على أن لا يعظموا شيئاً من الحل: فتركوا الوقوف بعرفة والإفاضة منها؛ مع علمهم بأنها من

(١) ولأبي طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم قصيدة مشهورة ببلاغتها؛ وهي لاميته التي تبلغ واحداً وثمانين بيتاً نذكر لك منها هنا بعض قَسَمِهِ الذي تعرف منه المشاعر التي كانت تقف بها العرب في الجاهلية. قال رحمه الله:

وراق ليرقى في جرّاء ونازل	وثور ومن أرسى ثبيراً مكانه
وبالله أن الله ليس بغافل	وبالبيت حق البيت من بطن مكة
إذا اكتنفوه بالضحي والأصائل	وبالحجر المسود إذ يمسحونه
على قدميه حافياً غير ناعل	وموطئ إبراهيم بالصخر رطبة
وما فيها من صورة وتمائل	وأشواط بين المروتين إلى الصفا
ومن كل ذي نذر ومن كل راجل	ومن حج بيت الله من كل راكب
ألالٍ إلى مفضي الشراج القوابل	وبالمشعر الأقصى إذا عمدوا له
يقيمون بالأيدي صدور الرواحل	وتوقافهم فوق الجبال عشية
وهل فوقها من حرمة ومنازل	وليلة جمع والمنازل من منى
سراعاً كما يخرج من وقع وإبل	وجمع إذا ما المقريبات أجزنه
يؤمنون قذفاً رأسها بالجنادل	وبالجمرة الكبرى إذا صمدوا لها

[ثور وثبير وحراء: جبال بجوار مكة. التماثل: التماثل، وهي الأصنام. وبالمشعر: واحد المشاعر الحرام، وهي المواضع التي بها مناسك الحج، والمشعر الأقصى هو عرفة لأنه أبعداها. ألال: بفتح الهمزة وكسرهما جبل عرفة. الشراج: مفرداها شرج؛ وهو مسيل الماء، ومفضي الشراج مجمعها في مجرى واحد، وفي هذا ما فيه من بلاغة التعبير إشارة إلى اجتماع الناس في مكان واحد، وهو عرفة. وليلة جمع: هي ليلة مزدلفة. المقريبات: هي الخيل التي ضمرت للركوب والإبل التي عليها رحالها. صمدوا: قصدوا. الجنادل: الحجارة].

والقصيدة موجودة برمتها في الجزء الأول من «سيرة ابن هشام».

المشاعر الحرام، وأنها مكان الحج من زمن إبراهيم، وأفاضوا من جمع (المزدلفة)، وقالوا: لا ينبغي لأهل الحل أن يأكلوا من طعام جاءوا به معهم من الحل في الحرم إذا جاءوا حجاجاً أو عماراً، وأن لا يطوفوا بالبيت إلا في ثياب الخمس (وهم قريش؛ وسموا بذلك لتحمسهم في دينهم؛ أي تشددهم)، فإن لم يجدوا طافوا بالبيت عُرّة. فدانت لهم العرب بذلك، وكانت المرأة في طوافها تضع عنها ثيابها إلا درعها.

وقد كان السعي بين الصفا والمروة من لوازم الحج في الجاهلية، وكان لهم صنم على الصفا يسمى (إساف) وآخر على المروة يسمى (نائلة)، وكان للعرب فيها اعتقاد سخيّف كغيره من الاعتقادات الوثنية، وكانوا ينحرون عندهما هَدْيًا. فلما جاء الإسلام امتنع المسلمون عن السعي كيلا يكونوا مثل أهل الجاهلية في وثنيّتهم، فنزل قوله تعالى: {إن الصفا والمروة من شعائر الله}. ومن هذا ترى أن الشكل في العبادات لا يعول عليه، وإنما المدار فيها على النية. وبالجملّة فالشعائر التي كانت مستعملة في الحج من زمن إبراهيم وإسماعيل، واتخذها الناس بعدهما لمعبوداتهم على تغييرهم في العقائد، قد أقرها الإسلام وجعلها كلها لله تعالى وحده، «وإنما الأعمال بالنيات»، وجعل الحج من قواعد الإسلام؛ قال عليه الصلاة والسلام: «بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً». وقد وقف صلى الله عليه وسلم بالناس في عرفة وقال: «الحج عرفة» وأفاض منها، ونزل في ذلك قوله تعالى: {ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس} (يعني قبل الخمس)، وطاف الحجاج بالثياب التي معهم من الحل، وأكلوا من طعام الحل في الحرم، ولا يزال المسلمون يحجون على ما شرع لهم من هذه النسك إلى اليوم.

ولكن يظهر للمتأمل في طواف البدو الآن - وعلى الخصوص أهل الشروق من عُتَيَّة ومطير - أن حجهم ألصق بالبيت منه بعرفة؛ ذلك لأن هؤلاء القوم يفدون على مكة في الخمس الأول من شهر ذي الحجة، فيرتبون مساكنهم شرق المدينة من خارجها، ثم يدخلون المسجد الحرام جماعات جماعات، ويطوفون حول البيت طواف القدوم ماسكين بأيدي بعضهم، لا يوقفهم في طوافهم زحام الطاف بغيرهم، بل يأخذون في طريقهم كل من صادفهم فيه وهم يقولون: «الله، محمد، لبيك لبيك، حجيت، تقبل أو لا تقبل حجيت، إلا تقبل». وإذا كان معهم نسوة (ولا يكن في الغالب إلا من المتقدّمات في السن) تراهن في مؤخرتهم ماسكات بأكتافهم، ولا يظهر منهن سوى أعينهن وفي أيديهن القفازات، حتى إذا وصل الكل إلى الحجر الأسود تعلق المتقدم منهم بكسوة الكعبة، وأمسك بها بقوة بحيث لا يزحزحه عنها أحد، وتبعه إخوانه وأزاحوا غيرهم من المستلمين بقوة وصبر لا يعتورهما ملل، محتلمين في ذلك ضرب الضارب وانتهار الناهر، حتى إذا كشفوا الناس عنه واستملوه جميعاً وقبلوه، أتت نساؤهم لتقبيله، فيضرب الزوج رأس امرأته لتضطدم جبهتها في الحجر، فيحصل فيها أثر يكون عندهم علامة الحج (كالوشم عند حجاج بعض النصارى إلى بيت المقدس)، وعندها يصرخ الرجل قائلاً لزوجته: «حجيت يا حاجة؟» فتصيح قائلة: «حجيت حجيت». ثم تلتفت إلى الحجر الأسود قائلة: «حجيت، خبر ربك»^(١) أي حجيت» ثم ترفع رأسها إلى السماء قائلة: «تقبل أو لا تقبل حجيت إلا تقبل غصباً تقبل». هذا كله قبل وقوفهم بعرفة، ومنه ترى أن اعتبارهم أنفسهم أنهم حجوا بمجرد الطواف والاستلام

(١) من تأمل في هذه العبارة ير ولا شك أنها من آثار الجاهلية، ومنها يحكم قطعياً أن القوم قبل الإسلام ما كانوا يعبدون الحجر الأسود.

قبل الوقوف إنما هو بعض ما كانت ستنه قرش بعد واقعة الفيل ومناه الإسلام.

وأخلاق هؤلاء الأعراب في الحرم الشريف بخلاف ما هو معروف عنهم من شدتها، فإنك تراهم فيه على غاية ما يكون من السكينة واللين والتسامح، لا يقابلون الإهانة الشخصية إلا بالسكوت المطلق عن الإجابة عليها، وما ذلك إلا لشدة احترامهم حرم الله وإجلالهم لبيته المعظم.

ولا شك أن قصد الشارع من الوقوف بعرفة إنما هو وحدة الوجود في مكان واحد، تجمع أطرافه جميع أولئك الذين وفدوا من الأقطار المختلفة، وهم وإن اختلفت أجناسهم وتغايرت لغاتهم فقد توحدت وجهتهم وتفردت غايتهم. نعم تجمعهم صحراء عرفة وتضمهم إلى فؤاد ذلك الجبل حتى إذا اجتمع الشخص بالآخر، عرف كل واحد ما بهم من أمر صاحبه، فيمسيان وقد اهتم كلاهما بأمر أخيه مما تنصلح به أحوال الأفراد وتستقيم به أمور الأمم. وكيف لا وقد كان هذا الاجتماع بين يدي الله تعالى وفي حضرته، في يوم يكون الإنسان فيه بكلية عاطفة شريفة: هي الإخلاص بحقيقته، لا يشوبه رياء ولا يتطرق إليه مرء.

وكان موسم الحج موعدًا بين الناس يفضون به أشغالهم ويمضون فيه أمورهم، وذلك لصعوبة المواصلات التي كانت بينهم، قال بعضهم:

ما أحسن الموسم من موعد وأحسن الكعبة من مشهد

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يهتم بالحج من مبدأ الإسلام. وقد خرج من المدينة غير مرة حاجًا أو معتمرًا إلى مكة، وهي في أيدي أعدائه من المشركين، غير حاسب أي حساب للخطر الذي ربما كان يصيبه منهم. فمنعوه

من دخوله البلد الحرام. وفي عام الحديبية أناب عنه أبا بكر بأن يحج بالمسلمين. وفي السنة العاشرة من الهجرة حج بهم صلى الله عليه وسلم حجة الوداع. وفي خلافة أبي بكر أناب عنه في الحج عُمر لاشتغاله بحروب الردة. وحج عمر بالمسلمين في خلافته تسع أو عشر مرات. وهكذا كانت الخلفاء في الغالب يقومون بفريضة الحج في صدر الإسلام حتى يقفوا بأنفسهم على حال رعاياهم، وقد أفادهم هذا الأمر في سياسة ملكهم داخله وخارجه سياسة عظمية، ومن كانت مشاغل الملك تحول بينه وبين هذه الفريضة، أناب عنه على إمارة الحج رجلاً من قرابته أو من عظماء أُمته. وما زالوا يتراخون في القيام بهذا الأمر، حتى صار من النادر أن يسمع بخليفة أو ملك أو أمير أو وزير إسلامي يقوم بأداء هذه الفريضة. ولعل أمراء المسلمين يعودون إلى ما كان عليه سلفهم الصالح من إحياء هذه الفريضة، لتحيا بها نفوسهم وممالكهم. نعم تحيا بها حياة طيبة؛ لأنهم إذا تنازلوا لحظة إلى منزلة الناس في جميع طبقاتهم، واختلطوا مع العامة منهم قريبهم وبعيدهم، وسمعوا نداء الفقير وبكاء الضرير، وشاهدوا حاجة البائس ومقدار ما تعمل الفاقة في أحشاء هؤلاء المساكين الذين يحول سياج الملك بينهم وبين معرفتهم بحقيقتهم، هنالك يشعرون بما يجب عليهم لرعاياهم ويعملون على إعانة الضعيف وإغاثة اللهيء. ويقلدهم في ذلك الكبراء والعظماء مسوقين بطبيعة تقليد الصغير للكبير (والناس على دين ملوكهم): فيصبحون وأمهم في أهناً بال، وأحسن حال، وهذه هي سعادة الراعي والرعية على السواء. نعم يجب على الأمراء والعظماء والأغنياء أن يحجوا، حتى إذا وقفوا لحظة في صف هؤلاء التعساء والبؤساء، ترفقت قلوبهم وتحنت أفئدتهم وأصبحوا بعيدين عن عوامل الظلم والاستبداد، قريين من مؤثرات الرأفة والرحمة. نعم نعم إذا وقف أولئك الملوك في سلك هؤلاء

الناس والكل مفلوك بعرش إله واحد عادل، وهو القادر القاهر، مالوا إلى الاشتراكية الحقّة واهتموا بحال المفلوكين والمظلومين: فيردون عن هذا ظلامته، ويخففون عن ذلك محتته، ويحولون بين براثن القوي ومهجة الضعيف، وبذلك تستقيم أمور الرعية، وتعود إلى ما كانت عليه في خلافة الراشدين من الحياة الصحيحة.

ولقد شهدنا في ذلك برهاناً محسوساً؛ فإن الجنب العالي الخديوي عندما وقف هذا الموقف أخذ يذكر حال البؤساء من حجاج بيت الله الحرام عموماً والمصريين منهم خصوصاً، مهتماً بأمرهم كل الاهتمام، مفكراً في الوسطة التي تخفف من مصائبهم وتسهل من مصاعبهم. فكنت تسمع منه على الدوام، ووجهه -حفظه الله- محتقن بدماء الانفعال بعامل الرحمة والحنان، عبارات الأسف على ما يقاسيه البؤساء من حجاج بيت الله الحرام، ويبحث على الطريق التي يكون من ورائها راحتهم وطمأنينتهم. وهذه الفكرة لا تزال تشغل فكره الشريف إلى الآن. كذلك كان الخلفاء والأمراء في صدر الإسلام، وكثيراً ما كانوا يحجون. حتى أن الرشيد كان يغزو عامّاً ويحج عامّاً (وقيل: إنه حج ماشياً غير مرة)، ولذلك كانت حكومته من أحسن الحكومات نظاماً وأمتنها إحكاماً. فلما تقاعد الخلفاء عن تأدية هذا الواجب القومي وأهملوا شؤون رعاياهم، استهان الناس بهم، وما زالوا كذلك حتى غلبوا على أمرهم!! نسأل الله أن يعيد إلى الإسلام عظمتَه ومجده.

على أن الحج له تأثير كبير في الأخلاق؛ فترى الحاج يتوب إلى الله في حجته، ولا يتم مناسكه إلا وهو على اعتقاد تام بمغفرة الله له وتفضله بمحو ذنوبه من صحيفة أعماله. فإذا عاد إلى بلاده سار في طريق الفضيلة ويصعب عليه أن يتركه إلى غيره مهما كان شاباً، فإن تمثل له شيطان غوايته، جرد له وازعاً

من نفسه يحول فيما بينهما، وفي الغالب يكون هذا الوازع أقوى من خصمه الذي ينهزم أمامه. وإذا فليس من مهذب حقيقي للنفس أحسن من تربية الحج، فهو نعم المربي للنفوس الشريرة ونعم المهذب لها. ولقد قرر علماء التربية أخيراً أن الإنسان لا بدّ له من شخص يسهل له طريق عمله، حتى إذا انطلق في سبيله فلا شيء يردّه عنه، لذلك تراهم يستعملون كل الوسائل في تحسينهم إلى الصبي البليد أو الكسلان الاندفاع في طريق العمل ولو مرة واحدة، فإذا ذاق حلاوة الاجتهاد صعب عليه رجوعه إلى الكسل والبلادة. على أنّ الحاج إن لم تردعه نفسه عن اقتراف الرذيلة فإنه لا يحرم من الناس مؤنباً عليها، أو معيراً على اقترافها، فيرجع إذ ذاك عن غيه طوعاً أو كرهاً. وهذا أظنه حسبك في فضيلة الحج التي لا تماثلها فضيلة، والتي لو فطنت لها الحكومات الإسلامية لسهلت طريقه على رعاياهم، حتى إذا كثر سواد الحاجين منهم كثرت فيهم الفضيلة التي تؤدي إلى الخير العام والسعادة الحقيقية. ولقد كانت الحكومة المصرية في الزمن الغابر تُخْرِج إلى الشوارع والحارات في أشهر الحج أناساً يتغنون بأناشيد (يسمونها تحانين) تحرك عواطف الناس إلى أداء هذه الفريضة، كما كانت خطباء المساجد تحث عليها وترغب الناس فيها (ولا يزالون كذلك إلى الآن).

المسجد الأقصى

هو ثالث المساجد المقدسة عند المسلمين؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاث: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى». وهو مسجد الصخرة ببيت المقدس. وكثير من المسلمين يزورونه بعد زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم، ويقولون لمن زاره: فلان قدس (بصيغة الماضي). وليس لزيارتهم له وقت مخصوص ولا شروط مخصوصة مثل ما في الحج. ولكنها زيارة بسيطة يؤدونها في أي زمن شاءوا، واختيارها في موسم شم النسيم إنما هو للحاق مولد سيدنا موسى عليه السلام. وأهل تلك الجهة يحتفلون بهذا المولد احتفالاً عظيماً جداً؛ ذلك أنهم بعد صلاة الجمعة التي قبل سبت النور يذهب المتصرف والقاضي والمفتي ومشايخ الحرم الشريف وأرباب الطرق وأرباب الدولة من ملكين وعسكريين في آلاف من الناس من عرب وأهلين وحاجين، ويجتمعون حول شجرة الزيتون التي في حوش الحرم بين مصطبة الصخرة والمسجد الأقصى. وهذه الشجرة^(١) ينسبونها إلى النبي صلى

(١) ويوجد في الوادي الذاهب من المزيريب إلى حرش شجرة يزعم أهالي تلك البلاد أن علي بن أبي طالب غرسها هناك، ولها عندهم مقام كبير ويأتون لزيارتها من جميع الجهات. وكذلك يوجد قرب العزيزية بولاية سيواس صخرة في رأس جبل يبلغ ارتفاعه ٢٠٠ متر تقريباً يسمونها طاش ديلي (ثاقب الحجر) ويزعمون أن سيدنا علياً كان مازاً بهذا الوادي وكان راكباً فرساً فتأخر فلوها ليرعى، ولما توارى في منعطف الوادي بطرت الفرس فلم ترفلوها فصهلت فسمع فلوها صوتها فقفز من مكانه فوق الجبل فوق وقع في الصخرة فحرقها ومات، وهناك له قبر معروف، وفي طريق السالك في هذا الوادي إلى قيصرية صخرة عظيمة يزعمون أن علياً ألقى بها على حاكم قيصرية الذي كان يقصده أن يسد عليه الطريق، وفي جوار قرية القنيطرة (من أعمال الشام) جنوباً جبل علي ويزعمون أن علياً لما

الله عليه وسلم، ويقولون: إنه هو الذي غرسها بمكانها هذا. وهناك ينشرون جملة أعلام يسمون بعضها بعلم النبي، وبعضها بعلم داود، وبعضها بعلم موسى، وبعضها بأعلام الصخرة، ويسير الموكب من الحرم الشريف إلى مشهد موسى عليه السلام، وهو على مسافة ست ساعات من بيت المقدس في الجهة الشرقية الجنوبية. وهناك ينتهي الاحتفال الذي يبدأ به المولد ويستمر خمسة عشرة يومًا في الجبل، وتقام فيه الأسواق لبيع ما يلزم للأعراب القاطنين بتلك الجهات.

أمّا الصخرة الشريفة فقد كانت قبلة للمسلمين بعدما فرضت الصلاة مدة ستة عشر شهرًا حتى أمرهم الله تعالى بتوجيه وجوههم إلى الكعبة المكرمة في السنة الثانية للهجرة. وهي صخرة كبيرة ضربت عليها قبة عظيمة جدًا، فيها من أعمال القيشاني والفسيفساء (الموزاييك) والنقوش الذهبية وغيرها ما يدهش الفكر ويحار له العقل. وهذه الأعمال من عهد عبد الملك بن مروان وابنه الوليد. وللمأمون فيها أثر عمارة تشكر. وقد أصلح الحاكم بأمر الله قبتها وضرب عليها قبة أخرى من الخشب لتحفظها من عبث الأمطار وتأثير الأجواء. وارتفاع الأولى منها وهي السفلى ١١،٥٠ مترًا وقطرها عشرون مترًا، أما الثانية (العليا) فارتفاعها ثلاثون مترًا. ولقد عمرها صلاح الدين الأيوبي بعد أن عبث الصليبيون بها وحولوها إلى كنيسة وجعلوا هيكلها فوق الصخرة. ثم عمرها السلطان سليمان القانوني. وهذه القبة الآن آية من آيات الصناعة الرومية والعربية القديمتين، مما يستعصى على عمال زمننا الحاضر إصلاح ما اعتل منها. وهي قائمة على قاعدة مثمثة الشكل، طول كل ضلع منها ٢٠،٤٠

توفي وضعوه على جمل وأطلقوه فسار به إلى هذا الجبل، وله مسجد يقصده الناس لزيارته وخصوصًا الشيعة.

متراً، وحوائطها مكسوة بألواح كبيرة من المرمر فيها نقوش طبيعية جميلة جداً ومتناسبة مع بعضها تناسباً غريباً، حتى ليتخيل للإنسان أنها مرسومة بيد الرسامين الماهرين لا بيد هذه الطبيعة المتواضعة التي لا تريد أن تعلن عن نفسها بأي حال من الأحوال!! وأرضية القبة من الداخل مفروشة بالرخام المجزء، وحوله أعمال الموزاييك المرمرية من ألوان مختلفة. أمّا حوائطها من الخارج فكلها بالقيشاني الغريب في بابه، والقديم منه ثمين جداً، حتى أن القيشاني الذي رمت به مدة عمارة السلطان سليمان القانوني أقل منه في قيمته. وعلى كل حال فهذا وذاك لا يمكننا أن نعوض ما تعبت به يد الضياع منهما. ولوفقه ذلك حماتها وخادموها لما تجرؤوا على اغتيالها وبيعها من الفرنجة السائحين بثمن بخس لا يسمن ولا يغني من جوع!!

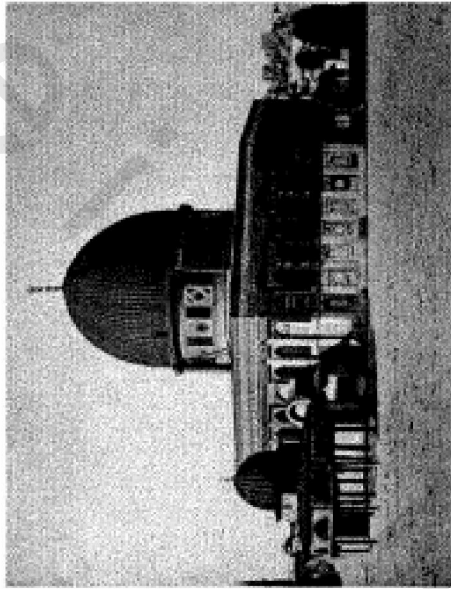
وفي وسط هذه القبة ترى الصخرة الشريفة: وهي من الجرانيت الأسود، وحوالها دربين من الخشب على شكل مربع طوله من الشرق إلى الغرب ١٧,٧٠ متراً، وعرضه ١٣,٥٠ متراً ويبلغ ارتفاعه نحو مترين. وفي زواياه جملة محاريب إلى القبلة، يسمون واحداً منها بمحراب إبراهيم، وآخر بمحراب داود، وآخر بمحراب علي رضي الله عنه، ولا أدري معنى لهذه التسمية الأخيرة؛ لأنه لم يعرف عن علي رضي الله عنه أنه قدم بيت المقدس.

ويبرز من الصخرة لسان إلى جهة القبلة بميل إلى الشرق، لهم فيه أقوال كثيرة: منها أنه سلم على النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء، وسلم على عمر رضي الله عنه عند قدوم لفتح المقدس!! وتحت هذا اللسان مغارة صغيرة ينزل إليها بنحو (١٥) درجة ضيقة. وهي لا تزيد عن أربعة أمتار طولاً في ثلاثة أمتار عرضاً، والحوائط التي بنيت في محيطها تجعل شكلها مربعاً تقريباً. وفي سقف هذه المغارة فوهة تنفذ إلى ظهر الصخرة، كانت مكان القرايين التي كان

يقدمها إبراهيم وخلفاؤه إلى الله تعالى، ومنها أتى تقديس هذه الصخرة. وفي قبالة هذه الفوهة بلاطة من أرضية المغارة تعطي بئراً يسمونها جُب الأرواح، وللقوم فيها حكايات كثيرة أشبه شيء بالخرافات! ولعل لهذه التسمية أصلاً أخذوه من دماء القرايين التي كانت تنزل إليها، وربما كان القوم يلقون فيها الهدايا النفيسة التي كانوا يقدمونها إلى الصخرة، كما كان الشأن في البئر التي كانت في جوف الكعبة. وعلى ظهر الصخرة من جهة الشرق آثار اثني عشر قدماً: كان النصارى في القرون الوسطى ينسبونها إلى عيسى عليه السلام، فلما تغلب المسلمون على بيت المقدس قالوا: إنها آثار قدمي رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سار عليها ليلة الإسراء. ومع ما هي عليه من عدم النظام، وأنها على خط مستقيم تقريباً، وهو ما لا يمكن السير عليه لفتحة ما بين الرجلين، فإنها تكاد يكون شكلها واحداً، وهو ما لا ينطبق على شكل القدمين، خصوصاً وأنها أصغر بكثير من الأقدام المنسوبة له صلى الله عليه وسلم مما ذكرناه في صفحة (١٢٥) من هذا الكتاب. ومن هذا وذاك ترى أنها كلها موضوعة لا أثر لها من الصحة؛ يؤيد ذلك أنه لم يرد في ديننا الحنيف ما يشير إلى شيء من ذلك بالمرّة. وبجوار هذه الأقدام أثر قدم آخر ينسبونه إلى إدريس عليه السلام. ويوجد بجانب الصخرة من الجهة الغربية بجوار الدربزين خزانة من الفضة فيها قطعة من الحجر عليها أثر قدم ينسبونه أيضاً إلى نبينا صلوات الله عليه، وفيها أيضاً بعض شعرات من لحيته الشريفة.

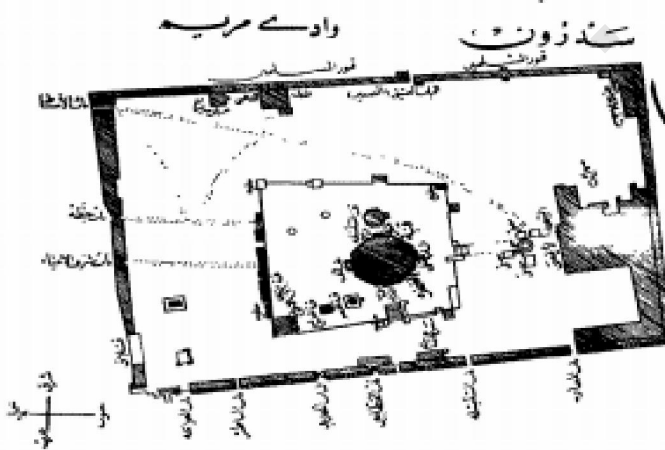
ويزعمون أن هذه الصخرة معلقة في الهواء، وإنما بنيت تحتها هذه الحوائط حتى لا يفتن الناس بها. وأظن أن فكرة تعليق الصخرة مأخوذة عن اليهود، وربما كان لهم شبه حق في ذلك لكثرة الفضاء الذي حولها، كالصهاريج وغيرها من السرايب والمغائر. على أنه لا يبعد أن الصخرة الشريفة لا تتصل بنقطة

المركزية بالجبل إلا في النقطة الصخرية التي تشاهد في الجهة الغربية الشمالية من أرضية حوش الحرم. وعلى ذلك تكون كأنها ممتدة في الفضاء على مسافة ستين أو سبعين مترًا ما بين رأسها وقاعدتها. وكأن بناء هذه المصطبة حولها إنما كان دعامة لها من جهة ولسهولة الوصول إلى رأسها الذي كان مكان القرايين من جهة أخرى.



قبة الحنابلة والى جوارها قبلة السنية

Mohamed El-Aziz, 1970



المنشور في
الطبعة الأولى
١٩٧٠ م
١٩٥٠ م

ولقبة الصخرة أربعة أبواب: واحد في شمالها، والثاني في جنوبها، والثالث في شرقيها، والرابع في غربيها. والأول منها يسمى باب الجنة. وفي الأضلاع التي ليست بها أبواب توجد شبايك كبيرة، فيها أشكال كثيرة من الزجاج الملون، غاية في حسن الصناعة، وخصوصاً في تنسيق الألوان المختلفة التي بانعكاسها على جُدُر القبة تعطي أشكالاً بديعة جداً تزيد في رونقها، لا سيما إذا كانت الأبواب مقفلة!!

ويحيط بالقبة من الخارج فناء كبير أرضه مفروشة بالرخام يسمونه مصطبة الصخرة. وطول هذه المصطبة من الشرق إلى الغرب لا يقل عن مائة وثمانين متراً، وعرضها يزيد عن مائة متر. وترى بها هنا وهناك حول قبة الصخرة جملة قباب صغيرة، يسمون واحدة منها بقبة المعراج، يعني أنها ضربت على المكان الذي عرج منه النبي صلى الله عليه وسلم. والثانية يسمونها قبة الخضر. والثالثة قبة الأرواح ... إلخ. وغالبها في الجهة الغربية من قبة الصخرة. أما الشرقية ففيها قبة السلسلة، وهو شكل مصغر لقبة الصخرة إلا أنها قامت على عمد من المرمر؛ ويزعمون أنها كانت محل حكومة داود عليه السلام، ويقولون: إنه كان بجوارها سلسلة تنزل من السماء إذا أمسك الشخص بها وحلف عليها كذباً انفصلت عنها حلقة فتصعقه لوقته!!

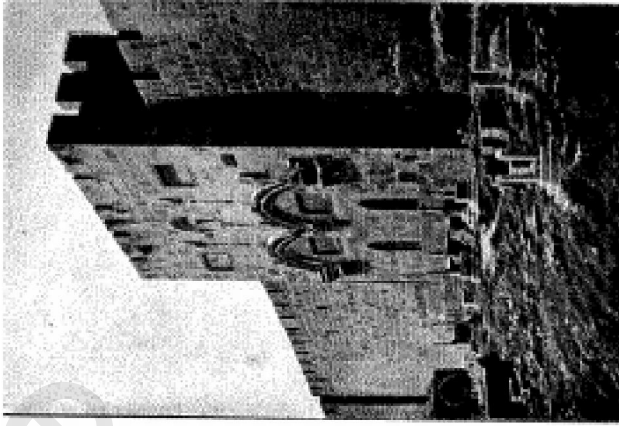
وهذه المصطبة ترتفع عن أرضية الحرم بنحو ثلاثة أمتار ونصف، ويصعد إليها بثمانية سلام في كل جهاتها: منها ثلاثة في الغرب، وسُلَّمان في الشمال، وسُلَّمان في الجنوب، وسلم واحد في جهة الشرق. وسعة الدرجة الواحدة من هذه السلام لا تقل عن عشرين متراً. ويقوم على طول الدرجة العليا من جميعها خمسة أعمدة قامت عليها أربعة أقواس لا يقل ارتفاعها عن عشرة أمتار، وهي أشبه شيء بمدخل المعابد الرومانية. وربما كانت من أعمال هيرودوس ملك

اليهود، حين بنائه للهيكل سنة (١٩ قبل المسيح). ويسمون هذه الأقواس بالموازين: يعني التي تزن أعمال الخلق يوم القيامة، كما يزعمون أن الصخرة تكون عرش الله في ذلك اليوم. ومسلمو القدس يشتركون في هذه الأفكار مع اليهود، وإذا فأصلها يهودي صرف.

وحول مصطبة الصخرة يوجد حوش الحرم القدسي، وهو على هيئة مستطيلة غير منتظم من الشمال إلى الجنوب: وطول ضلعه الغربي ٤٩٠ متر، والشرقي ٤٧٤ متر، والشمال ٣٢١ متر، والجنوبي ٢٨٣ متر. وفي الجهة الشرقية وبعض القبلىة سور به مزاغل ارتفاعه ٨ أمتار تقريباً، وهو قديم جداً رممه السلطان صلاح الدين الأيوبي، والسلطان سليمان القانوني. وهاتان الجهتان تشرفان على وادي سدرون (وادي مريم)، وبعضهم يسميه وادي جهنم، واليهود يسمونه وادي يوسفات، وقد ورد ذكره في التوراة بلفظ يوشافاط، ويزعمون أن به يحشر الناس يوم القيامة، وهنالك يتسع فناؤه وتنفسح أرجاؤه! وهذا الوادي يفصل بين جبل الزيتون وجبل صهيون الذي بنيت عليه مدينة بيت المقدس. أما الجهتان الأخريان (الغربية والشمالية) ففيهما جملة مدارس على محيط الحرم، أشهرها مدرسة قايتباي في الجهة الغربية ويسكنها الناس الآن، وأما التي في الجهة الشمالية ففيها قشلاق للعسكر.

وفي حوش الحرم جملة مصاطب صغيرة يصلون فيها، وفي كل واحدة محراب إلى القبلة. وفي الجهة الغربية قبة جميلة جداً أقيمت على سبيل للأشرف قايتباي. أما الجهة القبلىة ففيها مسجد كبير فخيم يسمونه بالمسجد الأقصى: وليس هو المراد بما ذكر في القرآن الكريم؛ لأنه كان كنيسة بناها الإمبراطور جوستنيان في منتصف القرن السادس للمسيح، وحولت إلى مسجد إسلامي بعد الفتح. وإنما كان المراد به المسجد الذي حول الصخرة نفسها كما تقدم. ولما

حضر سيدنا عمر رضي الله عنه إلى بيت المقدس، صلى في الجانب الشرقي الجنوبي للمسجد الأقصى، وترى مصلاه إلى الآن على بساطة تامة في بناءه بجوار الفخامة التي عليها باقي المسجد. وباب هذا المسجد إلى الشمال فيما يقابل مسجد الصخرة، وطوله من الشمال إلى الجنوب (٨٠) مترًا، ومن الشرق إلى الغرب (٥٥) مترًا، من غير الزيادات التي أضيفت عليه شرقًا وغربًا. وجميعه مستوف، ويحمل سقفه أعمدة عظيمة من الرخام المرمر الجميل، ومن ضمنها عمودان بجوار بعضهما إلى جهة القبلة من الشرق، عليهما دربزين من الحديد ليمنع الناس من الولوج بينهما، بدعوى أن من يمر من بينهما يكون سعيدًا وإلا كان شقيًّا (كما يقال عن العمودين اللذين بمسجد عمرو بن العاص بفسطاط مصر)!!



البَيْتُ الذِي فِي الْحَجَّاتِ الْأَقْيَمِ
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْبَيْتُ الذِي فِي الْحَجَّاتِ الْأَقْيَمِ
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وفي هذا المسجد منبر جميل جداً من خشب الأبنوس المطعم بالسن والصدف أهدها إليه نور الدين الشهيد محمود بن زنكي. وإلى جواره من الغرب محراب صغير في أرضيته حجر به أثر قدم ينسبونه إلى عيسى عليه السلام.

ويوجد في حوش الحرم وخصوصًا في الجهة الغربية والقبلية صهاريج كثيرة، وأبواب توصل إلى كهوف تحت الأرض: واحد منها بجوار المسجد الأقصى من جهة الشرق، وينزل إليه بجملة درجات من الحجر، توصل إلى مكان واسع مربع الشكل، في وسطه عمودان كبيران من الحجر الصلد، يحملان قبابًا يستند عليها سقف المكان، وفي جوانبه حوائط بها فتحات مسدودة.

وأهم هذه الكهوف ما يسمونه بإصطبلات سليمان: وتوجد في الزاوية القبلية الشرقية للحرم. وينزل إليها بواسطة سلم صغيرة بجوار السور الشرقي، وترى في وسطها صدفة كبيرة بجانبها دخلة فيها إناء كبير من الرخام، ويزعمون أنه مهد مريم أو محراب مريم ويقولون: إن زكرياء كان يأتيها بالطعام هناك. وهذه السلم توصل إلى فناء رحيب، يحمل عرشه اثنا عشر صفاً من العمدة الكبيرة، يكون مجموعها (٨٨) عمودًا، ارتفاع متوسطها ثمانية أمتار أو أكثر. وكل هذه العمدة تحمل أقواسًا عليها قباب تدعم أرضية الحرم. وحول هذا الفناء حوائط من البناء العتيق، وفي الجهة القبلية منه باب مسدود ينفذ على وادي سدرون. وفي الجهة الشمالية والغربية فتحات مسدودة بعضها صغير وبعضها كبير، ربما كانت توصل إلى مثل هذا المكان؛ مما جعل بعضه فيما بعد صهاريج لحزن مياه الأمطار معروفة بأسماء من اتخذها لهذا الغرض، وقد رأيت في زيارتي للقدس سنة (١٩١٠م) أمام بعض هذه الفتحات آثار حفر قديم.

ومن هذا يتضح لك أن أرضية الحرم كلها معلقة على مثل هذه العمدة؛ مما يدل على أن هذا كله إنما هو الهيكل الذي بناه سليمان أو خلفاؤه وسمّاه الصليبيون بإصطبلات سليمان. ولا يبعد أن اليهود استعملت جانبًا من هذا المكان وقت الكوارث التي حلت بهم زمن سنحاريب وبختنصر وطيغوس، ودفنوا فيه دفائنهم الثمينة، التي أكثر الجرائد أخيرًا من ذكر العثور عليها أو

على بعضها، وخبطت في شأنها ووصفها كثيرًا سواء بحق أو بغير حق، واهتمت الدولة بها اهتمامًا عظيمًا.

وللحرم الشريف عشرة أبواب: سبعة منها في الجهة الغربية، أهمها باب السلسلة في الوسط، ثم باب المغاربة إلى جنوبه، وباب القطانين إلى شماله. وفي الجهة الشمالية باب شرف الأنبياء؛ وهو الذي دخل منه عمر إلى المسجد، ثم باب الأسباط ويسمونه باب حطة، ويزعمون أنه هو الذي ورد ذكره في القرآن الكريم في قوله تعالى في سورة البقرة: {وادخلوا الباب سجدةً وقولوا حطة}. ويوجد في جهة الشرق باب الظاهرية وينزل إليه بسلام توصل إلى دهليز يحيط ببناء مربع، فيه أعمدة من الرخام من جوانبه الغربي والشمالي والجنوبي يقوم عليها سقف المكان. وقد أحيطت هذه الأعمدة بدرزين من الحديد عليه قطع كثيرة من الخرق البالية، يضعها العامة تذكيرًا لزيارتهم له. ويقولون: إن هذا المكان كان محل حكومة سليمان عليه السلام، وبه إلى الآن عمودان من السحاق (نوع جميل جدًا من المرمريندر وجوده الآن)، ويقولون: إنها أرسلتا إلى سليمان هدية من بلقيس ملكة سبأ. وبجوار هذا المكان باب له منفذان مغلقان على وادي سدرون: القبلي منهما يسمى باب التوبة، والشمالي باب الرحمة، وهذا الباب كان يسمى مدة العمارة التي قام بها هيرودوس في الهيكل باب سوزان، وهو الذي دخل منه هرقل إلى بيت المقدس سنة (٦٣٩ ميلادية)، ومن ثم سمي بالباب الذهبي.

ومفاتيح المسجد الأقصى والصخرة من مدة مديدة في يد عائلة الخالدي الشهيرة، وكذلك في يدهم مفاتيح كنيسة القيامة لعدم اتفاق طوائف النصارى عليها.

أمّا المدينة فهي واقعة في درجة ٣١ و ٢٧ دقيقة من خطوط العرض الشمالي، ودرجة ٣٢ و ٥٤ دقيقة و ٤٥ ثانية من خطوط الطول الشرقي، ومتوسط ارتفاعها عن سطح البحر ٧٧٠ متر. وهي مبنية على هضبتين عاليتين؛ إحداهما على جبل صهيون، والثانية على جبل عكره، وتنحدر مبانيها نحو الشرق إلى وادي سدرون، ونحو الجنوب الغربي إلى وادي هنوم. وعدد سكانها الآن (٧٠ ألفاً): منهم عشرة من المسلمين، وخمسة وأربعون من اليهود، وخمسة عشر من النصارى من أجناس مختلفة وأغلبهم من الأروام.

وللمدينة القدس طريق حديدي ضيق من يافا طوله نحو (٨٠) كيلومتراً، وهو لشركة فرنساوية قامت بعمله في منتصف القرن الماضي.

ولقد كانت هذه المدينة في منتصف القرن الخامس عشر قبل المسيح عامرة، وكانت تسمى يَبُوس، وكان سكانها يُسمّون اليبوسيين.

وفي مبدأ القرن العاشر قبل الميلاد استولى عليها داود ملك بني إسرائيل، وكان ملكه في حبرون، وأتى إليها بتابوت العهد وعَمَّرَ فيها كثيراً وسماها أورشليم، وبنى في غربها الجنوبي مدينته التي سماها باسمه، وقبره موجود فيها على جبل موريا، وخَلَفَه ابنه سليمان فزاد في عمارتها وبنى على الصخرة الهيكل المقدس. ولما تقسمت مملكة فلسطين بين أسباط بني إسرائيل، وقعت مدينة أورشليم في نصيب يهودا. وفي مدة بنيه حاصرها سنحاريب ملك بابل سنة (٧١٢ ق م) ورجع عنها بعد أن هدم جانباً منها ونهب شيئاً من أمتعة هيكلها. ثم استولى عليها بختنصر ثلاث دفعات: سنة (٦٠٦ و ٥٩٦ و ٥٨٨ قبل الميلاد). وبعد أن نهبها واستولى على كل ما عثر عليه من ذخائرها، أمر بها فهدمت ولم يتركها إلا بعد أن جعل عاليها سافلها.

وفي سنة (٥٣٦ ق م) استولى عليها قيروش ملك العجم، وأمر بها فبنيت وجدد بناء هيكلها سنة (٥١٦ ق م)، وأعاد إليه جميع ذخائره التي نهبها الآشوريون. وما زالت أورشليم عامرة حتى استولى عليها الرومانيون مدة الملك بومبيوس سنة (٦٤ ق م). وفي مدة حكم الرومان ظهر فيها المسيح عليه السلام. ولما استولى عليها الملك طيطوس سنة (٧٠ م) أحرق هيكلها وهدم المدينة بعد أن طرد اليهود منها. وما زالت حتى عمرها الملك أدریان وسماها «إيليا». ومنع اليهود من أن يطمئوا أرضها، وجعل الديانة الرسمية فيها المسيحية، وبنى فيها كنيسة القيامة سنة (١٣٨ م). وما زالت مدينة القدس في يد الرومانيين حتى استولى عليها العرب في سنة (٦٣٦ م)، وكانوا يسمونها بيت القدس، وأتى إليها سيدنا «عمر بن الخطاب» بنفسه لفتحها وأطلق الحرية المطلقة للنصارى واليهود في مزاولة دياناتهم والتصرف في أموالهم، ومنحهم كثيراً من فضله في عهده الذي كتبه لهم!! مما يدل على منتهى التسامح الإسلامي الذي كثيراً ما ينساه أو يتناساه أعداؤه خصوصاً في هذه الأيام.

وفي سنة (٩٦٩ م) تغلب الفاطميون على هذه المدينة، ثم استولى عليها السلجوقيون في سنة (١٠٨٦ م)، ثم أخذها الصليبيون في سنة (١٠٩٩ م)، وأقاموا فيها مملكة سموها مملكة القدس، مكثت في أيديهم كل مدة الحروب الصليبية الأولى، وأحسن ملوكها هو الذي كانت تسميه العرب «البردويل» (Bauduin). وما زالت هذه المملكة في يد الصليبيين حتى غلبهم عليها صلاح الدين الأيوبي في سنة (١١٨٦ م)، وبقيت في حكم ملوك مصر حتى استولى عليها الأتراك سنة (١٥١٧ م)، وهي باقية بأيديهم إلى الآن.

وللسلطان «سليمان القانوني» في هذه البلاد آثار كثيرة تذكر له بالشكر؛ ولكن أهلها اختلط عليهم الأمر فينسبون كل إصلاح له إلى سليمان بن داود عليه السلام.

ولتتمة الكلام على بيت المقدس نقول لك: إنه يوجد فيه مزارات كثيرة: منها وراء سور المدينة في الجهة الغربية القبلية في قمة جبل صهيون، مسجد فيه قبر سيدنا داود عليه السلام، ويقول بعضهم: إن سليمان ولده مدفون معه، ويقول آخرون: بل هو مدفون في مصطبة الصخرة. وبعضهم يقول: إنه داخلها تحت البلاطة السوداء. ويوجد تحت سور المدينة من جهة الشرق قبر سيدنا عبادة بن الصامت وسيدنا شداد بن أويس الأنصاري. وإلى ناحية من هناك المغارة التي فيها قبر السيدة مريم. وفي جبل طور زيتا قبر سيدنا سلمان الفارسي الصحابي، والسيدة رابعة العدوية، وقبة صعود سيدنا عيسى عليه السلام، وقبر الشيخ حسن الراعي وقبر العزيز عليه السلام. وعلى بعد ست ساعات بالعربة من جنوب بيت المقدس مدينة الخليل، ويسمونها اليهود حبرون، وفيها مسجد مرتفع عن الأرض بنحو عشرة أمتار، وبه قبر إبراهيم وسارة وإسحاق ويعقوب ويوسف عليهم السلام، وهذه القبور كلها في مغارة تحت أرضية المسجد، وهي مغارة المكفيلة التي اشتراها إبراهيم ليُدفن بها، ولها مزارات على سطحها في أرض المسجد. وعدد سكان هذه المدينة عشرون ألفاً منهم (١٥) من اليهود، والباقي من المسلمين.

وفي الطريق بين الخليل وبيت المقدس مدينة بيت لحم، وفيها كنيسة فخيمة أقيمت على المكان الذي ولد فيه المسيح. ترى في داخلها على الدوام عسكرياً من الجند العثماني لحفظ النظام الذي كثيراً ما يعبث به تشاحن بعض الطوائف المسيحية مع بعضهم.

كيف تحج أيها المسلم؟

اعلم -وفقك الله لطاعته- أنَّ الحج فرض على المسلمين في أواخر سنة تسع من الهجرة، مرة واحدة في العمر على كل مسلم، حر، مُكَلَّف، صحيح البدن، ميسور الزاد والراحلة، قادر على نفقة عياله مدة سفره في حجه، مع أمن الطريق إليه. ويحرم الحج بمالٍ حرام، ويكره بدون إذن من له الولاية على من يريده. وتجوز الإنابة فيه عند العجز عن أدائه بحبس أو مرض، فإن زال وجب أدائه بالذات.

فإذا تيسر لك ذلك كله فسافر على بركة الله لأداء هذه الفريضة. فإذا وصلت إلى ميقات الإحرام فأحرم بنية الحج (أو العُمرة^(١)) إن شئت، أو هما معًا) قائلًا: اللّهُمَّ إِنِّي نَوَيْتُ الْإِحْرَامَ لِحَجِّ بَيْتِكَ الْمَعْظَمِ فَيْسِرَهُ لِي وَتَقَبَّلْهُ مِنِّي. (وكيفية الإحرام أن يتجرد الرجل من مخيط الثياب، ويلبس إزارًا معه رداء ونعلان إن تيسر له ذلك. أمّا المرأة فتلبس ملابسها وتكشف كفيها ووجهها إن لم تخش الفتنة. ويُسنُّ تقليم الأظافر وحلق ما شعث تحت البطن «العانة» وتسريح الشعر والغسل قبل الإحرام وصلاة ركعتين يبدؤه بهما). ثم تلي قائلًا: «لبيك اللّهُمَّ لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكُ، لا شريك له». ولا تزال تكرر التلبية من وقت إلى آخر، حتى إذا

(١) العُمرة في اصطلاح الحجيج: زيارة البيت الحرام. وهي سنة عند المسلمين، وأركانها: إحرام، وطواف، وسعي، وحلق أو تقصير. وليس لها زمن مخصوص، وكثير من الحجاج إذا وصلوا إلى مكة يذهبون إلى التنعيم، وهو أقرب مكان في الحل على طريق المدينة قبل وادي فاطمة، ويتوضئون من ماء هناك ثم يرمون بنية الاعتمار، ويصلون ركعتين سنة إحرام العمرة، ثم يعودون إلى مكة فيطوفون ويسعون، ثم يحلقون أو يقصرون ثم يتحللون.

دخلت مكة قلت: «اللَّهُمَّ إن هذا الحرم حرمك، والأمن أمنك، والعبد عبدك، اللَّهُمَّ إني جئتُك من بلاد بعيدة بذنوب كثيرة راجياً أن تستقبلني بمحض عفوك وكرمك، وأن تُحرِّم جسدي على النار، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم».

فإذا جئت إلى الحرم فادخل من «باب السلام» قائلاً: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم، اللَّهُمَّ أنت السلام، ومنك السلام، فحيناً بالسلام وأدخلنا الجنة دار السلام بفضلِكَ يا ذا الجلال والإكرام». ثم سرَّ نحو البيت من جهة الشرق قائلاً: «اللَّهُمَّ إن هذا الحرم حرمك، وهذا الأمن أمنك، اللَّهُمَّ حرِّم جسمي على النار». فإذا وقع بصرك على الكعبة فقل: «بسم الله، والله أكبر (ثلاثاً)، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير». وادخل من «باب شيبه» قائلاً: «{رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق، واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً، وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً، ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً}».

فإذا أتيت الحجر الأسود فاستقبله وقل: «بسم الله، الله أكبر والله الحمد، اللَّهُمَّ اغفر لي ذنبي، وطهر لي قلبي، وشرح لي صدري، وعافني برحمتك فيمن تعافى». ثم استلمه بيمينك وَقَبَّله (إن أمكنك) وانو الطواف قائلاً: «اللَّهُمَّ إني نويت طواف بيتك المعظم سبعة أشواط لوجهك الكريم، اللَّهُمَّ يسرها لي وتقبلها مني». ثم انطلق في طوافك قائلاً: «اللَّهُمَّ إيماناً بك، وتصديقاً بكتابك، ووفاء بعهدك، واتباعاً لسنة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، اللَّهُمَّ إن هذا البيت بيتك، والحرم حرمك، والأمن أمنك، وهذا مقام العائذ بك من النار، فأعذني

منها يا عزيز يا غفار، اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر وضيق الصدر وعذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، اللهم إني أسألك العفو والعافية والمعافة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة، اللهم أظلني تحت عرشك يوم لا ظل إلا ظلك، واسقني بكأس نبيك محمد صلى الله عليه وسلم شربة هنيئة مريئة لا أظمأ بعدها أبدًا، اللهم اجعله حجًا مبرورًا وسعيًا مشكورًا، وذنبًا مغفورًا وتجارة لن تبور. اللهم إني أعوذ بك من الشك والشرك، والنفاق وسوء الأخلاق، وسوء المنقلب، وسوء المنظر في المال والأهل والولد، اللهم إني عبدك وابن عبدك، قد أتيتك بذنوب كثيرة، اللهم ما كان لك منها فاغفر لي، وما كان منها لعبادك فاحمله عني». وكلما قربت من الحجر الأسود قل: «{ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار}». فإذا حاذيته فقل مستلماً -إن أمكنك- أو مسلماً عليه بيمينك من بُعد: «بسم الله، الله أكبر»، ثم ادع الله تعالى بما تشاء من الأدعية السابقة أو بما يحضرك من غيرها، وإلا فحسبك الذكر والتوحيد والاستغفار، ويجمعها قولك: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم».

ويُسن «الاضطباع» في طواف القدوم: وهو إخراج الذراع الأيمن فوق الرداء الذي تشتمل به. وكذلك يُسن فيه «الرمل» (أي الجري بخطى ضيقة إشارة إلى أن الجسم ممتلئ قوة وشهامة، ولم تؤثر فيه عوامل مشقة السفر في سبيل الله).

وبعد طوافك سبعة أشواط على هذا النظام توجه خلف «مقام إبراهيم» وصلّ ركعتين سنة الطواف، ثم قل: «اللهم إنك دعوت عبادك إلى بيتك الحرام وقد جئت طائعاً لأمرك، فاغفر لي وارحمني، اللهم اغفر لي ولوالدي وارحمهما كما ربياني صغيراً، اللهم اغفر لي ولجميع المؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم

والأموات». ثم اقصد الملتزم وقل: «اللهم يا رب البيت العتيق، أعتق رقابنا ورقاب آبائنا وأمهاتنا وإخواننا وأولادنا من النار، اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة، اللهم إني عبدك وابن عبدك واقف تحت بابك، ملتزم لأعتابك، متذل بين يديك، أرجو رحمتك وأخشى عذابك، اللهم اشرح لي صدري، ويسر لي أمري، واغفر لي ذنبي».

ثم اذهب إلى «بئر زمزم» فاشرب منها هنيئاً مريئاً. ثم توجه إلى «المسعى» فإذا خرجت من «باب الصفا» فقل: «بسم الله الرحمن الرحيم: {إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما}». ثم اصعد على درجات الصفا وتوجه إلى الكعبة، فإذا شاهدتها قل: «بسم الله، الله أكبر، ولله الحمد». ثم اسع إلى «المروة» قائلاً: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون، اللهم إني أعوذ بك من عضال الداء، وخيبة الرجاء، وشماتة الأعداء، وزوال النعمة ونزول النعمة». وتهول بين الميلين الأخضرين (وهما عمودان مبيان في جدار الحرم: واحد بجوار باب البغلة، والآخر بجوار باب علي، ومسافة ما بينهما سبعون متراً) قائلاً: «رب اغفر وارحم، وتجاوز عما تعلم، إنك أنت الأعز الأكرم، ربنا آتينا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار، يا عزيز يا غفار، يا أرحم الراحمين». ثم ادع الله بما شئت، حتى إذا أتيت «المروة» فاصعد على سلمها وتوجه إلى المسعى^(١) وادع بما شئت. ويعد هذا شوطاً من السعي.

(١) المسعى هو ما بين الصفا والمروة، وطوله نحو أربعمئة وعشرين متراً، وهو شارع عمومي محاط بالبيوت والمخازن والكاكين، مما يجعله مزدحماً بالناس زمن الموسم لا سيما عند دخول القوافل

وهكذا تسعى في الأشواط السبعة. وتستحضر أثناء سعيك ذلك الجهد الذي أصاب «هاجر» في هرولتها طلباً للماء عند قدومها بولدها إلى هذه الفلاة، ورحمة الله بها بعثورها على «عين زمزم»، فكان عليها استعمار مكة التي أصبحت قبلة للمسلمين في جميع أطراف الأرض. وإذا كنت متمتعاً (محرمًا بالعمرة) حلقت أو قصرت وتحللت (فككت إحرامك)، حتى إذا كان يوم التروية (اليوم الذي قبل يوم عرفة) أحرمت للحج. أمّا إن كانت قارناً (أعني محرمًا بالحج والعمرة معاً)، أو مفردًا (محرمًا بالحج فقط)، بقيت بإحرامك في مكة إلى يوم التروية، ثم تتوجه إلى عرفة فتبيت فيها إن لم تكن أردت المبيت بمنى. وتقضي بعرفة^(١) يوم التاسع من ذي الحجة وجزأ من ليلة العاشر في الذكر والتوحيد والتسبيح والتهليل والتلبية والصلاة على النبي والإكثار من تلاوة سورة الإخلاص ومن قولك: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير». وتكثر من الدعاء والتضرع إلى الله بقبول حجك وغفران ذنبك خصوصاً بعد العصر.

بالحجيج إلى مكة، وهنالك يكثر الساعون ويصادفون في سعيهم مشقات كثيرة. وعلى طرفي المسعى وخصوصاً من جهة المروة دكاكين للحلافين يلحق أو يقصر فيها من أراد أن يتحلل من إحرامه.

(١) يكفي في «الوقوف بعرفة» لحظة من يوم التاسع وليلة العاشر. ولو فاتك الوقوف فقد فاتك الحج من عامك، فتحلل بعمرة، وعليك قضاؤه في العام القابل ولو كان حجك نفلاً. هذا عند أهل السنة، أما عند الشيعة من الأعجام فحاجهم لو فاته الوقوف فإنه لا يتحلل حتى يقضي حجه في عام قابل؛ لذلك تراهم يبالبغون في الاحتياط لوقوفهم فيقفون في اليوم التاسع والعاشر، ولا ينزلون من عرفة إلا بعد قليل من ليل الحادي عشر.

ولقد فاتهم الوقوف سنة (١١٤٣) فأقاموا بمكة محرمين حتى أداوا الفريضة سنة (١١٤٤)، ولكن أهل مكة قاموا عليهم بدعوى أنهم وضعوا نجاسة في البيت وأرغموا الشريف «محمد بن عبد الله بن سعيد» على إصدار أمره بإخراجهم من البلد الحرام، فساروا إلى الطائف وجدة وأقاموا بها إلى الموسم التالي.

ويُسن الجمع (تقديم العصر مع الظهر) مع الإمام بعرفة. فإذا أفاض الإمام أو نائبه من عرفة فانفر معه إلى المزدلفة، وإن كنت مالكيًّا فحسبك من إقامتك بها مقدار ما تجمع فيه جمارك، وهي تسع وأربعون حصاة في حجم الفولة تقريبًا، وإن كنت شافعيًّا فحسبك الإقامة فيها جزءاً من نصف الليل الثاني، وإن كنت حنفيًّا فبت بها وانزل بعد صلاة الصبح إلى منى، وارم جمرة العقبة بسبع حصيات تقول في أثنائها: «بسم الله، الله أكبر، رجماً للشيطان وحزبه، اللهم تصديقاً بكتابك واتباعاً لسنة نبيك وخليتك عليهما الصلاة والسلام». ثم اذبح إن كان عليك هدي، ثم احلق أو قصّر وقل: «الحمد لله الذي قضى عني نسكي، اللهم زدني إيماناً و يقيناً». وهنالك يحل لك كل ما حرّم عليك في الإحرام؛ إلا النساء والطيب.

وفي اليوم الثاني ارم جمرة العقبة بعد الزوال، ثم ارم الجمرة الثانية، ثم الثالثة بسبع حصيات في كل جمرة، وكذلك تفعل في اليوم الثالث. ثم انزل إلى مكة وطف طواف الإفاضة، واسع إن لم تكن سعت بعد طواف القدوم. ومن الناس من ينزل في عاشر ذي الحجة إلى مكة، حتى إذا طاف طواف الإفاضة وسعى (إن كان عليه سعي) عاد من يومه إلى منى، ونزل منها إلى مكة بعد زوال اليوم الثالث عشر، وبهذا ينتهي الحج. ويقيم الحجاج في مكة أياماً يُصلحون فيها من شئونهم، ثم يقصدون السفر إلى الزيارة أو العودة إلى بلادهم.

محرمات الإحرام

يحرم على المحرم لبس المخيط، وتغطية الرأس، وإزالة شعره بتتف أو حلق، فإن فعل شيئاً من ذلك متعمداً أو ناسياً فعليه الفدية (بذبح شاه) إلا إذا كان الشعر الذي أزيل منه يسيراً لا يتجاوز اثنتي عشرة شعرة؛ فعليه حيثئذ أن يتصدق بحفنة من بر.

ويحرم عليه أيضاً تقليم أظافره، وعليه الفدية إن فعل؛ إلا إذا كان ظفراً أو ظفرين فعليه أن يتصدق بمُد أو مدين.

ويحرم عليه الطيب في يديه أو ثوبه أو فراشه أو أكله أو شربه أو في عطوس أو دهان، ويجب عليه به الفدية. ويحرم عليه صيد الحيوان أو قتله أو تنفيره أو إزعاجه، كما يحرم عليه قطع حشيش الحرم وشجره وعليه به دم. ويحرم عليه الجماع، وبه يفسد الحج.

وإذا فات الحاج شيء من أركان الحج أو العمرة أو شروطهما سهواً أو عمداً بطل حجه وعمرته، وإن فاته شيء من الواجبات وجب عليه دم لكل واجب تركه؛ وذلك بأن يذبح شاه في الحرم، فإن عجز عن الذبح صام ثلاثة أيام في الحج من وقت إحرامه إلى يوم النحر، وسبعة إذا رجع إلى بلده. هذا إذا كان ترك شيئاً منها قبل الوقوف، أما إن تركه بعده فله صوم العشرة أيام بعد عودته إلى وطنه. وإن فاته شيء من السنن أو المندوبات فعليه أن يتصدق.

جدول بمناسك الحج على المذاهب الأربعة

الحنبلي	الشافعي	المالكي	الحنفي	
ركن	ركن	ركن	شرط (وقيل: إنه ركن)	الإحرام للعمرة
//	//	//	ركن	طواف العمرة
//	//	//	واجب	السعي في العمرة
//	//	//	شرط	الإحرام للحج؛ وهو نية الدخول فيه
سنة	سنة	واجب	سنة	التلبية مع الإحرام وإعادتها بعد السعي
واجب	واجب	//	واجب	الإحرام من الميقات
سنة	سنة	واجب	سنة	طواف القدوم
شرط	شرط	//	واجب	البدء بالحجر في الطواف
//	//	شرط	//	ستر العورة في الطواف
//	//	//	//	الطهارة في الطواف من الحدثين
سنة	سنة	واجب	//	ركعتا الطواف
شرط	شرط	//	شرط	وقوع السعي بعد الطواف
سنة	سنة	//	سنة	عدم الفصل بين السعي والطواف
شرط	شرط	شرط	واجب	البدء في السعي من الصفا

الحنبلي	الشافعي	المالكي	الحنفي	
سنة	سنة	واجب	//	المشي في الطواف والسعي مع القدرة
شرط	//	//	سنة	موالاة الأشواط في الطواف والسعي
ركن	ركن	//	ركن	الوقوف بعرفة نهارًا
واجب	واجب	ركن	واجب	الوقوف بعرفة ليلاً
سنة	سنة	واجب	//	الدفع من عرفة مع الإمام (النفرة)
واجب	واجب	//	//	الوقوف بمزدلفة
سنة	سنة	سنة	//	تأخير جمع المغرب والعشاء بمزدلفة
واجب	واجب	واجب	سنة	المبيت بمنى ليالي أيام التشريق
//	//	//	واجب	رمي الجمار
سنة	سنة	//	سنة	عدم تأخير الرمي إلى الليل
واجب	ركن	//	واجب	الحلق أو التقصير
سنة	سنة	سنة	//	الترتيب بين الرمي والذبح والحلق
//	//	//	//	الحلق بالحرم وتوقيته بأيام النحر
ركن	ركن	ركن	ركن	طواف الإفاضة

الحنبلي	الشافعي	المالكي	الحنفي	
شرط	شرط	شرط	واجب (الركن عنده أربعة أشواط فقط).	طواف السبعة الأشواط
//	//	//	واجب	الطواف من وراء الحجر والشاذروان
سنة	سنة	واجب	سنة	تأخير طواف الإفاضة عن الرمي
//	//	//	واجب (إلى آخر شهر ذي الحجة)	فعل طواف الإفاضة في أيام النحر
ركن	ركن	ركن	واجب	السعي في الحج
واجب	واجب	مندوب	واجب	طواف الوداع

الإحرام

يجب أن يكون الإحرام من الميقات. ولكل جهة ميقات معين؛ فقد روي عن عمر وابن عباس: أَنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مهل أهل الشام الجُحْفَة، ومهل أهل المدينة من ذي الحُلَيْفَة، ومهل أهل نجد من قرن، ومهل أهل اليمن من يَلَمْلَم».

والجُحْفَة -وتسمى مَهْيَعَة- قرية صغيرة على طريق المدينة إلى مكة، وهي شرقي رابع، وعلى نحو ستة أميال منها (ويراد بأهل الشام هنا ما كان شمالي

مكة). وذو الحليفة (آبار علي) منزل رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خرج من المدينة المنورة لحج أو عمرة، وكان عليه الصلاة والسلام يحج من هذا الطريق ويهل من هذا المكان، وإذا عاد إلى المدينة دخل من طريق المعرس؛ وهو بطن الوادي. وكان طريقه إلى مكة على الصفراء وبدر وعسفان، ومنازله على غير منازل الحاج في أيامنا هذه، وربما اتفقت في كثير منها وإن اختلفت أسماؤها. وأما قرن المنازل فهو مشتبك طريق نجد مع طريق القافلة من الطائف إلى مكة، وهو على مرحلة من الطائف ومرحلتين من مكة (وقد كان في قرن لعننان مع بختنصر واقعة كبيرة في القرن الثالث عشر قبل الهجرة انتصر فيها الآشوريون على العرب، ثم رجعوا عنهم إلى بلادهم). أما «ذات عرق» التي يحرم منها القادمون من نجد فهي غربي قرن، والحد الفاصل بين نجد وتهامة؛ قال الشاعر:

كَأَنَّ الْمَطَايِمَ تَنْخُبُ بِتَهَامَةٍ إِذَا صَعَدَتْ عَنْ ذَاتِ عَرَقٍ صَدُورُهَا
و«يلملم» -بفتح أوله وثانيه- جبل على ليلتين من مكة، وهو في طريق اليمن إليها، وأوديته تنحدر إلى البحر.

وهذه المواقيت للخارج عن حدودها، أما الداخل فيها فيحرم من أي نقطة من الحل. ولا بد لنا أن نلاحظ أن جعله صلى الله عليه وسلم ميقات إحرام أهل المدينة من ذي الحليفة، التي هي على نحو عشرة مراحل من مكة، في حين أن مهل الجهات الأخرى لا يبعد عنها إلا بنحو مرحلتين، إنما هو لزيادة عنايته صلى الله عليه وسلم بالاستعداد للدخول إلى حرم الله، وأراد ذلك لأهل المدينة لأنهم أحب الناس إليه وأقربهم منه؛ وإنما الأجر على قدر المشقة. وكثير من الناس إذا عزموا على الحج يحرّمون من بيوتهم، وترى ذلك كثيرًا في أهل المغرب. وقد ذكر أن «عبد الله بن عامر» والي البصرة لعثمان ابن عفان، لما

أكرمهم الله بفتح بلاد الفرس من أدناها إلى أقصاها، حتى وصلت فتوحاته إلى حدود الهند شرقاً وتخوم سيبيريا شمالاً والمحيط الهندي جنوباً، قال له أحد خاصته: لم يفتح الله لأحد ما فتح عليك! فقال: لا جرم لأجعلنَّ شكري لله أن أخرج محرماً من موقفي هذا وأحرم بعمره من نيسابور.

لباس الإحرام

كان الناس قديماً يصنعون ملابسهم من القطن أو الكتان أو جلود الحيوان بحال بسيطة جداً، والمصريون كانوا يستعملون في أول أمرهم المتزر ثم البرنس: وهو قطعة من القماش تلقى على الأكتاف، وتربط بحزام وترسل إلى الركبتين في العامة أو إلى أسفل منها في الخاصة. حتى إذا ترفت الدولة في عمرانها أطالوا من ذلك البرنس إلى الكعبين، ولبسوا من تحته قميصاً لا أكمام له أخذوه عن الإثيوبيين^(١). وكانوا في مبدأ أمرهم يلونون ملابسهم بلون واحد (أخضر أو أزرق أو أحمر)، ثم انتهوا باستعمال كثير من الألوان في ثيابهم، مع ما كانوا يوشون به دوائرها بالأشرطة المنقوشة.

أمّا الأشوريون فقد كانوا يشتملون بقطعة كبيرة من القماش، ويمرون بها من تحت إبطهم الأيمن ويغطون بها الصدر، ثم يرسلونها على الكتف الأيسر، حيث يثبت طرفها؛ إمّا بعقدة أو بمشبك (انظر: سطر عشرين من صفحة ١١٥٣ من الجزء الثاني من دائرة المعارف الفرنسية الكبرى). ثم غيروا هذا

(١) هم سكان إثيوبيا: وهي مملكة قديمة كانت في جنوب مصر في المنطقة التي بها الحبشة وما والاها شرقاً إلى الصومال، وشمالاً وغرباً إلى جزء عظيم من السودان المصري.

الذي بأن لبسوا قميصًا صغيرًا ومن فوقه شيء يشبه العباءة. والأعجام كانوا يزدون على ذلك سراويل واسعة.

واليونان كانوا يلبسون رداءً طويلًا واسعًا ويمرون به من تحت إبطهم الأيمن، بعد أن يلفوا به وسطهم، ثم يرسلونه على ظهورهم بعد أن أن يغطوا به كتفهم الآخر. ثم صاروا يشملون به الجسم جميعه؛ ذلك بأنهم كانوا يأتون بهذا الرداء الطويل ويربطون طرفيه، ثم يدخلون ذراعهم الأيمن مع الرأس من فتحة ما بينهما، بحيث يكون العقدة على الكتف الأيسر، ثم يلف الجسم بباقي هذه الشملة ويسمونها شيون (Chion)، كما تراه إلى اليوم في عرب البادية المصرية خصوصًا عرب المغرب، ولا شك في أنهم أخذوا هذا الزي من الرومانيين أو القرطاجيين، ولبت فيهم على بداوته الأولى إلى الآن. وهذا الشكل يوجد منه صور كثيرة على الآثار الرومانية، وقد شاهدت شيئًا يماثله تمامًا على قاعدة المسلة التي في القسطنطينية في ميدان السلطان أحمد، وعلى بعض النواويس الموجودة في متحف الأستانة، وفي النقوش الموجودة في سقف جامع القاهرة (القصرية): وهو أول كنيسة بنيت في الأستانة وحولت إلى مسجد بعد الفتح.

أمّا دار الآثار المصرية فقد شاهدت فيها أن ملابس المصريين في قديم الزمان كانت تنحصر في لبس المئزر: وهو فوطة يلف بها النصف الأسفل من الجسم على هيئة ما يكون الرجل في أيامنا هذه داخل الحمامات العمومية^(١)، وأخص بالذكر مما رأيته على هذه الصورة تمثال كفرين المشهور بشيخ البلد في القاعة حرف (B)، وهو ثاني هرم الجيزة الثاني، ومن ملوك العائلة الرابعة

(١) هذا اللباس شائع للآن في أغلب بلاد السودان وغيرها من البلاد التي لا تزال على فطرتها الأولى، ونشاهده على كثير من أعراب البادية في إحرامهم وفي غير إحرامهم.

المصرية التي كانت توجد في القرن الخمسين قبل المسيح، ثم تمثال (رعنفر) من العائلة الخامسة في القاعة حرف (I)، ثم تمثالي أمور وأمون، وهما من معبودات المصريين، ثم صورة للمسيح بالدخلة الصغيرة للطريقة اليمنى تمثله بمئزر بسيط. ويوجد غير ذلك كثير من التماثيل البرنزية والنحاسية التي في دواليب المتحف لابسة شبه إحرام كامل، وقد شاهدت من بينهما تمثالاً من الفخار للعدراء وهي ملتحفة بشملة تغطي جميع جسمها وابنها على يدها.

أما القاعات الرومانية واليونانية التي على يمين صحن المتحف من الدور الأول، ففيها مثال الإحرام بأشكاله التامة؛ فترى في وسط القاعة حرف (T)، امرأة رومانية من الرخام الأبيض الوردي بهيئة إحرام كامل؛ أعني أنها ملتحفة برداء أبيض يغطي كل جسمها ما عدا رأسها. ويقرب منها مثال رجل من الجرانيت الأسود ملتحف برداء قد انحسر عن ذراعه الأيمن: وهو ما يسمونه في الإحرام بالاضطباع، وفي رجله نعلان لا يغطيان ظاهر القدم، اللهم إلا عروة يدخل فيها الإبهام، ويخرج منها سيران رفيعان يتصالبان على ما دون الكعبين، ويربطان فيما دون العقب: وهي ما يسمونها في الحجاز بالنعال الشرقية، التي أجمعت المذاهب الأربع على صحة الإحرام بها. وهذه النعل تراها أيضًا في قدم منفصلة عن جسمها، موضوعة على يسار الداخل في القاعة حرف (R).

ومتاحف الفنون الجميلة في جميع أنحاء الدنيا غاصة بصور الناس في العهد القديم وهم في لباسهم البسيط الذي يماثل لباس الإحرام بل هو بعينه. والآن يمثلون هذا اللباس تمامًا في تشخيص الروايات التي تشخص الزمن القديم الروماني أو اليوناني، وخصوصًا في تمثيل صور الأنبياء والحكماء.

ويقال: إن اليهود كانوا يستعملون في معابدهم لبس غير المخيط؛ أما الآن فيكتفون بوضع رداء على أكتافهم من الصوف يسمونه تلبيث أو تسيسوت، ليتشبهوا بموسى عليه السلام في بساطة لباسه.

ومن هذا ترى أن ملابس الناس في الزمن القديم - بل في جميع أدوار الأمم الحالية حتى في إبان حضارتها - كانت على هذه البساطة. وليس هذا بغريب، فإن آلة الخياطة ما كانت معروفة في تلك الأزمان، ولقد كان الناس يستعملون أولاً في خياطة ملابسهم شوك الأسماك وسل النخل، ثم توصلوا إلى استعمال الإبر الحديدية، أما الإبر التي من الصلب فإنها لم تخترع إلا في القرن الرابع عشر للمسيح، ولم يذع استعمالها في أوروبا إلا في القرن السادس عشر.

وكان أبسط تلك الملابس شكلاً ونوعاً ملابس الأثوريين الذين هم إخوان الكلدانيين، الذين خرج منهم إبراهيم (لأن كلبهما من الجنس السامي): وعليه فلباس الإحرام كان هو هو بذاته ذلك اللباس البسيط الذي كان يلبسه إبراهيم عليه السلام حين أمره الله تعالى بالحج قائلاً: {وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق}.

وما زالت هذه السنة قائمة في حج البيت إلى الآن. وأما كونه أبيض فلا أن لون البياض شعار الطهارة والنظافة، وإلا فالغرض من الإحرام لبس غير المخيط مطلقاً؛ إشارة إلى أن الإنسان خرج إلى ربه من زخارف الدنيا وما فيها إلى بساطة الوجود وبدأوته، خرج إلى ربه من أهبة الحياة ورفهها، وتمثل بين يديه تعالى بحال رجع فيها إلى طبيعة الوجود البشري من حيث البساطة التامة، التي كان مظهرها ذاك الزي الذي يمثل الاشتراكية الحقبة بكل معانيها، فيستوي فيه الصعلوك والملوك، هذا الزي الذي يستقبل الإنسان في مهده ويشيعه إلى لحد، حتى كأنه يقول لربه: اللهم إني قد نزعته عن نفسي ظاهرها وباطنها رداء قد

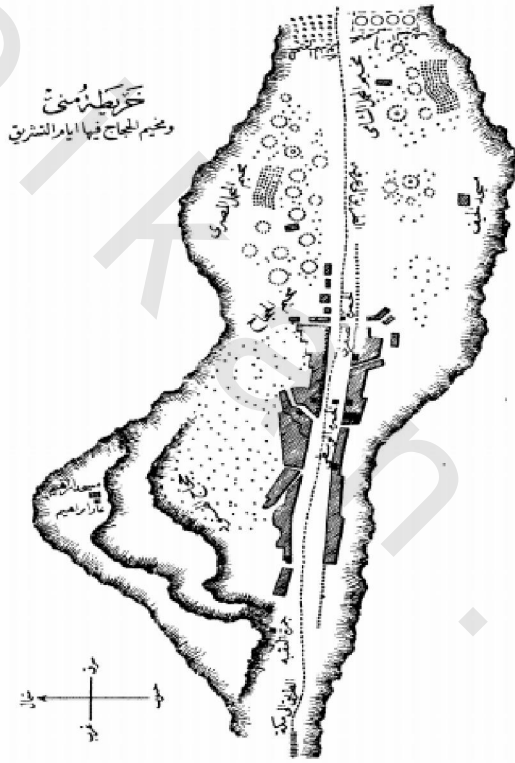
وشته الأباطيل وموهته الأضاليل، وخرجت إليك وقد جردت نفسي لك مما أملك، طامعاً في نيل ما لا أملك من نعم إن عشت أعود بها إلى حياة كلها فضيلة وخير وبركة، وإن مت أقضي بها في سبيلك ومحبتك وطاعتك، وأنتقل بها إلى دار السعادة الحقيقية فأحشر في زمرة المقبولين والصديقين، زمرة الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

وهلا رأيت ذلك اللباس الأكليريوسي البسيط (لباس الرهبان) الذي رسم عليه كل من تمثالي غليوم الثاني إمبراطور ألمانيا والإمبراطورة قرينته، وأرسل بهما فوضعا في الملجأ الألماني الذي بني في بيت المقدس، وسافر البرنس ايتل لافتتاحه رسمياً بالنيابة عن والده الإمبراطور في شهر إبريل الماضي سنة (١٩١٠).

على أنه لا يعزب عن فطنتك وينبو عن فكرتك أن الأطباء وجدوا أخيراً أن الإنسان لا بد له من تعريض جسمه إلى الهواء المطلق ومؤثرات الجو نحو شهر من كل سنة، يسترجع فيه الجسم قوته ويستعيد نشاطه، بفضل ملاصقة أوكسجين الهواء لجميع مسام جسمه، وبهذه العملية يحترق ما في الدم من الكربون الذي تشبع به أثناء دورته من الفضلات التي تخلقت في الجسم، فيعود إلى القلب دمًا نقيًا زكيًا صالحًا لتغذية الحياة بمادة القوة، التي تكون بها العافية التامة والصحة العامة، التي هي قوام الوجود؛ بل الحياة بجميع معانيها.

لذلك ترى الأوروبيين -وعلى الخصوص الإنجليز (لاعتنائهم بصحتهم أكثر من غيرهم)- يعمدون كل سنة إلى الجبال، أو إلى شواطئ البحار، فيخلعون ثيابهم إلا ما يستر عورتهم ويقيمون على هذه الحال شهرًا أو أكثر يستعيدون فيه ما فقدوه من قواهم في سبيل العمل طول سنتهم. وكثيرًا ما رأيت الفرنجة في هذه الأماكن الصحية على شاطئ البحر، حفاة عراة معرضين

بكل جسمهم للهواء وبرودة الجو أو حرارة الشمس جملة ساعات، وليس عليهم إلا تلك العانة المستعارة التي يغطون بها السبيلين، ويسمون ذلك بعلاج الطبيعة أو علاج الهواء (Cured air). ولا غرابة إذا رجعت بنا المدينة الحديثة إلى كثير من العوائد التي كان عليها القدماء في بداوتهم مما يسميه الجاهلاء خشونة وتوحشاً.



وإذا فلا عبرة بما يقوله المخرفون أو المتحاملون على الدين الإسلامي المتعصبون عليه، من أن الإحرام هو سبب كثير من الأمراض التي تعترى الحاج بمكة وعرفة! ولو أنصفوا لنسبوا كل ما يقع لبعض المحرمين من البرودة شتاء والاحتقانات الدماغية صيفاً إلى علته الحقيقية وهو الفقر، الذي يموت

منه يومياً آلاف من الناس على قوارع الطرق في عواصم الدنيا المتمدنة. ولقد شاهدت في بعض أسفاري بعاصمة من عواصم أوربا شاباً يموت من البرد والناس حوله ينظرون إلى ما يعترى جسمه من انفعالات الموت، بين ضاحك منه وساخط عليه!! وإذا فالمحرم الذي يحرم بثوب واحد يكون من عادته لبس ثوب واحد، وإلا فلا حجر عليه أن يلبس ما شاء من غير مخيط، أو يضع على رأسه مظلة، أو يلبس ما شاء من مخيط ويفدي عنه بما يساعد على حياة البائس والفقير.

خروج الحجاج إلى عرفة وإفاضته منها

في السابع والثامن من شهر ذي الحجة يبتدئ الناس في الخروج من مكة إلى عرفة على جماهم أو حميرهم أو أقدامهم، ويتجهون إلى طريق الشرق مارين بالمعل، ثم يسرون نحو الشرق بميل خفيف إلى الجنوب بين جبلين في واد عرضه يختلف من مائة متر إلى خمسمائة، وحركة الناس فيه لا تنقطع في هذين اليومين. وفي نهاية مكة من هذه الجهة «البياضية» وفيها قصر الشريف عبد الطلب على يمين السالك إلى عرفة، يحيط به بستان أغلب أشجاره من شجر السدر. وبعد نحو ثلاثة كيلومترات منه تجد جبل النور على يسارك، وقمته عالية جداً قد أقيمت عليها قبة بيضاء ضاربة بنورها إلى السماء، وكان هذا المكان يتعبد الناس فيه قبل الإسلام، وتعبد به النبي صلى الله عليه وسلم قبل بعثته وابتداء نزول الوحي عليه فيه. ثم تنعطف قليلاً نحو الجنوب، وبعد نحو خمسة كيلومترات تصل إلى منى، فترى في مبدأ دخولك في طريقها العمومي على اليسار جمرة العقبة: وهي حائط من الحجر ارتفاعه نحو ثلاثة أمتار في

عرض نحو مترين، قد أقيم على قطعة من صخرة مرتفعة عن الأرض بنحو متر ونصف، ومن أسفل هذا الحائط حوض من البناء تسقط إليه حجارة الرجم (الجمار) الذي يقوم الحاج بعمليته عند الإفاضة من عرفة. ولقد كانت منى^(١) مكاناً مقدساً عند عرب الجاهلية، وكان بها لهم بيت لأصنامهم. وهي الآن مكان متسع طوله من الغرب إلى الشرق، قد أقيمت فيه بيوت أغلبها لأشراف مكة وأغنيائهم، يسكن بعض الحجاج فيها بالأجرة عند ذهابهم إلى عرفة أو عودتهم منها، أما غالب الحجيج فإنه يكون مخيماً بالفضاء الذي يحيط بها، وفي غير الموسم لا يكون فيها أحد في الغالب. وفي هذه المدينة شارعان متوازيان على طول الوادي. وفي شارعها العمومي ترى الجمرتين الآخرين في وسط الطريق واحدة بعد الأخرى.

وبعد هذه المساكن إلى الشرق ترى الوادي يتسع من الجنوب على مسافة اثنين كيلومتر، وتشاهد به على يمينك مسجد الخيف، ثم المصطبة التي تنصب فيها خيم الشريف والوالي مدة إقامتهما في منى زمن الحج. ومن ثم يضيق الوادي ويسمى بوادي محسر، حتى إذا وصل إلى المزدلفة وهي على مسافة ساعتين من منى أخذ في الاتساع مرة أخرى. وهناك ترى على يمينك المشعر الحرام الذي يجب الوقوف عنده في النزول من عرفة، وفي هذه الجهة^(٢) مسجد على جبل قزح عَمَّرَه السلطان قايتباي، ومن هناك يضيق الوادي ثانياً ويسمى بوادي عُرْنَة (بضم العين وفتح الراء والنون) حتى إذا قرب من مسجد نَمْرَة (ويسمى مسجد عرفة أو مسجد إبراهيم) انفتحت أرجاؤه إلى الشمال والجنوب. وهذا المسجد كبير قد أحاطت به البواكي في جهاته الأربع من

(١) لا يبعد أن يكون العرب أخذوا هذا الاسم من جزيرة ما التي فيها هيكل بوذا قرب جزيرة سيلان.

(٢) الموجود من هذا المسجد الحائط العربي (الذي هو جهة القبلة) فقط.

داخله، وعمَّره قايتباي عمارة تشكر. ونصفه الغربي (الذي إلى مكة) في الحرم، والنصف الآخر في الحل، وبوسطه مجرى ماء يُسير إليه زمن الحج من مجرى عين زبيدة. وفي شمال هذا المسجد بقليل إلى الشرق ترى العلمين: وهما عمودان من البناء بعيدان عن بعضهما، بارتفاع نحو خمسة أمتار في عرض نحو ثلاثة، قد أقيما في فضاء الوادي للدلالة على حدود عرفة من الغرب، وهنالك تجد الجبل قد حلق على الوادي وقفله أمامك من الشرق بشكل قوس كبير وهو ما يسمونه جبل عرفة. وعلى طرف القوس من جهة الجنوب الطريق إلى الطائف على كرا. وفي طرفه من جهة الشمال لسان يبرز إلى الغرب يسمونه جبل الرحمة، وسفحه الجنوبي هو حد عرفة من الشمال، وفيه صخرة عالية كان يقف عليها الرسول صلوات الله عليه في حجه ليخطب في قومه، وهي مكان وقوف الخطيب إلى الآن. وفي أعلى جبل الرحمة منارة يعلق فيها ليلة عرفة مصابيح لإرشاد السالكين إليه، وفي أسفله مصلى تسمى مسجد الصخرات؛ لأنَّ في أرضيتها صخور كبيرة إلى جانب بعضها يقال: إن النبي صلى الله عليه وسلم صلى فيها، وبجوارها ترى مجرى عين زبيدة الذي سيرته إلى مكة.

الوقوف بعرفة

عند وصول الحجاج إلى هذا الوادي ينزل ركب المحملين بخيامهم قريباً من جبل الرحمة، يليهما مضارب الحجاج على اختلاف أجناسهم. وعلى سفح عرفة من عاليه إلى جبل الرحمة يرى حجيج الأعراب محتشدين إلى جوف الجبل بعضهم فوق بعض كالحجر المرصوص، أما باقي الحجيج فإنه ينصب الخيام في بطن الوادي الذي يزدحم إليه الناس حتى لا تكاج ترى فيه مكاناً خالياً من واقف أو قاعد، وجمالهم وحيرهم مربوطة بجوارهم، وترى الكل في صعيد واحد، حتى يتعذر على الإنسان السير إلى أي جهة أراد ولو لضرورة في نفسه. ولو كان مولانا الشريف يأمر بتقسيم وادي عرفة إلى أحذية أفقية يقسمها شارع رأسي، ويخصص كل حذاء لسكنى جماعة من الحجيج، وجمالهم من ورائهم، وتوضع لذلك علامات من البناء لا يتجاوزها الحجاج في وضع مضاربهم، ولا الجمالة في ربط جمالهم، ويعين لهذا النظام من يحفظه مع الدقة، لكان له شكر الله والملائكة والناس أجمعين. وفي سعة الوادي ما يضمن لدولته إقامة الكل على الراحة التامة؛ لأن هذا التزاحم إنما سببه التقرب من مجرى الماء، ومن السوق الذي تراه بجوار مسجد الصخرات (ويباع فيه بعض الأغذية الضرورية). وربما كان لتزاحمهم سبب آخر وهو خوفهم من الأعراب الذين يكون لهم من سعة هذا الرحاب عون على النهب والسلب. وبسبب هذا التزاحم يضل الناس عن أمكنتهم إذا تركوها لأمر ما، ولذلك تراهم ينادون على بعضهم إما بأسمائهم، أو بألفاظ اصطلاح عليها أهل كل جهة، حتى إذا سمعها واحد منهم أجابه

بصوت عال وقصد مصدر الصوت. وهذه الحركة لا تكاد تنقطع مدة الإقامة بعرفة.

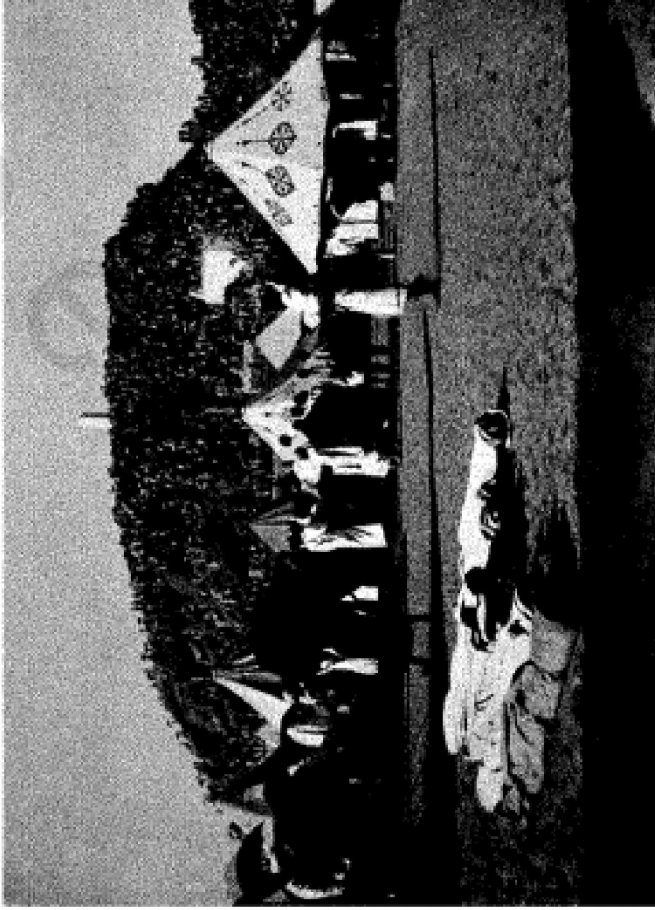
ويجدر بدولة مولانا الشريف إصدار أمره الكريم بالعناية التامة بملاحظة فتحات مجرى عين زبيدة، وتعيين خدمة مخصوصين لها لا يدعون أحدًا من الحجاج يعبث بها أو يغتسل فيها، خصوصًا أولئك المجذومين الذين يغتسلون في الحوض الذي يسمونه بحوض المجذومين زاعمين أن فيه شفاءهم، وهم بعملهم هذا إنما يضررون إخوانهم المسلمين بنقل العدوى إليهم. ولا يعزب عن فكره السامي أن علماء البكتريولوجيا ذهبوا إلى أن الماء هو أكبر موصل للعدوى وخصوصًا في وباء الكوليرا، نسأل الله تعالى السلامة لعباده.

ويوم الوقوف هو التاسع من ذي الحجة مع قليل من ليلة العاشر باتفاق المسلمين. فإذا ثبت هذا اليوم عند القاضي بالصفة الشرعية وقف جميع المسلمين على اختلافهم في الجنسيات والمذاهب من غير أن يكون للشك تأثير عليهم؛ إلا الشيعة من الأعجام فإنهم لو حصل عندهم أدنى شك في رؤية هلال ذي الحجة؛ بمعنى أنه لم يشاهده منهم الجم الغفير، وقفوا يوم التاسع والعاشر احتياطًا.

وفي عرفة ترى الناس مشغولين كل بشأنه، وهم وإن انفصلوا في هياكلهم، فإن قلوبهم مرتبطة ارتباط ذرات الجسم الواحد ببعضها. وبعد صلاة العصر يتحرك المحملان بحرسهما إلى منحدر جبل الرحمة وينهض خطيب عرفة (وهو في الغالب قاضي مكة الذي يتعين من قبل السلطان) فيصعد بناقته من طريق حلزوني إلى صخرة في صدر هذا الجبل، ويخطب نيابة عن خليفة رسول الله خطبة يُعَلِّم الناس فيها مناسك الحج ويكثر فيها من الدعاء والتلبية، ومن دونه مبلغون بأيديهم مناديل يشيرون بها في كل تلبية إلى الواقفين دون الصخرة

فيقول الكل: «لييك اللهم لبيك» بصوت يكاد يصعد بالأحشاء إلى عنان السماء، فيا لها من ساعة ترى الناس فيها قد تجردوا بالمرة عن أنفسهم، فلا يكادون يشعرون بما يحيط بهم من معالم الحياة، وقد تغلب وجدانهم على وجودهم وظهرت روحانيتهم على جسمانيتهم، حتى كأنهم في لباسهم الأبيض الطاهر النقي ملائكة لله في هذا الوادي الذي يردد أصواتهم وابتهالاتهم إلى واجب الوجود، إلى الملك المعبود، إلى الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. فإذا تراجع إليهم صدى هذا الصوت أحدث في نفوسهم هزة تدق لها قلوبهم وتضطرب منها أفئدتهم خشية من رب الأرباب ومالك الرقاب، هنالك تسوح النفوس في ظروفها وينكمش الحسوم على هياكلها من رهبوت هذا الملكوت، وحشاشات القلوب تتصبب من آماق عيونهم أسفاً على ما اقترفوه من ذنوب وعيوب!! وتتلاحق الأرواح إلى التعلق بأستار رحمت رحمانها، تائبة مستغفرة ضارعة إليه تعالى بقبولها في ساحة غفرانه، مؤملة في عظيم كرمه وإحسانه، ولا تلبث أن تتراجع وهي على يقين من قبولها في ساحة الرحيم الرحمن، وقد قر في نفوس ذويها حب الفضيلة وبغض الرذيلة، وحسب الإنسان من فضيلة الحج هذه الحسنة الجميلة. ويستمر الناس على هذه الحال حتى إذا غابت الشمس في الأفق، أطلق صاروخ من قبل الخطيب إعلاناً بتمام الموقف. عندها تتحرك المحامل بين ضروب المدافع وعزف الموسيقىات، وأصوات الابتهاالات، وكثرة الدعوات، وانهمال العبرات، ويكون كل حاج قبل ذلك قد حمل حموله واستعد للإفاضة، فتتفر الناس مرة واحدة من عرفات مسرورين هاتفين بهتاف الفرح والخبور حتى إذا وصلوا إلى ذينك العلمين خرجوا من بينهما. وهناك ترى الزحام لا يوصف والناس في حركة هائلة إلى المزدلفة. فإذا وصلوها نزلوا بها، وأقام بها الحنفية إلى

ما بعد صلاة الصبح، والشافعية إلى ما بعد نصف الليل، أما المالكية فحسبهم من الإقامة بها قدر ساعة يجمعون فيها جمارهم من الحصى الموجود في أرضية واديها؛ وهي تسع وأربعون حصاة في قدر الفولة يتناولها الحاج من رمال تلك الصحراء الواسعة، ليرجم بها في منى التي ينزل إليها من ليلته. وأغلب الحجاج يقلدون مالكا ويسرعون في النزول إليها حتى يجدوا لهم فيها مكانا يقيمون به على راحتهم. وفي صباح النحر وهو يوم العيد الأكبر يكون عموم الحجاج وصلوا إلى منى. ويخيم المحمل المصري في شمال المصطبة التي فيها مخيم الشريف، والمحمل الشامي إلى جوار مسجد الخيف؛ وهو مسجد كبير ذو فضاء واسع مربع يحيط به سور متسع، وإلى حائطه الغربي رواق على طوله، قام سقفه على أعمدة من البناء. وباب هذا المسجد إلى الشمال، وفي وسط صحنه تجاه الباب قبة كبيرة أقيمت على مكان يصلي الناس فيه، وهو المكان الذي صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبجوار هذه القبة مأذنة صغيرة بناها السلطان قايتباي سنة (٨٨٤)، وبنى بجانب هذا المسجد دارا كان ينزل إليها أمير الحاج المصري فاندثرت، ولكن المسجد باق على حاله، إلا أنه يحتاج من داخل سورته وخارجه إلى عناية ذوي الشأن حتى يكون نظيفا بعيدا عن عبث العابثين، إن لم يكن لموجبات الدين فلموجبات الصحة العمومية، وخصوصا في منى التي تكتب فيها صحيفة الحاج الصحية وتساق على أجنحة البرق إلى جميع أقطار المسكونة.



الحجّاج على جبل الزمّة بقرية

MUSEUM OF MODERN ART, NEW YORK

وبمجرد وصول الحجاج إلى منى يقصدون من فورهم جمرة العقبة فيرمونها وينحرون ويحلقون أو يقصرون، ثم يلبسون ملابسهم، وعندها يحل لهم كل شيء ما عدا النساء والطيب.

وذبائح القربان تذبح في شرقي منى وتلقى في حُفَرٍ تحفر هناك لهذا الغرض، وكلما امتلأت حفرة بجثث القرايين ردمت وحفرت غيرها وهكذا، ويكون لها بعد الحج رائحة كريهة جدًّا، ولو كانت الحكومة تعتني بجمع ما يتراكم فيها من العظام مع ما يتخلف منها حول مكة، وتبيعه لإحدى الشركات بجدة، وتصرف ثمنه في تحسين طرق الحجاج ونظافة شوارع مكة لكان فيه فائدة كبيرة. وقد طلبت شركات كثيرة التزام ذلك من الحكومة السابقة فلم يقبل طلبها. أما الحكومة الحالية فأظن أنها لا ترى مانعًا في ذلك ما دام في مصلحة البلاد.

ويقيم الحجاج بمنى إلى عصر اليوم الثالث عشر من ذي الحجة، ثم ينزلون إلى مكة لأداء الركن الباقي من أركان الحج وهو طواف الإفاضة والسعي لمن لم يكونوا سعوا بعد طواف القدوم، ومن الناس من ينزل إلى مكة أول يوم بعد رمي جمرة العقبة لاستكمال جميع مناسك الحج، ثم يرجعون من يومهم إلى منى فيقيمون فيها مع إخوانهم ثاني وثالث أيام التشريق، ويرجعون في كل يوم منهما الجمرات الثلاث، وفي عصر اليوم الثالث ينزلون إلى مكة.

الرجم

الرجم في اصطلاح الحجيج: رمي غرض مخصوص في منى بسبع حصيات في حجم الفولة، وهذا الغرض يسمى جمرة. والجمرات ثلاث: جمرة العقبة، والجمرة الوسطى، والجمرة الصغرى (ويسمونها العامة إبليس الكبير والوسطاني والصغير). ولكل جمرة مكان مخصوص (مذكور في وصف الطريق إلى عرفة)، ورميها واجب باتفاق المذاهب؛ فيرمي الحاج في أول أيامه بمنى

(يوم الأضحية) جمرة العقبة وحدها، ثم يرمي ثلاثتها في كل يوم من اليومين التاليين، فيكون جملة ما يرميه سبع حصيات في سبع (٤٩ حصاة). ومكان الجمرات تراه على الدوام غاصًا بالرامين فلا تصل إليه إلا بمشقة عظيمة، وكثيرًا ما تشاهد بين هؤلاء الرماة أناسًا يجُمرون بتشفيٍّ شديد، ومنهم من يغلو في ذلك فيرمي هذا الغرض برصاص طبنجته كأنها يرمى عدوًّا ألد، والكل يتخيل أنه إنما يرمي ذلك الشيطان الرجيم الذي لا تخفى عداوته لبني الإنسان، فكأنما هم بهذا الرمي يشهرون عليه حربًا عوانًا لما سبق من إغوائه لهم، ويقطعون كل صلة بينهم وبينه.

والعرب كانوا يرجمون هذه الجمرات الثلاث في حجهم قبل الإسلام؛ لأنهم كانوا يعتقدون أن الله تعالى أوحى إلى إبراهيم وهو في تلك الجهة بذبح ولده إسماعيل. فأخذه وسار ليصعد بأمر ربه فوسوس له الشيطان بأن لا يفعل، فأخذ حصيات ورماه بها، وكان ذلك في المكان الذي به الجمرة الأولى، فتركه وسار إلى هاجر وأخذ يقبح لها عمل إبراهيم، فأخذت حجارة ورمته بها، وكان ذلك في مكان الجمرة الثانية. فذهب إلى إسماعيل يشنع له عمل أبيه، فأخذ قبضة من الحصى ورماه بها، وكان ذلك في مكان الجمرة الثالثة. لذلك كانت ترجم العرب هذه الأمكنة مشخصين ذلك الشيطان، وتابعهم عليه الإسلام، ولا غرابة في ذلك؛ لأن الناموس الطبيعي يقضي بأن يكون كل معنى من المعاني مصدره المادة. وعليه فهذا الرمي المادي يوصل بلا شك لمعنى دقيق جليل في ذاته؛ هو تربية ملكة جديدة في شخص الرامي، وهي مخالفة شيطان النفس والابتعاد عن مسالك الشرور.

والرجم أمر قديم في الأمم؛ قال الله تعالى في سورة الشعراء في إجابة قوم نوح على نصائحه لهم: {لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين}. وقال تعالى

في سورة هود في جواب أهل مدين على نصيحة نبيهم شعيب لهم: {قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفاً ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز}.

وكان الرجم في بني إسرائيل، وقد ورد في الآية ٢٤ و ٢٥ من الإصحاح السابع لسفر يشوع ما نصه: «فأخذ يشوع عخان ابن زارح والفضة والرداء ولسان الذهب وبنيه وبناته وبقرة وحميره وغنمة وخيمته وكل ما له وجميع إسرائيل معه، وصعدوا بهم إلى وادي عجور، فقال يشوع: كيف كدرتنا يكدرك الرب في هذا اليوم، فرجمه جميع إسرائيل بالحجارة وأحرقوهم بالنار ورموهم بالحجارة».

والنصارى يرمون مكان شجرة التين التي لعنها المسيح حينما أراد أن يأكل منها ولم يجد فيها ثمرًا (انظر: آية ١٩ من الإصحاح الحادي والعشرين من إنجيل متى). ومكان هذه الشجرة على طريق الذهاب من بيت القدس إلى نهر الأردن في الوادي الذي ينزل على يسار جبل الزيتون.

والعرب كانوا يرمون في الجاهلية من سخطوا عليه حيًّا وميتًا. فكانوا يرمون الزاني المحصن حيًّا لشناعة عمله، وتابعتهم عليه الشريعة الغراء، كما كانوا يرمون قبور من ينقمون عليهم: وهم يرمون من القرن الأول قبل الهجرة إلى الآن قبر أبي رعال في المغمس بين مكة والطائف؛ لأنه كان يقود جيش أبرهة إلى مكة، فمات في هذا المكان قبل وصوله إليها.



الكنج يرمون قبر أبي جهينة بالبحرة الويلية

قال جرير يهجو الفرزدق:

إذا مات الفرزدق فارجموه كما يرمون قبر أبي رغال
والمسلمون يرمون قبر أبي لهب خارج مكة لأنه عدو نبيهم صلى الله عليه
وسلم، ويرمون قبر أبي جهينة في طريق العمرة لأنه كان من حكام مكة
الظالمين، ويرمون قبر يزيد بن معاوية^(١) لسوء سيرته وشناعة فعلته مع آل

(١) قبر يزيد بن معاوية بدمشق الشام في حارة النحالية شرق مقبرة الباب الصغير يفصل بينهما طريق. وهو مكان مسور يبلغ طوله نحو ثمانية أمتار في عرض أربعة، وعليه تل من حجارة الرخم يبلغ ارتفاعه نحو ستة أمتار، وأهل دمشق ييغضونه. وبهذه المناسبة أذكر لك أني زرت في هذه المقبرة قبر معاوية بن أبي سفيان وهو في قبة بسيطة وقد دفن إلى جواره بعض التابعين، وقبر عند الملك بن مروان

البيت رضوان الله عليهم، ويرجمون قبر مسلم بن عقبة^(١) في ثنية المشلل بين مكة والمدينة؛ لأنه فتك بأهل المدينة ولم يراع حرمة رسول الله في صحابته وجيرته. وقد ذكر «المسعودي» في «مروج الذهب» عند ذكر اليمن وملوكها، أنه يوجد في طريق العراق إلى مكة نحو النظامية، موضع يعرف بقبر العبادي^(٢) ترجمه المارة.

بعجازه يحيط به سور مهدم من الطوب النيء ولا سقف له!! وهنالك مر بخيالي عظم ملكهم وفخامة سلطانهم وكبير أهبتهم وجليل مظهرهم في حياتهم، وهو ما لا ينطبق على ما نراه من حقارة منازلهم الحالية التي لم تقم لها من مبدأ حكم العباسيين قائمة! سبحان من بيده الملك يعز من يشاء ويذل من يشاء.

(١) مسلم بن عقبة هو أعور بني مرة، سيره يزيد بن معاوية إلى مكة لقتال عبد الله بن الزبير وأمره أن يجعل طريقه على المدينة، وكان أهلها قد رفضوا طاعته، وقال له: إن هم أطاعوك اتركهم إلى مكة وإلا حاربهم وأوقع بهم. فلما وصل إليها أقفلوا أبوابها في وجهه وكانوا قد خندقوا عليها لما بلغهم تحركه إليهم. فدخلها عنوة في (يوم الثلاثاء ٢٧ ذي الحجة سنة ٦٣) وأخذ يقتل في صحابة رسول الله وتابعيه حتى قتل منهم نيفاً وأحد عشر ألفاً ونهب المدينة ثلاثة أيام، ويسمون ذلك اليوم المشئوم بيوم الحرة. ثم ارتحل عن المدينة قاصداً مكة فمات في الطريق ودفن في ثنية المشلل. فأتت أم ولد ليزيد ابن عبد الله بن زمعة، وكان قد قتل ولدها مسلم فيمن قتل، فنشبت قبره وصلبته على المشلل ورجمته، ولا يزال قبره يرجم للآن.

(٢) لعله أبو منصور العبادي المشهور بالأخير، والمولود بعباد إحدى قرى مرو سنة (٤٩١هـ) وقد ورد في دائرة المعارف «أنه مات في طريقه إلى خورسان من بغداد وكان غير موثق به في دينه، وله رسالة يبيح فيها شرب الخمر». وربما كان له في الجهة التي مات بها ما أسخط أهلها عليه فرجموه ولا يزالون يرجمونه.

القربان

القربان شيء كان يتقرب به الناس من قديم الزمان إلى الله تعالى، وكان يختلف نوعه باختلاف الأزمنة والأمكنة. وأول ما وصلنا من أمر القرايين أن قابيل بن آدم قَرَّب إلى الله شيئاً من ثمرات أرضه، وقَرَّب أخوه هابيل ذبيحة من أبكار غنمه؛ قال الله تعالى: {واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر}، وبعد الطوفان بنى نوح مذبحاً لله قرب إليه فيه كثيراً من الحيوانات، وكان يحرقها على المذبح. وكان إبراهيم يتقرب إلى الله تعالى بالخبز والخمر، وقد أمره الله أن يذبح له عجلة وعنزاً وكبشاً وحمامة ويهامة. (انظر: سفر التكوين، آية ٩ و١٧)، كما أمره أن يفتدي ولده الذبيح بكبش يذبحه قرباناً، وذهبت على سنته العرب قبل الإسلام، ثم المسلمون من بعدهم في أضحياتهم. وكان بنو إبراهيم يقربون إلى الله الذبائح ويحرقونها، حتى أتى موسى فقسم الذبائح إلى: دموي وغير دموي، وهذا القسم الأخير كان ينحصر في الماشية التي كانوا يطلقونها في البرية لله تعالى، ومنها أُتت السائبة^(١) والبحيرة^(٢) والحامي^(٣) عند العرب؛ وهي التي كانوا يطلقونها لأصنامهم، وما زالت فيهم حتى حَرَّمها الإسلام. ولا يزال شيء من

(١) السائبة: الناقة إذا ولدت عشر إناث ليس بينها ذكر، سببت فلم يركب ظهرها ولم يحز وبرها ولم

يشرب لبنها إلا صيف وتهمل لأهنتهم.

(٢) البحيرة: هي بنت السائبة يخلئ سبيلها مع أمها بعد أن تشق أذنبا.

(٣) الحامي: هو الفحل إذا نتج له عشر إناث متتابعات ليس بينهن ذكر حمي ظهره وخلي في إبله يضرب

فيها فلا ينتفع به بغير ذلك، والعرب يلحقون بها الوصيلة، وهي الشاة التي أتامت عشر إناث

متتابعات في خمسة أبطن ليس بينهن ذكر.

هذه العادة عند بعض خدمة الأضرحة في أرياف مصر؛ فإنهم يرسلون عجلًا صغيرًا في حقول بلدهم معلنين أنه عجل هذا الولي، ولا يزال سائبًا على حريته في حقول البلد وما جاورها يأكل مما يشتهي منها، وأربابها لا يجسرون على طرده أو إهانته خوفًا من الولي الذي هو في حمايته، حتى يأتي مولده فيأخذه الخدمة سمينًا معلوفًا ويذبحونه ويتنفعون به (وعجل السيد أشهر من أن يُذكر، كما أن فحل العزب لا ينكره أحد).

أما الذبائح الدموية فكانت تنقسم إلى ثلاثة أقسام: الذبيحة المحرقة، وذبيحة التكفير عن الخطايا، وذبيحة السلامة. وكانوا يحرقون الأولى ولا يبقون منها شيئًا إلا جلدها فيأخذه الكاهن. والثانية كانوا يحرقون منها جانبًا والباقي يأكله الكهنة. أما الثالثة فكانت اختيارية ولحمها حل لهم. وكانوا يشترطون في هذه الذبائح أن تكون خالية من العيوب. وإذا عجز الإنسان عن تقديم ذبيحة من ذوات الأربع كان يكتفي بتقديم ذبيحة من الطيور.

أما الذبيحة عند المسيحيين فهي محصورة في لحم المسيح ودمه اللذين يقدمهما الكاهن في صورة خبز وخمر للمتناولين منهما.

فلما فشت عبادة الأوثان والكواكب في الناس كانوا يقدمون إليها شيئًا من نباتات حقولهم، ويحرقونها على هياكلهم، ثم آل أمرهم إلى استعمال النباتات العطرية كالند والعود وأمثالهما من الأصماغ ذات الروائح الحسنة. وفشا استعمالها بعد ذلك في الحفلات الدينية على اختلاف أنواعها.

وكان قدماء اليونان يُدخلون الملح في قرابينهم لأنه كان عندهم رمزًا للصدقة، كما كان رمزًا لحسن القرى. وكانوا يضعونه مع حب الشعير في سلة ويقدمون منه شيئًا إلى الحاضرين. ويظهر أن عادة بعض المصريين من رش

الملح في مجتمعاتهم على رءوس الناس مختلطاً في الغالب مع حب القمح، وكذلك ما يرشونه منه في أسبوع المولود، إنما هي مستمدة من هذا الأصل.

أما الرومان فكانوا يقدمون الذبائح إلى آلهتهم بكثرة، وكان الحاضرون يأخذون من لحومها تبركاً. ويفرقون منه جانباً على من لم يكن حاضره من ذويهم وأهليهم، وهي عادة باقية في حجاج الهنود والجاوة المسلمين إلى الآن. وكانت كهنتهم وقت تقديم ذبائحهم يرشون على الحاضرين بواسطة غصن من شجر الغار عسلاً وماء. وترقى الناس في ذلك حتى صاروا يرشون ماء الورد في اجتماعاتهم، ولا تزال هذه العادة مستعملة في الحفلات الدينية على اختلاف مذاهبها إلى الآن.

ولم تقتصر ذبائح القربان على الحيوانات، بل بالغ كثير من الأمم فيها، حتى كانوا يقدمون ذبائحهم من البشر كالفنيقيين والكنعانيين والصوريين والفرس والرومان والمصريين وغيرهم، وما زالت هذه العادة الشنيعة فاشية، وعلى الخصوص في أوربا حتى صدر قرار من مجلس الأعيان الروماني بمنعها سنة (٦٥٧ ميلادية). ومع ذلك فقد استمرت في بلاد الغال وبلاد الجرمان إلى ما بعد هذا التاريخ بمدة طويلة.

وكان المنذر بن امرئ القيس بن ماء السماء ملك الحيرة يقدم إلى معبوده العزى الذبائح من البشر، ولا شك أنه أخذ هذه العادة عن وثني الفرس.

وقد كان قدماء المصريين يقدمون إلى النيل (وكان من معبوداتهم) في يوم ١١ بئونة من كل سنة عادة من فتيانهم، وبعد أن يزینوها بأحسن زينة يغرقونها فيه استمطاراً لرحمته بهم. وما زالت هذه العادة السخيفة حتى أبطلها عمرو بن العاص ووافقه عليها ابن الخطاب رضي الله عنهما، كما هو مبسوط في

«المقريري» في الكلام على مقاييس النيل وزيادته. وكثير من العجائز المصريات إلى الآن يعملن عروسة من الطين ويغرقتها في إناء من الماء في هاته الليلة التي يسمونها ليلة النقطة، ويزعمن أن ماء الإناء إذا زادت ثاني يوم عما كانت عليه، كان النيل عاليًا في سنته وإلا فلا. ولا شك أن هذه العادة صورة بسيطة من التي أبطلها عمرو. ومن هذا ترى أن المسلمين كانوا أسبق الأمم في تحريم الذبائح البشرية. وهم يسوقون ذبائحهم إلى البيت الحرام بمكة في حجهم ويسمونهم هديًا ومعناه الهدية. وهو إما من البدن (الإبل)، أو البقر، أو الغنم، والإبل أحسنها، ويشترط أن يكون عمرها أقل من خمس سنوات، وألا يكون عمر البقر أقل من سنتين، والغنم أقل من سنة. وقد قسموا الهدى إلى واجب في دم الكفارات، ومندوب في دم الشكر. واشترطوا أن يكون ذبح الهدى بمنى في أيام النحر - وهو الأفضل - أو بمكة في غير أيام التشريق، وأن يفرق لحمه على الفقراء من عباد الله.



منظر من منى إلى مكة المكرمة

www.almawakeel.com

الآثار في منى

يوجد في منى غير مسجد الخيف غار قريب في الجبل الجنوبي يسمى بغار المرسلات، كان يتعبد فيه الرسول عليه الصلاة والسلام، ونزلت فيه عليه سورة المرسلات، ويقصده الناس للزيارة والتبرك به. وفي الجبل الشمالي منها مغارة يقولون: إن إبراهيم عليه السلام سكن فيها مع هاجر، ويبلغ طولها (٤ متر) وعرضها متران ونصف، وعلى يمين الداخل فيها كهف نقر في جوف الجبل. ومن خارجها مصلى في مكان يقولون عنه: إنه مذبح إسماعيل، وبجوارها صخرة كبيرة في جوف الجبل فيها فلح كبير، يزعمون أن تلك السكين التي أراد أن يذبح بها إبراهيم ولده فلتت من يده رحمةً بالذبيح

فغاصت في هذه الصخرة ففلحته على ما ترى، وهذا الاعتقاد باق بمكة إلى يومنا هذا! ولو ادعوا أن هذا الفلح إنما هو ناشئ عن حادث طبيعي، واختاره إبراهيم مذبحًا ليسيل فيه دم ولده حتى يسمع صوته في عالم السماوات إعلانًا بصدقه بأمر الله وكمال طاعته له، لكان أولى. وبقرب هذه المغارة يقيم حجاج الهنود ولهم فيها اعتقاد هائل؛ فتراهم هناك وقد فرشوا على الحصباء خارج خيامهم وداخلها شطرات نيئة من لحم الأضحية، وبعد جفافها في الشمس يحتفظون عليها ويأخذونها معهم إلى بلادهم هدية مباركة مقدسة لمن كان عزيزًا عليهم. وأظن أن هذه عادة قديمة للعرب كانوا يقومون بها في أيام منى، ومنها سميت بأيام التشريق؛ أي التقديد. وهي الثلاثة الأيام التي تعقب يوم النحر، وقد مر بك في باب القربان مثل ذلك في عوائد الرومان، ولعلمهم أخذوها من اليونان، وهؤلاء أخذوها ضمن العوائد الكثيرة التي أخذوها عن الهنود أنفسهم فيكون أصلها منهم ومرجعها إليهم. ولو علموا أن أجرهم من ذلك إنما هو ما يصيبهم من الأمراض التي تنشأ عما يحدث من مكروباتها الضارة لكانوا ألقوا بها إلى بطونهم من يومها، خصوصًا وسوادهم في حاجة إليها لكثرة الفقراء فيهم. وعلى كل حال ففقراء الحجاج الهنود في غاية من الوساخة، ومن وسطهم تظهر الأمراض والأوبئة وتفتك بهم فتكًا ذريعًا، ولا قدرة لهم على مقاومتها لأن غالبهم في سنّ الشيخوخة.

خروج الجنب العالى إلى عرفة وإفاضة منها

في صباح يوم التروية خرج الجنب العالى من مكة إلى عرفة، راكباً جواداً كريماً وهو بملايس إحرامه. وسار في موكب رهيب، ومن خلفه رجال معيته الكريمة من ملكيين وعسكريين، يتقدمهم دولة البرنس «كمال الدين» والكل محرمون. وكان في رفقة سموه سعادة «عبد الله بك» نجل الشريف. ومعه كثيرون من عليّة الأشراف وحضرة مكتوبجي الولاية وياوران دولة الشريف. وفي مقدمة هذا الركب الميمون فصيلة من عساكر الحرس الخديوي السواري بمزاريقهم تحفّق عليها البنود، ومن ورائها فرقة من جند البيشة على هجنهم وهم يضربون نوبتهم ويوقعون عليها أناشيدهم، ويحيط بالركب جميعه فرقة أخرى من الحرس الخديوي. ولما تجاوز -حفظه الله- المعلى مر على جنود الدولة وهي واقفة وقفة الاحتشام لتقديم واجب السلام والإعظام، وطلقات المدافع تدوي في فضاء هذا الوادي احتفاء بمقدمه الشريف، فحياهم سموه تحية الشاكر، وسار حتى إذا حاذى جبل النور، وقف برهة مستقبلاً فيها هذا الأثر النبوي الكريم، قرأ فيها الفاتحة ودعا الله تعالى بها شاء. وما زال حتى وافى صيوان الشريف الخنوصي بمنى، وقد كان خصص لجنبه العالى، وإلى يمينه الصيوان الخديوي يتلوه صيوان دولة البرنس، ثم صواوين دولة الشريف والوالي وحاشيتهم. وكانت خيم المعية السنية، وباقي الحاشية قد نصبت في الجانب الآخر من الطريق على يسار السالك إلى عرفة. وبعدما استراح -حفظه الله- في صوانه ركب قبل الزوال وسار في حاشيته الكريمة إلى مسجد الخيف

فصلى به الظهر، ثم سار لزيارة دولة الوالدة بمنزل دولة الشريف الذي جهز لإقامتها فيه بمنى، وعاد سموه إلى مقره بعد صلاة العصر، وما زال هناك والمحامل وجيوش الحجيج تمر بين يديه الكريمتين إلى عرفات، حتى ركب - حفظه الله - بعد صلاة الصبح يوم (٩ ذي الحجة) في موكبه الحافل قاصداً عرفة، وسار تحذوه العظمة والفخامة، وفرقة الأعراب من أمامه تضرب نوبتها ويوقعون عليها بنشيدهم الرخيم، وأصوات الخلق فيما بين ذلك تعلو بالتلبية وراء التلبية. وقد عرج جنابه العالي في طريقه على مسجد نمرة، وبعد زيارته سار إلى عرفة، فوصلها في الساعة الرابعة العربية نهائياً، ونزل إلى الصيوان الذي أعده لسموه دولة الشريف في الجهة الجنوبية من هذا الوادي. وكان إلى جواره صيوان دولة الوالدة وخيم حاشيتها، يتلوها خيم المعية السنية، وإلى جانبها غرباً صيوان مولانا الشريف وخيم حاشيته، وأمضى الجناح الخديوي يومه معتكفاً في صيوانه، وبعد صلاة العصر بنحو ساعة ركب جواده وسار وإلى يساره دولة الشريف، ومن خلفهما دولة البرنس وعطوفة وكيل الولاية وجم غفير من كبار الأشراف ورجال الدولة، حتى وقفوا حذاء جبل الرحمة، وما زالوا واقفين هناك حتى أفاص الناس فأفاضوا معهم.

وكانت إفاضة الجناح العالي - حفظه الله - من عرفات من الفخامة بما لم يشاهد له مثيل بالمرّة؛ فإنه بمجرد ما تحرك المحملان سار - حفظه الله - وإلى جانبه حضرة الشريف، ثم من في معيتهما من الأمراء والعظماء يحيط بالجميع سياج من الحرس الخديوي يتلوهم آخر من حرس الشريف. ثم انتظم الموكب فسار وفي مقدمة الركب كوكبة من عسكر البيشة بهجنهم، وفي وسطهم فرقة منهم تدق نوبتهم، والباقون يتغنون بنغمات تدخل رئاتها في القلوب فتملؤها سروراً وحبوراً. ومن ورائهم شرذمة من عسكر الحرس، يتولها الجناح العالي

وحضرة الشريف يتلوها حاشيتهما، ومن ورائها فرقة الموسيقى العربية تعزف بنغماتها الشجية، ثم رجال الأشراف من حضر وبدو. وسار الجميع في هذا الموكب الرهيب حتى وصلنا إلى المزدلفة ونحو على غاية ما يكون من الراحة.

وكان موكب ذات الجلال والعظمة والدة الجنب الخديوي، وصاحبات الدولة البرنسيسات يسير بعد ركب الجنب العالي. وكان مما يأخذ بالألباب بهاء وسناء؛ فكانت جنود الحرس المشاة والخيالة تحيط بعرباتهم، يتقدم الجميع فرقة من عسكر الدولة وجند البيشة بموسيقاها، يتبعها هودج الحاشية، وآلاف المشاعل في جوانب الركب تملأ الجو نورًا، وغناء الضوية والخدم وزغرودة نساء الحجيج تزيد الأفئدة سرورًا.

وقد قطعنا المسافة من عرفة إلى المزدلفة في ساعتين، كان الجنب العالي في أثنائهما محل أنظار الناس على اختلاف أجناسهم. والمصريون منهم يرفعون له كلما مر عليهم أصوات الدعاء وعبارات الولاء. وكانت قد أعدت هناك الخيام ونصبت الصواوين لنزوله -حفظه الله- إليها مع دولة الوالدة وحاشيتهما، فقضوا فيها ليلة النحر في صفاء وهناء. وبعد صلاة الصبح نزل جنابه العالي في موكبه إلى منى، فرمى جمرة العقبة، وذبحت الضحايا الكثيرة بحضوره حفظه الله، وتحلل من إحرامه (لبس ملابسه العادية)، ثم نزل إلى مكة بموكب حافل ومعه دولة الشريف، فصليا العيد في الحرم الشريف بالمقام المالكي، وطافا طواف الإفاضة، ثم تناول سموه طعام الغداء في دار الإمارة، وعاد بعد صلاة العصر إلى منى في موكبه الفخيم.

أيام الجنب الخديوي بمى

والاحتفال بتلاوة فرمان الشريف بها

ما بزغت شمس يوم (الجمعة ١١ ذي الحجة الموافق ٢٤ ديسمبر) حتى التفت الجنود التركية والمصرية حول المصطبة الكبرى التي كانت عليها سرادقات سمو خديونا المعظم ودولة الشريف وسعادة وكيل الولاية، يتقدم كل فرقة موسيقاها استعدادًا للتشريفات بحفلة تلاوة فرمان دولة الشريف. وفي الساعة الثانية العربية نهارًا اصطفت رجال المعية السنية في الجهة اليمنى من الصيوان الكبير المعد للجنب العالي الخديوي. وكان دولة الشريف أرسل بعض حاشيته لمقابلة الوفد الحامل للفرمان والخلعة السنية، ثم سار إلى صيوان الجنب العالي وجلسا يتجاذبان أطراف الحديث، حتى إذا وصل الوفد إلى سلم المصطبة، خفَّ الجنب العالي ومعه مولانا الشريف نحو السلم، واستقبلوا فرمان بتقبيله، ثم قصد الكل الصيوان الخديوي وجنابه العالي في مقدمتهم. ولا يخفأك ما في هذا الترتيب من المعنى الدقيق اللطيف الذي يشير إلى علو مكانة جنابه الرفيع، وأن مقامه هنا هو المقام الأول، ومنزله هو المنزل الأجل. فجلس -حفظه الله- في صدر المكان، وعن يساره دولة الشريف، ثم نائب الوالي، ثم أنجال الشريف، ثم عليّة الأشراف، ومن خلفهم مشايخ القبائل العربية وصاحب الفضيلة مفتى وقاضي مكة وكثير من علمائها وأعيانها، ثم رجال العسكرية العثمانية وفي مقدمتهم سعادة «ناظم باشا» قومندان قوة الحجاز. وجلس على يمين الجنب العالي دولة البرنس «كمال الدين باشا»، ثم أصحاب السعادة «شفيق باشا»، وعزت باشا، وخيري باشا» ثم موظفو المعية

السنية، يليهم مستخدمو قوة المحمل الشريف المصري. وهنالك توسط ساحة الصيوان عزتو مكتوبجي الولاية وأخذ في تلاوة فرمان الذي كان يمسك بطرفيه اثنان من التشريفاتية فتلاه بالتركية، وعندما أتى على لفظة الخلعة السنية التي قدمها جلالة السلطان (محمد الخامس) إلى دولة الشريف فكها أحد المهمندارين من غلافها الأطلسي وألبسه إياها. وبعد تلاوة فرمان قام كاتب يد الشريف وتلا ترجمته المرسلة معه بالعربية؛ وفحواها أن مولانا السلطان - حفظه الله - لما يعلمه في دولة الشريف من أصالة الرأي، وعلو الكعب في حسن الإدارة، وكمال الدراية، ومحاسن الأخلاق، وواسع المعرفة وكرام السجايا، ومحامد الخصال، ومعالي الفضائل، وجّه لدولته مركز الشرافة العظمى، وهو يرجوه على الدوام مساعدة حجاج بيت الله الحرام، والقيام بكل ما فيه راحتهم وصحتهم، مع تأمين الطرق وتسهيل المواصلات والضرب على أيدي الخارجين من الأعراب عن الصراط السوي المستقيم. ولفت نظره إلى الدقة في صرف المرتبات وتوزيع الصدقات على أربابها بكل ضبط، مع مساعدته لمأموري الدولة من عسكريين وملكيين على أداء وظائفهم. وكان كلما ذكر اسم واحد منهم ألبسوه كركًا، حتى إذا تمت الحفلة أمر الجنب العالي فأدير أكواب الشربات على الجميع، وبعد شرب القهوة انصرف الشريف مودعًا من الجنب السامي بكل تجلة واحترام.

ومما يجمل بنا ذكره تلك الألقاب التي وردت في هذا فرمان موجهة من قبل صاحب الخلافة العظمى إلى دولة الشريف حتى تعرف مكائته السامية: «جنب الأمين الأجد، الأجل الأوحد، المقتفي آثار أسلافه الأشراف، من آبائه الغر صناديد آل عبد مناف، وأجداده الحميدي السير، الجميلي الأوصاف، فرع الشجرة الزكية النبوية، طراز العصبة العلوية المصطفوية، المنتمي إلى أشرف

جرثومة علا عنصرها، والمتنسب إلى أنفـس أرومة غـلا جوهرها، زبـدة سـلالة الزهراء البتول، عمدة آل بيت الرسول، المحفوف بصنوف عواطف الملك الأعلى من أعظم وزراء سلطتنا السنية، الحامل لنشاني الافتخار المرصع العثماني والمجيدي، وزيري سـمير الفـطانة أمير مكة المكرمة ... إلخ».

وعلى هذا يجدر بنا أن نسوق إليك شيئاً من الألقاب التي كان يكتب بها إلى أمير مكة في عهد الدولة الجركسية؛ فقد ورد في «صبح الأعشى» في رسم المكاتبـة إلى أميرها هذه العبارة: «أدام الله تعالى المجلس العالي، الأميري، الكبير، العالمي، العادلي، المؤيدي، العضدي، النصيري، الذخري، العوني، المقدمي، الأوحدي، الظهيري، الزعيمي، الكافلي، الشريف، الحسيبي، النسيبي، الأصيلي، الفلاني (الحسيني مثلاً)، عز الإسلام والمسلمين، سعد الأمراء في العالمين، جلال العترة الطاهرة، كوكب الأسرة الزاهرة، فرع الشجرة الزكية، طراز العصاة العلوية، ظهير الملوك والـسلاطين، نسيب أمير المؤمنين، لا زال حرمه أميناً، ومكانه مكيّناً، وشرفه يبيض له بمجاورة الحجر الأسود عند الله وجهاً ويضيء جبيناً، صدرت هذه المكاتبـة من المجلس العالي تحمل إليه سلاماً تميل إليه الركائب ... إلخ».

ومنه ترى ما كان وما يكون لمركز الشرافة العظمى من جليل المقام وعظيم الاحترام لدى الملوك والسلاطين. وليس هذا بغريب في بابه، فحسب هذه الأسرة فخاراً أن عائلة أشراف مكة أقدم أسرة^(١) شريفة في العالم.

(١) لأن هذه الأسرة الشريفة تصعد حلقات سلسلتها من غير شك إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم؛ وكل فرع من فروع هذه الشجرة الكريمة النبوية، يترك الوالد منه إلى ولده من مبدأ الإسلام إلى يومنا هذا، نسبته إلى هذه العترة المباركة، إرثاً ثميناً لا يضاهيه عنده في منزلته شيء بالمرّة. ويوجد كثير من هذه الفروع في بلاد الإسلام وعلى الخصوص بمصر التي كانت محط رجال آل البيت رضي الله عنهم.

ولكل فرع سلسلة نسب توصلهم إلى أحد سبطي النبي صلى الله عليه وسلم، فيقولون: السادة الحسينيون، أو الحسينيون مثلاً. وهذه النسب مسجلة في دفاتر مخصوصة عند بقيت الأشراف، ولأربابها مراتب تصرف إليهم سنوياً في مواعيد يعلن عنها في الجرائد اليومية. ومن هذا تعلم من غير شك أن نسب هذه العائلة يوصله إلى النبي صلى الله عليه وسلم يصعد إلى أربعة عشر قرناً تقريباً. وحيث إن النسابين والمؤرخين قد حققوا بالإجماع أن نسبه عليه الصلاة والسلام يصعد إلى «عدنان» فلا يكون هناك أي شك في تحقيقهم نسبه إليه؛ لأن الانتساب كان من الخصائص التي امتازت بها العرب على سائر الأمم، وهو من خصائصهم إلى الآن. وكلما كان انتسابهم إلى جد أعلى (أعني كلما كانت حلقات سلسلة نسبهم أكثر) كان مجدهم أعظم، وأصلهم أكرم. وقد أجمع المسلمون من مبدأ الإسلام إلى يومنا هذا على صحة هذا النسب العالي، وهم يحفظونه عن ظهر قلب من نعومة أظفارهم وهاك هو: محمد، بن عبد الله، بن عبد المطلب، بن هاشم، بن عبد مناف، بن قصي، بن حكيم، بن مرة، بن كعب، ابن لؤي، بن غالب، بن فهر، بن مالك، بن النضر، ابن كنانة، بن خزيمة، بن مدركة، بن إلياس، بن مضر، بن نزار، بن معد، ابن عدنان. وحيث إنه من الثابت في التاريخ أنه كانت لعدنان واقعة مع بختنصر في مبدأ القرن السابع قبل المسيح، فتكون المسافة بين حلقة السلسلة الحالية (أي الموجودة في يومنا هذا) والحلقة العدنانية نحو ٢٦ قرناً. وإذا جارينا النسابين الذين أوصلوا نسب عدنان بإسماعيل بن إبراهيم، وقالوا: إن عدنان، بن أد، ابن أدد، بن الميسع، بن سلامان، بن بنت، بن حمل، بن قيدار (نابت)، ابن إسماعيل، كانت المسافة بين الحلقة الحالية من هذا النسب الكريم والحلقة الإسماعيلية أكثر من سبعة وثلاثين قرناً.

على أننا لو وقفنا بنسب هذه الأسرة الشريفة عند الحلقة النبوية، فإنها تكون أعرق الأسر (العائلات) الموجودة على ظهر البسيطة حسباً، وأقدمهم نسباً؛ لأن الأسر التي يحترمها التاريخ في أوروبا ويحلها الفرنجة عامة، ويعظمون شأنها لمجرد أصلاتها في حسبها، وعراقتها في نسبها، لم تظهر إلا بعد أسرة الأشراف بمكة بقرون عديدة؛ إذ لا يخفى أن أسرة البربون (Bourbon) التي هي أقدم أسرة أوروبية، والتي تشعب حكمها في فرنسا وإيطاليا وإسبانيا، لم يبتدئ تاريخها إلا في سنة (٩١٣ بعد الميلاد). ويتلوها أسرة هابسبورج (Habsbourg) التي لها الحكم الآن في النمسا، وابتدئ تاريخها من سنة (٩٥٤ ميلادية). ثم أسرة السفواي (Savoie) التي منها ملوك إيطاليا الحاليون وتبتدئ من سنة (١٠٢٧). ثم أسرة ملوك آل عثمان وتبتدئ من سنة (١٢٧٧). ثم أسرة قيصرية روسيا وهي أسرة رومانوف (Romanov) وتبتدئ من سنة (١٥٤٧ ميلادية).



الجناب العالي الخديوي وهو متوجه لزيارة الشريف في مكة المكرمة

MEHMET I. ARABIAN, 1900

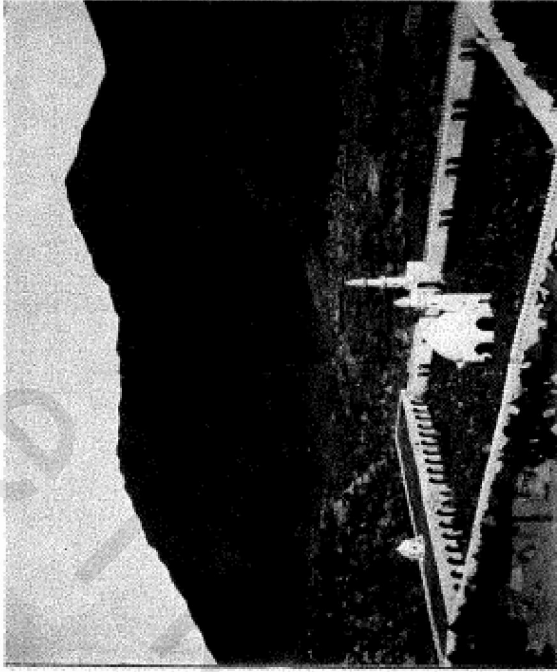
وبعد تلاوة فرمان خرج سمو أفندينا الخديوي - حفظه الله - مع دولة الشريف إلى رصيف المصطبة، وفي أثرهما جميع رجال المعية السنية ورجال الشريف والدولة وموظفو المحمل الشامي، حيث استعرضت جنود القوة الحجازية يتبعها حرس المحمل الشامي، ثم الحرس الخديوي يتبعه حرس المحمل المصري. أما الترتيب والنظام في القوتين الأخيرتين فقد كانا مما دهش

له جميع المتفرجين من ملكيين وعسكريين وخصوصاً رجال الدولة؛ حتى أن رئيس قوة الحجاز رأى أنه لا يحسن سكوته عن الاعتراف بذلك، وأبدى اندهائه من النظام العسكري المصري. وكان دولة الشريف وسعادة وكيل الولاية يبديان إعجابهما مما شاهداه، وشكرا للجناب العالي الخديوي عنايته الكبرى برقي حكومته السنوية. ومما يذكر بالمنة للجناب العالي أثناء ذلك، أنه لاحت منه التفاتة فرأى عسكر علي بن دينار (سلطان دارفور) مع رئيسهم الذي أتى بمحملهم، وراء صفوف الناس من بعد، فأرسل فاستحضر رئيسهم، وبعد أن لطفه وحياه بما يليق بكرمه، أمره -حفظه الله- بأن يسير بجنده في هذا الاستعراض، فسار يتقدم رجاله الذين كانوا يحركون حراهم على نغمة الموسيقى بحماسة كأنهم يتحركون إلى حرب أو طعان.

وفي نهاية الاستعراض قصد الجناب العالي صيوانه، وبعد ما استراح قليلاً ابتدأت التشريفات العديدة لجنابه الرفيع؛ فتقدم العسكريون يتلوهم الملكيون من رجال المعية السنوية وغيرهم ممن حضر لأداء هذا الواجب من وجهاء المصريين، ثم موظفو المحمل المصري، وتشرف الكل بلثم راحته الكريمة، داعين له بطول العمر وكمال السعود والرفاهية، مهئين بفريضة الحج الشريف. ثم تلا ذلك العدد الكثير من الأشراف وعظماء مكة وغيرهم من كبار الحجيج، وكانوا يفدون على سموه بواسطة دولة الشريف، فيقدمهم إلى جنابه العالي تارة أحد أنجاله الكرام وأخرى أحد رجال تشريفاته أو ياورانه. وكان -حفظه الله- يقابل الجميع بصدر رحب، وثغر باسم، ووجه باش، مما جعل الكل يخرج من حضرته داعياً شاكرًا. وفي أثناء هذه المقابلات كانت تعزف في أطراف المصطبة موسيقات الحرس الخديوي، والمحمل المصري، والشامي، وموسيقى القوة العسكرية الموجودة بمكة، وإلى جانبها المزمارة البلدي، تتخلل

نغماتها طلقات المدافع وهتاف الحجيج بأصوات السرور والخبور من كل جانب بما لا يمكن وصفه.

وبعد تمام التشريفات قصد الجنب العالي صيوان الشريف لرد الزيارة وتقديم واجب التهاني، فاستقبله دولته من خارج الخيمة بكل ما يمكن من واجبات التبجيل والتعظيم وأجلسه في صدر المكان وجلس عن يسار سموه. وهنالك دخل رؤساء الديوان الخديوي يتبعهم جميع الموظفين المصريين عسكريين وملكين لتهنئة دولته، وكانت الجنب العالي -حفظه الله- يقدمهم لسيادته واحدًا واحدًا كلاً باسمه، وبعد شرب الشربات انصرفوا إلى أماكنهم، وتوجه الجنب العالي محاطاً برؤساء معيته الكريمة إلى خيمة وكيل الوالي، فاستقبله بغاية الإجلال والاحترام، وبعد تناول المرطبات وشرب القهوة توجه -حفظه الله- إلى صيوانه ومكث فيه يستقبل وفود المهنيين الذين كانوا يتقدمون إليه بواسطة دولة الشريف أو بعض حاشيته.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

PROF. A. J. AL-BAZ

وبعد الظهر زار دولة الشريف ومعه عطوفة وكيل الوالي معسكر المحمل المصري، فقوبلا بما يليق بمقامهما من الاحترام بين إطلاق المدافع وعزف الموسيقى بالسلام الشاهاني. وبعد صلاة العصر ركب الجنب العالي ومعه دولة الشريف في موكبهما الفخيم لرمي الجمرات، ثم عادا إلى مقرهما. وفي المساء كان الجنب العالي الخديوي قد أعد وليمة فاخرة لسيادة الشريف ومعه ثلاثون من عظماء قومه، وبعد صلاة العشاء حضر المدعوون يتقدمهم سيادة الشريف فاستقبلهم الجنب العالي بما جبل عليه من الإيناس، وكان رجال التشريفات الخديوية يقومون بالخدمة اللازمة، وبعدها أكلوا ما لذ وطاب هنيئاً مريئاً رفعت الموائد، وجلس القوم للسمر ساعة من الزمان ثم خرجوا شاكرين للجنب العالي كرمه، ذاكرين فضله وآدابه، داعين مبتهلين إلى الله بأن يكثر من أمثاله في أمراء المسلمين وملوكهم. وكانت في أثناء هذه الحفلة موسيقى الحرس

الخدوية تشنف أسماع الحاضرين، وسهام الألعاب النارية تشق كبد السماء فتزيد دراريها زينة على زيتتها، وسواقيها النارية تثر في فضاء الأرض تبرها المتلهب فيزيدها نورًا على نورها. وكان آلاف المتفرجين من عرب وعجم ومغاربة ومصريين وسودانيين وأتراك وجاوة وهنود وغيرهم، فرحين مبتهجين مهللين مندهشين لهذه المظاهرة البديعة التي لم يسبق لها نظير في منى؛ بل ولا في جميع هذه الديار. وكان أكثرهم دهشة من سبق له الحج قبل هذه السنة؛ وحقيقة فإن هؤلاء هم الذين كانوا يحسون بالفارق بين الحج في السنين الماضية ومظاهره في هذه السنة المباركة. وما زال الناس في سرور وجور إلى نصف الليل، ثم انصرفوا وكلهم داع بعزة الإسلام ونصرة أمرائه وتوفيقهم.

وقد أمضى الجنب العالي يوم (١٣ ذي الحجة) في تزاور مع دولة الشريف ووكيل الولاية واستقبال بعض الزائرين، وبعد صلاة العصر نزل إلى مكة في موكبه الفخيم.

وبالجملة فقد كان سموه بمنى محطًا للرحال، ومكانًا لتحقيق الآمال، ومنهلاً للخيرات، ومصدرًا للحسنات، وكان صيوانه على الدوام غاصًا بالزائرين من عظماء الحجيج على اختلاف أجناسهم.

مواكب الشريف

يركب دولة الشريف في مواكبه الرسمية على النظام الآتي:

تتقدم فرقة من الخيالة والقراصة، ثم جماعة من الهجانة من عرب البيشة، ثم بعض السياس تتلوهم الجنائب؛ وهي جملة أفراس عربية يتلو بعضها بعضاً، يقود كلاً منها سائسان: واحد إلى اليمين والآخر إلى اليسار، ومن وراء الأفراس بعض البغال، وعلى الكل الرخوت الذهبية. ويعقب ذلك عربة يجرها زوج من الجياد، ومن خلف العربة بمسافة خمسين مترًا دولة الشريف على فرس مرخوت، يحيط به الخدم والحشم وغيرهم من الخزنجية (الخزندارية)، ومن على يساره مائلاً إلى الوراء قليلاً حامل الشمسية على حصانه: وهي شمسية كبيرة من الحرير المزركش بالقصب، والكتير المذهب، وقطع التبر المثقب (الثرثر)، يتخلل ذلك كثير من الفصوص الكريمة الجميلة. ولهذه المظلة وضع خاص بها تكاد تكون نصف كرة منتظمة، قطرها نحو متر ونصف، وقائمه من المعدن الأبيض ويطول حتى يرتكز في ركاب حامله أثناء السير، ويثبت في الأرض أمام صيوان الشريف إشارة إلى وجوده في مخيمه، وهذا يغني عن رفع العلم عليه وإن كان للشريف علم أحمر خاص به.

ويسير من وراء الشريف الجمل الغفير من السادة الأشراف، يتولهم أعيان مكة على خيلهم أو حميرهم، والكل بملابسهم الرسمية ونياشينهم، يتخلل ركبهم الخدم والحشم والعبيد، ومن خلفهم ضاربو النوبة: وهم موسيقيون عربيون راكبون على خيلهم يضربون بالزمار البلدي والقرزان، يحيط بهم عرب البيشة على هجنهم، وهم يتغنون من وقت إلى آخر بأغنية حماسية على

نغمة الموسيقى، ولا يزال الموكب سائرًا على هذا النظام حتى يصل إلى المكان الذي يقصده دولة الشريف.

ونظام هذه المواكب عادة قديمة في ملوك الشرق؛ وقد كانت تتركب فيها على المثال المتقدم الخلفاء من العباسيين والفواطم وملوك الجراكسة وغيرهم مما تراه مبوسطاً في المقرئزي وغيره. وكانت هذه الشمسية تسمى عند الفاطميين بالمظلة وحاملها كان من كبار القوم وله مكانة مخصوصة، ويسمى بحامل المظلة، وبعضهم يسميه حامل القبة. وقد رأيت في تاريخ السودان لـ«شقيـر بك» في الكلام على دارفور، أن أميرها «علي بن دينار» يركب في احتفالاته الرسمية بما يقرب من هذه المواكب. وهاك نص عبارته تحت عنوان ركوب السلطان: «وقبل الظهر بساعتين يركب السلطان جوادًا مزركش العدة، وأمامه العساكر الحاملو الأسلحة النارية مشاة، ومن ورائه الخصيان راكبين الخيول، وبينه وبين الخصيان بعض الجياد بسروج الرهط كاملة العدة يقودها السياس خلفهم صفًا واحدًا، وعن جانبي السلطان نفر من المشاة يتناوبون حمل مظلة واسعة تظله وتظلل جواده، وهي مصنوعة من نسيج متين مطرز بالقصب ومبطن بأطلس مختلف الألوان كل شقة بلون، تتدلى من أطرافها شراريب قصب، ولها يد طويلة من خشب متين مغشاة بنسيج ملون كل شبر بلون».

اهـ.

سفر الحجيج من مكة

بعد النزول من عرفة ينتظر الحاج في مكة صدور أمر الشريف بسفر الحجاج منها، ولا يكون ذلك في الغالب إلا في الأسبوع التالي لنزولهم من حجهم. والغرض من هذا التأخير رواج تجارة هذا البلد. فإذا جهز الإنسان نفسه سافر إلى المدينة المنورة، أو إلى بلده إن كان سبق بالزيارة قبل الحج أو شغله عنها شاغل؛ فينزل مع القافلة إلى جدة ومنها إلى حيث يريد.

وعلى كل حال فإنك ترى مكة إذ ذاك في حركة هائلة بالجمالة وجمالهم وهي مجهزة للحمل غادية رائحة ليلاً ونهاراً في طرق مكة وعليها شقاداتها^(١) ومحطاتها وسحلياتها؛ لأن هذا هو الموسم الوحيد الذي يستمد منه هؤلاء الأعراب حياتهم بواسطة هذه الإبل التي هي رأس مالهم الوحيد؛ بل هي حياتهم بجميع معانيها: فهم من ألبانها ولحومها يأكلون، ومن أوبارها وجلودها يلبسون، وبروثها وبعرها يذفئون، وهي مركبهم ومحملهم في هذه المسافات الواسعة

(١) الشقدف عبارة عن سريرين من الخشب، وقاعدتهما من الحبال على مثال العنجريب، وعلى حافة كل سرير من الجنب الخارجي والخلفي شبكة من عيدان أشجار السنط بحيث إذا ضم السريران إلى بعضهما على ظهر الجمل بحبال متينة يكونان قبة يغطونها بشيء من الحشيش، وركابها يضعون عليها في الغالب بعض الأكلمة المغربية أو التركية فتقي الراكب من الشمس والمطر. ولو كانوا يغطونها في الشتاء بشيء من المشمع كانت الفائدة أكبر وأعظم. والشقدف يسع نفرين، ويمكنها أن يناما فيه كما يمكن أن يجلس فيه الراكب على راحته بواسطة مخدات صغيرة خفيفة يضعها على ما يجب. والمحفة هي كرسيان من الخشب إذا ضما إلى ظهر الجمل جلس فيها راكبان على مثال جلوسهما على الكراسي ووجههما إلى رأس الجمل، وأغلب ما ترى المحفات في الركب الشامي. أما السحلية فهي سرير من أسرة الشقدف يشد على ظهر الجمل مستعرضاً ويجلس فيه نفران، وهي في الغالب من غير مظلة ويركب فيها الفقراء من الناس، وخصوصاً من الهنود الذين يحتملون حرارة الشمس.

الشاسعة، التي لا يمكن غيرها من جنس الحيوان أن يقوم بالمأمورية التي تقوم هي بها في وسطهم؛ ذلك لأن الجمل سفينة الأسفار في القفار، وله قدرة على احتمال مشقات الحياة الصحراوية، خلقه الله مقوس الظهر لاحتفال الأثقال، وجعل خُفَّهُ واسعاً مدوراً طرياً حتى لا ينزلق على الأحجار ولا يسوخ في الرمال، يحتمل العطش أياماً (وزعم بعضهم أنه يحتمله شهرين) لأن القدرة الإلهية جعلت له أربع معدات لهضم الغذاء، يعقبها تجويف كبير يخزن به الماء، فإذا نفذ ما فيه رجعت إليه عصارة مائية من الأوعية الكثيرة التي حولها مما يأتي إليها من رشح البدن (وتقدر بعشرين لتراً). ويساعده على احتمال العطش أنه كغيره من المجترات، له خاصة إخراج الغذاء من معدته إلى فيه، بواسطة ضغط عضلات المعدة على بعضها، فتتقلص وتطرد الغذاء إلى فمه فيلوكه؛ ومن هذه العملية تتنبه غدد الفم واللسان والزور فتفرز من اللعاب ما يلطف من غلته ويخفف من عطشه. والجمل يحتمل الجوع أيضاً أياماً متعددة بتغذيته من الدهن الذي في سنامه، ولهذه المزية الكبرى استُخدم في الحروب من زمن بعيد جداً، ولِفرق الهجانة المصرية في فتوحات السودان شأن يذكر فيشكر. وغذاء الجمل في بلاد الحجاز إما من الحشيش أو نوى البلح أو اللبن، وقد رأيت بعضهم يلقمه الثريد المصنوع بمرق اللحم، وبلغني أن عرب السواحل تلقمه السمك نيئاً. والعرب يقولون: إن أنثى الجمل تعرق من جميع جسمها؛ أمّا الذكر فإنه لا يعرق إلا من دوماته وهي شعر بين أذنيه، والبدو يشبعون فتيلة قديحتهم بعرق جماهم فتصير سريعة الاشتعال بمجرد ضرب الزناد عليها. وجمال الحجاز صغيرة ضئيلة في الغالب، والتي لقبائل حرب منها هي المتعودة على الحمل. أما التي لغيرها من القبائل وخصوصاً البعيدة عن مكة والمدينة فإنها غير معتادة على الأحمال، ويعاني ركاها مشقة جسيمة وخصوصاً ركاب الشقادات. ويوجد

غير الجمل في مدن الحجاز وعلى الخصوص في مكة والمدينة كثير من الحمير الحساوية (الحصاوية) المتينة، ويؤتى بها من بلاد الحسا في شرق بلاد العرب. ومع ما هي عليه من السرعة في السير، فإنها تحتمل المشي في هذه الصحراء ثلاثة أو أربعة أيام متتابة. ويمكنها أن تمشي في اليوم نحو مائة كيلومتر من غير أن ترى عليها أثراً كبيراً من التعب. وغالب هذه الحمير لا يخلو جلدتها من البرص. ويوجد هناك أيضاً بغال متينة يؤتى بها على الخصوص من بلاد الشام أو العجم. والخيول في هذه المدن قليلة، وهي تتحمل أيضاً مشقة السفر هناك أياماً متوالية، وجنسها ليس بالجيد؛ لأن الجنس الطيب محصور في جهة نجد ولا يفرطون فيه إلا بأثمان غالية، وعلى كل حال فإن الجنس الطيب من الخيل في نجد قليل الآن جداً؛ لأن الإنكليز بالهند يشترون منه كل سنة عدداً كبيراً يستعملونه في الغالب في المسابقات ويأخذون من نسله من أفراسهم نسلًا مختلطاً قوياً متيناً.

الطريق إلى المدينة

تقوم قوافل الحجاج من مكة إلى المدينة المنورة؛ فيسيرون في واحد من أربع طرق على حسب تبعية المقوم والجمالة إليها. وهذه الطرق هي: السلطاني، والفرعي، والغاير، والشرقي.

والطريق السلطاني هو أحسنها سيرًا وأكثرها ماء. فإذا قامت القافلة منه خرجت من باب العمرة وسارت إلى الشمال الغربي وتمر على المحطات الآتية:

وادي فاطمة: ويجري فيه ماء عذب يأتي من السيول التي تنزل من جبال الطائف، وبه مزارع كثيرة، ويسكن فيه عرب الأشراف من ذوي حسين وذوي غالب، ويسكن في المنطقة التي بينه وبين مكة إلى بحرة بنو لحيان.

عسفان: ماؤها قليل، وفي طريقها عقبة لا تسع إلا جملاً جملاً، والعرب التي تسكن في هذه الجهة بشور (بشر) وحران.

خليص: بها بئر التفلة، وماؤها غزير ويسكنها قبائل زبيد، ويقرب منها واحة بها مياه جارية وفيها بساتين ونخيل.

القديمة: (القضيمة) قرية على البحر ومساكنها أكواخ صغيرة، وماؤها من الحفر التي يخزنون فيها ماء الأمطار، وأهلها من زبيد، ويشغلون في الغالب بصيد البحر، ومنها يتجه الطريق نحو الشمال.

رابع: وهي قرية على البحر الأحمر، وفيها قلعة بها بعض الجند العثماني، وماؤها من الحفر والآبار، وأهلها من زبيد. ويأتي إلى مياهها بعض السفن الصغيرة لمشتري ما يصيده أهلها من الأصداغ وغيرها، وينزلون إليها خفية

كثيراً من الدخان وغيره من الأشياء الممنوعة، وعلى الخصوص الأسلحة وما يلزمها من ذخيرتها، ويبيعونها بأثمان رخيصة جداً.

مستورة: مأوها غض (ومنها طريق إلى بدر، إلى الصفراء يسمونه الملف)، ويسكن هذا الطريق قبائل صبح في بدر، والأحامدة في الصفراء.

بئر الشيخ: وتسكنها قبائل صبح. والمياه على طول هذا الساحل لا ترغى الصابون.

ديار بني حصاني: مأوها غض، ويسكنها صبح والحوازم.

الحمراء: وهي قرية بها نهر عذب وفيها بساتين ونخيل ويكثر فيها البرتقال والليمون والموز والحناء، ويزرع بها كثير من الخضر كالقثاء والبطيخ وغير ذلك، ويسكنها الحوازم، ومنها ينشئ الطريق إلى الشمال الشرقي.

الجديدة: وهي قرية مأوها عذب، وبها قبر ولي الله سيدي عبد الرحيم^(١) البرعي المصري، ويسكنها قبائل الحوازم والأحامدة. ومنها يميل الطريق قليلاً نحو الشرق.

بئر عباس: ويسكنها جانب من الحوازم وصبوح والأحامدة، ومأوها قليل، ومنها يميل الطريق إلى الشرق قليلاً.

بئر درويش: ويسكن هذه الجهة قبائل الأحامدة والرحلة (بكسر الراء وفتح الحاء).

(١) وهو المقصود بقول بعض الشحاذين في أغنياتهم: «يا سعد قل للنبي عبد الرحيم منحاش». ولعل المرض دهمه في طريق المدينة فمات ودفن بهذا المكان، وله ديوان شعر مطبوع كله مدائح في الرسول.

آبار علي: ويسكنها قبائل عوف وعمرو، وماؤها عذب، وهي على مسافة نحو خمسة كيلومتر من المدينة المنورة. ويترك فيها القوافل شقادفهم وسحاليهم حتى لا يدفعوا عليها قوشانات في دخولهم المدينة. ومن يريد أن يدخلها بمحملة دفع عليه الرسوم المعتادة من جيبه. وربما طلب منه الجمال أكثر من اللازم فليتدبر.

الطريق الفرعي

والطريق الفرعي يتدئ من رابغ متجهًا إلى الشمال الشرقي، ويمر على المحطات الآتية:

وادي حرشان.

نقر الفار: وهو محجر ضيق منحدر تمر منه الجمال جملاً وجمالاً ويسكنه بنو سالم.

بئر رضوان: وماؤها عذب.

أبو ضباع أو أم ضباع: وماؤها عذب، ويسكن فيها بنو عوف.

الرياض أو وادي الريان: وماؤها عذب وشجرها كثير، ويسكنها بنو عمرو.

الغدير: وفيه مجرى ماء.

وادي المعظم: ماؤه عذب.

بئر الماشي: ماؤها حلو، ويسكنها عوف.

آبار علي.

المدينة.

طريق الغاير

وطريق الغاير يتدئ من رابع أو مستورة، ويقطع جبل الغاير إلى الشمال، وهو أقل هذه الطرق مسافة. فإذا وصل المسافر إلى الغاير صعد من عقبة عالية تشرف على هاوية عميقة طريقها ضيق جدًا بحيث لا يسع إلا دابة دابة. وهذا الطريق خطر في صعوده وهبوطه وخصوصًا على الركاب، ومع ذلك تسير فيه الدواب بسهولة لأنها متعودة عليه، ومسافة الصعود إلى ظهر هذه العقبة لا تقل عن ست ساعات. ويسكن الغاير ومنحدراته^(١) قبائل اللهبة ومسروح وهما شر العرب على الحجاج. وهذا الطريق يسمونه الطريق المدني؛ لأن أهل المدينة يستسهلونه في حجهم لقربه، فيركبون هجنهم أو حميرهم أو خيلهم ويسیرون فيه قوافل، قوافل. ولهم منازل ينزلون فيها حيث يكون الماء ويقيمون بها ريثما يأكلون ويصلون ثم يستأنفون السير إلى مكة. وكثير من الحجاج الأقوياء الخفاف الأثقال وخصوصًا من المصريين كانوا يصحبونهم من المدينة إلى مكة، أو من مكة إلى المدينة عقب أيام التشريق مباشرة، ویتتظرون بالمدينة حتى إذا جاءت القوافل إليها انصرفوا معها إلى ينبع.

(١) جل القبائل الموجودة في هذه الطريق الثلاثة بطون من حرب.

وكل حارة من المدينة تكون قافلة تسير تحت زعامة شيخ هذه الحارة، ويسمون ذلك ركبًا، فيقولون: «ركب فلان حضر إلى مكة أو قام منها في يوم كذا». وكذلك الحال في زيارة أهل مكة للمدينة المنورة قبيل شهر رجب.

الطريق الشرقي

والطريق الشرقي يخرج من مكة من باب المعلى ويتجه إلى البياضية، ثم يسير في طريق شمال طريق منى ويتجه إلى الشرق، ويمر على المحطات الآتية: بئر البارود: مأوها عذب.

وادي الليمون: ويكثر فيه شجر الليمون وال نارنج والليمون الحلو، ويزرع فيه البطيخ والخضر. وفيه ماء جار ينزل إليه من جبال الهدي ويسير في مجرى مبني إلى بساتينه وغياضه. ومنه يتجه الطريق نحو الشمال.

الحفاير (الضريبة): مياهها عذبة، وقريبة من سطح الأرض. بركة سمرة: لا ماء فيها مدة الصيف.

بركة المسلح (حارة): مأوها غزير وعذب وبساتينها كثيرة. الحبيط (الضيعة).

سُفِينَة (صفينة): وبها نخل وآبار عذبة.

السُوَيْرِجِيَة (السويرقية): قرية يسكنها سادات من بني حسين، وبها آبار ومزارع كثيرة.

الحجرية: ويبعد الماء عنها بنحو ربع ساعة.

غُرابة -أو غراب-: وفيها مياه كثيرة على عمق ذراع أو ذراعين من سطح الأرض.

الغدير -أو الحنك- وبعضهم يكتبها الحنق: وفيها بركة كبيرة تملأ من مياه الأمطار.

سيدنا حمزة.

المدينة المنورة.

وعربان هذا الطريق من الزيود^(١) واللهبة^(٢) وعتيبة ومطير^(٣) والرحلة^(٤)، وهم أبعد الأعراب عن الحضارة.

(١) الزيود: شيعة ينسبون إلى سيدنا «زيد بن علي زين العابدين». ومن عوائدهم أنهم لا يختنون بل يسلخون جلد عانتهم وقضيبهم، ويموت من جراء ذلك منهم خلق كثير، وأطفال مكة يعيرونهم بذلك.

(٢) اللهبة: مشهورون بالغدر والخيانة.

(٣) هما من أكبر قبائل بلاد العرب قوة ومنعة وأكثرها عددًا وأمتنها شجاعة، وأغلبهم لا يلبسون إلا المتزر، ونسأؤهم على جانب عظيم من الشجاعة. وقد بلغ من المرأة العتيبية أو المطيرية أنها تمسك بدليل الفرس وهو يعدو وتجري معه ثم تضغط على ذيله بيدها وتقذف بنفسها فوق ظهره، وهي كذلك تتركب الجمل في عدوه.

(٤) وعرب الرحلة: لا يقيمون في محل واحد؛ بل تراهم كما يشير إليه اسمهم متنقلين وراء الكأ من مكان إلى آخر.

نظام القوافل

قلنا: إنَّ الحجاج لا يخرجون من مكة إلى المدينة إلا في ركب القافلة التي تكون جمَّالها من أهل الطريق الذي يسرون فيه. وغالبًا ما تكون جمال الحجاج تابعة لجمال واحد وهو الأحسن، أما لو كانت تابعة لجمالين فتكون مشغوليته أكبر وتعبه بينهما أعظم. وعلى كل حال فعلى الحجاج أن يجتهد في تخفيف أحماله وأثقاله. فإذا كملت شحنة القافلة نهضت الجمالة بجمالهم وأخذوا يقطرونها في بعضها قطارًا واحدًا أو قطارين بجوار بعضهما، وفي المقدمة يكون غالبًا أكبر الركب وجاهة وعصبية. وجمال كل رجل تسير من خلفه مقطورة في جملة، ومنهم من يرى تقدمها على جملة حتى تكون على الدوام تحت نظره خوفًا عليها من عبث العابثين. والجمال عندهم ينقسم إلى قسمين: جمل الشقدف: ويركبه اثنان ومعهما اللازم من فراشهما ومؤنتهم اليومية، وجمال الحمل -ويقال له: العصم- يحمل المتاع ويركب فوقه رجل واحد أو رجلان إن كان المتاع قليلًا. وأجرة العصم في الغالب ثلثا أجرة جمل الشقدف الذي يكون من الجمال المتينة القوية حتى يتيسر له حمل ما فوقه. وليس لهذه الأجرة من رابطة؛ بل يقدرها الشريف كل سنة باتفاقه مع الوالي، على حسب أهوائها وتحت رحمتها بضيوف الله، ثم ينادي بها المنادي في الأسواق، ولذلك تراها كالترموتر ترتفع وتنخفض على نسبة مطامع ولاة الأمور بمكة. ولقد كانت أجرة جمل الشقدف في سنة (١٣٢٨) ست ليرات عثمانية من مكة إلى المدينة إلى ينبع، أما قبل الدستور فقد بلغت ١٣ جنيهاً مصرياً ونصفاً، كانت تؤخذ من الحجاج في مكة

بواسطة المطوف، وهذا عدا ما كان يصيبه من الجمال في طريقه من طلبه زيادة على الأجرة المذكورة مدعيًا بأنه لم يصله شيء من أجرته.

وعليه فإذا كان الحاكمون في بلاد العرب من الأخيار البعيدين عن المطامع، كانت الجمالة على أخلاقهم، والعكس بالعكس (والناس على دين ملوكهم).

والمطوفون بعد أن يتفقوا مع الجمالة على حمل حجاجهم يسافرون غالبًا إلى المدينة في قافلتهم بحجة المحافظة عليهم، وكثيرًا ما يغرر الجمالة بضعاف الحجاج فيأخذون الأجرة منهم ويخبرونهم بأن الجمال خارج البلد، ويرجونهم في أخذها من هناك حتى يوفروا عليهم دفع القوشان (كملة تركية معناها المكس، وهو عوائد تأخذها الحكومة على الجمال الخارجة من مكة أو جدة أو المدينة أو ينبع، وليست لها قيمة مخصوصة بل ترتفع وتنخفض على نسبة مطامع ذوي الكلمة هناك، وربما بلغت ريالين أو أكثر قبل الدستور مع أن الذي يرد لخزينة الدولة منها ستة قروش عثمانية فقط). فإذا خرج الحجاج المساكين من مكة لا يجدون إلا جمالًا ضعيفة ضئيلة ينالهم منها مشقات جسيمة، وكثيرًا ما يتركونها ويسيرون على أقدامهم جل مسافة الطريق أو كلها.

والقافلة لا تنتظم عادة إلا بعد أول محطة حيث ينظم الجمالة جماهم ويرتبون قطاراتهم التي لا يخالفونها طول سفرهم.

والجمالة في الغالب نحيفو الجسم، رفيعو الساقين، قصار القامة، يكاد أن لا يكون في جسمهم عضل بالمرة، أما عظمهم فهو الحديد أو أشد صلابة، ولهم قدرة على العدو بحيث لا يلحقهم فيه أحد؛ ولقد رأيت رجلاً منهم يعدو وراء جمل شارد حتى تعلق بذيله فعاقه عن الجري ثم أمسك بزمامه. أما ملابسهم

فهي قميص عليه حزام من الجلد به عادة سكين طويلة أو سيف صغير، وفي يدهم عصا غليظة قصيرة يسمونها المطرقة، وعلى رؤوسهم تلك الضمادة (الكوفية)^(١) التي يلقونها عليها بأشكال مختلفة. وبعض عرب الشروق واليمن يستعملون غير الطاقية شيئاً من الخوص يشبه البرنيطة الواسعة إن لم يكن هو هي ويسمونها الظلة.

وبعض الجمالة يلبس نعلًا في رجله يقيها من حرارة الأرض وحصبائها. أما نظافة ملابسهم لا يمكنني أن أقول لك عنها غير أنها إذا اتصلت بجسومهم لا يخلعونها مطلقاً حتى تنخلع هي عنها، وهذا لا يكون إلا إذا أكل عليها الدهر وشرب. والمترفون منهم يغيرون ملابسهم كل سنة مرة في موسم الحج، وبعضهم يلبس عليها عباءة من الصوف أيام الشتاء تقيهم شدة البرد يسمونها مِشْلَحًا. ولون هذه الملابس كلون الجبال أو الرمال؛ فتراها صفراء قاتمة أو حمراء طوبية، وربما كان اختيارهم لهذه الألوان حتى لا تُرى بسهولة من بعد بل يشكل فيها الأمر على الرائي. وفي ذلك ما لا يخفاك من الفكرة التي أساسها الخبث والغدر!! وربما أخذ من هذا تغطية الاستحكامات الجديدة في أوروبا بطبقة ترابية تشبه أرض المنطقة المحيطة بها. وبعض كبراء الحجيج يعطون جمالهم عباءة من الجوخ الأحمر فيفرحون بها فرحاً عظيماً وتقع في نفوسهم موقعاً حسناً ويتباهون بها على أقرانهم.

والجمالة بعد الابتعاد عن مكة يلحفون للحجاج في السؤال، ويغلظون لهم في الأقوال: فترى أصواتهم هنا وهناك قائلين لركابهم «جرجوش، هلله، سكر، جرش». فيجيبه هذا الحاج: أنت أخذت، ويقول الآخر: ما بقي شيء أو ما في

(١) أظن أن لفظ الكوفية نسبة إلى الجهة التي كانت تعمل فيها وهي الكوفة.

معنى ذلك. وهناك يكثُر بينهم الأخذ والرد الذي ينتهي بأخذ الجمالة ما يريدون. وكثيرًا ما ترى في الطريق بعض أعراب من غير جمالة القافلة ومعهم جمال ضئيلة وهم ينادون (يَارُ وَيَكِبُ يَارُ وَيَكِبُ) ويكون ذلك غالبًا في المحطات الأهلة بالسكان. وتصغيرهم للراكب في ندائهم لا يخلو من معنى ينطبق على حقيقة من يركب معهم من هؤلاء الذين لم تسمح لهم ذات يدهم بالاستعداد على ركائبهم قبل سفرهم، ولهذا فإنهم يتساهلون في أجرتها كثيرًا. وترى ذلك على الخصوص في طريق عرفة.

وعلى طول طرق القافلة ترى كثيرًا من حجاج الفور (التكرور) مشاة بأطفالهم، وكثيرًا ما ترى الأم حاملة طفلها في شبه كيس ملتصق بظهرها بحيث لا يظهر منه غير رأسه، وعلى رءوسهم بعض أمتعتهم، وفي أيديهم صفيحة أشبه بالكشكول يضعون فيها غذاءهم. وإذا كانت لهم حاجة إلى السؤال سألوا ركاب القوافل بلطف وأدب، وما رأيتهم يطلبون غير الماء لأنه يصعب عليهم حمله، وخصوصًا في مدة الصيف الذي تجف فيه القرب وتنشف الركايا. فإذا مرت القافلة قرب بيوت قبيلة من القبائل وجدت كثيرًا من الأعراب ينادون على البطيخ الكبير بقولهم: برطيخ، وعلى صغيره بقولهم: الخربز (وأصلها قاربوز بالتركية)، وينادي بعضهم: الما الماء، خُبز خُبز. الثمر، الفجل إلخ إلخ. فإذا قربت من ديارهم وجدت شرذمة من أولادهم يحيطون بك وأيديهم ممدومة للعطاء وهم يتغنون بقولهم: يا حاج سلامات، يا فندي سلامات، يا بويا سلامات، إن شاء الله سلامات، إن شاء الله عرفات، إن شاء الله بركات، وبعضهم يقول: «حج حجيج (حج الحجيج) بيت الله، والكعبة ورسول الله... إلخ.

وكأنني بالجمالة واللقمة تهضم في أكفهم والحسنة تضيع بين أصابعهم لا يعرفون الكرامة إلا وقت امتداد يدك بها إليهم، فإذا انفضت حركتها صارت كأنها ما كانت!! وهذا أمر لا ينطبق على ما هو مشهور في الطبع العربي من ذكره للنعمة وحفظه للجميل. ولهم أغنية يتغنون بها في طريقهم، وهي في الغالب على النعمة العراقية والرومية التي أخذوها عن حجاج الأتراك والشوام. وجمالهم ترتاح إليها وتتسمع لها فتنسيها لحظة ما هي فيه من التعب والعناء. وهذه الأغنية لا يكاد يعرفها من يسمعها لأنها أقرب إلى الرطانة منها إلى العربية، على أنها لا تخلو من معان دقيقة لطيفة وأغلبها غرامية تمثل حكاية محب ومحبوب أو عاشق ومعشوق، ومنها ما هو مدح في المطايا ودونك شيئاً منها:

يا حبيبي لو ترى حالي والي جرى لي بعد فرقاك
والله ما غبت عن بالي ولا نسيت الحـصافة ذاك

«يا سيد وايش غربك في دائرة الحفا والشوك، يا رهيف، يا مروود العين، يا ريت خدي ينقسم نعلين، الله يحاسبهم كما حاسبوني، كما رموني بجوف الوقيدة وأنا حي».

«لواهني بالحج واوفي جماره، واقف على العيرات ساجدين مع الربيع (الجلب المرتفع) صبح أربع تسمي شعيب الخضارة، مع مثلهن يمسي بوادي الربيع، مع مثلهن كل تهني بداره، وأدي النعيم الي عذوقه مهايع».

يا الله يا راد كل غريب بلاده والذوق (النوم) بعد القسا (القسوة)
(يعني التعب الشديد)، حمت اللمن (اليمن) والشام وكل دايره جيت من وراها، لي في اللمن سيد ولي في الشام باشا، إن جيت عند الي في اللمن يبقى

السيد يملكني، وإن جيت عند الي في الشام يبجي الباشا يحكمني». وينطقون بالقاف جيماً غير معطشة.

وصغار الحجاج من المصريين لهم أغنية يتغنون بها في طريقهم وعلى الخصوص نساؤهم. وهي لا تخرج عن ذكر الطريق للحج وذكر البيت وعرفة وزمزم، وخصوصاً ذكر النبي عليه الصلاة والسلام. وكلها عبارات بسيطة ليس فيها شيء من المعاني العالية نذكر لك شيئاً منها:

«أنا أمدح محمد، والحسن والحسين والقاسم أحمد، بلغ العاشقين يا رب زيارة محمد، مديح باشتياق أنا ما أمدح إلا النبي، يا هنا الي انوعد.
يا ليلة إن برزوا وباتوا لبره، وبات قلبي في حنين، ويطلب من الله يرجعوا سالمين، بنصرة من الله، يا هنال الي انوعد.

وإن جيت حببي يا وبور وإن جيت حببي، لأكنسك وأرشدك وبالشمع أقيدك، مروق بخوخة يا بحر، يا بحر مروق بخوخه، لا يمسك عكار، ولا ريح بدوخه، تحت ظل القلوع أبو شال وجوخه، في رابغ نوى الإحرام ولبس احترامه، يا نهار الهنا يوم خلوه يفك احترامه، يا فرح قلبي يوم طلوع الجبل، والخطيب على الجمل، والمبلغ يرقى، يا فرح قلبي ساعة النفرة، وفرحت عيوننا ونزلنا بفرحه، وفوتنا من بين العلمين كان الفجر لايج، يوم دخولنا منى ونصبنا الخيم وذبحنا الذبايح، وافتكرونا العيال وبقى الدمع سايل، وبعد ثلاث أيام حملنا لمكة، وطفنا طواف الوداع وبرزنا، والجمال حملنا، وعلى أبو إبراهيم سرنا، وصلنا قبة المصطفى والأعتاب زمرد، حول مقام النبي، قال الطواشي منين يا جماعة، زوروا النبي زوروا واطلبوا الشفاعة».

والخداء قديم جدًا في العرب، والمؤرخون يقولون: إن أول من حدا الجمال «مضر بن ربيعة» وكان حسن الصوت ويملك كثيرًا من الإبل، وذهب بعضهم إلى أن توقيع الجمال في سيرها هو الباعث الأول على وزن الشعر فيهم. ولهم لكل سير من سير الجمال بحر مخصوص، فإذا صارت الهوينا فالرجز وإذا أسرع فالحَبَب. وقد كان الخلفاء يأمرّون شعراءهم فيحدون لجمالهم. ومن ذلك أن عبد الملك بن مروان كان راكبًا جملاً في سفر له (ولعله في حجه) وجمّاله يحدو بقوله:

يأيها البكر الذي أراكا عليك سهل الأرض في ممشاكا
ويحك هل تعلم من علاكا إن ابن مروان علا ذراكا
خليفة الله الذي امتطاكا لم يعمل بكر مثل ما علاكا

ووقت تحميل القافلة وتنزيلها تكثر السرقات من الجمالة أنفسهم. وقد يتفق جملك مع جمال آخر فيحضر في هذا الوقت الذي يلهيك فيه بصريخه وصياحه في حين ما الآخر ينقض على عفشك ويسرق منه ما تصل إليه يده، حتى إذا هدا روعك شعرت بما نقص من متاعك. وهنالك يكثر الصياح فيقول هذا: خرجي، ويقول الآخر: ملابسي، وغيره يصيح: لحافي، وهكذا. وبعد هرج ومرج من غير فائدة يسكت الصائحون شاكين أمرهم إلى الله، ويشتغلون بتجهيز شئونهم. وليست الجلبة قاصرة على هؤلاء؛ بل ترى الصراخ من أنحاء القافلة بتمامها فهذا يصيح قائلاً: يا حاج فلان، وذلك ينادي: يا حاجة فلانة، وآخر يقول: اندر، وغيره يوهم بأنه يشاهد الحرامي فيقول: شايفك، وآخرون يشتغلون بنصب خيامهم فيدق هذا بمطرقته، ويتصارخ الآخر مع جاره الذي زحزحه عن مكانه، وهو في أثناء ذلك يزعم مع الذي من ورائه لأنه يزاحمه على محله. وتسمع فيما بين ذلك أصوات الأعراب هذا يقول: الخطب الخطب،

وآخر يقول: الما الما وهكذا، وما هم إلا سارقون ما تصل إليهم أيديهم، ويفرون من حيث لا يشعر بهم أحد. وبالجمله فتستمر هذه الجلبة صاعده في هذا الفضاء إلى عنان السماء نحو ساعة من الزمان؛ أعني ريثما ينزل الحجاج حمولهم، وينصبون خيامهم، ويمهدون فراشهم بين رحالهم، ويحيطونها بشقادفهم التي تلتف بها جمالهم وجمالتهم. وهناك يبدأ هذا في جلب الماء بنفسه أو بواسطة جماله، وآخر يستقضي الخشب، وغيره ينصب القدر لطبخ بعض الأغذية الجافة كالعدس والأرز واللحم المجفف، وذلك في المحطات الصغيرة التي لا تطول الإقامة فيها، أما المحطات الكبيرة فيشترون منها اللحم الطري الذي يذبحه بعض أعرابها، وبعد العشاء يشربون قهوتهم وينامون بعد أن يعطوا الجمالة عشاءهم. والرفقاء من الحجاج يتناوبون السهر على حراسة عفشهم، ومن يسهر منهم تراه على الدوام يصرخ بكلمات الاضطراب والانزعاج كقولهم: «شايفك، ابعده، لا تقرب» وهكذا. والحجاج يقضون حاجتهم بين رحالهم في الغالب، ومن ابتعد عنها لا بد أن يكون معه أنيس يحرسه عند اشتغاله بنفسه، وإلا فإنه لا يحرم واحدًا من الأعراب ينقض عليه ويضربه في رأسه بعصا يابسة قصيرة تحمد معها أنفاسه!! وهناك يشلحه من ملابسه أو يكتفي بقطع كمره من حزامه أو من ذراعه. فإذا استغيبه صحابته قاموا للبحث عنه فيجدونه إما فاقدًا للحياة فيوارونه التراب على حاله!! وإما فاقدًا للشعور فيأخذونه ويقومون بشأنه، وقليلًا ما ينجو من هذه الضربة. وعلى كل حال فالناس في القافلة تراهم جلوسًا قيامًا نيامًا مع ماشيتهم وخدمهم وجمالتهم وتبعهم بلا فارق بين الجميع؛ بل ترى السيد على الدوام يبالغ في السؤال عن خدمه والاهتمام بشأنهم حتى وكأنه يتقرب بذلك منهم؛ وهنا تتحقق مسألة السادة الصوفية: (سيد القوم خادهم). وقد يقطع الجمالة

بعض الجمال من القافلة أثناء سيرها، ويتظاهرون بإصلاح حمولها حتى إذا ابتعدت القافلة عنهم أوقفوا بركابها وهم يستغيثون ولا يغاثون، وسلبوهم متاعهم، وكثيراً ما يجهزون عليهم، ويفرون بجماهم إلى حيث أرادوا. والأدهى من ذلك كله ما يهدد القافلة من خطر هجوم بعض القبائل التي في طريقها عليها، أو على الأقل وقوفهم في وجهها فلا يدعونها تمر إلا بعد أن يأخذوا منها ما يرضيهم باسم أجرة المرور في أرضهم، وربما كانت لهم مع المقوم وكبار الجمالة مناقشات حقيقية أو ظاهرية تنتهي على الدوام بإقناع المقوم لحجابه بإعطائهم ما يطلبون.

وبالجملة فركب القوافل لا ضمانه له بالمرة، وهو بين أيدي المقومين والمطوفين كالطيرة الضعيفة في يد الطفل إن شاء أكرمها وإن شاء أهال عليها المصائب والمتاعب من كل جهة؛ لأنهم طبعاً من هذا الفضاء، أرباب الحكومة والقضاء. وهم الذين يفصلون فيما عسى أن يقع من الحجاج من الشغار أو الصغار الذي هو شأن الطبقة السافلة منهم على الدوام، لا سيما صغار الحجاج المصريين الذين لا تسمع منهم على طول الطريق إلا عبارات تافهة أو مشاجرات أساسها شيء لا قيمة له بالمرة ربما أدت إلى أخذ البعض بخناق الآخر، وذوو العصبية منهم هم الغالبون. أما إذا كان الشجار بين بعض الحجاج والجمالة، فإن كان الحاج ضعيفاً احتمل الإهانة لأول مرة، وإلا دافع برفع لسانه ويده بسرعة يعقبها رد فعل بالاعتذار إليهم والاستكانة لهم، ولا يعدم الحاج المتشاحن في هذه الحال من إخوانه من يعنفه على شجار مع الجمالة منتصراً إليهم لا بلسان الحق ولكن بعبارات الملق والمداهنة اللذين أساسهما الجبن والنفاق والعياذ بالله، مما يجعل روح ذوي الإحساس الرقيق تتردد بين حناجرهم وخناصرهم!! وإذا فمن يريد بنفسه خيراً فعليه أن يصم أذنيه ويربط

لسانه عن أمثال هذه المهاترة، فترتاح روحه ويطمئن قلبه؛ وإن كان ضميره في ألمٍ مستمر.

وعلى كل حال فيجب أن يكون الناس في طريق القافلة كلهم عيونًا تحافظ على حياتهم ومتاعهم. وعندي أنه يجب على حجاج كل قافلة أن تكون لهم بصيرة على أنفسهم؛ فيرتبون أمورهم ويتخبون لقافلتهم رئيسًا منهم قبل قيامهم من مكة. وهذا الرئيس يرتبهم في خارجها فيعين منهم خفراء بالنبوة يقومون بحراسة القافلة في أثناء سيرها وفي إقامتها. وإذا حدث حادث في القافلة أثناء المشي أوقف سيرها ونظر فيما فيه صالحها. وهذا أظنه أولى من تسليم زمام أمرهم إلى مقومهم. وما على حكومة الحجاز إذا ربت لكل قافلة خفراء من العسكر تقوم بحراستها في نظير رسوم مخصوصة تتقاضاها من ركاب القوافل، فذلك يكون فيه شيء من الضمان للحجاج، اللهم إلا إذا صادفوا منه ضغثًا على إبالة.

من غص داوى بشرب الماء غصته فكيف يصنع من قد غص بالماء على أنا سمعنا ونحن نكتب هذه الكلمات أن حكومة الحجاز مهتمة بتسيير السكة الحديدية بين مكة وجدة. فإذا تحققت هذه الأمنية سهل على الحجاج الطريق إلى الحرمين الشريفين بواسطتها. وهنا نرجو من حكومة الحجاز أن لا تجعل هذه السكة ضيقة مثل السكة التي بين الشام والمدينة، حتى لا تصادف شيئًا يعوق سرعة سير القطارات عليها، والله تعالى يوفقها بمنه وكرمه إلى ما فيه الخير العام.

سفر الجنب العالى من مكة إلى الوجه

أمضى الجنب العالى بمكة يوم (١٤ ذى الحجة) وهو يستقبل زواره، ويفيض نضاره، على البائسين والمحتاجين، بعضهم بواسطة رجال المعية السنية، وبعضهم بواسطة حضرة مأمور التكية الذى أحيل عليه البحث فى الالتماسات الخاصة بالمرتببات اليومية أو الشهرية.

وفى ظهر ذلك اليوم أمر -حفظه الله- فسارت حملة الحاشية الكريمة إلى بحرة تحت قيادة حضرة الأميرالاي «علي بك إسماعيل» ومعها كثير من فقراء الحجاج المنقطعين مصريين وغير مصريين ممن صدرت الإرادة السنية بتسفيرهم إلى بلادهم بناء على التماسهم على نفقة الخاصة الخديوية. ثم قامت فى عقبها حملة دولة الوالدة فوصلت -حفظها الله- بحرة فى منتصف الساعة الثالثة بعد الغروب.

وبعد صلاة العشاء طاف الجنب العالى طواف الوداع، وركب سموه وفى ركابه الفخيم من بقى فى خدمته من رجال معيته، وبمجرد ما خرج من باب مكة وجد دولة الشريف وحضرة وكيل الوالى وكثير من الأشراف والكبراء قد اجتمعوا لوداعه، وساروا فى موكبه ساعة شاكرين له همته السامية، وآدابه العالية، مكررين آيات الشاء على فضائله وفواضله. فشكرهم جنابه العالى مودعاً. وسار وفى خدمته أصحاب السيادة أنجال الشريف وسعادة مكتوبجي الولاية والشريف ناصر الذى تعين من قبل الشرافة العظمى مهمنداراً لجنبه

السامي مدة وجوده في أرض الحجاز، ووصل ركابه العالي بسلامة الله إلى بحرة في منتصف الليل. وأمضى فيها يوم (٢٧ ديسمبر)، وبعد صلاة العشاء ركب إلى جدة.

وكان -حفظه الله- كلما مر في طول الطريق على طابية، وجد عسكرها نزلوا من طوابيهم لأداء واجب التعظيم، وضرب نفيرهم منبأً الطابية التي بعدها بقرب تشريفه إليها. ولما اقترب من جدة وجد سعادة قائمقامها وحضرة قومندان عساكرها مع كثير من أعيانها في انتظار تشريف جنابه العالي، وسار الكل في ركابه حتى وصل إلى سلم الكورنتينة في نحو منتصف الليل. وهنالك سلم عليهم سموه شاكراً لهم عنايتهم وآدابهم، وركب الزورق البخاري إلى وابور المحروسة مع بعض رجال معيته. وكانت دولة الوالدة قد سبقت إليه مع حاشيتها، أما باقي رجال الحرس والمعية السنية فقد نزلوا إلى وابور الرحمانية الذي كان في انتظارهم.

وفي صباح يوم (٢٨ ديسمبر) قابل الجناب الخديوي في يخته أصحاب السيادة أنجال الشريف وسعادة قائمقام جدة وحضرة قومندان عساكرها، ثم قناصل الدول الموجودين من هذا الثغر، وكانوا قد أتوا بصفة رسمية لتوديع جنابه العالي، فشكرهم سموه على آدابهم، وأرسل تلغرافات الامتنان والشكران إلى جلالة السلطان، ومقام الصدارة العظمى، ودولة الشريف، وحكومة الحجاز، على ما لاقاه -حفظه الله- من كمال العناية منذ حضوره إلى هذه الأراضي المقدسة. وفي هذه الأثناء كان ينظر -حفظه الله- في أوراق حكومته التي أتت إلى جدة مع آخر بريد. وبعد أن أصدر أوامره السنية في الشؤون الهامة، أمر -حفظه الله- فساتر مركب المحروسة وقت الظهر تماماً قاصدة الوجه؛ وهي ميناء في ساحل بلاد الحجاز على البحر الأحمر، وتبعد عن

جدة شمالاً بمسافة ٢٤٠ ميلاً فوصلها ركابه العالي ظهر يوم (٢٩ ديسمبر)، وفي يوم (٣٠) وصلت مركب الرحمانية، وهناك أخذ في إجراء الاستعداد اللازم لسفر سموه برّاً من الوجه إلى محطة البدائع للسفر منها إلى المدينة المنورة بطريق السكة الحديد الحجازية.

الوجه والسفر منه إلى المدينة المنورة

الوجه قرية على عرض ٢٦ درجة و ١٤ دقيقة وطول ٣٦ درجة و ٢٧ دقيقة، وفيها نحو أربعين بيتًا صغيرًا. وعدد أهلها لا يزيد عن خمسمائة نفس: كلهم تقريبًا عائلة واحدة تسمى عائلة البديوي، ويشرف على القرية تلة من ورائها، عليها قلعة حصينة، وفي هذه القرية على صغرها ثلاثة مساجد يقصدها في أيام الجمعة كثير من العربان التي في ضواحيها من قبيلة بلي. وكانت لقرية الوجه أهمية عندما كان يمر عليها ركب المحمل مدة سفره على البر؛ فقد كانت تنصب فيها الأسواق وتفرق فيها العوائد على العربان. أما الآن فحياة أهلها من صيد الأسماك وتجارة السمن والأصواف التي تأتي إليها من وراء الساحل والفحم الخشبي الذي يؤتى به من داخل البلاد. وأغلب تجارتها مع السويس، ومنها تقوم إليه في كل خمسة عشر يومًا بوسطة على إحدى مراكب الشركة الخديوية. ولما كانت الوجه محطًا لرجال المحمل المصري وممرًا للحجاج المصريين كانت إدارتها وما وليها شاملاً من المويلح وضبا والعقبة في يد الخديوية المصرية، وكان يعين عليها محافظ من طرف حكومة مصر مع قاضي للنظر في الأحكام الشرعية، وكان لها جند يحرسون الطرق، حتى إذا انقطع الحج من هذا الطريق عادت إدارة هذه البلاد إلى الدولة العلية.

ولقد كانت هذه القرية مدة وجود الجناح العالي بمياها على أكمل ما يكون من معالم الأفراح؛ فكنت ترى الرايات الحمر على بيوتها وعلى سوارى فلايكها، والعلم العثماني كان يخفق طول هذه المدة فوق قلعتها. وفي الليل كانت القرية تلوح كأنها الثريا زهاء وبهاء لمصابيح الزينة التي كانت على

دورها، وخصوصاً دار القائمقام والقلعة، وبالجملة فقد كانت البلد في حركة هائلة لم ترها طول عمرها.

ومن سنة (١٣٢٧) رجع المحمل المصري إلى الوجه من جدة لتأدية واجب الزيارة بالطريق الحديدي من محطة العلا. وسبب ذلك تعرض عربان الدرب الطويل ودرب ينبع له بغير حق. ولعلمهم يرجعون عن غيهم فيعود إلى مجراه الأصلي.

وفي يوم السبت الموافق آخر شهر ديسمبر نزل الجناح الخديوي إلى البر، وكان في انتظار حضرة قائمقام الوجه وسليمان باشا أبو رفادة شيخ قبائل بلي والمتعهد بحملة الركاب العالي، فركب -حفظه الله- الهجن مع حاشيته وسار إلى جهة الشرق في ركب حافل من عليّة عربان هذه الجهة، وفي مقدمتهم نحو خمسين نفرًا من عرب عقيل على هجنهم (وهم جند للدولة من العرب مثل جنود البيشة) وفي أيديهم مزاريق مرفوع عليها العلم العثماني، وعلى رأسهم ضابط برتبة صاغ قول أغاسي، وأمامهم فرقة منهم تضرب نوبتهم بالنقرزان (النقرة زان) على طول الطريق. وما زال -حفظه الله- سائرًا بموكبه وفي خدمته حضرة قائمقام الوجه وبعض مأموري الدولة هناك في وادٍ يقال له: أبو عرايش، حتى وصلوا بعد مسيرة أربع ساعات ونصف إلى ماء يسمى رأس حرامل، وفيه مكان يسمى الرحبة. وقد كانت حملة الخيام سبقت إليه واستعدت فيه لقدمه الشريف، فقصد سموه سراقه ونزل من في معيته كل إلى خيمته.

أمّا دولة الوالدة -حفظها الله- فقد ركبت مع صاحبات السمو والعصمة كريمتي الجناح العالي، ودولة البرنسييس «فاطمة هانم أفندي»، ودولة والدة البرنسييس «نازلة هانم أفندي حليم» وبعض حاشيتها، عربات صُنعت بصفة

خصوصية للسير في طرق الجبال يمر كل واحدة منها ثمانية من الجبال، ومن ورائها تختروانات تحملها البغال، على جملة أشكال، حتى إذا تعبن من هذه استرحن في تلك. وكان خلفهن هودج لمن كان في معيتهم من القلفوات، يتلوهن باقي حملة الركاب الخديوي من حرس وخدم وحشم، يتقدمهم رجال المعية السنية. وما زالت هذه الحملة سائرة حتى وصلت إلى المكان الذي فيه المخيم الخديوي في مسافة عشر ساعات.

وفي يوم أول يناير ركب سمو الجنب العالي بعد صلاة الفجر وسار بركبه في وادي السِّرْسِر حتى نزل في مخيمه بوادي أبي القزاز، وبه ماء يسمى باسمه، ومسافة السير إليه على نحو اليوم السابق.

وفي هذا الوادي يكثر شجر العِشار والشَّراة (نوع من السنط) والقُرَيْظَة (نوع من الحلفة يرتفع عنها وتأكله الإبل) والدوم والأراك (السواك)، وكذلك يكثر فيه نبات العوسج والخروع والضُّرمه (تشبه الحلفة إلا أنها قصيرة) والرَّمث (نبات كالشيخ) والخِرْمة (مثل البتونيا) والسيال والحنظل وله عندهم فوائد كثيرة وخصوصًا في قطرانه الذي يستخرجونه منه. والعرب يدقون خشب السيال مع الحنظل ويعملون منه شريطًا يضربون عليه بزنادهم فيوري نارًا، وهم في غنى به عن الكبريت.

وفي يوم (٢ يناير) ركب الجنب العالي بعد صلاة الفجر وسار بموكبه إلى مكان يقال له: مسيل النجد، وفيه ماء اسمه البداء، ومنه تبتدئ الأرض في الارتفاع نحو الشرق، فنزل فيه -حفظه الله- وقطع إليه المسافة مع ركه في مثل الأيام السابقة. وقد وجدنا هناك أورطة من سواري الجيش العثماني كانت قد أتت لحراسة جنابه الرفيع من قبل الدولة العلية، وكانت تريد السفر إلى

الوجه لانتظار سموه بها والسير في ركابه العالي فلم تتمكن؛ لأنها كانت تظن أن سموه يشرفها بعد هذا التاريخ.

وفي يوم (٣ يناير) سار ركب الجنب العالي في وادي النجد، ومعه فرقة من خيالة الدولة حتى وصل إلى خَشْمِ سِلْع، فنزل به وبات فيه مع باقي ركابه، والمسافة إليه كالمسافات السابقة. ويكثر في هذا الوادي شجر العشار والطلح (نوع من السنط) والماء فيه قليل.

وفي صباح اليوم الرابع من يناير ركب -حفظه الله- بعد صلاة الصبح وسار صاعداً من عقبة سلع (ويسمونها البوق لأنها على شكله) إلى شرفة النجد في أرض صخرية يكثر مدرها، ويضخم حجرها، ويصعب السير فيها على الخيل والبغال، والحُمُر والجمال، بل وعلى النساء والرجال، حتى أن أحد سوارى الترك كان يسرع فيها بجواده فانقلب به وارتطم رأسه بحجر فانكسر وأخذ الدم يتدفق من أم ناصيته ومن وجهه وأذنه، بما فقد معه شعوره وكاد يموت حتف أنفه، لولا أن الدكتور «الحسني» طبيب الحرس الخديوي كان قريباً منه، فقاذ بنفسه عن راحلته، وتبعته بأجزخانتى الخصوصية فضمامنا جراحه، وأشممناه بعض المنعشات التي أفاقته لوقته، فركب جواده بين إخوانه الذين تلاحقوا إليه، وهم شاكرون لرجال الجنب العالي عنايتهم به واستعدادهم لمثل هذه الطوارئ، ذاكرون لهم حسن خبرتهم وعالي همتهم.

ولقد شاهدت في الجبل الذي كان على يسارنا بعد مدخل البوق أثر كتابة بالخط الكوفي محفوره حفراً بسيطاً في صخرة مشرفة على الطريق، قرأت منها هذه الكلمات: «باسم الله، ما شاء الله، باسم الله ... المستنصر بالله» وإني لا أدري إذا كان ذلك كتب في مدة المستنصر بالله الفاطمي في مبدأ النصف الثاني من القرن الخامس للهجرة، وقتما وقع بمصر ذلك الغلاء الفاحش الذي بلغ

فيه ثمن الأردب القمح مائة وعشرين دينارًا والذي أكل الناس فيه بعضهم بعضًا. إذ لا يبعد أن يكون هجرها في ذلك الوقت جماعة إلى المدينة المنورة وساروا من هذا الطريق وقيدوا تاريخ مرورهم والإشارة لعله هجرتهم، بذكر اسم الخليفة لذلك العهد. كما يصح أن يكون ذلك حصل في مدة المستنصر بالله العباسي الخليفة ببغداد في نحو سنة ستمائة وثلاثين هجرية. على مدة الملك الكامل صاحب مصر، والذي خلف صلاح الدين الأيوبي في محاربته للصليبيين؛ إذ لا يبعد أنه سير في هذا الطريق فرقة من عساكره ليزود الطريق من الشام إلى بيت الله الحرام، وبيت نبيه عليه الصلاة والسلام، خصوصًا بعد ما كان الإفرنج قد ملكوا أيلة (العقبة)، وأجلاهم عنها صلاح الدين في سنة (٥٦٦هـ)، وربما كانت هذه البعثات هي التي سهلت طريق البر لحج شجرة الدر.

وبعد ذلك أخذ الوادي في الانفراج ورسم أمامنا قوسًا حتى تخيلنا أنه أقفل أمامنا. ولم نزل سائرين فيه إلى الشرق حتى وصلنا إلى مدخل بين جبلين شاهقين أحمرين (لون كربونات الحديد)، تتخللهما طبقات قائمة سوداء أو صفراء يتقابل بعضها مع بعض في موازاة واحدة في الجبلين بما يحكم معه الرائي لأول وهلة أنهما جبل واحد قد تمزق عن بعضه بحادث طبيعي، ويسمون سلسلة هذه الجبال حِرَّة العَوِير؛ قال الشاعر:

واشرق أجدال العوير بفاعل إذا خبت النيرات بالليل أوقدا
وقال أيضًا:

حتى وردن رَكِيَّات العوير وقد كاد الملاء من الكتان تشتعل

والعوير إحدى لابتى المدينة اللتين حرم عليه الصلاة والسلام ما بينهما فقال: «حرام ما بين لابتىها». وفي الصحاح: «أنهما حرتان يكتنفانها». ويظهر أن نيران هذا الجبل البركاني كانت تظهر أحياناً من قبل وبعد الإسلام. والعرب تعرف ذلك كما قال القطامي في شعره السابق من قصيدة يمدح بها يزيد بن معاوية. ويسمون نارها بنار الحجاز، وقد ورد ذكرها في الحديث الشريف.

وفي الظهر وصلنا إلى رأس الحرة؛ وهي قمة عالية سوداء تشرف على واد ضيق فرشت أرضه بحجارة صوانية حمراء وصفراء، وفي جهته الشمالية ممر للسيول فيه بعض شجر الطرفاء ونبات الأرتي «تأكله الإبل». ويكثر في هذا الوادي البعثان الذي يعطره بروائح الزكية. وما زلنا سائرين في هذا الوادي الضيق ونحن في شدة ما يكون من الحر حتى نزلنا منه إلى واد متسع يسمى «وادي الدهيث»، وليس فيه ماء. ولكن يكثر فيه شجر الغضا، وهو نوع من الطرفاء ناره شديده يضرب بها المثل. وصعدنا منه إلى وادي بوبلي (أبي بلي) وهو واد حصباؤه كثيرة، ومدراته كبيرة، وزلطة كالبطيخ في حجمه، وفيه يكثر شجر الشراه والسنت. ومن هنا يأخذ الطريق في العلو، والجبال في الدنو. وقد ضرب لوننا الأحمر إلى السواد. وأخذت تتجزأ إلى أشلاء هرمية ذكرتنا بمصر التي تجلت صورتها إلى أفئدتنا ونحن في سبيلنا إلى الله تعالى ورسوله بأجل صورة، وأفخم مثال، وهل هي إلا وطننا العزيز الذي بمحبته يكمل الإيمان، ويرضي الديان، نعم ذكرنا هذا الوطن العزيز ونحن في ركاب مليكه، وفي خدمة هذا الروح الأمين الذي منه حياته وفيه خيراته وبركاته. نعم ذكرناه في هذه القفار، التي ترسل عليها الشمس شواظاً من نار يشوي وجوه السفار. نعم ذكرناه، وذكرنا رياضه وغياضه، ونحن نسير في أرض نبتها المدر، وغرسها الحجر، وثمرها الصخر، وزهرها الوعر، ومساكنها القفر، وساكنها الفقر،

ونسيمها لهيب الحمر! نعم ذكرنا مصر وذكرنا نيلها، وظلالها، وليس هناك ماء إلا ما يتصبب عرقاً من جسمنا، حتى لكأنها شماع باستور، أو مرشح شوقي، وليس من ظل إلا ظل عوسجة أو طلحة يكاد يلتهب من شدة ما يحيط به من الحرارة في شهر يناير!! نعم ذكرنا مصر هنا وذكرنا أهلها وما فيهم من أخلاق قديمة، وعواطف كريمة، وسجايا سليمة، وآداب لا يصل إليها الأعراب!!

وما زلنا سائرين في هذا الوادي حتى وصلنا إلى مضيق دخلناه فوجدناه كثير التعاريج، يلتوي بعضه على بعض كطريق الثعبان، وأرضه غير معتدلة، وفيها ثنيات كثيرة، صادفت العربات فيها مشقات كبيرة. وينتهي هذا الطريق بعقبة كثود صخرية في أرضها تنوءات جمّة يصعب السير فيها على كل من مر بها!! لذلك انتظر فيها الجنب العالي -حفظه الله- لمساعدة قافلة الركب الخديوي في المرور منها، وبحسن نظره الثاقب وهمته العليا، مر الركب جميعه منها على أحسن حال، وسار إلى مخيمه الذي نصب في مكان اسمه النجوة وراء هذه العقبة التي تدعى قبيلة بلي أن جدها مدفون فيها.

وفي صباح يوم (٦ يناير) ركب الجنب العالي وتبعته عربات دولة والدة وباقي حملة الركاب الخديوي، وسار -حفظه الله- في هذا الوادي الذي يسمونه وادي حلاوة. ومن هنا أخذت الجبال تتقطع أشلاء على جانبيه حتى انتهينا إلى مفرق بين جبلين، فصعدنا إليه بمنحدر رملي ميله يبلغ ٣٠ في المائة، ونزلنا من الجانب الآخر في واد واسع أرضه رملية خشنة ذات لون أحمر. وما زال سائراً بهذا الوادي حتى نزل منه إلى وادي العلا الذي يسير من الشمال إلى الجنوب، ويكثر فيه شجر الطرفاء ونبات الحمض (تأكله الإبل) وإن كانت أرضه مسبخة، وفي وسطه محطة البدايع التي وصلها -حفظه الله- في الساعة العاشرة صباحاً. وكان في انتظار ركابه العالي سعادة محاسبجي المدينة المنورة

وحضرات مدير وخازن دار الحرم الشريف، والبكباشي «فؤاد بك» الذي تعين مهمندارًا لجنابه الفخيم، وأصحاب السيادة الشريف شحات وكيل إمارة مكة المنورة، والشريف محسن والشيخ عبد الله شيخ ناحية العوالي، والشيخ إبراهيم أسعد شيخ خطباء الحرم المدني، والسيد حسن أسعد، والشيخ يحيى الدفتردار أمام الحرم الشريف، وعزتلو حضرة «صالح بك» وكيل إدارة السكة الحديد الحجازية، وحضرات قائم مقام محطة العلا وشيخ عربانها وقاضيه وشيخ مشايخ عربان عنزة وشيوخها وشيخ قبيلة بني سليم (من حرب).

وبمجرد ما شرف الركاب العالي تقدموا جميعًا نحو سموه بواجب التحية والتعظيم، وهنئوا جنابه الفخيم، بقدمه بسلامة الله. فشكرهم -حفظه الله- وسار معهم إلى صيوانه الخصوصي. وكانت قد اصطفت على طريقه فرقة من الجند البيادة العثماني وأمامها حضرات ضباطها لأداء واجب السلام. وبعد أن استراح جنابه العالي قليلًا استقبل وفود المهنيين بما جبل عليه من اللطف والإيناس، فخرج الكل شاكرين ذاكرين ما لقوه من آداب سموه.

وأمضى -حفظه الله- ذلك النهار بالبدايع بين توارد آي التهاني من كل جهة، وإصدار الأوامر بالإحسانات على فقراء هذه القبائل، وخصوصًا من كان في ركابه العالي منها، كما أصدر أمره الكريم بتوزيع الكساوي على من كل في خدمة الركاب الخديوي من الضاوية والسقائين والعكامة والفراشين والخيمية، وبالجملة فقد كان يومًا كله حسنات ودعوات وابتهالات بحفظ جنابه الفخيم. وبعد ظهر ذلك اليوم أمر -حفظه الله- بسفر الحرس السواري الخديوي وبعض بلوكات البيادة إلى محطة العلا لانتظار عودة جنابه الرفيع بها، كما أمر بتجهيز قطار مخصوص يقوم مساء ذلك اليوم إلى المدينة المنورة بجانب

من الحرس والخدمة وبعض رجال المعية السنية ومعهم الخيام والصواوين اللازمة لنصبها فيها.

أمّا قطار الجنب العالى ودولة الوالدة فقد تحرك من البدايع صباح يوم (٧ يناير).

وما زال القطار الأول سائرًا في وادي الحمض حتى وصل صباحًا إلى محطة الجداعة، وهناك استوقفه ناظرها؛ لأن السيول كانت قطعت جسر السكة على بعد ٢ كيلومتر منها. وقد أخطر الجنب العالى تلغرافيًا بهذا الحادث؛ ولكنه - حفظه الله - بمجرد وصوله إلى محطة هدية (قبيل الغروب)، أوقف قطاره هناك، وسار بالقاطرة إلى محطة الجداعة التي تبعد عنها بنحو عشرين كيلومترًا، وبعد أن تقدم إلى القطع ورآه بنفسه عاد قائلاً: (ليس من الممكن إتمامه قبل يومين)، ولذا أمر سموه بتأخير القطار الأول إلى محطة هدية ليكون الكل في حماه، حفظه الله.

وهديّة مكان به محطة مبنية بالحجر الأصم الأزرق على شكل قلعة صغيرة في محيطها مزاغل لتكون مكان دفاع للعمال، وسط هذه الجبال، إذا لزم الحال. وبجانبها بناء كبير عليه أحواض من الحديد لتستقى منها القطارات، ويصعد الماء إليها بواسطة آلة رافعة تدار بالبترو (موتور) كما هو الشأن في جميع المحطات الرئيسة في هذا الخط. ومن خلف هذا البناء عشش بعضها بالحجر وبعضها بالطوب التي يسكنها عمال المحطة وبعض العساكر المحافظين على السكة الحديد. وعلى جانبي الطريق الحديدي، فوق ذروة الجبل الشرقي والغربي، قلعتان يصعد إلى كل منهما قرة قول من عسكر الدولة الحماية المحطة ويقيم بها طول النهار، وينزل في المساء إلى سكناه من هذه العشش. وهناك

يضعون الخبز لأنفسهم وقد رأيناهم يعملونه بحال نظيفة. وهو أشبه شيء بما كانوا يسمونه بالصامولي عند العساكر المصرية.

ولقد أمضينا جميعاً ليلتنا بعربات السكة الحديدية مشمولين برعاية الجنب العالي الخديوي حفظه الله. وما أسرفت شمس يوم (٨ يناير) حتى أخذ الكل يستعد لهذا العيد السعيد، الذي هو عيد مصر الحقيقي. ولكنه -حفظه الله- رأى عدم تكليف عبيده المخلصين بما لا يسعه حال هذه البادية، وعندها أجمع الرأي بتكليف هذا العاجر بكتابة كلمة إخلاص رفعناها إلى أعتابه السنية؛ وها هي بنصها:

ولي النعمة ومليك الأمة:

إننا لندرجو أن يسمح لنا سيدنا ومولانا بأن يردد في هذا اليوم السعيد، الذي هو عيد مصر والمصريين أكبر عيد، صدى صوت رعيتك حينما كانوا وأينما وجدوا، في ابتهاجهم إلى الله تعالى بحفظ شخصك المحبوب، الذي استولى بفضلله وكرمه على الأرواح والقلوب. نعم نرفع لأعتابكم السنية ونحن هنا في هذه البقعة الطاهرة، بين يدي الله تعالى ورسوله، ما تكنه ضمائرنا لذاتكم العلية، من صادق الإخلاص والعبودية. نعم نرفع لسموكم ما بين جنوبنا من أفئدة كلها صدق وولاء لجنابكم العالي، حتى إذا تشرفت بتقيل الأعتاب الكريمة، تضرعت إلى الله تعالى بأن يحفظ هذه الطلعة العباسية تاجاً على مفرق الزمان، وأن يجعل من فضلها ونوالها نعمة في عنق كل إنسان.

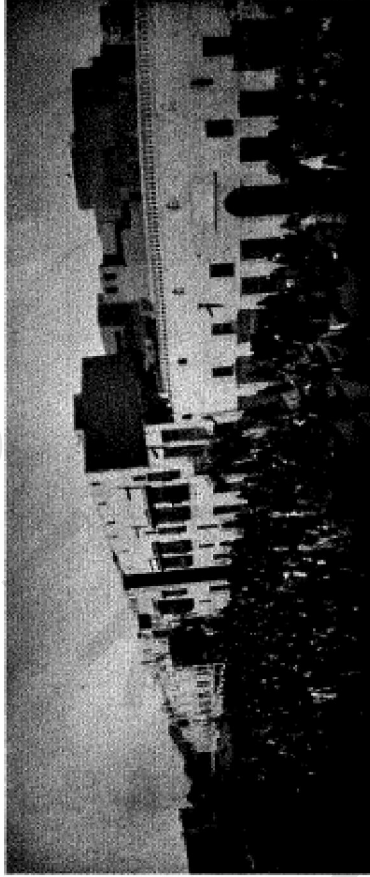
مولاي:

لقد بارحت دار ملكك، وخرجت إلى الله تعالى ورسوله، فأبى إلا أن يظلك السحاب في هذه القفار، وأن تغسل طريقك الأمطار، وتبت مع خطاك

حياة هذه الديار، بعد أن قضت سبع سنين لا ضرع فيها ولا نبات، وهل هذا أيها العزيز إلا برهان الله الأكبر بقبوله لك يورده لعباده؟

وبعد أن أتممت حجاج المبرور، وسعيت سعيك المشكور، يمت شطر رسول الله المصطفى. فعلوت متن البحار، وامتطيت صعاب القفار، ثم ركبت سنام البحار، حتى إذا كنت على مرحلة منه صلى الله عليه وسلم، أراد من فضله وكرمه، أن ينفع بك في حرم حبيبه كما نفع بك في حرمه؛ فأنزل الغيث مدراراً، وسير البحار أمطاراً، واسأل من سيولها أنهاراً، أوقفتك في طريقك لحظة شمئت فيها نيل بلادك يسعى بين يديك، ليروي بفيضه مواطئ أقدامك، في هذه البراري التي يشهد أهلها بأنهم لم يروا مثل سنتهم هذه في خيرها وبرها. وهل تريد مولاي دليلاً غير هذا يعبر لك به رسول صلى الله عليه وسلم، بأنك قدمت عليه وعلى قومه خير مقدم، ونزلت منه في المكان الأول المحترم.

وإننا لنسأل الله تعالى بعد تمتعك بزيارة السيد المصطفى أن يردك إلى بلادك ومن معك من آل بيتك الأكرمين في أكمل صحة وأتم عافية، تكلؤكم عين الله تعالى وترعاكم عين رسوله، كما نرجوه جل شأنه أن يشرك معنا على نعمتك التي تسير في بحبوحتها، وأن يحمذك على نوالك الذي تتفياً في ظلاله، وأن يجزيك عنا خير الجزاء.



ركب المصطفى وهو في طريقه إلى المدينة المنورة

مكتبة دار الفکر

وقضينا هذا اليوم المبارك في وسط هذه الفلاة، التي لم نر في أرضها أثرًا
لذي حياة، اللهم الأعمال الطريق الحديدي. فيا الله من هذه البلاد التي لا نرى
بها من جنوبها إلى شمالها، ومن غربها إلى شرقها، غير صحراء حجرية، وجبال
صخرية، ونقود رملية، وأحقاف من بحار الرمال، تسوخ فيها الأقدام كما
تسوخ في الماء، لولا أنها تتخلص من هذا بسهولة ولا يدين لها على الحركة في
تلك يا شكرانك ربي وحمدانك على نعمتك التي أنعمت بها على عبادك في جميع
الأقطار والأمصار! فقد جعلت في طبيعة أرضهم ما يكفل لهم حياتهم؛ فليس
من أرض حتى في منازل الثلوج ومراقد الجلد إلا وفيها فصل ينبت فيه النبات،

ويقدم لأهلها شيئاً من لوازم الحياة، إلا هذه الأرض التي أسكنت في جوفها من ذرية خليلك، فأقام بها بيتك وقام بنوه بشرف خدمته، فهوت إليهم قلوب زائريه من العرب إلى أن أصبح يأتيه الناس من كل فج. حتى إذا أرسلت من ذريتهم الطاهرة، وسلالتهم العاطرة، نبيك الأمين، ورسولك الأمي الذي هجر إلى هذه الديار أهله ووطنه، ليتمكن من القيام برسالتك، والدعوة إلى طريقتك، ضرب الكفر ضربة لم تقم له بعدها قائمة. ونشر في الناس هذا الدين القويم الذي أنقذهم من همجيتهم الأولى، وفك ما كان في رقابهم من سلاسل المظالم وما كان في أرجلهم من قيود الذلة والهوان. وسار على أثره الشريف صحابته والقائمون بعدهم بخلافته؛ فقام شأن الإسلام واستولى المسلمون في أقل من ربع قرن على ملك الرومان، واليونان، والفرس، وبلغوا سويداء الهند، ومجاهل إفريقيا، وصحاري بلاد المغرب. وما زالوا كذلك حتى امتد ملكهم في القرن الثاني من بلاد الصين شرقاً، إلى مدينة بواتيه (Poitier) قرب باريس غرباً. وبالجملة فقد جمعت حكومتهم بين دفتيها ملك الرومان، واليونان، والفرس، والمصريين، والأشوريين، والبابليين، والفنيقيين، والقرطاجيين، والبربر والفرنجة، وغيرهم، واستمرت دولتهم الطويلة العريضة نحو سبعمائة سنة وهي كالمشكاة تنير دياجير المعمورة بنبراس المدنية الصحيحة التي من أجل آثارها - وهو ما لا ينكره عليه أعداؤها - رقي الأخلاق والأخذ بناصر الفضيلة التي إنما هي عمار الكون، ونظام الوجود.

فيا لله من كان يظن أن هذه الفيافي والقفار يخرج من جوفها هذا النور الذي أضاء الكائنات، وتلك اليد القوية التي ضربت على أيدي المظالم التي كانت تسقطها الملوك على رءوس رعاياهم شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً في القرون الوسطى. من كان يظن أن أحقاف هذه الرمال، وأجلاف تلکم الجبال،

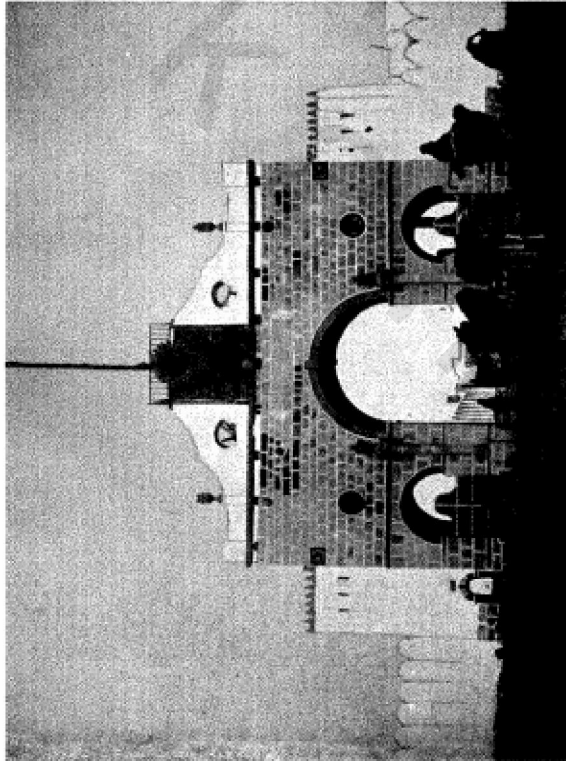
تنشئ هذه المدينة التي يرفل في بحبوحتها العالم أجمع، هذه المدينة التي خدمت العلم خدمة تذكر فتشكر. نعم خدمت العلوم الطبية، والكيمائية والطبيعية والفلكية والنباتية والرياضية، حتى أن فرنسا كانت تستمد من مدرسيهم، كما هو الحال في الممالك الشرقية الآن مع أوروبا! ولقد بلغ من عمران الدولة العربية في الشرق والغرب ما لا يبلغه عمران أي دولة قبلها. انظر إلى الأمويين في دمشق والأندلس، والعباسيين في بغداد، تر من رقيهم في الصناعات ومعارج العرفان ما لا يقوى الإفرنج على إنكاره، ودونك كتاب مدينة العرب (civilisation des Arabes) تأليف «جوستاف لوبون» فإنك ترى فيه المعجب والمطرب!! فهل تريد بعد ذلك كله برهاناً على صحة دين الإسلام وحجة على حقيقة من اهتدينا بهديه وانتهجنا سبيله.

لذلك كان من اللياقة، إن لم نقل من الواجب، التوجه لزيارة هذا النبي المصطفى، الذي قضى حياته جميعها في سبيل خدمة الإنسانية العامة، وإنارة سبلها المدهمة، بمشكاة هذا الدين المتين، دين الحرية، دين الإخاء، دين المساواة، دين العدالة، دين الفضيلة، دين الحياة الصحيحة.

وفي ظهر اليوم التاسع من يناير وصل الخبر باستعداد الخط، فأمر -حفظه الله- بتسيير القطار الأول فقام من محطة هَدِيَّة في الساعة الثامنة عربي نهاراً، ولما وصل محطة الجداعة (وهي في الكيلو ١١٥٦) سار الهوينا حتى غادر مكان القطع الذي كان طوله نحو ألفي متر، والذي أبلت في إصلاحه عساكر الدولة التي استدعيت إليه من المدينة بلاء يذكر فيشكر.

ومياه هذا السيل كانت آتية من جبال الطائف، مما يدل على كثرة الأمطار التي نزلت في تلك الجهة، ونزل منها مجار كثيرة إلى مكة والمدينة وإلى الطرق التي بينهما.

واستمر القطار سائرًا في وادي النعام الذي يتدنى من مجرى السيل، ويكثر فيه شجر السنط، ومر على محطة النعام، ثم محطة عنتر وفيها قلعة قديمة على قمة الجبل الغربي، ولعلها كانت على طريق الحاج أيام سيره على البر. وهذا الجبل يسمونه أيضًا جبل عنتر، ولا أدري لهذه التسمية من سبب، غير أن ديار عبس كانت شمال المدينة مع شرق، وربما كان هذا الوادي من منازلها، أو كان لها فيه واقعة باسم بطلها المشهور الذي مات قبيل الإسلام. وكان عليه الصلاة والسلام يسر بحديث الناس في سيرته. وما زال القطار سائرًا حتى وصل إلى محطة الحفيرة وألقى عصا التسيار للمبيت بها.



باب الخيبرية الباب الرشدي بالمدينة المنورة

أمّا الجنب العالي فقد بات في المحطة التي قبلها وتسمى محطة البوير.

والمحطات من هدية إلى المدينة المنورة لم تكمل عملية البناء بها، وكان العمل فيها جارياً على قدم وساق، وكان يعمل فيها كثير من المصريين وأغلبهم من مديرية قنا وجرجا، وهم في شدة الفرح بمقدم مليكهم المحبوب. وكانت العساكر على طول السكة الحديدية يقفون في كل محطة لأداء واجب التعظيم للجناب العالي الخديوي من البدايع إلى المدينة. وقد كان عدد العساكر بهذا الخط قبل تشريف الركاب العالي ثلاث أوط عثمانية للمحافظة عليه، فراد عليها أربع أوط قبل تشريفه أيضاً للمحافظة على ركابه الفخيم، فكنت تراهم منتشرين هنا وهناك وفوق الجبال على طول السكة.

وما زلنا حتى مررنا على القطع الثاني الذي كانت أحدثته السيول في الجسر قبيل المدينة المنورة بنحو خمسة كيلومترات. وهناك شاهدنا قبة سيدنا حمزة رضي الله عنه، ثم أهله مآذن الحرم الشريف. وعندها أخذت الأعناق تتطاول، والأبصار تتجاول، في هاتيك الأرجاء، مستطلعة أنوار القبة الخضراء. حتى إذا تجلت لنا بفخامتها امتلأت القلوب أفراحاً، والصدور انشراحاً، والعيون قرة، والأفئدة مسرة، وراوات الأرواح أن تخرج عن نظامها، وتطير من جسومها، إلى نور الأنوار، وسيد الأبرار، ومصدر سعادة العالمين في جميع الأمصار، لولا أن الجسوم كانت تتعلق بها، ناهضة بركابها، ضاربة آباط وابورها، مهللة، مكبرة، داعية، مليية.

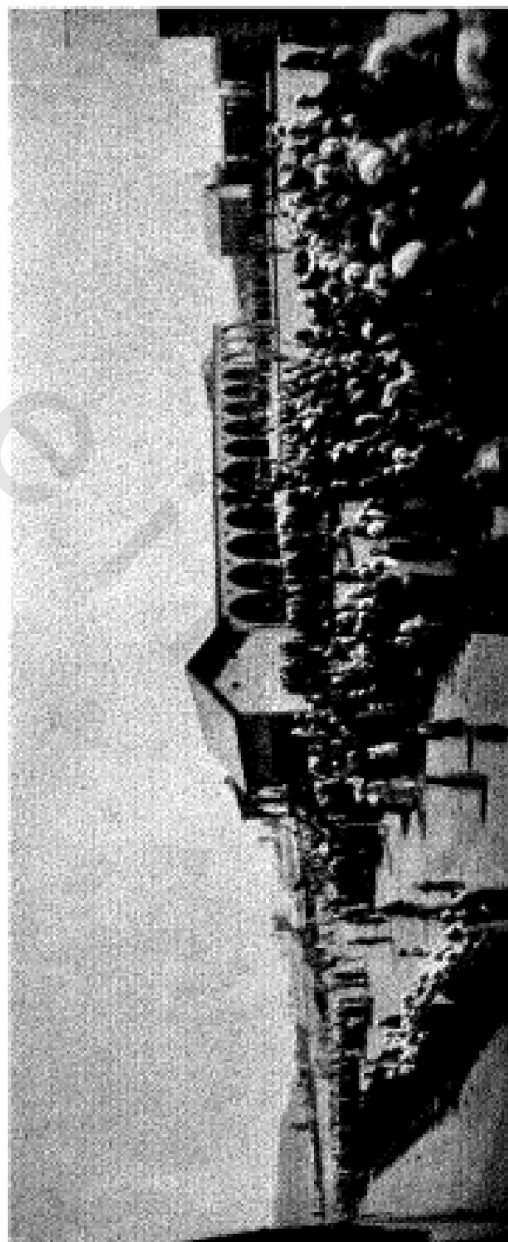
نعم نعم كنت ترى الأرواح ترفرف بظروفها، والقلوب تزحف في تجاويها، لتسبق الركاب، إلى ذلك الجناب. وهنالك كنت ترى نفس الجنان، وحقيقة الوجدان، يتطيران، من أطراف اللسان، في صورة تحيات خالصات، وتسليمات سنيات، إلى سيد الكائنات. وجميع الحواس متهيئة إلى التمتع بهذه المنة الكبرى، والنعمة العظمى، والعين تفتخر عليها بشرف سبقها إلى هذه

السعادة التي لا نهاية لها، ممتنة عليها بأنها هي التي زفت إليها بشرى الوصول، إلى غاية المأمول.

وما زال القطار حتى دخل بين بساتين المدينة ونخيلها الغربية. وأخذ يسير بنا الهويناء حتى وصلنا إلى محطة المدينة المنورة في الساعة الخامسة عربي نهاراً. وكان العدد الجم من الأهالي نساء ورجالاً على جانبي الطريق الحديدي إلى المحطة التي اكتظت ساحتها بوفود الناس على اختلاف طبقاتهم، وفي مقدمتهم سعادة «علي رضا باشا» محافظ المدينة وقومندان عموم القوة العسكرية الموجودة بها، ومعه كثير من المأمورين العسكريين والملكيين الذين كانوا يقومون بأمر النظام العام استعداداً لمقدم الجناح العالي الخديوي. وكانت عليه القوم على رصيف المحطة يتقدمهم حضرات شيخ الحرم ونائبه ونقيب الأشراف وصاحب الفضيلة قاضي ومفتي المدينة.

وفي الساعة السادسة تماماً ضربت المدافع إيذاناً بوصول الركاب العالي فتشارفت الأعناق، وتماددت القامات، لمشاهدة القطار من بعد، وما زالت الأبصار تلمحه حتى وقف في رحبة المحطة (لأن رصيفها ما كان كمل بناؤه). وهنالك صعد سعادة المحافظ إلى صالون الوابور لتأدية واجب الإعظام، وتبليغ جنابه العالي سلام الدولة العلية، وتهاني الحكومة المحلية. ثم صعد شيخ الحرم ونقيب الأشراف، وبعد واجب السلام نزل -حفظه الله- من القطار، وسلم على أعيان المدينة الذين قدمهم حضرة المحافظ إلى جنابه العالي واحداً بعد الآخر، وسار ومن خلفه سعادة المحافظ ودولة البرنس «كمال الدين» ورجال معيته السنية يتلوهم شيخ الحرم وأعيان المدينة المنورة بين صفوف العساكر التي كانت تؤدي التعظيم، وموسيقاه تضرب السلام الخديوي، فدخلوا من باب العنبرية؛ وهو باب عال مشيد يبلغ ارتفاعه نحو عشرين متراً

منقوش بالليقة الذهبية، ويسمونه الآن بالباب الرشادي تيمناً باسم صاحب الخلافة العظمى. وما زال الكل سائراً حتى وصلوا إلى الصيوان الخصوصي الخديوي الذي كان قد نصب في مقدمة خيام حاشيته الكريمة داخل سور المدينة الكبير. فاستقبلهم جنابه العالي بكرمه وإيناسه، كما استقبلوه بصنوف تحياتهم وتهانيهم. ولقد كان الصيوان الخديوي حافلاً بكبراء القوم، وكانت رؤساء المعية السنية يقدمون إليهم كل ما فيه راحتهم. وهنالك قام الشعراء والخطباء، هؤلاء يرتلون أي الثناء والدعاء، وأولئك يصوغون التهاني، في أسلاك المثال والمثاني، حتى كان يخيل إلينا أننا بين وفود العرب على الرشيد، في يوم عيد. ومما يذكر من آداب القوم أنهم لما فرقت عليهم السيكرات أكبروا المقام على التدخين، وبعد ساعة انصرفوا شاكرين، وبكرم الجنب الخديوي متحدثين.



استقبال الجماهير الى كحلوى بختات كبريد المدينة المنورة

الجناب العالي الخديوي بالمدينة المنورة

لما استراح الجناب العالي من عناء السفر، امتطى صهوة جواده بعد صلاة العصر، وقصد الحرم الشريف لأداء واجب الزيارة، ومعه دولة البرنس وفضيلة الأستاذ المفتي وسعادة «محرم باشا» وبعض رجال المعية السنية. فدخل -حفظه الله- من باب السلام، وبعد تأدية الزيارة وصلاة المغرب بالحرم الشريف، أدى واجب الخدمة بالمقصورة الشريفة، ثم قصد زيارة دولة الوالدة وكانت إقامتها مدة وجودها بالمدينة في بيت شيخ الحرم، الذي هو دار عثمان بن عفان رضي الله عنه، ثم عاد -حفظه الله- إلى مقامه في معسكره.

وقد كنت توجهت إلى الحرم مع بعض إخواني من المعية السنية، وكان يبعد عن مخيمنا الذي كان بجوار باب العنبرية بنحو ثلث ساعة سيرًا على القدم. فدخلنا كالعادة من باب السلام، وصلينا ركعتين في الروضة الشريفة تحية للمسجد، ثم خرجنا إلى الرواق القبلي واتجهنا إلى المقصورة الشريفة، وتمثلنا بمنتهى ما يمكن من الخضوع والاستكانة أمام أول باب منها، تجها مسمار من الفضة جعل في مقابلة الكوكب الدري الذي وضع فيما يحاذي الوجه الشريف. هنالك وقفت النفس بالمركز الذي ينبغي لها تلقاء هذا الجلال وهذه العظمة، فكنت ترى الروح بمجموعه، والقلب بخشوعه، والطرف بدموعه، واللسان بخضوعه، ترفع عبارات السلام، إلى سُدّة سيد الأنام. وبعد أن دعونا الله بما شاء الله، انتقلنا إلى مقام سيدنا أبي بكر بالشباك الذي يليه، فسلمنا ودعونا. ثم انتقلنا إلى مقام عُمر بجواره، فسلمنا ودعونا. ثم اتجهنا إلى حائط المقصورة الشرقي ووقفنا بباب فاطمة، فسلمنا ودعونا. ولست في حاجة لأن أردد القول

بأن جلالة المكين، وفخامة المكان، لهما على الإنسان، مهما كان تأثير يقف به في موقف الخاضع الخاشع!! وعلى كل حال فالكل يرى نفسه في موقفه هذا قد وصل إلى غايته، وبلغ منتهى سعادته.

وكان الجنب العالي مدة وجوده بالمدينة المنورة يكثر من الصلاة في الحرم، ولا أذكر أنه انقطع عنه في صلاة الفجر والعصر والمغرب والعشاء. وكان - حفظه الله - يؤدي شرف^(١) خدمة إسراج القناديل في الحجرة الشريفة مساء، وإطفائها صباحاً، طول مدة الإقامة بها. ولقد سعدنا بالدخول في معيته السنية إلى هذه المأمورية الشريفة غير مرة؛ فكنّا قبل صلاة المغرب نلبس فروجيات بيضاء، ونشد عليها أحزمة، ونلف على رؤوسنا عمامة على نظام خدمة الحجرة، ثم نتشرف بالدخول من باب البتول، وبعد مرورنا على حرم السيدة الزهراء ندخل من باب في غربه إلى الحجرة الشريفة بقدم مُتَمَكِّس، وطرف منخفض، وقلب خافق، وفؤاد مضطرب، ومثال متأدب، ووجدان متغلب، وروح ينكمش خضوعاً، ونفس تذوب خشوعاً، وحشاشة تتصبب دموعاً، وألباب ترفع لأعتاب ذلك الجنب، آيات السالم، بكل إجلال وإعظام. وبعد تأدية ما يسره الله تعالى من شرف الخدمة، نخرج من باب في الجهة الشرقية، إلى حجرة السيدة فاطمة رضي الله عنها، وبعد أن نقرأ ما تيسر من القرآن نبارح المكان، والجنان واللسان لا يستطيعان تصوير ما كان. وغاية ما كنا نشعر به عقب هذه

(١) هذه الخدمة يقوم بها الأمراء والعظماء وغيرهم من أعيان المسلمين في زيارتهم للرسول عليه الصلاة والسلام. ولا تكون إلا بتصريح من شيخ الفراشة النبوية الذي يصدر فرماً لمن يتشرف بالانتظام في سلك هذه الخدمة. ومن عادة هؤلاء الأمراء أن ينيبوا عنهم في أثناء المدة التي يكونون بعيدين فيها عن المدينة أناساً من أهلها يقومون بأدائها عنهم في مقابل مرتب يرسلون به إليهم سنوياً.

الزيارة، إنما هو قوة تجددت في روحنا الذي امتلأ سرورًا وحبورًا، وراحة تمددت في وجودنا كنا نرى فيها كل يمن وسعادة.

وفي يوم الثلاثاء بعد صلاة الفجر في الحرم الشريف، أدى الجناب العالي خدمته بالحجرة الشريفة، ثم قصد زيارة البقيع وهو مقبرة المدينة، فابتدأ بزيارة قبة سيدنا عثمان بن عفان وهي في الشرق، ثم قبة سيدنا الإمام مالك وهي في وسطها، ثم قبة سيدنا إبراهيم ابن النبي صلى الله عليهما وسلم، ثم قبة زوجات الرسول عليهن رضوان الله، ثم قبة^(١) سيدنا العباس وسيدنا الحسن بن علي في الزاوية القبليّة الغربيّة بالبقيع، وهي أفخم القباب الموجودة به، ومقصورة سيدنا الحسن فيها فخيمة جدًّا؛ وهي من النحاس المنقوش بالكتابة الفارسية، وأظن أنها من عمل الشيعة الأعجام. ثم زار -حفظه الله- كثيرًا من قبور الصحابة والتابعين والصالحين. وبعد الظهر زار التكية المصرية وأثنى على مأمورها لما رآه من حسن نظامها، ثم ركب -حفظه الله- وقصد دار الحكومة العثمانية ليرد الزيارة إلى سعادة محافظها، فاستقبل بما يليق بمقامه العالي من مظاهر الإجلال والإعظام.

(١) بجوار هذه القبة قبر بطل القوقاز الشيخ «شامل» الذي توفي سنة (١٢٨٨هـ).



باب السلام بالجزم المديني

وفي يوم الأربعاء بعد صلاة الفجر وأداء الخدمة في الحجرة الشريفة، قصد الجناب العالي زيارة مسجد قباء مع بعض رجال معيته السنية، ثم عاد -حفظه الله- قبيل الظهر إلى المسجد الشريف، فصلّى الظهر فيه، ثم رجع إلى مخيمه وأمضى بقية النهار في استقبال زائريه من رؤساء المدينة وأعيانها.

وفي يوم الخميس أدى الخدمة على حسب عادته، ثم قصد زيارة سيدنا حمزة، وكان السيل قد قطع طريقه على زائريه، ولكن ذلك لم يوقف همه جنابه العالي عن تنفيذ عزمته. فدفع بجواده في الماء الذي كان على ارتفاع نحو متر،

قاصداً عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فحظي بزيارته، ووصل إلى بغيته، ولا غرو فعزائم الملوك ملوك العزائم.

وفي يوم الجمعة بعد أداء جناب السامي خدمته بالحجرة الشريفة صباحاً رجع إلى المعسكر الخديوي، واستمر إلى قبيل الظهر في استقبال زائريه، ثم قصد الحرم الشريف لصلاة الجمعة. وبعدها زار دولة الوالدة. ثم قصد منزله الشريف وأمضى يومه في توزيع الصدقات، وإسداء الإحسانات، والنظر في ترتيب المرتبات، لذوي الحاجات، من أهل المدينة والمجاورين، مصريين وغير مصريين. وكان في أثناء ذلك يصدر أوامره الكريمة بتجهيز حملة ركابه العالي للسفر إلى تبوك في اليوم التالي. وبالجملة فقد كان -حفظه الله- مدة إقامته بالمدينة محط الآمال، ومكان الإعظام والإجلال، من جميع الطبقات، وكانت موسيقى المحافظة الحربية تحضر يومياً نهاراً وليلاً أمام الصيوان الخديوي وتشنف الأسماع بنغماتها الشجية.

الحرم المدني

الحرم المدني وهو مسجد النبي صلى الله عليه وسلم، واقع في وسط المدينة بميل إلى الشرق، وهو لطيف الشكل، جميل المنظر، على هيئة مستطيل، متوسط طوله من الشمال إلى الجنوب مائة وستة عشر مترًا وربع، وعرضه من الشرق إلى الغرب من جهة القبلة ستة وثمانون مترًا وخمسة وثلاثون ستمترًا، ومن جهة الباب الشامي ستة وستون مترًا. وينقسم في وضعه إلى قسمين: المسجد والصحن؛ والمسجد يتدئ من قبلة عثمان؛ أعني من الحائط القبلي إلى الصحن من جهة، وفي طول ما بين باب الرحمة وباب النساء من جهة أخرى. وهذا القسم جميعه مغطى بقباب ترتكز على أقواس قامت على عمد من الصوان المكسو بطبقة من المرمر الموشى بباء الذهب. والقسم الثاني -وهو الصحن- ويسمونه الحصوة، شكله مستطيل إلى الباب الشامي ويحيط به من جهاته الثلاث، أروقة ثلاثة فيها أعمدة تحمل أقواسًا رفعت عليها قباب تناطح السحاب!

وعدد جميع أعمدة الحرم الشريف بما فيها الملتصقة بحوائطه يبلغ ثلاثمائة وسبعة وعشرين عمودًا؛ منها (٢٢) داخل المقصورة الشريفة. وفي مدخل الباب الشامي المدرسة المجيدة، وفيها كتابان لتعليم القرآن على الطريقة القديمة في ريف مصر، غير أن القرآن لا يحفظ فيها عن ظهر قلب بأجمعه^(١).

(١) لا يوجد في بلاد العالم الإسلامي من يحفظ القرآن بأجمعه عن ظهر قلب إلا مسلمو مصر، ويليهم أهل المغرب، أما باقي الجهات الأخرى فيقرءونه غالبًا في المصاحف. وتمتاز فقهاء مصر بحسن

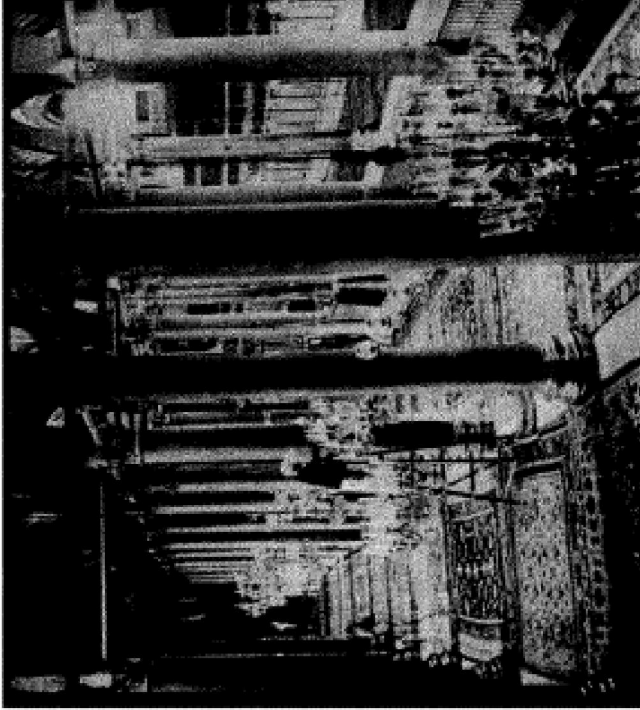
ويوجد في الدور الثاني كتاب يقال: إنه يدرس فيه غير القرآن المجيد شيء من الحساب. ولهذا المدخل بابٌ للحرم من الداخل يسمونه باب التوسل. وإلى جانبه في جهة الغرب محل للأغاوات المخصصين لخدمة الحرم الشريف، وفيه ميضاتهم وأمكنة راحتهم. وإلى جواره مخزن الزيت المخصص لتنوير الحرم، ثم باب لمدرسة (على ما أظن)، وهذه الأبواب الثلاثة في الرواق الشمالي. وفي وسط الصحن بميل إلى الشرق حظيرة صغيرة سُورت بدرزين من الحديد، وفيها بعض نخل صغير نبت حول نخلة عالية يقال: إنها أثر نخلة كانت في هذا المكان للسيدة فاطمة رضي الله عنها. وقبلها هذه الحظيرة بئر ماؤها لذيد اسمها بئر النبي وبعضهم يسميها زمزم المدينة. ومن وراء هذه الحظيرة أقيمت شبكة من خشب الشيش على طول الرواق الشرقي عملت في عمارة السلطان عبد المجيد، إشارة إلى أنه مخصص^(١) للنساء، ففيه صلاتهم وإقامتهن في الحرم. وفي جنوب هذا الرواق دكة للأغاوات المخصصين لخدمة الحرم الشريف؛ وهي مصطبة مسطحها نحو (١٢) مترًا طولًا في (٨) متر عرضًا، وترتفع عن الأرض بمسافة نحو أربعين سنتيمتر، وكانت في عهده صلى الله عليه وسلم مكانًا لأهل الصفة^(٢)؛ وهم قوم من العفاة والمتقاعدين كان يصرف إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كل ما يقوم بحياتهم من غذاء وكساء، وكان منهم أبو هريرة وأبو ذر الغفاري رضي الله عنهما. وتجاه هذه الدكة من الجنوب دكة

الترتيل؛ لذلك تراهم ملحوظين بعين الاحترام إذا شخصوا لبلاد غير بلادهم، وخصوصًا في الأستانة.

(١) ربما كانت هذه الجهة مخصصة لصلاة النساء من صدر الإسلام يؤيده تسمية الباب الموصل إليها بباب النساء من زمن بعيد.

(٢) وكان بالمدينة غير الصفة دار تسمى دار القرى أو دار المضيف كانت توجد في الجنوب الغربي للمسجد، وكانت مخصصة أيامه صلى الله عليه وسلم لنزول ضيوفه إليها.

أخرى أصغر منها متصلة بالمقصورة الشريفة من جهة الشمال، وكان يتهدد في مكانها النبي صلى الله عليه وسلم. ويفصل بين الدكتين طريق إلى باب جبريل شرقاً، وعلى يمين الداخل منه دكة صغيرة يجلس عليها شيخ الحرم، وإلى جوارها مخزن خاص بالمقصورة الشريفة التي توجد في الجهة القبليّة الشرقية من الحرم.



الرواق الشرقي وباب جبريل من الحرم النبوي

والروضة الشريفة في غرب المقصورة الشريفة: وهي مسافة ما بين القبر الشريف ومنبر الرسول صلوات الله وسلامه عليه لقوله: «ما بين قبري»^(١) ومنبري روضة من رياض الجنة» وهي تبلغ (٢٢) مترًا طولًا في نحو (١٥) عرضًا. ويفصل الروضة عن زيادتي عمر وعثمان اللتين في جنوبها، دربين من النحاس الأصفر ارتفاعه نحو متر.

والروضة على الدوام غاصة بالناس لشرف مكانتها. وفيها مما يلي هذا الدربزين ربعات قرآنية كثيرة، وعدد كبير من المصاحف المختلفة الحجم؛ منها ما هو بحرف الطبع، ومنها ما هو بخط اليد الجميل، وإلى جانبها نسخ كثيرة من دلائل الخيرات، وكل ذلك موقوف عليها للقارئ من الزوار. وفي غرب الروضة الشريفة قبلته صلى الله عليه وسلم، وهي آية من آيات الله في كمال بهجتها، وجمال صنعتها، وهي على استقامة المقصورة الشريفة من جهة القبلة، وضعها عليه الصلاة والسلام يوم الثلاثاء الموافق نصف شعبان من السنة الثانية للهجرة عندما أمره الله تعالى بالصلاة إلى الكعبة المكرمة. وإلى غرب القبلة المنبر الشريف^(٢) وهو من الرخام المنقوش بالليقة الذهبية الفاخرة وعلى غاية في الجمال ودقة الصناعة، أرسل هدية من السلطان «مراد الثالث» العثماني

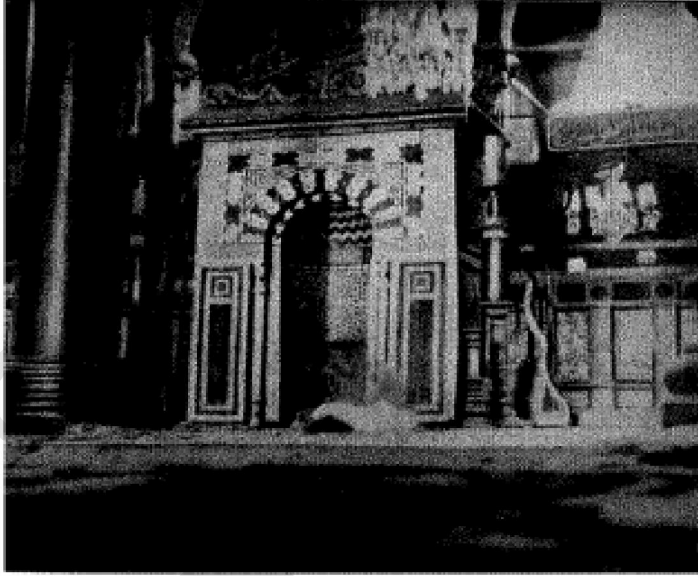
(١) وفي رواية أخرى: «ما بيني وبين منبري...» إلخ.

(٢) وكان صلى الله عليه وسلم يخطب على جذع نخلة، ثم عُمل له منبر من خشب الأثل مركب من ثلاث درجات أو أربع، ووضع في مكان الجذع الذي دفن في شرق المكان الذي كان فيه حذاء عمود القبلة العربي. وكان «معاوية» أضاف درجتين على هذا المنبر فأحرق في حريق المسجد الأول الذي حصل في سنة (٦٥٦هـ)، وما بقي منه وضع في صندوق ودفن في جوار الجذع، ووضع مكانه منبر من عمل الملك المظفر صاحب اليمن، ثم استبدله بغيره الظاهر ببيرس، ثم غيره الملك المؤيد بآخر أحرق في الحريق الثاني سنة (٨٨٦هـ)، وعمل بدله الملك قايتباي المنبر الذي نقل إلى مسجد قباء (ولا يزال به إلى الآن) بعد أن استبدلوه بالمنبر الحالي.

إلى الحرم سنة ثمان وتسعين وتسعمائة للهجرة، فوضع في مكان المنبر الذي كان به لقايتباي، وهو نفس المكان الذي كان به منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وما ينبغي الإشارة إليه أننا صلينا الجمعة في المسجد النبوي على صاحبه أفضل الصلاة والتحية، وكان الزحام شديداً، وبعد أن زار الخطيب المقصورة الشريفة واستأذن للخطبة، من الحضرة النبوية، على حسب عادتهم حضر لابساً قاووقاً يسمونه كودابان^(١)، تحف به الأغاوات من كل جانب، ثم صعد المنبر ومال إلى جهة اليمين؛ أعني إلى المقام الأشرف الأقدس النبوي، وبعد أن سلم بغاية الأدب، حمد الله وجعل خطبته كلها مبنية على سرد كثير من الأحاديث الشريفة في موضوع الحج والزيارة، وضرورة توحيد القلوب، وتقوية الوصلة والرابطة بين أفراد المسلمين. وكان يستند في نصائحه على أحاديث نبوية؛ فكان يقول مثلاً ورد عن فلان عن فلان عن نبيكم هذا، ويشير بيده إلى الحجرة الشريفة، ثم يسرد الحديث، فكان لخطبته تأثير على القلوب لا يمكن تكييفه ولا توصيفه.

(١) وقد رأيت الخطيب في المسجد الأقصى يلبس مثل هذا القاووق في الخطبة؛ وهو من لباس القرن العاشر الهجري في الدولة التركية.



القبلة النبوية بالرواق الشريف

ويوجد بالحرم النبوي للخدمة فيه نحو ألف نفس؛ منهم (٤٦) خطيباً، يتولى الواحد منهم خطبة الجمعة مرة واحدة في السنة، طبقاً لترتيب مخصوص لا يتعدونه ولهم وكلاء كثيرون يتناوبون الخطبة عند غياب الخطيب، و(٣٨) إماماً، و(٦٢) مساعد إمام يتناوبون الإمامة في الصلاة، و(٥٠) مؤذناً، و(٢٦) مساعد مؤذن، و(٥١) كناساً، و(١١) بواباً، و(٢٦) صائغاً وحاجباً وخياطاً وخلافهم، و(١٠) سقائين، و(٤) ملائين، و(٥٧٠) لغسيل وتنظيف وتعبئة قناديل الحرم. أما الذين يقومون بحراسة الحجرة الشريفة والخدمة فيها فهم الأغاوات، وأول من رتبهم للخدمة نور الدين الشهيد، وكانوا اثني عشر، واشترط أن يكونوا من حملة القرآن الكريم وحفظته، وجعل عليهم شيخاً منه،

وزادهم يوسف صلاح الدين الأيوبي اثني عشر آخرين، ومن ثم أخذت الملوك والسلاطين تزيد في عددهم إلى الآن، وقد وصل عددهم في بعض الأزمان إلى أكثر من مائة شخص، ولهم أوقاف مخصصة ومراتب تأتيهم سنوياً من الأستانة وغيرها. ولهم دور بالمدينة يسكنون بها. وأغلب خدمة الحرم الشريف من غير مراتب ويعيشون من خيرات ذوي الإحسان. والقاعدة في خدمة الحرم الشريف: أن من يموت منهم توزع وظيفته ومرتبته على أولاده جميعاً، فإذا مات الخطيب مثلاً وكان مرتبه مائة قرش تعين بنوه في مركزه ووزع مرتبه عليهم وتولى العمل مكانه أكبرهم، وهكذا باقي الخدمة؛ لذلك ترى مراتب الكل غير كافية بمعاشهم.

والحرم مفروش بأنواع السجاد العجمي الثمين، وفيه شيء كثير من الأنشطة المصنوعة بفورية حركة الشهيرة، وخصوصاً في الروضة الشريفة. وبالجملة فهو آية من آيات الله في نظافته، ولطافته، وحسن بهائه، حتى وروائه، حتى أن الذي يدخله لا يود أن يارحه مطلقاً.

وله خمسة أبواب: باب السلام، وباب الرحمة في الغرب، والباب المجيدي في الشمال، وباب النساء، وباب جبريل (أو باب البقيع) في الشرق. وتقفل هذه الأبواب كلها بعد صلاة العشاء قبيل الفجر، وهي سنة من عهد عمر رضي الله عنه. ويوجد بجوار باب الرحمة وباب السلام من الخارج حنفيات للوضوء من عمل السلطان عبد المجيد كما توجد أمكنة للحاجة على بعد منها.

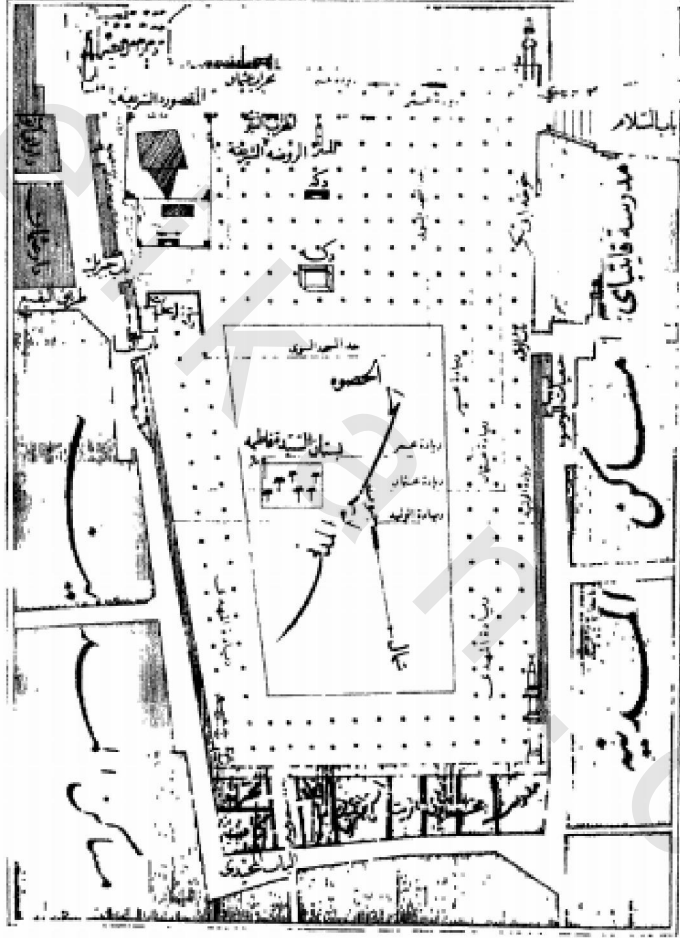
أصل الحرم المدني وعمارته والزيادة فيه

الحرم الشريف يحتوي الآن على مسجده صلى الله عليه وسلم، وعلى بيت عائشة التي دخل عليها فيه في الشهر السابع للهجرة، وعلى حجرات زوجاته رضي الله عنهن، مع الزيادة التي زيدت فيه. وكان يحيط بمسجده الشريف في مدته صلى الله عليه وسلم مساكن زوجاته وأصحابه رضي الله عنهم، فكانت مساكن أزواجه في الجهة الجنوبية وفي بعض الشرقية من الحرم، وكان يفصل بينه وبينها طريق عرضه خمسة أذرع.

وكانت دار أبي أيوب الأنصاري، ودار عثمان بن عفان رضي الله عنهما، جهة الشرق، ولا تزالان موجودتان إلى الآن، وإن كان صورتها قد اختلفت عما كانت عليه في صدر الإسلام. وفي زاوية دار عثمان المقابلة للحرم الشريف حجرة فيها شباك عليه لوحة من الخارج مكتوب فيها (مقتل عثمان ابن عفان رضي الله عنه). ويسكن شيخ الحرم عادة في هذه الدار.

وكانت منازل آل عمر رضي الله عنهم إلى جنوب المسجد الشريف، ويوجد إلى الآن بستان ملاصق للحرم في اتجاه الحجرة الشريفة من جهة القبلة جعله حرماً له، وبه باب في خارجه مكتوب عليه (ديار آل عمر). وكان بجوارها من الغرب دار العباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم دار مروان بن الحكم، وكانت على يمين الداخل من باب السلام. وكان في غرب المسجد دار أبي بكر رضي الله عنه، وإلى جوارها شمالاً مما يلي باب الرحمة دار عبد الرحمن بن عوف. وهذه الدور كانت لها فتحات على المسجد، فرأى صلى الله عليه وسلم أن يسدها فقال: «لا ييقين في المسجد خوخة إلا خوخة أبي بكر»

فسدت جميعها إلا خوخته رضي الله عنه. ولا يزال في جدار المسجد شمال باب السلام باب صغير (لمخزن تجاه المقصورة الشريفة) يمثل هذه الخوخة، وموضوع عليه لوحة كبيرة مكتوب فيها الحديث المذكور بخط غاية في الجمال.



وأول من جدد في عمارة المسجد النبوي عمر رضي الله عنه، فبنى حوائطه وغير بعض أساطينه ووسع فيه قليلاً. أما عثمان فقد زاد فيه إلى قبلته الجنوبية

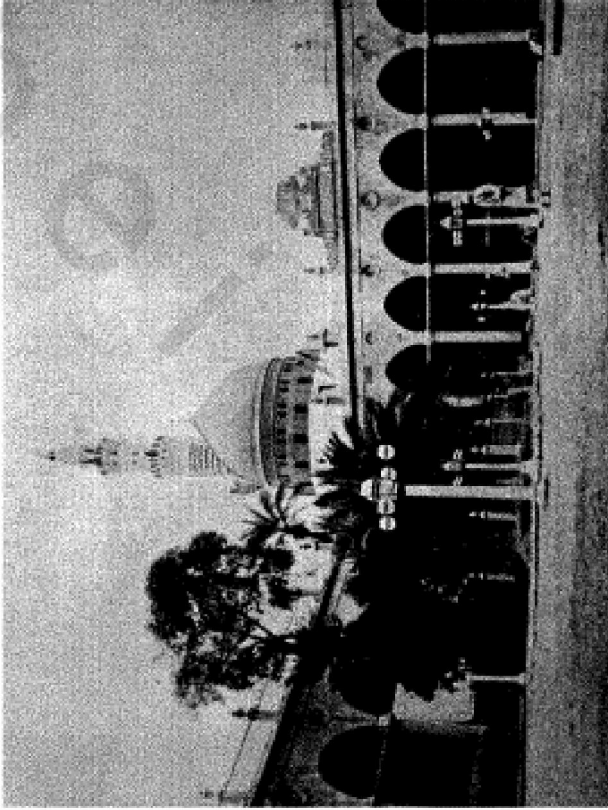
وبناه بالجص والحجارة، وفي سنة ثمان وثمانين أرسل الوليد بن عبد الملك لعامله على المدينة عمر بن عبد العزيز فزاد في المسجد شرقاً وغرباً وجنوباً، وأدخل فيه حجرات أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، وبنى له أربع مآذن، وفرش أرضه بالرخام، ووشى حوائطه بالفسيفساء (الموزاييك) وكساقفة بالذهب، وجعل أساطينه من المرمر، ثم زاد فيه المهدي العباسي سنة مائة وستين، وقام بعمارته أحسن قيام. ثم عمره الخليفة المستعصم، ثم الظاهر بيبرس. وفي سنة ثمان وسبعين وستمائة أقام الناصر قلاوون قبة الحجرة الشريفة، ولم يكن لها قبة قبل ذلك. ثم عمره الأشرف برسباي سنة إحدى وثلاثين وثمانمائة. ثم الظاهر برقوق سنة ثلاث وخمسين وثمانمائة. وفي سنة ست وثمانين وثمانمائة انقضت صاعقة على المسجد فأحرقت جميعه بحال مريعة لم ير الرءاؤون مثلها، ولم يمكن أهل المدينة أن يقوموا في وجه النار التي لم تكن تبقى على شيء في طريقها، إلا أنها لم تمس الحجرة الشريفة بشيء بالمرّة!! وبمجرد ما بلغ هذا الخبر السلطان قايتباي ملك مصر، أمر في الحال بأن ينقل إلى المدينة جميع عماله الذين كانوا يشتغلون في الحرم المكي، وما زالوا يشتغلون بهمة فائقة في الحرم المدني حتى أتموه على أحسن هندام، على هذا القوام الحالي، وبنوا الحجرة الشريفة على الفخامة والجمال اللذين تراهما عليها إلى الآن، وأقاموا على القبة الشريفة قبة أخرى أعلى منها، وبنوا في الجهة الغربية من الحرم على شمال الداخل من باب السلام مدرسة عظيمة وأوقف عليها قايتباي الأوقاف الكثيرة، وتسمى بمدرسة قايتباي إلى الآن. وقد رأيت له باباً كان أرسل من مصر أثناء هذه العمارة ووضع على باب السلام، ولما وسع هذا المدخل في عمارة السلطان عبد المجيد نقلوه إلى الباب المجيدي: وهو من الخشب الثمين

المغطى بالقطع النحاسية المنقوشة أو المكتوبة، بل هو من أفخر ما يرى الناظرون من الصناعة المصرية القديمة التي قبرت من عهد بعيد!!

وفي سنة (٩٨٠) عمَّره السلطان سليم الثاني، وبنى فيه بين المنبر الشريف ومدرسة قايتباي قبلة جميلة وشَّاهها بالفسيفساء المنقوشة بهاء الذهب وكتب اسمه على ظهرها بالخط الثلث الجميل، يشاهده السالك من باب السلام إلى الحجرة الشريفة. وفي سنة (١٢٣٣) بنى السلطان محمود القبة الشريفة، ثم أمر بترميمها ودهانها باللون الأخضر في سنة (١٢٥٥)، ومن ثم سميت بالقبة الخضراء. وفي سنة (١٢٧٠) أمر السلطان عبد المجيد خان رحمه الله بعمارته والزيادة فيه إلى الشمال، فكان ذلك، وتمت عمارته على ما هي عليه الآن، ووشاه بالنقوش والزخارف التي تفوق حد الوصف، وكتب على جداره مبتدئاً من باب السلام إلى الشرق، سورة الفتح بالخط الثلث المجوَّف، وفي السطر الذي تحتها سورة أخرى بخط أرفع منه ولكنه أكثر تعليقاً، ومن تحته سطر آخر أصغر من الذي فوقه، فيه أسماء النبي صلى الله عليه وسلم، وقصيدة البردة مكتوبة في محيط قباب المسجد، وفي الزوايا التي تركز عليها هذه القباب أسماء الله ورسوله وآله وبعض صحابته. وكل ذلك مكتوب بخط غاية في جماله وحسن تنسيقه، وكمال وضعه. وحسبك أنه أثر ذلك الخطاط الشهير المرحوم «عبد الله بك زهدي» الذي أوفده السلطان عبد المجيد إلى المدينة لهذه الغاية ومكث فيها بضعة عشر سنين يعمل في بيت رسول الله بما آتاه الله من إحكام في صناعته ونبوغ في مهنته. وقد ورد في «مرآة الحرمين» أن هذه العمارة صرف عليها نحو مليون ليرة عثمانية. وليس هناك أثر^(١) يذكر لمن بعده من المولك سوى ما

(١) رأيت عند صديقي الفاضل الشيخ «مصطفى الحريري» الخطاط الشهير بمصر لوحة مأخوذة بالفيوٹوغراف من خط المرحوم «عبد الله بك زهدي» على باب الحرم المدني فيها هذه الأبيات:

أدخل إليه من أسلاك النور^(١) الكهربائي في زمن السلطان عبد الحميد، وابتدأت الإنارة به في الحرم الشريف رسمياً في يوم الاحتفال بافتتاح السكة الحديد الحجازية بالمدينة المنورة في (٢٥ شعبان سنة ١٣٢٦).



مظهر الحرم النبوي من داخل الحرم بالحجرة الشريفية
ومنتحان السكة فاجرت رصفه المصطفى

بحر المكارم ملجأ الطلاب
ليفوز بالأممال والآراب
إذ كان خادماً هذه الأعتاب
ووسيلتي العظمى بهذا الباب

مفتاح باب الله طه المرتجى
سلطاننا عبد العزيز لجابه
وعدا لسان مقالته متمثلاً
إن الوسائل للملوك بياهم

(١) ومدة زيارتنا للمدينة كان الحرم الشريف مناراً بالزيوت والشموع على عاداته؛ لأن المهندس الكهربائي المخصص لمباشرة الآلة التي تنير الحرم كان أصيب منها بما أفقده الحياة فأوقف عملها إلى أن يستحضر لها مهندس آخر من الأستانة!

والمقصورة الشريفة من نحاس أصفر غاية في حسن الصناعة، عملت في العمارة التي قام بها قايتباي في سنة (٨٨٨)، ولها باب على الروضة الشريفة يسمى باب الرحمة أو باب الوفود، وإلى جانبه من جهة الجنوب شباك يفتح عليها يسميه الحجاج شباك التوبة، وهو الذي يذكرونه في قسمهم فيقولون: «وحياة النبي الذي وضعت يدي على شبّاكه». ولها أيضًا منفذ إلى جهة القبلة في المواجهة الشريفة ويفتح عند الأمور الهامة للدعاء والاستغاثة.

ويتصل بهذه المقصورة من جهة الشمال مقصورة السيدة فاطمة، وهي على استقامتها من الغرب، وتدخل عنها بمسافة متر ونصف من الشرق.

وطول المقصورة النبوية الشريفة من ضلعها الجنوبي والشمالي (١٦) مترًا، ومن الشرقي والغربي (١٥) مترًا. وفي زواياها الأربع أعمدة مزوية عظيمة، بنيت من الحجر الصلد على ارتفاع السقف، وعليها ترتكز قواعد القبة الشريفة. أما مقصورة السيدة فاطمة الزهراء فطولها من الجنوب (١٤) مترًا ونصف، ومن الشمال (١٤) مترًا فقط، ومن الشرق والغرب نحو سبعة أمتار ونصف، وهي تتصل بالمقصورة الكبرى من الداخل بباين: أحدهما إلى الشرق والآخر إلى الغرب، قد أقيم فيما بينهما ضريح على المكان الذي دفنت^(١) فيه السيدة فاطمة على قول الكثيرين. وفي داخل المقصورة الكبرى الحجرة الشريفة؛ وهي المكان الذي توفي به رسول الله صلى الله عليه وسلم في اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول سنة (١١ للهجرة) ودفن فيه عليه الصلاة والسلام في اليوم التالي؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: «ما قبض نبي إلا دفن حيث قبض». ورأسه عليه الصلاة والسلام إلى الغرب. ولما توفي أبو بكر في

(١) وكانت وفاتها بعد وفاة أبيها صلى الله عليه وسلم بنحو شهرين، ويقول بعضهم: إنها دفنت بقبتها المعروفة إلى الآن باسمها في الزاوية الغربية القبلية من البقيع.

(٢٢ جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة للهجرة) دُفن إلى جانبه من جهة الشمال ورأسه إلى قدمي الرسول عليه الصلاة والسلام. ولما طعن «عمر» رضي الله عنه استأذن من عائشة أن يُدفن مع صاحبيه، فأذنت له، فلما مات يوم (الأربعاء ٢٧ ذي الحجة سنة ٢٣ للهجرة) دُفن إلى جوارهما، ورأسه محاذية لمنكبي أبي بكر رضي الله عنهما. وقد أقيمت على هذه القبور الثلاثة مقصورة من البناء على شكل ذي خمسة أضلاع ارتفاعه أكثر من ستة أمتار. وأول من بنى هذه المقصورة «عمر بن عبد العزيز» في عمارته للمسجد، ونزل بأساسها إلى غورٍ بعيدٍ، وجعلها على شكل المزور المتقدم حتى لا تكون مثل الكعبة في تربيعها خوفاً من أن يتخذها الناس قبلة لهم. وكانت الحجرة الشريفة تسع قبراً رابعاً، ويزعمون أنه مكان قبر عيسى عليه السلام بعد نزوله من السماء في آخر الزمان!! وقد قيل فيه لعمر بن عبد العزيز وهو خليفة: لو أتيت المدينة وأقيمت بها فإن مت دفنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه رضي الله عنهما! فقال: والله لأن يعذبني الله عز وجل بكل عذاب إلا النار أحب إلي من أن يعلم أنني أرى نفسي لذلك أهلاً! فانظر إلى درجة أدب الرجل وتنسكه مع ما كان فيه من سعة الملك الذي خلق على أطراف المعمورة بأجمعها رضي الله عنه.

وفي سنة (٥٥٧) بلغ «نور الدين زنكي» أن الصليبيين الذين كان مشغلاً بمجاريهم كانوا يعملون لسرقة الجثة الشريفة، فأمر بإحاطة الحجرة الشريفة ببناء آخر، فنزل بأساسه إلى منابع الماء، ثم صب الرصاص على دائرة حتى صار بحيث لا يمكن أن تتناوله يد الزمان، وقد وضع على هذا البناء ستر من الحرير الأخضر مكتوب فيه: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» يحيط بها أحجبة مكتوب فيها قوله تعالى: {ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين}. وفيما بين ذلك دوائر مكتوب فيها أسماء النبي صلى الله عليه

وسلم، ويحيط بهذا الستر (على ارتفاع مترين ونصف تقريباً) حزام من الحرير الأحمر عرضه نحو ثلاثين ستيماً مكتوب فيه بقصب الذهب اسم السلطان الذي أمر بعمل الستر الشريف. وهذه الكسوة ترسل من الدولة العلية عند تولية كل ملك من ملوكها، والكسوة الحالية وصلت إلى الحجرة الشريفة بعد إعلان الدستور. وأول من كسا الحجرة الشريفة الخيزران أم هارون الرشيد، عندما قدمت في حجها لزيارة النبي عليه الصلاة والسلام.



باب الرحمة بالمحرم المكي

وصارت من بعدها سنة الملوك والسلاطين. وبين بناء المقصورة والشبكة النحاسية الخارجة طرقة متوسطة سعتها نحو ثلاثة أمتار من جهاتها الشرقية والغربية والقبلية، وفي زاوية هذه الطرقة من الجنوب كرسي موضوع عليه مصحف شريف كبير، أهدها إلى الحجرة الشريفة «الحجاج بن يوسف الثقفي»، ويقولون: إنه من المصاحف الستة التي كتبها عثمان بن عفان.

وسماء هذه الطرقة مملوءة بثريات من الذهب والفضة، وخصوصاً في الجهة الجنوبية فيما يقابل الوجه الشريف؛ فإن فيها كثيراً من المشاكي الذهبية؛ منها إحدى وثلاثون مشكاة مرصعة بالماس والزمرد والياقوت، ومعلقة بسلاسل النضار. ومجموع مصابيح الحجرة الشريفة مائة مصباح وستة.

وفي مقابلة الوجه الشريف على جدار المقصورة حجر من الماس البرلاني في حجم بيضة الحمام الصغيرة، يحيط به إطار من الذهب المرصع. ويقدر وزن ثمنه في ذاته بثمانمائة ألف جنيه، أما في شرف نسبته إلى الحجرة الشريفة فقيمته أكبر من أن تقدر بثمن، ويسمونه بالكوكب الدرّي لشدة تألقه وعظيم سنائه وبهائه. وهو مثبت في لوحة من الذهب ورصع محيطه بمائتين وسبع وعشرين قطعة كبيرة من الجواهر الثمينة. وهذا الكوكب أهدها للحجرة الشريفة السلطان «أحمد خان الأول» ابن السلطان «محمد خان» من سلاطين آل عثمان في مبادئ القرن الحادي عشر الهجري. وقد علق تحته كف من الذهب المرصع بالجواهر، وفي وسطه حجر من الماس أصغر من الكوكب الدرّي، أهدها إليها السلطان «مراد الرابع» ابن السلطان «أحمد الأول» في سنة سبع وأربعين وألف للهجرة. وهناك لوح كبير من الذهب منقوش فيه بخط جميل جداً بحجارة الماس البرلاني: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» أهدها إليها صاحبة السمو

والعصمة عادلة سلطان بنت السلطان محمود سنة ألف ومائتين وإحدى وتسعين هجرية.

وفي هذه الحجرة الشريفة غير هذا، كثير من الجواهر الفاخرة التي لا تُقدر بثمن؛ منها قطعة كبيرة على مثال الكردان مكتوب فيها بالماس اسم السيدة فاطمة الزهراء، وهي موضوعة على مقصورتها الداخلية في الجانب الشرقي، وإلى جوارها عقد من اللؤلؤ الكبير الحجم، لا يماثله شيء في عظمه وجوهره، وعقود أخرى من المرجان النادر المثال. ويوجد فيها شمعدانات من الذهب الخالص المرصع بالجواهر الكريمة، منها اثنان كبيران طول الواحد منهما نحو مترين، أهدهما إليها السلطان «عبد المجيد خان» في سنة أربع وسبعين ومائتين وألف، وشمعدانان آخران أهدهما السلطان محمود. وإلى جانب هذه الشمعدانات مكانس من اللؤلؤ، ومراوح مرصعة بالأحجار الكريمة، وعصاقي ومباخر مرصعة، وهذا عدا ما يوجد في خزائن الحجرة الشريفة من المصاحف المجوهرة والتحف الفاخرة، وكثير من الأحجار الكريمة والجواهر الثمينة التي لم تكن مشغولة، وغير ذلك من الأساور والأقراط وخلافها. وبالجملية فقد قدر ثمن ما للحجرة الشريفة من الذخائر بسبعة ملايين من الجنيهات.

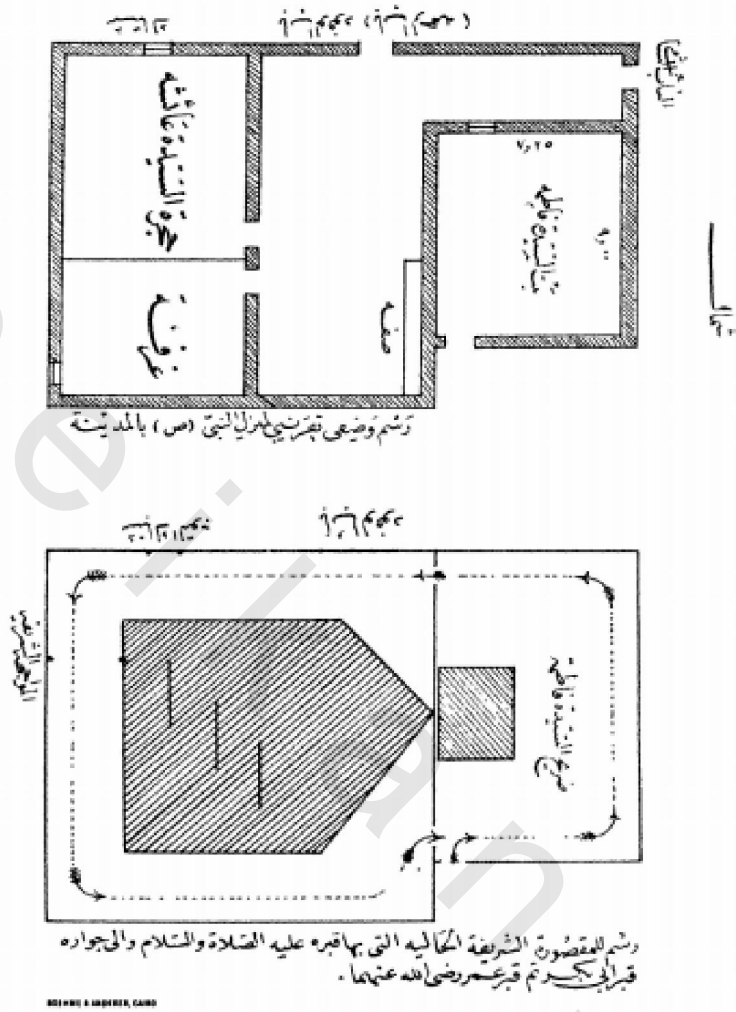
ولقد كانت الملوك والكبراء والعظماء يهدون لها في كل الأزمان كثيرًا من الجواهر الفاخرة والذخائر الثمينة. وكثيرًا ما كانت تتناول إليها يد الأشرار من ولاية المدينة مثل جماز ابن هبة الذي نهب في سنة إحدى عشرة وثمانمائة من ذخائر الحرم المدني ما قدره السمهودي بعشرين قنطارًا من الذهب. وتبعه في ذلك الشريف «حسن بن زبير المنصوري» سنة (٩٠١ هجرية) فأخذ منه شيئًا كثيرًا. وفي مبدأ القرن الثالث عشر الهجري كانت الحجرة الشريفة عامرة بما لا

يحصى من الذخائر الثمينة، فنهبها الوهابي سنة إحدى وعشرين ومائتين وألف، وباع بعضها إلى الشريف غالب بمبلغ خمسين ألف ريال، وبعد تتميم الصلح بين ابن سعود وطوسون باشا اشترى منه هذا الأخير بعض ما نهبه أبوه من آثارها الذهبية بمبلغ ألفي جنيه مصري، وردها للحجرة الشريفة. وكذلك رد إليها محمد علي ما أعطاه إليه الوهابي من ذخائرها وأهداها هو بشمعدان كبير من الذهب الخالص وشمعدانين من الفضة مكتوب عليها: «العبد المذنب محمد علي والي مصر سنة ١٢٢٨». وأهداها عباس باشا الأول شمعدانات من الفضة وثريتين (نجفتين) من الفضة: واحدة ذات (٣٦) شمعة معلقة في المحراب العثماني، والأخرى ذات ثلاثين شمعة معلقة تجاه الوجه الشريف، وثریات وشمعدانات أخرى من البلور. ولسعيد باشا وبعض كريات العائلة الخديوية بالحرم الشريف هدايا أخرى. وآخر ما قدم للحجرة الشريفة لهذا العهد دوايب ثمينة جدًا قدمتها إليها دولة والدته الجناب العالي الخديوي لتحفظ فيها هذه الآثار الكريمة جزاها الله خيرًا.

وخدمة الحجرة الشريفة يغسلونها في السنة ثلاث مرات: واحدة في يوم ٥ ربيع الأول، والثانية في أول رجب، والثالثة في الثامن عشر من ذي القعدة. ويكون لذلك احتفال كبير، وماء غسيلها يفرقونه في قوارير على أكابر المسلمين للتبرك به.

بحث فيما كان عليه بيته صلى الله عليه وسلم بالمدينة

من ينظر إلى المقصورة الشريفة الحالية، ويعلم أنها أقيمت على مكان بيت النبي صلى الله عليه وسلم (المشهور ببيت عائشة)، ويفكر في أبوابها، وتسمية كل باب باسم مخصوص، ويضيف إلى ذلك أن بيت السيدة فاطمة كان بجانب بيته صلى الله عليه وسلم، وأنه كان فيه شباك يطل على بيت أبيها، وكان صلى الله عليه وسلم يستطلع أمرها منه حتى سدَّه محبة في استقلال كل بيت عن الآخر، يحكم معي بأن وضع بيته مدة وجوده صلى الله عليه وسلم كان على نحو الشكل الآتي.



والذي ساعدني على هذا الوضع ما ورد عن «مالك» رضي الله عنه: «قسم بيت عائشة باثنين، قسم كان فيه القبر، وقسم كانت تكون فيه عائشة، وبينهما حائط، وكانت عائشة ربما دخلت حيث القبر فضلاً (يعني سافراً)، فلما دفن عُمر رضي الله عنه لم تدخله إلا وهي جامعة^(١) عليها ثيابها».

(١) انظر - حفظك الله ورعاك - إلى هذا الأدب العالي والحياء العالي الذي بلغ بكمال القوم رضوان الله عليهم في المحافظة على الحجاب حتى على الأموات وحتى مع عُمر وهو ميت.

ومن ذلك تعلم أن بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم كان به حجرتان. أما بابه فقد قال بعضهم: إنه للشام، وقال آخرون: إنه للغرب، ولكن يستتج من رواية «ابن سعد» أن له بابين حيث قال: «لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا (الصحابه): كيف نصلي عليه؟ قالوا: ادخلوا من ذا الباب أرسالاً أرسالاً فصلوا عليه واخرجوا من الباب الآخر».

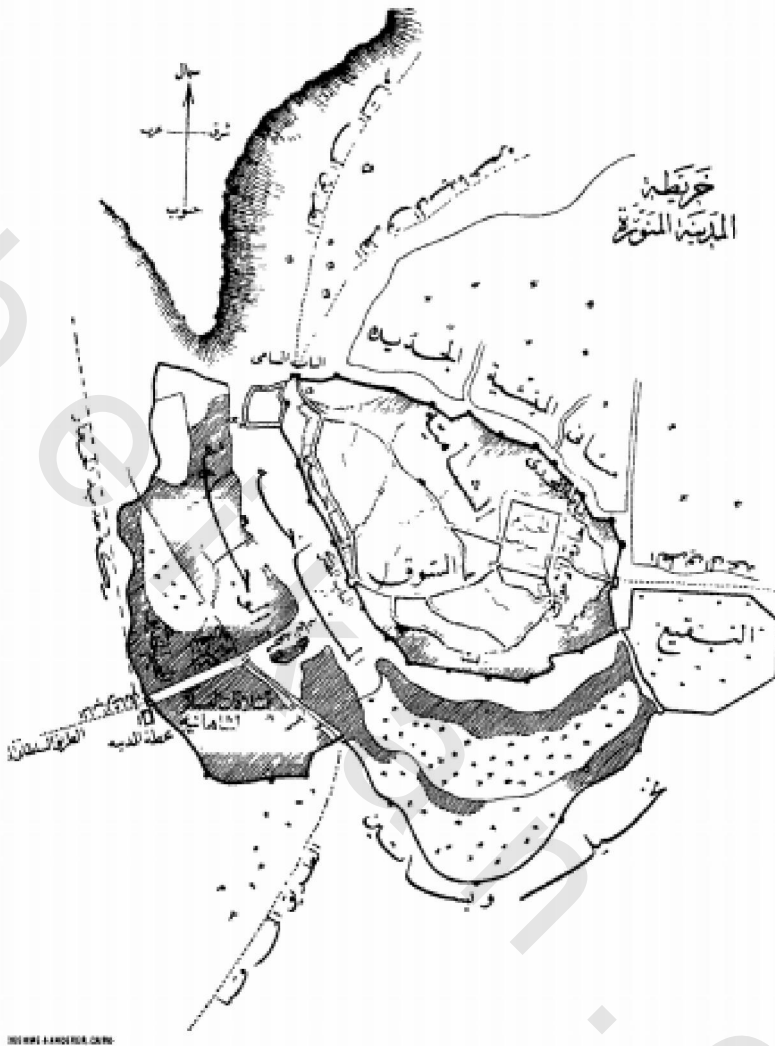
ومما ورد أيضًا أن بيت السيدة عائشة كان به صُفّة إلى منزل فاطمة، وكان به فتحة إلى القبلة يؤيد ذلك قول ابن ذُباله: «كان بين بيت حفصة ومنزل عائشة الذي فيه القبر الشريف طريق، وكانتا تتهاديان الكلام وهما في منزليهما من قرب ما بينهما». وحفصة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم وبنت عمر بن الخطاب، وكان بيتها كما لا يخفى على يمين خوخة آل عمر؛ أي في جنوب بيت عائشة إلى الشرق.

وإني لم أجسر على هذا الوضع إلا بعد تدقيق شديد في أقوال الصحابة والتابعين الذين كانوا يتحرون كل مواقفه عليه الصلاة والسلام، وخصوصًا في بيته الذي أجمع المسلمون على أن موضع قبره صلى الله عليه وسلم فيه أشرف بقعة على سطح الأرض. وعلى كل حال فهذا استنتاج لي أورده لك وأنت حر في تحسينه أو توهينه، ولو بدون دليل تقيمه عليه.

وعليه فيكون بيت السيد الرسول مدة حياته في المدينة على الرسم (الموضوع في جنوب المقصورة الشريفة) وهو أكثر بساطة من مسكنه في مكة. وكان من دونه كما سبق منازل أزواجه رضي الله عنهم؛ وكان محيطها مع منزل عائشة مبنياً باللبن، وقواطعها الداخلة من الجريد المكسو بالطين والمُسُوح الصوفية. ومن ذلك يمكنك أن تحكم على مقدار بساطته صلى الله عليه وسلم في مسكنه؛ بحيث إنه ما كان يتعدى في أي حال من الأحوال الضروري لحياته،

وحياة أزواجه. وقد ورد عن عطاء الخراساني أنه قال: «أدركت حُجَرَ أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، فحضرت كتاب الوليد يُقرأ يأمر بإدخالها في المسجد، فما رأيت يوماً كان أكثر باكيًا من ذلك اليوم، فسمعت سعيد بن المسيب يقول: والله لوددت أنهم تركوها على حالها، ينشأ ناس من المدينة ويقدم قادم من الآفاق فترى ما اكتفى به رسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته، ويكون ذلك مما يزهّد الناس في التكاثر والتفاخر فيها».

ومع هذا فإنك إذا أنعمت النظر في هيئة المكان على بساطته، وفكرت في وضعه الصحي، وكيف كانت منافذه منقية للهواء، وأبوابه داعية إلى السهولة في الدخول والخروج وخفة الحركة مع وفرة الزمن والسرعة إلى المقصد، مما شرع فيه الآن في العمارات الكمالية، عرفت ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من القناعة، والزهد، وحسن الذوق.



ومن يتأمل في ذلك ير فيه خير درس للناس يتعلمون منه كمال وضع الأمور في مواضعها، من غير زيادة عن الحاجة ولا نقص عن الضروري، وهنالك يرى الغني في ماله فضلة يساعد بها الفقراء من عيال الله؛ فتبادل عاطفة الحنو والشفقة فيما بينهم، وتثبت قدم المحبة في أفئدتهم، فيصبح الكل بين محب ومحبوب، وشاكر ومشكور، وحامد ومحمود، وهنالك تزول عوامل الحسد وتموت شياطين التنافر والبغضاء، ويتحد الكل على العمل؛ بل ويعمل

الكل لكل، ويكون الناس على اختلاف طبائعهم وعوائدهم كأعضاء جسم واحد تعمل كلها لحياته ووجوده، وإذا يكونون قد قاموا بالمأمورية التي وجدوا من أجلها وهي خدمة الإنسانية.

المدينة المنورة

المدينة المنورة، أو مدينة الرسول، واسمها طيبة، وكانت تسمى قبل الهجرة يثرب، ترتفع عن سطح البحر بنحو (٦١٩) متر، وهي واقعة على طول (٣٩) درجة و (٥٥) دقيقة شرقاً، وعلى عرض (٢٤) درجة و (١٥) دقيقة من شمال خط الاستواء، (أعني على عرض خط دراو التي توجد فيما بين إسنا وأسوان)، ودرجة حرارتها في الصيف تصعد إلى (٢٨) درجة سنتجراد، وتنزل في الشتاء إلى عشر درجات فوق الصفر نهاراً، وإلى خمسة تحت الصفر ليلاً، وكثيراً ما يرى فيها الماء متجمداً في آنيته عند الصباح في زمن الشتاء.

وإذا صح ما ذهب إليه بعضهم من أن كلمة يثرب محرفة عن الكلمة المصرية (إتريس) كان لنا أن نفكر في أن الذين بنوها إنما هم العمالقة بعد خروجهم من مصر، ولنا في يهوديتهم ما يؤيد قول من ذهب إلى أن موسى في طريقه إلى فلسطين، أرسل فرقة من قومه لتكتشف له تلك الجهة، فساروا إليها، وبلغهم موته فبنوا مدينة إتريس وأقاموا فيها. وعليه فعمران المدينة يبتدئ من سنة ألف وستمائة قبل المسيح أو ألفين ومائتين واثنين وعشرين قبل الهجرة. وعلى ذلك يمكنني أن أقول: إنَّ لفظ طيبة إن كان مستعملاً اسماً لها من قبل الإسلام فلا بدَّ أن يكون مصرياً أيضاً.

والمدينة مركز لواء، وكانت إلى عهد قريب ملحقة بولاية الحجاز وجعلت الآن متصرفية قائمة بنفسها (كما بلغني) وفيها عاملان كبيران يقومان بإدارة شئونها وهما: شيخ الحرم، والمحافظ، وهذا الأخير في يده السلطة العسكرية التي هي الآن أهم السلطات في بلاد الدولة العلية. ويتبع المدينة قضاء الوجه،

وقضاء ينبع، والكور، وتيها، ودومة الجندل، والفرع، وذو الرمة، ووادي اقرى، وقرى عرينة، والسيالة، والرهط، وكحل، ومدین، وفدك، وخيبر. وفي المدينة وكيل لشريف مكة ينظر في قضايا العربان اسمه الشريف شحات.

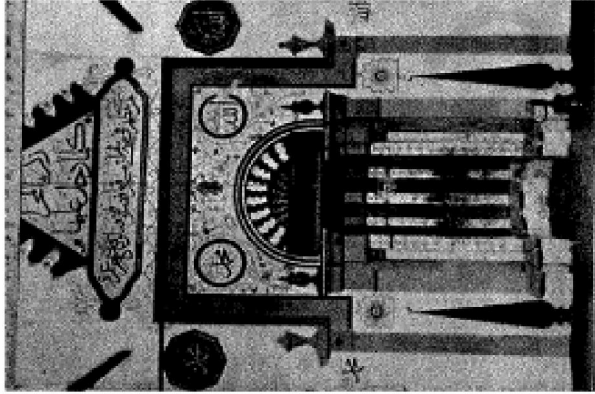
والمدينة مبنية في وسط واد شاسع يمتد إلى الجنوب، وأغلب مبانيها من الحجر المجلوب إليها من المحاجر القريبة منها. وفيها نحو (١٢ ألف) بيت، وشكل الأبنية فيها هو بعينه ما رأيناه بمكة وجدة؛ لولا أن منازلها أصغر، وشوارعها أضيق، وخصوصاً ما كان منها حول الحرم الشريف، وكان يجب أن يكون حوله ميدان متسع يساعد على تنقية جو المدينة من جهة، وعلى سهولة الوصول إلى الحرم من جهة أخرى. وأحسن شارع في المدينة غرب الحرم، ويسمونه بحارة الساحة؛ وهي أطول حاراتها، وفيها أحسن مبانيها، وبها مكان المحافظة في قلعة على السور الداخلي. ومما ينبغي ذكره أني رأيت بهذه الحارة منزلاً «للسيد هاشم» مشغولاً بأعمال الأويمة بما استوقفني أمامه باهتاً لجمال صناعته ودقتها، وهي من صناعة جاوة، وبكل أسف أقول: إن هذه الصناعة البديعة قد انقطعت عن المدينة بالمرّة. وفي هذه الحارة زقاق يدخل منه إلى مقام سيدنا عبد الله والد الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان قد أتى إلى المدينة قبل الإسلام لعمل له فمات بها، ودُفن عند أخواله من بني النجار في بيت رجل منهم يقال له: النابغة. وهذه الحارة تسمى «الأبواء»، أو زقاق الطوال، وفيها منازل آل أسعد.

وأغلب حارات المدينة يسمونها لضيقها أزقة؛ منها في شمال الحرم، زقاق البقر، وزقاق الخياطين، وزقاق الحبس، وزقاق عنقيني، وزقاق السماهيدي، وزقاق البدور، وزقاق الأغاوات، وفي جنوبه زقاق ياهو، وزقاق الكبريت،

وزقاق القماشين، وزقاق حيدر، وزقاق الحجامين، وزقاق مالك بن أنس ...
إلخ.



كتبة
بستان محمد زنا المدينة المنورة



محارب
بستان محمد زنا

وعلى كل حال فحارات المدينة نظيفة، وضيقها يساعد كثيرًا على تلطيف
الحرارة فيها زمن الصيف، كما هو الشأن في أغلب بلاد الشرق. وسوق المدينة

يبتدئ من الباب المصري إلى الحرم الشريف في شارع ضيق طوله (٥٠٠ متر) تقريباً يقطعه على المارة تقابل جملين فيه مع بعضهما، والحركة فيه تكاد تنحصر في مدة الحج، والموسم الرجبى؛ وهو موسم الزيارة الرسمية في بلاد العرب. وتجارة المدينة مدارها على واردتها الخارجية، لا سيما واردات جاوة والهند والشام، وعلى الخصوص في الأقمشة القطنية والصوفية والحريية والسبح والليف الأبيض والحناء والبسط والسجاجيد والحنابل (الأكلمة) العجمية والهندية والمغربية والأناضولية، وأثمانها أغلى منها في مكة؛ بل وفي مصر، وإنما ابتياع الحجاج لها على سبيل البركة وسهولة الصرف في هذه الجهات. وتجارة البلح فيها هي أكبر التجارات وأوسعها؛ لأن ضواحيها فيها كثير من البساتين وفيها نخيل كثيرة تنتج نحو سبعين صنفاً من الثمر وأحسنها البلح العنبري، ثم الجلبي، ثم السكري؛ وهو أكثرها حلاوة، ثم بلح السبح، ويكثر نخله في جهة الحيف بين المدينة والحمراء، وكيفية تجهيزه: هي أن ينظم في خيط، ثم يلقي به في الماء المغلي زمناً ما، ثم يجفف في الشمس. ولقد اشترينا منه شيئاً من دكاكين أقيمت خارج الباب المصري بالمناخة، وكان البائع يروج تجارته بأحاديث يسردها، وينسبها إلى النبي صلى الله عليه وسلم، في مدح بعض أنواع البلح المتقدمة. فعجبت من أن القوم لا يستحون من الكذب على الرسول حتى وهم بين يديه الشريفتين! وقلت له: يا هذا، إنا نشترى منك بلحاً لا أحاديث، وأوريته أن مصيبة المسلمين أساسها الجرأة في القول على الله ورسوله!! فاعتذر الرجل بجهالته قائلاً: إنه أخذ هذا عن غيره من الباعة السابقين أو بعض المتمشيخين. ويبيعون البلح بالكيله ووزنها (٦٠٠ درهم)، أمّا كيله الأرز فزنتها (٣٠٠ درهم)، والسمن يبعونه بالرطل وهو (١١ أو ١٢ أوقية)، والرطل (٢٠٠ درهم)، والأردب (١٢٠ أقة).

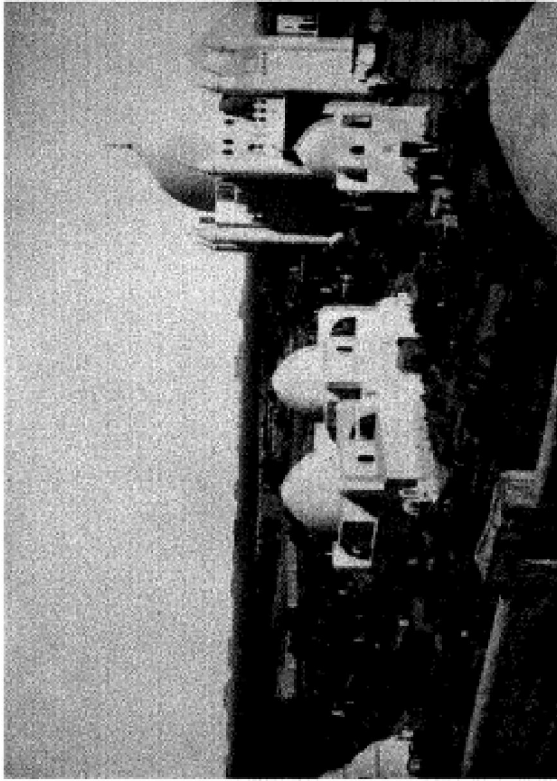
وفي المدينة كتبانات كثيرة أحسنها كتبانة شيخ الإسلام «عارف حكمت»، وهي قريبة من باب جبريل إلى جهة القبلة، وهذه الكتبانة آية في نظافة مكانها وحسن تنسيقها وترتيب كتبها، وأرضها مفروشة بالسجاد العجمي الفاخر، وفي وسط حوشها نافورة من الرخام، فيها حنفيات للوضوء، وفيها كتب ثمينة جدًا لا يقل عددها عن (٥٤٠٤) كتاب. ولقد رأينا بها شيئًا من غرائب الصناعة النادرة في بابها: وهو كتاب أشعار فارسية مكتوب بالخط الأبيض الجميل لملا شاهي، وبيننا نحن نعجب من جودة الخط وإتقان الصناعة ونظافتها وحسن تنسيق حروفها على صغرها ودقتها، لفت نظرنا حضرة مدير الكتبانة إلى أن حروف الكتابة إنما هي ملصوقة على الورق. فتأملناها فوجدنا شيئًا يبهت الطرف لرؤيته ويعجز اللسان عن نعته، خصوصًا عندما أخبرنا أنهم كانوا يكتبون هذه الكتابة ثم يفصلونها عن ورقها بظفرهم، ثم يلصقونها على ورقة أخرى!!

وفي باب السلام كتبانة للسلطان محمود ومقدار الكتب التي فيها (٤٥٦٩ كتاب) وهي وإن كانت أصغر من كتبانة عارف وأقل منها نظامًا إلا أنها جميلة ومرتبة. وفيها كتبانة للسلطان عبد الحميد الأول بها (١٦٥٩) كتاب. وفيها أيضًا كتبانة بشير أغا في زقاق الخياطين بها (٢٠٦٣) كتاب، وقد بلغني أن هناك كتبانات أخرى منها واحدة في رباط عثمان حافلة بنفائس كتب مذهب مالك، ويقدر مجموع هذه الكتاب بثلاثين ألف كتاب من الكتب النادرة المثال. ولو جمعت كل هذه الكتب في دار واحدة وعمل لها نظام مخصوص لكان ذلك أنفع والفائدة منه أكبر.

وفي المدينة جريدة اسمها (المدينة المنورة) تصدر باللغة التركية والعربية على مطبعة البالوزه كلما كان هناك داع لصدورها، ومديرها حضرة الفاضل

الشيخ محمد مأمون، وكانت تصدر مدة وجود الجنب العالي بها، شارحة حركاته اليومية، وناشرة كل ما كان يقدم لذاته السنينة من المدائح نظمًا ونثرًا، ومن ضمن ما رأيت فيها قصيدة لحضرة مديرها تهنتة للجنب العالي بقدمه؛ قال في مطلعها:

البدر في أفق العلياء قد طلعا وكوكب السعد في إسعاد سطعا
وليس في المدينة من المدارس ما يستحق الذكر، إلا أن فيها (٧٧) مكتبًا لتعليم مبادئ العلوم البسيطة، والذي يدرس في الحرم شيء بسيط من الفقه والتفسير.



تقع مدينتي المدينة المنورة وحيثما كان على يد الله سبحانه وتعالى الملك
تم بناءها على يد النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثم توارثها بعدهم إلى أن أتت المدينة المنورة
سنة الفيل سنة خمس مائة من الهجرة النبوية هـ

وفي المدينة حمامان تركيان؛ أحدهما داخل المدينة: وهو من عمل السلطان سليمان القانوني، والثاني بالمناحة. وفيها (٨) تكايا أهمها التكية المصرية، والباقي يسمونها رباطات، لها مراتب قليلاً لا تفي بحاجة من يسكن فيها من الفقراء والمعوزين.

وللمدينة المنورة حرم مثل حرم مكة يبلغ قطر دائرته نحو اثنين كيلومتر، ولا يجوز لأحد الصيد فيه إجلالاً له وتعظيماً.

وفي المدينة وضواحيها مزارات كثيرة أشهرها مسجد قباء، ومسجد سيدنا حمزة، والبقيع. أمّا مسجد قباء فيبعد عن المدينة بمسافة خمسة كيلومترات، وهو أول مسجد بني في الإسلام، بناه رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجنوب الغربي للمدينة عند دخوله إليها في هجرته، وقد جدد بناءه السلطان عبد الحميد الأول، وبوسط صحنه قبة أقيمت على مبارك ناقتة صلى الله عليه وسلم حين قدومه إليها في هجرته من مكة. وأمّا مسجد سيدنا حمزة فإنه يوجد في شمال المدينة في وادي أحد؛ وهذا الوادي مشهور بالواقعة التي حصلت بين المسلمين والمشرّكين في (١٥ شوال سنة ٣ للهجرة)، وأبلى فيها المسلمون بلاءً حسناً، واستشهد فيها سيدنا حمزة عم النبي صلى الله عليه وسلم وكسرت فيها رباعية النبي اليمنى وشج وجهه وكلمت شفته السفلى، ودخلت حلقتان من مغفره في وجنته. وقد ورد عن عائشة رضي الله عنها: أن أبا عبيدة بن الجراح نزع إحدى الحلقتين من وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فسقطت ثنيته، ثم نزع الأخرى فسقطت ثنيته الثانية، فكان ساقط الثنيتين. وهناك قبة يقال له: قبة السن فيها حجر به حفرة صغيرة يزعمون أنها المكان الذي سقط فيه السن الشريف، وقد كان أهل المدينة نقلوا بعد انتهاء هذه الواقعة بعض قتلاهم لدفنهم فيها، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم منعهم قائلاً: «ادفنوهم

حيث صرعوا». وعليه فقد دفن حمزة في مصرعه الذي عليه إلى الآن قبة يقال لها: قبة المصرع، شرق مسجده الحالي الذي نقلت جثته إليه فيما بعد لما عبث السيل بقبره الأول. ومن حوله قبور الشهداء الذين قتلوا في هذه الواقعة وعددهم نيف وسبعون. وفي نهاية الوادي إلى الشمال جبل أحد؛ وهو جبل صخري من الجرانيت، وهو وإن كان من السلسلة الجبلية التي تخترق بلاد العرب إلا أنه يكاد يكون منفصلاً عنها وطوله من الشرق إلى الغرب نحو ستة كيلومترات.

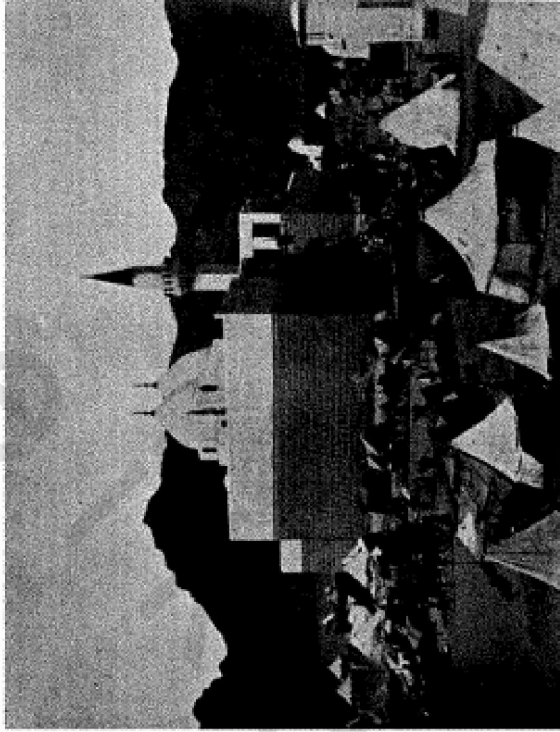
والبقيع له عند المسلمين مكانة عظيمة ويقال له: بقيع الغرقد؛ لأنه كان يكثر فيه هذا النوع من الشجر، وبه دفن نحو عشرة آلاف من الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين، وكثير من آل بيت النبوة صلوات الله عليهم: منهم سيدنا علي زين العابدين ابن سيدنا الحسين وولده محمد الباقر وولده جعفر الصادق، والأخيران في قبة سيدنا العباس. وكان بالبقيع قباب كثيرة هدمها الوهابيون.

ومن مزارات المدينة المباركة مسجد الراية، ومسجد الفتح، ومسجد القبلتين، ومسجد السُّقيا، ومسجد الغمامة (بالمناخة)، ومسجد علي (في طريق قباء)، ومسجد المائدة (أمام البقيع من جهة الشرق)، ومسجد الأحزاب (وراء جبل سَلْع الذي هو على يسار الخارج من الباب الشامي)، ثم مسجد عروة.

وأهل المدينة يشربون من آبار كثيرة منها: بئر الأعواف، وبئر أنس بن مالك، وبئر رومة التي اشتراها عثمان بن عفان لشرب المسلمين منها في صدر الإسلام. وفيها بئر القويم، وبئر العباسية، وبئر صفية، وبئر البوبرة، وبئر فاطمة، وبئر عروة. وكان أهل المدينة في السابق يهدون من ماء البئرين الأخيرين للملوك وكبار المسلمين. وفي قباء بئر يسمونها بئر الخاتم، وهي بئر

أريس التي وقع فيها خاتم النبي صلى الله عليه وسلم من عثمان بن عفان وهو خليفة، وكانوا لذلك الوقت يختمون به على مكاتباتهم، وكان نقشه (محمد رسول الله).

وماء المدينة الذي عليه مدار سقيها من العين الزرقاء التي توجد غربي مسجد قباء، وماؤها عذب لذيد، وسميت بالزرقاء نسبة إلى مروان بن الحكم الذي أجراها بأمر معاوية رضي الله عنه وقت أن كان عاملاً له على المدينة، (وكان يسمى الأزرق لزرقه عينه)، وهي موضع عناية كل الملوك والسلاطين إلى هذا الزمان. ويمد ماء هذه العين مجرى مأخوذ من عين في قباء أيضاً يسمونها عين النبي، وماؤها يسير إلى المدينة في قناة مبنية بناء متيناً. وقد تفرع من هذا المجرى فروع كثيرة في جهات المدينة، وبنى لها خزانات تنزل عن سطح الأرض بنحو عشرة أمتار يملأ منها السقاءون الماء ويوزعونه على مساكن المدينة.



سيدا حمزة وحملة زوار المدينة

وقد ينزل الناس بواسطة سلام من حجر إلى هذا المجرى فيملئون جرارهم من حنفيات مثبتة فيه، وبهذا ترى أن مياه هذه العين نظيفة وبعيدة عن التلوث، وهو السبب الوحيد في عدم تعرض المدينة غالباً إلى الأوبئة التي تحصل في الجهات الأخرى من بلاد العرب التي لم يعتن بالماء فيها: مثل مكة ومنى وجدة وينبع.

وهذه العين كان يقوم بتعميرها أمراء المسلمين. وقد تخربت في أوائل الحكم العثماني، ومكث أهل المدينة زمناً طويلاً وهم في ضيق شديد حتى عمرها السلطان سليمان سنة (٩٣٢). ثم جرفها السيل سنة (٩٩٠) فأمر بتعميرها السلطان مراد خان، واشترى بئر الغربالي وألحقها بها. وفي سنة

(١١١١) أمر السلطان مصطفى العثماني فاشترت بئر العقد وألحقت بها أيضًا. وما زالت حتى بناها السلطان سليم سنة (١٢١٢). ولما حاصر الوهابيون المدينة خربوها، فأصلحها محمد علي باشا، ثم جددتها السلطان عبد المجيد بما صارت معه عظمة الفائدة كبيرة المنفعة، جزاهم الله خيرًا.

وفي ضواحي المدينة عدا العين الزرقاء عين كهف، غربي جبل سلع، وعين الخيف وتجري من عوالي المدينة، وعين الوادي بجوار قبر حمزة، ثم عين السلطان؛ وهي مألحة وتجري من قباء إلى المدينة، فتظهر بالوعاتها ومجاريها ثم تسير إلى بساتين المدينة من خارجها.

ويوجد في المدينة بالجهة الشمالية حدائق كثيرة بالقرب من السور: منها حديقة الداوودية، وحديقة الزكي، والسبيل، وبضاعة، وبُضيعة، والطرباوية، والفيروزية، والزينية، والدرويشية، وبئر حاء، والتوابية، والجودية، والكاتنية، والسمانية. وفي داخل السور الحدائق الرومية. وفي الجهة الشرقية بساتين وكروم كثيرة من النخيل. وفي جهة قباء وذي الحليفة والعوالي شيء كثير من المزارع والبساتين، والأخيرة مشهورة بثمرها. ويزرع فيها كثير من الخضراوات مثل الكرنب والقنبيط (القرنيط) والكراث أبو شوشة والخرشوف والبامية والملوخية، والباذنجان، والقوطة، والقرع، واللوبيا، والفاصوليا، والرجلة، والسبانخ، والخبيزة، والكرفص والبقدونس. ومن الفاكهة البطيخ والقاوون والخوخ والرمون والعنب والموز والتمر والليمون والبرتقال والليم (وهو نوع من الأترج كبير الحجم).

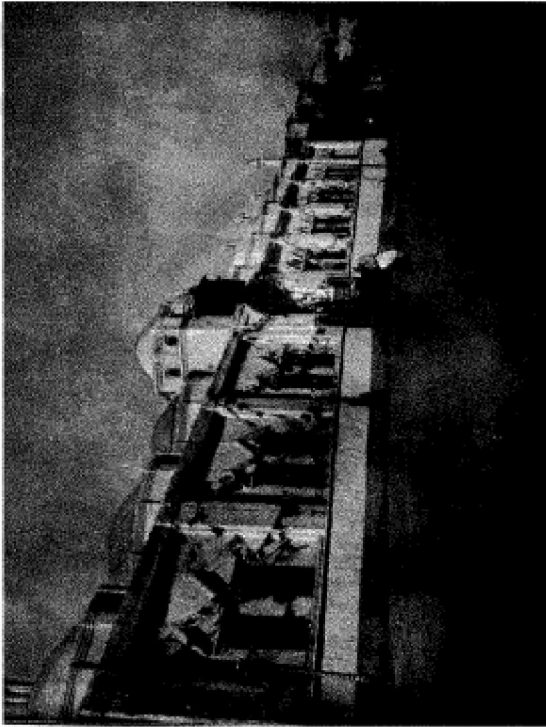
وحول المدينة وديان كثيرة. وينزل فيها كثير من مجاري السيول التي تسير بها إلى بساتينها وخصوصًا في الجهات المنخفضة منها. وقد ترتفع مناسيب هذه السيول في بعض السنين فتضر بالمدينة وضواحيها ضررًا بليغًا. وفي خلافة

سيدنا عثمان فاض وادي مهرور فيضاً كاد يقوِّض أركان المدينة فأمر ببناء سدين عند بئر مدري، وحوّل بذلك مجرى السيل إلى وادي بطحان. وفي سنة (١٥٠) نزلت السيول بكثرة على المدينة فأزعجت أهلها وأغرقت صدقاتها، وكان ذلك في خلافة أبي جعفر المنصور فأمر، فبنيت السدود في أعالي المدينة فتحوّلت السيول إلى جهات أخرى. وفي سنة (٧٣٤) فاض وادي القناة فأغرق الجهة الشمالية من المدينة إلى جبل أحد، وانقطع الناس بسببه عن زيارة سيدنا حمزة ستة شهور. وفي سنة (١٣٢٨) نزل السيل إلى المدينة وتكونت مياهه عند جبل أحد وبلغ عمقها نحو نصف متر.

وأهل المدينة يبلغ عددهم ستين ألفاً؛ منهم كثير من المجاورين الأجانب، وأكثرهم من الهنود والأتراك والشوام والمغاربة والمصريين. ومن أشهر عائلات المدينة عائلة أسعد وهم سادات، وعائلة بري وهم مغاربة، وعائلة السمهودي وهم مصريون. ولكبار أهل المدينة مراتب من الدولة، ولكثير منهم مراتب من الحضرة الخديوية. وأغلبهم يعيش من وراء خدمة الحرم وخصوصاً في الموسم، ومنهم كثير من المرشدين إلى محال الزيارة ويسمونهم مزورين، وهؤلاء يؤدّون في المدينة وظيفة المطوفين في مكة. ومنهم من يعيش من التجارة البسيطة، والمصريون يتجرون في الحبوب كالقمح والعدس ويأتون بها من طريق القصير.

وأهل المدينة يعبرون عن الجهات بالشام للشمال، والبحري للغرب (لأنه إلى جهة البحر) والشرق للشرق، والقبلي للجنوب (لأنه جهة القبلة). ومنهم أخذ المصريون هذه التسمية واستعملوها في غير محلها في إطلاق القبلي على الجنوب؛ لأن القبلي عندهم إنما هو الشرقي الجنوبي كما لا يخفى.

ومن عادات أهل المدينة الرياضة والتنزه في البساتين خارج المدينة، فيخرجون إليها في يوم الثلاثاء والجمعة بعد صلاة العصر جماعات جماعات ويعودون في المساء، وقد يخرجون إلى هذه الرياضة من أول اليوم ومعهم غذاؤهم فيمضون نهارهم في أحد البساتين التي بضواحي المدينة في سرور وحبور: ويسمون هذه الفُسْحَة مَقْيَالًا.



المنارة القديمة في مكة

ومن عاداتهم القديمة أن كل واحد منهم يقدم كل سنة في ليلة السابع والعشرين من ذي القعدة مقدارًا من الحنطة على سبيل الهدية إلى الحجرة الشريفة، وبعد أن يغسلها وينظفها جيدًا يضعها في كيس جديد من القماش اللطيف الأبيض، حتى إذا وصل إلى الباب الذي في المقابلة الشريفة، استغاث

برسول الله، ثم وضع الكيس بكل أدب داخل الحجرة الشريفة. وهذه الأكياس يأخذها خدمة الحجرة المطهرة، ويهدون منها إلى عظماء المسلمين على سبيل البركة.

ومن عاداتهم استقبال الزوار من خارج المدينة من غير سابقة معرفة بهم. وكل واحد منهم يدعو إلى ضيافته ما استطاع من ضيوف رسول الله، فيأتي بهم إلى منزله ويمهد الفراش ويجهز الطعام اللازم لهم، ويقضي مدة إقامتهم في المدينة وهو في خدمتهم بصدق وإخلاص، غير ملتفت إلى أي أجر يصيبه منهم؛ وإن فعلوا فليس على كل حال إلا أقل مما يجب بالنسبة لهم. ومن أكمل عاداتهم أن ربة المنزل مهما بلغ من شأنها هي التي تشتغل بداخليتها، وتقوم بطهي الطعام بنفسها، ولا تباشر ذلك إلا وهي على وضوء تام.

ومن عاداتهم في مواليدهم أن الطفل إذا مضى عليه أربعون يومًا غسلوه ونظفوه وألبسوه ملابس جميلة بيضاء، وبعد أن يعطروه يأخذوه أهله وهم في أحسن زينة لهم إلى الحجرة الشريفة، فيأخذوه الخدمة ويضعونه فيها ويغطونه بستارتها، ثم يدعون له بخير، وبعدها يسلم الولد إلى أمه فتأخذه فِرحة هاشية باشة.

ومن عاداتهم أنهم لا ينوحون إذا مات لهم ميت ولا يبكون؛ بل يأخذونه ويدخلون من باب الرحمة حتى يصلوا به إلى الحجرة الشريفة، فيصلون عليه ويخرجون به من باب جبريل إلى البقيع، فيدفنونه مكبرين مصلين على الرسول، وهنالك يقف صاحب الميت على باب الجبانة فيعزيه الناس: وهي عادة قديمة من يوم وفاة سيدنا الحسن بن علي رضي الله عنه؛ فإنه بعد دفنه وقف أخوه سيدنا الحسين رضي الله عنه على باب البقيع واستقبل تعازي المعزين.

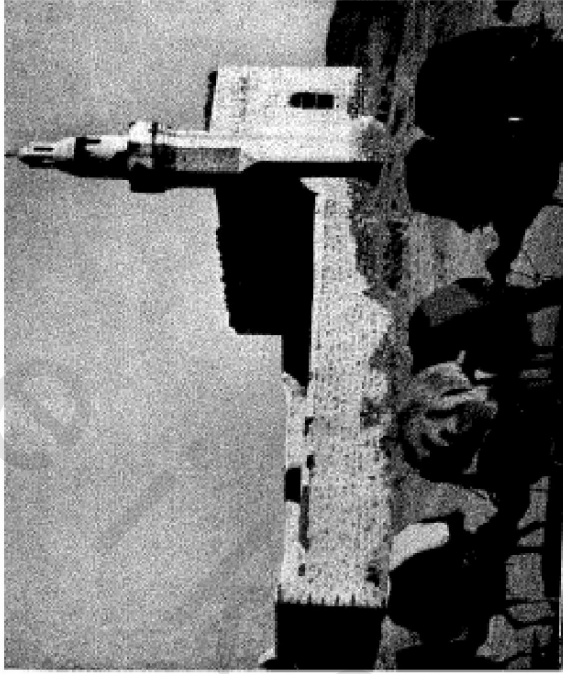
ومن عاداتهم أنهم يخرجون يوم الخميس نساء ورجالاً بعد صلاة العصر إلى البقيع، ويلقون على القبور شيئاً من الرياحين؛ وهي سنة عن النبي صلى الله عليه وسلم.

ومن عاداتهم في شهر رمضان أنهم يتوجهون إلى الحرم قبل المغرب بنحو ساعة ويجلسون حول الحجرة الشريفة، ويمضون بقية نهارهم في قراءة القرآن الشريف والذكر والصلاة على الرسول. فإذا ضرب مدفع الإفطار يكون حضر لكل واحد منهم صينية فيها إفطار خفيف كالفتير والجبن والزيتون والبلح والحلوى وما أشبه ذلك، فيفطر كل منهم مع من يدعوهُ إلى طعامه من الغرباء، ثم يعطي بقية أكله إلى من هنالك من الفقراء. ويقضون في هذه الفترة نحو ربع ساعة، وبعدها تقام الصلاة فيصلون المغرب ثم يعودون إلى منازلهم مع من يصادفهم من الضيوف، فيتعشون ثم يعودون إلى المسجد لصلاة العشاء، وبعدها تبتدئ صلاة التراويح: فينقسم المصلون إلى خمسين أو ستين جماعة، لكل منهم إمام مخصوص، يضعون في مقابلته شمعدانين بهيئات مختلفة، يدل كل واحد على ما إذا كان الإمام يطول في صلاته أو يتوسط أو يقصر، فيصلي كل إنسان وراء من يريده، وبعد ختام التراويح يجري احتفال الشمع؛ ذلك أنهم في رمضان يخرجون ما في خزائن الحجرة الشريفة من الشمعدانات الذهبية والفضية، فيستعملونها أمام هذه الأئمة كما بينا، وبعد الصلاة يعيدونها إلى الحجرة الشريفة باحتفال كبير. ويتشرف بحمل هذه الشمعدانات من يحضر من الأمراء والأعيان بدعوة خصوصية ترسل إليهم من شيخ الفراشة النبوية. وصلاة الصبح فيها شيء من ذلك.

أما صلاة العيد فيصل إليها في المسجد النبوي إمامان بجماعتين؛ واحد شافعي والثاني حنفي، وبعد الصلاة يتشرف الجمع بزيارة السيد الرسول، ثم يعودون إلى منازلهم ويقضون أيام العيد في تزاور وسرور وحبور.

وكانت المدينة في القرون الثلاثة الأولى للهجرة في غاية الرقي الأدبي والمادي. وكانت بساكنها تملأ الفضاء المحيط بها وعلى الخصوص من الشمال والشرق والجنوب. وكان للقوم بها رياض زاهرة، وقصور فاخرة، في وادي العقيق الذي كان يغزر مأؤه، ويبهـر رواؤه، وتزهو أرجاؤه، ويكثر زهره، ويفوح عطره، ويجنى ثمره. وكان أغلبها لأزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم. ومن أماكنه المشهورة: الزُّغابة، وأضم، والغابة، وحَصير، والحَلِيقَة والجثجثة، وكلها كانت لعبد الله بن الزبير. ثم حمراء الأسد، وكان بها قصور لغير واحد من القرشيين، وخاخ وكانت للعلويين، وفيها يقول الأحرص:

لها منزل بروضـة خاخ ومصيف بالقصر قصر قبـاء



المنارة البيضاء في مكة

ومن أشهر أماكنها: ثنية الشريد، والغراء، والمُعَرَّس، والبيداء. وكان في جميعها منازل الأشراف من قريش، وخصوصاً على سفح جبل عير على يمين المقبل من مكة. وكان في الجهة الأخرى مكان اسمه الجُمَاء، وتجاهها في ضيق حَرَّة الوَبْرَة على أربع أميال من المدينة إلى صُفَيْرَة، أرض عروة بن الزبير وبها قصر المشهور بقصر العقيق، وبئر المشهورة باسمه والتي فيها يقول الشاعر:

كفـنوني إن مت في درع أروى واستقوا لي من بئر عروة ماء
وكان يوجد أسفل هذا القصر، تجاه الجُمَاء، مكان يقال له: العَرَصَة، وبه كان قصر سعيد بن العاص الذي يقول فيه أبو قطيفة:

القصر ذو النخل فالجُمَاء بينهما أشهى إلى القلب من أبواب جيرون

ويقال: إن آثار هذا القصر موجودة إلى الآن. وكان سعيد عاملاً لمعاوية على المدينة، وكان هذا القصر في أيامه آية في جماله وفخامته، بل كان آية من آيات القرن الأول الهجري، وأعجوبة من أعاجيبه، حتى فضله الشاعر عن أبواب جيرون (دمشق) التي كانت في ذلك العهد عاصمة الخلافة، ومكان فخامتها وأبتها. وهي إلى اليوم آية من آيات الله في جمالها وبهائها؛ لأن القادم عليها من الجنوب يخرق الغوطة، وما أدراك ما هية، جنة زاهية. وإذا قدمها من الغرب يخرق المرج وهو نزهة الزائرين، وبهجة الناظرين.

ومن القصور التي كانت مشهورة بوادي العقيق قصر عاصم، وقصر محمد بن عيسى، وقصر يزيد بن عبد الملك بن المغيرة، وقصر جعفر بن سليمان، وقصر أبي هاشم، وقصر عنبسة بن عمرو بن عثمان بن عفان، وقصر عنبسة بن سعيد بن العاص، وقصر عبد الله بن أبي بكر بن عثمان بن عفان، وقصر خارجه، وقصر عبد الله بن عامر، وقصر مروان بن الحكم. وآثار هذه القصور يوجد منها إلى الآن شيء كثير يدل على عظمة وادي العقيق وفخامته. وفي ذلك يقول الشاعر:

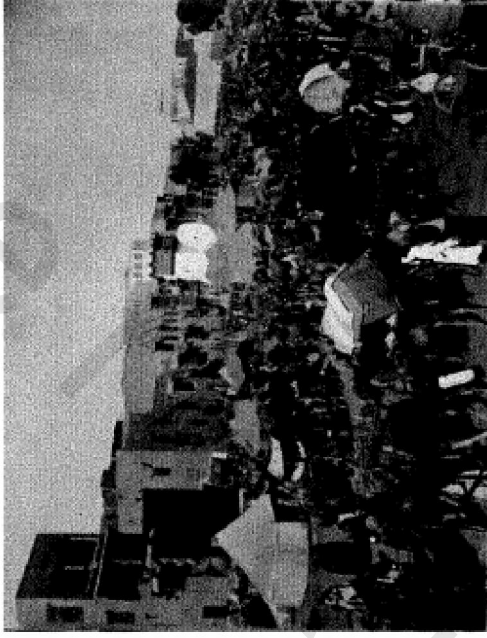
ألا أيها الركب المحثون هل لكم بأهل عقيق والمنازل من علم
فقالوا نعم تلك الطلول كعهدها تلوح وما يغني سؤالك عن علم

ويظهر أن أول من شيد البناء في المدينة هو عثمان بن عفان؛ فقد شيد داره فيها بالحجارة والكلس وجعل أبوابها من الساج والعرعر، وكان له بوادي القرى وحنين من الضياع ما قدره بعد موته بمائة ألف دينار. وفي أيامه اقتنى أصحابه بالمدينة الضياع الواسعة والدور الفسيحة، وابتنى سعد بن أبي وقاص داره بالعقيق فرفع بناءها ووسع فناءها وجعل في أعلاها شرفات، وابتنى المقداد داره بالجرف على أميال من المدينة وجعلها مخصصة للظاهر والباطن.

وفخامة العمارة بالمدينة لم تبتدئ بها إلا بعد الخلفاء الراشدين؛ لأن الخلافة لما آل أمرها إلى الأمويين أخذوا يهيلون العطايا على قريش وعلى سادات الأنصار والمهاجرين بالمدينة حتى يستميلوهم إليهم، أو على الأقل يشغلونهم بأنفسهم عنهم؛ فكثرت ثروتهم وغزرت مادتهم، وأخذوا يقلدون بني أمية في سعة العيش ورفه الحياة في المأكل والملبس والمسكن؛ فشيّدوا العمارات الفخيمة وحفروا الآبار في تلكم الصحراء وغرسوا فيها البساتين والرياض، وسيروا إليها الجماعات (جمع جماء؛ وهي مجرى الماء الغزير)، وصيروا المدينة روضة زاهرة وجنة باهرة، وما زالوا في رفاهة هذا العيش حتى إذا ضعفت الخلافة في مبدأ القرن الرابع الهجري انقطعت أعطيّاتهم فتغير حالهم، وانقضت سحابة رفههم، وسبحان من له الدوام.

وضعفت المدينة بضعف الخلافة العربية فصارت عرضة لهجمات الأعراب وغزوات البدو، فقام عضد الدولة أبو شجاع وزير الطائع لله وبنى سورًا حول المدينة سنة (٣٦٠). وبقي هذا السور حتى تداعت أركانه في منتصف القرن الخامس فبناه الأمير جمال الدين وزير صاحب الموصل وصاحب رباط الأعجام بالمدينة. وزاد فيه نور الدين بن زنكي سنة خمسائة وثمان وخمسين أثناء عمارته للحجرة الشريفة. ثم بناه الملك الصالح بن قلاوون سنة (٧٥٥)، ثم السلطان قايتباي سنة (٨٨١)، ثم السلطان سليم العثماني سنة (٩٣٩). وعمّره محمد علي باشا والي مصر بعد حرب الوهابية، وهو الذي فتح فيه الباب المصري. وجدده السلطان عبد العزيز سنة (١٢٨٥) وجعل ارتفاعه نحو (٢٥ مترًا)، وبنى فيه (٤٠ برجًا) تشرف على ضواحي المدينة للدفاع عنها. وهذا السور باقٍ للآن، وهو في طريق باب العنبرية، وعلى محيطه المزاغل والأبراج

المشحونة بالمدافع والذخائر الحربية لصعد هجمات الأعراب الذين كثيرًا ما كانوا ولا يزالون يعتدون على حرم رسول الله.



قافتة تجاري بالناخلة بالمدينة المنورة

وأما سورها الخارجي فليس بذي أهمية تذكر، وهو مهدم في كثير من جهاته. وفيما بين السورين يعني فيما بين الباب المصري وباب العنبرية، واد كبير متوسط عرضه (٤٠٠ متر) يقال له: المناخة، وسميت بذلك لأن أغلب الحجاج ينيخون جماهم فيها، ويقيمون بهامدة الزيارة، وفيها مقام ركب المحمل المصري مدة وجوده بالمدينة. وحول المناخة، من جهتها الخارجية، أبنية كثيرة أحسنها ما كان على الشارع العمومي: وهو شارع محطة السكة الحديدية، ويسمى الآن بالشارع الرشادي، وفيه التكية المصرية، ولها مرتبات من مصر، وتعمل بها الشورية يوميًا للفقراء على النظام الذي تقدم في تكية مكة، وفيه

قشلاق العسكر الشاهانية، وكلاهما من بناء المرحوم إبراهيم باشا جد العائلة الخديوية.

وللمدينة ثمانية أبواب وهي: الباب المجيدي، والباب الشامي، وباب الكوفة، وباب العنبرية، وباب قوبة، وباب العوالي، وباب الجمعة. وتقفل أبواب المدينة في وجه الزائرين من الحجاج إذا تحقق أنهم ملوثون بالوباء؛ ولكنهم يفتحون لهم طريقاً من الباب المجيدي إلى باب الحرم، فيزورون ويسافرون بعد يوم أو يومين على الأكثر بقوافلهم التي يجب أن تكون مخيمة خارج البلد. وبذلك ترى أهل المدينة على الدوام بعيدين عن الأوبئة بالمرة، ولكنهم في هذه الحالة لا يفتحون للحجاج إلا باباً واحداً من الحرم؛ فيتراكم بعضهم على بعض ويزدحمون في الطريق الموصل إلى هذا الباب حتى إذا وصلوا إليه، أخذوا يتدافعون للدخول إلى المسجد، وهناك يجدون مئناً ممن في داخله متدافعين للخروج منه، فتلتحم القوتان، ولا يزالون حتى يظهر فريق منهم على الآخر، فيهمجون عليهم ويطئونهم بأقدامهم ويموت من جراء ذلك خلق كثير كما حصل في سنة (١٣٢٦هـ). وعليه فيجدر بمشيخة الحرم في مثل هذه الأحوال أن تجعل باباً من الحرم الداخلين وآخر للخارجين، وبذلك يتوفر عليها وعلى الناس مثل هذه المشقة.

ومناخ المدينة ضحى جداً، وربما كان ذلك من الأسباب التي ساعدت على رقة أهلها ولطافة أمزجتهم التي إذا أضفت إليها ما هم عليه غالباً من الصلاح والورع والأدب وحسن المعاشرة، حكمت لهم بأنهم أحسن أهل بلاد العرب على الإطلاق في مكارم الأخلاق؛ وليس ذلك بعجيب فمجاورتهم للسيد الرسول أكسبتهم كثيراً من أخلاقه الكاملة. على أن من يفكر في أن الرسول عليه الصلاة والسلام إنما اختص أهل المدينة بالهجرة إلى بلدهم، يحكم حكماً

قطعيًّا بأن مكارم الأخلاق فيهم من زمن بعيد، وقد زادها الإسلام جمالاً على جماها وكمالاً على كمالها. وحسبك أن السيد الرسول بعد أن أدى مأموريته من إظهار الدعوة ونشر راية الدين الإسلامي وتقوية دعائمه، بحال لا يدخل معها الوهن إلى أي جانب من جوانبه، أظهر في حجة الوداع أنه لا يريد الموت إلا بين ظهراي الأنصار الذين نرى اليوم من خَلَفهم على سنتهم رضي الله عنهم أجمعين.

محمد رسول الله

هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم. ولد صلى الله عليه وسلم بمكة، في دار أبي يوسف المشهورة الآن بمولد النبي، بعد قدوم أصحاب الفيل بخمسين يومًا على الأصح، ويوافق ذلك ثمانياً خلون من شهر ربيع الأول سنة (٥٤ قبل الهجرة). وكان أبوه عبد الله غائباً بجهة يثرب ومات ودُفن فيها ولم ير ولده. وأما أمه فهي آمنه بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن حكيم بن مرة بن كعب.

وفي السنة الأولى من مولده تسلمته حليلة السعدية لترضعه، فذهبت به إلى قومه في البادية وكانت تغنيه بقولها:

الحمد لله الذي أعطاني هذا الغلام الطيب الأردان
قد ساد في المهد على الغلمان أعيذه بالبيت ذي الأركان

ومكث صلى الله عليه وسلم عند حليلة إلى السنة الرابعة من عمره؛ فردته إلى أمه وفيها ذهبت به إلى أخواله بني النجار بالمدينة. فماتت بالطريق بمكان يقال له: الأبواء. وقدمت به أم أيمن إلى مكة، فكفله جده عبد المطلب، وكان يحبه حباً جماً لشدة ذكائه، وفرط نباهته، وقويم سيرته، وعظيم أدبه، ولما كان يتوسمه فيه من رفيع المنزلة وكبير المستقبل. ولما كان عمره صلى الله عليه وسلم ثمان سنين مات عبد المطلب، فكفله عمه أبو طالب وضمه إليه، وخرج به إلى الشام وهو في الثالثة عشرة من عمره، ومن ذلك الحين أخذت تظهر للناس مواهبه وجلائل صفاته، مما كان داعية إلى احترامهم إياه وإجلالهم لقدرة. ولما بلغ الخامسة والعشرين خرج إلى الشام في تجارة لخديجة بنت خويلد

مع غلامها ميسرة، وعاد إليها بربح عظيم كان برهاناً جديداً على صدقه وأمانته. فلما رأت ذلك خديجة خطبته إلى نفسها. وكانت أعظم نساء قريش فضلاً وأكثرهن مالاً وأوسطهن نسباً؛ لأنها بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن حكيم. فتزوج بها في هذه السنة ولم يتزوج عليها في حياتها. ومات رضي الله عنها بعد خمس وعشرين سنة من زواجها منه، وقد ولدت له: القاسم والطيب والطاهر ورقية^(١) وأم كلثوم^(٢) وزينب^(٣) وفاطمة^(٤). ولم يكن له أولاد من غيرها إلا إبراهيم^(٥)؛ فإنه من مارية القبطية، التي دخل بها سنة سبع للهجرة.

أمّا صفته صلى الله عليه وسلم فقد قال عليٌّ فيها ما نصه:

-
- (١) «أم كلثوم ورقية» كانتا زوجتا عتبة وعتيبة ابني أبي لهب فطلقاهما. فتزوجهما عثمان بن عفان واحدة بعد الأخرى. أما زينب فكانت تحت أبي العاص بن الربيع. وتوفيت رقية سنة (٢)، وزينب سنة (٨)، وأم كلثوم سنة (٩) للهجرة.
- (٢) «أم كلثوم ورقية» كانتا زوجتا عتبة وعتيبة ابني أبي لهب فطلقاهما. فتزوجهما عثمان بن عفان واحدة بعد الأخرى. أما زينب فكانت تحت أبي العاص بن الربيع. وتوفيت رقية سنة (٢)، وزينب سنة (٨)، وأم كلثوم سنة (٩) للهجرة.
- (٣) «أم كلثوم ورقية» كانتا زوجتا عتبة وعتيبة ابني أبي لهب فطلقاهما. فتزوجهما عثمان بن عفان واحدة بعد الأخرى. أما زينب فكانت تحت أبي العاص بن الربيع. وتوفيت رقية سنة (٢)، وزينب سنة (٨)، وأم كلثوم سنة (٩) للهجرة.
- (٤) ولدت فاطمة سنة (٨) قبل الهجرة، ودخل علي بها في السنة الأولى، وولدت الحسن سنة (٣)، والحسين سنة (٤)، وتوفيت سنة (١٢هـ).
- (٥) ولد إبراهيم سنة (٥هـ).

لم يكن رسول الله بالطويل الممغط^(١) ولا بالقصير المتردد^(٢)، وكان ربعة من القوم، ولم يكن بالجعد ولا بالسبط، ولم يكن بالمطهم^(٣) ولا بالمكثم^(٤)، أبيض مُشرب (بحمرة)، أدعج العينين^(٥)، أهدب الأشفار^(٦)، جليل المشاش^(٧)، والكتد^(٨)، أجرد^(٩) ذو مسربة^(١٠)، شثن الكفين والقدمين^(١١)، إذا مشى تَقْلَع^(١٢) كأنها ينحط عن صَبَب^(١٣)، أجود الناس صدرًا^(١٤)، وأصدقهم لهجة وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة، ومَن رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه، يقول ناعته: لم أر قبله ولا بعده مثله.

وعاش صلى الله عليه وسلم بين قريش عاقلًا حكيماً، شجاعاً كريماً، برّاً رحيماً، كثير التقوى والزهد والورع، بعيداً عن كل ما يؤخذ على الناس في سيرتهم، صادقاً في قوله وفعله، عظيم الهمة، كبير المروءة؛ لذلك كان له في

(١) كثير الطول.

(٢) المتناهي في القصر.

(٣) الكثير السمن.

(٤) مدور الوجه تدويراً تاماً.

(٥) واسع العينين مع شدة سوادهما.

(٦) طويل شعر الجفون.

(٧) عظيم رءوس العظام.

(٨) مجتمع الكتفين.

(٩) قليل الشعر.

(١٠) شعر بين الصدر والسرّة.

(١١) سمين الكفين من غير قصر.

(١٢) رفع رجليه.

(١٣) منحدر.

(١٤) لا يضمن بعلمه وفضله.

قومه منزلة كلها إكبار وإعظام. وكانت قريش ترجع إليه في مشورتهم، ويرضون بحكمه فيهم، حتى أطلقوا عليه اسم الصادق الأمين.

ومع أنه كان أميًا (لا يقرأ ولا يكتب)، فقد كان ذكيًا بليغًا فصيحًا جرت كلماته مجرى الأمثال، وأخذت عباراته بمقاليد الحكمة، وخصوصًا بعد الإسلام. وإنا لنذكر لك شيئًا منها، حتى ترى ما فيها من كبير معناها، وعظيم مغزاها، مع قلة ألفاظها، مما هو مذكور بكتب الحديث والسير والأدب:

«اليد العليا خير من اليد السفلى. ترك الشر صدقة. ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء. الدال على الخير كفاعله. كل معروف صدقة. حبك الشيء يعمي ويصم. البلاء موكل بالمنطق. الحرب خدعة. رأس الحكمة مخافة الله. ابدأ بمن تعول. فضل العلم خير من فضل العباداة. المرء كثير بأخيه. إنما الأعمال بالنيات. الغنى غنى النفس. الحياء خير كله. الناس معادن كمعادن الذهب والفضة. لا خير لك في صحة من لا يرى لك ما يرى لنفسه. ما أملق تاجر صدق. خير الأمور أوسطها. ما قلّ وكفى خير مما كثر وألهى. أقبلوا عثرات الكرام. كادت الفاقة تكون كفرًا. اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا...» إلخ إلخ.

بجلال هذه الصفات كان عليه الصلاة والسلام مستعدًا بطبعه إلى ما أكرمه الله به من النبوة وهو في سن الأربعين؛ فأخذ ينزل عليه الوحي شيئًا فشيئًا بما تدرج معه إلى احتمال هذا الناموس الأعظم.

وكان الناس قبل الإسلام مختلفين فيما بينهم متفرقين في عصبياتهم ودياناتهم، متغايرين في شرائعهم: كثرت فيهم فروع الصابئة، والمجوسية، والوثنية، والبراهمة، والبوذية، وتعددت الفرق في الديانات السماوية فانقسمت

اليهودية إلى ربانيين وقرائين وسامريين وغيرهم. وافترقت النصارى إلى ما لا يحصى من الفرق التي منها اليعقوبية والنسطورية والأريوسية والأرثوذكسية؛ فكان من ذلك الانقسام العام في المسائل الاجتماعية والأمور الحيوية. فأدى ذلك إلى انحلال أجزاء الإمبراطورية الرومانية، واختلال أعضاء المملكة الفرسية؛ لكثرة ما كان يقوم في داخليتها من المجادلات التي كانت تؤدي إلى شديد المخاصمات. وبذلك استعدت النفوس إلى شريعة جديدة توحد بين جميع هذه العناصر في معتقداتها ومعاملاتها: فأرسل الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافة، بدينه المتين، وقرآنه المبين. وما زال يجاهد في سبيل بناء هيكل الإسلام بثبات جأش وصبر لا يعرف الملل، محتملاً في ذلك تلکم الإهانات التي كان يلقاها من قومه، حسداً منهم له، أو أنفة من دخولهم في دائرة قيود هذا الدين الجديد، وقد كانوا يعيشون طول أدوار حياتهم لا تجمعهم إلا كلمة الفوضى، ولا يحوطهم غير سياج الحرية المطلقة.

وما زال فيهم صلى الله عليه وسلم بثباته، وحسن بصيرته، وكبير حلمه، مع ما كان له فيهم من حرمة لشخصه وإجلالهم لصفاته التي لم ير وافيها من نعومة ظفره صغيرة يأخذونه بها أو يحاسبونه عليها، فأمن به نفر هاجروا^(١) معه إلى المدينة ووضعوا أيديهم في يد الأنصار، وما برحوا ينصرونه في جميع مواقفه على أعدائه، حتى انتهى أمرهم بتصديقه والإيمان بما أتى به من عند الله، وأهم هذه المواقع كانت غزوة بدر الكبرى في السنة الثانية من الهجرة، وأحد في الثالثة، والخنق في الخامسة، وخيبر في السابعة، وفتح مكة وغزوة حنين في الثامنة، وغزوة تبوك في التاسعة. ومن هذه المواقع تعلم المسلمون منه صلى

(١) كان عمره صلى الله عليه وسلم وقت الهجرة (٥٤ سنة) وهاجر معه صاحبه أبو بكر وحده إلى المدينة، ثم استرسل الناس في هجرتهم إليها.

الله عليه وسلم تعبئة الجيوش، وسياسة الحروب، والثبات في ساحات النزال، والشجاعة النفسانية في جميع المواقف، والصبر على الشدائد حتى هابهم الناس وأكبروا منزلتهم.

وما زال رسول الله صلى الله عليه وسلم يناهض أهل جزيرة العرب في سيرهم، ويكافحهم في تقويم أخلاقهم وتربية نفوسهم، حتى نشأت فيهم أخلاق جديدة، وآراء سديدة، وآمال بعيدة، وصلوا بها في أيام قليلة إلى ضم عروش الأكاسرة والقيصرة إلى عرشهم، الذي إنما كان حجرًا بسيطًا في هيكل ملكهم وبنيان سلطانهم.

واستمر رسول الله بين المهاجرين والأنصار يسلك بهم سبيل الفضائل، ويبعد بهم عن طرق الرذائل، وينفرهم مما كان فيهم من العوائد الشنيعة التي تخالف نظام الإنسانية: كوأد البنات، وشرب الخمر، وقتل النفس بغير حق والاستقسام بالأزلام، وعبادة الأصنام، ولعب الميسر، والكذب، والنفاق، والرياء، وغصب مال الغير، وسوء معاملة المرأة، وعدم الرفق بالرفيق، حتى فشا فيهم محبة البنات، ونبذوا المسكرات، وعرفوا معنى الحياة، ودانوا بالتوحيد، ووقرت في نفوسهم فضيلة الصدق والصراحة والرحمة. وما زال فيهم صلى الله عليه وسلم يعلمهم الشجاعة النفسانية والأدبية، ويسمو بنفوسهم إلى منازل الحياة الحقيقية، حتى عظمت فيهم الآمال، ومالوا إلى جلائل الأعمال، في خدمة الإنسانية، التي جاء دينهم لنصرتها والنهوض بها من وهبتها، وإعلاء كلمتها، والوصول بها إلى الغاية التي خلقت من أجلها؛ فكثرت بينهم المعاملات التي أدت إلى وضع نظام تشريعي سماوي، كان ينزل عليه في ظروف مخصوصة كلما اقتضت الحال، مما هو في القرآن المجيد. وكان عليه الصلاة والسلام يشرع للناس فيما لم يصل إليه به وحي، مما هو مجموع في

كتب الحديث؛ فكان من ذلك شريعة قويمه متينة تناسب كل زمان ومكان، لا يعترها الباطل من أي جهة من جهاتها. وحسبنا دليلاً على ذلك أن «نابليون بونابرت» استمد منها القانون الفرنسي الذي هو روح التشريع الحديث في أوروبا بأجمعها، وإلى كتب الشريعة الإسلامية الآن ترجع قضاة أوروبا ومشروعهم في كثير من الأمور التي لم ينص عليها في قوانينهم. فكان بذلك صاحب هذه الشريعة الغراء أكبر رجل في الخليقة خدم الإنسانية خدمة لا ينكرها إلا كل لئيم أو كاذب.

عرف صلى الله عليه وسلم أنه ليس للوصول إلى هذه الخدمة سبيل إلا بمحاربة أعدائها، فكتب إلى رءوس الأمم التي تحيط ببلاده منهم ملوك الروم، والفرس، ومصر، واليمن، والحبشة، يدعوهم إلى الإسلام، ويطلب منهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى تسجلت على الناس دعوته. ثم ابتداءً يأخذ أهفته ضد من لم يقبل رسالته. فدانت له بلاد العرب من أدناها إلى أقصاها، وصالحه على الجزية كثير من الأمم التي في شهاها شرقاً وغرباً. وفي السنة العاشرة من الهجرة كانت الأمة العربية استعدت إلى النهوض بدين الله ونشره في جميع الآفاق، وتمت بذلك مأموريته صلى الله عليه وسلم، فحج حجة الوداع، وسجل دعوته على المؤمنين في خطبته بها^(١) في عرفة. ثم رجع إلى المدينة، وفي أواخر صفر اعتل جسمه صلى الله عليه وسلم، وقبضه الله إليه في يوم (١٢) شهر ربيع الأول سنة إحدى عشرة للهجرة)، ودُفن في بيته حيث هو الآن بمسجده الشريف، صلوات الله عليه وسلامه.

(١) كانت خطبة الوداع في يوم الجمعة، وفي هذا اليوم نزل قوله تعالى: {اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً}. وهذا هو سبب اهتمام الناس بالحج في السنين التي يصادف الوقوف فيها يوم الجمعة. وقد ورد في فضل الحج بالجمعة أحاديث كثيرة.

أبو بكر

هو عبد الله بن أبي قحافة بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم ابن مرة بن كعب. وفي مرة يجتمع نسبه برسول الله صلى الله عليه وسلم، وُلد بعد عام الفيل بثلاث سنين.

أمّا صفته فهي كما وصفته ابنته عائشة: «كان أبيض، نحيفاً، خفيف العارضين، أجناً^(١)، لا يستمسك إزاره يسترخي عن حقويه، معروق^(٢) الوجه، غائر العينين، ناتئ^(٣) الجبهة، عاري الأشاجع^(٤)».

وكان تاجراً، وعرف قبل الإسلام بزهده، وورعه، وتواضعه، وسعة خلقه، وصدقه، وابتعاده عن المنكر، حتى أنه لم يشرب الخمر مطلقاً في حياته. فلما جاء الإسلام ورأى أنه دين الحق لم يكن لنفسه سلطان عليه، فكان أول مصدق من الرجال برسالة صديقه محمد صلى الله عليه وسلم.

ولما أسلم أخذ ينصر رسول الله ويساعده ويدعو الناس إلى دينه، فنقمت عليه قريش وأخرجته من مكة. فأراد الهجرة إلى الحبشة، فلقيه ابن الدغنة، وهو سيد القارة، وعاد به إلى قريش، وقال لهم: كيف تخرجون رجلاً يُكسب المعدوم، ويصل الرحم، ويحمل الكل، ويُقري الضيف، ويعين على نوائب الحق، فاتركوه يعبد الله في داره. فقبلوا منه ذلك على أنه لا يجتمع بمحمد صلى الله عليه وسلم. وأتى ابن الدغنة أبا بكر فأخبره بذلك وقال له: إما أن تقتصر

(١) منحنيًا.

(٢) قليل اللحم.

(٣) بارز.

(٤) الأشاجع: أصول الأصابع التي تتصل بظهر الكف.

في دارك، وإما أن ترد ذمتي؛ فإني لا أحب أن تسمع العرب أي أخفرت في عقد رجل عقدت له. فقال أبو بكر: «إني أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله تعالى ورسوله». ومكث رضي الله عنه بمكة، وما زال ينصر رسول الله بنفسه وماله حتى هاجر معه إلى المدينة، مع ما كان يحدق بهما من خطر أولئك الذين كانوا يناوئون الرسول، وينبذون طاعته، وينكرون رسالته ويظهرون عداوته. وما زال ابن أبي قحافة بالمدينة قائماً بنصرة صاحبه مختصاً بصداقته، حتى مرض رسول الله مرض الموت، فأمره بالصلاة بالمؤمنين. ولما توفي صلى الله عليه وسلم هلع المسلمون وهالهم الأمر، فقام فيهم خطيباً وقال في كلام له: «من كان يعبد محمداً فمحمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فالله حي لا يموت». ثم تلا قوله تعالى: {وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً}. فسكن روع الناس وثابوا إلى رشدهم واحتملوا مصيبتهم في نبيهم. ثم بايعه الناس في «سقيفة بني ساعدة» فخطب فيهم قائلاً: «قد وليت عليكم ولست بخيركم؛ فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني».

وقام أبو بكر في حكمه بأمر المسلمين خير قيام. وكان رضي الله عنه في خلافته أزهد الناس وأورعهم وأتقاهم. وكان يلبس الشملة والعباءة، حتى أنه لما وفد عليه زعماء العرب وملوك اليمن ومنهم ذو الكلاع الحميري، وعليهم الحلل المقصبة والبرود المذهبة أكبروه وهابوه وذهبوا مذهبه. وارتدت العرب في أول خلافته عن الإسلام فراراً من قيوده التي ساوت بين الكبير والصغير، والسوقة والأمير. فجرد لهم عزيمة واستنفر الناس عليهم وحاربهم بثبات متين وجأش رابط، حتى أرجعهم إلى دين الله ورسوله. وبعدما فرغ من حرب أهل الردة سير خالد بن الوليد إلى العراق من أدناه، وعياض بن غنم من أعلاه،

وأمرهما أن لا يضرا بسواده ولا بفلاحيه؛ فسار خالد ووقعت له واقعة الحفير المشهورة قرب البصرة، وانتصر فيها على جيوش الفرس بعد أن قتل رئيسهم هرمز، ثم قصد الحيرة فصالحه أهلها على الجزية، ثم سار إلى الأنبار وصالح أهلها على ما صالح به أهل الحيرة، واستخلف عليها الزبرقان بن بدر. وسار إلى عين التمر فالتقت به جيوش العجم فهزمهم وسبى من كان به، وفي جملتهم نصير أبو موسى فاتح الأندلس. ثم سار إلى دومة الجندل وأخذها عنوة. وما زال ينتقل فاتحاً منصوراً من بلد إلى بلد حتى وصل إلى تخوم الشام، فاجتمعت عليه الروم وعرب باديتها، فنصره الله عليهم، ثم رجع إلى الحيرة ومنها إلى مكة لأداء فريضة الحج.

أمّا عياض فإنه اخترق بفتوحاته بلاد كردستان وأرمينية، ثم انضم بأمر عمر إلى جيوش أبي عبيدة في حصاره لدمشق لأهميتها وحصانة موقعها.

ولما كثر الفئ على المسلمين أنشأ «أبو بكر» بيت المال وجعل عليه أبا عبيدة، وجعل على القضاء عمر بن الخطاب، وعلى الحرب خالد بن الوليد، وكان يكتب له علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان وزيد بن ثابت.

وفي سنة (١٣ هجرية) بعث أبو بكر البعوث إلى الشام فعقد لواء إلى يزيد بن أبي سفيان وكان يحمله له أخوه معاوية، ثم عقد لواء آخر إلى أبي عبيدة بن الجراح، ولواء لشرحبيل بن حسنة، ولواء لعمر بن العاص. فاجتمعوا في اليرموك ووقعت لهم فيها واقعة كبيرة مع جنود الروم الذين أحاطوا بهم من كل جانب. وكان أبو بكر أمدهم بخالد بن الوليد ونصرهم الله في هذه الواقعة نصراً مبيناً. ثم سار كل لواء إلى جهة من جهات الشام، وسار خالد وأبو عبيدة إلى دمشق وحاصروها. وفي أثناء حصارهم وصلهم كتاب عمر بموت أبي بكر، وفيه عزل خالد عن الجيش وتأمير أبي عبيدة عليه.

وكان أبو بكر رضي الله عنه جليل الصفات، قدوة في مكارم الأخلاق، كثير الزهد، وكان يعيش بالكفاف؛ وحسبك ما ورد من أن امرأته اقتصدت من قوت عائلتها ما كان منه في عدة أيام قدر يسير من الدقيق، وأرادت أن تشتري به شيئاً من الحلوى، فلما علم به أبو بكر أمر فأعيد إلى بيت المال لأنه فضل عن قوت عائلته، وأسقط من نفقته بمقدار ما نقصت كل يوم. وكانت هذه النفقة تصرف إليه من بيت مال المسلمين؛ لأنه ترك تجارته لتفرغه للاشتغال بأمرهم. وكان مرتبه (٢٥٠ ديناراً) في السنة وشاة غير كاملة كل يوم. فلما وجد المسلمون أن ذلك لا يكفي عائلته أكملوه إلى (٣٠٠ دينار) في السنة مع شاة بأكملها كل يوم. أما سيرته مع المسلمين ورفقه بهم وحسن سياسته فيهم وتعهده لمصالحهم؛ فمما لا يفضل فيه راع مع رعيته. وكان رضي الله عنه كثير النصح لعماله بالأناة في أعمالهم، والابتعاد بالناس عن مواقف الفتن، والتعفف عما في أيديهم. وأفضل ما يذكر في تاريخه اهتمامه بجمع القرآن من صدور الحفاظ، ومن بعض الصحف قبل أن يدخل عليه تغيير أو تبديل؛ والسبب في ذلك أن عمر ذهب إليه وقال له: «إن القتل قد استحرَّ يوم اليمامة بالناس، وإني لأخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن؛ فيذهب كثير من القرآن إلا أن يجمعه، وإني لأرى أن يجمع القرآن». ورأى أبو بكر رأي عمر، فقال لزيد بن ثابت: «قد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتتبع القرآن فاجمعه». فجمعه زيد من الرقاع وصدور الرجال، وكانت الصحف التي جمع فيها القرآن عند «أبي بكر» حتى توفاه الله، ثم عند «عمر» حتى قابل ربه، ثم حُفظت عند «حفصة بنت عمر».

وما زال أبو بكر رضي الله عنه قائماً بأمر المسلمين حتى مرض في أوائل جمادى الآخرة سنة (١٣هـ). فأمر علياً يصلي بالناس، ومات رضي الله عنه في

يوم (٢٨) من الشهر المذكور، بعد أن عهد إلى «عمر» بالخلافة من بعده، ودُفن إلى جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكانت ولايته ستين وثلاثة أشهر وعشرة أيام. وكان له من البنين: عبد الله، وعبد الرحمن ومحمد. ومات «عبد الله» في خلافته فخلف سبعة دنائير فاستكثرها عليه. وكان له من البنات: أم كلثوم وعائشة^(١) أم المؤمنين رضي الله عنها.

(١) دخل بها رسول الله صلى الله عليه وسلم في السنة الأولى للهجرة، وماتت رضي الله عنها سنة (٥٨) منها.

عُمَرُ

هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن قُـرط بن رباح ابن عبد الله بن رداح بن عدي بن كعب. وفيه يجتمع نسبه مع النبي صلى الله عليه وسلم، وكنيته «أبو حفص»، ويلقب بالفاروق، وهو أول من سمي بـ«أمير المؤمنين». وكان أعسر يسر (يعمل بكليتي يديه)، طويلًا، أصلع، ولونه شديد السمرة. ولد رضي الله عنه سنة أربعين قبل الهجرة. وكان في صغره يرعى الغنم لأبيه، ثم اشتغل بالتجارة وسافر جملة مرات في الجاهلية إلى الشام وغيرها في تجارته أو سفارته لقومه. وقد ذكر «ابن عساكر» أنه أسر في بعض أسفاره بدمشق، فتخلص من أسره وفر إلى مكة. وكان شجاعًا مهيبًا، بعيد النظر في الأشياء، مشهورًا بالصدق والأمانة والشهامة الأدبية، شديدًا في قوله وعمله. وكان في أول الإسلام من أشد الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأسلم قبل الهجرة بأربع سنين. وكان أسلم قبله تسعة وثلاثون نفرًا كانوا في أشد ما يقاسونه من قريش، وقد هاجر كثير منهم إلى الحبشة وغيرها. ومن كان منهم بمكة كان يستخفي عن الناس، وكان المسلمون يجتمعون سرًا في دار الأرقم المخزومي تحت الصفا، فقال عُمَرُ للنبي صلى الله عليه وسلم: «يا رسول الله، علام نخفي ديننا ونحن على الحق وهم على الباطل؟!». فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنا قليل، وقد رأيت ما لقينا». فقال عمر: «والذي بعثك بالحق لا يبقى مجلس جلست فيه بالكفر إلا جلست فيه بالإيمان». ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في صفين من المسلمين؛ حمزة في أحدهما وعُمَرُ في الآخر حتى دخلوا المسجد. فنظرت قريش إلى حمزة وعُمَرُ فأصابتهم كآبة

شديدة، ومن يومئذ سمّا رسول الله صلى الله عليه وسلم بـ«الفاروق» لأنه بإظهاره للإسلام فرّق بين الحق والباطل.

ومن ثم أخذ المسلمون -وفي مقدمتهم عمر- ييثون في الناس دينهم، وينشرون فضله علانية ويكافحون قريشاً غير مباليين بما كانوا يصادفونه منهم من الإهانات وسوء المعاملات، حتى أذن الله رسوله بالهجرة. فهاجر الناس مختلفين إلا «عمر» فإنه لما همّ بالهجرة -وكان خامس من هاجر إلى المدينة- تقلّد سيفه وتنكب قوسه وأخذ في يده أسهماً ومضى إلى الكعبة، ورجال قريش في فنائها، فطاف بالبيت سبعاً، ثم أتى المقام فصلى، ثم وقف على الناس وقال: «شاهت الوجوه لا يرغب الله إلا هذه المعاطس. من أراد أن تشكله أمه ويؤتم ولده ويرمل زوجه فليلقني وراء هذا الوادي» فما تبعه أحد إلا قوم من المستضعفين علمهم وأرشدهم، ومضى لوجهه.

ومكث عمر مع رسول الله في المدينة صادقاً في صحبته، أميناً في خدمته، متفانياً في نصرته، متشددًا في تأييد دعوته، حتى إذا بلغته وفاة رسول الله صلوات الله عليه، وضج الناس لهول هذه المصيبة، جزع من صدمة هذه النائبة جزعاً شديداً. ولكنه لم يلبث أن ثبته الله تعالى وذهب بأبي بكر إلى سقيفة بني ساعدة، وكان قد اجتمع فيها الأنصار يريدون خليفة منهم، فمدّ عمر يده إلى أبي بكر وبايعه، وتبعه المسلمون حتى تمت له البيعة. وما زال عمر لأبي بكر صاحباً متيناً ومشيراً أميناً وناصرًا معيناً حتى مات أبو بكر بعد أن عهد بالخلافة إليه. فلما بايعه المسلمون صعد المنبر وجلس حيث كان يضع أبو بكر قدمه تواضعاً، وخطب الناس وقال في خطبته: «أيها الناس، من رأى فيّ منكم اعوجاجاً فليقومه». فقام رجل وقال: والله لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه

بسيوفنا. فقال عُمر: «الحمد لله على أن في أمة محمد من يقوم اعوجاج عُمر بسيفه».

ابتدأ عمر عمله في الخلافة باهتمامه بإجلاء المشركين عن جزيرة العرب بعد أن عوضهم عن أملاكهم بما يزيد عن قيمتها؛ لأنه كان يخشى وقوع الفتنة منهم بين المسلمين. وكان قد أرسل بعزل خالد بن الوليد عن إمارة الجيش في الشام؛ لأنه كان يوجس منه خيفة. وأقام بدله أبا عبيدة في إمارته، وأشار عليه بالاهتمام بفتح دمشق لأنها حصن الشام وبيت مملكتهم. فسار إليها مع خالد وحاصرها بعد أن أقفل طرقها في وجه من يأتي لمددها. وكان معها عياض بن غنم وعمرو ابن العاص والقعقاع بن عمرو وشرحبيل بن حسنة. وكان كل واحد منهم على جهة، وأبلوا جميعاً في حصارها بلاءً حسناً. وانتهى أمرها بأن فُتحت من الجهة التي فيها ابن الوليد؛ لأنه استغفل الحرس وتسلق السور ليلاً مع بعض رجاله وفتح الباب لجنود المسلمين، وكان ذلك في أواخر سنة (١٣ للهجرة). ومن ثم أخذت جيوشهم تفتح ما حولها من البلاد؛ ففتحت بعلبك وحمص وما والاها شمالاً من بلاد السواد. ثم فتحوا بلادها غرباً إلى بيروت. وسار عمرو بن العاص جنوباً إلى بيت المقدس فاتحاً لجميع ما في طريقه من البلاد، وشدد الحصار على أهلها فقالوا له: إنا لا نرضى بفتح غير ابن الخطاب. فكتب له فحضر إلى الجابية -وهي قرية من أعمال دمشق- وقابله فيها أمراء الجند منهم: أبو عبيدة وخالد ويزيد ابن أبي سفيان وابن العاص. وهناك وفد عليه وفد إيلياء وقالوا له: إنهم نواب في الصلح عن قومهم، فكتب لهم عهداً بذلك، وجعل عليها علقمة بن مجر، ثم سار إليها ودخلها ليلاً وبني مسجد الصخرة وجعل قبلته إلى الكعبة بعد أن طهره مما تراكم به من القمامة التي كانت الروم تلقيها عليه، ثم عاد إلى المدينة، وكان ذلك في سنة (١٦هـ).

واستمر أبو عبيدة في الفتح؛ ففتح حماة واللاذقية وقنسرين وحلب وأنطاكية. وفي سنة (١٧هـ) دانت للمسلمين بلاد سوريا والشام وجنوب الأناضول من أقصاها إلى أدناها. فأخذوا يرتبون أمور البلاد في داخليتها، ويضعون لها نظاماً في حكومتها. ولكن قيصر الروم لم يشعته وجمع جنوده وجمع قوته وهاجمهم من جهة قنسرين في جيش هائل؛ إلا أنه لم يلبث أن انهزم مدحوراً وغنم المسلمون سلب جيشه، وبهذه الموقعة قضى على حكم الروم في هذه البلاد. وسار ابن العاص إلى مصر فتم له فتحها في سنة (٢٠) وأقام فيها يرتب أمورها وينظم أحوالها وسير منها نفراً من قومه إلى برقة وبلاد النوبة فافتتحوها.

هذا ما كان من فتح الشام ومصر. أما ما كان من فتح العراق، فإن عمر رضي الله عنه كان سير إليها أبا عبيد الثقفي، فسار حتى عبر الفرات بمن معه من المسلمين، وهناك حصلت بينه وبين الفرس واقعة عظيمة استشهد فيها أبو عبيد في عدد كبير من قومه. فأرسل عمر سعد بن أبي وقاص في جند من المسلمين، فسار حتى وصل إلى القادسية؛ وهي مدينة في جنوب النجف بميل إلى الغرب. وكان موقعها فيما بين البادية وسواد العراق، وكان معه عدد عظيم ممن لحق به من المسلمين من الشام وغيرها، منهم النعمان بن مقرن وحنظلة بن الربيع التميمي والمغيرة بن زرارة والأشعث بن قيس وعاصم بن عمرو وعمرو بن معديكرب والمغيرة بن شعبة.

وهناك قابلهم رستم قائد جيوش الفرس بما لا يحصى من الجنود. فحصلت بينه وبينهم جملة وقائع أبلى فيها الطرفان بلاء عظيمًا، وكانت نتيجتها قتل رستم وانهزام الفرس، ودخل سعد القادسية سنة (١٥هـ). ثم سار منها إلى المدائن؛ وهي عاصمة الأكاسرة، وموقعها على دجلة على مرحلة من الجنوب

الغربي لبغداد، ويسمىها الإفرنج اكتيزيفون (Ktesiphon) ويسمىها الفرس (بَهْرَسِير)، فحاصرها وافتتحها بعد شهرين، وهرب كسرى إلى حلوان ثم إلى أصفهان. وغنم المسلمون من خزائنه ما لا يحصى، وجعلوا إيوانه مسجداً، وكان ذلك في سنة (١٦هـ). وأقام سعد بالمدائن إلى سنة (١٧)، وفي غضون ذلك فتحت جنوده تكريت والموصل، ثم تحول إلى الكوفة بعد أن اختطها بأمر عمر. وجمع كسرى فل الفرس وشتاتهم إلى نهاوند، فلما بلغ عُمر ذلك سير النعمان بن مقرن في جيش من المسلمين، فأتى إليها وحصر الفرس فيها وقطع عليهم خط رجعتهم، وحصلت بينه وبينهم معركة تشيب لهولها الولدان، كانت دماء الناس فيها تجري في ساحة الوغى كأنها الأنهار، فزلق جواد النعمان فصرعه، فكتم أمره من عرف ذلك من المسلمين وثبتوا في قتالهم إلى الليل، فانهزمت جيوش الفرس وتشتت شملهم. وسار المسلمون في أثرهم حتى وصلوا همذان، فصالحهم أهلها على أن يكفوهم شر الفرس من جهتهم، وهرب يزدجرد ملك الفرس إلى بلاد التتار، ولا زال فيها حتى مات في خلافة عثمان. وفي واقعة نهاوند قتل كثير من عظماء المسلمين: منهم طليحة الأسدي وعمر بن معديكرب الزبيدي.

بعدما استقر أمر المسلمين في بلاد الفرس أرسل سعد بعياض ابن غنم إلى الجزيرة، وكانت جنود الروم قد اجتمعت في أعلاها، فافتتح بلادها إلى حدود كردستان وأرمينية شرقاً، وبلاد الشام غرباً، وكسر جنود الروم ومزقهم كل ممزق، ثم عاد إلى حمص فمات بها رضي الله عنه.

وكان عمر قد سير «عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي» سنة (١٨) إلى فتح أرمينية وعزره بسلطان أخيه من جهة، وبحبیب ابن مسلمة الفهري من جهة أخرى. فساروا حتى وصلوا بالفتح إلى شمال جبال القوقاز. وبعد أن ضربوا

الجزية على أهل هذه البلاد انجلوا عنها إلى الجنوب؛ خوفاً مما كانت تستلزمه سعة أطرافها وثغورها من كثرة الجند والمرابطة وما كانوا يخشونه من تجمع جيوش الروم عليهم في هذه النواحي القاصية.

ولما دانت للمسلمين بلاد الفرس والعراق والجزيرة والشام وسوريا ومصر وبرقة والنوبة، أخذ عمر في تقوية ثغورها، وتنظيم داخليتها، وترتيب مالياتها، وربط خراجها، ووضع جزيتها؛ فدوّن الدواوين، ووضع السجلات لضبط حسابات كل مصر وأعطيائها، وقيد محرراتها. وجعل للحسبة ديواناً يفتش على أعمال التجار حتى تكون الناس في أمن من غشهم، وضرب النقود من الدراهم^(١) الفرسية وعلى نقشها (سنة ١٨ هـ) وزاد على بعضها: «الحمد لله»، وعلى الآخر: «محمد رسول الله». وكان رضي الله عنه ينتخب للولايات العمال من أحسن الرجال، ورتب البريد بينهم وبينه يوافونه بأمورهم ويوافيهم برأيه فيها. وكان قبل قيام البريد من الجهات ينادي المنادون فيها: «من كانت له إلى أمير المؤمنين شكوى فليرفعها إليه، فإن البريد قائم من غده». وكان رضي الله عنه لا يعين في القضاء إلا أكثر الناس ورعاً وزهداً، وأعلمهم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. وكان على قضائه أبو موسى الأشعري، ولما ولاه القضاء كتب له الكتاب الآتي:

«بسم الله الرحمن الرحيم، أمّا بعد؛ فإن القضاء فريضة محكمة، وسنة متبعة، فافهم إذا أدلي إليك، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له. آس بين الناس في مجلسك ووجهك وعدلك، حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا يئس ضعيف من عدلك. البينة على من ادعى، واليمين على من أنكر، والصلح جائز

(١) لأن الدنانير لم تضرب في الإسلام إلا في عهد عبد الملك بن مروان.

بين المسلمين؛ إلا صلحاً حرم حلالاً أو أحل حراماً. ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس راجعت فيه نفسك وهديت فيه لرشدك أن ترجع عنه، فإن الحق قديم ومراجعة الحق خير من التماذي في الباطل. الفهم الفهم فيما يتلجلج في صدرك مما لم يبلغك في كتاب الله ولا سنة النبي صلى الله عليه وسلم. اعرف الأمثال والأشباه، وقس الأمور عند ذلك، ثم اعمد إلى أجلها إلى الله وأشبهها بالحق. واجعل للمدعي حقاً غائباً أو بينةً حدّاً ينتهي إليه، فإن أحضر بيته أخذت له بحقه، وإلا وجهت عليه القضاء، فإن ذلك أنفى للشك وأجلى للعمى وأبلغ للعدو. المسلمون عدول بعضهم على بعض؛ إلا مجلوداً في حدٍّ، أو مجرباً عليه شهادة زور، أو ظنياً في ولاء أو قرابة؛ فإن الله قد تولى منكم السرائر ودرأ عنكم بالبينات والأيمان. إياك والقلق والضجر، والتأذي بالناس، والتنكر للخصوم في مواطن الحق التي يوجب الله بها الأجر، ويحسن بها الذخر، فمن صحت نيته وأقبل على نفسه يكفه الله ما بينه وبين الناس، ومن تزين للناس بما يعلم الله خلافه منه، هتك الله ستره وأبدى فعله، والسلام.

وكتب إلى معاوية وهو عامله على الشام:

«بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد؛ فإني لم آلك في كتابي إليك ونفسي خيراً. إياك والاحتجاب، وائذن للضعيف وأذن له حتى تبسط لسانه وتجري قلبه، وتعهد الغريب فإنه إذا طال حبسه وضاق إذنه ترك حقه وضعف قلبه، وإنما ترك حقه من حبسه. واحرص على الصلح بين الناس ما لم يستتب لك القضاء. وإذا حضرك الخصمان بالبيئة العادلة والأيمان القاطعة فامض الحكم».

وكتب إلى أحد العمال: «اجعلوا عندكم الناس في الحق سواء، قريبهم كبعيدهم، وبعيدهم كقريبهم. إياكم والرشاء والحكم بالهوى، وأن تأخذوا الناس عند الغضب. فقوموا بالحق ولو ساعة من نهار».

وكتب إلى سعد وهو بشراف يريد العراق وحرب الفرس مانصه:

«أما بعد؛ فسر من شراف نحو فارس بمن معك من المسلمين، وتوكل على الله واستعن به على أمرك كله. واعلم فيما لديك أنك تقدم على أمة عددهم كثير، وعدتهم فاضلة، وبأسهم شديد، وعلى بلدٍ منيع وإن كان سهلاً كثوده؛ لبحوره وفيوضه ودآدئه؛ إلا أن توافقوا غيضاً من فيض. وإذا لقيتهم القوم أو واحداً منهم فابدءوهم الشد والضرب. وإياكم والمناظرة لجموعهم. ولا يَخْدَعْنَكُمْ فإنهم خَدَعَةُ مَكْرَةٍ أمرهم غير أمركم؛ إلا أن تجادوهم. وإذا انتهيت إلى القادسية -والقادسية في باب فارس، وهي أجمع تلك الأبواب لمادتهم ولما يريدونه من تلك الأصل (النواحي)، وهو منزل رغب خصيب حصين، دونه قناطر وأنهار ممتعة فتكون مسالحك على أنقابها، ويكون الناس بين الحجر والمدر، على حافات الحجر وحافات المدر، والجِراع (الأرض الرملية) بينهم. ثم الزم مكانك فلا تبرحه؛ فإنهم إذا أحسوك انغضتكم، رموك بجمعهم الذي يأتي على خيلهم ورجلهم وحدهم وجدهم. فإن أنتم صبرتم لعدوكم واحتسبتم لقتاله ونويتم الأمانة، رجوت أن تنصروا عليهم، ثم لا يجتمع لكم مثلهم أبداً، إلا أن يجتمعوا وليست معهم قلوبهم. وإن تكن الأخرى كان الحجر في أديباركم، فانصرفتم من أدنى مدرة من أرضهم إلى أدنى حجر من أرضكم، ثم كنتم عليها أجراء وبها أعلم، وكانوا عنها أجبن وبها أجهل، حتى يأتي الله بالفتح ويريد لكم الكرة عليهم».

من الكتاب الأول ترى أن عمر رضي الله عنه كان من أكبر المشرعين، وكتابه هذا نظام تشريعي جمع بين كلماته القليلة روح التشريع القضائي، مما تراه مبسوطاً في مجلدات ضخمة. ومن كتابه الثاني والثالث ترى أنه من أبعد الناس نظراً في النظام الإداري. ومن الرابع ترى أنه أكثر الناس معرفة بأساليب

الحرب. وقلما تجتمع هذه المزايا كلها في شخص واحد. نعم كان عُمر نادرة في بابه؛ بل نابغة من نوابغ الخليقة. ومَن من الناس يجلس مكان عمر بجزيرة العرب، بينما هو يحرك عماله في الفرس والعراق والجزيرة والشام ومصر واليمن وغيرها: في حروبهم، وإدارتهم، وجباية أموالهم، وقضائهم، حتى لكأنهم على مرآى منه ومسمع.

مَن من الملوك يمكنه أن يصل ليله بنهاره في نصح رعيته، وسهره على كل ما فيه مصلحتها كما كان يعمل عمر؛ وهو مع ذلك يرى نفسه مقصرًا في واجبه، غير قائم بعمله، فلا ينفك مفكرًا على الدوام في حساب ربه له على كل صغيرة يتوهم أنهم ارتكبتها في سبيل المصلحة العامة! اللهم إن هذا هو مقام الراعي من رعيته، فنعم الراعي عُمر، ونعمت الرعية رعية عمر!

كان رضي الله عنه كثير النصح لعماله، شديد المراقبة عليهم، كثير التجسس عن أحوالهم، حتى أقام عليهم العيون يوافونه بأخبارهم كيلا يأخذوا الناس بمظالمهم. وجعل له عمالًا من أهل الورع والصدق يفتشون على أعمال الولاية والقضاة. ومن ذلك أنه قد شكا الناس بالكوفة أميرهم «سعد بن أبي وقاص» في سنة إحدى وعشرين، فبعث عُمر «محمد بن مسلمة الأنصاري»، فخرق عليه باب قصر الكوفة وجمع الناس في مساجدها، فسألهم عنه. فحمدوه بعضهم وساءه بعضهم، فعزله عمر وبعث عليها عمار بن ياسر. وكان عمر يتابع أوامره لولاته بعدم ظلم الرعية، ومن ذلك كتابه إلى عتبة ابن غزوان أمير البصرة: «أعزب الناس عن الظلم، واتقوا واحذروا أن يدال عليكم لغدر يكون منكم أو بغي؛ فإنكم إنما أدركتم بالله ما أدركتم على عهد عاهدكم عليه، وقد تقدم إليكم فيما أخذ عليكم، فأوفوا بعهد الله وقوموا على أمره يكن لكم عونًا وناصرًا».

وخطب عمر في الناس يوماً فقال: «أيها الناس، إني والله لم أرسل عملاً إليكم ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم، ولكن أرسلهم ليعلموكم دينكم وُسُتُكم ويقضوا بينكم بالحق ويحكموا بينكم بالعدل، فمن فعل به شيء سوى ذلك فليرفعه إليّ، فوالذي نفس عمر بيده لأقصنه منه».

وكان عمر رحيماً بالناس رفيقاً بهم، ولم تقتصر رحمته على الإنسان بل كان يرفق بالحيوان، قال المسيب بن درام: «رأيت عمر بن الخطاب يضرب حملاً ويقول: حملت جمالك بما لا تطيق».

هذه كانت حياة عمر مع عماله ورعيته؛ لم يفرق فيهم بين كبير وصغير، غني أو فقير، وحسبك ما كان له مع جيلة بن الأبهم ملك غسان؛ فإنه أسلم في جمع من قومه وأتى إلى مكة، ففرح به عمر وأكرمه كثيراً، وبينما هو يطوف حول الكعبة إذ وطئ أعرابي رداءه فانحسر عنه، فلطمه جيلة، فقاضاه الأعرابي عند عمر، فقضى بالقصاص إلا إذا تجاوز صاب الحق عن حقه. فقال جيلة: أتعامل المملوك عندكم معاملة السوق يا أمير المؤمنين؟! قال: نعم، لم يفرق الإسلام بين ملك وسوقة. فاستمهله جيلة حتى يرى رأيَه، وفر ليلاً إلى بلاده. وكان عمر شديداً في دينه لا تأخذه في الله لومة لائم. أقام حدوده في الناس لا فرق بين كبيرهم وصغيرهم، قريبهم وبعيدهم، وناهيك بحده لولده «عبد الرحمن» في الخمر حتى مات وهو يحده. وقد كان رحمه الله شديد العناية بالفقراء، ولقد اتخذ لهم دار الدقيق يعين بها المنقطع منهم.

أمّا حياته في شخصه فقد كان رضي الله عنه كثير الورع والزهد، شديد الخوف من الله، يقتص من نفسه لغيره. وكان يعيش في عمله وتجارته إلى أن صارت إليه الخلافة، فلما ولي أمر المسلمين واشتغل بشئونهم فأرادوا أن يرتبوا له من بيت المال ما يقوم بأمره وسألوه مقدار ما يريد، فسأل علياً رأيَه، فقال

له: «ما يصلحك ويصلح عيالك بالمعروف، ليس لك من هذا الأمر غيره». فقال عمر: القول ما قال ابن أبي طالب.

وروى «الطبري» أن هذا العطاء الذي رضىه عمر لنفسه وفرضه له المسلمون لم يكفه واشتدت به الحاجة، فاجتمع نفر من المهاجرين -منهم عثمان وطلحة والزبير- وتشاوروا في زيادة يزيدونها لعمر في رزقه من بيت المال، فهابوا مقابلته بذلك، فأتوا لبنته «حفصة» -التي كانت زوجاً للنبي صلى الله عليه وسلم- وأمروها أن تخبره بالخبر وترى رأيه فيه ولا تذكر له أسماءهم. فلما أخبرته بذلك عرفت الغضب في وجهه، وقال لها: من هؤلاء؟ قالت: لا سبيل إلى علمهم حتى أعلم رأيك. فقال: لو علمت من هم لسؤت وجوههم، أنت بيني وبينهم، أنشدك بالله ما أفضل ما اقتنى رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتك من الملبس. قالت: ثوبين ممشقين كان يلبسهما للوفد ويخطب فيهما للجمع. قال: فأبي الطعام ناله عندك أرفع؟ قالت: خبزنا خبزة شعير فصبنا عليها وهي حارة أسفل عكة (قربة السمن) فجعلناها هشة دسمة، فأكل منها وتطعم استطابة لها. قال: فأبي مبسط كان يبسطه عندك كان أوطأ (ألين)؟ قالت: كساء لنا ثخين كنا نربعه في الصيف فنجعله تحتنا، فإذا كان الشتاء بسطنا نصفه وتدثرنا بنصفه. قال: يا حفصة، فأبلغهم عني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدر فوضع الفضول مواضعها وتبلغ بالترجية (الرجاء)، وإني قدرت فوالله لأضعن الفضول مواضعها ولأبلغن بالترجية، وإنما مثلي ومثل صاحبي كثلاثة سلكوا طريقاً؛ فمضى الأول وقد تزود زاداً فبلغ، ثم اتبعه الآخر فسلك طريقه فأفضى إليه، ثم اتبعه الثالث فإن لزم طريقهما ورضي بزادهما لحق بهما وكان معهما، وإن سلك غير طريقهما لم يجتمع بهما.

وما زال عمر رضي الله عنه على هذه الحال بين رعيته، مهتماً بأموارهم، غير مفكر إلا فيما يكون من رقيهم وسعادتهم، يقضي بينهم بما أتى من عند الله ورسوله، وإذا وقع له ما لم يمكنه أن يستخرج حكمه من القرآن والسنة، جمع إليه خاصة المسلمين أعقلهم وأعرفهم بكتاب الله وسنة رسوله وسألهم رأيهم، وقضى بما يرونه. وبذلك تحقق الحكم الشوري بين المسلمين؛ فعلا به سلطانهم، وعظم ملكهم، وانبسط أفياء نعمتهم. وما زال رضي الله عنه مشغلاً بنصرة الإسلام وتعزيز أركانه وتوطيد بنيانه إلى سنة (٢٣ من الهجرة)، فأتاه فيروز «أبو لؤلؤة» غلام المغيرة بن شعبة - وكان فارسياً - يشكو إليه كثرة ما ضربه سيده عليه من الخراج، فسأله عمر: كم خراجك. قال: درهمان في كل يوم. قال: وأيش صناعتك؟ قال: نحاس نقاش حداد. قال: فما أرى خراجك بكثير على ما تصنع من الأعمال. فتوعده الغلام وانصرف. فقال عمر: توعدني العبد!!

وتحيز أبو لؤلؤة «عمر» فجاءه في صلاة الغداة حتى قام وراءه، فما كبر وجأه أبو لؤلؤة في كتفه وخاصرته، فسقط عمر ونادى بعبد الرحمن بن عوف وأمره أن يصلي بالناس. وكان ذلك يوم الأربعاء لأربع ليال بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين. وفي غد ذلك اليوم أخبر عبد الرحمن بن أبي بكر عبيد الله بن عمر أنه رأى أبا لؤلؤة مع الهرمزان ومعهما رجل اسمه جفينة، وكانوا يتناجون فلما رأوه تفرقوا وسقط منهم ذلك الخنجر. فعدا عبيد الله على ثلاثتهم فقتلهم، فأمسكه سعد بن أبي وقاص حتى جاء به إلى عثمان بعد البيعة.

ولما مات عمر صلى عليه صهيب. ودفن يوم الأحد هلال المحرم سنة أربع وعشرين وعمره ثلاث وستون سنة، وكانت خلافته عشر سنين وخمسة أشهر وإحدى وعشرين يوماً. وقيل: بل كانت وفاته في يوم الأربعاء المذكور من غير

أن يعهد بالخلافة إلى أحد. ولما سئل في ذلك قبل وفاته، قال: إنه لا يريد أن يحمل تبعثها حيًّا وميتًا، وجعلها شورى إلى ستة وهم: علي وعثمان وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف. وكان له من الولد: عبد الله، وحفص، وعبيد الله، وعاصم، وفاطمة، وزيد وعبد الرحمن.

أمّا عماله في السنة التي مات فيها فكان على مكة: نافع بن عبد الحارث الخزاعي، وعلى الطائف سفيان بن عبد الله الثقفي، وعلى الكوفة المغيرة بن شعبة، وعلى البصرة أبو موسى الأشعري، وعلى مصر عمرو بن العاص، وعلى دمشق معاوية بن أبي سفيان، وعلى حمص عمير بن سعد، وعلى البحرين عثمان بن أبي العاص الثقفي، وكان كاتبه زيد بن ثابت، وعلى بيت المال عبد الله بن أرقم.

عثمان بن عفان

هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، ويكنى بأبي عبد الله. ولد رضي الله عنه سنة (٢٨ قبل الهجرة). وكان ربعة ليس بالقصير ولا بالطويل، حسن الوجه، بوجتته نكتات جدري، أقنى مشرف الأنف، من أجمل الناس، رقيق البشرة، عظيم اللحية طويلها، أسمر اللون، كثير الشعر، له جمّة أسفل أذنيه، ضخم الكراديس، بعيد ما بين المنكبين، أصلع الرأس، وكان يصفر لحيته. وكان بزازًا وتاجرًا، وله ثروة واسعة في قومه، وكان شديد الكرم فيهم كثير البذل، هينًا لينًا، كثير الحياء، حسن الخلق، لين العريكة. وكان له بذلك منزلة من قلوب الناس يحبونه ويهشون إليه ويحترمونه. وهو رضي الله عنه من السابقين الأولين في الإسلام: أسلم بدعوة من أبي بكر فاضطهدته قريش ونالت منه، فهاجر إلى الحبشة. وكان العرب يتعاهدونها قبل الإسلام بالتجارة. وهاجرت معه زوجته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم التي كان تزوج بها قبل الإسلام أو بعده على خلاف بين المؤرخين. وهو رضي الله عنه أول من هاجر في الإسلام، وهاجر معه أحد عشر رجلًا من المسلمين منهم: أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، والزبير بن العوام، ومصعب بن عمير، ثم لحق بهم جعفر بن أبي طالب وآخرون. وأرسلت قريش بعمر بن العاص إلى النجاشي يطلبون منه ردهم إليهم فلم يقبل. وما زالوا ببلاد الحبشة حتى بلغهم كذبًا أن قريشًا قد أسلمت كلها، فعاد عثمان ومعه نفر منهم الزبير بن العوام إلى مكة، وكان ذلك عام ثلاث أو أربع قبل الهجرة، فوجدوا المسلمين على حالهم من الهوان وسوء معاملة قريش لهم،

فأقاموا معهم على أذى قريش حتى أمر الله نبيه بالهجرة إلى المدينة، فهاجر عثمان إليها ومكث في خدمة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ماتت رقية زوجته، فزوجه صلى الله عليه وسلم بأم كلثوم أختها، فكانوا لذلك يسمونه ذا النورين. وأقام عثمان في صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم يساعده بنفسه وماله، ولما أراد رسول الله صلوات الله عليه تجهيز جيش العسرة، أتى إليه عثمان بألف دينار وألقاها في حجره إعانة للمسلمين، فجعل رسول الله يقبلها ويقول: «ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم».

ما زال عثمان رضي الله عنه في صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبة صاحبيه يعمل معهم في توطيد أركان الإسلام وتشديد بنيانه، وكان آية من آيات الله في مكارم أخلاقه وجميل صفاته وسديد آرائه، حتى مات عمر رضي الله عنه. ولما دُفن عمر بن الخطاب جمع المقداد أهل الشورى في بيت المسور بن مخرمة فبايعوا لعثمان بن عفان يوم الإثنين، لليلة بقيت من ذي الحجة سنة ٢٣، أو لثلاث مضي من المحرم سنة ٢٤ على رواية أخرى.

وأول عمل له في خلافته أنه جمع الناس إلى ناحية في المسجد وشاورهم في أمر عبيد الله بن عمر لقتله من قتل، فأشار علي بقتله. وقال عمرو بن العاص: لا يقتل عمر بالأمس ويقتل ابنه اليوم، وقد حصل هذا الحدث وليس لك على المسلمين سلطان. فجعلها عثمان دية واحتملها وقال: أنا وليه. ثم كتب عثمان إلى الولاة وعمال الخراج وعامة الناس كتباً بلغت النصح والإرشاد، وطلب إلى عماله فيها السير في طريق العدل والإنصاف والمساواة بين الناس كبيرهم وصغيرهم، مسلميهم وأهل ذمتهم، وزاد في أعطيات جيشه. وفي سنة (٢٦) سير عثمان حبيب بن مسلمة الفهري ومعه سلمان بن ربيعة إلى فتح أرمينية والقوقاز، وكانتا قد نقضتا الصلح بعد وفاة عمر فافتحوهما، وأقاموا على

ثغورهما من يحفظهما من جند المسلمين. وبينما كانا يتساجان بجيوشهما في هذه البلاد بينما كان معاوية يغير من جهة أخرى على بلاد الأناضول. وفي سنة (٢٧) استأذن معاوية عثمان رضي الله عنه في غزو الروم من جهة البحر فأذن له، وأرسل إلى عبد الله ابن سرح عامله على مصر بأن يسير إلى الشام أسطولاً يساعد أسطول معاوية. وسار الأسطولان فافتتحا قبرص وصالحهم أهلها على سبعة آلاف دينار يدفعونها سنوياً. وفي سنة (٢٩) فتح معاوية جزيرة إفريطش (كيريد)، وقد كان عثمان أصدر أمره في سنة (٢٥) إلى عبد الله بن سرح بغزو إفريقية^(١)، فأمر عقبة بن نافع على جند، وأمر عبد الله بن نافع على جند آخر وسيرهما إلى بلاد المغرب، فصالحهم أهلها على مال يؤدونه إليهم ولم يمكنهم التوغل فيها لكثرة أهلها.

وفي سنة (٢٦) جهز عثمان من المدينة جيشاً لفتح إفريقية وفيه ابن عباس وابن عمر وابن العاص وابن جعفر والحسن والحسين وعبد الله بن الزبير، فساروا مع عبد الله بن سعد بن أبي سرح حتى وصلوا برقة فلقبهم بها عقبة بن نافع فيمن كان معه من المسلمين، وساروا إلى طرابلس، فقابلهم جيوش الروم وعليهم جريجوار (جرجير) فحصلت بينهم موقعة هائلة انهزمت فيها جيوش الروم بعد أن قتل عبد الله بن الزبير قائدهم جريجوار. وبذلك صارت البلاد إلى المسلمين؛ فولى عثمان على إفريقية عبد الله بن نافع، وعاد ابن سعد إلى مصر. فلما بلغ قسطنطين بن هرقل إمبراطور الروم خبر استيلاء العرب على بلاده في إفريقية جهز أسطولاً كبيراً مؤلفاً من (٦٠٠ مركب) وسافر به من القسطنطينية إلى تونس. فعلم به عبد الله بن سعد بن أبي سرح فخرج إليه من مصر في أسطوله، وخرج معاوية في أسطوله أيضاً من سورية، والتقوا بمراكب

(١) كانت العرب تطلق اسم إفريقية على بلاد تونس.

الروم وأثخنوهم، فانهزم قسطنطين بما بقي من مراكبه إلى صقلية فقتله أهلها. والمسلمون يسمون هذه الواقعة بواقعة ذات الصواري.

وكانت بلاد فارس قد انتقضت أطرافها فعزل عثمان في سنة (٢٦) أبا موسى الأشعري عن البصرة بناء على طلب أهلها لشدة رفاخته، وولي بدله عبد الله بن عامر القرشي؛ وهو ابن خال عثمان وعمره إذ ذاك (٢٥ سنة)، فبلغت جنوده إلى أقاصي بلاد الأكاسرة. ثم انتقضت فارس فبلغ ابن عامر الخبر وهو بالبصرة، فاستنفر الناس إليهم وسار وعلى مقدمته عثمان بن أبي العاص وعلى خيله عمران بن حصين، فلقيه الثائرون على إصطخر وحصل بينهم مواقع هائلة وافتتح إصطخر عنوة، وفني في تلك المواقع أغلب بيوتات الأساورة؛ لأنهم كانوا جعلوا هذه المدينة مركزاً لهم، ثم وطئ ابن عامر بلاد فارس وطأة قضي فيها على ما كان بقي فيهم من عزة الملك وخيلاء السلطان. ثم سار إلى خراسان وكانت قد انتقضت وسير على مقدمته الأحنف بن قيس وتقدم إلى نيسابور فافتتحها إلى هران، ثم سير الأحنف إلى طخارستان فافتتحها إلى مرو، وسار منها إلى بلخ فافتتحها أيضاً. وسير عامر بن الربيع بن زياد الحارثي إلى سجستان فافتتحها، ثم انتقض أهلها فأرسل إليها عبد الرحمن بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس فافتتح بلادها إلى حدود الهند.

وفي سنة (٣٠) سار سعيد بن العاصي أمير الكوفة إلى طبرستان، وكان في جيشه الحسن والحسين وحذيفة اليماني وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو بن العاص فأوغلوا فيها بالفتح؛ لكنها بعد ذلك كانت تنتقض فيغزوها المسلمون حتى استخضعها يزيد بن المهلب في خلافة سليمان بن عبد الملك بن مروان.

ولما عاد بعض الناس من غزواتهم سألهم عثمان عن حال المسلمين، فأخبروه بتعدد قراءات القرآن فيهم، وقالوا له: إن هؤلاء يقولون: قرأنا خير من قرآن الآخرين، وأولئك يقولون: بل قرأنا خير من قرآنهم. فطلب عثمان الصحف التي كان جمعها أبو بكر من حفصة بنت عمر واستكتب عشرة مصاحف منها وأرسلها إلى الجهات، وأمرهم أن يحرقوا كل ما عداها، وبذلك كان حفظ القرآن الكريم على ما هو عليه اليوم من غير اختلاف ولا تغيير ولا تبديل بين أهل جميع الأقطار والأمصار، وهو ما لم يتيسر لكتاب غيره بالمرة.

ويقال: إن أحد هذه المصاحف موجود بكتبخانة موسقو بالروسيا، وله صورة أخذت بالفيوتوغراف موجودة بكتبخانتنا المصرية التي بها مصحف آخر يزعمون أنه من مصاحف عثمان، ويوجد في الأستانة بخزينة الآثار النبوية مصحف يقولون إنه منها. ويقولون: إن المصحف الشريف الموجود بالحجرة الشريفة الآن منها أيضًا.

وفي مدة عثمان رضي الله عنه اتسع ملك المسلمين كثيرًا وثبت قدمه بتلك الفتوحات التي ساحت فيها جيوشهم في أملاك الروم والعجم.

إلا أن عثمان كان يكثر من ولاية قرابته على الأمصار، وكان يقرب إليه بني أمية ويستشيرهم في أموره حتى ظهروا في خلافته على قريش كلها، وصارت لهم بالمدينة أملاك واسعة وثروة طائلة، وكان مشيره ووزيره وكاتب سره مروان بن الحكم، وكان كثيرًا ما يعمل بفكره ويمضي له رأيه حتى بالغ الناس في أن ختم عثمان كان مع مروان يمضي به ما يريد. فنقم لذلك جماعة من قريش وكثير من صحابة رسول الله، وتذمرت الولايات مما كانوا يأخذونه على ولائهم من سوء عملهم، فخاطبوا في ذلك عثمان وأوفدوا إليه وقودًا يطلبون منه عزل بعضهم فلم يقبل؛ فزادت الفتنة وثار الناس من مصر والبصرة،

وقصدوا المدينة في جموع كثيرة، وما زال علي -كرم الله وجهه- بينه وبينهم حتى قبل عثمان بعض مطالبهم وسافروا من المدينة، ثم أعادوا الكرة إليها وفي يدهم كتاب بختم عثمان قالوا إنهم وجدوه مع رسول من عثمان إلى ولاته بحبسهم وتعذيبهم، وكان منهم محمد بن أبي بكر. فحلف عثمان بأنه لم يكتب ذلك ولم يأمر به ولا علم له به، فنسبوه للضعف فطلب منه علي أن يبعد عنه مروان فلم يقبل فتركه واشتدت الفتنة وطلب الثائرون أن يعتزل عثمان العمل، فلم يجبههم وكتب إلى ولاته على الأمصار بأن يوافوه بالمدد، وكان ذلك بإشارة من مروان. وخاف الثائرون شر ذلك فهاجموا على داره وحاصروها ومنعوا الماء عنها. وأرادوا الدخول عليه، فوجدوا على بابها عبد الله بن عمر وعبد الله بن سلام وعبد الله بن الزبير والحسن والحسين ابني علي وأبا هريرة ومحمد بن حاطب وزيد بن ثابت ومروان بن الحكم والمغيرة بن الأخنس يمنعونها بسيوفهم. فتسلقوها من خلفها ودخلوا على عثمان والمصحف في يده يقرأ فيه فقتلوه. وقيل: إن الذي قتله رجل من مصر اسمه جبلة، وكان ذلك في (١٨ ذي الحجة سنة ٣٥). ودُفن عثمان رحمه الله في البقيع وعمره (٨٦ سنة) تقريباً، وكان له من الولد: عبد الله الأكبر، وعبد الله الأصغر -وهو من رقية بنت رسول الله، توفي صغيراً- وعمرو، وأبان، وخالد، وعمر، وسعيد، والوليد، وأم سعيد، والمغيرة، وعبد الملك، وأم عمرو وعائشة.

أمّا عماله في السنة التي توفي فيها، فهم: عبد الله بن الحضرمي على مكة، والقاسم بن ربيعة الثقفي على الطائف، ويعلى بن منبه على صنعاء، وعبد الله بن عامر على البصرة، ومعاوية بن أبي سفيان على الشام، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد على حمص (من طرف معاوية)، وحبيب بن مسلمة الفهري على قنسرين، وأبو الأعور السلمي على الأردن، وعلقمة بن حكيم الكناني على

فلسطين، وأبو موسى الأشعري على الكوفة، وعلى خراجها جابر المزني، وعلى حربها القعقاع بن عمرو، وجرير بن عبد الله البجلي على قَرْقَسِيَا، والأشعث بن قيس الكندي على أذربيجان، وعتبة بن النحاس على حلوان، ومالك بن حبيب على الماه، والنيسر على همدان، وسعيد بن قيس على الري، والسائب بن الأقرع على أصبهان، وكان على مصر عبد الله بن سعد، ثم تغلب عليها محمد بن أبي حذيفة، وكان له على بيت المال عقبة بن عامر، وعلى القضاء زيد بن ثابت.

علي

هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب. ولد -كرم الله وجهه- سنة (٢٥) قبل الهجرة)، وحصل بمكة قحط في نحو السادسة من عمره، فكفله رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأخذه إلى بيته، وكان يحبه حباً جماً. ولما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم كان «عليٌّ» أول من آمن به بعد خديجة، وأول من صلى معه من المسلمين. وكان يخرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الصحراء فيصلي معه خفية ثم يعودان إلى مكة. وكان ألصق الناس برسول الله؛ فتعلم من علمه وتأدب بأدبه. وكان أشبه الناس به في صورته؛ فكان رضي الله عنه ربعة، أدعج العينين عظيمهما، حسن الوجه كأنه قمر ليلة البدر، عظيم البطن، عريض المنكبين، له مشاش كمشاش السبع الضاري، لا يبين عضده من ساعده، قد أدلج دلاجاً، شثن الكفين، عظيم الكراديس، أغيد كأن عنقه إبريق فضة، أصلع ليس في رأسه شعر إلا من خلفه، أبيض اللحية، قريب إلى السم، ثبت الجنان، إذا مشى إلى الحرب هرول، وإذا أمسك بذراع رجل أمسك بنفسه فلم يستطع أن يتنفس. وكان رضي الله عنه كثير الصبر، شجاعاً، مهيباً، ورعاً، زاهداً، أعلم الناس بدين الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان -كرم الله وجهه- شديداً في دينه، لا يرائي فيه ولا تأخذه في الله لومة لائم. وسئل مرة: لم نر معاوية أسوس منك يا أمير المؤمنين! فقال: والله ما معاوية بأسوس مني؛ ولكن السياسة تميل إلى الغدر ولست أميل إليه.

وكان رضي الله عنه فصيح اللسان، قوي الجنان، أكبر العرب بلاغة، وأكثرهم حكمة. ودونك بعض خطبه وحكمه بكتاب نهج البلاغة. ما زال علي

مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أراد الهجرة فعلم بأن قريشاً أجمعوا أمرهم على قتله، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً بأن يلبس رداءه وينام في فراشه من ليلته، وقال له: إني مهاجر إلى يثرب، وأمره أن يلحق به بعد أن يؤدي عنه دينه، ويرد ما كان عنده من الأمانات إلى أربابها. وهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهاجر علي بعد هجرته بثلاثة أيام بعد أن أدى عن رسول الله الودائع التي كانت عنده للناس: وهو ثالث من هاجر. وبعد الهجرة زوجه النبي صلى الله عليه وسلم ابنته فاطمة، وكانت أحب الناس إليه؛ فكان ألصق الناس برسول الله قبل الهجرة وبعدها. وجعل الله ذرية نبيه عليه الصلاة والسلام في بنيه.

ومكث «علي» يكتب لرسول الله، وينصره على أعدائه، ويقوم بخدمته خير قيام، حتى إذا مات عليه الصلاة والسلام كان لصاحبيه أميناً معيناً مرشداً مبيناً للناس ما غمض عنهم من كلام الله وسنة رسوله. حتى إذا كانت خلافته عثمان كان في عونه ونصحته، ثم اعتزله في آخر أيامه لما كان يحيط بابن عفان من بطانته التي كانت لا تنظر إلى المصلحة العامة، بجوار مصلحتهم الخاصة. فكان ما كان وقتل عثمان، فاجتمع الناس على علي وأرادوا بيعته فأبى وقال: لأن أكون وزيراً لكم أحب إليّ من أن أكون أميراً. وكان الناس قد افترقوا فرقاً وأحزاباً؛ فمال أهل الكوفة إلى الزبير وأهل البصرة إلى طلحة، وغيرهم إلى سعد وابن عمر، وذهب الناس إلى علي وألحوا عليه فخرج إلى المسجد فبايعه الناس ثم بايعه طلحة والزبير. وكان ذلك في (٢٥ ذي الحجة سنة ٣٥هـ). وجاءه طلحة والزبير وطلبا إقامة الحدود على قاتلي عثمان، فقال: لا قدرة لي على شيء مما تريدون حتى يهدأ الناس، وننظر في الأمور، فتؤخذ الحقوق. فافترقوا عنه وأكثر الناس المقال في قتل عثمان، وفرّ بنو أمية إلى الشام مع مروان. وفي اليوم

الثالث نادى «علي» برجوع الأعراب إلى بلادهم، فتذمروا وأبوا. وأخذ عليٌّ يفرق عماله على الأمصار؛ فولى ابن عباس على الشام فلم يقبل، وأشار عليه بأن يقر عمال عثمان حتى يهدأ الحال كيلا يحملوه شيئاً من دمه، فلم يسمع له علي لشدته في الحق. وبعث على البصرة عثمان بن حنيف، وعلى الكوفة عمار بن شهاب من المهاجرين، وعلى اليمن عبد الله بن عباس، وعلى مصر قيس بن سعد، وعلى الشام سهل بن حنيف، فمضى عثمان إلى البصرة فاختلفوا عليه وأطاعته فرقة منهم. ومضى عمار إلى الكوفة فلما بلغ زباله لقيه طليحة وقال له: ارجع، فإن القوم لا يستبدلون بأبي موسى. ومضى ابن عباس إلى اليمن، ومضى قيس إلى مصر فافترقوا عليه؛ فرقة كانت معه، وأخرى امتنعت عنه حتى ترى فعل علي في قاتلي عثمان. ومضى سهل إلى الشام فلقية خيل عند تبوك فقال لهم: إنه أمير على الشام، فقالوا له: إن كان بعثك غير عثمان فارجع. فرجع وجاءت أخبار الآخرين بمثل ذلك، فجمع عليٌّ طلحة والزبير وقال لهما: قد وقع ما كنت أحذركم منه. فسألاه الإذن في الخروج إلى مكة للاعتبار فأذن لهما. وكتب إلى أبي موسى، فكتب إليه بطاعة أهل الكوفة وبيعتهم. وكتب إلى معاوية فلم يجبه إلى ثلاثة أشهر من مقتل عثمان، ثم أرسل إليه كتاباً مختوماً عنوانه: «من معاوية إلى عليٍّ ففضه عليٌّ فلم يجد فيه شيئاً، فقال للرسول: ما وراءك؟ فقال: تركت قومًا لا يرضون إلا بالقود. قال: ممن؟ قال: منك، وتركت ستين ألف شيخ يبيكون تحت قميص عثمان منصوبًا على منبر دمشق. فقال علي: اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان، قد نجا والله قتلة عثمان إلا أن يشاء الله. ودعا أهل المدينة إلى قتال أهل الشام وكتب إلى ولاته على الأمصار بأن يندبوا الناس إليه. وكانت عائشة خرجت إلى الحج وعثمان محصور، فلما قصدت الرجوع إلى المدينة بعد الحج بلغها في الطريق قتل عثمان ومبايعة الناس لعليٍّ فعادت إلى

مكة. ولما وصل الزبير وطلحة إلى مكة اتفقا مع عائشة على المطالبة بدم عثمان وساروا بألف رجل ممن كان على رأيهم من أهل مكة إلى البصرة ومعهم كثير من بني أمية؛ منهم أبان بن عثمان وسعيد بن العاص والوليد بن عتبة وعبد الله بن عامر الحضرمي، وكان واليًا على مكة لعثمان، وساعدهم بهال كثير، وساعدهم كذلك يعلى بن منبه الذي اشترى جملاً بمائة دينار ولم ير مثله في العرب، وأركب عليه عائشة. فلما وصلوا البصرة دعوا أهلها لنصرتهم، فلم يقبل منهم عثمان بن حنيف عامل علي عليها، فتنفوا لحيته وهشموا وجهه وقتلوا من كان معه، وحصلت لهم موقعة مع من قام في وجههم من البصريين، وكانت الغلبة لعرب البصرة. وبلغ ذلك علياً فندب الناس إليهم وسار من المدينة بعد أن أقام عليها سهل بن حنيف، وعلى مكة قثم بن العباس. وأرسل محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر إلى الكوفة لاستنفار أبي موسى الأشعري بأهلها، فلم يقبل منهما أبو موسى كلاماً ورد أهل الكوفة عن الخروج معهما فرجعا إلى علي بالخبر وهو بذي قار، فأرسل الأشتر وابن العباس إلى أبي موسى فلم يجب لهما، فأرسل ولده الحسن وعمار بن ياسر إلى الكوفة، فنفر معهما منها تسعة آلاف نفس منهم: القعقاع، وسعد بن مالك، وهند بن عمرو، والهيثم، وزيد بن صوصان، وعدي بن حاتم وغيرهم. وقدموا على علي بذي قار ففرح بهم وأكرمهم وأرسل القعقاع إلى البصرة ليدعو عائشة وطلحة والزبير إلى الألفة والجماعة فقدم إلى البصرة واجتمع بهم.

وما زال يقيم عليهم الحجة في خروجهم حتى مالوا إلى الصلح، فعاد إلى «علي» وأخبره بذلك ففرح بحقن دماء المسلمين وسار في الناس حتى قدم البصرة، وتردد عقلاء الناس بين الطرفين، وتقابل علي مع طلحة والزبير وكادت عرى الصلح تتوطد فيما بينهم، ولكن الذين أثاروا هذه الفتنة من

الأمويين أحزنهم هذا الأمر وباتوا يتشاورون وصمموا على إشعال نار الحرب، فهجموا على جهة من جيش علي وهم لا يشعرون، فكثر صياح الناس وتساءل علي عن الخبر، فقالوا له: إن جيش طلحة والزبير هاجم جيشه. فركب فيمن معه واستحر القتال. وكانت عائشة راكبة جملاً ومتنحية عن ساحة الحرب لتشرف على قومها وهي تشجعهم وتأمروهم بالصبر وتحرضهم على الكفاح واجتلد الناس أمام الجمل وقتل تحته خلق كثير، فأمر عليٌّ بعقر الجمل قبل أن تصاب عائشة، ف ضرب ساق البعير فوقع إلى الأرض وقطع القعقاع مع زفر بطان البعير وحملوا الهودج من بين القتلى، وأمر محمد بن أبي بكر أن يضرب عليها قبةً، وفر أصحاب الجمل، فأمر علي بعدم اتباع الفارين وعدم الإجهاز على الجرحى، وسرح عائشة مع نفر من قومها رجال ونساء إلى مكة من بعد أن ودعها أميالاً، فسافرت إليها وحجت، ثم عادت إلى المدينة. أمّا بنو أمية فإنهم انهزموا إلى الشام وقتل في واقعة الجمل عبد الرحمن أخو طلحة والمحرز بن حارثة ومجاشع ومجالد ابنا مسعود وطلحة بن عبد الله وعبد الرحمن بن عتاب وغيرهم، وجرح عبد الله بن الزبير.

وبعد الواقعة دخل علي البصرة فبايعه أهلها وولي عليها ابن عباس. ثم رجع إلى الكوفة، وبعث إلى جرير بن عبيد الله البجلي بهمدان، وإلى الأشعث بن قيس بأذربيجان، وكانا من ولاية عثمان عليهما، فحضرا إليه بعد أن أخذا له البيعة من أهل البلدين، فأرسل جريراً إلى معاوية يعلمه بمبايعة الناس له ويدعوه إلى رأي الجماعة، فاستبقاه معاوية عنده زمناً، ثم اعتذر له بأن أهل الشام يطالبون بدم عثمان، ورجع جرير بالخبر إلى علي، فاستنفر الناس لحرب الشام، وقدم عليه ابن عباس برجال من البصرة وساروا إلى المدائن، ومنها إلى الرقة والتقوا برجال معاوية على الفرات وقد ملكوا عليهم شريعة الماء

وبادروهم القتال، فشكا الناس إلى علي العطش، فبعث إلى معاوية يقول له: إنا سرنا ونحن عازمن على الكف عنكم حتى نعذر إليكم فسبقنا جندكم بالقتال ونحن رأينا الكف حتى ندعوك ونحتج عليك وقد منعتم الماء، والناس غير متهيئين، فابعث إلى أصحابك يخلون عن الماء للناس حتى ينظر بيننا وبينكم، وإن أردت القتال حتى يشرب الغالب فعلنا. فلم يقبل معاوية، وكان ذلك (أول ذي الحجة سنة ٣٦) وأرسل علي إلى معاوية رسلاً ينصحونه ويطلبونه إلى الصلح، فقال لهم: ليس بيني وبينكم إلا السيف. فرجعوا إلى علي بالخبر، واقتتل العسكران أيام ذي الحجة كلها، واستأنف علي إرسال رسله إلى معاوية في حقن دم المسلمين فلم يقبل، وابتدأ القتال بين المعسكرين، وكان قواد معاوية حبيب بن مسلمة، وذو الكلاع، وأبو الأعور، وعمرو بن العاص، ومسلم بن عقبة، والضحاك بن قيس. أما قواد علي فكانوا: الأشتر النخعي، وعبد الله بن عباس، وسهل بن حنيف، وقيس بن سعد، وعمار بن ياسر، وهاشم بن عتبة، وعدي ابن حاتم، ومسعر بن فدكي. واستعر القتال فاستمات الناس من الطرفين جملة أيام، وأبلى الأشتر وعمار بلاء عظيمًا، وكانا كلما هجما فرقا جموع معاوية وشتتا رجاله، وهجم عمار بقوم كانوا معه فدخل في صفوف جيش الشام، وما زال يفرق كتائبهم حتى تكاثروا عليه وقتلوه، فلما بلغ ذلك عليًا حمل بالناس وهجم على جيش الشام فأزالهم عن مواقعهم، ورأى عمرو بن العاص الغلبة في جيش العراق فقال لمعاوية: مر الناس يرفعون المصاحف على الرماح. ففعلوا ذلك، فقال جيش العراق: نجيب إلى كتاب الله. فقال علي لهم: امضوا في حربكم، والله ما رفعوها إلا مكيدة. فلم يقبلوا وطلبوا إليه أن يمنع الأشتر ويزيد بن هانئ من استمرارهما في قتال معاوية، وحضر إليهم الأشتر وعنفهم وقال: أمهلوني فقد أحسست بالفتح. فأبوا وكثرت الملاحاة

فيما بينهم، فخاف عليٌّ وقوع الفتنة وأرسل الأشعث بن قيس إلى معاوية يسأله سبب رفع المصاحف على الرماح، فقال له: لنرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله به من كتابه؛ تبعثون رجلاً ترضونه ونحن نبعث رجلاً منا ونأخذ عليهما العهود بأن يعملوا بما في كتاب الله ثم نتبع ما اتفقا عليه. فقبل الطرفان ذلك، وقالت القراء من أهل العراق: رضينا بأن يكون أبو موسى الأشعري فلم يرض به علي لعدم ثقته به، واختار الأشر، فأبى قوم من العراق إلا أن يكون أبا موسى، واختار معاوية عمرو بن العاص فحضر عند علي ليكتب العهد بينه وبين معاوية بالحكمين وأخذ عليه المواثيق من رؤساء العسكرين، وكان ذلك في (١٣ صفر) وأجلا الحكم إلى رمضان، فانصرف الناس إلى بلادهم من صفين، ورجع علي إلى الكوفة وبعض رجاله ينكرون عليه التحكيم. ولما جاء ميعة التحكيم حضر الحكمان في رجال من قومهما إلى دومة الجندل، فخدع عمرو أبا موسى وقال له: الأحسن بنا أن نخلع كل منا صاحبه حقناً لدماء المسلمين، وهنالك يبايع الناس من أرادوا. فقبل أبو موسى رأيه وصعد المنبر وخلع صاحبه، ثم صعد عمرو وقال: ألا إن أبا موسى خلع صاحبه وأنا أثبت صاحبي معاوية، فهو ولي ابن عفان. وتفرق الناس بعد أن كادوا يقتتلون، ولحق أبو موسى بمكة.

ولما أرسل علي أبا موسى إلى التحكيم عارضه بعض الناس من أهل البصرة والكوفة، وطلبوا إليه أن يرسل غيره، فلم يقبل لسابقة عهده مع معاوية بذلك، فتركوا البصرة وخرجوا عليه وأمروا عليهم «عبد الله بن وهب» في (١٠ شوال) وقصدوا النهروان، ولما بلغ علياً خبر الحكمين أنكر عليهما، وقال: إن هذين الحكمين نبذا حكم القرآن، واتبع كل واحد هواه واختلفا في الحكم، فاستعدوا للسير إلى الشام، وأخذ يحرص الناس على حرب معاوية

فاجتمع لديه ثمانية وستون مقاتلاً، وكانت الخوارج التقت بعبد الله بن خباب الصحابي قريباً من النهروان، فلما عرفوا سألوه عن الشيخين (أبي بكر وعمر) فأثنى عليهما وعلى عثمان، فسألوه عن حال علي قبل التحكيم وبعده، فقال: إنه أعلم الناس بكتاب الله. فقتلوه وقتلوا امرأته، فلما بلغ علياً ذلك ندب الناس إليهم وسار إلى النهروان، وأرسل إلى الخوارج - وكانوا أربعة آلاف - يقول لهم: إن من رجع إلى الكوفة أو إلى البصرة فهو آمن. فرجع قوم منهم إلى بلادهم، وآخرون انضموا إلى جيش علي، ولم يبق منهم إلا ألف وثمانمائة، فحمل عليهم علي بمن معه وقتلوهم عن آخرهم في ساعة واحدة، وقد قتل منهم: عبد الله بن وهب، وحر قوص بن زهير، وأراد النهوض إلى الشام فشكا إليه الناس التعب وعدم وفرة الذخيرة، وطلبوا إليه أن يرجعوا إلى الكوفة ليستعدوا للقتال، وبعد وصولهم إلى الكوفة بأيام أخذ علي يستحثهم على الخروج معه إلى الشام وهم يتثاقلون ولم ينشط معه أحد، وكان عبد الله بن ملجم لحق بالحجاز مع البرك بن عبد الله التميمي، وعمر بن بكر التميمي، وثلاثتهم من الخوارج، وتذاكروا فيما فيه الناس من الحروب، واتفقوا على قتل علي ومعاوية وعمر بن العاص في ليلة واحدة، وأخذ ابن ملجم على نفسه قتل علي وسافر إلى الكوفة، وسار البرك إلى الشام لقتل معاوية، ومضى عمرو بن بكر إلى مصر لقتل ابن العاص؛ وكان ولاه معاوية عليها بعد التحكيم. وأتى «ابن ملجم» إلى الكوفة، ولما كانت الليلة التي عاهد صاحبيه عليها أتى المسجد. وجاء عليٌّ ونادى بالصلاة، فضربه ابن ملجم بسيفه على رأسه فوقع واستخلف على الصلاة جعدة بن هبيرة، وقبض الناس على ابن ملجم فأوثقوه وأتوا به علياً، فنادى بالحسن ابنه، وقال: إن هلكت فاقتلوه كما قتلني، وإن بقيت رأيت فيه رأيي. وكان ذلك (فجر يوم الجمعة ١٩ رمضان سنة ٤٠ هـ).

ومات عليٌّ بعد يومين قضاهما في نصح المسلمين ووصية أولاده. وبعد دفنه أحضر الحسنُ ابن ملجم وقتله بسيفه الذي قتل به أباه.

وقد اختلف الناس في المكان الذي دُفن فيه عليٌّ؛ فمنهم من يقول: إنه دفن في قصر الكوفة، وبعضهم ذهب إلى أنه وراء سورها، وبعضهم يقول: إنه دفن بمقامه الحالي في النجف. وكان عمره خمسًا وستين سنة.

وكان له من الولد (١٤) ذكرًا و(١٨) بنتًا. والذكور هم: الحسن، والحسين، ومحسن من فاطمة، ومحمد الأكبر - المشهور بابن الحنفية - وأبو بكر، والعباس الأكبر، وعثمان، وعبد الله، ومحمد الأصغر، ويحيى، وعون - وقد قتلوا مع الحسين - وعُمر الأكبر، ومحمد الأوسط، وجعفر. وعقبه من الحسن والحسين ومحمد ابن الحنفية وعمر والعباس.

وبناته هنَّ: أم كلثوم الكبرى، وزينب الكبرى من فاطمة. ورقية، وأم الحسن، ورملة الكبرى، وأم هانئ، وميمونة، ورملة الصغرى، وزينب الصغرى، وأم كلثوم الصغرى، وفاطمة، وأميمة، وخديجة، وأم الكرم، وأم سلمة، وأم جعفر، وجمانة، وتقية. وبعد موت عليٍّ - كرم الله وجهه - بايع أهل الكوفة ابنه الحسن، وعاهده أربعون ألفًا منهم على الموت دونه. وجدد أهل الشام البيعة لمعاوية، وكانوا قد بايعوه بعد الحكمين، فسار الحسن بجيشه قاصدًا معاوية وعلى مقدمته قيس بن سعد، فأرسل معاوية من دس في جيش الحسن خبر قتل قيس، فاهتاج الناس لهذا الأمر وهجموا على سرادق الحسن ونهبوا ما فيه. ورأى الحسن أن أهل الكوفة لا ينصرونه، فمال إلى حقن دماء المسلمين، وكتب إلى معاوية يذكر له النزول عن الأمر بشرط أن يعطيه ما في بيت مال الكوفة ومبلغه خمسة آلاف ألف، وخارج دار ابجرء من فارس. وأخبر بذلك أخاه الحسين وعبد الله بن جعفر فعذلاه فتركهما. وكان معاوية

أرسل إليه عبد الله بن عامر يفأوضه في النزول عن الأمر ومعه ورقة بيضاء مختومة بختم معاوية ليشرط فيها ما يشاء. فكتب فيها أضعاف ما في الصحيفة الأولى. فلما سلم له وطالبه بالشرط أعطاه ما في الصحيفة الأولى وقال: هو الذي طلبت. وبهذا تم الأمر إلى معاوية. وكان ذلك في منتصف عام (٤١هـ)، ويسمونه «عام الجماعة» لأن الناس رجعت فيه إلى الإجماع على خليفة واحد.

الأنصار

الأنصار - وهم الأوس والخزرج - بطنان من الأزد، وكانت ديارهم مأرب باليمن، فهاجروا مع من رحل عنها بعد سيل العرم في القرن الثاني عشر قبل الإسلام، ومروا على يثرب؛ وكانت قرية فيها أسواق يقصدها أهل الجهات المجاورة، وأهلها كانوا يهودًا، وكانوا من بني النضير، وقريظة، وبني قينقاع وغيرهم. وكان لهم بها حصون يلجئون إليها عند الشدة. فنزل عليهم الأوس والخزرج على أن يكونوا تحت حكمهم، وما زالوا كذلك حتى كان ما كان من سوء سيرة القيطون أحد ملوك اليهود يثرب وظلمه وغشمه. فاستغاث الأوس والخزرج بملوك غسان، فساروا لنصرتهم، وأوقعوا بيهود يثرب. ومن ثم صار الحكم فيها للأوس والخزرج وشاركوا اليهود في أملاكهم، وأصبحت لهم عصبية عظيمة. ولهم حروب مشهورة لها أيام معدودة من أيام الجاهلية: منها يوم سمير، ويوم كعب، ويوم الربيع، ويوم البقيع.

وكان الأوس والخزرج أصحاب نجدة وهمة وشجاعة وأمانة. وقد كان أتى مكة بعض منهم للحج في مبدأ ظهور الدعوة الإسلامية، فقابلهم النبي صلى الله عليه وسلم عند العقبة على يسار الصاعد إلى منى قبيل المدرج الذي في أسفلها ودعاهم للإسلام، وقرأ عليهم شيئًا من القرآن، فأجابوه وقالوا له: إن بين قومنا شرًا، وعسى الله أن يجمعهم بك، فإن اجتمعوا عليك فلا رجل أعز منك. فلما قدموا المدينة ذكروا لهم النبي صلى الله عليه وسلم، ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم. وفي العام التالي وافى الموسم من الأوس والخزرج اثنا عشر رجلًا، فلقوا النبي صلى الله عليه وسلم بالعقبة الأولى، فبايعوه البيعة

الأولى، وكان من ضمنهم رافع بن عجلان وعبادة بن الصامت، ثم انصرفوا إلى المدينة. وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم مصعب بن عمير، وأمره أن يقرئهم القرآن، ويعلمهم قواعد الإسلام. فوصل المدينة واجتمع عليه رجال ممن أسلموا، وسمع به سعد بن معاذ وأسيد ابن حضير، وهما سيدا بني الأشهل، فذهب أسيد للإيقاع به، فقال له مصعب: أو تجلس فتسمع، فإن رضيت أمرًا قبلته، وإن كرهته كف عنك ما تكرهه؟! فقال: أنصفت. ثم جلس، فكلمه مصعب في الإسلام وقرأ له شيئًا من القرآن. فقال: ما أحسن هذا! وأسلم، وانصرف واحتال على سعد حتى أخذه إلى مصعب، فقال له مقالته إلى أسيد، وقرأ عليه قرآنًا فأسلم سعد، وبإسلامهما أسلم القوم، إلا عددًا قليلًا أسلم بعد الهجرة. وعندها اتفق جماعة منهم على المسير إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فساروا إلى مكة واجتمعوا عليه ليلاً دون أن يعلم بهم أحد بعقبة الحديبية تحت شجرة كانت هناك، وبمكانها الآن مسجد يسمى بـ«مسجد الشجرة»، وعاهدوه على أن ينصروه؛ فسماهم «الأنصار». وهنالك أمر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بالهجرة إلى المدينة، وكان أول من قدمها مهاجرًا أبو سلمة بن عبد الأسد. وفي شهر ربيع الأول من هذه السنة هاجر الرسول إلى المدينة، وقدمها لاثنتي عشرة ليلة خلت منه، ومعه أبو بكر رضي الله عنه، وقدم بهما دليلهما على قباء، فنزل صلى الله عليه وسلم على كلثوم بن الهدم، وأقام بينهم أيامًا، بنى فيها مسجدها، ودعا الناس فيه لصلاة يوم الجمعة، وهي أول جمعة في الإسلام، خطب فيها عليه الصلاة والسلام. ثم سار إلى المدينة فلما وصل إلى مكان مسجده وكان مربدًا لبني النجار، وكانت منهم أم أبيه عبد الله، قال: «ثامنوني به». قالوا: لا نبغي به إلا ما عند الله. فأمر به

رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبنى مسجداً، وأقام هو في دار «أبي»^(١) أيوب الأنصاري» حتى بنى مسجده وبيته (بيت عائشة). وكان يبنى فيه بيده الشريفة هو والمهاجرون والأنصار.

ومكث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بين الأنصار إحدى عشرة سنة، كان فيها لهم وللمهاجرين كلية كمالية علمية وعملية: تعلموا فيها الأخلاق الفاضلة، والمزايا العالية، والسيرة الحميدة، والتربية القويمة، والبلاغة في الأقوال، والمبالغة في محاسن الأعمال، فبعد صيتهم في جلائل الصفات، ومكارم الأخلاق، والشجاعة، والقوة، والمنعة، وشدة البأس، التي ظهروا بها في جميع المواقف التي أمرهم رسول الله بها، أو شهداها هو معهم رضي الله عنهم. فلما توفي النبي صلى الله عليه وسلم وصار الأمر بعده للمهاجرين واشتغل الناس بالفتح أخذ الأنصار ينساحون في أطراف البلاد الإسلامية بعد اتساع دائرتها بتلك الفتوحات المباركة حتى أصبح نسلهم في المدينة الآن يكاد لا يكون له أثر. وسبحان من يرث الأرض ومن عليها!

وكان أمر المدينة المنورة في صدر الإسلام موكولاً إلى الخلفاء الراشدين أنفسهم حتى إذا خرج «عليٌّ» رضي الله عنه إلى الكوفة بعد سير أهل مكة إليها للخروج عليه بأهلها، ولى على المدينة سهل بن حنيف الأنصاري، وهو أول ولاة المدينة في الإسلام.

(١) «أبو أيوب الأنصاري» مات في حصار القسطنطينية سنة (٦٨٨ مسيحية) أي في نحو السنة السابعة والأربعين للهجرة، وكان سار إليها مع الجيش الذي سيره معاوية لفتحها، وله فيها مسجد شهير في نهاية خليج قرن الذهب، وهو محترم جداً لدى المسلمين والنصارى واليهود على السواء في عموم الأستانة. وأهلها يسمونه «السلطان أيوب».

ومن هذا الوقت صار مركز الخلافة بعيداً عن المدينة، وصارت ولايتها منفصلة عن ولاية مكة، وكلتاها تابعة لمركز الخلافة مباشرة. وكان الخلفاء يبالغون في العناية بهما ويتخبون لهما ولاية من رجال الفضل والإصلاح، حتى إذا داخل الضعف الخلافة العباسية وأخذت عمال النواحي تتغلب على أطرافها وتغلب على مكة بنو الأخضر في نحو منتصف القرن الثالث، أخذت يدهم تتناول إلى المدينة المنورة. وما زال الحكم في المدينة مرتبكاً حتى استولت القرامطة على مكة فزاد ارتباكاً. ولما استولت الأشراف الحسنيون^(١) على أم القرى في منتصف القرن الرابع جعلت ولاية المدينة للأشراف الحسينيون، وما زالت في أيديهم إلى سنة (١٠٩٩)، وفيها صدر أمر الدولة العلية بتبعيتها لولاية الحجاز إلى الآن.

وهاك جدول بولاية المدينة أخذنا أغلب أسمائهم من كتاب «مرآة الحرمين» واستخرجنا من ابن الأثير وغيره تواريخهم إلى آخر زمنه، ولم نوفق لوضع تواريخ كثير ممن بقي بعده.

جدول أمراء المدينة المنورة عن كتاب «مرآة الحرمين»

زمن التولية سنة هـ	
٢٦	سهل بن حنيف الأنصاري
٤٠	خالد بن زيد أبي أيوب الأنصاري
٤١	مروان بن الحكم
٤٩	سعيد بن العاص

(١) كان بنو الحسن وبنو الحسين يلقبون بالأشراف حتى جاء الشريف «أبو نمى» فخص الحسينيون بلقب أشراف، وخص الحسينيون بلقب سادة؛ فيقولون: الأشراف الحسينيون، والسادة الحسينيون.

زمن التولية سنة هـ	
٥٤	مروان بن العاص
٥٧	الوليد بن عتبة بن أبي سفيان
٦٠	عمرو بن سعيد بن العاص
٦١	الوليد بن عتبة (ثانيًا)
٦٢	عثمان بن محمد بن أبي سفيان
٦٣	مصعب بن الزبير
٦٥	مصعب بن الزبير
٦٧	جابر بن الأسود عمر بن عبد العزيز عثمان بن حبان أبو بكر بن محمد بن عمرو
٧٠	طلحة بن عبد الله
٧٣	طارق بن عمرو
٧٤	الحجاج بن يوسف الثقفي
٧٦	أبان بن عثمان
٨٢	هشام بن إسماعيل
١٠١	عبد الرحمن بن الضحاك
١٠٤	عبد الواحد النضري
١٠٦	إبراهيم بن هشام المخزومي

زمن التولية سنة هـ	
١١٤	خالد بن عبد الملك
١١٥	محمد بن هشام
١٢٥	يوسف بن محمد
١٢٧	عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز
١٣٠	محمد بن عبد الملك بن مروان
١٣٢	داود بن علي
١٣٣	يزيد بن عبيد الله بن عبد المدان الحارثي
١٣٤	زياد بن عبيد الله
١٤١	محمد بن خالد بن عبد الله القسري
١٤٤	رباح بن عثمان المري
١٤٥	عبد الله بن الربيع الحارثي
١٤٦	جعفر بن سليمان بن علي
١٥٠	الحسن بن زيد بن الحسن بن علي
١٥٥	عبد الصمد بن علي بن عبد الله
١٦٠	محمد بن عبد الله الكثيري زفر بن عبد الله
١٦٦	إبراهيم بن يحيى إسحاق بن عيسى
١٦٩	عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر

زمن التولية سنة هـ	
١٧٠	إسحاق بن سليمان بن علي بن عبد الله عبد الملك بن صالح محمد بن عبد الله
١٧٨	محمد بن إبراهيم
١٨٠	موسى بن عيسى بن موسى بن محمد إبراهيم بن محمد علي بن عيسى عبيد الله بن مصعب بكار بن عبد الله محمد بن علي أبو البحري وهب بن منبه داود بن يحيى
٢٠٤	عبد الله بن الحسين بن عبد الله
٢٠٩	صالح بن العباس بن محمد بن علي
٢٢١	محمد بن داود بن عيسى بن موسى
٢٣٧	علي بن عيسى بن جعفر بن المنصور
٢٣٩	عبد الله بن محمد بن داود بن عيسى
٢٤٣	عبد الصمد بن موسى

زمن التولية سنة هـ	
٢٤٥	محمد بن سليمان الزينبي بن عبد الله
٢٤٩	عبد الصمد بن موسى (ثانيًا)
٢٥٠	جعفر بن الفضل بن عيسى بن موسى
٣٣٣	مسلم بن عقبة بن محمد القيلي أبو القاسم مسلم بن أحمد إسحاق بن محمد بن يوسف بن جعفر حسن بن طاهر الحسيني أبو علي طاهر الحسيني مهنا بن أبي هاشم وداود بن قاسم أبو عمارة الحسيني حسين بن محيط بن أحمد بن حسين شهاب الدين بن أبي عمارة بن مهنا مهنا الأعرج الحسيني بن حسين حسين بن مهنا الأعرج الحسيني أبو عبد الله بن مهنا الأعرج الحسيني
٥١٨	أبو فليته قاسم بن مهنا هاشم بن أبي عبد الله الأعرج جهاز بن قاسم
٦٣٥	شيحة بن هاشم

زمن التولية سنة هـ	
٦٦٨	أبو سند بن جمار منيف بن شيحة مقيل بن شيحة كبش بن المنصور الحسيني فضيل بن المنصور الحسيني عطية بن المنصور الحسيني
٧٨٣	محمد بن عطية بن المنصور الحسيني
٧٨٨	عمير بن قاسم الجمازي ثابت بن نضير الجمازي عجلان بن نضير الجمازي عزيز بن منازع
٨٢٥	حسن الجمازي الحسيني إيسان الجمازي الحسيني مانع بن علي بن عطية بن منصور أميان بن مناع
٨٣٩	قايتباي بن مناع الجمازي سليمان بن عزيز بن منازع الجمازي إيسان الجمازي (ثانيًا) سليمان الجمازي

زمن التولية سنة هـ	
	زهير بن إيسان قسيط بن زهير بن إيسان زهير بن إيسان (ثانيًا)
١٠٩٩	حسين بن زهير

سفر الحجيج من المدينة إلى مصر

الطريق من المدينة ينقسم بالنسبة للحجاج إلى أربعة طرق: طريق نجد؛ ولا يسلكه الآن إلا عرب تلك الجهات غالباً، وطريق الوجه: وهو الذي سلكه المرحوم سعيد باشا والي مصر سنة (١٢٧٧ هجرية) حينما قصد زيارة قبر المصطفى عليه الصلاة والسلام. ومحطات هذا الطريق هي: المدينة المنورة، ثم آبار عثمان. (وفيها ماء ومزارع وبساتين)، ثم محطة الضعيني (وماؤها قليل)، ثم محطة المليح (وماؤها حلو)، ثم محطة الشجوى (وماؤها كثير) وكانت مجتمع ومفترق المحملين الشامي والمصري في سفرهما معاً، ثم محطة أبي الحلو (لحلاوة مائها)، ثم محطة القفارات (ولا ماء فيها)، ثم محطة الفقير (وماؤها عذب)، ثم محطة مطر (ولا ماء فيها)، ثم محطة الخوثة (وماؤها عذب)، ثم محطة أم حرز (ولا ماء فيها). ثم قرية الوجه؛ ومنها كانوا يسرون إلى السويس برّاً أو بحراً.

وطريق ينبع: وهو الطريق الأكثر استعمالاً، ومنه يرجع سواد الحجيج المصري والروسي والمغربي، والسوداني، واليمني والجاوي، والهندي، وغيرهم. وهذا الطريق ينقسم إلى شعبتين: شعبة قبيل الحمراء تمر على ينبع النخل، ومنها إلى ينبع البحر، وعربان هذا الطريق من جهينة، وأرضه رملية ناعمة. والشعبة الأخرى بعد الحمراء وتمر على نقب القار (نقب علي) وهو ممر صعب بين جبلين شاهقين في طريقه كثير من الأحجار الضخمة على طول نحو (٢ كيلومتر) ولا تمر منه الجمال إلا جملاً جملاً، وفي الغالب ينزل عنها ركبها

لتعسر السير عليها فيه، ويسمون هذا النقب بقلعة حرب لمنعة الجبال التي تشرف عليه، ومنه يخرج المسافر إلى الصحراء التي توصله إلى ينبع البحر.

وهذا الطريق من الحمراء نصفه الشرقي للحوازم، ونصفه الغربي للأحامدة. ومتوسط المسافة بين المدينة المنورة ونبع (٢٣٠ كيلومترًا)، فإذا أضفنا إليها (٤٥٠ كيلومترًا) ما بين المدينة ومكة، و(٤٠) من مكة إلى عرفة ذهابًا وإيابًا، و(٨٠) من جدة إلى مكة، يكون مجموعها ثمانمائة كيلومتر، وهي كل ما يركبه الآن الحاج المصري برًا.

فإذا وصل الحجاج إلى ينبع انتظروا بها المراكب التي تنقلهم إلى بلادهم، وغالبًا ينتظرون فيها أيامًا كثيرة لعدم انتظام حركة نقلهم الناشئ عن قلة المراكب. وهنالك يكثر عناؤهم ويسوء حالهم وتشتد فاقتهم، وتفتك فيهم الأمراض لكثرة الأقدار التي تحيطهم من فضلاتهم، وخصوصًا من عدم صلاحية مياه الشرب.

وقد رتبت الحكومة المصرية لهم كونداسة في زمن الموسم ترشح لهم ماء البحر، ولكن عملها غير منتظم وماؤها لا يصرف إلا بإذن خصوصي لا يصل إليه فقراء الحجيج. ولا أظن إلا أن هذا من تعنت العمال الذين يجدر بحكومتنا السنية أن تشدد عليهم كل التشديد في القيام بواجبهم.

ويا حبذا لو انتبهت إلى ذلك الحكومة العثمانية الجديدة، وأسعفتها شركات السفن وخصوصًا الشركة الخديوية؛ فإنهم يخففون عن الحجاج المساكين كثيرًا من عنائهم مما يشكرهم عليه الإنسانية.

ومن «ينبع» يصل حجاج مصر إلى الطور لتمضية أيام الكورنتينا إن كان هناك حجر صحي؛ وهو مكان فسيح على طول (٣٣) درجة و(٣٧) دقيقة،

وعرض (٢٨) درجة و (١٤) دقيقة، وبينه وبين السويس (١٢٥) ميل، ومن هناك تأتي بشائر الحجاج بوصولهم إلى مصر بالسلامة على لسان البرق أو البريد، وكانت قبيلهما تصل عن يد بعض الأفراد الذين كانوا يحضرون من مصر لهذا الخصوص، ويعودون من الطور أو الوجه بما يبشر أهل الحجاج بسلامتهم نظير البقاشيش التي كانوا يأخذونها.

والطور قرية صغيرة على شاطئ خليج السويس الشرقي، وأغلب سكانها من الأقباط والأروام، وفي ضواحيها كثير من البدو، ويقرب منها عين ماء ساخن عليها بناء لعباس باشا الأول يسمونه حمام موسى، ويقولون: إنه نافع للأمراض الروماتزمية. وعلى مسافة يومين بالجمال من هذه القرية دير الطور المشهور، وفيه بساتين تنتج كثيرًا من الفاكهة، وفي شماله بشرق جبل المناجاة الذي كلم الله عليه موسى وذكره في القرآن الكريم في غير موضع، ويقصد هذا الدير حجاج الروس بعد نزولهم من بيت المقدس فيزورونه، ثم يرجعون إلى بلادهم. وفي شرق هذه القرية محجر الطور، وهو في نقطة صحية جدًا وفيه مباحر وافية بالغرض، وأحذية مرتبة، وبنائوها نظيف، وفيه اسبتياليت على غاية من النظام، ولكل مرض قسم مخصوص منها. ولقد أصبح هذا المحجر بعناية الحكومة المصرية أحسن محجر صحي في العالم. ولا شك أن بعض الصعوبات التي يلاقيها فيه الحجاج لا بد وأن تزول قريبًا بحسن عناية الحكومة واستمرارها على الاهتمام براحة الحجيج.

أمّا الطريق الرابع فهو طريق السكة الحديدية إلى الشام، وهو الذي افتتحته الدولة العلية رسميًا بأول قطار للمدعوين إلى هذا الاحتفال وصل إلى المدينة المنورة في (ثالث شعبان سنة ١٣٢٦، الموافق ٢٨ أغسطس سنة ١٩٠٨م)

وتسافر عليه الآن حجاج الشام والترك والروسيا وكثير من المصريين وخصوصًا برسم الزيارة.

وإنّا تتميماً للفائدة نقول لك: إن المسافة بين المدينة المنورة ودمشق الشام تبلغ (١٣٠٢ كيلومتر)، وإلى حيفا (١٣٣٣) كيلو تقطعها الوابورات في أربعة أيام تقريباً، ومتوسط سيرها فيها (٨٠ ساعة). وسير القطارات من الشام إلى معان على متوسط (٣٠ كيلو في الساعة)، ومن معان إلى المدينة على متوسط (١٥ كيلو في الساعة). وأجرتها في الدرجة الأولى من حيفا إلى المدينة ذهاباً وإياباً أربعة عشرة جنيهاً، وفي الدرجة الثالثة نصف هذا القدر، وليس فيها درجة ثانية؛ إلا أن عربات الدرجة الأولى ضيقة، وفي كل عين منها ستة مقاعد منفصلة بحواجز (مساند) ثابتة، والمسافر فيها إلى المدينة يعاني مشقات كبيرة، وخصوصاً في الليل الذي يقضيه كما يقضي النهار جالساً. وكان الأولى بها أن تكون ذات أربع مقاعد يمكن تجهيزها ليلاً إلى أربعة أسرة لنوم المسافرين فيها. لذلك ترى كثيراً من الركاب يفضلون ركوب الدرجة الثالثة وخصوصاً عربات البضاعة حيث يمكنهم أن يفرشوا بها فراشهم وينامون ويجلسون على راحتهم. وأملنا في رجال الدولة -حرسها الله- أن يفكروا في ذلك حتى تكون عربات الدرجة الأولى وافية براحة المسافرين في هذه المسافة الطويلة.

المحاجر والكورنتينات

لفظ كورنتينه أو كارانتينه أصله فرنساوي (Quarantaine) ومعناه الشيء الذي يبلغ عدده تقريباً إلى أربعين، والفرنجة يقولون: إن جمهورية فينسيا (البندقية) لما رأت أن الأوبئة كانت تأتي إلى أوروبا من طريق الشرق ومن بلاد المغرب بشمال إفريقية، اهتمت لهذا الأمر؛ لأن مراكبها هي التي كانت تصل الشرق بالغرب، وعينت لأول مرة سنة (١٣٤٨ م) مسيحية) ضباطاً صحيين كانوا يقومون بتفتيش السفن التي كانت تأتي من الخارج إلى ثغورها البحرية. وفي سنة (١٤٠٣) أقامت أول محجر صحي سمته لازاريت (Lazarette) وجعلته في جزيرة صغيرة قريبة منها بالبحر الأدرياتيقي اسمها سانت ماري دونازاريه (Sainte Marie de Nazareth) وكانت تحجر فيها على البضائع والأشخاص القادمين على بلادها من الشرق. ومشى على أثرها في القرن الرابع عشر والخامس عشر ثغور البحر الأبيض المتوسط العظمى، فأقامت جنوه محجراً صحياً سنة (١٤٦٧)، وأقامت مرسلية محجراً في سنة (١٥٢٦). وأول من اتخذ الاحتياطات الصحية ضد الطاعون في بلاده هو الملك رينيه (Rene) ملك نابل (نابولي) في سنة (١٤٧٦ م) وزادت العناية بها في سنة (١٦٥٦ م) التي فشا الطاعون فيها ببلاد إيطاليا كلها حتى أنهم كانوا يحرقون الموتى لعدم استطاعتهم دفنهم.

ولما ظهر الوباء الأصفر في كاتالونيا (مقاطعة إسبانيا عاصمتها برشلونة) اهتمت أوروبا لهذا الأمر وعملت فرنسا قانوناً للكورنتينات في (٣ مارس سنة ١٨٢٢) وهو أساس النظم الصحية للمحاجر. وقد أدخل على هذا القانون

تعديلات مهمة في (١٧ أغسطس سنة ١٨٤٧) ثم في (١٠ أغسطس سنة ١٨٤٩) ثم في (٢٤ ديسمبر سنة ١٨٥٠).

هذا ما كان في أوروبا بخصوص الكورنيتين، أما بمصر فإن (محمد علي) ذلك المصلح الكبير فكر في ضرورة إنشاء مجلس صحي بها وشكل في سنة (١٨٢٠ ميلادية) مجلسًا كانت أعضاؤه من حكماء الجيش وصيدليته. وفي سنة (١٨٢٥) أدخل كلوت بك على هذا المجلس نظمات جمّة وسماه مجلس الصحة العمومي. ولما دخلت الكوليرا في مصر سنة (١٨٣١) زادت عناية محمد علي بهذا المجلس وأدخل إليه نظمات الكورنيتين بأوروبا خدمة للأمور الصحية والتجارية في جميع البلاد الواقعة على البحر الأبيض المتوسط، فجمع قناصل الدول وشكل منهم لجنة للنظر في الأمور الخاصة بالكورنيتين، وأصدر بذلك دكرينو في (٨ أكتوبر سنة ١٨٣١)، وفي سنة (١٨٣٢) بنى بالإسكندرية أول محجر صحي (Lazarette) في الشاطبي، ولا يزال الإسكندريون يسمونها «مظريطة» أو «الأطاريطة» إلى الآن.

وكان من ضمن هذا المجلس عضو مصري اسمه «طاهر بك»، وكانت له الكلمة العليا في أعمال المجلس لثاقب فكره وكبير همته والعناية التي كان يبذلها في مصادمة ذلك الوباء الذي ذهب بأغلب السكان في الوجه البحري. وفي (أواخر سنة ١٨٣٩) ألغى محمد علي هذا المجلس القنصلي ولم يحفل باحتجاجات الدول عليه في هذا الصدد وشكل إدارة الصحة العمومية بمصر وجعل رئيسها ناظر الأشغال العمومية والتجارة، وجعل لها سبعة أعضاء: منهم طاهر بك السابق ذكره، وستة انتخبتهم الحكومة المصرية من أعيان التجار. وفي مدة عباس باشا الأول أهملت هذه النظمات الصحية، فطلبت منه الدول الرجوع إلى النظمات الأولى القنصلية فلم يجب طلبها؛ بل ولم يعرها أية

التفاته. فأخذت فرنسا تسعى جهدها في تشكيل مؤتمر دولي صحي من الدول ذوات المصلحة في البحر الأبيض المتوسط؛ فتم لها ذلك واجتمع هذا المؤتمر في باريس وكان فيه أعضاء من فرنسا ومرسلها والنمسا وإسبانيا وإيطاليا واليونان والبرتغال وسردينيا والروسيا وتسكانيا وتركيا، وعملوا قانوناً في (٤ يونية سنة ١٨٥٣) راعوا فيه السهولة في الحجر خصوصاً على البضائع؛ لأن العلم كان وصل باكتشافاته المفيدة إلى أن أغلب الأوبئة ليست معدية. ولم توافق إنكلترا على قرارات المؤتمر واتخذت احتياطات خصوصية لموانئها.

وكان من نتيجة هذا القانون أن تشكل مجلس صحي دولي في الأستانة ومجلس في الإسكندرية، ووظيفتهما إعلان أمر الأوبئة عند ظهورها وعمل الاحتياطات اللازمة للوقوف في وجهها حتى لا تصل إلى أوربا، ولقد تقرر أيضاً تعيين بعض أطباء يركبون البحر على الدوام إلى الشرق الأقصى ليرسلوا إلى المجلسين بملاحظاتهم الصحية على البلاد التي يمرون عليها.

وعليه فقد اهتم «سعيد باشا» وشكل في سنة (١٨٥٤) مجلساً صحياً وألحقه بنظارة الداخلية في (٢١ إبريل سنة ١٨٥٧)، وجعل من حقه النظر في الأمور الصحية من داخل البلاد، كما شكل لجنة للنظر في الأمور البحرية الصحية (الكورنتينية). وكانت يد هذه المصلحة الأخيرة مغلوطة عن التصرف بدون إدارة الحكومة المصرية إلى سنة (١٨٨١) التي صدر في (٣ يناير) منها دكريتو بفصل إدارة المصلحتين عن بعضهما، وذلك بناء عن اتفاق من الدول مباشرة، وسميت الأولى مصلحة الصحة العمومية وجعل مقرها مصر، وسميت الثانية مجلس الصحة البحرية والكورنتينات المصرية وجعل مقره بالإسكندرية، ثم تغير هذا الدكريتو بدكريتو آخر صدر بتاريخ (١٩ يونية سنة ١٨٩٣) بناء على قرارات مؤتمر باريس المنعقد في السنة المذكورة.

وهذه الكورنتينات كلها لم يكن الغرض منها الحجر على الحجاج؛ لأن سفرهم من وإلى مكة كان على طريق البر، وكانوا يفتكرون أن طول مسافة هذا السفر مطهر لهم من الأوبئة، إلا أن شدة كوليرا سنة (١٨٥٨) في بلاد الحجاز جعلت أغلب الناس يفر منها إلى مصر من طريق البحر على القصير. فاحتاطت الحكومة المصرية لهذا الأمر وضربت الحجر على الحجاج لأول مرة في بئر عنبر في وسط المسافة بين القصير وقنا. أما الحجاج الذين سافروا مع القافلة عن طريق العقبة فإنها منعهم من الدخول إلى السويس وضربت عليهم الحجر في عجرود.

ومن هذا العهد رأوا ضرورة إقامة محجر صحي في الطور؛ إلا أن مؤتمر القسطنطينية رأى الاستعاضة عن الطور بالوجه؛ لأن سواد الحجاج كان يسافر عليه برًا، واستمر الحجر فيه أو في رأس ملعب على ركاب القوافل، وفي الطور أو عيون موسى على ركاب البحر كلما كانت تقضي بذلك الضرورة إلى سنة (١٨٧٧) التي من ابتدائها كثر سفر الحجاج من طريق البحر.

وهناك أخذت الحكومة المصرية في إكمال الاستعدادات في الطور حتى صارت في سنة (١٨٩٣) وافية بالغرض منها. ومن ثم أصبحت هي المكان الوحيد الذي تعمل فيه الكورنتينا على الحجاج المصريين أو الذين يمرون على مصر، ولا تزال الإصلاحات تدخل إليه من وقت إلى آخر. ومن المعجب أنه قد ودر في مادة (Lazarette) بقاموس لاروس الكبير: أن بعض الإفرنج قال: إن أصل هذا اللفظ أتى من الكلمة العربية (الأزهرية) وذلك لأن الأزهر بمصر إنما هو ملجأ للعميان والشيخ المتقاعدين، وهو كلام أساسه الجهل المطبق أو التحامل على الأزهر والأزهريين، ولو أنصف القوم لعرفوا لهذه الجامعة الإسلامية حقها في خدمة العلوم على اختلاف أنواعها. فكم لها آيات

من العرفان على بني الإنسان تذكر فتشكر. ولا غرو فاهتمام الجنب العالي الخديوي وحكومته السنية بالأزهر الآن لا بد وأن يجعله يومًا من الأيام في مقدمة الجامعات الكبرى نظامًا وإحكامًا.

أمّا كلمة لازاريت (Lazarette) فهي لاتينية معناها (Ladre) يعني الأبرص أو المجذوم. وكانت الدولة الرومانية تبالغ في الحجر على المجذومين؛ بل كانوا يضعونهم تحت الحجر طول حياتهم، وكان عقاب من يخرج من نطاقه منهم أن يضرب بالرصاص، وهو قانون حق لولا أنه مبالغ في شدته، وقد ورد في الحديث الشريف: «فر من المجذوم فرارك من الأسد». وقد أقام الوليد بن عبد الملك الملاجئ في أنحاء دولته وجمع إليها المجذومين، وأجرى عليهم الأرزاق، وهو أول من أقام الملاجئ من هذا القبيل.

هذا هو تاريخ الحجر الصحي عند الإفرنج. ولكن يرى المطلعون على التاريخ أن المسلمين رأوا ضرورة هذا الحجر قبلهم. فقد ورد في تاريخ «ابن الأثير» في أخبار السنة الثامنة عشرة من الهجرة ما نصه:

وكان عمر بن الخطاب قدم إلى الشام في مدة ذلك الطاعون (وهو طاعن عمواس الذي فتك بأهل الشام فتكًا ذريعًا)، فلما كان بسرع -وهو موضع قرب الشام بين المغيثة وتبوك- لقيه أمراء الأجناد منهم أبو عبيدة بن الجراح، فأخبروه بالوباء وشدته، وكان معه كثير من المهاجرين والأنصار لأنه خرج بهم غازيًا، فجمع المهاجرين الأولين والأنصار فاستشارهم فاختلفوا عليه: فمنهم القائل: خرجت لوجه الله فلا يصدق عنه هذا، ومنهم القائل: إنه بلاء وفناء، فلا نرى أن تقدم عليه. فقال لهم: قوموا، ثم أحضر مهاجرة الفتح من قريش فاستشارهم فلم يختلفوا عليه وأشاروا بالعود، فنأدى عمر في الناس أني مصبح على ظهر. فقال أبو عبيدة: أفرارًا من قدر الله؟ فقال: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة

(يعني لانتقمتم منه) نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله! أرأيت لو كان لك إبل فهبطت وادياً له عدوتان: إحداهما مخصبة، والأخرى مجدبة، أليس إن رعيت المخصبة رعيتها بقدر منه، وإن رعيت المجدبة رعيتها بقدر منه. وكان عبد الرحمن بن عوف غائباً فحضر فأخبر أنه سمع من النبي صلى الله عليه وسلم حديثاً في ذلك؛ وهو قوله صلى الله عليه وسلم: «إذا سمعتم بهذا الرباء ببلد فلا تقدموا عليه، وإذا وقع ببلد وأنتم به فلا تخرجوا فراراً منه». فكان ذلك الحديث موافقاً لما رآه عمر رضي الله عنه، فانصرف بالناس إلى المدينة.

وقد ورد هذا الحديث بـ«البخاري» في الجزء الرابع بكتاب الطب بهذا النص: حدثنا حفص بن عمر، حدثنا شعبة قال: أخبرني حبيب بن أبي ثابت قال: سمعت إبراهيم بن سعد قال: سمعت أسامة بن زيد يحدث سعداً عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها»، وقال شراح الحديث: إن المنع من الدخول لا يتناول من كانت للمرضى مصلحة في دخوله كالأطباء وغيرهم. وهل هذا الحديث الشريف إلا قانون صحي وضع للناس قبل أول قانون وضعته فينسيا (البندقية) بثمانية قرون.

الطريق إلى الحرمين في غابره وحاضره (ولقب الحاج عند عامة المسلمين)

كانت طريق الحجيج إلى بيت الله الحرام كلها مشقات وأخطارًا في الزمن السابق بما كانت تلقيه يد الطبيعة في سبيلهم من الشدائد الطبيعية التي كانت تفتك بسوادهم في الطريق من حر الصيف وقر الشتاء، أو جفاف ماء الآبار في هذه الصحراء المحرقة، وما كان يدهمهم فيها من السيول التي أشد ما حصلت في سنة (١١٩٦) حيث اجتاحت نصف الحجيج المصري بين مكة والمدينة. وعدا هذه الشدائد الطبيعية فكثيرًا ما كانت توقع بهم يد أشرار الأعراب، وأقسى ما وقع لهم في سنة (١٢٠٠)، وكان أمير الحاج المصري أمسك بعض لصوص حرب في طريق المدينة ووسمهم بالنار على خدودهم، فصرخت صرختهم وتلاحقت به قبائل حرب وحملوا عليه، فهرب مع عسكره ووقعت الحجاج بين أيديهم فأفنوهم عن آخرهم وأخذوا ما كان معهم من سلب وذخيرة. وكثيرًا ما كان تجاذب السلطة بين أشراف مكة وبعضهم، أو حربهم مع قبائل الأعراب، أو اختلاف أهل مذهب مع أهل مذهب آخر: يقفل في وجه الحجاج أبواب مكة أو المدينة بعد وصولهم إلى هذه أو تلك فيرتدون عن الأولى من غير تأدية المناسك، وعن الثانية بدون زيارة السيد الرسول، ويعودون إلى بلادهم وقد أضافوا على متاعبهم الأولى مشقات جديدة تزيد في شدتها عليهم آلامهم المعنوية من حرمانهم من أمنيته فتضعف قواهم وتخور عزائمهم، وغالبًا ما كانت تشتتهم يد الفوضى وتعرض بهم حال الضعف إلى النهب والسلب!! كل ذلك كان يحصل لحجاج بيت الله الحرام والناس لا

يمنعهم عنه مانع ولم يسمع أنهم انقطعوا عنه من أنفسهم في سنة من السنين، اللهم إلا ما قعد ببعضهم من غير جزيرة العرب أيام القرمطي والوهابي؛ لأن الطريق كانت مقطوعة عليهم، ولم يسمع بأن جميع المسلمين أهملوا هذا الواجب مطلقاً، ولم يقف أحد منهم بعرفة من مبدأ الإسلام إلى الآن، إلا في سنة (٦٥٤) التي لم يحج فيها أحد للفتنة التي كانت بين الأشراف على إمارة مكة؛ لذلك كانت الحجاج إذا طلّعوا إلى أداء هذه الفريضة كانوا أول ما يستعدون على سلاحهم كأنهم سائرون إلى دار حرب لا إلى دار قد أمن الله فيها حياة الإنسان والحيوان؛ بل وحياة الأشجار، فإذا عادوا إلى بلادهم استقبلهم أهلهم وذوهم بالطبول والزمور فيقيمون لهم الأفراح والليالي الملاح بعد أن يعدوا لهم كل ما في راحتهم ورفههم من نقش الدور وتجديد ما قدم عهده فيها من فرش وغيره، لا فرق في ذلك بين أمير أو فقير. كانت الطبقة الصغرى - وهي سواد الحجاج وأكثرهم مشقة طبعاً - تزوق لهم وجهات منازلهم؛ فيرسمون عليها صورة المحمل وقافلته وحرسه، ويرسمون إلى جانبها نخلة قد ربط إلى جذعها سبع وضع في سلسلتين من حديد ويقرب منهما رجل قد أشهر سيفه في يده إشارة إلى أن صاحبنا - حفظه الله - تغلب بقوته وشجاعته على ما صادفه في طريقه هذا من المخاطر والمهالك.

لذلك كان ولا يزال لقب الحاج عند سواد المسلمين أشرف الألقاب التي يتحلى بها صدر أسماء الطبقة الصغرى، وهو يدل على ما يمتاز به الشخص من صفات الشهامة في الشبان، فإذا قيل لواحد منهم: يا حاج فلان؛ يعني يا أيها الشهم الشجاع، أما إذا لقبت به الشيوخ والكهول فإنما يكون ذلك إشارة لكمال يقينهم ومتانة دينهم الذي تحملوا في طريقه الأهوال التي تشيب منها الأطفال.

على أن طريق الحاج أصبح اليوم أقل صعوبة منه في أمسّه، لذلك ترى الحاج في عودته يستقبل بأبسط مما كان يستقبل به في الزمن السابق، وقليلًا ما تراهم بمصر يرسمون شيئًا على دور الطبقة الفقيرة، اللهم إلا محملاً يسير في جنده وإلى جانبه مركب بخارية أو قطار سكة حديد مما لا شيء فيه من معنى المشقة التي كان يصادفها الحاج في طريقه في الزمن السابق.

وفي الحقيقة فإن طريق الحاج اليوم أقل صعوبة وأكثر أمنًا منه بالأمس؛ بل لا نسبة بين الحالتين بالمرّة. وما دام طريق الحرمين أصبح محل اهتمام دولتنا العالية فلا بد أن يأتي يوم قريب يتذلل ما بقي فيه من الصعوبات، خصوصًا إذا تحقق خبر تسيير الطريق الحديدي بين المدينة ومكة وبين هذه وجدة، والله الهادي إلى سواء السبيل.

سفر الجنب العالى من المدينة إلى مصر

في فجر يوم (السبت ١٥ يناير سنة ١٩١٠م) الذي قرر الجنب العالى سفره فيه من المدينة المنورة إلى تبوك، قصد -حفظه الله- الحرم الشريف، وبعد صلاة الصبح، أدى خدمته في الحجرة الشريفة، وزار زيارة الوداع، ثم قصد المحطة التي اكتظت رحباتها بجموع الأعيان والأشراف والمأمورين الملكيين والعسكريين، وفي مقدمة الكل حضرات العلماء ونقيب الأشراف والمفتي والقاضي وخازن دار الحرم الشريف ومديره وسعادة «رضا باشا» محافظ المدينة المنورة. فصافحهم -حفظه الله- واحداً واحداً، وركب صالونه الخصوصي، شاكرًا لهم ما لقيه من آدابهم ولطف أخلاقهم أثناء إقامته بالمدينة، وركب في خدمة جنبه العالى سعادة دفتر دار المحافظة وحضرة المهندار الخصوصي الذي تعين لسموه من قبل حكومة الحجاز. ثم تحرك القطار في شروق الشمس تمامًا قاصدًا تبوك، بين طلقات المدافع وعزف الموسيقى وهتاف الأهالي.

وكان قطار المعية السنية قام إليها قبل القطار الخصوصي بساعتين، وقد ركب فيه نحو خمسين عائلة من مصريين وشوام وأتراك ومغاربة كان قطعهم في المدينة ضيق ذات يدهم، فأمر -حفظه الله- بتسفيرهم إلى بلادهم بناء على التماسهم.

ومر القطار في منتصف الليل على محطة العلا، ثم على مدائن صالح^(١) التي

(١) ومدائن صالح (وتسمى الحجر بكسر الحاء وسكون الجيم) نسبة إلى نبي الله صالح الذي أرسل إلى قوم ثمود، وكانوا يسكنون في هذه الجهات إلى يثرب. وهم قوم من العرب ذهب بعض المؤرخين إلى أنهم من اليمن، فروا إلى شمال شبه جزيرة العرب مع من هجرها بعد سيل العرم، وكانت مساكنهم فيها بحضر موت قرب مساكن عاد، ودليلهم على ذلك ما وجدوه على بعض آثارهم في العلا من الخط المسند (الحميري)، وقد ذكر «المقرئزي» في الكلام على أيلة ما ملخصه: إن حمير الأكبر ابن سبأ الأكبر أمر بطرد قوم ثمود من اليمن لظلمهم لمن جاورهم، فنزلوا من أيلة إلى ذات الأصال (أطراف نجد) فقطعوا الصخور ونحتوا من الجبال بيوتًا وتكبروا وطغوا، فبعث الله فيهم صالحًا نبيًا ورسولًا فكذبوه وسألوه أن يخرج لهم ناقة من صخرة هناك، فأخرجها لهم ففعلوها؛ فأهلكهم الله بالصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين (مصعوقين).

وذهب بعضهم إلى أن الثموديين من عماليق الشمال الذين أتوا من العراق وسكنوا مدينة بطره، وكان لهم بها دولة واسعة في القرن الرابع قبل المسيح، ويستدلون على ذلك بما وجدوه على كهوف الحجر من الخط الآرامي الذي هو كتابة الأقباط.

ومن ذهب إلى الرأي الأول يقول: إن الثموديين لم يكتبوا هذا الخط إلا بعدما ذهبت دولتهم وضعف أمرهم وصاروا تابعين لحكومة النبطيين في القرن الثاني أو الأول قبل الميلاد بحكم تغلب لغة المتبوع على التابع. وعندي أنه لا يبعد أن يكون أصلهم من عرب الرعاة الذين طردهم الملك تحوتمس في سنة (٢٠٥٠) قبل الميلاد، ومن المصريين تعلموا كيف ينحتون الجبال والصخور؛ قال تعالى: {وثمود الذين جابوا (نحتوا) الصخر بالواد}. فأتوا وأقاموا في المنطقة إلى بين الحجر والمدينة وصارت لهم بها دولة قوية. ثم كان لهم مع نبيهم صالح ما حسبك منه ما ذكره الله تعالى في سورة الأعراف، {وإلى ثمود (أرسل) أخاهم صالحًا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، قد جاءكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية، فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم. واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورًا وتنحتون الجبال بيوتًا، واذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين. قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحًا مرسل من ربه، قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون. قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون. ففعلوا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح اتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين}.

وفي تفسير «روح المعاني» أن ثمود كانت ديارهم من الحجر إلى وادي القرى جنوبًا، وقد جاء فيه في تفسير قوله تعالى: {أخذتهم الرجفة}: «قال الفراء والزجاج: أي الزلزلة الشديدة، وقال مجاهد والسدي: هي الصيحة، وجمع بين القولين بأن أخذتهم الزلزلة من تحتهم والصيحة من فوقهم». ولا يبعد أن هذه الحركة كانت ناشئة عن ثورة بركانية حصلت في حرة العوير (جبل بركاني تقدم ذكره في الطريق من الوجه إلى المدينة)، فكانت منها تلك الهزة العنيفة التي خسفت بالقوم في ديارهم من غير ما يشعرون؛ يؤيد ذلك ما حصل أخيرًا في كالابريا (بجنوب إيطاليا) من الخسف الذي كانت حركته ناشئة عن ثوران بركان فيروف. وعلى كل حال فقد كانت حادثة ثمود قبل زمن موسى عليه السلام؛ فقد ذكرهم شعيب لقومه على سبيل العبرة؛ قال تعالى حكاية عنه في سورة هود: {ويا قومي لا يجرمنكم شقاقني أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح}. وقد كان شعيب معاصرًا لموسى كما لا يخفى.

ولقد مر رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحجر في غزوته لتبوك في السنة التاسعة للهجرة ومنع قومه من الدخول إلى ديار ثمود والشرب من مياههم. وأرى أن ذلك لسببين مهمين: الأول أدبي وهو مبالغته عليه الصلاة والسلام في السخط على هؤلاء الأقوام لعصيانهم ربهم ومخالفتهم لنبيهم حتى كان من أمرهم ما كان، والثاني صحي؛ وذلك لأن كهوفهم المتروكة من زمن بعيد، وهي بمثابة مقبرة لهم، لا شك يكون هواؤها فاسدًا وماؤها مضرًا بمن يشربه.

أما النقوش التي شاهدها على ما وصل إلينا من هذه الديار وعليها بالخط الآرامي وهي لا تخرج عن عبارات دينية مما ينقش عادة على قبور كثير من الأمم إلى الآن. نذكر لك منها ترجمة عهد كتبه على قبره رجل اسمه «عائذ بن كهيل»: «هذا القبر الذي بناه عائذ بن كهيل بن القيس لنفسه وأولاده وأعقابيه ولمن يكون في يده كتاب من يد عائذ يبيع له ولأبي واحد يخوله عائذ في حياته أن يدفن فيه. في شهر نيسان السنة التاسعة للحارث ملك الأنباط محب شعبه (وذلك حوالي سنة ١٨ بعد الميلاد) ولعن ذو الشر ومناة وقيس كل من يبيع هذا القبر أو يشتريه أو يرهنه أو يهبه أو يؤجره أو ينقش عليه شيئًا آخر أو يدفن فيه أحدًا إلا الذين كتبت أسماؤهم أعلاه. إن القبر وما كتب عليه فهو حرم مقدس، حسب القاعدة التي يقدها الأنباط والслаميون إلى أبد الأبد». (انظر صفحة ٨١ من الجزء الأول من «تاريخ العرب قبل الإسلام» لصديقنا المؤرخ الفاضل جورجى أفندي زيدان).

ومن هنا ترى أن القوم غيروا ديانتهم بوثنية النبطيين الذين كان من آلهتهم ذو الشرى ومناة وقيس وهبل واللات وغيرها، ومنهم أخذ العرب وثنتهم.

تبعد عنها بنحو خمسة وعشرين كيلومتراً، ووصل -حفظه الله- إلى حذاءات كورنتينة تبوك في الساعة الثالثة بعد ظهر اليوم التالي (الأحد)، فدخل القطار الخصوصي إلى الكورنتينة، وبقيت فيه دولة الوالدة مع حاشيتها، أما الجناح العالي فإنه نزل بمعيته إلى الحذاء الذي ضربت فيه صواوينه الخصوصية وخيام حاشيته من ملكيين وعسكريين. ومكث -حفظه الله- في الكورنتينة خمسة أيام كان يتردد في أثنائها من الصيوان الخصوصي إلى صالون قطار السكة الحديد، وكان الهواء في تلك الأثناء بارداً جداً يتراوح بين (١٥ درجة سنتجراد) نهراً و(٥ تحت الصفر) ليلاً. أما الرياح فقد كانت شديدة جداً لا تستقر معها الخيم ثابتة في أمكتتها، بل كنت تراها متزعزعة على الدوام وخصوصاً في اليوم الأول والثاني، وكثيراً ما كنا نشاهد خيام الكورنتينة التي في الحذاءات الأخرى تطير من أماكنها فيسرع أربابها بالجري وراءها ويتعلقون بأطنابها فيوقفونها عن سيرها بعناء شديد، ويرجعون بها ثم يزاولون نصبها وهم في عراك مع الرياح يزهق الأرواح.

وفي هذه الكورنتينة اثنا عشر حذاء جويّاً تحيطها وتفصلها عن بعضها شبكة من السلك، وهي ستة في مقابلة ستة أخرى، يسير فيما بينها شريط الطريق الحديدي، وطول كل حذاء مائة متر في عرض (٧٥ متراً)، وليس فيها أبنية أصلاً، اللهم إلا مبخرة واحدة في جوار الحذاء الأول، أخذ إليها عسكر

ولقد اهتمَّ الجناح العالي الخديوي بخدمة العالم التاريخي بنقش ما بقي من آثار الحجر، فأوفد إلى هذه الجهة البروفسور «هيس» أحد المستشرقين السويسريين ونزيل مصر الآن، فعاد منها ببعض صور غير مهمة مما أبقته فيها يد السراق. ويوجد كثير من آثار القوم في متاحف لندن وباريس وبرلين والأستانة. وقد بلغني أنه يوجد منها شيء كثير في صناديق محفوظة في مدينة حيفا منذ سنتين على دمة متحف القسطنطينية، ولا أدري ما هي الحكمة في عدم إرسالها إليه إلى الآن. وعلى كل حال فإن المشتغلين بالآثار النبطية والشمودية لا بد أن يزيدوا يوماً من الأيام معرفة هؤلاء الأقوام.

الحرس والخدم فتبخرت ملابسهم وظلوا في أثناء التبخير عرايا في حوش المبخرة وهم يرتعدون من شدة البرودة، ولا شك في أن دولتنا العلية ستزداد عنايتها بهذا المحجر^(١) حتى يكون كافلاً لراحة حجاج بيت الله الحرام.

وكان حضر إلى تبوك أثناء الحجر جناب «منيسر باشا» الألماني باشمهندس الخط الحديدي الحجازي، وسعادة «وفا بك» قائمقام معان، و«علي بك فؤاد» باشكاتب المتصرفية، للسلام على الحضرة الفخيمة الخديوية، فلم يقابلهم جنابه العالي قياماً بواجب قانون الكورنتينات، فبقوا في ضيافته بإدارة المحجر، حتى انقضت مدة الحجر في (صباح يوم الجمعة ٢١ يناير)، فحضروا إلى المخيم الخديوي ونالوا شرف المثول بين يدي حضرته العلية. وهنالك ابتدئ في شحن القطارات، وتحرك الركاب الخديوي في الساعة الثانية بعد ظهر ذلك اليوم، فمر على محطة تبوك؛ وهي محطة صغيرة تبعد عن الخدات شمالاً بنحو ألف متر، وفي الكيلو (٦٩٣) من الشام، وبينها وبين البلدة نحو ثلاثمائة متر. ومساكن هذه القرية على مرتفع من الأرض وسط الصحراء يحيط بها النخل وبعض غيطان منزرعة ذرة، وبعضها مبني بالطوب النيء وبعضها بالدبش، وقد رأيت فيها بيتين موشيين بالجير من خارجهما، ومن أبنيتها ما هو بالطوب المدهوك من الداخل والخارج بالشهبة (طين به مادة جيرية). وفيها مسجد أقيم على المكان الذي صلى فيه عليه الصلاة والسلام حين خروجه إلى هذه الجهة، وعلى باب هذا المسجد على يمين الداخل إليه بئر من أثر السيد الرسول نبع مأوها بين يديه

(١) هذا المحجر لا يزال خاصاً بأهل تركيا والشام؛ أما أهل مصر فإنه لا بد لهم من تمضية الحجر الصحي في الطور قبل دخولهم إلى الثغور المصرية، وقد حصلت مخاطبات رسمية في اعتبار كورنتينة تبوك كورنتينة عامة بحيث يكتفى الحجر فيها على المصريين وغيرهم؛ ولكن لم يتقرر شيء بهذا الخصوص إلى الآن.

صلى الله عليه وسلم في وقت كان هو ومن معه في شدة الحاجة إلى الماء، وهي التي يشيرون إليها ضمن معجزاته صلى الله عليه وسلم بأن «الماء نبع من بين أصابعه» وماء هذه البئر عذب جدًّا، وقد وضع عليها أخيرًا «كاظم باشا» الذي كان مدير أعمال السكة الحديد الحجازية، طلمبة تحفظ ماءها نظيفًا بعيدًا عن عبث العابثين، فجزاه الله خيرًا.

وما زال القطار سائرًا حتى مر على محطة ذات الحج، وفيها قلعة قديمة كانت تخزن فيها مؤن المحمل الشامي حين سفره في البر، ثم وصل إلى محطة معان في نحو نصف الليل: وهي أكبر محطة بين المدينة المنورة والشام، وعلى كيلو (٤٥٩) من دمشق؛ وفيها ورشة كبيرة لتصليح الوابورات، وبيوت لمستخدمي هذا الخط الحديد، منها منزل جميل لمينس باشا.

وقرية معان تبعد عن المحطة بنحو (٢٠٠٠ متر) إلى الغرب بانحراف إلى الشمال، ولا تظهر للمسافر من المحطة لأنها في جوف الجبل، وسكانها نحو ألف شخص يشتغل معظمهم في أعمال الطريق الحديدي، وقد كانوا قبلاً يهاجرون للتجارة البسطة، ولا يشتغل بالزراعة منهم إلا القليل فيما لا يبعد عن قريتهم لخوفهم من عرب الحويطات الذين يوجدون بكثرة في تلك المنطقة، وكثيرًا ما كانوا ينقضون عليهم وينهبون مزارعهم. وفي شمال هذه القرية على مسافة ثلاث ساعات خرائب كثيرة اسم أكبرها بسطة (وأظن أنها أثر مصري) ثم أذرح (أصرح) وفيها تلال قديمة يتخللها آثار عتيقة. وفي تلك الجهة مياه

كثيرة عذبة وأراض زراعية مما يدل على عمرانها في قديم الزمان. وجل هذه الخرائب من آثار^(١) مدينة النبطيين.

(١) والمنطقة التي في غرب السكة الحديد فيما بين معان وعمان إلى نهر الأردن والبحر الميت وما يليه جنوباً غنية جداً بالآثار القديمة التي بعضها للنبطيين والفلسطينيين والعرب والرومان والمصريين (البطالسة). وأفخم هذه الآثار مدينة بطره (Petra) (كلمة يونانية معناها حجر) ومنه قولهم (Arabi Petra) يعني بلاد العرب البحرية، وهي تبعد عن معان غرباً بمسافة (٣٥ كيلومتراً) تقريباً، وعن العقبة جنوباً بمسافة (١٣٠ كيلو)، وترى بها إلى الآن كثيراً من المباني الفخيمة الأثرية، وهي في واد ترتفع الصخور إلى (٥٠ متراً) على مدخله الذي تختلف سعته من (٣ إلى ٩ أمتار)، وقد نقر فيها هيكل فخيم جداً على ارتفاع عشرين متراً، وفيه كثير من النقوش الجميلة، ويسمونه بخزنة فرعون، ويظن بعضهم أنه للرومان، أقاموه بعد تملكهم المدينة بمعبودهم إيزيس.

ويوصل طريق هذا المدخل إلى واد واسع يقطعه مجرى ماء من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي كانت فيه المدينة. ولا تزال أطلالها به إلى الآن ويسمونه وادي موسى. وعلى جانبه قبور نقرت في الصخر، والتي على يمين الوادي منها يعني إلى جهة الشرق كانت لأشراف القوم؛ لما تشاهده عليها من النقوش والرسوم التي تزيد في فخامتها، أما التي على يساره (في الجهة الغربية) فهي لعامة الناس. وعدد هذه القبور لا يقل عن (٧٥٠) قبراً، وكلها منقورة في الصخر. ويقرب منها تياترو قد نقر في الجبل بمرسحه ومقاعد، وفيه (٣٣) مدرجاً على هيئة أنصاف دوائر تسع (٣٠٠٠) شخص.

ويقصد بطرة سنوياً في فصل الربيع قوافل السياح من الإفرنج وعلى الخصوص من الأمريكان. ولا بد لزيارتها من إذن خصوصي من ولاية الشام وهو ما (كان) لا يسهل على كل إنسان الحصول عليه. وكانت هذه المدينة عاصمة لحكومة الأنباط، وهي حكومة عربية كبيرة كانت توجد مدة القرن الرابع قبل المسيح. وكانت لها مدنية عالية، وجيوش قوية، ساعدت الإسكندر الأكبر في استيلائه على بلاد الفرس وعلى مصر. ولقد حاربها أنطيوخوس (Antegon) خليفة الإسكندر في سنة (٣١٢) قبل الميلاد، فانهزم أمام جندها الباسل، وقال: إنه لم يمارس في حروبه في الشرق والغرب رجالاً مثل رجالهم. ثم حاصروهم ديمتريوس وانقلب عنها خائباً.

وكانت مملكة النبطيين في القرن الثاني قبل المسيح قوية جداً، وضربت ملوكهم السكة باسمهم، ومن أكبر ملوكهم الحارث الذي ملك في سنة (١٦٩ م)، وامتد ملكه إلى وادي القرى جنوباً، ودخل في حكمه العلا والحجر وما والاها شرقاً إلى حدود العراق، وغرباً إلى بحيث جزيرة سينا. وكانت مدينة بطره المركز التجاري بين الشرق والغرب والشمال والجنوب إلى مبدأ القرن الثاني بعد المسيح، حيث

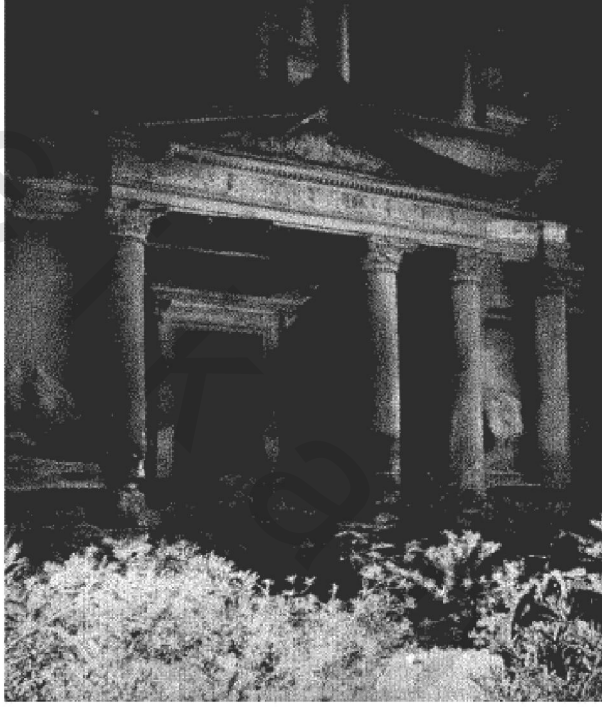
وفي (صباح يوم السبت ٢٢ يناير) أمر الجناب العالي -حفظه الله- فسارت حملة الجمال والهجن التي كانت في ركابه السامي ومعها بعض الحرس الخديوي

ساق عليهم الإمبراطور تراجان الروماني جيوشه فهدم مدينتهم، واكتسح ملكهم، ومزقهم كل ممزق، ولم تقم لهم بعدها قائمة، حتى أن مؤرخي العرب لم يذكروا عنها كلمة واحدة في فتوح العرب للشام. وإلى النبطيين ينسب الرقي الذي حصل في الكتابة التدمرية حتى كانت الحروف النبطية أمهات للحروف العربية، وحسبهم بذلك فخارًا.

والعرب تسمي هذه المدينة من زمن بعيد بالرقيم. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس: «أن الرقيم واد دون فلسطين قريب من أيلة، والكهف في ذلك الوادي، فهو من رقمة الوادي أي جانبه». وأظن أن الرقيم بمعنى مرقوم، لما هو مكتوب ومنقوش على كهوفها، وربما كانت هذه الكهوف هي المعنية بقوله تعالى في سورة الكهف: {وترى الشمس إذا طلعت تزاور (تميل) عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم (تبعد عنهم) ذات الشمال}. وإلى شمال هذه المدينة على الجبل قبر هارون أخي موسى، ويقصده العرب من قديم الزمان لزيارته، وقد ابتنى الصليبيون قلعة إلى جواره.

وتحت جبال الشيخ أثر يقال له: قلعة بانياس، ويظنون أنه من أعمال الغسانية. وفي الكرك هيكل الشمس. وفي عرك الأمير هيكل من هياكل الآمونيين يقال له: هيكل العبد، وفي عمان آثار رومانية تدهش العقل، وفي ميدبة التي تبعد عن عمان بنحو عشرة كيلو متر، آثار جميلة يسمونها خربة الفال. وفي حصبان (حسبان) التي تبعد عنها إلى الشمال الغربي بنحو خمسة عشر كيلومترًا آثار من آثار مملكة يهوذا، ولم يحفظ منها إلا صهاريج جميلة منقورة في جوف الجبل، ولها فتحات من أعلاها يدخل منها الماء، وفي جرش التي تبعد عن عمان بنحو خمس ساعات آثار فخيمة جدًا، ويقرب منها قبر يزعمون أنه لهود عليه السلام، ويوجد في محطة القصر قلعة ظيظا. وكان بمحطة مشاتا آثار جميلة، ومن ضمنها قصر من القرن السابع قبل المسيح، وكانت له وجهة من الفخامة بمكان أخذها الألمان هدية من السلطان عبد الحميد ونقلوها إلى برلين سنة (١٩٠٤ م). وفي عمان آثار جميلة جدًا. وأهم ما فيها القلعة التي هي من هياكل الآمونيين، وفيها كثير من المغائر والقبور المنحوتة في الصخور، وعلى كل حال فهذه البلاد ملأى بآثار الأقدمين التي يهتم بها الأجانب ولا يكاد يعرفها أهل البلاد أنفسهم وأكبرها فخامة قلعة بعلبك الشهيرة، أما آثار تدمر (بالمير) في الشمال الشرقي لدمشق فحدث عنها ولا حرج والطريق إليها من حمص.

تحت قومندانية حضرة البكباشي إبراهيم أفندي أدهم من معان إلى العقبة، ومسافة ما بينهما (١٣٠) كيلومترًا، واستمرت في سيرها إلى السويس من طريق البر.



خربة فرعون في طبره

وفي الظهر تناول سموه الغداء في دار «منيسر باشا». وفي مبدأ الساعة الثالثة تحرك قطاره قاصداً حيفا، فسار في صحراء واسعة ترى فيها الجبال على أفق البصر من الجانبين الشرقي والغربي، والأرض في هذه المنطقة رملية تكثر فيها الحجارة الصوانية السوداء، وكانت رؤس الجبال الغربية التي يسمونها جبال

الشيخ (وهي حلقة من حلقات السلسلة الجبلية التي تصل جبال لبنان بجبال السراة التي تقطع بلاد العرب من جنوبها إلى شمالها) تلوح لنا بيضاء من الثلوج كأنها قد شابت ناصيتها من وحشة الوحدة في هذه البيداء الجافة.

أمّا الجهة الشرقية فكان يلوح لنا فيها من آن إلى آخر، بعد ميل الشمس عن خط الزوال، بحيرات كبيرة من الماء، على دائرة أفق هذه الصحراء. وكنا كلما اقتربنا منها زاد صفاؤها وتحرك ماؤها على بعضه بتموجاته البلورية. وكانت تظهر في وسط هذه البحيرات أحياناً جزر قامت عليها غابات من الأشجار تزيد في جمالها، حتى إذا تاقت لها النفس، وصارت منك على تناول اللمس، وجدتها إحدى القيعان، سكن فيها الشيطان، فإذا وصلت إلى جنبه للحظوة بشرابه، وجدته كأن لم يكن!!

ومع أني بمجرد ما وقع بصري على هذه البحيرات كشفت مستورها، وعرفت ضميرها، ولكن كان يلفتني إليها على الدوام حسن منظرها، والتفكر في مخبرها، فكنت أنا أفكر أن هناك منخفضاً من الأرض مليء بالهواء، وقد انعكست في مرآته قطعة من السماء الصافية وانكسرت على سطحه ظلال ما في دائرته من الأعشاب، وأخذت تتحرك بحركة تماوجاته فتعددت صورها بما تكونت معه هذه الغابات الناضرة، وسط تلكم البحيرات الباهرة!! وزد على ذلك أن العين التي لم تعثر في الصحراء إلا على مناظر جافة، تعظم ما تراه فيها من الصور اللطيفة، وتنقله إلى الوهم حقيقة مجسمة.

وكنت أحياناً أتخيل أنها شيء من البحر تسرب، ومنا اقترب، حتى إذا خلب اللب بسنائه، وجذب القلب بلآلئه، واشتقت أن تنال من مائه، فتح فاه، وابتلع مياهه، ضاحكاً من سذاجته وبساطتك، وكنت أتوهم آونة أن الصحراء أرادت أن تخفف عن أبصارنا منظر ذلك الجفاء، فلبست لباس

البحار، وسط هذه القفار، وأخذت تتلون تلون الحرباء، وهل يبعد على شيطان الطبيعة أن يتشكل بما شاء حتى إذا اقتربت منه ضرب في الهواء، وطار طير العنقاء.

لا لا؛ بل هو السراب الذي {يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً}. أخبرنا به القرآن قبل ثلاثة عشر قرناً، ولم تعرفه أوربا إلا في القرن السابع عشر، بل لم تتحقق من أمره إلا تلك الحملة العلمية التي دخلت مصر مع نابليون بونابارت في رأس القرن التاسع عشر.

ولا غرابة في ذلك فإن السراب لا يوجد إلا في صحاري البلاد الحارة؛ ذلك أن الشمس إذا ارتفعت حرارتها سخنت الرمال التي على سطح الأرض فتسخن به طبقة الهواء التي تلامسها، وهذه الطبقة تسخن التي فوقها، وهذه تسخن التي تتلوها، وبذلك يتمدد الهواء في جميع هذه الطبقات بنسبة حرارة كل واحدة منها، ويحدث من انتقال الطبقة الساخنة منه إلى أعلى، ومن نزول الكتلة الباردة لتشغل محلها، تموجات تنعكس في صفاتها صور الأشباح القريبة منها، وهذه الصور تنعكس بمجموعها في منخفض من هذه الرمال المتبلورة فتراها من بعد كأنها حقيقة مجسمة.

أما مونج^(١) (Monge) وهو أول من شرح نظرية السراب، وكان من أعضاء الحملة العلمية الفرنسية السابقة الذكر، فقد ذهب إلى أن السراب إنما هو صورة أشباح حقيقية يشاهدها الرائي من بعد، فيخترق شعاعه البصري

(١) يرى صديقنا «كمال بك» أن الجيم التي تحتها ثلاث نقط أصلها أعجمي ونطقها يقرب من الشين المعطشة، فلا يصح وضعها للدلالة على حرف (Q) الفرنسية، وحيث إن حرف الزاي الفارسية التي تكتب بثلاث نقط تؤدي بالنطق بها هذا الحرف تماماً؛ فالأولى استعمالها بدله فنقول: مونز في (Monge) مثلاً.

الذي ينقل صورتها إليه طبقات الجو التي تختلف في حرارتها وكثافتها كلما اقتربت من أرض الصحراء التي سخنتها حرارة الشمس، ويأخذ فيها سيراً طبيعياً على خط منحن تتصل دائرته بالأرض في نقطة تنطبع في رمالها اللماعة صورة الشبح المرئي، وهنالك يتخيل للرائي أنه يشاهد الشبح من هذه النقطة وليس كذلك.

والطريق الحديدي في هذه الجهة كثير المنحنيات، بل تراه في حالات كثيرة مثل حرف (S)، أي على شبه قوسين متضادين أخذاً بطرفي بعضهما، وذلك يكون في حال صعوده على الجبال، أو قطعه لها من جهة إلى جهة أخرى. وما زال السير على هذا المثال حتى وصلنا إلى محطة قطرانة؛ وهي الثغر الحديد لمتصرفية الكرك التي تبعد عنها غرباً بنحو (٣٠ كيلومتراً)، وكان حضرة متصرفها قد حضر مع بعض رجاله لاستقبال الجناح الخديوي. وبعد تأديتهم إلى مقامه الفخيم واجب التسليم والتعظيم استأنف القطار مسيره حتى وصل إلى محطة الدرعا في منتصف الليل، ومنها يتفرع الطريق الحديدي إلى شعبتين: شعبة تسير نحو الشمال إلى دمشق الشام، والأخرى تسير نحو الغرب إلى حيفا. وكانت في هذه المحطة زينة لطيفة لمقدم سمو الخديوي المعظم، وكان كثير من أهل الدرعا (التي تبعد عن المحطة بنحو ألفي متر) قد حضروا للتمتع بمشاهدة طلعة الجناح العالي. ولقد مكثنا في هذه المحطة إلى فجر اليوم التالي، ثم سرنا في أرض زراعية من يميننا وشمالنا حتى وصلنا محطة تل شهاب، ومنها يتبدى الطريق الحديدي يسير في جوف الجبل، فكنت ترى القطار صاعداً، نازلاً، منجداً، متهماً، داخلاً في نفق، مشرفاً على هاوية، قاطعاً قنطرة إلى الشرق، ليمر على كوبري إلى الغرب، ذاهباً، آيماً، مقبلاً، مدبراً، كأنه الغزال في لفتاته، أو الثعلب في روغاته، متخطياً مجاري الماء، متباعداً عن مساقط السيول!!

وبالجملة فهذا الطريق صورة صغرى من طريق السمرنج فيما بين تريستا وفينا. وما زلنا سائرين بين هذه الهضاب، وهاتيك الشعاب، التي تحيرت في جبالها الألباب، مندهشين من جلال طبيعة هذه الجبال، وفخامة ما صنعتها بها يد الدولة من عظيم الأعمال، متمتعين بما على سفوحها من الخضرة التي يكثُر فيها بصل النرجس فيعطر الأرجاء بعبيره، والتي يرعى في كلئها آلاف من قطعان الأبقار والأغنام، حتى نزل الوابور إلى الوادي فشهدنا بعض الفلاحين يشق الأرض بمحراثه (وهو أصغر من المحراث المصري كثيراً). وبعد الكيلو (١٣٥) كثرت الخيام في جوف الوادي الذي ابتدأ يعمر بالسكان. وفي الكيلو (١٠٠) غزرت المراعي؛ فكنت ترى معالي الجبال ومواطنها مفروشة ببساط أخضر سندسي يتلون منظره في ارتفاعاته وانخفاضاته، وشمسه وظله، بألوان مختلفة ذكرتني بتغييرات مناظر البوسفور الجميلة. وهذا الوادي يسمى بوادي بيسان، وبعضهم يسميه وادي الساسابان، ويتدنى من محطة صماخ^(١) التي يتدنى منها جفلك السلطان عبد الحميد، وفيه خمسون قرية، وأرضه غاية في الجودة يشقها الطريق الحديدي، ومياهه غزيرة جداً. وكان القمح فيه على ارتفاع شبر من سطح الأرض، ويستمر هذا الجفلك إلى محطة العفولة، التي بمجرد ما تركناها شاهدنا بكل فرح وسرور مباني حيفا. وقبل الوصول إليها ببضعة كيلومترات شاهدنا على يسارنا طريقاً بالمكدام لفسحة القوم، وقد خرج إليه بعض الناس في عرباتهم لاستقبال أميرنا المعظم، وعلى حافته قهاو قد

(١) ويقرب منها قرية «حطين» المشهورة بوقعتها الكبرى التي حصلت في سنة (٥٨٣ هجرية) بين صلاح الدين الأيوبي والصليبيين، وانتصر صلاح الدين عليهم نصراً مبيئاً كان فاتحة لانتصاراته المتوالية عليهم. ويقرب من حطين قرية يقال لها: خياره بها قبر شعيب النبي. وصماخ تشرف على بحيرة طبرية وتسمى في التوراة بحر الخليل، وهو أعظم بحيرات سوريا. وطولها من الشمال إلى الجنوب (١٤ ميلاً)، وأعظم عرض لها ثمانية أميال.

اكتظت بالمتفرجين على مقدم هذا المليك الأكرم. وما زال القطار حتى وصل إلى رصيف المحطة التي رفعت فيها أعلام الزينة، واحتشد إلى رصيفها صنوف المستقبلين من عليّة القوم، وفي مقدمتهم مأمورو الدولة بين عسكريين، وملكيين، وقناصل الدولة، والعلماء، يتقدمهم فضيلة القاضي والمفتي وأمين الأشراف. وكان جناب المتصرف ووكيله وقومندان عموم القوة العسكرية قائمين بحفظ النظام. ولما وقف القطار الخصوصي ضربت المدافع، وعزفت الموسيقى العسكرية بالسلام الخديوي، وصعد سعادة المتصرف إلى الصالون مسلماً على الجناب العالي بالنيابة عن الدولة العلية، ودعاه إلى بهو المحطة الذي أعد لاستقبال سموه بصفة رسمية، فنزل -حفظه الله- وسار في وسط هذه الجموع التي لا يحصى عددها حتى دخل قاعة الاستقبال. وهناك ابتدأت التشريفات: فحضر الكبراء والعظماء للسلام على جنابه العالي، وكان يقدمهم إلى سموه سعادة القائم مقام. وبعد ذلك قدمت المتصرفية إلى جنابه الشاي ثم القهوة، وعندها قام باشكاتب المحكمة الشرعية وألقى خطابة طويلة مرحباً فيها بمقدمه السعيد، مهتماً تلك الديار بشرف حلوله في ربوعها، ثم تلا قصيدة غراء في مدح فضائل الحضرة الفخيمة الخديوية، فشكره الجناب العالي.

وقد كان -حفظه الله- مدة وجوده في هذه الحفلة يتكلم مع هذا بالتركية ومع ذاك بالعربية، ثم مع كل قنصل بلغته، متنقلاً من موضوع إلى آخر بعبارات كلها بلاغة وحكمة حتى أدهش الحاضرين عموماً من كمال معارفه، وواسع مداركه، وعظيم آدابه. وبعد نحو نصف ساعة ركب القطار إلى الاسكلة، وركب معه رجال الدولة مهنيين، مودعين، شاكرين لجنابه، مثنين على آدابه، فشكرهم -حفظه الله- ثم سلم عليهم ونزل في الزورق البخاري لوابور المحروسة، فبلغها بسلامة الله الساعة خمسة بعد الظهر من يوم (الأحد ٢٣

يناير سنة ١٩١٠م) ونزل في ركابه العالي من كان في خدمته من رجال المعية السنية. أمّا بؤساء الحجاج المصريين الذين سافروا على نفقة الجنب العالي فقد أمر -حفظه الله- بتسفيرهم إلى بورسعيد مع بعض رجال الحرس الخديوي على أحد وابورات الشركة الخديوية الذي كان منتظراً بالميناء.

وفي منتصف الساعة العاشرة مساء تحركت سفينة المحروسة باسم الله مجراها إلى ثغر الإسكندرية الذي ابتدأت تظهر معالمه في الساعة الرابعة بعد ظهر يوم (الاثنين ٢٤ يناير سنة ١٩١٠م)، وهنالك ابتدأ يتأثر وجودنا بعامل السرور والحبور، وما زلنا حتى تجلى لنا شاطئ الثغر يتعاقب مع ماء البحر، وأخذت تأتينا منه نسائم تترى، حاملة روائح ذكية، أحييت النفس، وأنعشت الحس، فكان ريحها منا كريح يوسف من يعقوب. نعم كانت تحمل إلينا ريح الأوطان والبنين والأهل والخلان، فضممناه لأنه أحاط بجسوم الأحباب، ونقل إلينا من عواطفهم ما حرك فينا الأشجان، وأهاج عبرة الولهان.

وما زالت المحروسة سائرة بنا حتى ألقت مراسها داخل الميناء في الساعة الخامسة مساء. وعندها أطلقت المدافع من طوابي المدينة بين هتاف الآلاف من المصريين الذين كانوا قد ركبوا الزوارق وساروا بها إلى ظهر البحر للتمتع برؤية مليكهم المحبوب. وهنالك حضر دولة الأمير محمد علي باشا مع حضرات النظار وصحبتهم السير «ألدن غورست» على زورق بخاري، واستأذنوا في الصعود إلى الركاب الخديوي. ولما تشرفوا بالمثل بين يديه الكريمتين أخذوا يرتلون آي حمد الله على وصول مليكهم العزيز بكمال الصحة والعافية؛ فأبدى لهم -حفظه الله- شكره وامتنانه، ثم نزل وهم في ركابه العالي إلى زورق المحروسة ويمم سراي رأس التين العامرة، وتبعته دولة الوالدة وحاشيتها، ثم رجال المعية السنية في زوارق أخرى.

وكانت السراي الخديوية غاصة بكبار الموظفين، وعظماء الأجانب، وأعيان البلاد من أدناها إلى أقصاها. وهنالك جرت التشريفات على غير موعد، وتشرف الكل بحضرة الجنب العالى، واستلموا يد هذا الأب البار الكرىم، مهنتىن أنفسم بسلامته، وانصرفوا شاكرىن ما لاقوه من كرم سموه وعظم إىناسه. وقد استمرت التشرىفات إلى مبدأ الساعة التاسعة، وبعدها تناول الجنب العالى طعام العشاء بالسراى العامة.

وكانت المدينة كلها كأنها قطعة من نور؛ للزىنات التى أقامها الإسكندرىون فى أطرافها، والثى أقامها المجلس البلدى من سراى رأى التى إلى آخر شارع رشىد، مختركة المدينة من طرف إلى آخر. وكانت ثرىات الكهرباء فى طول هذا الطرىق على شكل أقواس نصر تجمّع أطرافها أوتار تتعانق أشعتها، وتتعاكس فى مرآة صفاء هذا الجو، حتى كان يخیل لك أن الدرارى قد نزلت من أفلاكها لتساعد الإسكندرىىن على معالم الزىنة احتفالاً بمقدم أمىرهم المحبوب. وعدا ذلك فكنت ترى الدكاكىن والمنازل على طول الطرىق -وخصوصاً فى ساحة المنشىة، وشارعى شرىف ورشىد- قد قامت عىلها معالم الزىنة بأشكال بدىعة تختلف فى مناظرها، وتتفق فى حسن تنسىقها. وكنت ترى بىن تلكم الأنوار الأعلام على اختلاف جنسىاتها ترفرف بىن هذه الأضواء، فتكسىها رواء على رواء.

وكان الناس على جانبى الطرىق كالبنىان المرصوص، تتقدمهم رجال البولىس، وىتخللهم عمال المجلس البلدى حاملىن فى أىدىهم ثرىات الشموع انتظاراً لتشرىف الجنب العالى الذى تفضّل فوعد بزىارة دار البلدىة بناء على التماس المجلس البلدى.

وفي نهاية الساعة التاسعة ركب -حفظه الله- عربة خديوية، وإلى يساره سعادة «محمد سعيد باشا» رئيس النظار (وكان ناظرًا للداخلية)، ومر على زينة العروة الوثقى التي كانت في مبدأ شارع رأس التين. وكان أعضاؤها مجتمعين في سرادق غاية في البهجة والجمال انتظارًا للركاب العالي. فتنازل جنباه الفخيم ووقف لحظة شكر فيها أعضاء الجمعية، ثم سار بين دعاء الأهلين وهتافهم إلى ميدان المنشية، فشارع شريف، فشارع رشيد. وكان كلما مر هتف الناس له بأصوات السرور والحبور، بما كان يتردد في جميع الأرجاء، ويرتفع إلى عالم السماء. ولما وصل -حفظه الله- إلى سراي المجلس البلدي استقبل بما يليق بمقامه الكريم من الإجلال والتعظيم. وبمجرد ما استقر بالصالون الذي أعد لجنباه الفخيم. قام رئيس المجلس وتلا بين يديه الكريمتين خطبة رحب فيها نيابة عن الإسكندريين بمقدم سموه من حجه المبرور، وسعيه المشكور، وهو على ما يرجو الكل له من الصحة والعافية. فشكره الجنب العالي، ثم قام -حفظه الله- إلى البوفيه فأخذ شيئًا منه وبارح المكان بين مظاهر الإجلال والإعظام، وعاد إلى سراي رأس التين العامرة من الطريق الذي حضر منه، وكان احتفال الأهالي به في إياه لا يقل عن احتفائهم به في ذهابه.

وفي صباح يوم (الثلاثاء ٢٥ يناير) قصد الجنب الخديوي محطة الباب الجديد في كوكبة من حرسه، وكانت المحطة غاصة بأعيان الإسكندريين، وكبار الموظفين، وكثير من سراة البلاد، فلثموا يده الشريفة، وركب -حفظه الله- يحف به حضرات النظار، وسار القطار على بركة الله إلى مصر. وكانت زينات المحطات على طول الطريق الحديدي مما لم يسبق لها مثيل خصوصًا في دمنهور، وطنطا، وبركة السبع، وبنها، التي احتشد على أرصفتها عمد وأعيان البحيرة والغربية، والدقهلية، والمنوفية، والشرقية، والقليوبية، يتقدمهم حضرات

المديرين، وكبار المستخدمين. وشرف القطار الخديوي محطة مصر في مبدأ الساعة الثانية بعد الظهر. وكانت المحطة غاصة بأعيان القاهرة، والعدد الجم من أعيان الوجه القبلي، وقناصل الدول ووكلائها، وكبار مستخدمي الحكومة السنية، وفي مقدمتهم العلماء الأعلام، والأمراء الكرام، والذوات الفخام، وأعضاء مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية يتقدمهم دولة البرنس «حسين كامل باشا» (وكان رئيساً لهما). وبالجملة فقد كان هناك كل ذي حيثة كبرى، وكان كل من صاحب السعادة محافظ مصر وحكمدارها يقوم بالنظام العام. ولما وقف القطار نزل الجنب العالي إلى رصيف المحطة التي كانت كالعروس في زيتها، وسلم على الحاضرين واحداً واحداً. ثم سار تحف به رجال حكومته حتى ركب عربته وإلى جانبه سعادة رئيس النظار، بين دوي طلقات المدافع وعزف موسيقات فرق الجيش المصري، وجيش الاحتلال، التي كانت في رحبة المحطة لأداء واجب التعظيم. وقصد -حفظه الله- سراي عابدين بين جموع الخلق الذين لا يحصى عددهم والذين وقفوا صفوفاً يتلو بعضهم بعضاً في عرض الطريق وطوله إلى السراي العامرة، ورجال البوليس أمامهم لحفظ النظام.

وكانت كلما مرت عربة الجنب الخديوي هتف الناس هتاف السرور لمشاهدة مليكهم المحبوب، بما كانت ترتج له أطراف مدينة القاهرة، بحال لم يسبق لها مثيل بالمرة. وكانت الدكاكين والمساكن التي على جانبي الطريق رافعة أعلامها على اختلاف جنسياتها حتى إذا وصلت العربة إلى ميدان الأوبرا كان الناس فيها على بعضهم؛ هذا واقف على الأرض، وذاك واقف في أوتومبيله، وآخر على عربته، والبلوكانات والشبابيك قد ملئت بعلية المتفرجين من

الأجانب والأهلين نساءً ورجالاً، والكل يهتف بأصوات الفرح. ولم يصل الركاب العالي إلى السراي العامة إلا في منتصف الساعة الثانية تماماً.

وفي المساء لبست المدينة حُلة من الأنوار، وبدت زينة لجنة الاحتفال بعيد الجلوس المأنوس في أبهى مظاهرها، كما تجلت الزينات الخصوصية التي أقامها الأهلون والأجانب من جميع أنحاء القاهرة. وبالجملة فقد كانت المدينة في زينة باهرة، وكانت كلها من ثريات الكهرباء على شكل أقواس نصر متتالية من السراي العامة إلى المحطة، وكان اتصال هذه الأقواس بحيث كنت ترى الطريق قد تغطت بخيمة صيغت من قباب من نور.

وقد أقامت لجنة الاحتفال في ميدان عابدين سرادقاً فخيماً جداً كانت تتلأأ أنواره، وتتألق أزهاره، وتتصل أشعة أضوائه إلى منافذ السراي العامة حاملة عواطف الرعية الصادقة إلى هذا الملك المحبوب. وتنازل -حفظه الله- بتشريفه صيوان اللجنة في منتصف الساعة العاشرة مساءً، فاستقبله حضرات أعضائها بكل ما يمكن من مظاهر الإجلال والإعظام، وتلا حضرة رئيسها «عثمان بك مرتضى» المستشار بمحكمة الاستئناف المختلطة بالإسكندرية خطاباً بليغاً بالنيابة عن اللجنة، حمد الله فيه على وصول هذا الملك الكريم بسلامة الله من رحلته المباركة، ثم رفع إلى مقامه السامي عبارات الشكران والامتنان على تنازله بتشريف الاحتفال. فشكره الجنب العالي وأثنى على همة اللجنة التي تمثل هذه الأمة المخلصة بخطاب كله درر وغرر. وعندها قدمت المرطبات لجنابه السامي فتناول منها شيئاً، وأمر -حفظه الله- فأدير على عموم الحاضرين، وعند ذلك قام حضرة الشاعر المصري النابغة «حافظ أفندي إبراهيم» وتلا عن ظهر قلبه في هذا المكان الرهيب قصيدة آية في البلاغة يهنئ فيها مصر بوصول الجنب العالي بسلامة الله. فشكره سموه، ثم كرر شكره

لحضرة رئيس لجنة الاحتفال وأعضائها، وركب -حفظه الله- عربته وسار مخترقاً طريق هذه الزينات الباهرة، وآلاف الناس على جانبيه مكررين آيات الهناء والدعاء، حتى وصل بسلامة الله تعالى إلى سراي القبة العامرة في مبدأ الساعة الثانية عشرة مساءً.

وفي يوم (الخميس ٢٧ يناير) كانت المقابلات الخديوية؛ فكنت ترى السراي العامرة قد ضاقت رحباتها عن جموع المهنيين من الأجناس المختلفة، والآلاف من وفود الأرياف من أسوان إلى الإسكندرية يردون إلى عابدين أفواجاً لتقديم واجبات التهاني إلى الأعتاب الخديوية، والسراي الخديوية تموج بهم بحال لم يسبق لها نظير، وكان الجنب العالي -حفظه الله- يقابل الكل بلطفه وإيناسه. وفي مبدأ الساعة الثانية بعد الظهر تمت التشريفات وانصرف الناس وكلهم ألسنة ثناء ودعاء لحفظ هذه الذات العباسية المأنوسة المحروسة درة في جبين الدهر، وتاجاً على مفرق هذا العصر.

تقريظ

تقريظ صاحب الفضيلة شيخ المشايخ الأعلام
مولانا الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمدك اللهم حمد الشاكرين، ونصلي ونسلم على صفوة خلقك أجمعين، وآله الطيبين، وصحابته الطاهرين. وبعد فإن أسمى ما خطه يراع، وسما به إبداع، ونمقه بنان، وأظهره بيان، من ضروب القول وصنوف الكلام، ما كان متصلاً بحج بيت الله الحرام، وزيارة حضرة المصطفى عليه الصلاة والسلام. وقد اطلعت في هذا الباب على السفر الجليل الموسوم بـ«الرحلة الحجازية لولي النعم الحاج عباس حلمي باشا الثاني خديوي مصر» الذي وضعه حضرة الكاتب الماهر، والمنشئ البليغ، سعادة «محمد ليبب بك البتنوني»، فوجدته من أحسن ما كتب الكاتبون في هذا الموضوع النبيل، والمقصد الجليل، ومن خير ما دون في وصف تلك البقاع الطاهرة والمعاهد المباركة. وإذا كان قد سبق هذا المؤلف كثير من فحول العلماء والمؤرخين في الكلام عليها، والكتابة فيها، فكتبوا وأوسعوا، وأطالوا فأشبعوا، فإن كتبهم لم تتناول جميع الأغراض التي

انفسح لها هذا الكتاب، فطرقها من أحسن الأبواب؛ فقد قصر بعضهم كتابه على جغرافية البلاد، وغيره على تاريخها العمراني، والبعض لم تتجاوز كتابته مواضع العبادة ومناسك الحج. وأنت بمرور نظرك على عنوانات هذا الكتاب ترى أن واضعه -بارك الله فيه- قد بلغ إلى الغاية من كل ما يريد القارئ أن يتعرفه في جزيرة العرب، مما يتعلق بأمر دينه أو أمر دنياه، ببيان سحر الألباب، وأسلوب يعجز الكتاب، فهو وإن جاء متأخرًا عما تقدمه في مثل هذا التصنيف، فقد سبقه في أن جمع إلى حسن الاختيار سبك التأليف. وجملة القول أن هذا السفر جاء برهانًا واضحًا، وحجة ناطقة، بما لمؤلفه الفاضل من سعة الاطلاع وغزارة المادة. هذا وإذ صحبه التوفيق، وإنه لنعم الرفيق، فجرى قلمه بما جرى تسطيرًا لرحلة الداوري الأفخم، والأمير المعظم، ولي النعم، محيي الهمم، عزيز مصر، فليواصل معنا الدعاء إلى الله تعالى أن يديم ذاته السنية، ملحوظة بعين العناية الربانية، وأن يحفظ ملكه، ويخلد أيامه ما دارت الأفلاك، واستنارت الأملاك، آمين.

خادم العلم بالأزهر

سليم البشري

تقريظ

تقريظ صاحب الفضيلة وشيخ الأدباء والكتّاب

الأستاذ الشيخ عبد الكريم سلمان

بسم الله الرحمن الرحيم

ليبك اللهم ليبيك، نحمدك على ما أنعمت وأعطيت، ونشكر على ما تفضلت وأوليت، ونصلي ونسلم على المبعوث لتكميل مكارم الأخلاق، فكانت بعثته عامة لكل الناس في كل الآفاق، سيدنا محمد وآله وصحابه التابعين له العاملين على سنته ما طلع النيران، وتعاقب الجديدان.

وبعد فمن المعلوم للعموم أن تفاضل العلوم في المرتبة والشرف إنما هو بشرف موضوعاتها، وتفاوت غاياتها، فكلما كان موضوع العلم أعلى وغايته أسمى كالتوحيد، كان هو بالنسبة لغيره في المرتبة الأولى، وعلى هذا أيضًا تتفاضل الأعمال الصادرة من خبرة الرجال، فكلما كان العمل أعم، وغايته أهم، وموضوعه أرفع، وثمرته أجمع، ونتيجته أنفع، كان هو بالنسبة لغيره من الأعمال أرقى وأعظم، وأعلى وأشرف، كما هو مشاهد للعيان.

أسعدني الجد ففتحت هذه الرحلة الحجازية التي كتبها الفاضل «محمد بك لبيب البتنوني» وقرأتها كلمة كلمة وتتبع غايتها خطوة خطوة، فإذا موضوعها حج مولانا وموئلنا عباس حلمي باشا الثاني، خديوي مصر الحالي، أدام الله أيامه، وأعلى أعلامه، ومن الواضح الجلي أن هذا المضاف -وهو الحج- هو في ذاته عمل ديني بدني منيف، وركن من أركان الدين الحنيف، فهو في حد ذاته عمل شريف. وإن هذا المضاف إليه -وهو الجنب الخديوي الأعظم- هو ذلك الذات الأكرم، أشرف ذات في الأقطار والأمصار، وليس من يدانيه أو يضاهيه في شرف المحتد والعنصر والأصول، ولا من يشبهه في حسبه ونسبه أو في مركزه وعلو مقامه، فالعمل الذي قام به الجنب العالي في هذه الرحلة المباركة من أشرف الأعمال (خصوصاً أن فضله على ما أوتيته وقتاً ما من أبهة الملك وجلال السلطان)، والعامل وهو جنابه الفخيم هو أشرف الرجال، فموضوع هذه الرسالة من أشرف الموضوعات، ولذلك نحكم بأن تأليفها عمل من أفخر الأعمال، يبقى حجة على أن حج مولانا العباس، خير كله للناس، ببقاء الدهور والأزمان.

ربما ساعد على قبول العمل وتعميم النفع به ما يكون لعامله من المنزلة بين أهل فنه ومعرفتهم بأنه كفؤ للعمل ومخلص فيه، والحمد لله قد استجمع الكاتب لهذه الرسالة هذه المزايا فمنزله بين أفاضل الكتاب منزلة المجيد، وكفاؤته كفاءة القادر المجتهد، وإخلاصه في عمله هذا لا يحتاج إلى برهان.

لا يمتري واحد ولا يختلف اثنان في أن الغاية من هذا السفر الواجب الذي أنشأه مولانا العباس، هي من أشرف الغايات وأكمل المقاصد؛ لأنه أدى به واجباً من واجبات الدين المفروضة على كل مستطيع من المؤمنين، وتحب فيه بالزيارة لسيد المرسلين، وفوق هذا القصد قد ضمن سفره المبارك فوائد

اجتماعيه عامة النفع، فجمعت رحلته الميمونة بين المفروض والمسنون ومصالح العباد، وأهمها أن تقتدي بعمله هذا عامة أمراء المسلمين، وكبار السراة والمثريين، في قصد هذه المنازل المقدسة، وإسداء المبرات، وإرسال الحسنات والخيرات، فتعمر بها هاتيك البلدان.

ولا نذكر للاستدلال على أن للجناب العالي - حفظه الله - مقاصد عاليات غاليات، أكثر مما جاء في إرادته السنية التي أصدرها قبيل سفره إلى رئيس نظاره إذ ذاك فقد جاء فيها ما نصه: «وإننا لنرجو أن يكون توجهنا إلى تلك الأقطار المباركة، ووقوفنا بالذات على أحوال الحجاج المصريين وحاجاتهم باعثاً في المستقبل لراحتهم واطمئنان بالهم». وقد حقق الله رجاء جنابه الفخيم، واتخذت الاحتياطات الكافلة لراحة الحجاج في هذا العام أكثر مما كانت في غيره من الأعوام. وما تغيير خطة السفر وتبديل الطريق إلا إحدى هذه النتائج المباركة التي تعود على الحجاج بالخير والبركات إن شاء الله. وليست هذه وحدها بل قد علمنا أنه عقب عود سموه من السفر السعيد أرسل وفداً من خيرة الرجال لينظروا في حال الطريق من جهة الوجه، فذهبوا ورسوموا واشتغلوا وحكموا وعادوا إلى مصر فعرضوا عملهم على أنظاره السامية، وسيكون من وراء ذلك كله الخير الجزيل، فيكون الحجاج في أسفارهم على أحسن ما يكون من الأمن والاطمئنان.

ربما عددنا تأليف هذه الرسالة من خير نتائج هذه الرحلة المباركة، فإنها جاءت في بابها محكمة الوضع، متقنة الصنع، مفيدة لمن يقصدون الحج بمعرفة مسالكه ومناسكه على المذاهب الأربع، ولمن لم يسافر بمعرفة هذه المواطن وما فيها من عجائب القدرة وما كان لها من شرف في الجاهلية والإسلام، وهذا من أشرف ما يقصده القصاد، ويطلبه الرواد، ويعمله ذوو الفضل والعرفان.

اشتملت هذه الرسالة أولاً وبالذات على وصف تنقلات الركب الخديوي من مصر إلى السويس، فجدة، فمكة المكرمة، فالوجه، فالمدينة المنورة، ومنها إلى حيفا إلى الإسكندرية في العود، وما بين هذه المواطن الكبرى من المنازل الصغرى، فقد وصف الكاتب في كل من هذه الأمكنة وصفاً تفصيلياً ما كان للجناب العالي من الحفاوة بمقدمه المبارك رسمياً وغير رسمي حتى لكأنى بالقارئ لهذه الأوصاف يعد نفسه حاضراً مشاهداً بنفسه هذه الاحتفالات في تلك الاستقبالات فيعظم من قدرها كما عظمها الحاضرون، ويتمنى أن لو كان له فيها خدمة شخصية حتى يشارك أهلها في أداء الواجب لهذه الذات الجليلة المستحقة لكل إعظام واحترام، ولكنه يعود فيكتفي بما شاهد في الرسالة ويلتزم التعظيم القلبي الوجداني والدعاء بظهر الغيب بأن يحرس الله هذا الجناب للبر والمعونة والفضل والإحسان.

وصف هذا الكاتب البليغ هذه المشاهد وصفاً حقيقياً، ولم تفته دقيقة في تبيان الزينات والاستقبالات والاستعداد للملاقة على أكمل الهيئات، وما كان للخاصة من الحفاوة اللائقة بمقامه الكريم، وما كان للعامة من الاجتماعات حول ركبه المهيب، وضجيجهم بصالح الدعوات، وقد تنقل الكاتب في ذلك من أسلوب إلى أسلوب ومن تعبير إلى تعبير، ولا غرو فالمجال فسيح، والقائل فصيح، وما هي إلا كتابة ما يمليه الواقع وتصوره المشاهدة، فما على الكاتب إلا نقل ما شاهدت العينان إلى العيان. وتفاوت الكتاب في هذا الباب إنما هو في القدرة على التصوير، وما أقدر كاتبنا على تصوير هذه المناظر حتى جلاها للقارئ مجسمة المعاني تكاد تلمسها اليدان.

وكما أبدع الكاتب في وصف هذه الهيئات الدنيوية، أغرب في وصف ما كان للجناب العالي حين تأديته للمناسك المفروضة من عظيم التواضع وكبير

الخشوع، حتى أن جنبابه لم يبال بالمظاهر الدنيوية وأدى مناسكه كلها من إحرام وطواف واستلام وسعي ووقوف بعرفة ورمي للجمرات كما يؤديها من عاش عمره في شظف العيش وخشونة البدن، ولم يحفل بتعب الجسم؛ فأدى السعي ماشياً على القدمين مع صحة أدائه راكباً حتى لا تفوته مثوبة المشقة ولا أجر التعب، وكذلك أدى المسنونات على وجهها الأكمل كما يؤديها عامة الناس، ثم بعد هذا نفع الفقراء والمساكين من أهل هذين الحرمين الشريفين بما نفحهم به من الصدقات، وأعان الحجاج المقلين بتسفيرهم على نفقته الخصوصية، فجزاه الله عن دينه وفقراء عبيده أفضل ما يجزى به إنسان.

ولقد اشتملت هذه الرسالة تبعاً على فوائد تاريخية لأشهر البلدان ولأشهر الرجال ولأشهر الأعمال، ففي كل بلد من البلاد الكبيرة كجدة ومكة والمدينة تكلم عن أوصافها أوصافاً جغرافية من جهة تجارتها وعمرانها وعلومها وسكانها ومقابرها ومزاراتها وآثارها، وبين على الخصوص تاريخ مكة القديم والحديث ومن له اليد الطولى في عماراتها، ثم تاريخ الكعبة ومن بناها، والأزمان التي بنيت فيها، وكسوتها ومن كساها داخلياً وخارجاً، وعين زبيدة ومنافعها، وما للأسرة الحديوية من منافع مادية وأدبية في تلك البلاد، وحروب الوهابيين وإنقاذ المدينة ومكة منهم. وأحسن شيء يستلفت النظر ما تكلم به عن قبر أمنا حواء في جدة؛ فإنه لا يبقى معه للشك مجال في أن هذا القبر هو على اسمها فقط كما يوجد كثير من الأضرحة في بلادنا باسم البعض من الصالحين وليسوا فيها على التحقيق. وألطف من هذا أنه نبه على ما ينتقد في مكة من جهة الأمور الصحية (خصوصاً في عين زبيدة وبئر زمزم وجهة المسعى)، وغير الصحية بأدق عبارة، وطلب الإصلاح بإشارات مؤدبة للغاية، وهذا هو اللائق

برسالة ألفت لغرض شريف هو بيان رحلة أكبر أمير إسلامي؛ فإنه لا يليق بها إلا الكمال في التأدب والتلطف في البيان.

ثم إنه وصف الطريقين القديم والحديث بين الحرمين وبين مصر فأجاد وأفاد، وذكر تاريخ الأسفار ومقدار ما كانوا يقاسونه من وعورة الطريق وطول الزمان، ثم وصف الحرمين الشريفين وصفًا مدققًا من جهة الحدود والسعة والتاريخ وما تجدد في كل منهما من العمارات، كل ذلك بعبارة في نفسها واضحة ومؤيدة بالنقول والنصوص من الكتب المعتمدة مما لم يسبق إليه هذا الكاتب المجيد، وما على من وصلت إليه هذه الرحلة إلا أن تتبعها واستيعابها يتضح له صدق ما قلناه ويشني على كاتبها بكل لسان.

لقد حمدناه عندما بين سنة الطواف وأصلها، وعندما أوضح احترام بعض الأحجار لناس من قديم الزمان حين الكلام على استلام الحجر الأسود، وعندما تكلم عن احترام الحمام في كل صوب وناحية قديمًا وحديثًا حين الكلام على حمام الحمى؛ وهو الحمام الذي يأوي إلى بيت الله الحرام فيكون آمنًا، وعندما تكلم عن لباس الإحرام وأصل استعماله قديمًا بين أمم كثيرة من البدو والحضر، إلى غير ذلك من الفوائد التاريخية التي تناسب كتابًا مثل هذا الكتاب. ولقد أعجبني كثيرًا بيان الحدود والمسافات وتعداد المحاط من مدينة إلى أخرى كما بين مكة والمدينة أو بين المدينة وحيفا مما يحتاج إليه في مثل هذه الأسفار الطوال، كل هذا أقوله بعبارة مجملة تنوه عما تضمنته هذه الرسالة من نضرة العلم ونور العرفان.

ومن المباحث التي تعجب كل قارئ ما استظهره المؤلف في أصل وضع الروضة الشريفة والحجرة النبوية المنيعة من أنها هي بذاتها ما كان دارًا له في حياته عليه الصلاة والسلام، وأن ما استدل به على ذلك من الأحاديث الواردة

فيه منتج لما استظهره فيما أعلم، وكذلك كلامه على الكورنتينة وقوم صالح وما حققه المحققون في نبئهم وتاريخهم وكيفية مجيئهم إلى وادي مدائن صالح، فكله مقبول ومعقول، يؤيده ما أورده من النصوص والنقول، فلا نطيل القول ولا نؤيده بغير ما أيده به من البرهان.

ولقد اطلعت على الخرائط الكروكية والرسوم الفوتوغرافية التي وضعها للحرمين الشريفين (خصوصًا ما كان عليه الحرم المدني في عابره وحاضره) ليحلي بها جيد هذه الرسالة من مناظر المواقع ومنظر الحفلات الرسمية في كثير من الاستقبالات، وكلها رسوم جلية واضحة تمثل تلك المشاهد للعيان.

ظهر من هذا المختصر الذي ذكرناه أن هذه الرسالة قد شرف موضوعها حج الجنب العالي الخديوي الشرف الذي لا يضاهيه شرف، وشرفت غايتها كما سلف، وارتفعت منزلة كاتبها عند كل من ذاق وعرف، فلم يبق إلا أن نصفها حقًا بأنها أشرف رسالة ألفت في هذا العهد لهذا القصد، فليدم الله سبب تأليفها (الجنب العالي) فينا نورًا ساطعًا، وليبق مؤلفها في ظله الظليل عاملاً نافعًا، ولتكن هي لقرائها دواء ناجعًا، ولينتفع بها طلاب الفضل والفضيلة في كل زمان وفي كل مكان.

كاتبه

«عبد الكريم سلمان»

obeyikan.com

فهرس

٣	إلى سمو ولي النعم الأفخم
٥	كتاب صاحب العطفة رئيس مجلس النظر إلى المؤلف
٧	مقدمة الكتاب
١١	تمهيد
١١	الأمة العربية
١٢	العماليق
١٤	دولة عاد الأولى
١٦	المعينون
١٧	طسم وجديس
١٨	ثمود
١٨	القحطانية
٢٠	دولة سبأ الثانية أو حمير
٢٥	دولة كندة
٢٦	دولة تنوخ بالعراق
٢٧	دولة اللخميين بالعراق
٣٣	الغسانية
٣٥	العدنانية

- ٤٥..... طرابلس
- ٤٦..... بلاد الجزائر
- ٤٧..... تونس
- ٤٩..... مراکش
- ٥٠..... صفة جزيرة العرب
- ٥٣..... اليمن
- ٥٩..... عمان
- ٦٣..... جزائر البحرين
- ٦٤..... نجد
- ٦٥..... شمر
- ٦٦..... العارض
- ٦٧..... أخلاق العرب
- ٧٦..... سفر الجنب العالی من مصر إلى جدة
- ٨١..... مدينة جدة
- ٨٩..... جبانة جدة وقبر أُمنا حَوَّاء
- ٩٤..... وصول الجنب العالی إلى جدة وسفره منها إلى بحرة
- ١٠١..... دخول الجنب العالی إلى مكة وأيامه بها قبل عرفة
- ١١٠..... الطريق القديم والحديث من مصر إلى الحرمين
- ١٢٣..... مكة المكرمة
- ١٦٧..... تاريخ مكة

١٧٢	حكم الأشراف بمكة.....
١٩٦	الوهابية ومحمد علي في الحجاز
٢٠٦	الحرم المكي
٢١٦	الكعبة المعظمة
٢٢٠	شكل الكعبة
٢٢٨	الكعبة قبل الإسلام وبعده
٢٤٩	الطواف
٢٥٧	فشل الأمراء والملوك في تحويل الناس عن الكعبة
٢٦٣	هدايا البيت الحرام
٢٦٤	كسوة الكعبة
٢٧٢	المحمل
٢٧٩	حمام الحمى
٢٨٥	الحج
٣٠١	المسجد الأقصى
٣١٥	كيف تحج أيها المسلم؟
٣٢١	محرمات الإحرام
٣٢٤	الإحرام
٣٢٦	لباس الإحرام
٣٣٢	خروج الحجاج إلى عرفة وإفاضته منها
٣٣٦	الوقوف بعرفة

الرجم	٣٤١
القربان	٣٤٦
الآثار في منى	٣٥٠
خروج الجنب العالي إلى عرفة وإفاضته منها	٣٥٢
أيام الجنب الخديوي بمنى والاحتفال بتلاوة فرمان الشريف بها	٣٥٥
مواكب الشريف	٣٦٤
سفر الحجيج من مكة	٣٦٦
الطريق إلى المدينة	٣٦٩
الطريق الفرعي	٣٧١
طريق الغاير	٣٧٢
الطريق الشرقي	٣٧٣
نظام القوافل	٣٧٥
سفر الجنب العالي من مكة إلى الوجه	٣٨٥
الوجه والسفر منه إلى المدينة المنورة	٣٨٨
الجنب العالي الخديوي بالمدينة المنورة	٤٠٧
الحرم المدني	٤١٢
أصل الحرم المدني وعمارته والزيادة فيه	٤١٩
بحث فيما كان عليه بيته صلى الله عليه وسلم بالمدينة	٤٣٠
المدينة المنورة	٤٣٦
محمد رسول الله	٤٥٨

- أبو بكر ٤٦٥
- عُمر ٤٧٠
- عثمان بن عفان ٤٨٣
- علي ٤٩٠
- الأنصار ٥٠٠
- سفر الحجيج من المدينة إلى مصر ٥١٠
- المحاجر والكورنتينات ٥١٤
- الطريق إلى الحرمين في غابره وحاضره ٥٢٠
- سفر الجنب العالي من المدينة إلى مصر ٥٢٣
- تقريظ الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر ٥٤٣
- تقريظ صاحب الفضيلة الشيخ عبد الكريم سلمان ٥٤٥